جامعة القاهرة
كلية دار العلوم
قسم التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية

« الدور الاجتماعى لعلماء مصر والشام في القرن التاسع الهجرى »

« دراسة تاريخية مقارنة »

رسالة ماجستير

إشراف

الأستاذ الدكتور /حسن على حسن

إعداد

محمد أمين إبراهيم

١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م

جامعة القاهرة

كلية دار العلوم

قسم التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية

« الدور الاجتماعى لعلماء مصر والشام
فى القرن التاسع الهجرى »

« دراسة تاريخية مقارنة »

رسالة ماجستير

إشراف

الأستاذ الدكتور /حسن على حسن

إعداد

محمد أمين إبراهيم

١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٦٣﴾

[الأنعام : ١٦٢-١٦٣]

﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٥٨﴾

[يونس : ٥٨]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ٩٦﴾

[مريم : ٩٦]

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إِنَّمَا الأَعْمَالُ بالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِىءٍ مَا نَوى ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ، فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ، وَمَن كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ » .

« رواه البخاري ، ومسلم »

شكر

الحمد والشكر لله دائمًا وفى كل حال على نعمه الظاهرة والباطنة كما ينبغى لجلال وجهه وعظيم سلطانه، ثم الشكر والثناء لأستاذى الفاضل الدكتور حسن على حسن على ما أحاطانى به من حسن الرعاية وخالص النصح، فقد فتح لى صدره الواسع، وأفاضنى رحمة الأبوة وغزارة المعرفة من خلال توجيهاته القيمة الرشيدة ونصائحه الخالصة المُشجعة، فجزاه الله عنى خير ما جُزى عالِم عن مُتعلِم.

كما يتقدم الباحث بالشكر الجزيل للأساتذة أعضاء لجنة المناقشة الأستاذ الدكتور طاهر راغب، والأستاذ الدكتور عبد المجيد بدوى لقبولهم مناقشة الباحث فى موضوع بحثه.

كما أتقدم بالشكر الجزيل للأستاذ حسام سعيد الذى أخرج هذا العمل فى هذه الصورة الطيبة، فجزاه الله خير الجزاء.

المقدمة

الحمد لله وحده لا شريك له ، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ..، أما بعد ،

فموضوع هذه الدراسة هو « الدور الاجتماعى لعلماء مصر والشام فى القرن التاسع الهجرى » « دراسة تاريخية مقارنة » .

ولقد قسم الباحث هذه الدراسة إلى مقدمة وستة فصول ، كما يلى :

المقدمة :

وقد تناول الباحث فيها تحديد المراد بمصطلح العلماء فى الدراسة ، وكذا المراد بدورهم الاجتماعى فى المجتمع المصرى والشامى فترة الدراسة .

الفصل الأول : « العلماء والحياة السياسية بمصر والشام » .

وقد تناول الباحث فيه دور العلماء إزاء الحياة السياسة الداخلية بمصر والشام من خلال محورين ، الأول بعنوان العلماء وتداول السلطة فى النظام السياسى المملوكى ، وثانيهما بعنوان أنماط العلاقة بين العلماء والسلطة المملوكية .

كما تناول الباحث فى هذا الفصل العلماء والحياة السياسية الخارجية من خلال ثلاثة محاور هى ، العلماء والحث على الجهاد بالقلم ، والعلماء والجهاد العسكرى ، والعلماء والسفارات .

الفصل الثانى : « العلماء والإدارة بمصر والشام » .

وقد تناول الباحث فى هذا الفصل لتلك الولايات التى تولاها العلماء بالجهاز الإدارى بالدولة المملوكية ، ولقد قسمها الباحث إلى ولايات دينية كالقضاء والحسبة ووكالة بيت المال ... إلخ ، وولايات ديوانية ككتابة السر ، ونظر الجيش .

الفصل الثالث : « العلماء والحياة الاقتصادية بمصر والشام » .

وقد تناول الباحث فى هذا الفصل دور العلماء فى الحياة الاقتصادية من خلال محاور

ثلاث هى ، موقف العلماء من موارد ومصارف بيت المال ، وجهود العلماء فى تنظيم المعاملات المالية والاقتصادية للمصريين والشاميين ، وجهود العلماء فى تنمية الحياة الاقتصادية وتطويرها .

الفصل الرابع : « العلماء والحياة الاجتماعية بمصر والشام » .

ولقد تناول الباحث فيه دور العلماء فى الحياة الاجتماعية من خلال خمسة محاور ، المستوى الاجتماعى للعلماء ، تطهير المجتمع من الأمراض الاجتماعية والرذائل الأخلاقية ، العلماء والفقراء ، العلماء وتزويج الأيامى ، العلماء والعمران .

الفصل الخامس : « العلماء والحياة الدينية بمصر والشام » .

ولقد تناول الباحث فيه دور العلماء فى الحياة الدينية من خلال خمسة محاور ، العلماء ومحاربة الطوائف المنحرفة ، العلماء ومحاربة البدع ، العلماء والمجالس الدينية ووعظ السلطة المملوكية ، العلماء والمحن والابتلاء ، العلماء وأهل الذمة .

الفصل السادس : « العلماء والحياة الفكرية بمصر والشام » .

ولقد تناول الباحث فيه دور العلماء فى الحياة الفكرية من خلال خمسة محاور ، العلماء والتأليف العلمى ، العلماء والتدريس بالمؤسسات العلمية ، العلماء والاجتهاد ومحاربة التعصب والجمود المذهبى ، الخلافات الفكرية بين علماء الأشاعرة والحنابلة ، العلماء والمكتبات .

* أهداف البحث :

إنَّ الإسلام ليس فيه تلك المقولة المنسوبة لسيدنا عيسى ﷺ « أوفوا ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله » ، فتلك المقولة مرفوضة ، فليس هناك من ازدواجية بين الإسلام والسياسة ، وبين الدين والدولة ، ولقد أثيرت هذه الإشكالية « إشكالية العلاقة بين الدين والدولة » فى عالمنا الإسلامى المعاصر من قبل من تأثروا بالأفكار الغربية ، ونحن فى الواقع – فى غنى عنها – لما تؤديه من استنزاف الكثير من الجهد ، فذهبوا إلى ضرورة الفصل بين الدين والسياسة ، وإلى ضرورة علمنة "Secularization" المجتمع ، مدعمين وجهة نظرهم بأن الكثير من الممارسات الاستبدادية فى التاريخ كانت متدثرة بشعار الدين ، ولم تتمكن الشعوب من محاسبة تلك

الأنظمة ، طالما كانت تفعل ما تفعله باسم الدين وباسم الله ، كما أنه بالإمكان إقامة دولة مدنية مستقرة بكل مرافقها ومؤسساتها دون الحاجة إلى إقحام الدين فى السياسة[١] ، ولقد غفل هؤلاء إمّا عن جهل بيّن أو سوء نيّة أن تلك الممارسات الاستبدادية المتدثرة بشعار الدين كانت فى تاريخ الغرب بشهادة مؤرخى الغرب أنفسهم عن تلك الفترة المسماة لديهم العصور الوسطى[٢] التى كان فيها الدين لدى هؤلاء مزيجًا من عناصر عديدة هى الوثنية والتراث القديم والمسيحية ، وكان حملة هذا الدين من الرهبان أعوان للسلطة الحاكمة التى كانت تستنزف دماء رعاياها[٣] .

ولقد جاءت هذه الدراسة ردًا مناسبًا على هؤلاء الذين استشرى خبثهم فى واقعنا الإسلامى المعاصر ، ونادوا بشعار فصل الدين عن الدولة ، حيث تثبت هذه الدراسة التاريخية أنّ الإسلام كان دائمًا وأبدًا دين ودولة ، عقيدة وعمل ، سياسة وحضارة ، وأنّ علماء الإسلام المجتهدين الواعين لم يعرفوا فصلاً للدين عن السياسة أو اعتزال الحياة السياسية والاكتفاء بالتأليف والتعليم ، بل أيقنوا أن الأمرين وجهان لعملة واحدة ، لا يصح أحدهما دون الآخر ، وإن وجدت طائفة قليلة من العلماء اعتزلوا الحياة السياسية ، فهذا سلوك شاذ لا يُقاس عليه ولا يستنبط منه حكم عام ، فلقد خاض علماء مصر والشام غمار السياسة ، وداخلوا الحكام فاعلين ومتفاعلين يبدون آراءهم فى كل صغيرة وكبيرة تتعلق بشئون البلاد والعباد ، وكان شعارهم الذين حملوه فى تعاملهم مع السلطة الحاكمة والرعية ، أو فى توليهم الولايات هو « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » .

---

(١) زهراء محمد « الأمة وعلاقاتها بأولى الأمر دراسة مقارنة بين الفقه السياسى الإسلامى والقوانين الوضعية » ص ٢، ماجستير ، دار العلوم ، القاهرة ، ٢٠٠٠م .

(٢) يسمى مؤرخو الغرب المرحلة الزمنية الممتدة من سقوط الإمبراطورية الرومانية القديمة أواخر القرن الخامس وتنتهى بحركة الإصلاح الدينى أواخر القرن الخامس عشر للميلاد العصور الوسطى ، انظر : ج.ج كولستون « عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة » ص ٣٥، ترجمة د. جوزيف نسيم ، دار المعارف ، ١٩٦٧م ، هـ . ا . ل . فشر « تاريخ أوربا « العصور الوسطى » ص ٥، ترجمة د. السيد الباز العرينى ، د. محمد مصطفى زيادة ، دار المعارف ، ١٩٦٦م .

(٣) ج.ج كولستون « عالم العصور الوسطى » ص ٢٣، ٢٧، ١١٧، ١٢٢، ١٨١، ٣٢٠.

التعريف بمصادر البحث

أولًا : المخطوطات :

* الحوليات التاريخية :

من أبرز الحوليات التاريخية التى استعان بها الباحث فى دراسته ، والتى اهتمت بأحوال بلاد الشام ـ بشكل خاص ـ مخطوطة « إظهار العَصْر لإسْرَار أهل العَصْر » للبقاعى « إبراهيم ابن عمر ت ٨٨٥هـ » ـ فقيه ومؤرخ دمشق فى القرن التاسع ـ ، وهذه المخطوطة تقع فى ما يقارب (٧٧٢ صفحة)، وهى ذيل على « إنباء الغمر » لابن حجر العسقلانى « ت ٨٥٢هـ » ، ولكن الموجود من هذه المخطوطة يبدأ بعام ٨٥٥هـ وليس عام ٨٥٠هـ وهو العام الذى انتهى فيه ابن حجر فى كتابه ـ السابق ذكره ـ ، ولعل هناك سقك بالمخطوطة ، وتنتهى أحداث المخطوطة بعام ٨٧٠هـ ، وتوجد المخطوطة بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية برقم (٨٩٢ تاريخ) .

ومن تلك الحوليات التاريخية التى استعان الباحث بها ـ أيضًا ـ ، واستفاد منها مخطوطة « حوادث الزمان » لمجهول ، وهو أحد علماء مصر ـ الذين عاشوا فى الربع الأخير من القرن التاسع الهجرى ـ ، كما ذكر فى ثنايا كتابه ، حيث ذكر أنه كان يدرس تفسير القرآن الكريم بجامع الظاهر[(١)] ، كما كان من كبار العلماء المقربين للسلطة المملوكية ، حيث يذكر فى تاريخه فى أحداث عام ٨٧٥هـ عندما عقد السلطان قايتباى مجلسًا للعلماء بشأن رأى الإسلام فى مؤلفات ابن الفارض « أبو القاسم عمر ت ٦٣٢هـ » وآراءه ، فيذكر « وعقد المجلس يوم السبت وخشيتُ أن يقع فى المسئلة كلام فيُحتاج إلى حضورى »[(٢)] ، وتوجد هذه المخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (١٤٦١٨) .

ومن تلك الحوليات التاريخية التى استعان بها الباحث « عقد الجمان » لبدر الدين العينى

---

(١) مجهول « حوادث الزمان » ص ٦٩.

(٢) مجهول « حوادث الزمان » ص ٥٦.

« ت ٨٥٥هـ » ـ فقيه ومؤرخ مصرى بارز ـ ، ولقد اطلع الباحث من هذه الموسوعة التاريخية الضخمة « عقد الجمان » ـ والتى طبع أجزاء منها ـ الفترة التاريخية الممتدة من عام ٨٠٦هـ حتى عام ٨١٧هـ ، ويوجد هذا الجزء بدار الكتب المصرية برقم (٣٥٠٩٥) .

* كتب التراجم :

من ابرز تلك الكتب التى استعان بها الباحث كتاب « عنوان الزمان بتراجم الشيوخ والأقران »[*] لبرهان الدين البقاعى ، وهذا الكتاب من كتب « معاجم الشيوخ » ، وهى نوع من كتب التراجم يترجم فيها مصنفها شيوخ المصنف الذين أخذ عنهم فنون العلم ، وبخاصة علم الحديث ، وغالبًا ما ترتب اسماؤهم على حروف المعجم[١] ، وهذا ما ينطبق على كتاب البقاعى « عنوان الزمان » الذى يحوى معلومات دقيقة عن علماء القرن التاسع من مُعاصر مُطلع على حال المترجم بشكل مباشر ، والمخطوطة توجد بدار الكتب المصرية برقم (١٧٩٥١) .

ومن أبرز تلك الكتب ـ أيضًا ـ كتابى ابن طولون الدمشقى « ت ٩٥٣هـ » ـ عالم ومؤرخ دمشق الشهير ـ ، « ذخائر القصر فى تراجم نبلاء العصر » ، و « الغرف العلية فى تراجم متأخرى الحنفية » ، ولقد حوى الكتابان تراجم دقيقة وهامة لعلماء مصر والشام فى القرن التاسع ، والكتابان مخطوطان بدار الكتب المصرية الأول برقم (٢٥٣٦٤) ، والثانى (١٣٣٢٤) .

ومن تلك الكتب ـ أيضًا ـ كتاب « در الحبب فى أعيان حلب » لابن الحنبلى « محمد بن إبراهيم ت ٩٧١هـ » ـ مؤرخ حلب الشهير ـ ، وهو يحوى تراجم هامة لعلماء حلب فى القرن التاسع ، والمخطوط يوجد بدار الكتب المصرية برقم (١٨٤١٩) .

ومن تلك الكتب ـ أيضًا ـ كتاب « الروض الباسم فى حوادث العمر والتراجم » لابن

(*) طبع جزأين فقط من هذا الكتاب ، ولكن مازال باقى الكتاب مخطوط .

(١) د. محمد على قاسم « فن التراجم عند المحدثين » ص ٣٦٦، مجلة مركز بحوث السنة والسيرة ، العدد (٨) ، جامعة قطر ، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م .

شاهين « عبد الباسط بن خليل ت ٩٢٠هـ » ، وهو يحوى تراجم هامة لعلماء مصر والشام فى القرن التاسع ، ويوجد بدار الكتب المصرية برقم (٢٤٠٣) .

ومن تلك الكتب ـ أيضًا ـ كتاب « المعجم المفنن بالمعجم المعنون » لابن شاهين « عبد الباسط بن خليل ت ٩٢٠هـ » ، وهو يحوى تراجم هامة عن علماء مصر فى القرن التاسع ، ويوجد بمكتبة الإسكندرية برقم (٨٠٠ب) .

ومن تلك الكتب ـ أيضًا ـ « بهجة الناظرين فى تراجم الشافعية المتأخرين » للغزى « نجم الدين أبو المكارم ت ١٠٦١هـ » ، وهو يحوى تراجم هامة عن علماء القرن التاسع ، ويوجد المخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٣٦٠٠٣) .

* المؤلفات الفقهية :

من أبرز المؤلفات الفقهية التى استعان بها فى دراسته « نزهة النفوس فى التعامل بالفلوس » لابن الهائم المقدسى « أحمد بن محمد ت ٨١٥هـ » ، وهو عالم مقدسى ، ولقد بيّن هذا الكتاب دور العلماء وجهودهم فى تنظيم المعاملات المالية والاقتصادية للمصريين والشاميين ، وبشكل خاص حكم العقود المالية عند تغيير النقود ، ويوجد المخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٢٩٥٥٢) .

ومن تلك الكتب أيضًا كتاب « مجموع شرح فرايض المنهاج » لشمس الدين الكفرسوى « ت ٩٣٣هـ » ، ولقد بيّن هذا الكتاب دور العلماء فى تقنين العلاقة المالية بين المقطع « حائز الإقطاع » والمستأجر « الفلاح » ، ويوجد المخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٤٨٤ مجاميع) .

ثانيًا : المصادر :

* الحوليات التاريخية :

من أهم الحوليات التاريخية التى استعان بها الباحث فى تاريخ مصر ، ودور العلماء فى المجتمع المصرى ـ فى النصف الأول من القرن التاسع الهجرى ـ كتاب « السلوك فى معرفة دول الملوك » للمقريزى « ت ٨٤٥هـ » ، وكتاب « إنباء الغمر بأبناء العمر » لابن حجر

العسقلانى « ت ٨٥٢هـ » ، أمّا أهم الحوليات التاريخية فى تاريخ مصر ـ فى النصف الثانى من القرن التاسع ـ ، « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » لابن تغرى بردى « ت ٨٧٤هـ » ، و « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » لابن إياس « ت ٩٣٠هـ » .

أمّا أهم الحوليات التاريخية التى استعان بها الباحث فى تاريخ بلاد الشام ، ودور العلماء فى المجتمع الشاميّ فى القرن التاسع الهجرى ، « مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان » لابن طولون الدمشقى « ت ٩٥٣هـ » ، و « تاريخ البصروى » للبصروى « علاء الدين الدمشقى ت ٩٠٥هـ » ، و « حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران » لابن الحمصى « شهاب الدين أحمد ت ٩٣٤هـ » ، وهذه الكتب الثلاث فى تاريخ دمشق ، و « كنوز الذهب فى تاريخ حلب » لسبط ابن العجمى « ت ٨٨٤هـ » ، و « الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل » لمجير الدين الحنبلى « ت٩٢٨هـ » .

* كتب التراجم والطبقات :

من أهم كتب التراجم والطبقات التى استعان بها الباحث ، وأمدته بمعلومات هامة عن دور العلماء فى المجتمع المصرى والشاميّ بجوانبه المختلفة « السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والدينية ، والفكرية » ، كتاب « الضوء اللامع فى أهل القرن التاسع » للسخاوى « شمس الدين محمد ت ٩٠٢هـ » ، وكتاب « المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى » لابن تغرى بردى « ت ٨٧٤هـ » ، و « درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة » و « المقفى الكبير » للمقريزى « ت ٨٤٥هـ » ، و « المقصد الأرشد فى ذكر أصحاب أحمد » لابن مفلح « برهان الدين إبراهيم ت ٨٨٤هـ » ، و « الجوهر المنضد فى طبقات متأخرى أصحاب أحمد » لابن المبرد « ت ٩٠٩هـ » ، و « تاج التراجم فى طبقات الحنفية » لابن قطلوبغا « ت٨٧٩هـ » ، و « طبقات الشافعية » لابن قاضى شهبة « ت٨٥٢هـ » ، و « السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة » لابن مكى « ت ١٢٩٥هـ » ، و « الطبقات السنية فى تراجم الحنفية » لتقى الدين التميمى « ت ١٠١٠هـ » .

* الموسوعات التاريخية :

من أشهر الموسوعات التاريخية التى استعان بها الباحث « صبح الأعشى فى صناعة الإنشا » للقلقشندى « ت ٨٢١هـ » ، و « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » لشهاب الدين العمرى « ت ٧٤٩هـ » ، و « نهاية الأرب فى فنون الأدب » للنويرى « ت ٧٣٣هـ » .

* كتب النظم والإدارة :

ومن أشهر كتب النظم والإدارة التى استعان بها الباحث « التعريف بالمصطلح الشريف » لشهاب الدين العمرى « ت ٧٤٩هـ » ، و « حدائق الياسمين فى ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين » لابن كنان « ت ١١٥٣هـ » ، و « زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك » لابن شاهين « غرس الدين خليل ت ٨٧٣هـ » ، و « تثقيف التعريف بالمصطلح الشريف » لابن ناظر الجيش « تقى الدين عبد الرحمن » .

التمهيد

أولًا : تحديد المراد بالعلماء :

إنّ الإسلام رفع شأن العلم والعلماء ، وحثّ على طلب العلم ، وجعل العلماء فى الأرض كمثل النجوم يُهدَى بها فى ظلمات البرِّ والبحر ، ولقد أكدّ ذلك المعنى آى الذِّكر الحكيم ، والأحاديث النبويّة المُشرفة ، ومن ذلك قول الله تعالى : ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر : ٩] ، وقوله تعالى : ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة : ١١] ، وقوله تعالى : ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [البقرة : ١١٤] ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر : ٢٨] ، وقوله ﷺ : « مَنْ يُرِد الله بِه خيْرًا يُفقِّهه فى الدِّين »(*) ، وقوله ﷺ : « إنَّ العلماء ورثة الأنبياء(**) »(١) .

ولذلك أقبل المسلمون على العلم ينهلون من كافة ينابيعه المختلفة ما بين فقه ، وحديث ، وتفسير ، وتاريخ ، ولغة ، وغير ذلك ، ولكن رغم إحاطة هذا المُتعلِم أو ذاك بجميع معارف عصره المتنوعة إلا أنَّ الواحد منهم كان يفضل علمًا معينًا ، فنجد مُتعلِم غلب عليه الأدب فعُرِف بالأديب ، وآخر غلب عليه الطب فعُرف بالطبيب ، أمّا المُتعلِم الذى تخصص فى

(*) روى ذلك الحديث الترمذى « ت ٢٩٧هـ » فى « السنن » ، وقال « حسن صحيح » ، انظر : الترمذى « محمد بن عيسى ت ٢٩٧هـ » « سنن الترمذى » ح ٥ ص ٢٨، تحقيق إبراهيم عطوة ، مكتبة البابى الحلبى ، ط ٢ (١٣٩٥هـ/١٩٧٥م) .

(**) هذا جزء من حديث ، رواه الترمذى ، وصححه ابن حبان « ت ٣٥٤هـ » ، والألبانى ، انظر : الترمذى « سنن الترمذى » ح ٥ ص ٤٨، ابن بلبان « علاء الدين على ت ٧٣٩هـ » « الإحسان فى تقريب صحيح ابن حبان » ح ١ ص ٢٨٩، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ١ (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م) ، ومحمد ناصر الدين الألبانى « صحيح الجامع الصغير وزيادته » ح ٢ ص ١٠٧٩، المكتب الإسلامى ، بيروت ، ط ٢ (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م) .

(١) ابن حجر العسقلانى « شهاب الدين أحمد ت ٨٥٢هـ » « ضياء الأنوار فى فضل العلم والعلماء الأخيار » ص ١٣، ١٤، مخطوطة بمعهد المخطوطات برقم (١١٦ سياسة واجتماع ، العلموى « عبد الباسط موسى ت ٩٨١هـ » « المعيد فى أدب المفيد والمستفيد » ص ٤، ٥.

دراسة العلوم الدينية من « فقه ، وتفسير ، وحديث ... إلخ » ، فقد أُطلِق عليه لقب عالم أو فقيه(*)(۱) .

ولقد حدد الإسلام شرطًا رئيسيًا للعالِم أو الفقيه حتى يستأهل هذا اللقب ، وهو الالتزام الروحى والوجدانى بما يدعو إليه هذا العلم ، من حيث ضرورة العمل به وترجمته على النحو الذى يجعله مثمرًا ومؤثرًا فى المجتمع الإسلامى كما أراد الشارع عزّ وجلّ(۲) .

أى أن العالم(**) المقصود فى هذه الدراسة هو من اتصف بأمرين متلازمين :

الأمر الأول : أن يكون متخصصًا فى دراسة الشريعة الإسلامية ، وحائزًا على مستوى

(*) المعنى اللغوى للفقيه والعالم واحد ، انظر : ابن منظور « لسان العرب » ح ١٢ ص ٤١٦، ح ١٣ ص ٥٢٢، دار صادر ، بيروت ، ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م .

(١) محمود رزق سليم « عصر سلاطين المماليك » ح ٣ ص ٣١، مكتبة الآداب ، القاهرة ١٩٦٥م ، د. طه ثلجى « مملكة صفد فى عهد المماليك » ص ٢٦٧، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ١٩٨٢م ، محمد على « الدور السياسى والاجتماعى للعلماء فى الأندلس عهد المرابطين والموحدين » ص ٦، ماجستير ، دار العلوم ، ١٩٩٩م ، عزت قاسم « فقهاء المالكية وأثرهم فى المجتمع الأندلسى » ص ١٧٢، دكتوراة آداب عين شمس ، ١٩٩٣م ، د. يسرى زيدان « الفقهاء والعامة فى مصر والشام فى القرنين السادس والسابع الهجريين » ص ٢١، دكتوراة ، دار علوم ، القاهرة ، ١٩٩٦م ، أحمد ذكى بن حاج « العلماء فى الدولة الإسلامية بالأندلس وأثرهم فى السياسة والحضارة عصر الإمارة » ص ٤٩، ماجستير ، دار علوم ، ١٩٨٥م .

(٢) ابن حجر العسقلانى « ضياء الأنوار » ص ٢٩، ٤١، ابن جماعة « بدر الدين إبراهيم ت ٧٣٣هـ » « تذكرة السامع والمتكلم فى أدب العالم والمتعلم » ص ١٦، دائرة المعارف العثمانية ، حيدرآباد ـ الدكن ، ١٣٥٣هـ ، العلموى « المعيد فى أدب المفيد » ص ١٣، هناء عبد الرحمن « الوظيفة السياسية للعلماء فى الخبرة الإسلامية » ص ٢٧، ماجستير ، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، ١٩٩٩م .

(**) آثر الباحث استخدام لقب العلماء لندرة استعمال لقب « فقيه » فى العصر المملوكى ، انظر : حسن الباشا « تاريخ الألقاب والمراسم فى الإسلام » ص ٣٧٣، دكتوراة ، آداب القاهرة ، ١٩٥٢م .

من المعرفة والعلم يؤهله للاجتهاد[١] والتمكن من استنباط الأحكام من أدلتها الشرعية[٢] .

الأمر الثانى : أن يكون ملتزمًا بما يدعوا إليه هذا العلم ، وهذا معناه أن يكون صادقًا ، عادلًا ، لا يعرف الهوى[٣] .

وهذان الأمران هما اللذان يحددان دور العالم فى المجتمع الإسلامى .

ثانيًا : المراد بالدور الاجتماعى للعلماء :

إن مفهوم الدور ـ من حيث دلالاته فى اللغة والعرف ـ هو جهد لا يتم بشكل عفوى ويتمركز حول أداء وظيفة ، كما أنه يرتبط بمكانة الشخص الذى يقوم بهذه الوظيفة[٤] .

أى أن الحديث عن دور العلماء هو حديث عن وظيفتهم ، فما هى وظيفة العلماء؟

إن جوهر وظيفة العلماء هى وظيفة كفاحية لا تعرف الالتواء أو التحريف ، فهم يرتبطون

---

(١) **الاجتهاد** : هو استفراغ الفقيه الوسع لتحصيل حكم شرعى ، ومعنى استفراغ الوسع بذل تمام الطاقة بحيث يحس الفقيه من نفسه العجز عن المزيد عليه ، انظر : ابن أرسلان « شهاب الدين أحمد ت ٨٤٤هـ » « لمع اللوامع فى توضيح جمع الجوامع » ص ١٠٢، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٢١٧٤١) ، د. رفيق العجم « موسوعة مصطلحات علم أصول الفقه » ص ١٠، مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت ، ١٩٩٨م .

(٢) د. فوزى على « دور أهل الحل والعقد فى النموذج الإسلامى لنظام الحكم » ص ٢١٤، ماجستير ، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، ١٩٩٥م .

(٣) حيث عرف تاريخنا الإسلامى أولئك الذين تفقهوا فى العلوم الدينية لأغراض دنيوية من مال وجاه ، واتسمت علاقة هؤلاء مع السلطة الحاكمة بالمداهنة والنفاق ، انظر : تقى الدين الحصنى « أبو بكر بن محمد ت ٨٢٩هـ » « قمع النفوس » ص ٤، مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (٣٤٩٨٤) ، ابن علوان « نسمات الأسحار فى مناقب الأولياء والأخيار » ص ١٥١، مخطوط بدار الكتب الظاهرية بدمشق برقم (٨٤٦٠) ، الآجرى « محمد بن الحسين ت ٣٦٠هـ » « أخلاق العلماء ص ٤٣، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ١٩٩٦م ، صالح سعيد « التجديد فى الفكر السياسى لابن تيمية » ص ٢٦٨، ماجستير ، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، ١٩٩٧م .

(٤) د. إبراهيم مدكور « معجم العلوم الاجتماعية » ص ٢٦٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٥م ، د. السيد محمد « الدور السياسى للصفوة فى صدر الإسلام » ص ٤٤، دكتوراة ، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، ١٩٩١.

بالشريعة وحفظها، فهم حملتها الذين يحفظون شعارها، والسراج المنير الذى يهدى الأمة إلى السبيل، وذلك بعد انقطاع نور النبوة بوفاة الرسول ﷺ(١).

فالعلماء فى توجههم للسلطة الحاكمة يقومون بوظيفة النصح والتقويم والمحاسبة والرقابة على سياستها ومدى مطابقتها للشرع(٢).

بينما فى توجههم للرعية يقومون بتعليمها أمور الدين وأحكامه بالقدر الذى يأمر به الإسلام وتحتاجه الرعية، وتزداد أهمية تلك الوظيفة كلما فشا الجهل فى الرعية، وانزوت معالم الشريعة وظهرت البدع(٣).

وهم كذلك يتولّون الولايات العامة بحقوق الله وتحرى مقاصد الشرع دون أدنى تزلف للسلطة أو ترضية لها، من حيث خضوع العالِم لشرع الله(٤).

وإجمالًا يمكن القول إنَّ دور «وظيفة» العلماء فى المجتمع الإسلامى هو فى جوهره حمل الرسالة التى بعث الله بها نبيّه سيدنا محمد ﷺ، ولما كان الإسلام يعنى الاعتقادات والعبادات والمعاملات شخصية كانت أو جماعية، سياسية أو اقتصادية ... إلخ، كما أنه هو الذى ينظم العلاقة بين عناصر المجتمع الإسلامى، ومصدر الولاء والانتماء ووحدة

---

(١) د. سيف الدين عبد الفتاح: «التجديد السياسى والخبرة الإسلامية» ص ٢٠٣، دكتوراة، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ١٩٨٧م، د. محمد فتحى «أهل الاجتهاد حراس الشرعية فى الدولة الإسلامية» ص ٣٠، مقال بمجلة العربى، عدد أغسطس، ١٩٨٠م.

(٢) الزين أبو الروح «عبد الرحمن بن أبى بكر ت ٨٥٦هـ» «الكنز الأكبر فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» ص ٧١، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٤٦٧٢٦)، ابن جماعة «تذكرة السامع والمتكلم فى أدب العالم والمتعلم» ص ٢٠، الغزالى «أبو حامد محمد ت ٥٠٥هـ» «الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» مستخرج من كتاب «الإحياء» ص ٨٦، تحقيق سيد إبراهيم، دار الحديث، القاهرة، ١٩٩١م، الشيخ محمد أبو زهرة «مالك حياته وعصره» ص ٦٢، دار الفكر العربى، د. ت.

(٣) ابن جماعة «تذكرة السامع والمتكلم فى أدب العالم والمتعلم» ص ٢٠، الآجرى «أخلاق العلماء» ص ٣٦.

(٤) الأسدى «محمد بن محمد» «من رجال القرن التاسع الهجرى» «التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار» ص ٩٨، تحقيق د. عبد القادر أحمد، دار الفكر العربى، ١٩٦٨م.

المجتمع وتماسكه، وكذلك الضابط الاجتماعى لذلك المجتمع الذى به ينتظم سلوك المجتمع المسلم وتصرفاته الاجتماعية إزاء مواقف الحياة المختلفة، فضلًا عن أنه الوازع الذى يدفع عناصر المجتمع الإسلامى بعضها عن بعض(١).

والإسلام بهذا المعنى ذو دور «وظيفة» اجتماعى، بمعنى دور إصلاح النظام الاجتماعى للجماعة المسلمة فى كافة جوانبها، ومن ثمّ فإن دور «، وظيفة» العلماء ـ حملة هذا الإسلام ـ هو دور اجتماعى.

(١) الإمام محمد الطاهر بن عاشور «أصول النظام الاجتماعى فى الإسلام» ص ١١، ٣٩، دار السلام، القاهرة، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، د. سامية الخشاب «علم الاجتماع الإسلامى» ص ٣٧، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢م، الشيخ محمود شلتوت «القرآن وبناء المجتمع» ص ٦٨، كتاب دار الهلال، أغسطس ١٩٨٠م، عبد الله المحمد «الدين وسيلة من وسائل الضبط الاجتماعى» ص ٣، ماجستير، آداب القاهرة «قسم اجتماع»، ١٩٧٠م، د. سيف الدين عبد الفتاح «التجديد السياسى والخبرة الإسلامية» ص ٤٦٢، د. خورشيد أحمد «نموذج المودودى فى البعث الإسلامى» ص ٩، مقال بمجلة المسلم المعاصر، عدد (٣١)، ١٩٨٢م.

الفصل الأول

العلماء والحياة السياسية بمصر
والشام فى القرن التاسع الهجرى

نقاط الفصل الأول

أولًا : العلماء والسياسة الداخلية لمصر والشام :

(١) العلماء وتداول السلطة فى النظام السياسى المملوكى .

(٢) اتجاهات العلماء إزاء الأداء السياسى للسلطة المملوكية وتشمل :

أ ـ العلماء والاتصال بالسلطة «العلماء وجهاد السلطة باللسان ، العلماء وثورات المصريين والشاميين ضد الولاة والنواب ، العلماء وخلع السلطان المملوكى» .

ب ـ العلماء واعتزال السلطة المملوكية .

ثانيًا : العلماء والسياسة الخارجية لمصر والشام :

أ ـ العلماء والجهاد بالقلم .

ب ـ العلماء والجهاد بالسيف .

جـ ـ العلماء والسفارات .

المحور الأول : العلماء وتداول السلطة فى النظام السياسى المملوكى

إنَّ تأسيس السلطة الحاكمة فى الإسلام يقوم على أساس الشورى[١] ، وذلك ما حدث تاريخيًا عهد الخلفاء الراشدين[٢] ، ثم ظهرت عقب حِقبة الراشدين نظام ولاية العهد[٣] ، ذلك النظام الذى كان افتئاتًا على حق الرعيّة ، حيث اغتصب حقها فى اختيار حاكمها[٤] .

ولمّا كانت تلك السلطة المُتغلِبة تشعُر بأنها جاءت دون إرادة محكوميها ، فقد اصطنعت قوى عسكرية تحميها داخليًا من هؤلاء المحكومين من ناحية ، ومن الطامعين فى السلطة من ناحية أخرى[٥] .

---

(١) **الشورى :** « لغة » مشتقة من كلمة شوّر ، وتأتى لمعانى عدة ، تدور فى معظمها حول استخراج الشىء المفيد من موضعه ، وفى « الاصطلاح » استطلاع الرأى من ذوى الخبرة فيه للتوصل إلى الصواب ، انظر : خالد إسماعيل « الشورى جذورها التاريخية وتطبيقاتها فى عصر النبوة والخلافة الراشدة » ص ٩١، مقال بدورية التجديد ، عدد (١٠) ، قطر ، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م .

(٢) الشيخ محمد رشيد رضا « الخلافة » ص ٢١، دار الزهراء للإعلام العربى ، القاهرة ، « د.ت » ، د. محمد عمارة « نظرية الخلافة » ص ٤٠، دار المعارف ، تونس « سلسلة موسوعة الحضارة العربية الإسلامية » رقم (١٠) ، د. صبحى عودة « السلطة والحرية فى النظام الإسلامى » ص ٣٤، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٨٢م .

(٣) وذلك ما أوضحه ابن الخطيب الأندلسى « ت ٧٧٦هـ » فى كتابه « إعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام » ، حيث رصد نظام ولاية العهد فى التاريخ الإسلامى بدءًا بالدولة الأُموية وانتهاءًا بالدولة المرينية بالأندلس التى كان معاصرًا لها ، مطوفًا عبر ذلك بالدولة الإسلامية التى شهدها التاريخ الإسلامى شرقًا وغربًا ، كالدولة الإخشيدية ، والفاطمية ، والأيوبية ، والمملوكية ، ولمزيد من الإيضاح ، انظر : د. رابح عبد الله المغراوى « قضية بيعة الصبى بين الفقه والتاريخ من خلال كتاب « إعمال الأعلام لابن الخطيب » ص ٢٨، ٦٣، حولية الآداب والعلوم الاجتماعية ، عدد (٢٠٠) ، جامعة الكويت ، ٢٠٠٣م .

(٤) د. عبد الله جمال الدين « نظام الدولة فى الإسلام » ص ٢٩٣، دار الصحوة ، القاهرة ، ط ٣ (١٩٩٨م) ، د. ظافر القاسمى « نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ » ص ٢٠٦، دار النفائس ، بيروت ، ١٩٨٥م ، الشيخ محمد رشيد رضا « الخلافة » ص ٤١.

(٥) لمزيد من الإيضاح عن تلك القوى التى استعان بها الحكام فى العصور الإسلامية المتعاقبة بعد عهد الراشدين ، انظر : د. أحمد مختار العبادى « قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام » ص ٢١،=

ولقد اختلفت تلك القوى من عصر إلى آخر ، وقد استطاعت بعض تلك القوى ـ التى اصطنعها أولئك الحكام المُتغلِبون ـ الاستئثار بالحكم دونهم ، وذلك ما ظهر واضحًا فى تجربة المماليك الذين اغتصبوا كرسى الحكم بمصر والشام من أسيادهم الأيوبيين[(١)] .

وبوصول المماليك إلى كرسى الحكم بمصر والشام ـ (٦٤٨هـ/١٢٥٠م) ـ ساروا على سُنّة الدول التى سبقتهنم ، من حيث كون التغلُب والقوة هما عماد عملية تداول السلطة ، وذلك ما سيعرض الباحث له فى السطور التالية مستكشفًا « دور العلماء » إزاء قانون التغلُب والقوة الذى كانت عملية تداول السلطة بالدولة المملوكية تتم بمقتضاه[(٢)] .

إن عملية تداول السلطة فى ظل النظام السياسى المملوكى ـ كما توضح المصادر التاريخية ـ تمر بطورين حتى تتم ، وللعلماء فى كل طور دورٌ ما أشار إليه المؤرخون .

= مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، « د. ت » ، د. محمد محمود « المماليك المصريون الذين لمعوا فى ميدان الفكر » ص ١٠، دكتوراة ، دار العلوم ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٩م ، د. محمد محمد أمزيان « دراسة حول التطور السياسى لمؤسسة الخلافة » ص ٧٨، مقال بدورية آفاق الثقافة والتراث ، عدد (٣٨) ، الكويت ، ٢٠٠٢م .

(١) د. أحمد مختار العبادى « قيام دولة المماليك » ص ٨٨، د. عصام شبارو « السلاطين فى المشرق العربى » ص ١٣٨، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٩٤م .

(٢) على الرغم من كثرة الدراسات ـ قديمًا وحديثًا ـ التى تناول قضية التغلُب والقوة كآلية يتم من خلالها تداول السلطة فى النظام السياسى المملوكى ، إلا أنها لم تشر إلى دور العلماء سلبًا أو إيجابًا تجاه تلك المسألة ، ومن تلك الدراسات على سبيل المثال :

أ ـ د. عبد المنعم ماجد « التاريخ السياسى لدولة سلاطين المماليك فى مصر » ص ١٠٩، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٨٨م .

ب ـ د. إبراهيم طرخان « مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة » ص ١٠، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٠م .

جـ ـ د. قاسم عبده قاسم « عصر سلاطين المماليك » ص ٤٤، دار عين للنشر ، القاهرة ، ٢٠٠٣م .

د ـ د. علاء طه « عامة القاهرة فى عصر سلاطين المماليك » ص ١٩، دار عين للنشر ، القاهرة ، ٢٠٠٣م .

هـ ـ د. على إبراهيم « نظم الحكم فى دولة المماليك الأولى » ص ٤٤، دكتوراة ، آداب القاهرة ، ١٩٤٢م .

و ـ د. عدلى حمد « انهيار وسقوط دولة المماليك » ص ٦٢، دكتوراة ، آداب الإسكندرية ، ١٩٧٨م .

الطور الأول : أنَّ السلطان عند شعوره بدنو أجله ـ وهو على فراش الموت ـ يستدعى أمراء دولته والعلماء[١] ، ويعهد لابنه بولاية العهد فيوافقه الأمراء والعلماء ، ومن ذلك ما تذكره المصادر التاريخية فى عام ٨٢٤هـ/١٤٢١م ، حيث استدعى السلطان ططر[٢] ـ حينما شعر بمرض الموت ـ أمراء دولته والعلماء ، فبايعوا ولده محمد[٣] بولاية العهد[٤] .

ولقد تكرر المشهد السابق من السلطان برسباى[٥] عام ٨٤١هـ/١٤٣٧م[٦] ، والسلطان إينال[٧] عام ٨٦٥هـ/١٤٦٠م[٨] .

---

(١) المقصود علماء مصر حيث لم يكن لعلماء الشام رأى فى ولاية العهد التى يعقدها سلطان مصر لابنه « الباحث » .

(٢) **ططر :** تولى منصب السلطنة ٢٩ شعبان ٨٢٤هـ وظل سلطانًا حتى وفاته ٤ ذى الحجة عام ٨٢٤هـ ، انظر : ابن شاهين « عبد الباسط خليل ت ٩٢٠هـ » « نزهة الأساطين فيمن ولى مصر من السلاطين » ص ١٢٩، تحقيق محمد كمال الدين ، مكتبة الثقافة الدينية ، ١٩٨٧م .

(٣) محمد بن ططر : تولى عرش السلطنة ٤ ذى الحجة عام ٨٢٤هـ ، وخُلع ٢ ربيع الآخر عام ٨٢٥هـ ، انظر : ابن شاهين « نزهة الأساطين » ص ١٣٠.

(٤) المقريزى « تقى الدين أحمد ت ٨٤٥هـ » « السلوك فى معرفة دول الملوك » ح ٤ ص ٥٩٠، تحقيق د. سعيد عاشور ، دار الكتب المصرية ، ١٩٧٠م ، ابن الصيرفى « الخطيب الجوهرى « ت ٩٠٠هـ » « نزهة النفوس والأبدان » ح ٢ ص ٥١٦، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٧٠م ، ابن تغرى « جمال الدين يوسف ت ٨٧٤هـ » « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » ح ١٤ ص ٤٩، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٢م .

(٥) **برسباى :** تولى عرش السلطنة عام ٨٢٥هـ حتى وفاته عام ٨٤١هـ ، انظر : ابن شاهين « نزهة الأساطين » ص ١٣١.

(٦) المقريزى « السلوك » ح ٤ ص ١٠٤٥، ابن الصيرفى « نزهة النفوس » ح ٣ ص ٤٢٢، ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٥ ص ٣.

(٧) **إينال :** تولى عرش السلطنة عام ٨٥٧هـ ، واستمر فى منصبه حتى وفاته عام ٨٦٥هـ ، انظر : ابن شاهين « نزهة الأساطين » ص ١٣٧.

(٨) ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٦ ص ١٨٩، ابن إياس « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » ح ٢ ص ٣٦٩، تحقيق د. محمد مصطفى ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، د. نبيل محمد « وثيقة عهد السلطان المؤيد أحمد بن إينال : دراسة وتحقيق » ص ٦، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٨١م .

الطور الثانى : يبدأ عقب تشييع جثمان السلطان المملوكى حيث يجتمع الأمراء ليبايعوا ولى العهد ـ ابن السلطان ـ بسلطنة مصر والشام ، مثلما حدث عندما بايع الأمراء والعلماء محمد ابن ططر[١] بالسلطنة عقب وفاة أبيه عام ٨٢٤هـ/١٤٢١م[٢] ، ولقد تكرر المشهد السابق عام ٨٤١هـ/١٤٣٧م عندما بايع الأمراء والعلماء العزيز بن برسباى[٣] عقب وفاة أبيه[٤] .

ولأن المماليك كما تصورهم المصادر التاريخية لا يعترفون بمبدأ ولاية العهد[٥] ، فيثير هؤلاء الأمراء « الفتن »[٦] من أجل كرسى الحكم ، ومن ذلك ما تذكره المصادر التاريخية ، أن المماليك ـ الذين بايعوا العزيز بن برسباى بالسلطنة فى ١٣ شهر ذى الحجة من عام ٨٤١هـ ـ أثاروا فتنة كبيرة فى ١٢ صفر من عام ٨٤٢هـ/١٤٣٨م ، حيث انقسم المماليك إلى حزبين ، حزب التف حول العزيز بن برسباى ، ويمثل ذلك الحزب مماليك برسباى[٧] ـ الأب - ، أما الحزب الآخر التف حول الأمير جقمق[٨] ، واستمرت رحى الحرب مستعرة

---

(١) محمد بن ططر : انظر : ص ١٠.

(٢) المقريزى « السلوك » ح ٤ ص ٦٠٧، ابن الصيرفى « نزهة النفوس » ح ٣ ص ٥، ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٤ ص ٧٨.

(٣) العزيز بن برسباى : يوسف بن برسباى ، تولى منصب السلطنة ١٣ ذى الحجة ٨٤١هـ ، وتم خلعه ١٩ ربيع الأول ٨٤٢هـ ، انظر : ابن شاهين « نزهة الأساطين » ص ١٣٣.

(٤) المقريزى « السلوك » ح ٤ ص ١٠٨٦، ابن الصيرفى « نزهة النفوس » ح ٤ ص ١٧، ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٥ ص ٣٢.

(٥) كان المماليك يوافقون السلطان بتولية ابنه كسبًا للوقت حتى ينجلى الموقف السياسى بعد موت السلطان فيظهر أمير قوى يستطيع كسب تأييد معظم المماليك فيستحوذ على كرسى الحكم ، أى كنوع من الهدنة ، انظر : د. إبراهيم طرخان « مصر فى عصر دولة المماليك » ص ١٠، د. قاسم عبده قاسم « عصر سلاطين المماليك » ص ٤٥، د. سعيد عاشور « العصر المماليكى فى مصر والشام » ص ١٥٨، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط ٣ (١٩٩٤م) .

(٦) **الفتن** : ذلك هو الاصطلاح الذى أطلقه مؤرخو العصر المملوكى على ذلك الصراع المسلح من أجل كرسى الحكم « الباحث » .

(٧) برسباى : انظر : ص ١٠.

(٨) جقمق : تولى عرش السلطنة ١٩ ربيع الأول ٨٤٢هـ ، وظل على عرش مصر حتى وفاته عام ٨٥٧هـ ، انظر : ابن شاهين « نزهة الأساطين فيمن ولى مصر من السلاطين » ص ١٣٦.

بينهما لمدة خمسة أيام ـ عانى المصريون خلالها أشد المعاناة – ، وانتهى الأمر فى ١٧ صفر بتغلُب الأمير جقمق وتوليه السلطنة ، وسُجِن العزيز بن برسباى[(١)] .

ولقد تكرر المشهد السابق من الأمير إينال[(٢)] ضد ولى العهد عثمان بن جقمق[(٣)] عام ٨٥٧هـ/١٤٥٣م[(٤)] ، والأمير خشقدم[(٥)] ضد ولى العهد أحمد بن إينال[(٦)] عام ٨٦٥هـ/ ١٤٦٠م[(٧)] .

ولكن ما هو دور العلماء إزاء تلك الفتن التى أثارها المماليك بمصر ؟

لقد تحدث مؤرخو العصر المملوكى بإسهابٍ عن تلك الفتن ، فبينوا ميزان القوى العسكرية بين الفريقين المتصارعين ، ونقلوا مشاهد حيّة لتلك المعارك التى نشبت بينهما ، وتحدثوا عن تلك المفاوضات التى كانت تتم بينهما من أجل وقف القتال ...إلخ .

---

(١) المقريزى « السلوك » ح ٤ ص ١٠٧٣ ـ ١٠٧٨، ابن الصيرفى « نزهة النفوس » ح ٣ ص ٤٣٧ ـ ٤٤٢، ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٥ ص ١٤، ابن إياس « بدائع الزهور » ح ٢ ص ١٩٤.

(٢) إينال : انظر : ص ١٠.

(٣) عثمان بن جقمق : تولى منصب السلطنة ١١ محرم ٨٥٧هـ ، وخُلِع بعد ٤٣ يوم ، انظر : ابن شاهين « نزهة الأساطين » ص ١٣٦.

(٤) البقاعى « إبراهيم بن عمر « ت ٨٨٥هـ » » « إظهار العصر » ، مخطوطة بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية برقم (٨٩٢ تاريخ) ، ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٦ ص ١٤، ابن إياس « بدائع الزهور » ح ٢ ص ٣٠٧.

(٥) خشقدم : تولى عرش السلطنة ١٨ رمضان عام ٨٦٥هـ ، وظل على العرش حتى وفاته عام ٨٧٢هـ ، انظر : ابن شاهين « نزهة الأساطين » ص ١٤٠.

(٦) أحمد بن إينال : تولى عرش السلطنة ٨ ربيع الأول عام ٨٦٥هـ ، وخُلِع ١٨ رمضان عام ٨٦٥هـ ، انظر : ابن شاهين « نزهة الأساطين » ص ١٣٩.

(٧) البقاعى « إظهار العصر » ، ابن إياس « بدائع الزهور » ح ٢ ص ٣٧٨، ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٦ ص ٢٢٢.

ولكن جلّ المؤرخين مع رصدهم لدقائق تلك الفتن لم يذكروا للعلماء أى دور لهم فى تلك الفتن جميعها منذ بدايتها وحتى نهايتها ـ وذلك فيما اطلعت عليه من مصادر ـ حيث كان العلماء ـ كما يوضح المؤرخون ـ يظهرون على مسرح الحياة السياسية عقب انتهاء الفتنة مباشرة، وذلك عندما يستدعيهم الأمير المنتصر ليبايعوه سلطانًا على مصر والشام، وكان العلماء يبايعونه، ومن ذلك ما حدث عام ٨٤٢هـ/١٤٣٨م، عندما تغلب الأمير جقمق[(١)] على السلطان العزيز بن برسباى[(٢)]، حيث استدعى جقمق العلماء ـ وعلى رأسهم العالِم سعد الدين الديرى[(٣)] والعالم ابن حجر العسقلانى[(٤)] ـ ليبايعوه سلطانًا على مصر والشام فبايعوه[(٥)].

ولقد تكرر المشهد السابق من العلماء بعد انتصار الأمير خشقدم[(٦)] عام ٨٦٥هـ/١٤٦٠م على السلطان أحمد بن إينال[(٧)]، حيث بايع العلماء ـ وعلى رأسهم العالِم علم الدين

---

(١) جقمق: انظر: ص ١١.

(٢) العزيز بن برسباى: انظر ص ١١.

(٣) سعد الدين الديرى: سعد بن محمد الديرى، تفقه بشيوخ عصره، حتى صار رأس المذهب الحنفى فى عصره، ولى قضاء مصر، وأحبه الناس لعدله، اشتهر بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إزاء السلطة المملوكية، توفى ٨٦٧هـ، انظر: ابن تغرى «النجوم الزاهرة» ح ١٦ ص ٢٨٥، السخاوى «شمس الدين بن محمد «ت ٩٠٢هـ»» «الضوء اللامع فى أهل القرن التاسع» ح ٤ ص ٢٥٠، دار الجيل، بيروت، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

(٤) ابن حجر العسقلانى: أحمد بن على، تفقه بشيوخ عصره، برع فى علم الحديث، حتى لُقب بأمير المؤمنين فى الحديث النبوّ، ولى قضاء مصر على مذهب الشافعية لمدة تزيد عن إحدى وعشرين عام، أحبه المصريون، توفى ٨٥٢هـ، انظر: ابن تغرى «المنهل الصافى» ح ٢ ص ١٧، ابن الحمصى «شهاب الدين أحمد «ت ٩٣٤هـ»» «حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران» ح ١ ص ٩٠، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م، السخاوى «الضوء اللامع» ح ٢ ص ٣٨.

(٥) ابن الصيرفى «نزهة النفوس» ح ٤ ص ١٨، المقريزى «السلوك» ح ٤ ص ١٧٠٨، ابن إياس «بدائع الزهور» ح ٢ ص ١٩٧.

(٦) خشقدم: انظر: ص ١٢.

(٧) أحمد بن إينال: انظر: ص ١٢.

البلقينى[1] ، والعالم سعد الدين الديرى[2] ـ الأمير خشقدم سلطانًا على مصر[3] .

وهكذا يستنبط من إغفال المؤرخين ـ رغم رصدهم الدقيق للفتن ـ ذكر العلماء أثناء تلك الفتن ، أنَّ علماء مصر آثروا اعتزال تلك الفتن ، ورفضوا مساندة أيًّا من الفريقين المتصارعين ، وهذا الرأى يعضده ما ذكره المؤرخون ـ وهم يروون أحداث فتنة الأمير جقمق[4] عام ٨٤٢هـ/١٤٣٨م ـ أن علماء مصر كانوا يراقبون أحداث الصراع دون القيام بمساندة أيًّا من الفريقين[5] .

أمّا بلاد الشام :

فكان أمراء الشام يُثيرون الفتن ـ أيضًا ـ عقب وفاة السلطان المملوكى ، حيث كان يقوم أحد أمراء الشام بخلع الطاعة لسلطان مصر ويجمع حوله أمراء الشام استعدادًا لمهاجمة سلطان مصر وخلعه ، ولكن سلطان مصر كان يسارع إلى بلاد الشام للقضاء على هؤلاء الأمراء قبل أن يهاجموه ، وكان سلطان مصر ـ فى الغالب ـ يتغلب على أمراء الشام الثائرين .

ومن ذلك ما ذكرت المصادر التاريخية عام ٨٠٢هـ/١٣٩٩م ، أن الأمير تنم[6] ـ نائب دمشق[7]

---

(١) علم الدين البلقينى : صالح بن عمر البلقينى ، تفقه على شيوخ عصره ، درس وأفتى ، وولى قضاء مصر على المذهب الشافعى ، توفى ٨٦٧هـ ، انظر : ابن إياس « بدائع الزهور » ح ٢ ص ٤٠٠ .

(٢) سعد الدين الديرى : انظر : ص ١٣ .

(٣) البقاعى « إظهار العصر » ، ابن إياس « بدائع الزهور » ح ٢ ص ٣٧٧ ، ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٦ ص ٢٣٠ .

(٤) جقمق : انظر : ص ١١ .

(٥) المقريزى « السلوك » ح ٤ ص ١٠٧٣ ، ابن الصيرفى « نزهة النفوس » ح ٣ ص ٤٣٩ ، ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٤ ص ٧٥ .

(٦) تنم : تنم بن عبد الله الحسنى ، تولى نيابة دمشق عام ٧٩٥هـ حتى وفاته ٨٠٢هـ ، انظر : ابن الصيرفى « نزهة النفوس » ح ٢ ص ٥٥ .

(٧) **نائب دمشق** : نيابة السلطنة بدمشق من أجلّ نيابات المملكة الشامية ، وأرفعها فى الرتبة ويُعبر عن صاحبها بـ « كافل السلطنة الشريفة بالشام المحروس » ، وهو قائم بدمشق مقام السلطان فى أكثر الأمور المتعلقة =

ـ لم يكد يصل إليه خبر وفاة السلطان برقوق[١] ، حتى أعلن تنم العصيان وخلع الطاعة لسطان مصر فرج بن برقوق[٢] ، ثم شرع فى بسط نفوذه على أرجاء بلاد الشام ، واستطاع فى سرعة مذهلة بسط نفوذه على كافة أرجاء بلاد الشام كحلب[٣] ، والكرك[٤] ، وطرابلس[٥] ، أمّا على الجبهة المصرية فإن السلطان فرج كان يحشد قواته العسكرية للخروج بها للشام ؛ للقضاء على فتنة تنم ، وفى شهر رجب عام ٨٠٢هـ توجه السلطان فرج وجيشه إلى بلاد الشام ، وتلاقى جيش السلطان وتنم بغزة[٦] ودارت بينهما معركة ضارية هُزِم فيها

= بنيابته ، انظر : القلقشندى « أحمد بن عبد الله « ت ٨٢١هـ » » « صبح الأعشى فى صناعة الإنشا » ح ٤ ص ١٨٤، المؤسسة المصرية العامة للتأليف « د. ت » .

(١) برقوق : هو مؤسس دولة المماليك البرجية وأول سلاطينها عام ٧٨٤هـ ، توفى منتصف شوال عام ٨٠١هـ ، انظر : ابن شاهين « نزهة الأساطين فيمن ولى مصر من السلاطين » ص ١١٥.

(٢) فرج بن برقوق : تولى عرش السلطنة عام ٨٠١هـ ، وتم خلعه من السلطنة وقتله عام ٨١٥هـ ، انظر : ابن شاهين « نزهة الأساطين » ص ١٢١.

(٣) **حلب** : هى إحدى نيابات بلاد الشام فى العصر المملوكى ، وتعزو المصادر تسمية مدينة حلب بذلك الاسم ، لأن سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ كان إذا اشتمل من الأراضى المقدسة ينتهى إلى تلّ قلعة هذه المدينة ، فيضع به أثقاله ، ويبث رعاته ومعهم الأغنام ، وعندئذٍ يعلم الضعفاء بمجيئه فيجتمعون إليه لينالوا من برّه ، والذى منه اللبن الذى يُحلب من الأغنام ، انظر : ابن الحنبلى الحلبى « ت ٧٩١هـ » « الزبد والضرب فى تاريخ حلب » ص ١٥، تحقيق د. محمد التونجى ، مركز المخطوطات والتراث والوثائق ، سوريا ، ط ١ (١٤٠٩هـ/١٩٨٨م) .

(٤) **الكرك** : هى قلعة حصينة فى طرف بلاد الشام من نواحى البلقاء ، وكانت إحدى نيابات الشام فى العصر المملوكى ، انظر : ياقوت الحموى « معجم البلدان » ص ٤٥٣، دار صادر ، بيروت ، ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م .

(٥) **طرابلس الشام** : وردت فى بعض المصادر التاريخية باسم « أطرابلس » بزيادة ألف مهموزة ـ تمييزًا لها عن مدينة طرابلس الليبية ، وطرابلس الشام تقع على شاطئ البحر المتوسط فى منتصف الطريق الساحلى الشرقى للبحر المتوسط بين الأسكندرية فى الشمال وغزة فى الجنوب ، انظر : د. السيد عبد العزيز سالم « طرابلس الشام فى التاريخ الإسلامى » ص ٤، مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٦٦م ، وفاء محمد « ساحل الشام فى العصر المملوكى » ص ٣٥، ماجستير ، آداب عين شمس ، ١٩٩٨م .

(٦) **غزة** : هى إحدى نيابات الشام فى العصر المملوكى ، وهى من الناحية الجغرافية تقع على ساحل البحر =

جيش تنم وتم قتله[1] .

ولقد تكرر المشهد السابق من أمراء الشام عقب وفاة السلطان برسباى[2] ، حيث اندلعت فتنة الأمير تغرى ورمش[3] ـ نائب حلب ـ عام ٨٤٢هـ/١٤٣٨م ضد سلطان مصر جقمق[4] ، ولكن سلطان مصر استطاع القضاء على فتنته وقُتِل تغرى ورمش عام ٨٤٢هـ/١٤٣٨م[5] .

وكذلك تكرر المشهد من أمراء الشام عقب وفاة السلطان إينال[6] ، حيث اندلعت فتنة الأمير جانم[7] ـ نائب دمشق ـ عام ٨٦٥هـ/١٤٦٠م ضد سلطان مصر خشقدم[8] ، ولكن سلطان مصر استطاع القضاء على فتنة جانم وقُتِل عام ٨٦٦هـ/١٤٦١م[9] .

= المتوسط على بعد ميل ـ تقريبًا ـ على طريق المواصلات بين دمشق ومصر ، وهى فى أقصى بلاد الشام من جهة مصر على أطراف الصحراء ، انظر : وفاء محمد « ساحل الشام فى العصر المملوكى » ص ٢٤.

(١) ابن الصيرفى « نزهة النفوس » ح ٢ ص ٥٤، المقريزى « السلوك » ح ٦ ص ٢٥، ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٢ ص ١٦٥، ابن دقماق « إبراهيم بن محمد » « النفحة المسكية فى الدولة التركية » ص ٣٠٧، تحقيق عمر عبد السلام ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ط ١ (١٩٩٩م) .

(٢) برسباى : انظر : ص ١٠.

(٣) تغرى ورمش : تولى نيابة حلب عام ٨٣٩هـ ، وكان سيئ السيرة ، ظالمًا ، قُتِل عام ٨٤٢هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٣ ص ٣٥.

(٤) جقمق : انظر : ص ١١.

(٥) المقريزى « السلوك » ح ٤ ص ١١٥، ابن إياس « بدائع الزهور » ح ٢ ص ٢٠٨، ابن الصيرفى « نزهة النفوس » ح ٤ ص ١١١.

(٦) إينال : انظر : ص ١٠.

(٧) جانم : تولى نيابة دمشق عام ٨٦٠هـ ، وظل متوليًا حتى قُتِل عام ٨٦٦هـ ، انظر : ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٥ ص ١٠٢، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٣ ص ٦٣.

(٨) خشقدم : انظر : ص ١٢.

(٩) ابن إياس « بدائع الزهور » ح ٢ ص ٣٨١، ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٥ ص ٩٧.

ولكن ما هو دور علماء الشام إزاء تلك الفتن ؟

كان دور علماء الشام إزاء تلك الفتن الدائرة على أرض الشام مطابقًا لدور علماء مصر من حيث اعتزال تلك الفتن ، وذلك ما يمكن الاستدلال عليه بأمرين :

أولًا : إغفال المؤرخين ـ رغم رصدهم الدقيق للفتن ـ ذكر العلماء أثناء تلك الفتن[١] .

ثانيًا : ما ذكره مؤرخ حلب سبط ابن العجمى[٢] « ت ٨٨٤هـ » ، أنَّ علماء الشام كانوا يعتزلون الفتن الدائرة بين أمراء الشام المتمردين وسلطان مصر[٣] .

والآن بعدما تم عرض الدور التاريخى لعلماء مصر والشام فى عملية تداول السلطة فى النظام السياسى المملوكى القائم على التغلُب ، يواجهنا تساؤلين رئيسيين ـ لم تجب المصادر التاريخية التى اطلعت عليها عنهما ـ :

التساؤل الأول : لماذا بايع العلماء ابن السلطان ، سواء بولاية العهد فى حياة أبيه[٤] ، ثم بالسلطنة عقب وفاة أبيه[٥] ، مع أن هذا مخالف لنظرية الإسلام السياسية التى تجعل الشورى ـ وليس ولاية العهد ـ هى السبيل الشرعى لتداول السلطة[٦] .

التساؤل الثانى : لماذا اعتزل العلماء الصراع الدائر بين سلطان مصر والثائرين عليه

---

(١) من أمثال تلك الفتن التى تحدث المؤرخون عنها بإسهاب فتنة الأمير تنم ٨٠٢هـ ، وفتنة الأمير تغرى ورمش عام ٨٤٢هـ ، وفتنة الأمير جانم عام ٨٦٥هـ .

(٢) سبط ابن العجمى : أحمد بن إبراهيم ، تفقه على شيوخ عصره ، وهو من كبار علماء حلب فى علم الحديث ، توفى ٨٨٤هـ ، انظر : سبط ابن العجمى « أحمد بن إبراهيم « ت ٨٨٤هـ » » « كنوز الذهب فى تاريخ حلب » ح ١ ص ٢٦، تحقيق د. شوقى شعث ، دار القلم العربى ، حلب ، ١٩٩٧م .

(٣) سبط ابن العجمى « كنوز الذهب » ح ٢ ص ١٤٥.

(٤) انظر : ص ١٠.

(٥) انظر : ص ١١.

(٦) انظر : ص ٨.

بمصر[1] والشام[2] ؟ ولِم كان العلماء يبايعون المُنتصر عقب انتهاء الصراع[3]؟

ولقد أجابت الأدبيات السياسية[4] التى كتبها علماء العصر المملوكى عن التساؤلين السابقين كما يلى :

فبالنسبة للتساؤل الأول ، أوضح العلماء أنهم يعتبرون الشورى هى السبيل الشرعى لتداول السلطة ، ولكن الواقع التاريخى عقب عهد الراشدين عرف نظام ولاية العهد التى تعتبر افتئاتًا على حق الرعية[5] ، ولكنهم اعترفوا بذلك النظام المخالف لجوهر الإسلام استنادًا لمبدأ الضرورة[6] ـ تلك الضرورة التى أوضحها الفقهاء بأنها تُلجأ إلى المحظور وتجعله مُباحًا ـ ، حيث أن الخروج على المستولى بالسلطة ـ فى ظل نظام ولاية العهد ـ وعدم الاعتراف بولايته سيؤدى إلى كثرة الفتن وسفك الدماء وتلك مفاسد يجب درئها سواء بارتكاب أخف[7] الضررين ، أو

---

(١) انظر : ص ١٤.

(٢) انظر : ص ١٧.

(٣) انظر : ص ١٣، ١٤.

(٤) ومن أهم تلك الأدبيات السياسية ، « تحرير الأحكام فى تدبير أهل الإسلام » لابن جماعة « ت ٧٣٣هـ » ، « مآثر الإنافة فى معالم الخلافة » للقلقشندى « ت ٨٢١هـ » .

(٥) ابن جماعة « محمد بن إبراهيم « ت ٧٣٣هـ » » « تحرير الأحكام فى تدبير أهل الإسلام » ص ٥، مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (٣٠٤) ، القلقشندى « أحمد بن عبد الله « ٨٢١هـ » » « مآثر الإنافة فى معالم الخلافة » ص ٣٩، دار عالم الكتب ، بيروت ، ١٩٦٤م .

(٦) **الضرورة** : هى العذر الذى يجوز بسببه إجراء الشىء الممنوع وارتكاب المحظور ، فهى ظرف قاهر يُلجئ الإنسان إلى فعل محرم ، وهى ـ أيضًا ـ الحالة الملجئة لتناول الممنوع شرعًا ، والضرورة تقدر بقدرها ، فالاضطرار إنما يبيح من المحظورات مقدار ما يدفع الخطر ، فلا يجوز الاسترسال ، ومتى زال الخطر عاد الحظر ، كما أن ما تدعو إليه الضرورة من المحظورات إنما يرخص منه القدر الذى تندفع به الضرورة فحسب ، انظر : د. فريدة زوزو « الضرر يزال : دراسة تأصيلية ومقارنة بين السيوطى وابن نجيم » ص ١٠، دورية آفاق الثقافة والتراث ، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث ، الإمارات ، العدد (٤٣) السنة الحادية عشر ، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م .

(٧) هذه القاعدة محكومة بقاعدة أن الضرورات تبيح المحظورات ، فإذا وجدت محظورات أو أضرار ، وكان من الضرورى ارتكاب أحد الضررين أو المحظورين لدفع الآخر ، فإنه يلزم ارتكاب أخفيهما وأهونهما وأقلهما مفسدة وضررًا ، انظر : د. فريدة زوزو « الضرر يزال » ص ١٢٠.

درء المفاسد[1] أولى من جلب المنافع[2] .

أمّا بالنسبة للتساؤل الثانى ، فلقد أوضح العلماء أن سلطان مصر والثائرين عليه سواء بمصر أو الشام ـ من منظور الشرع الإسلامى ـ كلاهما يفتقد المشروعية التى تستوجب مناصرته ، فسلطان مصر ـ كما سبق القول ـ وصل إلى السلطة بالتغلُب والقوة متسترًا بثوب ولاية العهد وذلك مُناقض لجوهر الإسلام ومبادئه ، أمّا هؤلاء الثائرون الذين أشعلوا الفتن والقلاقل من أجل الاستيلاء على كرسى الحكم بالقوة ، فهم كذلك مفتقدون للشرعية الإسلامية التى تستوجب مناصرتهم[3] ؛ ولذلك آثر علماء مصر والشام اعتزال الفريقين المتصارعين .

أمّا عن مبايعة العلماء لهؤلاء الثائرين الذين استطاعوا الاستحواذ على كرسى الحكم من ولى العهد ، فلقد برره العلماء بمبدأ الضرورة الذى سبق أن برر به العلماء قبولهم ولاية العهد كسبيل لتداول السلطة[4] .

---

(١) بمعنى إذا تعارضت مفسدة ومصلحة قدم دفع المفسدة غالبًا ؛ لأن اعتناء الشارع بالمنهيات أشد من اعتنائه بالمأمورات ، انظر : د. فريدة زوزو « الضرر يزال » ص ١٣.

(٢) ابن جماعة « تحرير الأحكام فى تدبير أهل الإسلام » ص ٦، القلقشندى « مآثر الإنافة فى معالم الخلافة » ص ٧١، ولقد كان علماء العصر المملوكى فى ذلك الاجتهاد الفقهى يسيرون على نهج علماء الإسلام السابقين عليهم ، انظر ـ على سبيل المثال ـ :

أ ـ أبو يعلى الفراء « محمد بن الحسين « ت ٤٥٨هـ » » « الأحكام السلطانية » ص ٢٢، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٣م .

ب ـ الجوينى « أبو عبد الله محمد « ت ٤٧٨هـ » » « غياث الأمم فى التياث الظلم » ص ٣٢٧، تحقيق د. عبد العظيم الديب ، مكتبة إمام الحرمين ، ١٤٠١هـ .

ولمزيد من الإيضاح حول هذا الموضوع انظر : د. ظافر القاسمى « نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ » ص ٥٧٣، د. عبد اللطيف المتدين « إمارة التغلب فى الفكر الإسلامى » ص ١٦٧، ماجستير ، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، جامعة القاهرة ، ١٩٩١م .

(٣) ابن جماعة « تحرير الأحكام » ص ٦، القلقشندى « مآثر الإنافة فى معالم الخلافة » ص ٥٨.

(٤) ابن جماعة « تحرير الأحكام » ص ٦، القلقشندى « مآثر الإنافة فى معالم الخلافة » ص ٧١.

المحور الثانى : اتجاهات العلماء إزاء الأداء السياسى للسلطة الحاكمة

تذكر المصادر التاريخية أن اتجاهات العلماء إزاء الأداء السياسى للسلطة المملوكية توزعت بين اتجاهين رئيسيين ، اتجاه يرى الاتصال بالسلطة المملوكية ، بينما الاتجاه الآخر يرى اعتزال تلك السلطة .

وسوف يعرض الباحث ـ خلال السطور التالية ـ أهم ملامح وأبعاد هذين الاتجاهين .

أ ـ العلماء والاتصال بالسلطة :

إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر[(١)] ، يكتسب أهمية بالغة فى حياة الأمة المسلمة ، فهو كما أوضح علماء العصر المملوكى ـ أمثال العالِم ابن تيمية[(٢)] « ت ٧٢٨هـ » والعالم الزين أبو الروح[(٣)] « ت ٨٥٦هـ » والعالم تقى الدين البلاطنسى[(٤)] « ت ٩٣٦هـ » ـ أنه القطب الأعظم فى الدين ولو أهمل لتعطلت النبوة ، واضمحلت الديانة ، وفشت الضلالة ، وانتشر

---

(١) **الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر** : يحدد ابن تيمية « المعروف » بأنه كل ما أمر الله به ورسوله ﷺ ، أو هو اسم جامع لكل ما يحبه الله من الإيمان والعمل الصالح ، أما « المنكر » هو الذى نهى الله عنه ورسوله ﷺ ، انظر : ابن تيمية « أحمد بن عبد الحليم « ت ٧٢٨هـ » » « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » ص ٥، تحقيق د. صلاح الدين المنجد ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، ط ١ (١٩٧٦م) .

(٢) ابن تيمية : أحمد بن عبد الحليم ، شيخ الإسلام بدمشق فى عصره ، درس وأفتى ، واشتهر بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، توفى ٧٢٨هـ ، انظر : ابن العماد الحنبلى « شذرات الذهب فى أخبار من ذهب » ح ٦ ص ٨٠، دار الفكر للطباعة ، « د. ت » .

(٣) الزين أبو الروح : عبد الرحمن بن أبى بكر ، تفقه على شيوخ عصره ، درس وافتى ، وكان من كبار علماء الحنابلة بدمشق ، توفى ٨٥٦هـ ، انظر : ابن مكى « السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة » ح ٢ ص ٤٨١، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٤ ص ٦٢.

(٤) تقى الدين البلاطنسى : أبو بكر بن محمد بن عبد الله ، تفقه على شيوخ عصره ، حتى صار رأس الشافعية بدمشق فى عصره ، درس وأفتى ، توفى ٩٣٦هـ ، انظر : ابن المبرد « متعة الأذهان » ص ٢٢٠، الغزى « الكواكب السائرة » ص ٨٨.

الفساد[1] ، ولذلك فهو من أهم واجبات العالِم فى المجتمع المسلم بصفة عامة وتجاه السلطة الحاكمة بصفة خاصة ـ كما ورد بكتاباتهم ـ .

ومن خلال مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ـ السابق ذكره ـ اتصل علماء مصر والشام بالسلطة ، ذلك الاتصال الذى رصدته المصادر التاريخية فى ثلاثة أشكال رئيسية :

* العلماء وجهاد السلطة باللسان .
* العلماء وثورات المصريين والشاميين ضد الولاة والنواب .
* العلماء وخلع السلطان المملوكى .

* العلماء وجهاد السلطة باللسان :

لقد عانى المصريون والشاميون فى ظل حكم المماليك شتى ألوان الظلم ، ولقد كشفت لنا المصادر التاريخية كيف كافح العلماء بلسانهم تلك المظالم ـ كما سيتبين ـ .

ويمكن تحديد أبرز تلك المظالم فى مظالم أربع[*] أولها ما كانت تفرضه السلطة المملوكية من أموال ـ غير محددة ـ على المصريين والشاميين أوقات تعرض البلاد لمخاطر خارجية ، ولقد رصدت لنا المصادر التاريخية معارضة العلماء لهذا الأمر ونجاحها فى أحيان غير قليلة إلغاء هذه المغارم المالية التى كانت تُفرض على المصريين والشاميين ، وأما الأحيان التى كانت تفشل فى إثناء السلطة عن التعرض لأموال المصريين والشاميين فكانت تُعلن بصراحة وجرأة عدم مشروعية هذا الإجراء المملوكى .

ولكن قبل عرض الشواهد التاريخية التى تؤكد ذلك يستلزم توضيح أمرين ، أولهما لماذا

---

(١) الزين أبو الروح « عبد الرحمن بن أبى بكر « ت ٨٥٦هـ » » « الكنز الأكبر فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » ص ١٠، مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (٤٦٧٢٦) ، ابن تيمية « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » ص ٧، ابن تيمية « الحسبة فى الإسلام » ص ٦٢، المكتبة العلمية ، السعودية ، « د. ت » .

(*) هناك مظالم اقتصادية عانى منها المصريون والشاميون فى ظل العهد المملوكى كالمكوس والاحتكار والطرح وغير ذلك ، وسوف يتناول الباحث تلك المظالم ودور العلماء فى مكافحتها بفصل « العلماء والحياة الاقتصادية » .

عارض العلماء السلطة المملوكية رغم تعرض البلاد للأخطار الخارجية ؟ ، وثانيهما لماذا كانت السلطة المملوكية تتراجع ـ فى كثير من الأحيان ـ عن فرض تلك الأموال بعد معارضة العلماء لها ؟ ذلك ما سيوضحه الباحث فى السطور التالية .

بالنسبة للأمر الأول ، لماذا عارض العلماء السلطة المملوكية رغم تعرض البلاد للأخطار الخارجية ؟

من الجدير بالذكر ـ قبل الإجابة عن هذا التساؤل ـ أن كافة الشواهد التاريخية ـ التى اطلعت عليها ـ خلال القرن التاسع كما رصدها المؤرخون كانت تقتصر على استدعاء السلطان للعلماء ، وأنه يعزم على فرض الأموال على الرعية لدرء الخطر الخارجى الذى يهدد البلاد ويطالبهم بتأييد هذا القرار وإلباسه ثوب الشرعية فيرفض العلماء ويعلنون معارضتهم لهذا القرار بقوة فيستجيب لهم السلطان أحيانًا ولا يستجيب لهم فى أحيان أخرى ، وذلك فى عبارات موجزة لا توضح طبيعة الحوار الذى كان يدور بين السلطان والعلماء ولماذا عارض العلماء جمع الأموال من الرعية .

ولكن المصادر التاريخية شذت عن هذا العرض المقتضب عام ٨٧٢هـ/١٤٦٧م عندما استدعى السلطان قايتباى[(١)] العلماء وأخبرهم بأنه عزم على فرض قدرًا من المال ـ غير محدد ـ على المصريين لدرء خطر التركمان[(٢)] الذى كان يمثله آنذاك شاه

---

(١) قايتباى : الأشرف قايتباى ، تولى كرسى السلطنة عام ٨٧٢هـ ، وكانت مدة حكمه ٢٩ سنة وأربعة أشهر وواحد وعشرين يومًا ، توفى عام ٩٠١هـ ، انظر : ابن إياس « بدائع الزهور » ح ٣ ص ٣٢٤.

(٢) **التركمان** : اختلف فى وجه تسمية التركمان تركمان ، فقيل سمّوا بذلك لأن كل من أسلم من أتراك خراسان وما وراء النهر فى صدر الإسلام كان يقال له « صار ترجمانًا » لكونه ترجمان بين العرب الفاتحين بسبب اختلاطه معهم ، وتعلمه اللسان منهم وبين من لم يُسلم من الأتراك حتى صار ذلك علمًا لهم أى لمن أسلم منهم ، ثم قيل بالتحريف تركمان ، وقيل أنهم سمّوا بذلك لأن هؤلاء لمّا قدموا إلى تلك الديار واختلطوا بأقوامها وامتزجوا بسكانها خرج أولادهم عن صرافة لون الأتراك وأشكالهم بمُقتضى طبيعة الإقليم ، فقيل لهم « ترك ماننـد » يعنى يشبهون الترك ، ثم اختصر هذا اللقب فقيل « تركمان » ، ولقد سيطر التركمان على بلاد العراق خلال القرن التاسع الهجرى وأقاموا لأنفسهم دويلات كدويلة القراقيونلو « أصحاب الخروف الأسود » ودويلة الأقيونليون «آق قويونلو» « طائفة الخروف الأبيض » ، انظر : م. م. الرّمزى « تلفيق =

سوار[1] ، ولكن العلماء بقيادة أمين الآقصراى[2] عارضه بقوة ، ثم تذكر المصادر التاريخية مبررات رفض العلماء على لسان العالم أمين الآقصراى ، حيث أعلمه أن جمع الأموال من الرعية لا يحل لك إلا بعد أن ينفذ جميع ما فى بيت المال ، ثم ينظر إلى ما فى أيدى السلطان والأمراء من أموال وحُلى نساء ومتاع وغير ذلك ، ثم بعد ذلك ينظر إلى أموال الرعية ، ولكن مع تكدس خزائنك وخزائن أمرائك فلا[3] .

ومن الجدير بالذكر أن هذا الرأى الذى ذكره العالِم أمين الآقصراى هو ما جاء على لسان العالِم العزب بن عبد السلام[4] « ت ٦٦٠هـ » حينما أرادت السلطة المملوكية عام ٦٥٧هـ فرض أموال على المصريين لدرء خطر المغول[*][5] ، وهو ما جاء أيضًا على لسان العالم محيى

= الأخبار وتلقيح الآثار فى وقائع قزان وبلغار وملوك التتار » ح ١ ص ٣٤٣، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ (٢٠٠٢م) ، كليفورد ا. بوزورث « الأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى » ص ٢٢٨ ـ ٢٣٤، ترجمة حسين على ، دار عين للنشر ، القاهرة ، ١٩٩٥م ، فرج محمد « العلاقات الخارجية لدولة المماليك فى العراق ١٧٤٩م ـ ١٨٣١م » ص ٥، ماجستير ، آداب القاهرة ، ١٩٦٥م .

(١) شاه سوار : سوار بن سليمان بن دلغادر التركمانى ، ويقال له « شاه سوار » ، نائب الأبلستين ومرعش ، خرج عن طاعة السلطة المملوكية عهد خشقدم ودارت حروب بينه وبين دولة المماليك هُزِم فيها المماليك ، ولما حكم قايتباى تمكن من هزيمته وقتله عام ٨٧٧هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٣ ص ٢٧٤.

(٢) أمين الآقصراى : يحيى بن محمد ، كان من كبار علماء الحنفية بمصر ، درس وأفتى ، توفى ٨٨٠هـ ، انظر : ابن إياس « بدائع الزهور » ح ٣ ص ١٠٧.

(٣) مجهول « حوادث الزمان » ص ٥٩، مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (١٤٦١٨) ، ابن شاهين « عبد الباسط بن خليل « ت ٩٢٠هـ » » « الروض الباسم فى حوادث العمر والتراجم » ح ٤ ص ١٨٣، مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (٢٤٠٣) ، ابن إياس « بدائع الزهور » ح ٣ ص ١٤.

(٤) العز بن عبد السلام : عبد العزيز بن عبد السلام ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء مصر ، وخطابة الجامع بدمشق ، وكان سلطان العلماء فى عصره ، توفى ٦٦٠هـ ، انظر : السبكى « تاج الدين عبد الوهاب « ت ٧٧١هـ » » « طبقات الشافعية الكبرى » ح ٨ ص ٢٠٩، مكتبة عيسى البابى الحلبى ، ١٩٧٤م .

(*) **المغول** : قبائل طورانية جاءت من أقصى الشرق حيث منغوليا ، ولقد استطاع جنكيزخان « ٥٥٠ ـ ٦٢٤هـ » أن يؤسس لهم إمبراطورية شاسعة عام ٦٠٣هـ/١٢٠٦م ، انظر : د. فايد حماد « العلاقات السياسية بين المماليك والمغول » ص ٢٧، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧٦م .

(٥) المقريزى « السلوك » ح ١ ص ٤١٦.

الدين النووى[(١)] « ت ٦٧٨هـ » عندما أراد الظاهر بيبرس[(٢)] فرض الأموال على الدمشقيون لدرء خطر المغول عام ٦٧٦هـ[(٣)] .

ولقد كان العلماء فى رأيهم السابق على صواب ، حيث أن المصادر التاريخية تذخر بمظاهر البذخ والترف الذى كان يعيشه المماليك[(٤)] ، والتى منها ما تذكره المصادر التاريخية من أن السلطان قايتباى[(٥)] عام ٨٩٥هـ/١٤٨٩م أقام حفل ختان لابنه استمر سبعة أيام متوالية ، قدم الأمراء خلالها من الأموال كهدايا ما يزيد على خمسين ألف دينار ، فضلاً على مظاهر البذخ المتنوعة التى أهدر فيها قايتباى الأموال الضخمة خلال هذا الاحتفال[(٦)] ، كما أن هذا السلطان كانت زوجته فاطمة الخاصكية لديها أملاك طائلة من قصور ووكالات تجارية وأراضى زراعية[(٧)]!!

أما بالنسبة للأمر الثانى ، **لماذا تراجع السلطان المملوكى عن جمع الأموال بعد معارضة العلماء له ؟**

---

(١) محيى الدين النووى : يحيى بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، صار رأس الشافعية بدمشق فى عصره ، درس وأفتى ، توفى ٦٧٨هـ ، انظرك السبكى « طبقات الشافعية » ح ٧ ص ٥١.

(٢) الظاهر بيبرس : هو المؤسس الحقيقى لدولة المماليك فى مصر والشام ، ولقد شغل كرسى السلطنة على مدار سبعة عشر عام ، توفى ٧٧٦هـ ، انظر : المقريزى « السلوك » ح ١ ص ٦٣٥.

(٣) السيوطى « حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة » ح ٢ ص ١٠٥، تحقيق محمد أبو الفضل ، مكتبة عيسى البابى الحلبى ١٩٦٨م .

(٤) د. أحمد عبد الرازق « البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك : دراسة عن الرشوة » ص ١٣٥، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٩م ، أحمد محمد « الوضع الاقتصادى فى مصر فى عصر الدولة المملوكية الأولى » ص ٤٨٢، دكتوراة ، آداب عين شمس ، ١٩٧٢م ، د. إبراهيم طرخان » النظم الإقطاعية فى دولة المماليك » ص ١١٨، دكتوراة ، آداب القاهرة ، ١٩٥٥م .

(٥) قايتباى : انظر : ص ٢٢ .

(٦) ابن إياس « بدائع الزهور » ح ٣ ص ٢٧١، تحقيق محمد مصطفى ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م .

(٧) وذلك ما تشهد به وثائق فاطمة الخاصكية التى وصلت إلينا ، انظر : مريم صالح « دراسة دبلوماتية لوثائق فاطمة الخاصكية » ص ٢٠ ـ ٧١، ماجستير ، آداب القاهرة ، ١٩٩٤م .

يرى الباحث أن ذلك يرجع إلى ما كان يتمتع به علماء مصر والشام من مكانه عالية ومحبة جارفة فى قلوب المصريين والشاميين، شهد بها مؤرخو العصر المملوكى وهم يترجمون لعلماء مصر والشام فى عبارات توضح وتؤكد تلك المكانة العالية والمحبة الجارفة التى حظى بها علماء مصر والشام والتى منها «أحبه العامة»، «أثنى الناس عليه»، «كان الناس يحبونه ويهرعون إليه فى كافة أمورهم ويزدحمون ببابه»، «حملت جنازته على الرؤوس ولم يستطع أحد من كثرة الزحام الوصول إليها»، «ووقع النوح عليه فى سائر الأقطار»، ومن أمثال هؤلاء العلماء الذين أورد المؤرخون فى تراجمهم العبارات السابقة:

«سعد الدين الديرى[1]، أمين الآقصراى[2]، ابن حجر العسقلانى[3]، بدر الدين الحكرى[4]» «من علماء مصر».

«تقى الدين الحصنى[5]، شمس الدين البلاطنسى[6]، أبو بكر بن قاضى عجلون[7]»، برهان الدين بن مفلح[8]» «من علماء دمشق».

---

(١) ابن شاهين «الروض الباسم» ص ٥٨، السخاوى «الضوء اللامع» ح ٤ ص ٢٥٠.

(٢) السخاوى «الضوء اللامع» ح ١٠ ص ٢٤٢، ابن إياس «بدائع الزهور» ح ٣ ص ١٠٧.

(٣) البقاعى «عنوان الزمان» ح١ ص ٥٦، مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (١٧٩٥١)، ابن الحمصى «حوادث الزمان» ح ١ ص ٩٠، السخاوى «الضوء اللامع» ح ٢ ص ٤٠.

(٤) ابن مفلح «برهان الدين إبراهيم «ت ٨٨٤هـ»» «المقصد الأرشد فى ذكر أصحاب أحمد» ح ٢ ص ٤٨١، تحقيق د. عبد الرحمن سليمان، مكتبة الرشد، الرياض، ط ١ (١٩٩٠م).

(٥) ابن خطيب الناصرية «ت ٨٤٣هـ» «الدر المنتخب فى تكملة تاريخ حلب» ص ٢٠٤، مخطوطة بمعهد المخطوطات برقم (١١٩٨)، البقاعى «عنوان الزمان» ح ١ ص ١٧٧، ابن قاضى شهبة «أبو بكر بن أحمد ت ٨٥١هـ» «طبقات الشافعية» ح ٢ ص ٣٠٨.

(٦) ابن الحمصى «حوادث الزمان» ح ١ ص ١٤٣.

(٧) الغزى «نجم الدين أبو المكارم «ت ١٠٦١هـ»» «الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة» ص ١١٥، تحقيق جبرائيل سليمان، بيروت، «د. ت».

(٨) ابن مفلح «المقصد الأرشد» ح ١ ص ٣٠، السخاوى «الضوء اللامع» ح ١ ص ١٥٢.

« شهاب الدين الرملى[1] ، نجم الدين بن جماعة[2] » « من علماء القدس » .

فكان إحساس الخوف من نفوذ العلماء لدى المصريين والشاميين هو البعد الرئيسى الذى يحكم العلاقة بين السلطة والعلماء ، ولعل ما يؤكد ذلك تلك الإشارات التاريخية التى وصلت إلينا والتى تؤكد المعنى السابق ، والتى منها ما ذكرته المصادر التاريخية أن السلطان الظاهر بيبرس[3] « ت ٧٧٦هـ » عندما علم بوفاة العالِم العز بن عبد السلام[4] « ت ٦٦٠هـ » قال : « اليوم استقر أمرى فى المُلك لأن هذا الشيخ لو كان يقول للناس أخرجوا عليه لانتزع المُلك منى »[5] ، وكان السلطان الناصر بن قلاوون[6] « ت ٧٤١هـ » يقول : « إنى لا أخاف من أحد إلا من العالم شمس الدين الحريرى[7] « ت ٧٤٥هـ » »[8] ، وكذلك عجز السلطة المملوكية عن المساس بالعالم أبو هريرة بن النقاش[9] « ت ٨١٩هـ » ـ

---

(١) البقاعى « عنوان الزمان » ح ١ ص ٦٧، مجير الدين الحنبلى « الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل » ح ٢ ص ١٧٤، المطبعة الحيدرية ، النجف الأشرف ، العراق ، ١٩٦٨م .

(٢) الغزى « الكواكب السائرة » ص ٢٥.

(٣) الظاهر بيبرس : انظر : ص ٢٤.

(٤) العز بن عبد السلام : انظر : ص ٢٣.

(٥) السبكى « طبقات الشافعية » ح ٨ ص ٢١٥.

(٦) الناصر بن قلاوون : هو من أقوى سلاطين دولة المماليك البحرية ، تولى الحكم ثلاث مرات ، الأولى فى عام ٦٩٣هـ واستمر سنة واحدة ثم عزل ، ثم تولى من عام ٦٩٨هـ حتى عام ٧٠٨هـ ، ثم أعيد للحكم عام ٧٠٩هـ واستمر على كرسى السلطنة حتى وفاته عام ٧٤١هـ ، وكانت هذه الولاية الثالثة أعظم تلك الولايات ، وازدهرت خلالها أحوال مصر والشام ، انظر : المقريزى « السلوك » ح ٢ ص ٥٢٩.

(٧) شمس الدين الحريرى : محمد بن عثمان ، تفقه على شيوخ عصره ، ولى قضاء دمشق ، ثم قضاء القاهرة ، ولد عام ٦٥٣هـ ، توفى ٧٢٨هـ ، انظر محيى الدين القرشى « عبد القادر بن محمد « ت ٧٧٥هـ » » « الجواهر المضيئة فى طبقات الحنفية » ح ٣ ص ٢٥٠، تحقيق د. عبد الفتاح محمد الحلو ، دار هجر للطباعة (ط ٢) (١٩٩٣م) .

(٨) ابن بطوطة « رحلة ابن بطوطة المسماة « تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » » ص ٦٣، شرحه وكتب هوامشه طلال حرب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ٢، (١٤١٣هـ/١٩٩٢م) .

(٩) أبو هريرة النقاش : عبد الرحمن بن محمد بن على ، ولد ٧٤١هـ ، تفقه بشيوخ عصره ، ولى خطابة جامع ابن طولون ، توفى ٨١٩هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٤ ص ١٤١.

خطيب جامع[1] ابن طولون ـ رغم تنديد هذا العالم بمظالم السلطة المملوكية من فوق منبر جامع ابن طولون ، وذلك بسبب حُبّ المصريين له[2] .

ومن ذلك أيضًا ما ذكرت المصادر التاريخية أن السلطان برسباى[10] « ت ٨٤١هـ » أرسل مرسومًا لنائبه بدمشق عام ٨٣٠هـ/١٤٢٦م بعدم الاقتراب أو المساس من العالم نجم الدين الحسبانى[11] رغم شكاوى أمراء الشام بأنه يُجاهر بمظالم المماليك وذلك لالتفاف أهالى دمشق حوله[12] ، وما كان السلطان قايتباى[13] « ت ٩٠١هـ » يقوم به من التودد والتواضع للعالم أمين الآقصراى[14] بالرغم من شدة هجومه عليه والتنديد بسياساته خوفًا من نفوذه لدى المصريين[15] .

والآن يعرض الباحث للشواهد التاريخية التى تدلل على معارضة العلماء فرض أموال على الرعية بعلة درء المخاطر الخارجية ، والتى يُلحظ عليها أنها جاءت فى شكل برقيات موجزة ـ كما سبق القول ـ .

---

(١) **جامع ابن طولون :** أنشأه السلطان أحمد بن طولون عام ٢٦٥هـ ، وهو يقع شرقى حىّ السيدة زينب جنوبى القاهرة ، وكان بمثابة جامعة علمية يُدرس بها العلوم المختلفة فى العصر المملوكى ، انظر : د. كرم حلمى « المسجد ودوره الحضارى فى ضوء مكانة جامع ابن طولون » ص ١٤٢، بحث نشر ضمن أعمال ندوة اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة عام ٢٠٠٢م ، وتم نشره فى كتاب بعنوان « الحضارة العربية الإسلامية فى العصور الوسطى » ، دار عين للنشر ، القاهرة ، ٢٠٠٢م .

(٢) الغزى « نجم الدين أبو المكارم « ت ١٠٦١هـ » » « بهجة الناظرين فى تراجم الشافعية المتأخرين » ص ١٢٦، مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (٣٦٠٠٣) ، ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٧ ص ٢٣٢، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٤ ص ١٤١.

(١٠) برسباى : انظر : ص ١٠.

(١١) نجم الدين الحسبانى : عمر بن حجى ، تفقه بشيوخ عصره ، تولى قضاء دمشق إحدى عشر عامًا ـ على فترات متفاوتة ـ ، توفى ٨٣٠هـ ، انظر : ابن طولون « قضاة دمشق » ص ١٤٣.

(١٢) ابن طولون « قضاة دمشق ص ١٤١.

(١٣) قايتباى : انظر : ص ٢٢.

(١٤) أمين الآقصراى : انظر : ص ٢٣.

(١٥) السخاوى « الضوء اللامع » ح ١٠ ص ٢٤١.

ومن ذلك ما أوردته المصادر التاريخية عام ٨٠٣هـ/١٤٠٠م عندما أراد السلطان فرج بن برقوق(١) فرض أموال على المصريين من أجل الاستعانة بها فى الدفاع عن البلاد من خطر المغول(٢) الذى كان يمثله ـ آنذاك ـ تيمورلنك(٣)، فاستدعى السلطان العلماء وطالبهم بإعطائه فتوى تجيز له ذلك، ولكن علماء مصر بقيادة العالم جمال الدين الملطى(٤) رفضوا ما أراد، وبيّنوا له عدم شرعية ذلك، وانفض المجلس دون اتخاذ قرار، ولكن السلطة المملوكية عقب ذلك بقليل صادرت أموال المصريين لمواجهة تيمورلنك(٥).

وفى عام ٨٣٩هـ/١٤٣٥م أراد السلطان برسباى(٦) فرض أموال على المصريين من أجل الاستعانة بها فى محاربة شاه رخ(٧) المغولى، لكن العلماء(٨) عارضوه، فتراجع السلطان(١٠).

---

(١) فرج بن برقوق: انظر: ص ١٥.

(٢) المغول: انظر: ص ٢٣.

(٣) تيمورلنك: تيمور: تعنى الحديد، اللنك: الأعرج، ولد فى قرية من أعمال كش من مدن بلاد ما وراء النهر ٧٣٧هـ/١٣٣٦م، استولى فى سرعة مدهشة على بلاد ما وراء النهر، ثم اتجه بعد ذلك إلى بلاد المشرق، وخرب بها مدن عامرة، توفى بسمرقند عام ٨٠٧هـ، انظر: محمد كرد «خطط الشام» ح ٢ ص ١٦١، المطبعة الحديثة، دمشق، ١٩٢٥م.

(٤) جمال الدين الملطى: يوسف بن موسى، تفقه على شيوخ عصره، تولى قضاء الحنفية بمصر، توفى ٨٠٣هـ، انظر: المقريزى «السلوك» ح ٣ ص ١٠٧٣.

(٥) ابن حجر العسقلانى: «إنباء الغمر» ح ٤ ص ١٩٢، المقريزى «السلوك» ح ٣ ص ١٠٢٨، ابن تغرى «النجوم الزاهرة» ح ١٢ ص ١٧٥، ابن الصيرفى «نزهة النفوس» ح ٢ ص ٩٨، ابن شاهين «نيل الأمل» ح ٣ ص ٤٦.

(٦) برسباى: انظر: ص ١٠.

(٧) شاه رخ: شاه رخ بن تيمور صاحب هراة وسمرقند وبخارى وشيراز وما والاها من بلاد العجم وغيرها، كانت علاقته بالدولة المملوكية عهد برسباى سيئة ثم تحسنت العلاقة عهد جقمق، وكانت سيرته فى بلاده حسنة بشكل عام، توفى ٨٥١هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ٣ ص ٢٩٧.

(٨) لم تذكر المصادر التاريخية علماء بأعينهم فى تلك الحادثة.

(١٠) ابن إياس «بدائع الزهور» ح ٢ ص ١٦٦، ابن الصيرفى «نزهة النفوس» ح ٣ ص ٣٣٥.

وفى عام ٨٧٢هـ/١٤٦٧م أراد السلطان قايتباى[١] فرض الأموال على المصريين لدرء خطر التركمان[٢] الذى كان يمثله آنذاك شاه سوار[٣]، ولكن العلماء بقيادة أمين الآقصراى[٤] عارضوه بقوة، فاضطر إلى التراجع ـ كما سبق القول ـ.

وفى عام ٨٧٣هـ/١٤٦٨م يكرر السلطان قايتباى[٥] المحاولة لدرء خطر التركمان، ولكن العلماء بقيادة أمين الآقصراى عارضوه بقوة، فاضطر إلى التراجع[٦].

أمّا فى عام ٨٩٤هـ/١٤٨٨م، عندما تزايد خطر العثمانيين[٧]، شرع السلطان قايتباى فى مصادرة أموال المصريين بالقوة، وبمجرد حدوث ذلك، اخذ العلماء[٨] ينددون بالسلطة المملوكية ونجحوا فى جعل المصريين يخرجون فى مظاهرات قوية تعلن رفضها وإنكارها لمصادرة أموالهم، فاضطر السلطان للتراجع، وكف يديه عن أموال المصريين[٩].

---

(١) قايتباى: انظر: ص ٢٢.

(٢) التركمان: انظر: ص ٢٢.

(٣) شاه سوار: انظر: ص ٢٣.

(٤) أمين الآقصراى: انظر: ص ٢٣.

(٥) قايتباى: انظر: ص ٢٢.

(٦) ابن شاهين «الروض الباسم» ح ٤ ص ٢١٠، ابن الصيرفى «إنباء الهر بأبناء العصر» ص ٣٣، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٧٠م.

(٧) **العثمانيون**: ينتسب العثمانيون إلى قبيلة أرتغرل التركية التى استوطنت الأناضول بعد اشتداد الخطر المغولى على آسيا الوسطى وعرفوا بالعثمانيين نسبة إلى عثمان مؤسسة دولتهم أواخر القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى، انظر: د. عصام شبارو «السلاطين فى المشرق العربى» ص ١٠٥، د. شميق إبراهيم «تاريخ الشرق الإسلامى الحديث وحضارته زمن المماليك والعثمانيين» ص ١٣١، مطبعة العمرانية، الجيزة، ١٩٩٩م.

(٨) لم تذكر المصادر التاريخية علماء بأعينهم فى تلك الحادثة.

(٩) السخاوى «الذيل التام على دول الإسلام» ص ٤٢٣، تحقيق أحمد عبد الله، ماجستير، آداب عين شمس، ١٩٦٨م.

أمّا بالنسبة لبلاد الشام فكان موقف علمائها لا يختلف عن موقف علماء مصر، ومن ذلك ما ذكرته المصادر التاريخية عام ٦٧٦هـ عندما أراد السلطان ظاهر بيبرس[١] فرض الأموال على أهالى دمشق للاستعانة بها فى حروبه ضد المغول، ولكن العالم محيى الدين النووى[٢] توجّه للسلطان بيبرس وخاطبه بحدة، حيث صرح له بعد شرعية جمع الأموال من الأهالى ما دام بيت المال ملئ بالمال، ثم أخذ يُحصى له ممتلكاته، ومظاهر البذخ والترف التى كان عليها السلطان وأمرائه، وهنا خشى الظاهر بيبرس بأس هذا العالم الذى لا يخشى فى الحق لومة لائم، فأصدر قرارًا بنفيه خارج حدود مملكته[٣].

ويتكرر المشهد السابق خلال القرن التاسع[*] عام ٨٠٣هـ/١٤٠٠م عندما أمر السلطان فرج[٤] بجمع أموال من أهالى دمشق لمواجهة خطر تيمورلنك[٥]، فتصدى علماء دمشق لهذا المرسوم وعارضوه[٦] بقوة، فاضطرت السلطة المملوكية إزاء معارضة العلماء إلى التراجع وكفت أيديها عن أموال الدمشقيين[٧].

أمّا ثانى المظالم التى عانى منها المصريون والشاميون فى ظل السلطة المملوكية ما يمكن أن نطلق عليه «مظالم الإداريين»، ويقصد الباحث بمظالم الإداريين تلك المظالم التى صدرت من أعضاء الجهاز الإدارى المملوكى تجاه المصريين والشاميين

---

(١) الظاهر بيبرس: انظر: ص ٢٤.

(٢) محيى الدين النووى: انظر: ص ٢٤.

(٣) السيوطى «حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة» ح ٢ ص ١٠٥، تحقيق محمد أبو الفضل، مكتبة عيسى البابى الحلبى، ١٩٦٨م.

(*) هذا المشهد التاريخى الذى صورته المصادر التاريخية عام ٨٠٣هـ هو المشهد الوحيد الذى رصدته المصادر التاريخية فى هذا الشأن.

(٤) فرج بن برقوق: انظر: ص ١٥.

(٥) تيمورلنك: انظر: ص ٢٨.

(٦) لم تصرح المصادر التاريخية الشامية كذلك بمظاهر هذه المعارضة وأبعادها، كما كان الحال فى المصادر التاريخية المصرية.

(٧) ابن شهبة «الإعلام بتاريخ أهل الإسلام» ص ٢٠٤.

مثل وظيفة الوالى[1] وشاد الأوقاف[2] وغير ذلك، وذلك لأن الجهاز الإدارى المملوكى استشرى فيه ظاهرة شراء الوظائف بالمال[3]، حيث يستطيع كل من يملك المبلغ المطلوب للوظيفة الوصول إليها بغض النظر عن معيار الكفاءة والعدالة، ولاشك أن هذا الخلل الإدارى أدى إلى معاناة المصريين والشاميين من هؤلاء الإداريين.

ولقد رصدت لنا المصادر التاريخية نماذج من هؤلاء الإداريين الذين عانى المصريون والشاميون من سوء إدارتهم ودور العلماء فى إقصاء هؤلاء الإداريين الذين عانى منهم المصريون والشاميون.

فتذكر المصادر التاريخية فى أحداث عام ٨٥٤هـ/١٤٥٠م معاناة أهل الشرقية[4] من ظلم[5]

---

(١) **الوالى**: هو الممثل المحلى للسلطان فى الولاية التى يتولاها، ويُطلق عليه أيضًا مُتولى الحرب، وكان يُختار من أمراء المماليك برتبة أمير طبلخاناة، انظر: القلقشندى «صبح الأعشى فى صناعة الإنشا» ح ٤ ص ٢١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٩م.

(٢) **شاد الأوقاف**: هو المسئول عن إدارة أوقاف المدينة، التى لم يشترط الواقف سبيلًا خاص لإدارتها، فيتولى استخلاص أجرة الأماكن الموقوفة ويُشرف على عمارتها، انظر: د. نقولا زيادة «دمشق فى عصر المماليك» ص ١٥٨، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٦٦م، د. محمد محمد أمين «تاريخ الأوقاف فى مصر عصر المماليك» ص ٣٩٩، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٠م.

(٣) تقى الدين الحصنى «أبو بكر بن محمد «ت ٨٢٩هـ»» «قمع النفوس» ص ٥، مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (٣٤٩٨٤)، الأسدى «التيسير والاعتبار» ص ٩٥، د. حياة ناصر «أحوال العامة فى حكم المماليك» ص ٢٦٦، دار القلم، الكويت، ١٩٩٤م، إسماعيل عبد المنعم «الأمراض الاجتماعية بين الطبقة الأرستقراطية المملوكية فى مصر زمن المماليك البحرية» ص ١٨٦، ماجستير، آداب عين شمس، ١٩٨٨م.

(٤) **الشرقية**: أصبحت أحد أقاليم مصر فى عهد الدولة الفاطمية، حيث كانت قبل ذلك مقسمة إلى عدة كور صغيرة، انظر: محمد رمزى «القاموس الجغرافى للبلاد المصرية» ح ٢ ص ٢٢، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٦٨م.

(٥) لم تشر المصادر التاريخية إلى مظاهر ظلم هذا الوالى، ولكن المصادر التاريخية ترصد لنا فى غير ذلك الموضع أحد مظاهر ظلم ولاة الدولة المملوكية، حيث تذكر أن بعض ولاة الأقاليم كانوا يحتكرون شراء جميع المحصول الزراعى لهذا الإقليم من السكان الفلاحين بسعر منخفض، مستخدمين فى سبيل ذلك كل ما يملكون من صلاحيات، فيضطر الفلاح إلى الرضوخ للأمر الواقع ويبيع جميع محصوله بالثمن =

والى الشرقية[1]، فصعد العالم شمس الدين البلاطنسى[2] إلى السلطان جقمق[3] وعرّفه بسوء سيرته وطالب بعزله، فعزله السلطان[4].

وفى عام ٨٥٥هـ/١٤٥١م ازداد ظلم شاد الأوقاف[5] وتضرر المصريون من سوء إدارته[6]، فصعد العالِم سعد الدين الديرى[7] إلى السلطان جقمق وطالب بعزله، فعزله السلطان[8].

أمّا فى دمشق عام ٨٠٤هـ/١٤٠١م عندما ازداد ظلم شاد الأوقاف[9]، وتضرر الدمشقيون من سوء مباشرته، فصعد العلماء[10] إلى الأمير تغرى بردى[11] نائب

= الذى يحدده الوالى مهما كان بخسًا وقليلًا، ثم بعد ذلك يبيع الوالى ذلك المحصول فى السوق بالسعر الذى يريد، ومن ذلك ما حدث عام ٨٥٤هـ بمدينة المحلة من قبل واليها، لمزيد من الإيضاح، انظر: السخاوى «التبر المسبوك» ص ١٧٥، د. حياة ناصر «أحوال العامة فى حكم المماليك» ص ٢٦٨.

(١) لم تحدد المصادر التاريخية اسم هذا الوالى.

(٢) شمس الدين البلاطنسى: محمد بن عبد الله، تفقه بشيوخ عصره، درس وأفتى، وذاع صيته وشهرته لدى المصريين والشاميين على السواء، توفى ٨٦٣هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ٨ ص ٨٦.

(٣) جقمق: انظر: ص ١١.

(٤) ابن تغرى: «حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور» ح ١ ص ١٢٨، تحقيق وليم بوير، طبعة كاليفورنيا، «د. ت».

(٥) لم تحدد المصادر التاريخية اسم شاه الأوقاف.

(٦) من مظاهر سوء إدارة شاه الأوقاف التلاعب بحسابات الأوقاف والتى منها استخلاص أجرة الأماكن الموقوفة، ومن مظاهر سوء الإدارة أيضًا عدم استثمار ريع تلك الأوقاف فى تنمية تلك الأوقاف وتعميرها، وذلك بالطبع يؤدى إلى انتفاء الغرض الجوهرى من وجود الأوقاف وهو تقديم يد العون الخيرى للمحتاجين، انظر: د. محمد محمد أمين «تاريخ الأوقاف فى مصر» ص ٣٩٩، د. نقولا زيادة «دمشق فى عصر المماليك» ص ١٥٨، د. حياة ناصر «أحوال العامة» ص ٣٥٦.

(٧) سعد الدين الديرى: انظر: ص ١٣.

(٨) ابن تغرى «حوادث الدهور» ح ١ ص ١١٠.

(٩) لم تحدد المصادر التاريخية اسم شاد الأوقاف.

(١٠) لم تشر المصادر التاريخية إلى علماء بأعينهم.

(١١) تغرى بردى: تولى نيابة دمشق أواخر رمضان ٨٠٣هـ، وعزل ذى القعدة ٨٠٥هـ، وكان عاقلًا لبيبًا، انظر: ابن طولون «إعلام الورى» ص ٥٧.

دمشق[1]، وأخبروه سوء سيرته، فعزله[2].

وفى عام ٨٥٤هـ/١٤٥٠م وصل العالم شمس الدين البلاطنسى[3] من دمشق إلى مصر ليشكو إلى السلطان جقمق[4] أبى الفتح الطيبى[5] وكيل بيت المال[6] بدمشق، حيث كان ظالمًا وتضرر الدمشقيون منه، فاستجاب السلطان له وعزل أبى الفتح واعتقله[7].

وفى عام ٨٦١هـ/١٤٥٦م عندما ازداد ظلم «استادار دمشق»[8]، كتب العالم شمس الدين البلاطنسى إلى السلطان إينال[9] يطالب بعزل الاستادار[10]، ولم تشر المصادر التاريخية هل استجاب السلطان للبلاطنسى أم لا؟!

وفى القدس[11] عام ٨٦٧هـ/١٤٦٢م قدم ....

(١) نائب دمشق: انظر: ص ١٤.

(٢) ابن قاضى شهبة «الإعلام بتاريخ أهل الإسلام» ص ٢٨٢.

(٣) شمس الدين البلاطنسى: انظر: ص ٣٢.

(٤) جقمق: انظر: ص ١١.

(٥) أبى الفتح الطيبى: أبو الفتح محمد الطيبى، كان فى بداية أمره يتكسب بالشهادة، ثم اتصل برجال الدولة، حتى تولى وكالة بيت المال بدمشق، توفى ٨٥٤هـ، انظر: ابن تغرى «حوادث الدهور» ص ٢٥٢.

(٦) **وكيل بيت المال**: هى من الوظائف الدينية ـ أى لا يتولاها إلا العلماء ـ، وموضوعها التحدث فيما يتعلق بمبيعات بيت المال ومشترياته من أراضى وآدر وغير ذلك، انظر القلقشندى «صبح الأعشى» ح ٤ ص ٣٧.

(٧) ابن تغرى «حوادث الدهور» ص ٢١٧، تحقيق فهيم شلتوت، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.

(٨) **استادار دمشق**: هو الذى يتكلم على الإقطاع والفلاحين بدمشق، انظر: د. أكرم حسن «نيابة دمشق» ص ٢٥٩.

(٩) إينال: انظر: ص ٦.

(١٠) البقاعى «إظهار العصر».

(١١) **القدس**: مدينة جبلية واقعة بين البحر الميت من الشرق، والبحر الأبيض المتوسط من الغرب، وتقع القدس على خط طول خمسة وثلاثين درجة وثلاث عشر دقيقة شرقى غرنتش، وخط عرض واحد وثلاثين درجة وسبع وأربعين دقيقة شمالًا، وتبعد عن دمشق مائتين وتسعين كيلو مترًا، وكانت القدس =

شيخ بلد الخليل[1] ـ عليه السلام ـ وهو العالِم سراج الدين عمر بن الجعبرى[2] إلى مصر، حيث شكا إلى السلطان خشقدم[3] سوء أحوال رعاياه بسبب سوء مباشرة «ناظر أوقاف القدس والخليل»[4]، فأُعلِم بأن السلطان سيرسل من يكشف عن ناظر الأوقاف[5] ويحاسبه[6]، ولم تشر المصادر التاريخية هل حوسب ناظر الأوقاف أم لا؟!

وفى عام ٨٩٢هـ/١٤٨٦م عندما زاد ظلم نائب القدس خضر بك[7] ـ من سفكه للدماء

= فى العصر المملوكى مدينة عظيمة محكمة البناء، وكانت إحدى نيابات الشام من الناحية الإدارية، انظر: محمد محمد حسن «موسوعة بيت المقدس والمسجد الأقصى» ح ٢ ص ٧٦٣، دار الأهلية للنشر، عمان، الأردن، ط ١ (٢٠٠٣م)، شفيق جاسر «العلاقة بين المسلمين والمسيحيين منذ الفتح الإسلامى حتى الحروب الصليبية» ص ٤، دكتوراة، آداب عين شمس، ١٩٨٠م.

(١) **الخليل**: هى قرية «جبرون» وهى تجاه بيت المقدس مما يلى القبلة، ولقد أُطلِق على هذه القرية اسم «الخليل» لأن الخليل إبراهيم ـ عليه السلام ـ دُفِن بها، انظر: برهان الدين الفزارى «إبراهيم بن عبد الرحمن «ت ٧٢٩هـ»» «باعث النفوس إلى زيارة القدس المحروس» ص ٧٧، تحقيق د. عبد الحميد صالح، مكتبة مدبولى، القاهرة، ط ١ (٢٠٠٣م)، مجير الدين الحنبلى «الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل» ح ٢ ص ٧٦.

(٢) سراج الدين عمر: عمر بن محمد بن على الجعبرى الخليلى، شيخ حرم سيدنا الخليل ـ عليه السلام ـ، تفقه ببلده، والقاهرة، درس وأفتى بالقدس، توفى ٨٩٣هـ، انظر: مجير الدين الحنبلى: «الأنس الجليل» ح ٢ ص ٢٠٩.

(٣) خشقدم: انظر: ص ١٢.

(٤) **ناظر أوقاف القدس والخليل**: هو الذى يتولى النظر فى كل ما يحتاج إليه الحرم الشريف بالقدس وحرم الخليل من إصلاح وترميم، فضلًا عن رواتب القائمين بالعمل فيهما، والإشراف والتصرف فى الأموال المخصصة للأوقاف الخاصة بهذين الحرمين، ونظرًا لأهمية تلك الوظيفة، كان فى الغالب لا يتولاها إلا نائب القدس أو كبار العلماء، انظر: د. على السيد «القدس فى العصر المملوكى» ص ٥١، دار الفكر للدراسات، القاهرة، ط ١ (١٩٨٦م).

(٥) لم تحدد المصادر التاريخية اسم ناظر الأوقاف.

(٦) البقاعى «إظهار العصر».

(٧) خضر بك: كان متوليًا نيابة القدس عام ٨٩٢هـ، ثم عزل ثم تولى عام ٨٩٦هـ، وأظهر فى الولاية الأخيرة العدل، توفى ٨٩٧هـ، انظرك مجير الدين «الأنس الجليل» ح ٢ ص ٢٧٩.

وأخذ أموال أهالى القدس بغير حق[١] ـ ، فكتب العالم نجم الدين بن جماعة[٢] إلى السلطان قايتباى[٣] يخبره بسوء سيرته ويطالب بعزله ، فعزله السلطان[٤] .

أمّا ثالث المظالم التى عانى المصريون والشاميون منها فى ظل حكم المماليك مظالم الجُلبان ، وهم المماليك الذين يجلبهم ويشتريهم السلطان أو الأمراء وكان معظمهم فوق سن البلوغ ، ولقد عانى المصريون من أذى وظلم هؤلاء الجلبان الذين اعتادوا على مهاجمة الأسواق والطرقات والمنازل من أجل النهب والسلب وخطف النساء وغير ذلك[٥] ، كما حدث بمصر عام ٨٦٠هـ/١٤٥٥م[٦] ، ٨٦٥هـ/١٤٦٠[٧] ، ٨٧٧هـ/١٤٧٢م[٨] .

ولقد قاوم المصريون هؤلاء الجلبان ـ قدر طاقتهم ـ ، ومن ذلك ما حدث عام ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م عندما حاول الجلبان نهب الاسواق وخطف النساء فقام المصريون بمهاجمتهم بالحجارة وقضبان الحديد ، فاضطروهم إلى الفرار[٩] ، ومن ذلك ما ذكره ابن إياس عام ٩٢١هـ بأنه « نودى فى القاهرة لا سوقى ولا تاجر يبهدل مماليك السلطان ، ولا يمسك

---

(١) مجير الدين الحنبلى « الأنس الجليل » ح ٢ ص ٢٧٩.

(٢) نجم الدين بن جماعة : محمد بن إبراهيم ، جُمِع له بين القضاء والتدريس بالقدس ، كما تولى خطابة المسجد الأقصى ، توفى ٩٠١هـ، انظر : الغزى « الكواكب السائرة » ص ٢٥.

(٣) قايتباى : انظر : ص ٢٢.

(٤) مجير الدين الحنبلى « الأنس الجليل » ح ٢ ص ٣٤٩.

(٥) د. عبد المنعم ماجد « التاريخ السياسى لدولة سلاطين المماليك » ص ١٣٢، د. عبد العزيز محمود « الرق فى مصر فى العصور الوسطى » ص ٤٤، مكتبة نهضة الشرق ، ١٩٨٣م ، هدية إمام « المماليك الجلبان ودورهم فى عصر دولة المماليك الجراكسة » ص ١٦٧، ماجستير ، آداب القاهرة ، ٢٠٠٣م ، د. لبيبة إبراهيم « الفتن والقلاقل الداخلية فى دولة سلاطين المماليك » ص ١٧٦، دكتوراة ، آداب القاهرة ، ١٩٩٩م .

(٦) ابن تغرى « حوادث الدهور » ح ٢ ص ٢٥١ « طبعة كاليفورنيا » .

(٧) البقاعى « إظهار العصر » .

(٨) عبد الرحمن محمود « قايتباى المحمودى » ص ١٠٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب « سلسلة الأعلام » رقم (٢٠) ، عام ١٩٧٨م .

(٩) عبد المنعم ماجد « التاريخ السياسى لدولة سلاطين المماليك » ص ١٣٩.

لأحد منهم فرس، ومن فعل ذلك قطعت يده ...»[1]، وهذا يوضح أن مقاومة المصريين لهؤلاء الجلبان كانت قائمة درءًا من أنفسهم وأموالهم وأعراضهم.

أمّا عن علماء مصر ودورهم فى كبح جماح فساد هؤلاء الجلبان، فلقد تمثل فى مطالبة السلطان بردع هؤلاء الجلبان وحبس رؤوس الفساد منهم أو نفيهم من البلاد، ومن ذلك ما ذكرته المصادر التاريخية عام ٨٦٠هـ/١٤٥٥م عندما زاد فساد الجلبان من حيث تعرضهم للمصريين بشتى أنواع الأذى من السلب والنهب، فصعد العلماء ـ وكان غالبهم من كبار علماء الحنفية[2] ـ، وخاطبوا السلطان إينال[3] بكلام حاد ـ على حد تعبير ابن تغرى ـ لردع هؤلاء الجلبان، بحبس أكابرهم، فاستجاب السلطان إينال لهم، فحبس رؤوس الفساد، وضرب بعضهم فارتدعوا وكفوا عن فسادهم، «وضج الناس للعلماء بالدعاء، وأكثروا الثناء عليهم»[4].

وفى عام ٨٦٥هـ/١٤٦٠م يتكرر المشهد السابق من أذى الجلبان للمصريين، فتصدى لهم عالمان جليلان هما سعد الدين الديرى[5]، أمين الآقصراى[6]، حيث خاطبا السلطان أحمد بن إينال بشأن فساد الجلبان، فاستجاب السلطان لهما ونفى رؤوس الفساد وضرب جماعة منهم[7].

أمّا عن مظالم هؤلاء الجلبان ببلاد الشام، فلم تشر المصادر التاريخية لهؤلاء الجلبان وطبيعة علاقاتهم بالشاميين، ولكن جاء ذكر عام عنهم فى مُؤلَفين لعالمين من علماء دمشق

---

(١) لطفى أحمد «الدور السياسى للشعب المصرى فى عصر المماليك الجراكسة» ص ٣٩٨، دكتوراة، آداب عين شمس، ١٩٩٩م.

(٢) لم يذكر ابن تغرى علماء بأعينهم، واكتفى بقوله: «أن غالبهم من كبار علماء الحنفية».

(٣) إينال: انظر: ص ١٠.

(٤) ابن تغرى «حوادث الدهور» ح ٢ ص ٢٧٨ «طبعة كاليفورنيا».

(٥) سعد الدين الديرى: انظر: ص ١٣.

(٦) أمين الآقصراى: انظر: ص ٢٣.

(٧) أحمد بن إينال: انظر: ص ١٢.

(٨) البقاعى «إظهار العصر».

فى القرن التاسع الهجرى[(١)] ، حيث أوضح هذان العالمان فى مُؤلفيهما أن هؤلاء الجلبان الحقوا بالشاميين شتى أنواع الظلم من سلب ونهب[(٢)] ، وذلك بشكل مجمل وعام لا يظهر فيه موقف أهالى الشام وعلماءها من ظلم هؤلاء الجلبان .

أما رابع المظالم التى عانى المصريون والشاميون منها فى ظل حكم المماليك « السُخرة » ، حيث كان ولاة الأمر « المماليك » لا يجدوا مانعًا فى تسخير العامة بأعمال البناء والإصلاح عن طريق القوة والإجبار دون أجر[(٣)] .

ولقد قاوم العلماء ذلك الظلم ، ومن ذلك ما تذكره المصادر التاريخية عام ٨١٩هـ/ ١٤١٦م عندما شرع السلطان المؤيد شيخ[(٤)] فى بناء مسجده[(٥)] ، حيث قام شاد العمائر[(٦)]

---

(١) هذان العالمان هما تقى الدين الحصنى « ت ٨٢٩هـ » ، وتقى الدين البلاطنسى « ت ٩٣٦هـ » ، أمّا المؤلفان فهما « قمع النفوس » لتقى الدين الحصنى ، و « تحرير المقال فيما يحل ويحرم من بيت المال » لتقى الدين البلاطنسى .

(٢) تقى الدين الحصنى « أبو بكر بن محمد « ت ٨٢٩هـ » » « قمع النفوس » ص ١٧، مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (٩٩٥ تصوف) ، ومكروفيلم برقم (٣٤٩٨٤) ، تقى الدين البلاطنسى « محمد بن عبد الله « ت ٩٣٦هـ » » « تحرير المقال فيما يحل ويحرم من بيت المال » ص ١٠٥، تحقيق فتح الله محمد ، دار الوفاء ، المنصورة ، ١٩٨٩م .

(٣) تقى الدين الحصنى « قمع النفوس » ص ٨٨، محمد كرد « خطط الشام » ح ٥ ص ٦٧، د. حياة ناصر « احوال العامة » ص ٣٠٢، د. البيومى إسماعيل « مصادرة الأملاك فى الدولة الإسلامية زمن سلاطين المماليك » ص ١٣٨، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، « سلسلة تاريخ المصريين رقم (١١١) ، د. خلف عبد العليم « الحياة الاقتصادية فى بلاد الشام » ١٤٦، د. ليبية إبراهيم « الفتن والقلاقل » ص ١٠٢.

(٤) المؤيد شيخ : أبو النصر شيخ المحمودى ، تولى كرسى السلطنة عام ٨١٥هـ ، وظل متوليًا حتى وفاته ٨٢٤هـ ، انظر : ابن شاهين « نزهة الأساطين » ص ١٢٦.

(٥) ذلك المسجد هو جامع المؤيد شيخ الذى شرع فى عمارته فى الخامس من صفر عام ٨١٩هـ ، وتم افتتاحه رسميًا ٢١ شوال ٨٢٢هـ ، ولقد تكلف بناء هذا الجامع ٤٠٠ ألف دينار ، ولقد أوقف شيخ عليه الأوقاف الهائلة بمصر والشام ، انظر : د. فهمى عبد العليم « جامع المؤيد شيخ » ص ٢٣.

(٦) **شاد العمائر** : هو القائم على عمارة الأماكن السلطانية ، ويقال له ناظر العمارة أيضًا ، ولهذا الشاد الأمر على المهندسين والنجارين والحجارين ، وما تحتاج إليه العمارة ، انظر : ابن كنان « محمد بن عيسى « ت ١١٥٣هـ » » « حدائق الياسمين فى ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين » ص ١٣٦، تحقيق عباس صبّاغ ، دار النفائس ، بيروت ، ط ١ (١٤١٢هـ/١٩٩١م) .

بتسخير المصريين فى عمارة هذا المسجد ، فصعد العالم شرف الدين التبانى[(١)] إلى السلطان شيخ وأخبره بذلك ، فأمر السلطان شيخ أن لا يُسخر أحد فى عمارة مسجده[(٢)] .

وفى عام ٨٤٦هـ/١٤٤٢م قامت السلطة المملوكية بتوسيع الطرقات والشوارع بمدينة القاهرة[(٣)] وإزالة المخلفات منها وهدم ما أُنشئ فى هذه الشوارع بغير طريق شرعى ، وذلك بعد استفتاء العلماء الذين أجازوا لهم ذلك[(٤)] ، ولكن حدث أثناء ذلك تسخير المصريين فى هذا العمل ، فصعد العلماء للسلطان جقمق[(٥)] ، وأخبروه بأن تسخير المصريين فى هذا العمل غير جائز شرعًا وطالبوه برفع ذلك الظلم ، فاستجاب السلطان جقمق للعلماء[(٦)] .

وعلى الرغم من أن المصادر التاريخية لم تذكر لنا حوادث بعينها تدل على مقاومة علماء الشام السُخرة ، إلا أن المصادر التاريخية أوردت لنا فى ثنايا تراجم علماء الشام وكذا علماء مصر عبارات تشهد بأن علماء الشام وعلماء مصر خلال القرن التاسع كافحوا بلسانهم مظالم المماليك بشكل عام سواء كانت مالية أو صادرة عن الجلبان أو متمثلة فى السخرة ، ولاشك أن هذه العبارات التى أوردها المؤرخون ـ على الرغم من كونها مقتضبة وموجزة ـ

---

(١) شرف الدين التبانى : محمد بن يعقوب ، تفقه على شيوخ عصره ، درس ، وتولى وكالة بيت المال والحسبة بمصر ، توفى ٨٢٧هـ ، انظر : المقريزى « السلوك » ح ٤ ص ٦٧٣، ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٨ ص ٦٢.

(٢) ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٧ ص ٣٠٨.

(٣) **القاهرة** : بناها القائد جوهر المعزّى لمولاه المعز بن المنصور بن المهدى الفاطمى عام ٣٥٨هـ ، ولقد اهتم بعمارتها الفاطميين وكذا الأيوبيين ، وبلغت أوج ازدهارها عهد المماليك لكونها عاصمة الدولة ومقر السلطان ، انظر : القلقشندى « صبح الأعشى فى صناعة الإنشا » ح ٣ ص ٣٤٤، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة ، « د. ت » .

(٤) أشارت تعاليم الإسلام إلى حق الطريق ، وعدم التعدى عليه بأى شكل من الأشكال ، ولقد تناول علماء القرن التاسع هذا الموضوع بالتقعيد الفقهى وأفردوا له المؤلفات ، وكثرت الفتاوى التى صدرت عنهم فى ذلك الشأن ، وسوف يتناول الباحث هذا الموضوع بشىء من التفصيل بفصل « العلماء والحياة الاجتماعية والدينية » عند الحديث عن العلماء والعمران .

(٥) جقمق : انظر : ص ٨.

(٦) ابن شاهين « الروض الباسم » ص ٦٤، ٦٥، ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٩ ص ١٨١، ١٨٢.

تمثل دليلًا جديدًا ـ يضاف إلى ما تم ذكره ـ يدحض الآراء القائلة بأن علماء مصر والشام أداة استخدمها المماليك لإسباغ الشرعية على المظالم التى ارتكبوها فى حق المصريين والشاميين[١] ، أو أنهم لم يكافحوا السلطة المملوكية بألسنتهم لرفع تلك المظالم، وأنهم التزموا الصمت[٢] .

أولًا : ما أورده المؤرخون فى تراجم علماء مصر من عبارات تؤكد قيامهم بمجاهدة السلطة المملوكية باللسان :

لقد ذكرت المصادر التاريخية فى ثنايا ترجمة العالم شمس الدين الديرى[٣] « كانت له معارك ضارية ضد الأمراء يكفهم عن الظلم، ذلك والسلطان والأمراء خاضعون له »[٤] .

ومن ذلك أيضًا ما ورد فى ترجمة العالم سعد الدين الديرى[٥] « كان يتصدى لظلم السلطان والأمراء فيردعهم »[٦] ولذلك لقبه المصريون بـ« سلطان العلماء »[٧] .

وكذا العالم أبو هريرة بن النقاش[٨] ـ خطيب جامع ابن طولون[٩] ـ الذى ذكرت المصادر

---

(١) د. قاسم عبده قاسم « عصر سلاطين المماليك » ص ١٨، دار الشروق، القاهرة، ط ١ (١٩٩٤م)، د. قاسم عبده « بعض مظاهر الحياة اليومية فى عصر سلاطين المماليك » ص ٧، دار المعارف للطباعة، تونس، « د. ت »، د. علاء طه « عامة القاهرة فى عصر سلاطين المماليك » ص ٨٤.

(٢) ايرالابدوس « مدن إسلامية فى عهد المماليك » ص ٢٤٠، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٧م، جيرار ديجورج «دمشق من عصور ما قبل التاريخ إلى الدولة المملوكية» ص ٢١٧، ترجمة محمد رفعت عواد، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥م.

(٣) شمس الدين الديرى : محمد بن سعد، تفقه بشيوخ عصره، درس وأفتى، ولى قضاء الحنفية بمصر، وباشر بعفة، توفى ٨٢٧هـ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٤ ص ١٥.

(٤) التميمى « تقى الديت « ت ١٠١٠هـ » » « الطبقات السنية فى تراجم الحنفية » ح ٤ ص ١٥، دار الرفاعى، الرياض، ١٩٨٣م، ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٨ ص ٦٠، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٤ ص ١٥.

(٥) سعد الدين الديرى : انظر : ص ١٣.

(٦) البقاعى « إظهار العصر »، ابن تغرى « المنهل الصافى » ح ٥ ص ٣٨٩، الغزى « الطبقات السنية فى تراجم الحنفية » ح ٤ ص ٢٢.

(٧) ابن شاهين « الروض الباسم فى حوادث العمر والتراجم » ص ٥٨.

(٨) أبو هريرة النقاش : انظر : ص ٢٦.

(٩) جامع ابن طولون : انظر : ص ٢٧.

التاريخية فى ثنايا ترجمته « ظل يجاهر بظلم السلطة المملوكية من فوق منبر جامع ابن طولون ، والسلطان عاجز عن عزله لحُبّ المصريين له »[1] .

هذه فقط نماذج لأقوال المؤرخين التى تشهد بالدور الكفاحى الذى مارسه هؤلاء العلماء لدرء المظالم عن المصريين بلسانهم ، حيث أثبت المؤرخون هذا الدور الكفاحى لكثير من علماء مصر فى ثنايا تراجمهم أمثال سراج الدين البلقينى[2] « ت ٨٠٥هـ » ، علاء الدين البخارى[3] « ت ٨٤١هـ » ، أبى القسم النويرى[4] « ت ٨٥٧هـ » ، تقى الدين المنفلوطى[5] « ت ٨٨١هـ » ، زكريا الأنصارى[6] « ت ٩٢٦هـ » ، وجمال الدين عبد القادر « ت ٩٣١هـ »[7] .

ثانيًا : ما أورده المؤرخون فى تراجم علماء بلاد الشام من عبارات تؤكد قيامهم بمجاهدة السلطة المملوكية باللسان :

ففى « دمشق » نجد ـ على سبيل المثال ـ ما ذكرته المصادر التاريخية فى ثنايا ترجمة العالِم شهاب الدين الباعونى[8] ـ خطيب الجامع الأموى[9] ـ « كان له حكايات مع أمراء دمشق

---

(١) الغزى « بهجة الناظرين فى تراجم الشافعية المتأخرين » ص ١٢٦، ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٧ ص ٢٣٢، ابن قاضى شهبة « طبقات الشافعية » ص ٢٧٠، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٤ ص ١٤١، المقريزى « درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة » ح ٢ ص ٢٤٣، تحقيق د. محمود الجليلى ، دار الغرب الإسلامى ، بيروت ، ط ١ (٢٠٠٢م) .

(٢) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٦ ص ٨٩، ابن حجر العسقلانى « إنباء الغمر » ح ٥ ص ١٠٧، ابن شهبة « طبقات الشافعية » ح ٢ ص ٢٧٥.

(٣) ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٩ ص ٢٣، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٥ ص ٤٢.

(٤) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٩ ص ٢٤٨.

(٥) ابن شاهين « عبد الباسط بن خليل « ت ٩٢٠هـ » » « المعجم المفنن بالمعجم المعنون » ص ٥٤، مخطوطة بمكتبة الإسكندرية برقم (٨٠٠ب) .

(٦) الغزى « الكواكب السائرة » ص ١٩٦.

(٧) الشعرانى « لواقح الأنوار » ص ٥٦.

(٨) شهاب الدين الباعونى : أحمد بن ناصر بن خليفة ، تفقه بشيوخ عصره ، ولى قضاء دمشق وخطابة الجامع الأموى بدمشق ، توفى ٨١٦هـ ، انظر : ابن شهبة « طبقات الشافعية » ح ٢ ص ٢٦٣.

(٩) **الجامع الأموى :** هو الجامع الذى أنشأه الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك عام ٨٩هـ ، ولقد انفق الوليد =

يصدهم فيها عن الظلم، وينتصر فيها عليهم، وظل يجاهر بظلمهم من فوق منبر الجامع الأموى »[١] .

وكذا العالم نجم الدين الحسبانى[٢] الذى ذكرت عنه المصادر التاريخية « كان له معارك ضارية ضد أمراء دمشق ونوابها، وبخاصة نائب دمشق تنبك العلائى[٣] »[٤]، ولقد أدى كفاح هذا العالم ضد أمراء دمشق ونوابها إلى كثرة شكاوى هؤلاء للسلطان برسباى[٥] لردعه فأرسل لهم مرسوما عام ٨٣٠هـ/١٤٢٦م بعدم الاقتراب والمساس منه بسبب مكانته فى قلوب أهالى دمشق[٦]، فلما عجز المماليك عن التصدى له علنًا، قامت باغتياله عام ٨٣٠هـ/١٤٢٦م، حيث اتّهم أهالى دمشق السلطة المملوكية بأنها وراء مقتله المريب[٧] .

وهذه فقط نماذج للأقوال التى أوردها المؤرخون فى ثنايا تراجم علماء دمشق، حيث أثبت المؤرخون هذا الدور الكفاحى لكثير من علماء دمشق أمثال تقى الدين الحصنى « ت ٨٢٩هـ »[٨]، وشمس الدين البلاطنسى « ت ٨٦٣هـ »[٩]، والزين أبو الفرج

= فى عمارته أموالًا طائلة، وكان هذا الجامع فى العصر المملوكى يدرس فيه فنون العلم من تفسير وحديث ونحو ذلك، انظر: ابن بطوطة « رحلة ابن بطوطة » ص ٩٤، د. محمد أحمد دهمان « مدارس دمشق وحماماتها » ص ٣٢٠، مقال بمجلة المجمع العلمى العربى، دمشق، عدد رمضان، ١٣٦٦هـ.

(١) ابن شاهين « المعجم المفنن » ص ٣٥، ابن خطيب الناصرية » الدر المنتخب فى تكملة تاريخ حلب » ص ١٣٣، ابن شهبة « طبقات الشافعية » ح ٢ ص ٢٦٣، ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٧ ص ١٢٤، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٢ ص ٢٣١.

(٢) نجم الدين الحسبانى: انظر: ص ٢٧.

(٣) تنبك العلائى: تنبك بن عبد الله العلائى، ولى نيابة دمشق ٨١٩هـ، واستمر حتى عام ٨٢٢هـ ثم تولى عام ٨٢٤هـ حتى وفاته ٨٢٦هـ، وكان من المفسدين، انظر: ابن تغرى « المنهل الصافى » ح ٤ ص ١٣.

(٤) ابن شهبة « طبقات الشافعية » ح ٢ ص ٣٢٣، ابن طولون « قضاة دمشق » ص ٣٦.

(٥) برسباى: انظر: ص ١٠.

(٦) ابن طولون « قضاة دمشق » ص ١٤١.

(٧) ابن طولون « قضاة دمشق » ص ١٤٣.

(٨) ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٨ ص ١١١، ابن شهبة « طبقات الشافعية » ح ٢ ص ٣٠٨.

(٩) البقاعى « عنوان الزمان » ح ٢ ص ٥٨٤، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٨ ص ٨٦.

« ت ٨٥٦هـ »[1] ، وتقى الدين ابن عجلون « ت ٩٢٨هـ »[2] ، ورضى الدين أبو الفضل « ت ٩٣٥هـ »[3] .

وبـ « القدس » نجد على سبيل المثال ـ ما ذكرته المصادر التاريخية فى ثنايا ترجمة العالِم شهاب الدين الرملى[4] « كانت له معارك ضارية مع الأمراء وبخاصة نائب القدس طوغان[5] »[6] ، وكذا العالِم تقى الدين أبو بكر[7] الذى ورد فى ثنايا ترجمته « كان يأمر بالمعروف ويُخلص المظالم من نواب القدس »[8] .

ومن علماء القدس الذين أورد المؤرخون فى تراجمهم أمثال هذه العبارات التى تثبت كفاحهم لمظالم المماليك ـ على سبيل المثال ـ العالم ابن أبى الوفا[9] « ت ٨٦٥هـ »[10] ،

---

(١) ابن مكى « محمد بن عبد الله « ت ١٢٩٥هـ » » « السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة » ح ٢ ص ٤٨١، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٩٦م .

(٢) الغزى « الكواكب السائرة » ح ١ ص ١١٥.

(٣) ابن طولون « ذخائر القصر فى تراجم نبلاء العصر » ص ٤٨٣، مخطوطة بدار الكتب المصرية ، برقم (٢٥٣٦٤) .

(٤) شهاب الدين الرملى : أحمد بن حسين بن أرسلان ، تفقه على شيوخ عصره ، حتى صار إمامًا متقدمًا فى الفقه والتفسير والحديث ، توفى ٨٤٤هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ٢٨٥.

(٥) طوغان : طوغان بن عبد الله العثمانى ، تولى نيابة القدس ثم نيابة غزة حتى توفى بها عام ٨٥٢هـ ، وكان من الظالمين ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٤ ص ١١.

(٦) ابن شاهين « المعجم المفنن » ص ٨٥، مجير الدين الحنبلى « الأنس الجليل » ح ٢ ص ١٧٤، البقاعى « عنوان الزمان » ح ١ ص ١٥، السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ٢٨٥.

(٧) تقى الدين أبو بكر : أبو بكر بن محمد بن على ، تفقه على شيوخ عصره ، درس وأفتى ، وكان من كبار فقهاء القدس ، ولد ٧٣٦هـ ، انظر : البقاعى « عنوان الزمان » ح ١ ص ١٧٧.

(٨) البقاعى « عنوان الزمان » ح ١ ص ١٧٧.

(٩) أبو الوفاء العراقى : أبو بكر بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، كان كثير الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وتخليص المظالم من نواب القدس ، ولد ٧٩٣هـ ، انظر البقاعى « برهان الدين « ت ٨٨٥هـ » » « عنوان الزمان بتراجم الشيوخ والأقران » ح ٢ ص ١٢٢، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م ، السخاوى « الضوء اللامع » ح ١١ ص ٨٤.

(١٠) السخاوى « الضوء اللامع » ح ١١ ص ٨٥، البقاعى « عنوان الزمان » ح ٢ ص ١٢٢.

والعالم سعد الله الفارسى « ت ٨٩٠هـ »[١] .

أمّا « حلب » فنجد ـ على سبيل المثال ـ ما ذكرته المصادر التاريخية فى ثنايا ترجمة العالم أبو زرعة الأنصارى[٢] ـ خطيب المسجد الجامع[٣] ـ « كان يجاهر بظلم السلطة المملوكية حتى أنه صرح بمظالم السلطة المملوكية فى جرأة وشجاعة ـ وهو يخطب بجامع حلب ـ على مسامع السلطان المؤيد شيخ[٤] ، وذلك دون أن يخاف بأسه وعقابه »[٥] .

وكذا ما جاء فى ثنايا ترجمة العالم ابن أبى البركات[٦] « كان لا يخشى بأس المماليك وظل يجاهر بمظالمهم ، لا تأخذه لومة لائم »[٧] .

أما طرابلس الشام[٨] فنجد ـ على سبيل المثال ـ ما ورد فى ثنايا ترجمة العالم تاج الدين

---

(١) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٣ ص ٢٤٧.

(٢) أبو زرعة الأنصارى : محمد بن موسى الأنصارى ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى خطابة الجامع الكبير بحلب ، توفى ٨٢٥هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ١٠ ص ٦٥.

(٣) **المسجد الجامع** : ويسمى ـ أيضًا ـ الجامع الكبير ، اختطه الصحابة عندما فتح أبو عبيدة الجراح ـ رضى الله عنه ـ مدينة حلب ، ثم جدد بناءه الخليفة سليمان بن عبد الملك « ت ٩٩هـ/٧١٧م » ، وقيل إنما هو الوليد بن عبد الملك « ت ٩٦هـ/٧١٥م » ، ولم يبق من البناء الأموى سوى السور ، وكان هذا الجامع يضاهى جامع دمشق فى الزخرفة والرخام ، وبناءه الحالى يرجع للعهد المملوكى باستثناء منارته التى يرجع تاريخها إلى سنة ٤٨٢هـ/١٠٨٩م ، انظر : ابن العجمى « كنوز الذهب » ح ١ ص ٢٠٦، حامد زيان « حلب فى العصر الزنكى » ص ١٧٠، ماجستير ، آداب القاهرة ، ١٩٧٠م ، د. عبد الرحمن سليمان « الحياة العلمية فى القرنين السابع والثامن الهجريين » ، ص ٩٧، د. أحمد رمضان « العمائر الدينية فى بلاد الشام فى العصر الأيوبى والمملوكى » ص ١٣٢، مقال بمجلة كلية الآثار « عدد خاص » عام ١٩٧٨م .

(٤) المؤيد شيخ : انظر : ص ٣٧.

(٥) ابن الحنبلى « محمد بن إبراهيم « ت ٩٧١هـ » » « در الحبب فى أعيان حلب » ح ٢ ص ٢٧، مخطوطة بدار الكتب المصرية ، برقم (١٨٤١٩) .

(٦) ابن أبى البركات : محمد بن على ، تفقه على شيوخ عصره ، درس وأفتى بحلب ، توفى ٨٢٦هـ ، انظر : ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٦ ص ٧٠.

(٧) محمد راغب « إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء » ح ٥ ص ١٧٣، دار العلم العربى ، حلب ، ١٩٢٣م .

(٨) طرابلس الشام : سبق التعريف بها ، انظر : ص ١٥.

عبد الوهاب[1] « تصدى لأمراء طرابلس فأردعهم وكفهم عن الظلم ، وظل يجاهر بظلمهم من على رؤوس المنابر »[2] .

* العلماء وثورات المصريين والشاميين ضد الولاة والنواب :

لقد عرف تاريخ الفقه الإسلامى فى مسألة الخروج على السلطة الحاكمة بالقوة والثورة عليها اتجاهين رئيسيين :

الاتجاه الأول : « مدرسة الصبر » :

يُعرف هذا الاتجاه بـ « مدرسة الصبر » ، وذلك لأن هذا الاتجاه لا يجيز الخروج على السلطة الحاكمة الجائرة بالقوة « اليد » ، وأنه يجب الصبر على ظلمه ، وذلك خوفًا من الفتن ، وتقتصر معارضة الحاكم الجائر فى رأى هذا الاتجاه على اللسان فقط ، ويُمثل هذا الاتجاه غالبية علماء أهل السنة[3] ، كالإمام مالك بن أنس « ت ١٧٩هـ »[4] ، والإمام أبو حامد الغزالى « ت ٥٠٥هـ »[5] .

---

(١) تاج الدين عبد الوهاب : عبد الوهاب بن محمد بن يحيى بن زهرة ، تفقه بشيوخ عصره ، درس وأفتى ، وخطب بطرابلس ، توفى ٨٩٥هـ ، انظر : ابن الملا الحلبى « أحمد بن محمد « ت ١٠٠٣هـ » » « متعة الأذهان من التمتع بالأقران » ح ١ ص ٤٨٧ ، تحقيق صلاح الدين خليل ، دار صادر ، بيروت ، ط ١ (١٩٩٩م) .

(٢) ابن طولون « ذخائر القصر » ص ٢٥٦ .

(٣) نيفين عبد الخالق « المعارضة فى الفكر الإسلامى » ص ٢٣٣ ، دكتوراة ، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٣م ، زهراء محمد « الأمة وعلاقاتها بأولى الأمر : دراسة مقارنة بين الفقه السياسى الإسلامى والقوانين الوضعية » ص ٣٤٦ ، ماجستير ، كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة ، ٢٠٠٠م .

(٤) نيفين عبد الخالق « المعارضة فى الفكر الإسلامى » ص ٢٥٧ ، زهراء محمد « الأمة وعلاقاتها بأولى الأمر » ص ٣٤٨ .

(٥) الغزالى « أبو حامد محمد « ت ٥٠٥هـ » » « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » ص ٦٧ ، تحقيق سيد إبراهيم ، دار الحديث ، القاهرة ، ١٩٩١م .

الاتجاه الثانى : « مدرسة التمكن » :

يُعرف هذا الاتجاه بـ « مدرسة التمكن » ، ويذهب هذا الاتجاه أن الخروج على السلطة الحاكمة الجائرة بالقوة « اليد » والثورة عليها أمر جائز شرعًا ، بل هو أمر واجب ، ولكنهم اشترطوا لهذا الخروج أن يتوفر له أسباب النجاح بحيث تأتى الثورة بالعادل الصالح مكان الظالم ، بمعنى الموازنة بين المصالح والمفاسد عند الخروج على السلطة الحاكمة ، وامتلاك الثائرين القوة والقدرة على خلع الحاكم بأقل قدر من الخسائر فى الأنفس والأموال ، ويمثل هذا الاتجاه بعض علماء أهل السنة[(١)] ، كالإمام أبو حنيفة النعمان « ت ١٥٠هـ »[(٢)] ، والإمام ابن حزم الظاهرى « ت ٤٥٦هـ »[(٣)] ، وابن تيمية « ت ٧٢٨هـ »[(٤)] .

وهنا يُثار تساؤل إلى أى اتّجاه كان علماء مصر والشام فى فترة البحث ينتمون فى مسألة الخروج على الحاكم بالقوة ؟

ذكر ابن جماعة[(٥)] « ت ٧٣٣هـ » فى كتابه « تحرير الأحكام فى تدبير أهل الإسام » أنه لا يجوز الخروج على الحاكم الجائر ، لأن الخروج عليه سوف يثير الفتنة ، ولقد أورد ابن جماعة رأيه السابق فى تلك المسألة خطيرة الشأن دون إيضاح وتفصيل ، مكتفيًا بقوله بعد جواز

---

(١) نيفين عبد الخالق « المعارضة فى الفكر الإسلامى » ص ٢٦٣، زهراء محمد « الأمة وعلاقاتها بأولى الأمر » ص ٣٥٣.

(٢) نيفين عبد الخالق « المعارضة فى الفكر الإسلامى » ص ٢٧٣، زهراء محمد « الأمة وعلاقاتها بأولى الأمر » ص ٣٥٣.

(٣) صلاح الدين بسيونى « ابن حزم وأراؤه الكلامية والأخلاقية » ص ٤٧٥ ـ ٤٨٢، دكتوراة ، كلية الآداب ـ قسم الفلسفة ـ ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٨م .

(٤) يذكر ابن تيمية فى ذلك الشأن ما نصُّه « إن القاعدة العامة إذا تعارضت المصالح والمفاسد فإنه يجب ترجيح الراجح منها أى الموازنة بين المصالح والمفاسد ، وذلك عند حديثه هل يجوز الخروج ـ » ، انظر : ابن تيمية « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » ص ٢٥، تحقيق د. محمد رشاد سالم ، مكتبة السنة ، القاهرة ، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م .

(٥) ابن جماعة : محمد بن إبراهيم ، تفقه بشيوخ عصره ، من كبار فقهاء الشافعية بمصر فى عصره ، ولى قضاء الشافعية بمصر ، توفى ٧٣٣هـ ، انظر : السبكى « طبقات الشافعية الكبرى » ح ٩ ص ١٣٩.

الخروج درءًا للفتن، وأن جور الحاكم يجب أن يقابله الصبر من الرعية « المحكومين »[1] .

وما ذكره ابن جماعة ذكره القلقشندى[2] « ت ٨٢١هـ » فى كتابه « مآثر الإنافة فى معالم الخلافة » حيث أيد رأى ابن جماعة ـ السابق ذكره ـ، مضيفًا أن هذا الرأى هو ما يراه غالب علماء الشافعية[3] .

أمّا عن كتابات علماء الشام التى تعرضت لهذه القضية، فنجد العالم الزين أبو الروح[4] « ت ٨٥٦هـ » فى كتابه « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » يذكر ـ أيضًا ـ أن معارضة الحاكم الجائر تقتصر على اللسان ولا تتعدى إلى اليد « القوة » خشية الفتنة[5] .

وما ذكره الزين أبو الروح ذكره ابن المبرد[6] « ت ٩٠٩هـ » فى كتابه « ذم الهوى والذعر فى أحوال الزعر[*] »، حيث يرى أنه لا يجوز الخروج على السلطة الجائرة بالقوة لأن ذلك

---

(١) ابن جماعة « تحرير الأحكام فى تدبير أهل الإسلام » ص ٤.

(٢) القلقشندى : أحمد بن عبد الله، تفقه بشيوخ عصره، وكان إمامًا وفقيهًا، وناب فى القضاء بمصر، وهو صاحب كتاب « صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء »، توفى ٨٢١هـ، انظر : ابن تغرى « المنهل الصافى » ح ١ ص ٣٥١.

(٣) القلقشندة « مآثر الإنافة فى معالم الخلافة » ص ٧٢.

(٤) الزين أبو الروح : عبد الرحمن بن أبى بكر، تفقه على شيوخ عصره، درس وأفتى، وكان من كبار علماء الحنابلة بدمشق، توفى ٨٥٦هـ، انظر : ابن مكى « السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة » ح ٢ ص ٤٨١، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٤ ص ٦٢.

(٥) الزين أبو الروح « الكنز الأكبر فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » ص ٧٣.

(٦) ابن المبرد : يوسف بن الحسن، تفقه على شيوخ عصره، كان إمامًا بارزًا فى الحديث والتفسير، ورأس علماء الحنابلة بدمشق فى عصره، درس وأفتى، وصنف تصانيف عديدة، توفى ٩٠٩هـ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ١٠ ص ٣٠٨، ابن مكى «السحب الوابلة» ح ٣ ص ١١٦٥ .

(*) **الزعر** : لفظ أُطلق على شريحة من شرائح مجتمع دمشق فى العصر المملوكى، وكانت هذه الفئة عبارة عن عصابات منظمة مارست أعمال النهب والسلب فى المجتمع الدمشقى، ولقد استشرى دورهم الإجرامى منذ أواخر القرن التاسع، وأوائل القرن العاشر الهجرى، انظر : ايرالابدوس « مدن الشام فى العصر المملوكى » ص ٢٣٨، ترجمة د. سهيل زكار، دار حسان للطباعة، دمشق، ١٩٨٥م، د. أكرم حسن « نيابة دمشق عهد سيباى » ص ٦٨.

يلزم منه مفسدة عظيمة وفتح باب الفتنة[1] .

ويتبين من هذه الأقوال التى وردت عن أربعة من علماء مصر والشام فى العصر المملوكى ، أن هؤلاء العلماء كانوا ينتمون لمدرسة الصبر التى تقتصر فى معارضتها للسلطة الجائرة على اللسان دون استخدام القوة ، ويبدو أن علماء مصر والشام خلال القرن التاسع ـ فى غالبهم ـ كانوا ينتمون لمدرسة الصبر .

* العلماء وثورات المصريين والشاميين فى ضوء المصادر التاريخية :

لقد تمايزت معارضة المصريين للمماليك ، حيث كان هناك شكل للمعارضة بالقاهرة يختلف عن ذلك الشكل الذى اتسمت به معارضة باقى المصريين ـ أهالى الوجهين الفبلى والبحرى ـ ، فالبنسبة لمعارضة سكان القاهرة لم ترق إلى مستوى الثورة بل هى هبّات عرضية قليلة وغير فعالة ، اخذت شكل مظاهرات سلمية الطابع كى يرفع السلطان عنهم ما يتعرضون له من مظالم[2] ، ارتبطت غالبها بغلاء أسعار السلع الغذائية وعدم توفر الخبز بالأسواق[3] ، فيستجيب السلطان لهم أحيانًا ، وأحيانًا أخرى لا يعبأ بهم .

ومن ذلك ما ذكرته المصادر التاريخية عام ٨٣٩هـ/١٤٣٥م من وقوف سكان القاهرة للسلطان برسباى[4] أثناء مرور موكبه ، فاستغاثوا له من قلة الخبز بحوانيت الخبازين ، بالرغم من وفرة القمح ، فلم يعبأ بهم[5] .

---

(١) ابن المبرد « يوسف بن الحسن « ت ٩٠٩هـ » » « ذم الهوى والذعر فى أحوال الزعر » ص ٥٥، مخطوطة بدار الكتب الظاهرية بدمشق برقم (٧٣أدب) ، د. أكرم حسن « دمشق بين عصر المماليك » ص ٩٦.

(٢) د. عبد المنعم ماجد « التاريخ السياسى لدولة سلاطين المماليك » ص ١١٩، د. علاء طه « عامة القاهرة فى عصر سلاطين المماليك » ص ٧٥، حنفى محمود « الحركات الداخلية فى الدولة المملوكية الأولى » ص ١٧٣، ماجستير ، آداب القاهرة ، ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م .

(٣) د. حياة ناصر « أحوال العامة فى حكم المماليك » ص ٢٦٤، ايرا لابدوس « مدن إسلامية فى عهد المماليك » ص ٢٣٩، د. ليبية إبراهيم « الفتن والقلاقل » ص ١١٥.

(٤) برسباى : انظر : ص ١٠ .

(٥) ابن الصيرفى « نزهة النفوس » ح ٣ ص ٣٣٨.

ولقد تكرر المشهد السابق من سكان القاهرة عام ٨٧٧هـ/١٤٧٢م، حيث شكوا للسلطان قايتباى[(١)] قلة الخبز وارتفاع كافة أسعار السلع الغذائية كالجبن واللحم، فاستجاب السلطان لشكواهم، وأمر بتوفير الخبز، وتوفير باقى السلع الغذائية بأسعار معتدلة[(٢)].

ولعل ضعف معارضة سكان القاهرة يرجع إلى وجود السلطان المملوكى وإحكام قبضته العسكرية على الأهالى[(٣)].

ولكن الأمر يختلف بالنسبة لباقى سكان مصر ـ أهالى الوجهين القبلى والبحرى ـ، حيث تذكر المصادر التاريخية إشعالهم لثورات عنيفة ضد ولاة السلطة المملوكية، كثورة أهالى البحيرة عام ٨١٩هـ/١٤١٦م[(٤)]، وأهالى دمياط ٨٢٠هـ/١٤١٧م[(٥)]، وأهالى المحلة عام ٨٢١هـ/١٤١٨م[(٦)]، وعام ٨٥٤هـ/١٤٥٠م[(٧)].

ولكن غالب هذه الثورات ـ سالفة الذكر ـ جاء حديث المصادر التاريخية عنها بشكل مقتضب يقتصر على مكان حدوث الثورة وزمان حدوثها كثورة أهالى البحيرة عام ٨١٩هـ/ ١٤١٦م[(٨)]، وثورة أهالى المحلة عام ٨٢١هـ/١٤١٨م[(٩)]، ولكن شذت ثورة أهالى دمياط

---

(١) قايتباى: انظر: ص ٢٢.

(٢) ابن الصيرفى «إنباء الهصر» ص ٤٧٦.

(٣) د. علاء طه «عامة القاهرة» ص ٨١، لطفى أحمد «الدور السياسى للشعب المصرى فى عصر المماليك الجراكسة» ص ٣٩٨، غادة سيد «وثائق الأوقاف على مقام السيد البدوى: دراسة دبلوماتية» ص ١٩، ماجستير، آداب القاهرة، ٢٠٠٣م.

(٤) ابن الصيرفى «نزهة النفوس» ح ٢ ص ٣٧١، المقريزى «السلوك» ح ٤ ص ٣٦٧.

(٥) ابن الصيرفى «نزهة النفوس» ح ٢ ص ٤٠٣.

(٦) ابن الصيرفى «نزهة النفوس» ح ٢ ص ٤٢١، المقريزى «السلوك» ح ٤ ص ٤٣٩.

(٧) السخاوى «التبر المسبوك فى الذيل على السلوك» ص ١٧٥.

(٨) المقريزى «السلوك» ح ٤ ص ٣٦٧، ابن الصيرفى «نزهة النفوس» ح ٢ ص ٣٧١.

(٩) المقريزى «السلوك» ح ٤ ص ٤٣٩، ابن الصيرفى «نزهة النفوس» ح ٢ ص ٤٢١.

عام ٨١٩هـ/١٤١٦م ، وثورة أهالى المحلة عام ٨٥٤هـ/١٤٥٠م عن هذا العرض التاريخى الموجز لتكشف لنا مدى المعاناة التى كان يعانى منها المصريون فى ظل هؤلاء الولاة .

فلقد ذكرت المصادر التاريخية فى أحداث شهر ذى الحجة من عام ٨٢٠هـ/١٤١٧م قيام ثورة أهالى دمياط[(١)] على واليها محمد السيراخورى ، الذى كان كثير التجبر غاية فى الظلم والطغيان والفسق ، مُتسلط على حرم المسلمين ونساءهم ـ على حد تعبير ابن الصيرفى ـ ، ولقد كان باعث ثورة أهالى دمياط على ذلك الوالى أنه تعرض لقوم يقال لهم « السمناوية » ـ وهم قوم يتكسبون بصيد السمك ـ ، فعند تعرضه لهم خشوا من سوء فعله وفُحش صنعه ، فاجتمعوا جمعًا كبيرًا ليقتلوه ، ففرّ منهم ، ولكنهم طاردوه ودارت معركة كبيرة بين الطرفين ، انتهت بتغلب الأهالى[(٢)] على الوالى وقتله ـ ولم تشر المصادر التاريخية لرد فعل السلطان شيخ[(٣)] على مقتل واليه[(٤)] ـ .

أمّا ثورة أهالى المحلّة[(٥)] عام ٨٥٤هـ/١٤٥٠م ، فلقد ذكرت المصادر التاريخية تعرض مصر لجفاف شديد بسبب عدم وفاء النيل ، مما أدى إلى غلاء أسعار المواد الغذائية[(٦)] ، ولكن أهالى المحلة قد تضاعف عليهم البلاء ، حيث قام والى المحلة شهاب الدين أحمد ـ وهو أخو

---

(١) **دمياط** : مدينة على ضفة أحد فرقى النيل ، وهى موضع غِرَّة للعدو من البحر ، انظر : العمرى « شهاب الدين أحمد « ت ٧٤٩هـ » » « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » ص ٩٣، المعهد الفرنسى للآثار ، القاهرة ، « د. ت » .

(٢) لم تذكر المصادر التاريخية دورًا للعلماء فى تلك الثورة .

(٣) شيخ : انظر : ص ٣٧.

(٤) ابن الصيرفى « نزهة النفوس » ح ٢ ص ٤٠٣.

(٥) **المحلّة** : مدينة مشهورة بديار مصر ، وكانت تُسمى « محلّة دَقَلا » ، ثم أصبحت فى العصر المملوكى تُعرف بـ« المحلَة » فقط ، وكانت مدينة كبيرة ذات أسواق ، وهى قصبة إقليم الغربية ، انظر : ابن دقماق « إبراهيم بن محمد » « الانتصار لواسطة عقد الأمصار » ص ٨٢، المكتب التجارى للطباعة ، بيروت ، « د. ت » ، البغدادى « صفى الدين عبد المؤمن « ت ٧٣٩هـ » » « مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع » ح ٣ ص ١٢٣٦، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٩٢م .

(٦) ابن تغرى « حوادث الدهور » ح ١ ص ١٩٧، ٢٣١.

الاستادار[1] زين الدين يحيى ـ باحتكار السلع الغذائية وبخاصة القمح ، فتضاعف البلاء على أهالى المحلة ، فقام أهالى المحلة بالتوجه إلى مقر حكمه بالولاية وقاموا بقتله ، وعندما علم أخوه الاستادار بذلك ، قبض على بعض أهالى المحلة الثائرين ، فثار الأهالى ضده وأوشكوا الفتك به ، غير أنه نجا منهم ، وصعد إلى السلطان جقمق[2] فأخبره بثورة أهالى المحلة ، فتغيَّظ السلطان وأراد النزول إليهم ، ولكن قضاة[3] مصر منعوه من ذلك ، فخضع وسكن الأمر[4] .

تلك هى بعض ملامح من الظلم الذى تعرض له المصريون من هؤلاء الولاة الذين كان يتم اختيارهم لهذا المنصب ـ فى الغالب ـ مقابل مبلغ من المال يدفع لخزانة الدولة ، كما تذكر لنا المصادر التاريخية فى أحداث عام ٨٥٤هـ أنَّ والى الشرقية[5] برطل[6] السلطان جقمق ليتولى ولاية الشرقية[7] بمبلغ من المال ـ غير محدد ـ ، فولاه جقمق[8] .

---

(١) **الاستادار** : هو المسوؤل عن قصور السلطان من المطابخ والشراب ، ولكن الاستادار منذ بداية القرن التاسع الهجرى ، أصبح له سلطة تولية الولاة بأقاليم الديار المصرية ، انظر : القلقشندى « صبح الأعشى » ح ٤ ص ٢٠، مجدى عبد الرشيد « القرية المصرية فى عصر سلاطين المماليك » ص ٤٦، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٩م .

(٢) جقمق : انظر : ص ١١.

(٣) **قضاة مصر** : شرف الدين المناوى قاضى قضاة الشافعية ، وسعد الدين الديرى قاضى قضاة الحنفية ، وولى الدين السنباطى قاضى قضاة المالكية ، وبدر الدين البغدادى قاضى قضاة الحنابلة ، انظر : ابن تغرى « حوادث الدهور » ح ١ ص ١٩٥.

(٤) السخاوى « التبر المسبوك » ص ٣٢٢.

(٥) لم تحدد المصادر التاريخية اسم هذا الوالى .

(٦) **البرطلة** : مصطلح أطلق على « الرشوة » فى العصر المملوكى ، ويعزو ابن تيمية تسمية الرشوة بذلك ، بأن البرطلة من البرطيل وهو الحجر المستطيل ، ولقد سميت به الرشوة ، لأنها تُلقم المرتشى عن التكلم بالحق كما يلقمه الحجر الطويل ، والرشوة محرمة شرعًا بالكتاب والسنّة ، انظر : ابن نجيم الحنفى « الرسائل الزينية فى مذهب الحنفية » ص ٤٤، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٢١٢٣ فقه حنفى) ومكروفيلم (٤١٩٥٤) ، ابن تيمية « فتاوى ابن تيمية » ح ٢٨ ص ٣٠٤.

(٧) الشرقية : انظر : ص ٣١.

(٨) ابن تغرى « حوادث الدهور » ص ٢١٨.

ذلك هو ما رصدته المصادر التاريخية عن ثورات المصريين ، أما عن دور العلماء فى تلك الثورات ، فلم تذكر المصادر التاريخية دور للعلماء فى تلك الثورات باستثناء ثورة أهالى المحلة عام ٨٥٤هـ/١٤٥٠م ، حيث ذكرت المصادر التاريخية أن العالم ولى الدين المحلى(١) ـ خطيب الجامع الغمرى(٢) ـ هو الذى قام بتأليب أهالى المحلة وتحريضهم ضد هذا الوالى ، فاستجاب الأهالى له ، وتوجهوا إلى مقر حكم الوالى وقتلوه ـ كما سبق القول ـ ، ولقد عاقبت السلطة المملوكية ذلك العالم لإشعاله تلك الثورة فحبسته ، ولكنها اضطرت إزاء غليان أهالى المحلة الذى ثار عقب القبض على عالِمهم إلى الإفراج عنه ، ومن ثمّ هدأ أهالى المحلة وسكنت ثورتهم التى قدّت مضاجع المماليك ، حتى أن السلطان جقمق كان قد عزم بالتوجه إلى المحلة لإخماد ثورة الأهالى ، ولكنه اضطر إزاء معارضة قضاة مصر إلى استخدام المهادنة والملاطفة مع الأهالى ، فأفرج عن العالم ولى الدين ومن معه من الثائرين ، فسكنت الأهالى وهدأ الأمر(٣) .

أمّا عن ثورات الشاميين ضد نوابهم ، فلقد رصدت لنا المصادر التاريخية إشعال الشاميين لثورات عنيفة ضد نوابهم خلال القرن التاسع الهجرى ، كثورة أهالى دمشق ضد نائبها عام ٨٠٤هـ/١٤٠١م(٤) ، وعام ٨٤٣هـ/١٤٣٩م(٥) ، وثورة أهالى حلب ضد نائبها عام

---

(١) ولى الدين المحلى : أحمد بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، وتولى خطابة الجامع الغمرى ، وكان كثير الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، توفى ٨٨٢هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٢ ص ٧٤.

(٢) **الجامع الغمرى** : هو الجامع الذى أنشأه أحمد أبو العباس القاهرى « ت ٩٠٥هـ » ، من متصوفة القرن التاسع الهجرى ، انظر : الغزى « الكواكب السائرة » ص ١٤٨.

(٣) السخاوى « التبر المسبوك » ص ٣٢٢.

(٤) ايرا لابدوس « مدن الشام فى العصر المملوكى » ص ٢٣٥.

(٥) ابن الصيرفى « نزهة النفوس » ح ٤ ص ١٦٩، ابن إياس « بدائع الزهور » ح ٢ ص ٢٢٢.

٨١٥هـ/١٤١٢م[١] ، وعام ٨٦٠هـ/١٤٥٥م[٢] ، وعام ٨٨٥هـ/١٤٨٠م[٣] ، وثورة أهالى طرابلس عام ٨١٥هـ/١٤١٢م[٤] ، وعام ٨٢١هـ/١٤١٨م[٥] ، وثورة أهالى حماة عام ٨٤٨هـ/١٤٤٤م[٦] ، وعام ٨٨١هـ/١٤٧٦م[٧] ، وثورة أهالى الكرك عام ٨٠٢هـ/١٣٩٩م[٨] .

ولقد كان الباعث الرئيس لثورات الشاميين ـ سابقة الذكر ـ هو ذات باعث المصريين فى إشعالهم لثوراتهم ضد ولاتهم، وأعنى بذلك شَرَهْ نواب الشام لجمع الأموال من رعاياهم بشتى السبل، تعويضًا للمال الذى كان يدفعونه لخزانة الدولة مقابل تلك الوظيفة[٩] .

ومن تلك الثورات التى توضح لنا شره هؤلاء النواب فى جمع الأموال، ثورة أهالى دمشق عام ٨٤٣هـ/١٤٣٩م، حيث قام نائب دمشق جُلُبَّان[١٠] الكمشبغاوى باحتكار اللحم فى الأسواق، حتى اختفى اللحم من الأسواق ـ وكان ذلك خلال شهر رمضان المكرم ـ، فقام أهالى دمشق بمهاجمة دار السعادة[١١] ـ مقر قيادة نائب دمشق ـ، واشتبكوا مع الأمراء والجنود فى قتال ضروس، ولما عجز النائب وجنوده التصدى للأهالى، لجأ إلى

---

(١) المقريزى «السلوك» ح ٤ ص ٤٣٩.

(٢) ابن العجمى «كنوز الذهب» ح ٢ ص ٢٧٧.

(٣) ابن إياس «بدائع الزهور» ص ١٧٧.

(٤) المقريزى «السلوك» ح ٤ ص ٢٥٢.

(٥) ابن الصيرفى «نزهة النفوس» ح ٢ ص ٤١٠.

(٦) ابن الصيرفى «نزهة النفوس» ح ٤ ص ٣٠٤.

(٧) ايرا لابدوس «مدن الشام فى العصر المملوكى» ص ٢٣٥.

(٨) ابن شهبة «الإعلام بتاريخ أهل الإسلام» ص ١٥٩.

(٩) وذلك ما أكده عالم دمشق تقى الدين الحصنى «ت ٨٢٩هـ»، انظر: تقى الدين الحصنى «قمع النفوس» ص ٣.

(١٠) جُلُبَّان الكمشبغاوى: جلبان بن عبد الله، وَلِىَ نيابة حماة وطرابلس، ثم دمشق عام ٨٤٣هـ، توفى ٨٥٩هـ، انظر: ابن تغرى «المنهل الصافى» ح ٥ ص ١٠.

(١١) **دار السعادة**: هى مقر نواب دمشق، ومركز الحكومة بها، وتقع فى مكان بجامع سوق الحميدية ـ حاليًا ـ، انظر: د. أكرم حسن «نيابة دمشق» ص ٣٠.

مهادنة الأهالى وتراجع عن احتكاره للحم، فسكن الأهالى[1].

ومن ذلك أيضًا، ما ذكرته المصادر التاريخية عن ثورة أهالى حلب عام ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م، حيث ثار أهالى حلب على نائبهم الأمير تنم المؤيدى[2] بسبب إسرافه فى أخذ أموال الأهالى بالباطل ـ كما ذكر ابن العجمى ـ، فانتفض الأهالى ضده وقاتلوه حتى اضطر إلى الفرار من حلب، ولمّا عَلِمَ السلطان جقمق[3] بذلك اضُطُر إلى إصدار مرسوم بعزله لتهدئة الأهالى[4].

أمّا عن دور العلماء فى ثورات الشاميين ضد نوابهم، فلم تذكر المصادر التاريخية دور للعلماء فى تلك الثورات ـ سابقة الذكر ـ باستثناء ثلاث ثورات، وهى ثورة أهالى دمشق عام ٨٤٣هـ/١٤٣٩م، وثورة أهالى حلب عام ٨٤٢هـ/١٤٣٧م، وثورة أهالى طرابلس عام ٨٢١هـ/١٤١٨م.

فبالنسبة لثورة أهالى دمشق عام ٨٤٣هـ/١٤٣٩م، فلقد ذكرت المصادر التاريخية أنَّ العلماء بقيادة شمس الدين ونائى[5] قاموا بمخاطبة نائب دمشق جلبان الكمشبغاوى بشأن احتكاره للّحم ـ كما سبق القول ـ، ولكن النائب لم يستجب لهم، عندئذٍ قام العالم شمس الدين الونائى بتأليب الأهالى ضده، ودعاهم للثورة ضده، فاستجاب الأهالى له،

---

(١) العينى «عقد الجمان» ص ٥٥١، المقريزى «السلوك» ح ٤ ص ١١٨١، ابن الصيرفى «نزهة النفوس» ح ٤ ص ١٦٩، ابن إياس «بدائع الزهور» ح ٢ ص ٢٢٢.

(٢) تنم المؤيدى: تولى نيابة دمشق وحماة وحلب، وكانت سيرته سيئة، مات نائبًا بدمشق عام ٨٦٨هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ٣ ص ٤٤.

(٣) جقمق: انظر: ص ١١.

(٤) ابن العجمى «كنوز الذهب» ح ٢ ص ٢١٠.

(٥) شمس الدين الونائى: محمد بن إسماعيل، تفقه بشيوخ عصره، ووصفه برهان الدين البقاعى «ت ٨٨٥هـ» بأنه «بحر من العلوم»، ولى قضاء الشافعية بدمشق ٨٤٣هـ، وتوفى ٨٤٩هـ، انظر: البقاعى «عنوان الزمان» ح ٢ ص ٤٦٥.

وهاجموا مقر قيادة النائب واشتبكوا مع جنوده ، فلما عجز النائب عن إخماد ثورتهم ، لجأ إلى شمس الدين الونائى لتهدئة الأهالى ، فاستجاب الونائى له بعد أن خضع النائب لمطالبه بإبطال احتكاره للّحم ، وتوفيره بالأسواق ، ولمّا علمت السلطة المركزية بالقاهرة بما حدث ، قام السلطان جقمق[١] بعزل العالم شمس الدين الونائى من قضاء الشافعية بدمشق فقط ، حيث لم يستطع المساس به بسبب نفوذه ومكانته فى قلوب الأهالى[٢] .

أمّا ثورة أهالى حلب عام ٨٤٢هـ/١٤٣٨م ، فلقد ذكرت المصادر التاريخية أنه فى عام ٨٤٢هـ تزايد ظلم نائب حلب تغرى[٣] ورمش ، حيث أسرف فى نهب أموال الأهالى بشتى السبل ، وزاد سفكه للدماء بغير حق ، فقام علماء حلب[٤] بتقوية عزائم أهالى حلب للثورة على تغرى ورمش ، فاستجاب أهالى حلب لنداء العلماء وقاتلوا تغرى ورمش حتى طردوه من حلب ، وأرسل لهم السلطان جقمق نائب غيره[٥] .

أمّا ثورة أهالى طرابلس عام ٨٢١هـ/١٤١٨م ، فلقد ذكرت المصادر التاريخية أنّه لما شرع نائب طرابلس بُرْدَبَك[٦] فى جباية الأموال من الأهالى بغير حق ، انتفض الأهالى بالثورة ضده بقيادة قضاة[٧] طرابلس ، فقاتلوه حتى طردوه من طرابلس ، ثم أرسل القضاة إلى السلطان المؤيد شيخ[٨] بما وقع من النائب من مظالم وأنهم طردوا ذلك النائب من

---

(١) جقمق : انظر : ص ١١.

(٢) العينى « عقد الجمان » ص ٥٥١، المقريزى « السلوك » ح ٤ ص ١١٨١، ابن الصيرفى « نزهة النفوس » ح ٤ ص ١٦٩، ابن إياس « بدائع الزهور » ح ٢ ص ٢٢٢.

(٣) تغرى ورمش : تولى نيابة حلب ٨٣٩هـ ، حتى قُتلِ عام ٨٤٢هـ ، وكانت سيرته سيئة ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٣ ص ٣٥.

(٤) لم تحدد المصادر التاريخية علماء بأعينهم .

(٥) ابن الصيرفى « نزهة النفوس » ح ٤ ص ١١٢، ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٥ ص ٨٧.

(٦) بُرْدَبَك : بُرْدَبَك بن عبد الله الخليلى ، تولى نيابة طرابلس ١٧ رجب ٨٢٠هـ ، ثم عزل ٨٢١هـ ، انظر : ابن تغرى « المنهل الصافى » ح ٣ ص ٢٥٠.

(٧) لم تحدد المصادر التاريخية أسماء قضاة طرابلس .

(٨) المؤيد شيخ : انظر : ص ٣٧.

طرابلس، فأرسل السلطان شيخ لهم نائب غيره[1].

ومن العرض السابق يظهر أن علماء مصر والشام خلال القرن التاسع كما أشارت أقوال بعضهم ـ كما ورد فى مؤلفاتهم ـ، وكما ظهر فى ضآلة دورهم الحركى فى ثورات المصريين والشاميين بشكل عام ـ كما أوضحت المصادر التاريخية ـ، أنهم كانوا يمثلون مذهب مدرسة الصبر التى ترى عدم جواز الخروج على الحاكم بالقوة خوفًا من الفتن، حيث تقتصر فى معارضتها للسلطة على اللسان، وذلك ما تجلّى بوضوح ـ أيضًا ـ عندما تحدث الباحث عن «العلماء والجهاد باللسان»، حيث كان الظهور الواضح للعلماء على مسرح المعارضة للسلطة الحاكمة، وذلك إذ ما قورن بدور العلماء فى ثورات المصريين والشاميين.

* العلماء وخلع السلطان المملوكى:

إذ كان المصريون والشاميون قاموا بالثورة ضد ولاتهم ونوابهم فإن محاولة تطبيق ذلك إزاء السلطان المملوكى الجائر أمر غير ممكن للبون الشاسع فى موازين القوة بين المصريين والشاميين وبين السلطان المملوكى، ولقد عالج بعض علماء الإسلام تلك الإشكالية أمثال العالم الجوينى «ت ٤٧٨هـ»، والعالم أبو يعلى الفراء «ت ٤٥٨هـ»، حيث ذكرا أنَّ السلطان الجائر الفاسق الذى يُسرف فى ظلم الرعية والتجاهر بالمعاصى يجب عزله من خلال الاستعانة بـ«أهل الشوكة» أى أولئك الذين يملكون مقومات القوة العسكرية فى تلك الدولة حتى يتيسر لهم خلع السلطان دون إراقة الكثير من الدماء[2].

---

(١) العينى «عقد الجمان» ص ٣١٥، ابن الصيرفى «نزهة النفوس» ح ٢ ص ٤١٠.

(٢) الجوينى «أبو عبد الله محمد «ت ٤٧٨هـ»» «غياث الأمم فى التياث الظلم» ص ١١٥، تحقيق د. عبد العظيم الديب، مكتبة إمام الحرمين، ط ٢ (١٤٠١هـ)، أبو يعلى الفراء «محمد بن الحسين «ت ٤٥٨هـ»» «الأحكام السلطانية» ص ٢٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م.

ولقد رأى عض علماء القرن التاسع ذلك الرأى ، حيث شهد ذلك القرن محاولة فريدة لخلع السلطان المملوكى بسبب جوره وفسقه ، لعب العلماء فيها دورًا بارزًا ، وأعنى بذلك ما ترويه المصادر التاريخية فى أحداث عام ٨١٥هـ/١٤١٢م ، حيث تزايد ظلم السلطان فرج بن برقوق[١] ـ ذلك السلطان الذى أجمع مؤرخو مصر والشام على أن البلاد خُرِّبت فى عهده ، وأنه عَمِدَ إلى إثارة الحروب والفتن[٢] ـ ، عندئذٍ رأى فريق من علماء مصر والشام ـ على رأسهم شهاب الدين الباعونى[٣] ، وشرف الدين التبانى[٤] ، وشهاب الدين الحسبانى[٥] ـ أنَّ مصلحة البلاد تستوجب عزل هذا السلطان ، فتوجهوا إلى الأمير شيخ[٦] ـ نائب حلب آنذاك ـ وأعلموه بأنهم يرشحونه سلطانًا على مصر والشام ؛ وذلك لِمَا اشتُهِر به من العدالة فضلًا عن اجتماع معظم الأمراء والمماليك حوله[٧] ، ثم تذكر المصادر التاريخية لنا عقب ذلك أن هؤلاء العلماء قاموا بدعوّة المصريين والشاميين إلى مساندة الأمير شيخ فى خلع السلطان فرج ، وعلى الرغم من أنَّ المصادر التاريخية لم تكشف لنا مظاهر وأبعاد هذه الدعوة إلى أنها كشفت آثار هذه الدعوّة فى خلع السلطان فرج ، حيث ذكرت المصادر التاريخية أنَّ دعوة العلماء وتأييدها للأمير شيخ ظهرت ثمارها فى فشل السلطان فرج فى كسب تأييد المصريين والشاميين لمعسكره عندما أراد الاستعانة بهم فى قتال شيخ ، بينما نجح

---

(١) فرج بن برقوق : انظر : ص ١٥.

(٢) ابن الصيرفى « نزهة النفوس » ح ٢ ص ٣٢٢، ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٣ ص ١٠٨، العينى « عقد الجمان » ص ١٥٨، المقريزى « السلوك » ح ٤ ص ٢٢٥، ابن تغرى « المنهل الصافى » ح ٨ ص ٣٧٩، تحقيق د. محمد محمد أمين ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٩٩م .

(٣) شهاب الدين الباعونى : انظر : ص ٤٠.

(٤) شرف الدين التبانى : انظر : ص ٣٨.

(٥) شهاب الدين الحسبانى : أحمد بن إسماعيل ، تفقه على شيوخ عصره ، درس ، وأفتى ، توفى ٨١٥هـ ، انظر : ابن قاضى شهبة «طبقات الشافعية» ح ٢ ص ٢٥٦.

(٦) شيخ : انظر : ص ٣٧.

(٧) العينى « عقد الجمان » ص ١٠٠، ابن الصيرفى « نزهة النفوس » ح ٢ ص ٤٨٨، ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٣ ص ٢٥٦.

الأمير شيخ فى كسب تأييد[١] المصريين والشاميين لمعسكره، كما أنَّ تأييد العلماء ومن ورائهم المصريين والشاميين دفع غالب أمراء السلطان فرج وجنوده إلى التخلى عنه عندما اقتربت لحظة المواجهة العسكرية بين فرج وشيخ، وعندما حانت لحظة المواجهة بأرض اللَّجُّون[٢] بين معسكر فرج ومعسكر شيخ سرعان ما هُزِم فرج بعد معركة قصيرة سهلة، ثم قُتِل فرج فى صفر عام ٨١٥هـ/١٤١٢م[٣] .

ب ـ العلماء واعتزال السلطة المملوكية :

إن الواقع السياسى الإسلامى عقب عهد الخلفاء الراشدين اتسم بالانفصال التدريجى بين الدين والدولة، حيث لم تعد غايات الدين ومقاصده هى ذاتها غايات ومقاصد السلطة الحاكمة، وهنا ذهب فريق من العلماء إلى الاتصال بالسلطة الحاكمة فى إطار المناصحة للحاكم والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فضلًا عن تولى الولايات[٤] فى ظل تلك السلطة، بينما رأى الفريق الآخر اعتزال تلك السلطة وعدم تولى الولايات فى ظل تلك السلطة[٥] .

---

(١) لم توضح المصادر التاريخية ماهية هذا التأييد، حيث لم تذكر المصادر التاريخية لنا صراحة نزول المصريين أو الشاميين إلى ميدان الصراع العسكرى بجوار شيخ.

(٢) **اللَّجُّون**: مدينة بالأردن بينها وبين طبرية عشرون ميلًا، وإلى الرملة مدينة فلسطين أربعون ميلًا، انظر: ياقوت الحموى «معجم البلدان» ص ١٣، دار صادر، بيروت، ١٩٥٧م.

(٣) ابن حجر «إنباء الغمر» ص ٥٠ ـ ٥٤، العينى «عقد الجمان» ص ١٠٧ ـ ١١١، ابن تغرى «النجوم الزاهرة» ح ١٣ ص ٩٦ ـ ١٠٤، المقريزى «السلوك» ح ٤ ص ٢٠٩ ـ ٢٢٣، ابن الصيرفى «نزهة النفوس» ح ٢ ص ٣٠٥ ـ ٣١٧، صالح بن يحيى «تاريخ بيروت» ص ٢١٧ .

(٤) **الولايات**: «جمع ولاية» ـ بفتح الواو وكسرها ـ وهى فى اصطلاح الفقهاء سلطة شرعية بها يتمكن الإنسان من تنفيذ التصرفات على الغير قولًا أو فعلًا، دون توقف على رضاه، ومن أمثال تلك الولايات: القضاء، الحسبة، النظر على الأوقاف، وأموال اليتامى ... إلخ، انظر: البلاطنسى «تحرير المقال» ص ٢٦٥، د. سيف الدين عبد الفتاح «التجديد السياسى والخبرة الإسلامية» ص ٥٤٩.

(٥) د. عبد الله جمال الدين «نظام الدولة فى الإسلام» ص ٢٩١، صالح سعيد «التجديد فى الفكر السياسى لابن تيمية» ص ٢٦٧، ماجستير، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، ١٩٩٧م، =

وهذا ما يصدق على علماء مصر والشام فى القرن التاسع الهجرى ، حيث ذهب فريق منهم إلى الاتصال بالسلطة[1] ، بينما ذهب فريق آخر إلى اعتزال السلطة المملوكية ، وعدم تولى الولايات فى ظلها ، ولقد علل أحد أقطاب هذا الفريق مبررات اعتزالهم للسلطة المملوكية وعدم تولى الولايات فى ظلها ، وأعنى به العالم جلال الدين السيوطى[2] « ت ٩١١هـ » الذى ذكر أنه يجب اعتزال السلطة الجائرة وعدم الدخول عليها ومناصحتها وذلك تجنبًا للإفتتان بهم فى الدين من ناحية وإعانتهم على ظلمهم من ناحية أخرى ، كما أنه لا يجوز[*] تولى الولايات فى ظل تلك السلطة[3] .

ولقد رصدت لنا المصادر التاريخية نماذج من علماء مصر والشام ـ خلال القرن التاسع ـ اعتنقوا اتجاه اعتزال السلطة والحياة السياسية ورفض تولى الولايات فى ظل السلطة

= د.على محمد « مشاركة المسلم الأمريكى فى الحياة السياسية الأمريكية « دراسة فقهية مقارنة » ص ٣٦٣، مقال بمجلة الشريعة والدراسات الإسلامية ، السنة السابعة عشرة ، العدد الحادى والخمسون ، شوال ١٤٢٣هـ/ ديسمبر ٢٠٠٢م ، مجلس النشر العلمى ، جامعة الكويت .

(١) وهذا ما أوضحه الباحث ـ فى موضع سابق من هذا الفصل ـ تحت عنوان « العلماء والاتصال بالسلطة » .

(٢) جلال الدين السيوطى : جلال الدين عبد الرحمن ، تفقه على شيوخ عصره ، درس وأفتى ، وصنف مصنفات عديدة ، توفى ٩١١هـ ، انظر : الغزى « الكواكب السائرة » ص ٣١٥، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٤ ص ٦٥.

(*) يرى كل من العالم العز بن عبد السلام « ت ٦٦٠هـ » ، والعالم ابن تيمية « ت ٧٢٨هـ » ، والعالم ابن الشحنة « ت ٨٨٢هـ » ، والعالم تقى الدين البلاطنسى « ت ٩٣٦هـ » ـ أنه رغم فساد الأداء السياسى ومظالم السلطة المملوكية ـ أن الولاية أمانة يجب أداؤها ، وبخاصة لمن يجتمع به صفات الولاية من العلم والأمانة والقوة ، فتولية الأبرار خير للأمة من تولية الفجار ، انظر : ابن الشحنة « أحمد بن محمد « ت ٨٨٢هـ » » « لسان الحكام فى معرفة الأحكام » ص ٢، مخطوط بجامعة القاهرة برقم (١٩٦٨٥) ، ابن تيمية « السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية » ص ١٨٦، تحقيق محمد إبراهيم البنا ، محمد أحمد عاشور ، مكتبة دار الشعب ، القاهرة ، ١٩٧٠م ، البلاطنسى « تحرير المقال » ص ٢٦٦ ـ ٢٧٧.

(٣) السيوطى « جلال الدين عبد الرحمن « ت ٩١١هـ » » « ما رواه الأساطين فى عدم المجئ إلى السلاطين » ص ٢٣، ٤٦، ٧٥، تحقيق مجدى فتحى ، دار الصحابة للتراث ، طنطا ، ١٩٩١م .

المملوكية ، حيث جاءت عبارة « اعتزل السلطة المملوكية » ، و « رفض تولى الولاية - من قضاء أو غير ذلك - حينما عرضتها السلطة عليه » فى ثنايا تراجم المؤرخين لهؤلاء العلماء ، والذين منهم - على سبيل المثال - عبادة بن على[(١)] « ت ٨٤٦هـ »[(٢)] ، وعلاء الدين القلقشندى[(٣)] « ت ٨٥٦هـ »[(٤)] ، والجلال المحلى[(٥)] « ت ٨٦٤هـ »[(٦)] ، وشمس الدين السخاوى[(٧)] « ت ٩٠٢هـ »[(٨)] ، وجلال الدين السيوطى[(٩)] « ت ٩١١هـ »[(١٠)] . « من علماء مصر » .

وتاج الدين ابن بهادر[(١١)] « ت ٨٣١هـ »[(١٢)] ، وتقى الدين أبو بكر[(١٣)] « ت ٨٥٨هـ »[(١٤)] ،

---

(١) عباده بن على : تفقه على شيوخ عصره ، درس وأفتى ، ورفض تولى القضاء المالكى بمصر ، توفى ٨٤٦هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٤ ص ١٦.

(٢) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٤ ص ١٧، ابن الصيرفى « نزهة النفوس » ح ٤ ص ٢٦٠.

(٣) علاء الدين القلقشندى : على بن أحمد ، تفقه على شيوخ عصره ، برع فى الفقه والأصول ، درس وأفتى ، توفى ٨٥٦هـ ، انظر : ابن تغرى بردى « المنهل الصافى » ح ٨ ص ٤٥، مطبعة دار الكتب الوثائق القومية ، القاهرة ، ١٩٩٩م .

(٤) ابن تغرى : « المنهل الصافى » ح ٨ ص ٤٥.

(٥) الجلال المحلى : محمد بن أحمد ، تفقه على شيوخ عصره ، درس ، وأفتى ، توفى عام ٨٦٤هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٧ ص ٣٩.

(٦) السخاوى : « الضوء اللامع » ح ٧ ص ٣٩.

(٧) شمس الدين السخاوى : محمد بن عبد الرحمن ، تفقه على شيوخ عصره ، برع فى علم الحديث ، درس ، توفى ٩٠٢هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٨ ص ٢.

(٨) العيدروس « النور السافر فى أخبار القرن العاشر » ص ٤٠ ، تحقيق أحمد حَالَو ، دار صادر ، بيروت ، ط ١ (٢٠٠٣م) .

(٩) السيوطى : انظر : ص ٥٨.

(١٠) الشعرانى : « لواقح الأنوار القدسية فى طبقات العلماء والصوفية » ص ٣٠، تحقيق سعيد هارون ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ٢٠٠٣م .

(١١) تاج الدين ابن بهادر : محمد بن بهادر ، تفقه على شيوخ عصره ، كان بحرًا فى العلوم الشرعية ، توفى ٨٣١هـ ، انظر : البقاعى « عنوان الزمان » ح ٢ ص ٤٦٧.

(١٢) البقاعى « عنوان الزمان » ح ٢ ص ٤٦٧.

(١٣) تقى الدين أبو بكر : تفقه على شيوخ عصره ، برع فى علم الحديث ، توفى ٨٥٨هـ ، انظر : ابن الحمصى « حوادث الزمان » ح ١ ص ١٢٨.

(١٤) السخاوى « الضوء اللامع » ح ١١ ص ٩٩، ابن الحمصى « حوادث الزمان » ح ١ ص ١٢٨.

وابن قندس[١] « ت ٨٦١هـ »[٢] . « من علماء دمشق » .

وسبط ابن العجمى[٣] « ت ٨٤١هـ »[٤] ، والشهاب المرعشى[٥] « ت ٨٧٢هـ »[٦] . « من علماء حلب » .

وهؤلاء العلماء باعتزالهم السلطة المملوكية وإسقاطهم لمبدأ « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » إزاء تلك السلطة ، ورفضهم تولى الولايات تضاءل دورهم فى المجتمع المصرى والشامىّ إذا ما قورن بأقرانهم من العلماء الذين ساروا فى الاتجاه المضاد[*] ، حيث اقتصر دور هؤلاء العلماء المعتزلين للسلطة على التدريس والتأليف العلمى ، وإفتاء المصريين والشاميين فى أمور دينهم .

---

(١) ابن قندس : أبو بكر بن إبراهيم ، تفقه على شيوخ عصره ، درس وأفتى ، كان شيخ الحنابلة بدمشق ، توفى ٨٦١هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ١١ ص ١٤.

(٢) السخاوى « الضوء اللامع » ح ١١ ص ١٤، ابن مكى « السحب الوابلة » ح ١ ص ٢٩٧.

(٣) سبط ابن العجمى : إبراهيم بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، كان من كبار علماء الحديث بحلب ، توفى ٨٤١هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ١٣٨.

(٤) ابن فهد « لحظ الألحاظ » ص ٣١٣، السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ١٣٨.

(٥) الشهاب المرعشى : أحمد بن أبى بكر ، تفقه على شيوخ عصره ، انتهت إليه رئاسة العلم بحلب ، انظر : ابن تغرى «المنهل الصافى» ح١ ص ٢٢٤ .

(٦) ابن طولون « الغرف العلية فى تراجم متأخرى الحنفية » ص ٩٠، مخطوطة بدار الكتب المصرية ، برقم (١٣٣٢٤) ، ابن تغرى « المنهل الصافى » ح ١ ص ٢٢٤.

(*) حيث لم يقتصر دور العلماء الذين اتصلوا بالسلطة المملوكية ـ من خلال الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وتولى الولايات ـ على الحياة السياسية بمصر والشام ـ كما تبين ـ ، بل يمتد إلى سائر نواحى الحياة المصرية والشامية ـ كما سيوضح الباحث فى فصول الدراسة اللاحقة ـ .

ثانيًا : العلماء والسياسة الخارجية لمصر والشام

تعرض المجتمع المصرى والشامىّ ـ فى القرن التاسع الهجرى ـ لثلاثة(*) أخطار خارجية رئيسية ـ « المغول ، الصليبيون ، التركمان » ـ هددت أمن المجتمع المصرى والشامىّ واستقراره ، ولقد جاهد وناضل علماء مصر والشام لدفع تلك الأخطار الخارجية حتى يحيا المصريون والشاميون فى أمنٍ وسلام .

وسوف يتم تناول هذا الجهاد والنضال ـ كما صورته المصادر التاريخية ـ من خلال ثلاثة محاور :

١ ـ العلماء والجهاد بالقلم .

٢ ـ العلماء والجهاد بالسيف .

٣ ـ العلماء والسفارات .

(*) لم يمثل العثمانيون خطرًا خارجيًا على مصر والشام ـ فى القرن التاسع الهجرى ـ ، فلقد كانت العلاقات المملوكية العثمانية ودّية ـ بوجه عام ـ ، حيث كانت الدولة العثمانية فى فتوحاتها تتجه شطر الغرب ، حتى عندما تأزمت العلاقات المملوكية العثمانية فى الربع الأخير من القرن التاسع ، فإن مصر والشام ظلت بعيدة عن أى تهديد عسكرى من قبل العثمانيين ، واقتصر التأزم فى العلاقات على الطابع السياسى دون العسكرى ، ولمزيد من الإيضاح انظر : د. أحمد فؤاد متولى « الفتح العثمانى للشام ومصر » ص ٩ ـ ٤٠ ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٦م ، د. إبراهيم طرخان « مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة » ص ١٦٢ ـ ١٧٣، د. عصام محمد « السلاطين فى المشرق العربى » ص ١١١، محمد ماهر « الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكى » ص ٧٧، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٠م ، غيثاء أحمد « العلاقات العثمانية المملوكية » ص ٤٤، ١٠٢، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م ، إبراهيم حامد « نيابة دمشق فى عصر المماليك » ص ١١٥ ـ ١٢٢، ماجستير ، كلية دار العلوم ، جامعة المنيا ، ٢٠٠٠م ، أحمد محمود « موقف بنى حفص من الصراع العثمانى المملوكى » ص ١، مقال بدورية Annales Islamologiques، عدد (XXXV) لعام (2001).

١ ـ العلماء والجهاد بالقلم :

صنف علماء القرن التاسع بأقلامهم مؤلفات تبين للمصريين والشاميين فريضة الجهاد فى سبيل الله ومكانتها فى الإسلام فى ضوء مصادره الأصيلة « القرآن ـ السنّة النبوية » ، حيث تذكر المصادر التاريخية أن العالم ابن النحاس المصرى[(١)] « ت ٨١٤هـ » ، قد صنف كتاب « مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق »[(٢)] ، وهو مجلد كبير انتفع به الناس وتنافسوا فى تحصيله ـ كما يذكر السخاوى[(٣)] ـ ، ولقد تناول ابن النحاس فى هذا المصنف فريضة الجهاد فى ضوء كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ بكافة جوانبها ، فيتحدث على سبيل المثال عن فضل الرِباط فى سبيل الله وما أعدّه الله ـ عزّ وجلّ ـ للمرابطين فى سبيله ، وذلك بإيراده طائفة من الأحاديث النبوية المتعلقة بهذا الشأن ، والتى منها أن الرسول ﷺ قال : « من مات مُرَابِطًا فى سبيل الله ، أُجْرى عليه أَجْر عَمَلِه الصالح الذى كان يعمل وأُجرى عليه رزقه ، وأَمِن من الفتَّان ، وبعثه الله يوم القيامة آمنا من الفزع[(*)] »[(٤)] .

ومن تلك الجوانب ـ أيضًا ـ التى تحدث عنها ابن النحاس فى مُؤلفه ، فضل السبق إلى الجهاد[(٥)] ، وفضل الغزو فى البحر[(٦)] ، ....

---

(١) ابن النحاس : أحمد بن إبراهيم ، تفقه على شيوخ عصره ، وكان ملازمًا للجهاد والرباط ، توفى ٨١٤هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ٢٠٣.

(٢) لقد تيسر للباحث العثور على هذا الكتاب ، فهو مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٣٠٩٠) تصوف ، أو (١٨٠ تصوف حليم) ، ومكروفيلم برقم (٣٧٢٨٣) .

(٣) السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ٢٠٣.

(*) هذا الحديث رواه الحاكم النيسابورى فى مستدركه ، وابن ماجه فى سننه ، انظر : الحاكم النيسابورى « المستدرك على الصحيحين » ح ٢ ص ٩٩، دار الحرمين للطباعة ، القاهرة ، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م ، ابن ماجه « سنن ابن ماجه » ح ٢ ص ٤٩٧، تحقيق محمد فؤاد ، دار الحديث ، القاهرة ، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م .

(٤) ابن النحاس « مشارع الأشواق » ص ٢٣٢ – ٢٧٨.

(٥) ابن النحاس « مشارع الأشواق » ص ١١٨ – ١٢٠ .

(٦) ابن النحاس « مشارع الأشواق » ص ١٣٥ – ١٥٥.

وفضل إعانة المجاهدين بالمال والسلاح[1] ، موردًا فى ذلك كله الآيات القرآنية والأحاديث النبوية المتعلقة بتلك الجوانب التى تحدث عنها .

وكذلك ألف السيوطى[2] « ت ٩١١هـ » مُصنفًا بعنوان « غرس الأنشاب فى الرمى بالنشاب »[*] ، أورد فيه السيوطى طائفة من الأحاديث النبوية التى ترغب فى الرمىّ بالنشاب ـ أى السهام ـ وتحث على تعلمه وتعليمه استجابة لأوامر الشارع عزّ وجلّ ، فلقد أورد السيوطى قول الله عزّ وجلّ : ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾[3] ، وفسّر السيوطى المقصود بهذه القوة الرمىّ ، وذلك لما روى عن عقبة بن عامر الجُهَنِىِّ ، أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقرأ على المنبر ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ ، ألا وإن القوة الرمىّ ـ ثلاث مرات[*] ـ »[4] .

ولقد قال بذلك كثير من العلماء[*] أمثال ....

---

(١) ابن النحاس « مشارع الأشواق » ص ١٨٤- ٢٠٠.

(٢) السيوطى : انظر : ص ٥٨.

(*) لقد تيسر للباحث العثور على هذا الكتاب ، فهو مخطوط بمعهد المخطوطات العربية برقم (٢٩ فنون حربية) ، وعدد أوراقه (٥٩ ورقة) .

(٣) سورة الأنفال « آية ٦٠ » .

(*) هذا الحديث رواه الحاكم النيسابورى ، وابن ماجه ، والبيهقى ، انظر : الحاكم النيسابورى « المستدرك على الصحيحين » ح ٢ ص ٣٩٠، ابن ماجه « سنن ابن ماجه » ح ٢ ص ٥١٦، البيهقى « أبو بكر أحمد « ت ٤٥٨ » » « الجامع لشعب الإيمان » ح ٨ ص ٢٣٠، الدار السلفية ، بومباى ، الهند ، ط ١ (١٩٨٩م) .

(٤) السيوطى « غرس الأنشاب فى الرمى بالنشاب » ص ٣، مخطوطة بمعهد المخطوطات برقم (٢٩ فنون حربية) .

(*) بين المفسرون أنّ إعداد القوة فى سورة الأنفال المأمور بها المؤمنين يكون بتهيئة وسائل القوة كالنبل والخيل وتعلم الرمى والفروسية ، وهى الوسائل التى كانت موجودة يومئذ ، وقال الألوسى فى تفسيره « روح المعانى » فى تفسير القوة بالآية هو كل ما يتقوى به فى الحرب كائنًا ما كان ، إلا أنه ﷺ خص الرمى بالذكر ، لأنه أقوى ما يتقوى به ، فهو من قبيل « الحج عرفة » ، وهى إشارة لطيفة إلى أهمية الرمى واثره فى بناء القوة العسكرية ، ولا نعتقد أن أمّة فى زمن من الأزمان تستغنى فى معركتها عن الرمى ، =

ابن عباس « ت ٦٨هـ »[١] ، والشافعى « ت ٢٠٤هـ » ، والقرطبى « ت ٦٧١هـ »[٢] .

ثم يتحدث السيوطى عن فضل تعلم الرمىّ ، وذلك كما ورد فى السنّة النبوية المطهرة ، فيذكر ـ على سبيل المثال ـ ما روى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ ، أنه قال : مرّ رسول الله ﷺ بقوم يرمون ، فقال ﷺ : « رميًا بنى إسماعيل ، فإن أباكم كان راميًا[*] »[٣] .

ثم يتحدث السيوطى عن الثواب الجزيل الذى أعدّه الله عزّ وجلّ لمن يرمى فى سبيل الله ، فيذكر ـ على سبيل المثال ـ ما روى عن عقبة بن عامر الجُهَنِىِّ ، أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة صانعه الذى يحتسب فى صنعته الخير ، والذى يجهز به فى سبيل الله ، والذى يرمى به فى سبيل الله » وقال : « ارموا واركبوا فإن ترموا خير من أن تركبوا » وقال : « كل شىء يلهو به ابن آدم فهو باطل إلاّ ثلاث رميه عن قوسه ، وتأديبه فرسه ، وملاعبته أهله فإنهن من الحق ، ومن علم الرمى ثم تركه فهى نعمة كفرها[*] »[٤] .

= فالأسلحة التكنولوجية الحديثة تقوم على مبدأ الرمى كالدبابات والطائرات ، انظر : د. أحمد مصطفى « جهاد المرأة فى ضوء أحكام الشريعة الإسلامية » ص ١٨٣، ١٨٤، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية ، جامعة الكويت ، العدد (٦٠) محرم ١٤٢٦هـ/ مارس ٢٠٠٥م .

(١) السيوطى « غرس الأنشاب » ص ٤، السخاوى « القول التام فى الرمى بالسهام » ص ٢٤، مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (٢ فنون حربية) ، ومكروفيلم برقم (٥٢٢٧٦) .

(٢) السخاوى « القول التام » ص ٢٥.

(*) هذا الحديث رواه الحاكم فى مستدركه ، والبيهقى فى شعبه ، والبخارى عن طريق سلمة بن الأكوع ، انظر : الحاكم النيسابورى « المستدرك على الصحيحين » ح ٢ ص ١١٤، البيهقى « الجامع لشعب الإيمان » ح ٨ ص ٢٣٢، ابن حجر العسقلانى « فتح البارى بشرح صحيح البخارى » ح ١٢ ص ٤٧، مكتبة الكليات الأزهرية ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م .

(٣) السيوطى « غرس الأنشاب » ص ٥.

(*) هذا الحديث رواه الحاكم النيسابورى فى مستدركه ، وابن ماجه فى سننه والبيهقى فى شعبه ، انظر : الحاكم النيسابورى « المستدرك » ح ٢ ص ١١٥، ابن ماجه « سنن ابن ماجه » ح ٢ ص ٥١٦، البيهقى « الجامع لشعب الإيمان » ح ٨ ص ٢٢٣.

(٤) السيوطى « غرس الأنشاب » ص ٧.

وكذلك ما رواه عمرو بن عبسة، أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رمى العدو بسهم فبلغ سهمه أخطأ أو أصاب فعدل رقبة[*]»[١].

كما ألف السخاوى[٢] «ت ٩٠٢هـ» مُصنفًا بعنوان «القول التام فى الرمىّ بالسهام» أورد فيه طائفة من الأحاديث النبوية التى ترغب فى هذا لأمر ـ أى الرمى بالسهام ـ كما فعل السيوطى فى مصنفه السابق ذكره، فيتحدث عن فضل تعلم الرمىّ كما ورد فى السنّة النبوية المطهرة[٣]، ثم يتحدث عن الثواب الجزيل الذى أعده الله عزّ وجلّ لمن يقوم بالرمىّ بالسهام فى سبيل الله كما ورد فى السنة النبوية المطهرة[٤].

ب ـ العلماء والجهاد بالسيف:

إن الجهاد بمعناه الخاص[٥] هو التضحية بالنفس فى سبيل الله بمعنى مقاتلة أعداء الإسلام، والاشتراك الفعلى فى قتالهم، ويدخل فى معناه ـ أيضًا ـ كل جهد مباشر يبذل من أجل هذا القتال، كتعبئة الدولة الإسلامية لرعاياها للإنضمام إلى صفوف القتال، والرِباط[٦] بحدود

(*) هذا الحديث رواه الحاكم فى مستدركه، وابن ماجه فى سننه، انظر: الحاكم النيسابورى «المستدرك» ح ٢ ص ١١٦، ابن ماجه «سنن ابن ماجه» ح ٢ ص ٥١٦.

(١) السيوطى «غرس الأنشاب» ص ١٣.

(٢) شمس الدين السخاوى: محمد بن عبد الرحمن، تفقه على شيوخ عصره، درس وأفتى، وبرع فى علم الحديث، له مصنفات عدة، توفى ٩٠٢هـ، انظر: العيدروس «النور السافر» ص ١٥٠.

(٣) السخاوى «القول التام فى الرمى بالسهام» ص ٢١، مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (٢ فنون حربية) ومكروفيلم برقم (٥٢٢٧٦).

(٤) السخاوى «القول التام» ص ٣٠، ٤٨، ٩٩.

(٥) حيث أن الجهاد بمعناه العام يعنى الاجتهاد فى حصول ما يحب الله من الإيمان والعمل الصالح، ومن دفع ما يبغض الله من الكفر والفسوق والعصيان، انظر: السيوطى «أربعون حديثًا فى فضل الجهاد» ص ١٩، تحقيق مرزوق على، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٨٨م، عبد العزيز عبد الغنى «نظرية الجهاد فى الإسلام» ص ١١٧، ماجستير، كلية الاقتصاد والعلوم السياسة، جامعة القاهرة، ١٩٨٣م.

(٦) جرت العادة عقب الفتوحات الإسلامية الأولى بتشييد نوع من المبانى العسكرية بالثغور ـ التى هى موضع المخافة من العدو ـ، وعرفت تلك المبانى العسكرية بالربط، وكانت تلك الربط أشبه بالقلاع =

الدولة وثغورها[1] .

ولقد شارك علماء مصر والشام فى هذا الجهاد بمعناه ـ السابق ذكره ـ ضد المغول، والصليبيين، والتركمان، وذلك ما ستوضحه السطور التالية .

* العلماء والمغول[*] :

عاد خطر المغول يهدد مصر والشام مع مطلع القرن التاسع الهجرى، وذلك بظهور تيمورلنك[2] ، الذى انتهز صراع أمراء الدولة المملوكية بعد وفاة السلطان برقوق[3] ، فحشد

= الحصينة، يرابط فيها حامية لدفع عادية الأعداء، وكان التصميم المعمارى لهذه الربط عبارة عن مبانى ذات تخطيط مستطيل يتألف من صحن أوسط تحيط به أبراج فى الأركان، وبالجانب القبلى للصحن مُصلى، وبالجوانب الأخرى حجرات صغيرة بغير نوافذ للمرابطين، ولا يؤدى إلى الرباط إلا مدخل واحد، انظر: عميد أ.ح محمود نديم «الفن الحربى للجيش المصرى فى العصر المملوكى» ص ٣٥، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣، د. عاصم محمد «خانقاوات الصوفية فى مصر فى العصر الأيوبى والمملوكى» ص ٩٨، د. عفيف البهنسى «الفن الإسلامى» ص ٢٧٣، دار طلاس للنشر، ١٩٨٦، دولت عبد الكريم «الخوانق فى مصر فى العصر الأيوبى والمملوكى» ص ٢٠، دكتوراة، آداب القاهرة، ١٩٧٣م .

(١) السيوطى «أربعون حديثًا فى فضل الجهاد» ص ٢٢، عبد العزيز عبد الغنى «نظرية الجهاد فى الإسلام» ص ١١٨، د. محمد إبراهيم «علاقات المسلمين بغيرهم فى هدى القرآن» ص ٢٩٩، مجلة كلية دار العلوم، عدد (٢٩) لعام ١٩٩٩م .

(*) **المغول**: قبائل طورانية جاءت من أقصى الشرق حيث منغوليا، ولقد استطاع جنكيز خان «٥٥٠ ـ ٦٢٤هـ» أن يؤسس لهم إمبراطورية شاسعة عام ٦٠٣هـ/١٢٠٦م، انظر: د. فايد حماد «العلاقات السياسية بين المماليك والمغول» ص ٢٧.

(٢) تيمورلنك: تيمور: تعنى الحديد، اللنك: الأعرج، ولد فى قرية من أعمال كش من مدن بلاد ما وراء النهر ٧٣٧هـ/١٣٣٦م، استولى فى سرعة مدهشة على بلاد ما وراء النهر، ثم اتجه بعد ذلك إلى بلاد المشرق، وخرب بها مدن عامرة، توفى بسمرقند عام ٨٠٧هـ، انظر: محمد كرد «خطط الشام» ح ٢ ص ١٦١.

(٣) محمد أحمد «علاقة الدولة التيمورية بسلطنة المماليك» ص ٦٧، ماجستير، آداب القاهرة، ١٩٨٦م، وفاء محمد «ساحل الشام فى العصر المملوكى» ص ١٣٤، حكيم أمين «قيام دولة المماليك الثانية» ص ١٧٧، دكتوراة، آداب القاهرة، ١٩٦٠م .

جيوشه عام ٨٠٣هـ/١٤٠٠م لمهاجمة مصر والشام، وهنا لجأت السلطة المملوكية إلى العلماء ليقوموا بتعبئة المصريين والشاميين للإنضمام إلى صفوف الجيش[١] للجهاد ذد تيمور، ففى ربيع الأول من عام ٨٠٣هـ/١٤٠٠م جاب علماء مصر أمثال ـ سراج الدين البلقينى[٢]، وموفق الدين العسقلانى[٣] ـ نواحى البلاد يدعون المصريين للجهاد ضد تيمور، مستعينين على ذلك بحشد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى تحبب فى الجهاد وتدعوا إليه، وتبين مكانة المجاهدين عند الله، محذرين من التقاعس عن قتال العدو، لما فيه من ذلٍ للأمّة، ومعصيةٍ لله[٤].

ولقد تكرر المشهد السابق بدمشق فى صفر ٨٠٣هـ/١٤٠٠م، حيث جاب علماء دمشق أمثال ـ شمس الدين الشهابى[٥]، وشرف الدين الحسبانى[٦] ـ نواحى البلاد يدعون

---

(١) من المعروف أن الجيوش الإسلامية، عرفت طائفة الجند المتطوعة طوال عصورها التاريخية، وكان ذلك دون إكراه منذ عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، وكان هؤلاء المتطوعة يشتركون فى الجيش وقت الحرب فقط ويسرحون فى السلم، وكان هؤلاء المتطوعون لا يكلفون بيت المال شيئًا ويقنعون بما يصيبون من الغنائم، ولقد كان الجيش المملوكى يعتمد على هؤلاء المتطوعة عندما يلم بالدولة خطر خارجى كالمغول والصليبيين، انظر: جورج كاستلان «تاريخ الجيوش» ص ٦٤، ترجمة كمال دسوقى، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٦م، إبراهيم حسن «الجيش فى عصر سلاطين المماليك» ص ١٦٥، ماجستير، آداب القاهرة، ١٩٧٣م، د. عبد المنعم ماجد «نظم دولة المماليك» ص ١٥١.

(٢) سراج الدين البلقينى: عمر بن رسلان، تفقه على شيوخ عصره، درس وأفتى، كان من كبار علماء الشافعية بمصر، توفى ٨٠٥هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ٦ ص ٨٥.

(٣) موفق الدين العسقلانى: أحمد بن نصر الله، تفقه على شيوخ عصره، تولى قضاء مصر على المذهب الحنبلى، توفى ١١ رمضان ٨٠٣هـ، انظر: ابن حجر «رفع الأصر» ص ١٠٩.

(٤) المقريزى «السلوك» ح ٦ ص ٤٠، تحقيق محمد عبد القادر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م، ابن تغرى «النجوم الزاهرة» ح ١٢ ص ١٨٣، ابن شهبة «تاريخ ابن شهبة» ص ٢١٣، ابن شاهين «نيل الأمل» ح ٣ ص ٤٩.

(٥) شمس الدين الشهابى: محمود بن أحمد، تفقه على شيوخ عصره، تولى قضاء الشافعية بدمشق، توفى ٨٠٦هـ، انظر: ابن المبرد «متعة الأذهان» ح ١ ص ٩٧.

(٦) شرف الدين الحسبانى: محمد بن موسى، تفقه على شيوخ عصره، تولى قضاء الحنفية بدمشق، توفى ٨١٥هـ، انظر: السخاوى «الذيل التام» ص ٩٣.

أهالى دمشق للجهاد ضد تيمور[١]، وكذلك كان الأمر بحلب[*][١٠].

أمّا دور العلماء فى المعارك العسكرية التى نشبت بين تيمورلنك والمماليك عندما بدأ الهجوم المغولى على بلاد الشام، فتذكر المصادر التاريخية أنه فى ١١ ربيع الأول ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م هاجم المغول حلب فتصدى لهم الجيس المملوكى وعامة أهل حلب وعلماءها[*] أمثال ابن الركن الحلبى[٢] «ت ٨٠٣هـ»، وأبلوا بلاءًا حسنًا فى القتال، وكبدوا المغول خسائر كبيرة، ولكن الجيش المغولى استطاع فى نهاية الأمر أن يحسم[*] المعركة لصالحه، وتم غزو حلب من قبل المغول الذين قاموا بمذابح مروّعة ضد الأهالى منذ دخولهم المدينة فى الحادى عشر من ربيع الأول ولمدة شهر، ذاق خلالها أهالى حلب وعلماءها شتى ألوان

---

(١) ابن شهبة «تاريخ ابن شهبة» ص ٢٠٤.

(*) لم تذكر المصادر التاريخية أسماء علماء حلب الذين قاموا بتعبئة الأهالى ضد تيمور، كما لم تذكر وتصرح بدور لباقى علماء مدن الشام فى ذلك الأمر، غير أنه يمكن اعتقاد قيامهم بتلك التعبئة كأقرانهم بدمشق، وحلب، فالخطر مشترك على سائر مدن الشام وليس دمشق وحلب فقط.

(١٠) ابن شهبة «تاريخ ابن شهبة» ص ٢٠٤.

(*) أوردت المصادر التاريخية اشتراك علماء حلب فى المقاومة العسكرية ضد الغزو المغولى، ولكنها لم تذكر لنا نماذج من أبرز العلماء الذين قادوا تلك المقاومة ـ باستثناء ابن الركن الحلبى ـ.

(٢) ابن الركن الحلبى: محمد بن أحمد، تفقه على شيوخ عصره، خطب بجامع حلب، توفى ٨٠٣هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ٧ ص ١٢.

(*) تعزو المصادر التاريخية أسباب سقوط مدينة حلب بهذا الشكل السريع إلى السياسة الخرقاء للدولة المملوكية إزاء الخطر المغولى، والذى تمثل فى رفض المماليك التحالف مع العثمانيين الذين سعوا لعقد تحالف عسكرى لصد خطر المغول، مع انشغال أمراء المماليك على الصراع على كرسى الحكم بعد وفاة السلطان برقوق «ت ٨٠١هـ»، حيث كان يجلس على كرسى السلطنة طفل فى العاشرة من عمره وهو السلطان فرج بن برقوق «ت ٨١٥هـ»، ومن الأسباب الرئيسية ـ أيضًا ـ التى ذكرتها المصادر لهذه الهزيمة السريعة ضخامة الجيش المغولى الذى وصفه المؤرخون بأنه كأمواج البحر، وأنه من كثافته كأنه سد الفضاء، انظر: ابن تغرى «النجوم الزاهرة» ح ١٢ ص ١٧٤، ابن عربشاة «عجائب المقدور فى نوائب تيمور» ص ٨، ١٩٩، ابن شهبة «تاريخ ابن شهبة» ص ٢١٠، المقريزى «السلوك» ح ٦ ص ٤٠، ابن دقماق «النفحة المسكية» ص ٣١٦.

العذاب من سفك دماء وهتك أعراض ونهب أموال[(١)] ، ولقد كان العالم ابن الركن الحلبى ـ السابق ذكره ـ من أبرز علماء حلب الذين قتلوا على أيدى المغول أثناء عمليات المقاومة للغزو المغولى .

وعندما علم السلطان فرج بن برقوق[(٢)] بسقوط حلب والزحف المغولى نحو دمشق خرج يوم الأحد ١٣ ربيع الآخر ٨٠٣هـ/١٤٠٠م على رأس الجيش المملوكى للدفاع عن دمشق ، ولقد رافق الجيش المملوكى المصريين والعلماء أمثال صدر الدين المناوى[(٣)] ، وموفق الدين[(٤)] العسقلانى[(٥)] .

أمّا علماء دمشق فى ذلك الوقت فكانوا يحثون الأهالى على الجهاد وعدم الفرار من المدينة ، ويشرفون بأنفسهم على الإجراءات الدفاعية للمدينة ككشف أسوار المدينة والتأكد من حصانتها ، وتزويد قلعة دمشق بالأسلحة والمعدات العسكرية ، وكان من أبرز علماء دمشق الذين قاموا بذلك برهان الدين التادلى[(٦)] ، وشرف الدين[(٧)] عيسى[(٨)] .

---

(١) ابن عربشاة « عجائب المقدور » ص ١٩٩، ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٢ ص ١٧٨، المقريزى « السلوك » ح ٦ ص ٤١، ابن الصيرفى « نزهة النفوس » ح ٢ ص ٧٥، ابن إياس « بدائع الزهور » ح ١ ص ٣٢٦.

(٢) فرج بن برقوق : انظر : ص ١٤.

(٣) صدر الدين المناوى : محمد بن إبراهيم ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء الشافعية بمصر ، توفى عام ٨٠٣هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٦ ص ٢٤٩.

(٤) موفق الدين العسقلانى : أحمد بن نصر الله ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء الحنابلة بمصر ، توفى عام ٨٠٣هـ ، انظر : المقريزى « العقود الفريدة » ح ٢ ص ١٨٢.

(٥) ابن شهبة « تاريخ ابن شهبة » ص ٢١٣، المقريزى « المقفى » ح ٥ ص ٧٩، ابن الصيرفى « نزهة النفوس » ح ٢ ص ٧٩، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٦ ص ٢٤٩، ابن دقماق « النفحة المسكية » ص ٣١٨، ابن حجر « رفع الأصر » ص ١٠٩، المقريزى « درر العقود » ح ٢ ص ١٨٢.

(٦) برهان الدين التادلى : إبراهيم بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء المالكية بحلب ودمشق ، توفى ٨٠٣هـ ، انظر : ابن العماد « شذرات الذهب » ح ٧ ص ٢٢.

(٧) شرف الدين عيسى : عيسى بن عثمان ، تفقه على شيوخ عصره ، ناب فى قضاء الشافعية بدمشق ، درس وأفتى بدمشق ، توفى ٨٠٩هـ ، انظر : ابن شهبة « طبقات الشافعية » ح ٢ ص ٢٢٨.

(٨) ابن شهبة « تاريخ ابن شهبة » ص ٢١٠، ابن سباط « تاريخ ابن سباط » ح ٢ ص ٧٦٣، ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٢ ص ١٨٢، المقريزى « السلوك » ح ٦ ص ٤٢.

وتذكر المصادر التاريخية أول اشتباك عسكرى بدمشق بين الجيش المملوكى والقوات المغولية يوم الثلاثاء ١٨ جمادى الآخر ٨٠٣هـ/١٤٠٠م، ولقد استطاع المماليك فى هذا الاشتباك تكبيد المغول الكثير من الخسائر البشرية، ولقد شارك علماء دمشق[*] فى تلك المعركة، وضربوا خلالها أروع الأمثلة فى البطولة والفداء، كبرهان الدين التادلى[١] الذى استشهد فى تلك المعركة، وشرف الدين عيسى[٢] الذى شلَّت يده بضربة سيف فى تلك المعركة[٣].

ولكن فى يوم الأربعاء ١٩ جمادى الآخر ٨٠٣هـ/١٤٠٠م فرّ بعض الأمراء إلى مصر، وأشيع أنهم أرادوا كرسى الحكم، فقرر السلطان فرج[٤] الرجوع إلى مصر، فأصبح الدمشقيون نهار الخميس ٢٠ جمادى الآخر ليجدوا السلطان قد غادر دمشق[٥].

وهنا انقسمت دمشق بين تيارين، تيار يرى الاستسلام وطلب الصلح والأمان من تيمور، ومثّل هذا الرأى غالب المجتمع الدمشقى من أعيان وعلماء وعامة، ولقد قاد هذا التيار من العلماء[*] برهان الدين ابن مفلح[٦]، حيث خرج ابن مفلح ـ مُتدليًا من سور المدينة

(*) لم تذكر المصادر التاريخية أسماء علماء دمشق ـ باستثناء برهان الدين التادلى، وشرف الدين عيسى ـ الذين شاركوا فى ذلك الاشتباك العسكرى.

(١) برهان الدين التادلى: انظر: ص ٦٩.

(٢) شرف الدين عيسى: انظر: ص ٦٩.

(٣) ابن عربشاه «عجائب المقدور» ص ٢٣٧، ابن شهبة «تاريخ ابن شهبة» ص ٢١٩، السخاوى «الضوء اللامع» ح ١ ص ١٥٥.

(٤) فرج بن برقوق: انظر: ص ١٥.

(٥) ابن شهبة «تاريخ ابن شهبة» ص ٢١٩، ابن دقماق «النفحة المسكية» ص ٣١٩، ابن الصيرفى «نزهة النفوس» ح ٢ ص ٨٤، ابن تغرى «النجوم الزاهرة» ح ١٢ ص ١٨٨، المقريزى «السلوك» ح ٦ ص ٤٩.

(*) لم تذكر المصادر التاريخية أسماء العلماء الذين قادوا هذا التيار، حيث اكتفت ـ فقط ـ بذكر قائد هذا التيار من العلماء وهو ابن مفلح.

(٦) برهان الدين بن مفلح: إبراهيم بن محمد، تفقه على شيوخ عصره، درس وأفتى، ولىّ قضاء الحنابلة بدمشق ٨٠١هـ، انتهت إليه رئاسة الحنابلة بدمشق، وكان ذا دين وصلاح، انظر: ابن مفلح =

ـ لمقابلة تيمور ، حيث تم الاتفاق على أن يقوم أهالى دمشق بدفع مبلغ من المال « ألف ألف دينار » ، وأن يتم فتح أبواب المدينة أمام القوات المغولية ، وذلك مقابل وعد بالأمان لأهالى دمشق على أنفسهم وأموالهم ، وفى صباح السبت ٢٢ جمادى الآخر ٨٠٣هـ/١٤٠٠م ـ أى بعد يومين من انسحاب فرج بن برقوق ـ تم الإعلان عن بنود الاتفاق الذى توصل إليه أعيان وعلماء دمشق مع تيمور ـ السابق ذكره ـ ، ونودى أنه من خالف ذلك قُتِل ، فكف الأهالى عن القتال[١] .

أمّا التيار الثانى فكان تيار المقاومة ، الذى لم يفت فى عضده فرار السلطان فرج إلى مصر ، فلقد كان يرى أن خسائر الاستسلام أكثر من خطر المقاومة ، حيث تذكر المصادر التاريخية عن هذا التيار المقاوم أنهم لما أصبحوا يوم الخميس ٢٠ جمادى الآخر ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م وعلموا بفرار السلطان فرج أجمعوا على محاربة تيمور ومن معه « فركبوا الأسوار ـ أى أسوار مدينة دمشق ـ ، وأعلنوا بالنداء فى البلد يستحثون بعضهم بعضًا على الجهاد ، وكان بينهم وبين المغول قتالًا عظيمًا من أعلى الأسوار ، وأعلى القلعة ـ أى قلعة دمشق[٢] ـ

= « المقصد الأرشد » ح ١ ص ٢٣٦، ابن مكى « السحب الوابلة » ح ١ ص ٦٧، ابن شهبة « تاريخ ابن شهبة » ص ٢٤٠، ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٤ ص ٢٤٧.

(١) ابن دقماق «الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين» ص٩٧، مخطوط معهد المخطوطات برقم (٦٤٣ تاريخ) ، ابن دقماق « النفحة المسكية » ص ٣٢٠، ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٤ ص ٢٠٧، ابن عربشاة « عجائب المقدور » ص ٢٤٩، ابن شهبة « تاريخ ابن شهبة » ص ٢٢٢، ٢٤٠، ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٢ ص ١٩٠، المقريزى « السلوك » ح ٦ ص ٥٠، المقريزى « درر العقود الفريدة » ح ١ ص ١٥٨، والترج فيشل « لقاء ابن خلدون لتيمورلنك » ص ٧، ترجمة محمد توفيق ، تقديم وتعليق د. مصطفى جواد ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، « د. ت » .

(٢) **قلعة دمشق** : تقع قلعة دمشق فى الجهة الشمالية الغربية من سور المدينة ، شُيدت فى العهد السلجوقى ، ثم أعيد بناءها فى عهد الأيوبيين بين سنتى (٦٠٣ ـ ٦١٣هـ) ، أصبحت بعدها مدينة ملكية وعسكرية ، وكان بها مكاتب الإدارة ، وخزائن السلاح وبيت المال ، وبها أسواق وحمامات ، فهى مدينة تستطيع أن تكفى نفسها ، ونظرًا لأهميتها فقد جعل المماليك لها حاكمًا خاصًا بها يرتبط مباشرة بالسلطان ، انظر : ابن عربشاة « عجائب المقدور » ص ٢٥٩، البدرى « أبى البقاء عبد الله « ولد ٨٤٧هـ » » « نزهة الأنام فى محاسن الشام » ص ٣٥، دار الرائد العربى ، بيروت ، ١٩٨٠م .

كبدوا فيه المغول خسائر كبيرة » ، ولقد قاد هذا التيار نائب قلعة دمشق أذدار[(١)] ومعه عدد من العلماء ـ لم تصرح المصادر التاريخية بأسمائهم ، واستمرت تلك المقاومة الباسلة لمدة يومين ، ثم انهارت بعد إعلان أعيان دمشق وعلماءها تسليم مفاتيح المدينة إلى تيمور مقابل الأمان ـ كما سبق القول ـ ، ولكن نائب القلعة ومعه نفر قليل من العلماء والأهالى تحصنوا بالقلعة ورفضوا تسليمها لتيمور ، وظلوا يقاتلون المغول من فوق أسوارها لمدة ٢٩ يومًا مكبدين خلالها المغول خسائر فادحة ، اضطر بعدها نائب القلعة لتسليمها لتيمور بالأمان[(٢)] .

وتذكر لنا المصادر التاريخية أن تيمورلنك أقام بدمشق ٨٠ يومًا ارتكب خلالها مذابح مروّعه ضد الأهالى[(*)] من سفك دماء وهتك أعراض ونهب أموال ، وقبل أن يغادرها أمر بإشعال النيران بها ، واستمرت تلك النيران تلتهم المدينة لمدة ثلاثة أيام حتى تمكن الأهالى من إطفائها[(٣)] ، ولقد علل تيمورلنك قيامه بتلك المذابح ضد أهالى دمشق ، بأن أجداد سكان هذه البلاد قد ساندوا معاوية بن أبى سفيان فى صراعه مع علىّ بن أبى طالب[(*)] ـ

---

(١) لم يعثر الباحث على ترجمته فى المصادر التاريخية ـ أمثال ـ « وجيز الكلام » للسخاوى ، و « طبقات الشافعية » لابن شهبة ، و «الضوء اللامع» للسخاوى ، و «المنهل الصافى» لابن تغرى ، و «المقفى» للمقريزى .

(٢) ابن عربشاة « عجائب المقدور » ص ٢٦٦ ، ابن دقماق « النفحة المسكية » ص ٣١٩ ، ابن الصيرفى « نزهة النفوس » ح ٢ ص ٨٨ ، ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٢ ص ١٩٠ ، المقريزى « السلوك » ح ٦ ص ٥٠ ، والترج فيشل « لقاء ابن خلدون لتيمور » ص ٧٠ ، ايرالابدوس « مدن الشام فى العصر المملوكى » ص ٢٠٧ .

(*) لاشك أن علماء دمشق تعرضوا لتلك المذابح المروّعة على أيدى المغول ـ وإن لم تصرح المصادر التاريخية بذلك ـ حيث أن المصادر التاريخية ذكرت أن عامة سكان دمشق بكل فئاته تعرضوا لتلك المذابح الوحشية دون استثناء .

(٣) ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٤ ص ٢٠٧ ، ابن عربشاة « عجائب المقدور » ص ٢٦٥ ، ٢٨٥ ، ابن شهبة « تاريخ ابن شهبة » ص ٢٢٢ ، ٢٢٥ ، ابن الصيرفى « نزهة النفوس » ح ٢ ص ٩٠ ، ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٢ ص ١٩٤ ، المقريزى « السلوك » ح ٦ ص ٥٤ ، Nicola A. Ziadeh "Damascus under the Mamluks" p. 10, university of Oklahoma press, 1964.

(*) هناك نوع من الاتصال بين المغول والشيعة منذ بداية الغزو المغولى للعالم الإسلامى ـ منتصف القرن السابع الهجرى ـ ، وظلت تلك العلاقة فى القرن التاسع متمثلة فى علاقة تيمورلنك بالطائفة النصيرية ـ =

رضى الله عنه ـ، وأن ذلك ظلم وفسق وكفر، وأن الأحفاد على مذهب الأجداد، وأنه يجب معاقبتهم[(١)].

ويعتقد الباحث أن خيار علماء دمشق الاستسلام وعقد الصلح مع تيمور كان خيارًا خاطئًا، حيث كان علماء دمشق يجب عليهم معارضة أمراء المماليك الذين يريدون الاستسلام وعقد الصلح مع تيمور، والوقوف بجانب نائب القلعة الذى كان يرى خيار المقاومة، مع حث أهالى دمشق على جهاد[(*)] المغول والصبر على قتالهم، والإشراف على عمليات تحصين المدينة، ثم يقوم فريق من العلماء باللحاق بالسلطان فرج وإرغامه على العودة للدفاع عن المدينة، وهذا ما فعله ابن تيمية[(٢)] «ت ٧٢٨هـ» من قبل عندما هاجم المغول بقيادة غازان[(٣)] مدينة دمشق وحاصروها عام ٧٠٢هـ/١٢٩٨م حيث تذكر المصادر

= إحدى فرق الشيعة المتطرفة ـ، انظر لمزيد من الإيضاح، ابن عربشاة «عجائب المقدور» ص ١٩٤ ـ ٢٢٢، ٢٨٦، محمد كرد «خطط الشام» ح ٢ ص ١٧٢، محمد أمين «تاريخ العلويين» ص ٣٢٨، دار الأندلس، بيروت، ١٩٦٦م، تقى شرف الدين «النصيرية» ص ١١٣، منشورات لبنان، ١٩٨٣م، فؤاد إبراهيم «الفقيه والدولة فى الفكر السياسى الشيعى» ص ١٠٣، دار الكنوز الأدبية، بيروت، ١٩٩٨م، د. صبرى سليم «الصراع السياسى والمذهبى بين الشيعة والسنة فى عصر سيطرة إيلخانات المغول» ص ١٩٣، ٢٠٨، ٢١١، دكتوراة، دار العلوم، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

(١) ابن عربشاة «عجائب المقدور» ص ٢٨٦، ابن الشحنة «محب الدين محمد «ت ٨١٥هـ»» «روض المناظر فى علم الأوائل والأواخر» ص ١٢، تحقيق سيد محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م.

(*) حيث تذكر المصادر التاريخية أن السلطان فرج والأمراء لمّا فرّوا من دمشق خلفوا وراءهم كمية ضخمة من أسلحتهم وعتادهم العسكرى، وأعدادًا ضخمة من الخيول والدواب، وبذلك كان من الممكن استخدام الأهالى تلك الأسلحة والخيول فى جهادهم ضد تيمور، وكذلك فإن نائب قلعة دمشق أعلن فى الأهالى أنه من كان يريد سلاحًا فليحضر إلى القلعة التى كانت مشحونة بالأسلحة، انظر: ابن قاضى شهبة «تاريخ ابن شهبة» ح ٤ ص ١٥٧، ابن الصيرفى «نزهة النفوس» ح ٢ ص ٨٥، ابن تغرى «النجوم الزاهرة» ح ١٢ ص ١٨٩.

(٢) ابن تيمية: انظر: ص ٢٠.

(٣) غازان: هو غازان بن أرغون بن أبغا بن هولاكو، هو من أقوى سلاطين دولة المغول، انتهج سياسة عدائية تجاه دولة المماليك، هاجم دمشق عام ٦٩٩هـ، وارتكب بها أعمال وحشية ثم غادرها إلى بلاده، توفى بقرب همذان عام ٧٠٣هـ، انظر: العمرى «مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار» ح ٢٧ ص ٤٩٦،=

التاريخية أن ابن تيمية كان يدور كل ليلة على الأسوار ـ أى أسوار دمشق ـ يحرض المماليك والأهالى على الصبر والقتال ويتلوا عليهم آيات الجهاد والرباط ، ويتعاون مع نائب قلعة دمشق فى عمليات تحصين القلعة بالأسلحة والمؤن ، ولمّا تأخر السلطان الناصر محمد بن قلاوون[١] فى الذهاب إلى دمشق لنجدتها سافر إليه ، وخاطبه بحدة لتأخره لنجدة دمشق ، وهدده بأنه إذا لم يخرج لقتال المغول فإنهم سيقيمون لهم سلطانًا يحميهم من المغول ، فاستجاب الناصر وخرج مع ابن تيمية على رأس الجيش المملوكى ، وتمت هزيمة المغول بموقعة مرج الصفر ٧٠٢هـ/١٢٩٨م[٢] .

ولقد عقدت دولة المماليك مع تيمورلنك صلحًا[*] عام ٨٠٥هـ/١٤٠٢م[٣] ، ثم زال الخطر المغولى ـ بشكل عام ـ بعد وفاة تيمور عام ٨٠٧هـ/١٤٠٥م[٤] ، ولكنه ما لبث أن تجدد الخطر المغولى من خلال شاه رخ بن تيمور[٥] خلال عهد السلطان

= تحقيق د. حمزة أحمد ، المجمع الثقافى ، أبو ظبى ، الإمارات ، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م ، ابن حجر « الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة » ح ٣ ص ٢٩٢، تحقيق محمد سيد ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة .

(١) الناصر محمد بن قلاوون : هو من أقوى سلاطين دولة المماليك البحرية ، تولى الحكم ثلاث مرات الأولى فى عام ٦٩٣هـ ، واستمر سنة واحدة ثم عزل ، ثم تولى ٦٩٨هـ حتى عام ٧٠٨هـ ، ثم أعيد للحكم عام ٧٠٩هـ ، واستمر على كرسى السلطنة حتى وفاته عام ٧٤١هـ ، وكانت هذه الولاية الثالثة أعظم تلك الولايات ، وازدهرت خلالها أحوال مصر والشام ، انظر : المقريزى « السلوك » ح ٢ ص ٥٢٩.

(٢) ابن كثير « البداية والنهاية » ح ١٤ ص ٢٦ ـ ٣٠، دوروتيا كرافولسكى « العرب وإيران : دراسات فى التاريخ والأدب من المنظور الأيديولوجى » ص ١٩٩، دار المنتخب العربى ، بيروت ، ط ١ (١٤١٣هـ/١٩٩٣م) .

(*) لم تذكر المصادر التاريخية دورًا للعلماء فى عقد ذلك الصلح بين دولة المماليك وتيمورلنك عام ٨٠٥هـ .

(٣) السلامى « شهاب الدين أحمد » « مختصر التواريخ » ص ٩١، مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (١٤٣٥ تاريخ) ، ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٥ ص ٦٢، محب الدين ابن الشحنة « ت ٨١٥هـ » « روض الناظر فى علم الأوائل والأواخر » ص ٣٠٤.

(٤) د. إبراهيم طرخان : « مصر فى عصر دولة المماليك » ص ٩٠ ـ ٩٤، محمد أحمد « علاقة الدولة التيمورية بسلطنة المماليك » ص ١٠٧.

(٥) شاه رخ : تولى حكم المغول عقب وفاة أبيه تيمورلنك « ت ٨٠٧هـ » ، وازدهرت دولة المغول فى عهده سياسيًا وحضاريًا ، انتهج سياسة عدائية تجاه المماليك ، توفى ٨٥٧هـ ، انظر : ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٢ ص ٧٠.

برسباى[١] وجقمق[٢]، ولكنه انحصر فى شكل تهديد قولى بسبب قوة سلطنة المماليك آنذاك[٣].

* العلماء والصليبيون :

تُحدد الفترة الزمنية لعصر الحروب الصليبية من عام ٤٨٩هـ/١٠٩٥م وتنتهى عام ٦٩١هـ/١٢٩١م عندما حرر المسلمون مدينة عكا[٤] من أيدى الصليبيين، ولكن ذلك لا يعنى انتهاء الحركة الصليبية، حيث قام الصليبيون خلال القرن الثامن بتغيير استراتيجيتهم العسكرية واستخدام سلاح الحصار الاقتصادى على دولة المماليك، فلقد قامت البابويه بالدعوة لتحريم التجارة مع الدولة المملوكية، ولكن هذه الدعوة لم يُقدر لها النجاح لأن مصالح الدول الأوروبية ـ كالجمهوريات الإيطالية « جنوة، البندقية، بيزة » ـ قد تعارضت مع هذه الروح الصليبية، حيث طغى حب الكسب على الوازع الدينى، عندئذٍ لجأ الصليبيون إلى القيام بعمليات تخريب واسعة للموانئ المصرية والشامية ـ لشل الحركة التجارية ـ رافقها عمليات سلب ونهب وأسر طوال القرن التاسع الهجرى ـ ولقد كانت جزيرتى قبرص[٥]

---

(١) برسباى : انظر : ص ١٠.

(٢) جقمق : انظر : ص ١١.

(٣) محمد أحمد « علاقة الدولة التيمورية بسلطنة المماليك » ص ١٣٧، ١٤٦.

(٤) **عكا** : مدينة من أعمال نيابة صفد فى العصر المملوكى، بينها وبين مدينة صور ١٢ ميلًا، وهى مدينة حصينة تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط، انظر : أبى الفداء « عماد الدين إسماعيل « ت ٧٣٢هـ » » « تقويم البلدان » ص ٢٤٣، دار صادر، بيروت، « د. ت »، ياقوت الحموى « معجم البلدان » ح ٤ ص ١٤٣، العمرى « مسالك الأبصار » ص ١٣٥.

(٥) **قبرص** : جزيرة تقع فى شمال شرق حوض البحر المتوسط إلى الجنوب من آسيا الصغرى وإلى الغرب من بلاد الشام، وهى بذلك تقع بين خطى عرض ٣٤، ٣٥ شمالًا وخطى طول ٣٢، ٣٤ شرقًا، وتبلغ المسافة بين الطرف الشمالى الشرقى للجزيرة وبين سواحل الشام بالقرب من مدينة اللاذقية حوالى ٥٢ ميلًا جغرافيًا، انظر : د. عبد الرحمن محمد « قبرص بين السيادة الإسلامية والبيزنطية ٦٩ ـ ٣٥٥هـ/٦٨٨ ـ ٩٦٥م » ص ٦٠، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، عدد (٥١) عام ١٩٩٨م.

ورودس[١] هما القاعدتين اللتين كانت ينطلق منهما غارات هؤلاء الصليبيين[٢] ـ ، ومن ذلك ما حدث بالإسكندرية[٣] عامى ٨١٤هـ/١٤١١م[٤] ، وما حدث ببيروت[٥] وطرابلس[٦]

---

(١) **رودس :** جزيرة صغيرة تمتد من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى ، على مسافة عشرة أميال من الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى ، وتم فتحها من قبل العثمانيين على أيدى السلطان سليمان القانونى عام ٩٢٩هـ/ ١٥٢٢م ، وتبلغ مساحة رودس حوالى ٤٥٣ ميلًا مربعًا ، وطولها لا يزيد عن ٤٥ ميلًا ، انظر : د. كمال الدسوقى « العثمانيون وقراصنة رودس » ص ١٦٩، مجلة البحث العلمى والتراث الإسلامى ، مكة المكرمة ، العدد (٢) عام ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .

(٢) عبد الصمد الصالح «هدية العبد القاصر إلى الملك الناصر» ص ٩، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٢٦٠٢) ، د. على حبيبة « الحركة الصليبية : الظاهرة « دوافعها ، مواجهتها ، نتائجها » ص ٨، مكتبة الشباب ، القاهرة ، ١٩٩٩م ، د. أحمد دراج « المماليك والفرنج فى القرن التاسع الهجرى » ص ٧، ٢١، ٣٢، ٦٧، ١٠٥، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٦١، د. سهير محمد « الحروب الصليبية المتأخرة » ص ٢٣٢، دار عين ، القاهرة ، ط ١ (٢٠٠١م) ، ح .هايد « تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى » ح ٣ ص ٣١٤، ترجمة أحمد رضا ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٤٩م ، د. سعيد عاشور « قبرص والحروب الصليبية » ص ٧٤، ماجستير ، آداب القاهرة ، ١٩٩٤م ، د. سامى سلطان « الاستبارية فى رودس » ص ٣٩١، دكتوراة ، آداب القاهرة ، ١٩٧٥م ، محمد فتحى « دور القوى الأوربية فى الحصار الاقتصادى على سلطنة المماليك » ص ١٦، ماجستير ، آداب القاهرة ، ٢٠٠٠م ، وفاء محمد « ساحل الشام فى العصر المملوكى » ص ٩٧.

(٣) **الإسكندرية :** مدينة بناها الأسكندر ذو القرنين على شاطئ البحر المتوسط ، وكانت فى العصر المملوكى ميناء تجارى هام ، وكذلك كانت عامرة بالجوامع والمساجد والخوانق والأسواق ومعامل القماش ، انظر : العمرى « مسالك الأبصار » ص ٨٨.

(٤) ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٧ ص ٢٤.

(٥) **بيروت :** مدينة مشهورة على البحر المتوسط ، بينها وبين صيدا ثلاث فراسخ ، تمتعت بازدهار تجارى فى العصر المملوكى ، حيث كانت ميناء دمشق الذى تتوارد إليها خيرات البلاد المجاورة لتصدر عن طريقها ، انظر : وفاء محمد « ساحل الشام فى العصر المملوكى » ص ٣٤.

(٦) **طرابلس :** طرابلس الشام ، وردت فى بعض المصادر العربية باسم « أطرابلس » ـ بزيادة ألف مهموزة ـ تمييزًا لها عن مدينة طرابلس الليبية ، وطرابلس الشام تقع على شاطئ البحر المتوسط فى منتصف الطريق الساحلى الشرقى للبحر المتوسط بين الأسكندرونة فى الشمال وغزة فى الجنوب ، انظر : د. السيد عبد العزيز سالم « طرابلس الشام فى التاريخ الإسلامى » ص ٤، وفاء محمد «ساحل الشام فى العصر المملوكى » ص ٣٥.

عام ٨٠٦هـ/١٤٠٣م[١] وصيدا[٢] عام ٨٤٣هـ/١٤٣٩م[٣] .

فلقد رصدت لنا المصادر التاريخية اشتراك العلماء فى الحملات العسكرية التى قامت بها الدولة المملوكية لفتح جزيرتى « قبرص ورودس »[٤] ـ اللتان كانتا ينطلق منهما غارات الصليبيين ـ ، حيث أرسل السلطان برسباى[٥] ثلاث حملات بحرية مظفرة تجاه قبرص فى ثلاث سنوات متتالية (٨٢٨، ٨٢٩، ٨٣٠هـ/ ١٤٢٤، ١٤٢٥، ١٤٢٦م) ، ولقد تم الفتح فى الحملة الثالثة عام ٨٣٠هـ/١٤٢٦م ، وأصبحت قبرص من البلاد التابعة للدولة المملوكية[٦] ، ولقد شارك علماء[٧] مصر والشام فى هذه الحملات الثلاث[٨] ، أمثال المحب أبو السعادات[٩] « ت ٨٥٩هـ »[١٠] ، وابن

---

(١) العينى « عقد الجمان » « ٨٠٦ ـ ٨١٧هـ » ص ١٩٧، مخطوط بدار الكتب المصرية ، برقم مكروفيلم (٣٥٠٩٥) ، ابن شهبة « تاريخ ابن شهبة » ص ٣٣٢.

(٢) **صيدا** : مدينة على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، من أعمال دمشق فى العصر المملوكى ، بينها وبين مدينة صور ستة فراسخ ، انظر : البغدادى « صفى الدين عبد المؤمن « ت ٧٣٩هـ » » « مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع » ص ١٧٤، دار الكتب العلمية ، بيروت ، « د. ت » ، ياقوت الحموى « ت ٦٣٢هـ » « المشترك وضعًا والمفترق صقعًا » ص ٢٨٧، عالم الكتب ، بيروت ، ط ٢ (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م) .

(٣) ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٩ ص ٩٩.

(٤) قبرص ورودس : سبق التعريف بهما ، انظر : ص ٧٥، ٧٦.

(٥) برسباى : انظر ص ١٠.

(٦) د. محمد عبد الغنى « الملحمة المصرية عصر المماليك الجراكسة » ص ٦٢ ـ ٧٩، مكتبة مدبولى ، ط ١ (٢٠٠٢م) ، د. سامى سلطان « الاستبارية فى رودس » ص ٤٠١ ـ ٤٠٩، د. سعيد عاشور « قبرص والحروب الصليبية » ص ٩٠، ١٠٩.

(٧) لم تذكر الحوليات التاريخية المملوكية شيئًا عن اشتراك العلماء فى تلك الحملات ، حيث ذكرت فقط إرسال السلطان برسباى ثلاث حملات بحرية لفتح جزيرة قبرص ، بينما جاء ذكر اشتراكهم فى تلك الحملات فى كتب التراجم ، وكان ـ للأسف ـ بشكل موجز ومقتضب .

(٨) ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٤ ص ١٢٢، السخاوى « التبر المسبوك » ص ٦٢.

(٩) المحب أبو السعادات : محمد بن أحمد ، تفقه على شيوخ عصره ، درس التفسير ، والفقه والحديث ، توفى ٨٥٩هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٧ ص ١١٧.

(١٠) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٧ ص ١١٧.

الأمشاطى[١] «ت ٨٦٧هـ»[٢]، وأمين الآقصراى[٣] «ت ٨٨٠هـ»[٤]، وبرهان الدين البقاعى[٥] «ت ٨٨٥هـ»[٦].

كذلك شارك علماء مصر والشام فى الحملات التأديبية التى قام بها السلطان جقمق[٧] ضد جزيرة رودس فى عام (٨٤٤، ٨٤٧، ٨٤٨هـ/ ١٤٤٠، ١٤٤٣، ١٤٤٤م)، وأثمرت تلك الحملات ثمرتها، حيث تم عقد الصلح مع جزيرة رودس عام ٨٤٩هـ، وهدأت بعدها غارات الصليبيين بشكل كبير[٨]، ولقد شارك العلماء[٩] فى هذه الحملات[١٠]، أمثال برهان الدين البقاعى «ت ٨٨٥هـ»[١١].

وكذلك رصدت لنا المصادر التاريخية تصدى علماء مصر والشام لهذا الخطر الصليبى، حيث ذكر المؤرخون فى ثنايا تراجمهم لعلماء مصر والشام قيام هؤلاء العلماء

---

(١) ابن الأمشاطى: محمد بن عبد الرحمن، تفقه على شيوخ عصره، درس وأفتى، تولى إفتاء دار العدل بمصر، توفى ٨٦٧هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ٧ ص ١٤٣.

(٢) البقاعى «عنوان الزمان» ح ٢ ص ٥٦٥.

(٣) أمين الآقصراى: يحيى بن محمد، كان من كبار علماء الحنفية بمصر، درس وأفتى، توفى ٨٨٠هـ، انظر: ابن إياس «بدائع الزهور» ح ٣ ص ١٠٧.

(٤) السخاوى «الضوء اللامع» ح ١٠ ص ٢٤١.

(٥) برهان الدين البقاعى: إبراهيم بن عمر، تفقه على شيوخ عصره، من كبار علماء الحنابلة بدمشق، درس وأفتى، توفى ٨٨٥هـ، انظر: ابن المبرد «متعة الأذهان» ح ٢ ص ٥١.

(٦) البقاعى «عنوان الزمان» ح ١ ص ١٤٥، السخاوى «الضوء اللامع» ح ١ ص ١٠١، السخاوى «التبر المسبوك» ص ٦٢.

(٧) جقمق: انظر ص ١١.

(٨) د. ناجلا محمد «مصر والبندقية: العلاقات السياسية والاقتصادية فى عصر المماليك» ص ٨٩، دار عين للنشر، القاهرة، ط ١ (٢٠٠١م)، د. سامى سلطان «الاستبارية فى رودس» ص ٤١٣، ٤٢٥.

(٩) لم تذكر المصادر التاريخية أسماء العلماء الذين شاركوا فى الحملات التى وجهها جقمق لفتح رودس، باستثناء برهان الدين البقاعى الذى ذُكِر لدى ابن حجر العسقلانى فى كتابه «إنباء الغمر»، والسخاوى فى كتابه «التبر المسبوك».

(١٠) ابن حجر «إنباء الغمر» ح ٩ ص ٢٠٠، السخاوى «التبر المسبوك» ص ٨٨.

(١١) ابن حجر «إنباء الغمر» ح ٩ ص ٢٠٠، السخاوى «التبر المسبوك» ص ٨٨.

بالرباط[١] بالثغور المصرية والشامية لصد غارات[*] الصليبيين، فلقد رابط بثغر دمياط[٢] من العلماء ـ على سبيل المثال ـ ابن النحاس[٣] « ت ٨١٤هـ »[٤]، وعبد الرحمن الحنفى[٥] « ت ٨٤٣هـ »[٦]، ورابط بثغر الإسكندرية[٧] من العلماء أبو هريرة بن النقاش[٨] « ت ٨١٩هـ »[٩]، والبدر البهوتى[١]

---

(١) **الرباط** : قلعة حصينة يرابط فيها حامية لدفع عادية الأعداء، حيث جرت العادة عقب الفتوحات الإسلامية الأولى بتشييد الربط بالثغور ـ التى هى موضع المخافة من العدو ـ، وكان التصميم المعمارى لهذه الربط عبارة عن مبانى ذات تخطيط مستطيل يتألف من صحن أوسط تحيط به أبراج فى الأركان، وبالجانب القبلى للصحن مُصلى، وبالجوانب الأخرى حجرات صغيرة بغير نوافذ للمرابطين، ولا يؤدى إلى الرباط إلا مدخل واحد، انظر : عميد أ.ح محمود نديم « الفن الحربى للجيش المصرى فى العصر المملوكى » ص ٣٥، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣، د. عاصم محمد « خانقاوات الصوفية فى مصر فى العصر الأيوبى والمملوكى » ص ٩٨، د. عفيف البهنسى « الفن الإسلامى » ص ٢٧٣، دار طلاس للنشر، ١٩٨٦، دولت عبد الكريم « الخوانق فى مصر فى العصر الأيوبى والمملوكى » ص ٢٠، دكتوراة، آداب القاهرة، ١٩٧٣م.

(*) لم توضح المصادر التاريخية ماهية الدور الدفاعى الذى قام به العلماء فى تلك الربط لصد غارات الصليبيين.

(٢) **دمياط** : مدينة على ضفة أحد فرقى النيل وهى موضع غِرَّة للعدو من البحر، انظر : العمرى « مسالك الأبصار » ص ٩٣.

(٣) ابن النحاس : أحمد بن إبراهيم، تفقه على شيوخ عصره، وكان ملازمًا للجهاد والربط، توفى ٨١٤هـ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ٢٠٣.

(٤) السخاوى « وجيز الكلام » ح ٢ ص ٤١٦، السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ٢٠٣، ابن العماد « شذرات الذهب » ح ٧ ص ١٠٥.

(٥) عبد الرحمن الحنفى : عبد الرحمن الحنفى، تفقه على شيوخ عصره، وبرع فى الفقه، وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وكان كثير الرباط بثغر دمياط، توفى ٨٤٣هـ، انظر : السخاوى « وجيز الكلام » ح ٢ ص ٥٦٨.

(٦) السخاوى « وجيز الكلام » ح ٢ ص ٥٦٨، ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٩ ص ٩٩.

(٧) الإسكندرية : انظر : ص ٧٦.

(٨) أبو هريرة بن النقاش : عبد الرحمن بن محمد، تفقه على شيوخ عصره، درس، وتولى خطابة جامع ابن طولون، توفى ٨١٩هـ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٤ ص ١٤٠.

(٩) ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٧ ص ٢١٥.

« ت ٨٤٥هـ »[٢] ، ورابط بثغر بيروت[٣] ابن قديدار[٤] « ت ٨٣٦هـ »[٥] ، وأبو البركات محمد[٦] « ت ٩٣٣هـ »[٧] ، ورابط بثغر يافا[٨] ابن أرسلان[٩] « ت ٨٤٤هـ »[١٠] ، ورابط بثغر صيدا[١١] شمس الدين القونوى « ت ٧٨٨هـ »[١٢] .

---

(١) البدر البهوتى : حسن بن على ، تفقه على شيوخ عصره ، كان من علماء الحديث ، توفى ٨٤٥هـ ، انظر : السخاوى « الضوء الامع » ح ٣ ص ١١٦.

(٢) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٣ ص ١١٦، البقاعى « عنوان الزمان » ح ٢ ص ١٦١.

(٣) **بيروت :** مدينة مشهورة على البحر المتوسط ، بينها وبين صيدا ثلاث فراسخ ، تمتعت بازدهار تجارى فى العصر المملوكى ، حيث كانت ميناء دمشق الذى تتوارد إليها خيرات البلاد المجاورة لتصدر عن طريقها ، انظر : وفاء محمد « ساحل الشام فى العصر المملوكى » ص ٣٤.

(٤) ابن قديدار : محمد بن أحمد ، تفقه على شيوخ عصره ، كان كثير الجهاد والمرابطة ببيروت ، توفى ٨٣٦هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٦ ص ٣٢٧.

(٥) المقريزى « درر العقود الفريدة » ح ٣ ص ٣٤٧، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٦ ص ٣٢٧، ابن العماد « شذرات الذهب » ح ٧ ص ٢١٨، مجهول « حوليات دمشقية » ص ٦٤، ابن تغرى « المنهل الصافى » ح ٩ ص ٣١٠.

(٦) أبو البركات محمد : محمد بن عبد الرحمن ، تفقه على شيوخ عصره ، وكان ملازمًا للرباط ببيروت ، وأنشأ بها برج للمرابطة ، توفى ٩٣٣هـ ، انظر : ابن طولون « ذخائر القصر » ص ٤٠٤ ـ ٤١٤.

(٧) ابن طولون « ذخائر القصر » ص ٤٠٧ ـ ٤١٤.

(٨) **يافا :** هى ميناء هام فيه مرسى السفن الواردة إلى القدس والمُقلعة عنها ، وكان هذا الميناء يستقبل الحجاج المسيحيين فى العصر المملوكى ، اتظر : وفاء محمد « ساحل الشام فى العصر المملوكى » ص ٢٨.

(٩) ابن أرسلان : أحمد بن حسين ، تفقه على شيوخ عصره ، درس وأفتى ، وله مصنفات عديدة ، وكان ملازمًا للرباط بيافا وأنشأ بها برج للمرابطة ، توفى ٨٤٤هـ ، انظر : مجير الحنبلى « الأنس الجليل » ح ٢ ص ١٧٤.

(١٠) البقاعى « عنوان الزمان » ح ١ ص ٦٧، السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ٢٨٥، مجير الحنبلى « الأنس الجليل » ح ٢ ص ١٧٤.

(١١) صيدا : انظر : ص ٧٧.

(١٢) شمس الدين القونوى : محمد بن يوسف ، تفقه على شيوخ عصره بدمشق ، وكان كثير الرباط بصيدا وبيروت ، وبنى برجًا للمرابطة على الساحل ، توفى ٧٨٨هـ ، انظر : ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٢ ص ٢٤٤.

(١٣) ابن طولون « المعزة فيما قيل بالمزة » ص ٢٢، مكتبة القدسى والبُدير ، دمشق ، ١٣٤٨هـ ، ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٢ ص ٢٤٤.

* العلماء والتركمان(*) :

أقام التركمان لأنفسهم دويلات أشهرها دويلة بنى دلغادر(١) ، ودويلة بنى رمضان(٢) ، ودويلة بنى قرمان(٣) ، ....

(*) **التركمان** : اختلف فى وجه تسمية التركمان تركمان ، فقيل سمّوا بذلك لأن كل من أسلم من أتراك خراسان وما وراء النهر فى صدر الإسلام كان يقال له صار « ترجمانًا » ؛ لكونه ترجمانًا بين العرب الفاتحين بسبب اختلاطه معهم ، وتعلمه اللسان منهم وبين من لم يُسلم من الأتراك حتى صار ذلك علمًا لهم أى لمن أسلم منهم ، ثم قيل بالتحريف تركمان ، وقيل أنهم سمّوا بذلك لأن هؤلاء لمّا قدموا إلى تلك الديار واختلطوا بأقوامها وامتزجوا بسكانها خرج أولادهم عن صرافة لون الأتراك وأشكالهم بمُقتضى طبيعة الإقليم ، فقيل لهم « ترك مانند » يعنى يشبهون الترك ، ثم اختصر هذا اللقب فقيل « تركمان » ، ولقد سيطر التركمان على بلاد العراق خلال القرن التاسع الهجرى ، وأقاموا لأنفسهم دويلات بها أهمها دويلة «القراقيونلو» « أصحاب الخروف الأسود » ـ أو الشاه السوداء ـ ، ودويلة «آق قويونلو» «طائفة الخروف الأبيض» « الخراف البيض » ـ أو الشاه البيضاء ـ ، انظر : م. م. الرَّمزى « تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار فى وقائع قزان وبلغار وملوك التتار » ح ١ ص ٣٤٣، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ (٢٠٠٢م) ، كليفورد ا. بوزورث « الأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى » ص ٢٢٨ ـ ٢٣٤، ترجمة حسين على ، دار عين للنشر ، القاهرة ، ١٩٩٥م ، فرج محمد « العلاقات الخارجية لدولة المماليك فى العراق ١٧٤٩م ـ ١٨٣١م » ص ٥، ماجستير ، آداب القاهرة ، ١٩٦٥م .

(١) **دويلة بنى دلغادر** : قامت دويلة بنى دلغادر عام ٧٤٠هـ، وكان أول ملوكها قراجا بن دلغادر « ت ٧٥٤هـ » ، وشملت أملاك هذه الدولة مرعش وأبلستين ، وأنقرة وغيرها ، لمزيد من الإيضاح ، انظر : د. أحمد فؤاد « الفتح العثمانى للشام ومصر ومقدماته من واقع الوثائق والمصادر التركية والعربية المعاصرة له » ص ٦٤، دار النهضة العربية ، ١٩٧٦م ، د. إبراهيم طرخان « مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة » ص ١١٦، حسناء حسين «الإمارات التركمانية على حدود دولة المماليك» ص ٢٢، ماجستير ، كلية البنات جامعة عين شمس ، ٢٠٠٢م .

(٢) **دويلة بنى رمضان** : كانت دويلة بنى رمضان ضمن الإمارات التابعة للمماليك فى الأناضول ، وأول ملوكها أحمد بن رمضان ـ ولى الإمارة قبل عام ٧٨٠هـ ـ ، وشملت أملاكها سيس وطرسوس وأطنه وغيرها ، ولمزيد من الإيضاح ، انظر : د. أحمد فؤاد « الفتح العثمانى للشام » ص ٧٠، د. إبراهيم طرخان « مصر فى عصر دولة المماليك » ص ١١٦.

(٣) **دويلة بنى قرمان** : تأسست هذه الدويلة أواخر القرن الثامن الهجرى ، وكان أول ملوكها كريم الدين قرمان بن نورة ، وشملت أملاكها سيواس وقونية وقرمان وغيرها ، لمزيد من الإيضاح انظر : إبراهيم طرخان « مصر فى عصر دولة المماليك » ص ١١٦.

ودويلة الشاه البيضاء[١] ، وديلة الشاه السوداء[٢] ، وكان المفترض أن تكون هذه الدويلات تابعة لسلطنة المماليك فى مصر والشام ، ولكن الحاصل فعلًا هو أنها لم تظل على ولائها للمماليك ، وإنما دأبت على استغلال الظروف للخروج على سلطنة المماليك ، بل ومهاجمة حدود الدولة المملوكية الشمالية ، ولقد اشتد هذا الخطر التركمانى فى القرن التاسع الهجرى بسبب كثرة الفتن والقلاقل الداخلية بدولة المماليك ، وظهور العثمانيين الذين كانو يتدخلون فى شؤون الدويلات التركمانية من ناحية وفى العلاقات بينهم وبين سلطنة المماليك من ناحية أخرى[٣] .

فلقد ذكرت لنا المصادر التاريخية قيام قرايلوك[٤] عثمان ـ زعيم دولة الشاه البيضاء ـ بمهاجمة حلب عام ٨٣٤هـ/١٤٣٠م مكبدًا الدولة المملوكية خسائر فى الأموال والأرواح[٥] ، ومن ذلك أيضًا قيام شاه سوار[٦] ـ زعيم دولة بنى دلغادر ـ بمهاجمة حدود

---

(١) **دويلة الشاه البيضاء** : أو « آق قويونلو » ـ «طائفة الخروف الأبيض» ـ ، تأسست ٧٨٠هـ فى ديار بكر وشرقى الأناضول وأذربيجان ، وأول حكامها قرايلوك عثمان « ٧٨٠ ـ ٨٣٩هـ » ، انظر : لمزيد من الإيضاح : كليفورد. ا. بوزورث « الأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى » ص ٢٣٤، حسناء حسين «الإمارات التركمانية» ص ٢٦.

(٢) **دويلة الشاه السوداء** : أو « القراقيونلو » ـ «أصحاب الخروف الأسود» ـ ، تأسست عام ٧٨٢هـ ، وتمركزت هذه الدويلة حول بحيرتى « وان » ، و « أتورميا » ، ومن هناك بسطوا سيطرتهم شيئًا فشيئًا على أذربيجان ، والأطراف الشرقية لشبه جزيرة الأناضول ، وكانت هذه الدويلة شيعية ، لمزيد من الإيضاح ، انظر : كيلفورد. ا. بوزورث « الأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى » ص ٢٢٨، ٢٣٢، د. أحمد فؤاد « الفتح العثمانى للشام » ص ٦٨، وبرتولد شبولر « العالم الإسلامى فى العصر المغولى » ص ١٣٥، ترجمة خالد أسعد ، دار حسان للطباعة ، دمشق ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، حسناء حسين «الإمارات التركمانية» ص ٢٦، ٢٩

(٣) د. سعيد عاشور « مصر والشام فى عصر الأيوبيين والمماليك » ص ٣٨٠ ـ ٣٨٤، د. إبراهيم طرخان « مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة » ص ١١٦ ـ ١٤١.

(٤) **قرايلوك** : هو عثمان بن قطلوبك بن طورغلى ، مؤسس دولة الشاه البيضاء عام ٧٨٠هـ ، وكانت علاقاته السياسية مع الدولة المملوكية سيئة ، توفى عام ٨٣٩هـ ، انظر السخاوى « الضوء اللامع » ح ٥ ص ١٣٥.

(٥) المقريزى « السلوك » ح ٣ ص ٤٦.

(٦) شاه سوار : انظر هامش ٣ ص ٢٣.

الدولة المملوكية الشمالية كحلب وغيرها عام ٨٧٢هـ/١٤٦٧م ، مكبدًا الدولة المملوكية خسائر كثيرة[١] .

ولقد رصدت لنا المصادر التاريخية دورًا للعلماء فى صد خطر التركمان من مصر والشام ، حيث كانت الدولة المملوكية تلجأ إلى العلماء ليقوموا بتعبئة المصريين والشاميين للإنضمام إلى صفوف الجيش للجهاد ضد التركمان ، ففى عام ٨٢١هـ/١٤١٨م عندما علم السلطان شيخ[٢] بعزم قرايوسف[٣] ـ زعيم دولة الشاه السوداء ـ على مهاجمة حلب ، فاستدعى شيخ علماء مصر وأخبرهم بالأمر ، فما كان من علماء مصر أمثال ـ جلال الدين البلقينى[٤] ، وجمال الدين الأفقهسى[٥] ـ إلا أن طافوا نواحى البلاد يدعون المصريين للجهاد ضد قرايوسف ، مستعينين على ذلك بحشد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى تُحبب فى الجهاد وتدعو إليه ، وتبين مكانة المجاهدين عند الله ، محذرين من التقاعس عن قتال العدو ، لما فيه من ذلٍ للأمة ومعصية لله[٦] .

كما كتبت المراسيم السلطانية إلى علماء[*] الشام بتعبئة الشاميين لجهاد قرايوسف ـ كما حدث بمصر[٧] ـ .

---

(١) ابن إياس « بدائع الزهور » ح ٢ ص ٤٧.

(٢) شيخ : انظر : ص ٣٧.

(٣) قرايوسف : قرايوسف بن قرا محمد ، استبد بملك العراق ، كان شديد الظلم ، خربت فى عهده العراق ، انتهج سياسة عدائية تجاه المماليك ، توفى ٨٢٣هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٦ ص ٢١٦.

(٤) جلال الدين البلقينى : عبد الرحمن بن عمر ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء الشافعية بمصر ، وكذا قضاء العسكر وإفتاء دار العدل بها ، درس وأفتى ، توفى عام ٨٢٤هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٤ ص ١٠٦.

(٥) جمال الدين الأفقهسى : عبد الرحمن بن أحمد ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء المالكية بمصر ، درس وأفتى ، توفى ٨٢٧هـ ، انظر : السخاوى « الذيل التام » ح١ ص ٢٧ .

(٦) العينى « عقد الجمان » ص ٣١٩، ابن حجر العسقلانى « إنباء الغمر » ح٧ ص ٣١٤، المقريزى « السلوك » ح ٤ ص ٤٥٩، ابن الصيرفى « نزهة النفوس » ح ٢ ص ٤١٥.

(*) لم تذكر المصادر التاريخية أسماء علماء الشام ودورهم فى تعبئة الشاميين قد قرايوسف .

(٧) المقريزى « السلوك » ح ٤ ص ٤٦٠، ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٧ ص ٣٨٦.

وعندما تجدد خطر قرايوسف[1] عام ٨٢٣هـ/١٤٢٠م حيث وردت الأخبار بأنه يعزم على مهاجمة البلاد الشامية، فقام علماء مصر أمثال ـ جلال الدين البلقينى[2]، وجمال الدين الأفقهسى[3] ـ بتعبئة المصريين للجهاد ضد قرايوسف ـ كما حدث عام ٨٢١هـ[4] ـ.

ومن ذلك ـ أيضًا ـ ما ذكرته المصادر التاريخية عام ٨٧٢هـ/١٤٦٧م عندما ورد إلى السلطان قايتباى[5] خبر غارات شاه سوار[6] ـ زعيم بنى دلغادر ـ على حلب وغيرها من المدن الشامية وقيامه بأعمال القتل والنهب ضد الأهالى، فاستدعى علماء[7] مصر وأخبرهم بالأمر، فقاموا بتعبئة المصريين للجهاد ضد شاه سوار[8].

كذلك شارك علماء[9] مصر والشام فى الحملات العسكرية التى شنتها الدولة المملوكية لردع التركمان، فلقد رافق العلماء ـ أمثال شمس الدين الديرى[10]، شهاب الدين الباعونى[11] ـ

---

(١) قرايوسف : انظر : ص ٨٣.

(٢) جلال الدين البلقينى : انظر : ص ٨٣.

(٣) جمال الدين الأفقهسى : عبد الرحمن بن أحمد، تفقه على شيوخ عصره، تولى قضاء المالكية بمصر، درس وأفتى، توفى ٨٢٧هـ، انظر : السخاوى « الذيل التام » ح ١ ص ٢٧.

(٤) ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٧ ص ٣٨٧، العينى « عقد الجمان » ص ٣٥، ابن الصيرفى « نزهة النفوس » ح ٢ ص ٣٧.

(٥) قايتباى : انظر : ص ٢٢.

(٦) شاه سوار : انظر : ص ٢٣.

(٧) لم تذكر المصادر التاريخية أسماء العلماء الذين استدعاهم قايتباى ليعرض عليهم خطر شاه سوار.

(٨) ابن إياس « بدائع الزهور » ح ٣ ص ٧٥.

(٩) لم توضح المصادر التاريخية طبيعة دور العلماء فى تلك الحملات العسكرية التى شنتها الدولة المملوكية لردع التركمان، واقتصرت فقط على ذكر مرافقة العلماء للجيش المملوكى فى حملاته العسكرية.

(١٠) شمس الدين الديرى : محمد بن سعد، تفقه على شيوخ عصره، تولى قضاء الحنفية بمصر، درس وأفتى، توفى ٨٢٧هـ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٤ ص ١٥.

(١١) شهاب الدين الباعونى : أحمد بن ناصر بن خليفة، تفقه بمشايخ عصره، ولى قضاء الشافعية بدمشق، وخطابة الجامع الأموى بدمشق، توفى ٨١٦هـ، انظر : ابن شهبة « طبقات الشافعية » ح ٢ ص ٢٦٣.

الحملة العسكرية التى قادها السلطان شيخ[1] لردع قرايوسف[2] ـ زعيم الشاه السوداء ـ عام ٨٢٠هـ/١٤١٧م[3] .

كما رافق علماء مصر ـ أمثال ابن حجر العسقلانى[4] ، وبدر الدين العينى[5] ، وعلماء الشام ـ أمثال برهان الدين البقاعى[6] ، ونجم الدين القرقشندى[7] ـ الحملة العسكرية التى قادها السلطان برسباى[8] لردع قرايلوك[9] ـ زعيم الشاه البيضاء ـ عام ٨٣٦هـ/١٤٣٢م[10] .

جـ ـ العلماء والسفارات[*] :

لقد كان ديوان الإنشاء فى العصر المملوكى هو الجهاز الإدارى الذى كانت تخرج منه كافة المراسلات والسفارات الخاصة بالدولة سواء تتعلق بالنواحى السياسية أو الاقتصادية

---

(١) شيخ : انظر ص ٣٧.

(٢) قرايوسف : انظر : ص ٨٣.

(٣) ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٣ ص ١٩٦، العينى « عقد الجمان » ص ٦٧، ابن الصيرفى « نزهة النفوس » ح ٢ ص ٣٧.

(٤) ابن حجر العسقلانى : أحمد بن على ، تفقه على شيوخ عصره ، برع فى علم الحديث ، تولى قضاء الشافعية بمصر ، توفى ٨٥٢هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٢ ص ٩٧.

(٥) بدر الدين العينى : محمود بن أحمد ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء الحنفية بمصر ، درس وأفتى ، توفى ٨٥٥هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ١٠ ص ١٣١.

(٦) برهان الدين البقاعى : انظر : ص ٧٨.

(٧) نجم الدين القرقشندى : محمد بن أحمد ، تفقه على شيوخ عصره ، ناب فى قضاء الشافعية بمصر ، توفى ٨٧٦هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٦ ص ٣٢٢.

(٨) قايتباى : انظر ص ٢٢.

(٩) قرايلوك : انظر : ص ٨٢.

(١٠) البقاعى « عنوان الزمان » ح ١ ص ١٦٣، ح٢ ص ٤١٩، العينى « عقد الجمان » ص ٤٢٨.

(*) **السفارات :** « سفر » بين القوم أى أصلح ، والسفير هو المصلح بين القوم ، هذا ما ذكرته كتب اللغة عن معنى السفير ، و « اصطلاحًا » السفير شخص يتكلم باسم من أرسله ويقوم بإنجاز مهمة محددة له =

وغيرها[١] ، ولقد كانت رئاسة ديوان الإنشاء ـ فى القرن التاسع الهجرى ـ قاصرة على العلماء[٢] ، وكان متوليها يُطلق عليه كاتب السر[*] ، والذى كان من مهامه الرئيسية الإشراف على المكاتبات الرسمية التى ترد إلى السلطان من مختلف الدول وإعداد الردود عليها ، فضلًا عن إعداد الرسائل التى يبعث بها السلطان إلى مختلف رؤساء الدول[٣] .

ومن أشهر علماء مصر الذين تولوا كتابة السر بها ناصر الدين[٤] البارزى « ت ٨٢٣هـ »[٥] ، وكمال الدين البارزى[٦] « ت ٨٦٥هـ »[٧] ، وابن مزهر[٨]

= عند المرسل إليه ، وقد عرف التراسل فى الدولة الإسلامية فى عهد النبى ﷺ وخلفاءه من بعده ، ولقد كان من أهم الشروط التى كان يجب أن تتوافر فى السفير ـ كما يذكر القلقشندى والخالدى ـ الأمانة وطلاقة اللسان ومعرفته اللغات ، والجرأة ، ولمزيد من الإيضاح : انظر : الخالدى « المقصد الرفيع » ص ١٠١، القلقشندى « صبح الأعشى » ح ٦ ص ٣٥٩، منى إبراهيم « السفارات الأجنبية فى مصر عصر سلاطين المماليك » ص ١٠٣، ماجستير ، آداب القاهرة ، ١٩٧٥م .

(١) الخالدى « المقصد الرفيع » ص ١٠١، العمرى « المسالك والممالك » ص ٦٠، المقريزى « المواعظ والاعتبار » ح ٣ ص ٧٣١، القلقشندى « صبح الأعشى » ح ١ ص ١٤٦.

(٢) الخالدى « المقصد الرفيع » ص ١٢، ابن كنان « حدائق الياسمين » ص ١٦٧، المقريزى « المواعظ والاعتبار » ح ٣ ص ٧٣١.

(*) سوف يتحدث الباحث عن ولاية « وظيفة » « كاتب السر » بشيء من التفصيل بالفصل الثانى « العلماء والإدارة » .

(٣) العمرى « المسالك والممالك » ص ٦٠، القلقشندى « صبح الأعشى » ح ١ ص ١٤٦، المقريزى « المواعظ والاعتبار » ح ٣ ص ٧٣١، الخالدى « المقصد الرفيع » ص ١٠١.

(٤) ناصر الدين البارزى : محمد بن محمد بن عثمان ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء حلب ، وحماة ، وكتابة السر بمصر ، توفى ٨٢٣هـ ، انظر : ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٣ ص ٢٩٨.

(٥) ابن قاضى شهبة « طبقات الشافعية » ح ٢ ص ٣٣٣، المقريزى « درر العقود » ح ٣ ص ١١٥، ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٣ ص ٢٩٨.

(٦) كمال الدين البارزى : محمد بن محمد ، تفقه بشيوخ عصره ، تولى قضاء دمشق ، وكتابة السر بمصر ، توفى عام ٨٦٥هـ ، انظر : ابن طولون « قضاة دمشق » ص ١٦٢.

(٧) البقاعى « عنوان الزمان » ح ٤ ص ٦٨٣، ابن طولون « قضاة دمشق » ص ١٦٢، ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٥ ص ٢٩٠.

(٨) ابن مزهر : محمد بن عبد الرحمن ، تفقه على شيوخ عصره ، ولى إفتاء دار العدل بمصر ، وكتابة السر بها ، توفى ٨٩٣هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ١١ ص ٨٨.

«ت ٨٩٣هـ»[١]، ومن أشهر علماء دمشق الذين تولوا كتابة السر بها موفق الدين العباسى[٢] «ت ٨٩٣هـ»[٣]، وقطب الدين الخيضرى[٤] «ت ٨٩٤هـ»[١٠]، ومن أشهر علماء حلب الذين تولوا كتابه السر بها أبو بكر[٥] النصيبى «ت ٨٦٣هـ»[٦]، وأبو الفضل ابن الشحنة[٧] «ت ٨٦٥هـ»[٨].

كذلك تذكر المصادر التاريخية قيام علماء مصر والشام بأعمال ذات صبغة دبلوماسية تهدف إلى حقن الدماء وإخماد الحروب التى كانت تخوضها الدولة المملوكية ضد أعدائها، ومن ذلك ما تذكره المصادر التاريخية عام ٨٢٣هـ/١٤٢٠م من اختيار السلطان شيخ[٩] لبدر الدين العينى[١٠] ـ كمبعوث خاص ـ للسلطان إلى بلاد بنى قرمان[١١] فى مهمة

---

(١) ابن شاهين «المعجم المفنن» ص ٥٢، السخاوى «الضوء اللامع» ج ١١ ص ٨٨.

(٢) موفق الدين العباسى: عبد الرحمن بن أحمد، تفقه على شيوخ عصره، تولى كتابة سر مصر ونظر جيشها، توفى ٨٩٣هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ج ٤ ص ٤٩.

(٣) ابن مكى «السحب الوابلة» ج ٢ ص ٤٧٣، السخاوى «الضوء اللامع» ج ٤ ص ٤٩، ابن الحمصى «حوادث الزمان» ج ١ ص ٣٠٠.

(٤) قطب الدين الخيضرى: محمد بن محمد بن عبد الله، تفقه على شيوخ عصره، تولى قضاء الشافعية بدمشق، ووكالة بيت المال بها، توفى ٨٩٤هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ج ٩ ص ١٢١، ابن طولون «قضاة دمشق» ص ١٧٨.

(٥) ابن طولون «قضاة دمشق» ص ١٧٨، ابن الحمصى «حوادث الزمان» ج ١ ص ١٨٣، السخاوى «الضوء اللامع» ج ٩ ص ١٢١.

(٦) أبو بكر النصيبى: أبو بكر بن محمد، تفقه على شيوخ عصره، درس بمدارس حلب، وولى كتابة السر بها، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ج ١١ ص ٨٧.

(٧) السخاوى «الضوء اللامع» ج ١١ ص ٨٧.

(٨) أبو الفضل بن الشحنة: محمود بن إبراهيم، تفقه على شيوخ عصره، تولى قضاء الحنفية بحلب، درس وأفتى، توفى ٨٦٥هـ، انظر: ابن العجمى «كنوز الذهب» ج ٢ ص ٢٠٩.

(٩) ابن العجمى «كنوز الذهب» ج ٢ ص ٢٠٩.

(١٠) شيخ: انظر: ص ٣٧.

(١١) بدر الدين العينى: انظر: ص ٨٥.

(١٢) بلاد بنى قرمان: انظر هامش ص ٨١.

دبلوماسية ، ليأخذ الولاء للسلطان من نواب هذه البلاد وقلاعها ، وكشف أخبارهم ونواياهم من حيث طاعتهم للسلطان أو خروجهم[*] عليه[(١)] .

كما أرسل السلطان برسباى[(٢)] شرف الدين بن العجمى[(٣)] عام ٨٣٦هـ/١٤٣٢م إلى قرايلوك[(٤)] عثمان ـ زعيم دولة الشاه البيضاء ـ وذلك لعقد معاهدة[(٥)] الصلح التى طالب بها قرايلوك لحقن الدماء بين الدولتين ، وبالفعل تم عقد الهدنة بين الدولتين فى العام ذاته[(*)(٦)] .

كما أرسل السلطان قايتباى[(٧)] ابن أجا[(٨)] عام ٨٨٠هـ/١٤٧٥م إلى حسن الطويل[(٩)] ـ زعيم دولة الشاه البيضاء ـ ، ولم يذكر ابن إياس سبب هذه السفارة ولا القصد منها وإنما

(*) لم تذكر المصادر التاريخية نتائج هذه السفارة وجهود بدر الدين العينى فيها .

(١) العينى « عقد الجمان » ص ٤٠، ابن الصيرفى « نزهة النفوس » ح ٢ ص ٤٦٩، إيمان شكرى « السلطان برقوق مؤسس دولة المماليك الجراكسة من خلال مخطوط عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان لبدر الدين العينى » ص ٢١، مكتبة مدبولة ، ط ١ (٢٠٠٢م) .

(٢) برسباى : انظر ص ١٠.

(٣) شرف الدين بن العجمى : أبو بكر بن سليمان ، تفقه بشيوخ عصره ، تولى كتابة السر بحلب ، ونيابة كتابة السر بمصر عهد برسباى ، توفى ٨٤٤هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ١١ ص ٣٣.

(٤) قرايلوك عثمان : انظر : ص ٨٢.

(*) **المعاهدة** : هى الموادعة والمصالحة والمسالمة ، وهى مصالحة أهل الحرب على ترك القتال مدة معينة بعوض أو غيره ، ويتولى عقد الصلح الإمام أو نائبه ، انظر : أحمد محمد سليمان « أحكام غير المسلمين فى القرآن الكريم » ص ٣٦٣ ـ ٣٦٦، دكتوراة ، دار العلوم ، القاهرة ، ٢٠٠٤م .

(٥) لم تذكر المصادر التاريخية جهود العالم شرف الدين بن العجمى لعقد معاهدة الصلح بين الطرفين .

(٦) العينى « عقد الجمان » ص ٤٣٢، ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٤ ص ٢٢٠.

(٧) قايتباى : انظر : ص ٢٢.

(٨) ابن أجا : محمد بن محمود ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء العسكر بمصر ، توفى ٨٨١هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ١٠ ص ٤٣.

(٩) حسن الطويل : ملك العراقين ، كان ملكًا عاقلاً ، كثير الخداع ، عادى دولة المماليك عهد قايتباى ، وكان الأشرف قايتباى يخاف سطوته ، توفى ٨٨٣هـ ، انظر : ابن إياس « بدائع الزهور » ح ٣ ص ١٤٨، مكتبة عيسى البابى الحلبى « ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م » .

ذكر فقط عودة ابن أجا من عند حسن الطويل شهر جمادى الأولى من ذات السنة[١] ـ.

ويبدو أن سبب هذه السفارة هو القتال الذى نشب بين الأمير يشبك[٢] وحسن الطويل فى الشهر السابق ـ أى شهر ربيع الآخر ـ، فقد ذكر ابن إياس أنه حدث خلاف بين حسن الطويل وبين ابنه «اغرلو» فلجأ الابن إلى نائب حلب، ولمّا دار القتال بين المماليك وقوات حسن الطويل، فانهزمت قوات المماليك، ولعله لما بلغ السلطان قايتباى خبر الهزيمة أرسل ابن أجا ليسوى الأمور بينهما، وعاد ابن أجا من سفارته[٣]، وأخبر السلطان قايتباى بأن الطاعون قد انتشر فى بلاد حسن الطويل، وأنه مات من عسكره ما لا يحصى، وأن أمره قد تلاشى[٤].

ولقد كان ابن أجا دبلوماسيًا بارعًا، فقد استطاع الخروج من المأزق الذى زجّه فيه حسن الطويل، حيث يَذكر ابن أجا أن حسن الطويل قال له ـ فى أول اجتماع معه ـ أنه يحب السلطان قايتباى ويعتبر مملكيتهما مملكة واحدة، ولذلك فهو يعجب لماذا لم يطلب السلطان قايتباى معونته ضد شاه سوار[٥]، مع أنه عرض معونته على السلطان قايتباى مرارًا فتجاهله السلطان ولم يُعنى بالرد عليه، وهنا لم يشأ ابن أجا أن يواجه حسن الطويل بالسبب الحقيقى الذى من أجله أهمل السلطان قايتباى الرد عليه، وهو أطماع حسن الطويل ببلاد الشام ومحاولة الاستيلاء على بعضها، إنما أجابه إجابة فيها براعة، تضمنت الإشادة به وبالسلطان قايتباى فى ذات الوقت، حيث قال: «مولانا البادشاه ـ لقب السلطان حسن ـ الأمر ما يحتاج إلى هذا، وسوار أقل من أن يجتمع عسكر مولانا السلطان قايتباى وعسكر البادشاه»[٦].

---

(١) ابن إياس «بدائع الزهور» ح٣ ص ١٠٨.

(٢) ابن إياس «بدائع الزهور» ح٣ ص ١٠٨.

(٣) لم توضح المصادر التاريخية ما تم بين ابن أجا والسلطان حسن الطويل.

(٤) ابن إياس «بدائع الزهور» ح٣ ص ١١٠، ابن شاهين «نيل الأمل» ح٧ ص ١٤١.

(٥) شاه سوار: انظر: ص ٢٣.

(٦) ابن أجا «تاريخ الأمير يشبك» ص ٨٦، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٤م.

كما قام ابن أجار بدور رئيسى فى المفاوضات التى دارت بين الأمير يشبك[(١)] وبين شاه سوار عام ٨٧٥هـ من أجل حقن الدماء، حيث يذكر ابن أجا أنه عندما طلب شاه سوار الصلح والدخول فى طاعة السلطان قايتباى[(٢)] «فأرسلنى الأمير يشبك إليه ومعى هدية فى مقابل هديته، وقد رحب شاه سوار بى وأكرمنى، وذلك لأن الأمير يشبك أخبر قاصد شاه سوار ـ الذى كان بعثه لطلب الصلح ـ أنه سيرسل إليه قاضى العسكر وهو والدنا كلنا، واعتمادنا على كلامه، ورضاه رضانا»[(٣)].

ويسرد لنا ابن أجا الحوار الذى دار بينه وبين شاه سوار «أن شاه سوار عندما قال له أن الأمير يشبك والسلطان قايتباى بغى علينا فقال له ـ ابن أجا ـ أنتم بدأتم بالبغى فإذا قوتلتم بما صدر منكم تقولوا بغيتم علينا، وأنت وأباك وأجدادك من قبلك نواب للسلطنة من قديم الزمان وإلى الآن، وإذا خرجتم عن الطاعة وجب عليه قتالكم، فقال سوار إن الله نصرنا عليكم لبغيكم، فردّ ابن أجا أن هذا ليس صحيح من وجوه، منها أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يبتلى المؤمنين ليضاعف لهم الأجر، ومنها أن يكون ذلك لسوء تدبير منهم ومخالفة ذوى الأراء، والدليل على ذلك قتلى «أُحد»[(٤)]، وهنا قال قاضى عسكر شاه سوار هذا كله بتقدير الله، فقال ابن أجا نعم، ولكن سوء التدبير كان سببًا لذلك، لأن العبد له الاختيار الجزئى، ولولا ذلك لما استحق العقاب، فقال سوار والله لو تأخر أخذ القلعة ـ أى قلعة عينتاب[(٥)] ـ خمسة أيام لكنت نصبت خيامى فى مقابلة خيامكم ورأيت قتالى معكم،

---

(١) يشبك: الأمير يشبك، كان مدبر السلطنة عهد السلطان قايتباى، فقد اجتمعت فيه عدة وظائف كالوزارة، والدوادارية الكبرى، والاستادارية، وكان أميرًا ذا كلمة نافذة، توفى ٨٨٥هـ، انظر: ابن إياس «بدائع الزهور» ح ٣ ص ١٧٠.

(٢) قايتباى: انظر: ص ٢٢.

(٣) ابن أجا «تاريخ الأمير يشبك» ص ٨٧.

(٤) يقصد ابن أجا غزوة أُحد التى حدثت فى عصر النبوة.

(٥) **عينتاب**: مدينة حصينة من أعمال حلب، لها قلعة منقوبة فى الصخر، وهى كثيرة المياه والبساتين، ولها أسواق ضخمة، انظر: أبى الفداء «تقويم البلدان» ص ٢٩٨، البغدادى «مراصد الاطلاع» ح ٢ ص ٩٧٧.

فتبسم ابن أجا وقال له : ذكرت أنك كنت تريد الحضور والقتال لولا أخذ القلعة فهل كنت تقاتل القلعة أو الغريم ؟ فقال : بل الغريم ، فقال ابن أجا الغريم حاضر وليس هناك مانع ، فما سبب تقاعدك ، فسكت شاه سوار ، ثم سأله ابن أجا بشكل مباشر إن كان له رغبة فى الدخول فى طاعة السلطان فقال نعم ، فقال ابن أجا لا يتم ذلك إلا بعد الجلاء عن قلعة سيس[(١)] ، وهنا أخذ شاه سوار يجادل ويراوغ ، حيث يقول ابن أجا « فحاججته ثم تبين لى إنه لا ينقاد إلى الصواب[(٢)] .

وهكذا يتضح ـ رغم فشل مفاوضات الصلح ـ البراعة الدبلوماسية لابن أجا وحسن اختيار المماليك لمبعوثيها الدبلوماسيين .

ومن تلك السفارات[(*)] ـ أيضًا ـ التى قام بها علماء مصر والشام ، ما تذكره المصادر التاريخية من إرسال السلطان فرج بن برقوق[(٣)] شهاب الدين القاهرى[(٤)] « ت ٨٠٧هـ » رسولًا إلى تيمورلنك[(٥)] عام ٨٠٧هـ/١٤٠٤م[(٦)] ، وإرسال السلطان شيخ[(٧)] بدر الدين العينى[(٨)]

---

(١) **سيس :** تقع هذه القلعة بين حلب وبلاد الروم ، وهى خاضعة لحكم المماليك ، وحكمها فى بيت لارد بن مليح الأرمينى ، الذى يعترف بسيادة المماليك على القلعة ، انظر : العمرى « مسالك الأبصار » ص ٦٧.

(٢) ابن أجا « تاريخ الأمير يشبك » ص ٩١.

(*) استقى الباحث تلك المعلومات الواردة فى السفارات من كتب التراجم ، ولقد وردت فى ثنايا تلك الكتب بشكل مقتضب وموجز ، كما لم تذكر الحوليات التاريخية المملوكية شىء عن تلك السفارات أو حتى شىء عن طبيعة العلاقات بين الدولة المملوكية وتلك الدول التى أرسلت إليها السفارة زمن إرسال السفارة .

(٣) فرج بن برقوق : انظر ص ١٥.

(٤) شهاب الدين القاهرى : أحمد بن عدى ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء العسكر بمصر ، درس وأفتى ، توفى ٨٠٧هـ ، انظر : ابن خطيب الناصرية « الدر المنتخب » ح١ ص ٨٥.

(٥) تيمورلنك : انظر : ص ٦٦.

(٦) ابن خطيب الناصرية « الدر المنتخب » ص ٨٥.

(٧) السلطان شيخ : انظر : ص ٣٧.

(٨) بدر الدين العينى : انظر : ص ١٤٦.

« ت ٨٥٥هـ » رسولًا إلى العثمانيين[(١)] ،[(٢)] وإرسال السلطان برسباى[(٣)] شمس الدين الجزرى[(٤)] « ت ٨٣٣هـ » رسولًا إلى سلطان شيراز[(٥)] عام ٨٢٧هـ/١٤٢٣م[(٦)] .

ومن الجدير بالذكر فى ذلك الموضع ـ أيضًا ـ ما أوردته المصادر التاريخية فى ثنايا تراجم علماء مصر والشام ، حيث تذكر من ضمن الولايات التى أسندتها السلطة المملوكية لهؤلاء العلماء ولاية « وظيفة » « نظر أوقاف الأسرى »[(٧)] ، ويبدو أن موضوع تلك الوظيفة ـ كما يظهر من أسمها ـ إدارة الأوقاف التى يخصص ريعها لفداء الأسرى ، الذين يأسرهم الصليبيون فى غاراتهم على الثغور المصرية والشامية ـ كما سبق القول ـ، أو يأسرهم التركمان فى غاراتهم على البلاد الشامية ـ كما سبق القول ـ ، وكانت تلك الوظيفة ـ دائمًا ـ تذكر عقب إسناد السلطان المملوكى ولاية قضاء الشافعية[(٨)] لأحد العلماء ـ سواء بمصر والشام ـ ، مما يعنى أن تلك الوظيفة كانت قاصرة على قاضى الشافعية لا يتولاها سواه ،

---

(١) **العثمانيين :** ينسب العثمانيون إلى إحدى قبائل الغز التركية التى دفعها تقدم المغول إلى الهرب غربًا جنوب الأناضول « آسيا الصغرى » تحت قيادة أرطغرل « ت ٦٨٧هـ/١٢٩٩م » ، انظر : د. عصام شبارو « السلاطين فى المشرق العربى » ص ٧٠، د. شفيق إبراهيم « تاريخ الشرق الإسلامى » ص ١٣١.

(٢) السخاوى « الضوء اللامع » ح ١٠ ص ١٣٢.

(٣) برسباى : انظر : ص ١٠.

(٤) شمس الدين الجزرى : محمد بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، درس بدمشق ، وعين لقضاء الشافعية بها ، ولكن لم يتم له ذلك ، توفى ٨٣٣هـ ، انظر مجير الدين الحنبلى « الأنس الجليل » ح ٢ ص ١٠٩.

(٥) **شيراز :** هى قصبة بلاد فارس ، وهى مدينة عظيمة ، ضيقة الدروب ، طولها ٧٨ درجة ونصف ، وعرضها ٢٩ درجة ونصف ، وتبعد عن نيسابور مسافة ٢٢٠ فرسخ ، انظر : البغدادى « مراصد الاطلاع » ح ٢ ص ٨٢٤، ياقوت الحموى « معجم البلدان » ح ٣ ص ٣٨٠.

(٦) مجير الدين الحنبلى « الأنس الجليل » ح ٢ ص ١٠٩.

(٧) لم تذكر المصادر التاريخية التى تحدثت عن الجهاز الإدارى المملوكى كـ « صبح الأعشى » للقلقشندى ، و « نهاية الأرب » للنويرى ، و « المقصد الرفيع » للخالدى وغيرها ـ تلك الولاية .

(٨) كان الجهاز القضائى فى مصر والشام يأتى على رأسه أربعة من القضاة على المذاهب الفقهية الأربعة « الشافعى ـ الحنفى ـ المالكى ـ الحنبلى » ، وكان القاضى الشافعى أرفعهم قدرًا ، لأن مذهب هذه الدولة الرسمى هو المذهب الشافعى ، انظر : د. سعود محمد « الحياة الثقافية فى دمشق فى عصر المماليك الجراكسة » ص ٣١١.

ومن ذلك ما تذكره المصادر التاريخية أن السلطان جقمق[(١)] عندما أسند إلى ابن حجر العسقلانى[(٢)] قضاء الشافعية بمصر عام ٨٤٢هـ/١٤٣٨م ، أسند إليه أيضًا ولاية نظر أوقاف الأسرى[(٣)] .

وكذلك ما تذكره المصادر التاريخية أن السلطان شيخ[(٤)] عندما أسند إلى نجم الدين الحسبانى[(٥)] قضاء الشافعية بدمشق عام ٨٢٠هـ/١٤١٧م أسند إليه ـ أيضًا ـ ولاية نظر أوقاف الأسرى[(٦)] ، وكذا فعل السلطان جقمق عندما أسند إلى شمس الدين الونائى[(٧)] قضاء الشافعية بدمشق عام ٨٤٤هـ/١٤٤٠م[(٨)] .

كما تذكر لنا المصادر التاريخية فى هذا الشأن ـ أى فداء الأسرى ـ قيام بعض العلماء ـ الذين وصفتهم المصادر التاريخية بأن لهم كلمة نافذة لدى الصليبيين ـ بفك أسرى المسلمين الذين أسرهم الصليبيون فى غاراتهم على الثغور المصرية والشامية ، حيث تذكر المصادر التاريخية أن العالم شمس الدين ابن قديدار[(٩)] « ت ٨٣٦هـ » أنه كان له كلمة نافذة[(*)] لدى

---

(١) جقمق : انظر : ص ١١.

(٢) ابن حجر العسقلانى : انظر : ص ١١.

(٣) ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٩ ص ٤٢.

(٤) شيخ : انظر ص ٣٧.

(٥) نجم الدين الحسبانى : عمر بن حجى ، تفقه بشيوخ عصره ، تولى قضاء دمشق إحدى عشر عامًا ـ على فترات متفاوتة ، توفى ٨٣٠هـ ، انظر : ابن طولون « قضاة دمشق » ص ١٤٣.

(٦) ابن طولون « قضاة دمشق » ص ١٣٥.

(٧) شمس الدين الونائى : محمد بن إسماعيل ، تفقه بشيوخ عصره ، وصفه برهان الدين البقاعى « ت ٨٨٥هـ » بأنه « بحر من العلوم » ، ولى قضاء الشافعية بدمشق ٨٤٣هـ ، توفى ٨٤٩هـ ، انظر : البقاعى « عنوان الزمان » ح ٢ ص ٤٦٥.

(٨) ابن طولون « قضاة دمشق » ص ١٧٠.

(٩) ابن قديدار : انظر : ص ٨٠.

(*) ذكرت المصادر التاريخية عن ابن قديدار أنه كان كثير المرابطة بثغر بيروت ، حيث كان يتصدى لغارات الصليبيين التى كانت تشن من جزيرة قبرص ، ولعل ذلك كان علة وجود علاقة بين هذا العالم وملك =

ملك قبرص جينوس[(١)] « ت ٨٣٥هـ » ، وأنه كان يكاتبه فى شأن أسرى المسلمين لديه فيجيبه بما يريد[(٢)] .

وكذا كان الأمر بالنسبة للعالم تقى الدين بن عجلون[(٣)] « ت ٩٢٨هـ » الذى استطاع[(*)] فك أسرى المسلمين من أهالى طرابلس[(٤)] عام ٨٨٦هـ/١٤٨١م[(٥)] .

وهكذا جاهد وناضل علماء مصر والشام لدفع الأخطار الخارجية الرئيسية ـ « المغول ، التركمان ، الصليبيون » ـ التى كانت تهدد أمن المجتمع المصرى والشامىّ ، وذلك حتى يحيا المصريون والشاميون فى أمنٍ وسلام .

ولقد تم تناول ذلك الجهاد والنضال ـ كما صورته المصادر التاريخية ـ فى ثلاث محاور رئيسية ، أولها العلماء والجهاد بالقلم ، حيث صنف العلماء بأقلامهم مُؤلفات تبين للمصريين والشاميين فريضة الجهاد فى سبيل الله ومكانتها فى الإسلام فى ضوء مصادره الأصلية « القرآن ـ السنّة النبوية » ، ولقد كان أهم تلك المؤلفات فى ذلك المجال « مشارع الأشواق

= قبرص ، انظر : المقريزى « درر العقود » ح ٣ ص ٣٤٧، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٦ ص ٣٢٧، مجهول « حوليات دمشقية » ص ٦٤، ابن العماد « شذرات الذهب » ح ٧ ص ٢١٨.

(١) جينوس : جينوس بن جاك ، تولى حكم قبرص بعد وفاة أبيه فى حدود عام ٨٠٠هـ إلى أن بعث السلطان برسباى الجيش المملوكى لفتح قبرص ، وتم أسره عام ٨٢٩هـ ، ثم أُفرج عنه مقابل دفع مبلغ من المال ، ثم رحل إلى قبرص ، وتولى الحكم بها حتى وفاته ٨٣٥هـ ، انظر : المقريزى « درر العقود » ح ١ ص ٥٨٢.

(٢) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٦ ص ٣٢٧، ابن العماد « شذرات الذهب » ح ٧ ص ٢١٨، السخاوى « وجيز الكلام » ح ٢ ص ٤٨٤، مجهول « حوليات دمشقية » ص ٦٤، ابن تغرى « المنهل الصافى » ح ٩ ص ٣١٠.

(٣) تقى الدين بن عجلون : أبو بكر بن عبد الله ، تفقه بشيوخ عصره ، انتهت إليه مشيخة الإسلام ورئاسة الشافعية بدمشق ، درس بالجامع الأموى بدمشق ، توفى ٩٢٨هـ ، انظر : الغزى « الكواكب السائرة » ح ١ ص ١١٥.

(*) لم تذكر المصادر التاريخية الكيفية التى استطاع بها تقى الدين بن عجلون فك أسرى المسلمين من أهالى طرابلس .

(٤) طرابلس : انظر ص ١٥.

(٥) ابن طولون « مفاكهة الخلان » ص ٤٦.

إلى مصارع العشاق » لابن النحاس المصرى « ت ٨١٤هـ » ، و « غرس الأنشاب فى الرمىّ بالنشاب » للسيوطى « ت ٩١١هـ » ، و « القول التام فى الرمىّ بالسهام » للسخاوى « ت ٩٠٢هـ » .

وثانيها « العلماء والجهاد بالسيف » ، حيث قام علماء مصر والشام بتعبئة المصريين والشاميين للانضمام إلى صفوف الجيش المملوكى لصد تلك الأخطار الخارجية ، والتى كان من أبرزها الخطر المغولى الذى مثّله تيمورلنك عام ٨٠٣هـ/١٤٠٠م ، وكذا كان الأمر بالنسبة للخطر التركمانى الذى كان يمثله قرايلوك عثمان ـ زعيم دولة الشاه البيضاء ـ ، وقرايوسف ـ زعيم دولة الشاه السوداء ـ ، وشاه سوار ـ زعيم دولة بنى دلغادر ـ .

كما شارك علماء مصر والشام فى العمليات القتالية التى خاضها الجيش المملوكى لصد تلك الأخطار الخارجية ، كما حدث عام ٨٠٣هـ عندما اشترك علماء مصر والشام فى العمليات القتالية التى نشبت بين الجيش المغولى والجيش المملوكى بحلب ودمشق ، وكما حدث بالنسبة للخطر التركمانى عندما شارك علماء مصر والشام فى الحملات العسكرية التى شنتها الدولة المملوكية عام ٨٢٠هـ/١٤١٧م لردع قرايوسف ـ زعيم دولة الشاه السوداء ـ ، كما شاركوا عام ٨٣٦هـ/١٤٣٢م فى الحملات العسكرية التى شنتها الدولة المملوكية لردع قرايلوك ـ زعيم دولة الشاه البيضاء ـ .

أما بالنسبة للخطر الصليبى الذى كان يتمثل فى عمليات تخريب واسعة للموانئ المصرية والشامية لشل الحركة التجارية ، كما حدث بالإسكندرية عام ٨١٤هـ/١٤١١م ، وبيروت وطرابلس عام ٨٠٦هـ/١٤٠٣م ، ولقد تصدى علماء مصر والشام لذلك الخطر من خلال أمرين ، أولهما قيام هؤلاء العلماء بالرباط بالثغور المصرية ـ كثغر دمياط والإسكندرية ـ ، والثغور الشامية ـ كثغر بيروت وصيدا ـ ، وثانيهما الاشتراك فى الحملات العسكرية التى أرسلتها السلطة المملوكية لفتح جزيرتى « قبرص ورودس » ـ اللتان كان ينطلق منهما غارات الصليبيين ـ ، حيث شارك علماء مصر والشام فى الحملات العسكرية الثلاث التى أرسلها السلطان برسباى لفتح قبرص فى ثلاث سنوات متتالية (٨٢٨، ٨٢٩، ٨٣٠هـ/ ١٤٢٤، ١٤٢٥، ١٤٢٦م) ، كما شاركوا فى العمليات التأديبية التى قام بها السلطان جقمق ضد جزيرة رودس فى عام (٨٤٤، ٨٤٧، ٨٤٨هـ/ ١٤٤٠، ١٤٤٣، ١٤٤٤م) .

أمّا المحور الثالث « العلماء والسفارات » ، حيث ظهر دور العلماء فى ذلك المجال من خلال أمرين ، أولهما تولى علماء مصر والشام رئاسة ديوان الإنشاء ، والذى كان من مهامه الرئيسية الإشراف على المكاتبات الرسمية التى ترد إلى السلطان من تختلف الدول ، وإعداد الرد عليها ، فضلًا عن إعداد الرسائل التى يبعث بها السلطان إلى مختلف رؤساء الدول ، أمّا الأمر الثانى فتمثل فى قيام علماء مصر والشام بأعمال ذات صبغة دبلوماسية تهدف إلى حقن الدماء وإخماد الحروب التى كانت تخوضها الدولة المملوكية ضد أعدائها ، كما حدث عام ٨٢٣هـ/١٤٢٠م عندما اختار السلطان شيخ العالم بدر الدين العينى ـ كمبعوث خاص ـ للسلطان إلى بلاد بنى قرمان ليأخذ الولاء للسلطان من نواب هذه البلاد ، وكشف نواياهم وأخبارهم من حيث طاعتهم للسلطان أو خروجهم عليه ، وكما حدث عام ٨٣٦هـ/١٤٣٢م عندما أرسل السلطان برسباى شرف الدين بن العجمى عام ٨٣٦هـ/ ١٤٣٢م إلى قرايلوك عثمان ـ زعيم دولة الشاه البيضاء ـ وذلك لعقد معاهدة الصلح التى طالب بها قرايلوك لحقن الدماء بين الدولتين .

الفصل الثانى

العلماء والإدارة بمصر والشام

فى القرن التاسع الهجرى

نقاط الفصل الثانى

أولًا : الولايات الدينية التى تولاها العلماء :

(١) القضاء .

(٢) الحسبة .

(٣) وكالة بيت المال .

(٤) نظر البيمارستان .

(٥) نظر الجوالى .

(٦) قضاء العسكر .

(٧) إفتاء دار العدل .

(٨) التدريس .

(٩) الخطابة .

ثانيًا : الولايات الديوانية التى تولاها العلماء :

(١) كتابة السر .

(٢) نظر الجيش .

يتناول البحث فى هذا الموضع من الدراسة «العلماء والإدارة بمصر والشام فى القرن التاسع»، ويعنى الباحث بذلك تلك الولايات(١) التى تولاها علماء مصر والشام(٢) بالجهاز الإدارى من قبل السلطة المملوكية.

ولقد تناول مؤرخو العصر المملوكى الإدارة فى ذلك العصر من خلال تقسيمهم للولايات «الوظائف» التى كانت قائمة إلى ثلاثة أقسام، وظائف أرباب السيوف، ويعنون بها تلك الوظائف القاصرة على أمراء المماليك ذوى المراتب العسكرية المختلفة(٣)، والتى كان على رأسها منصب السلطنة، حيث أن السلطان المملوكى هو أمير من الأمراء مكنته قوته وشخصيته وكثرة مماليكه من التفوق على أقرانه والوصول إلى منصب السلطنة، فأصبح صاحب الحق فى الهيمنة على بقية الأمراء ومماليكهم بوصفه زعيمهم ورأس دولتهم(٤)، ثم يأتى بعد منصب السلطنة

---

(١) **الولايات**: «جمع ولاية» ـ بفتح الواو وكسرها ـ وهى فى اصطلاح الفقهاء سلطة شرعية بها يتمكن الإنسان من تنفيذ التصرفات على الغير قولًا أو فعلًا، دون توقف على رضاه، ومن أمثال تلك الولايات: القضاء، والحسبة، والنظر على الأوقاف، وأموال اليتامى وغير ذلك، انظر: البلاطنسى «تحرير المقال» ص ٢٦٥.

(٢) النظام الإدارى بمصر مثل النظام الإدارى بالشام فى العصر المملوكى، حيث قسمت الشام إلى سبع وحدات سياسية عُرفت بالنيابات وكانت صورة مصغرة لنظام السلطة فى الديار المصرية، وتلك النيابات هى دمشق، حلب، طرابلس، حماة، صفد، غزة، الكراك، انظر: الخالدى «من رجال القرن التاسع الهجرى» «المقصد الرفيع» ص ١٤٥، مخطوطة بالمكتبة المركزية بجامعة القاهرة، برقم (٢٤٠٤٥)، ابن شاهين «غرس الدين خليل «ت ٨٧٣هـ»» «زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك» ص ١٣١، اعتنى بتصحيحه بولس روايس، باريس، ١٨٩٣م، ابن كنان الدمشقى «ت ١٠٠٣هـ» «المواكب الإسلامية فى الممالك والمحاسن الشامية» ص ٨، تحقيق د. حكمت إسماعيل، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٣م.

(٣) الخالدى «المقصد الرفيع» ص ١٢٣، العمرى «شهاب الدين أحمد «ت ٧٤٩هـ»» «مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار» ص ٥٣، المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية، القاهرة، «د.ت»، القلقشندى «صبح الأعشى فى صناعة الإنشا» ح ٤ ص ١٤، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

(٤) د. قاسم عبده قاسم «عصر سلاطين المماليك» ص ٤٤، دار عين، القاهرة، ١٩٩٨م، د. إبراهيم طرخان «مصر فى عصر دولة المماليك والجراكسة» ص ١٠، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٠م، د. عبد المنعم ماجد «التاريخ السياسى لدولة سلاطين المماليك فى مصر» ص ١٠٩، د. على إبراهيم «نظم الحكم =

« النيابة » التى كان يتولاها كبار الأمراء والذين كانوا بمثابة الممثلين المحليين للسلطان فى أقاليم المملكة المصرية والشامية[(١)] ، ثم تأتى بعد ذلك عدد من الولايات الأقل أهمية[(٢)] .

أمّا القسم الثانى فهو الوظائف الدينية ، ولقد أطلق المؤرخون عليها ذلك الاسم ؛ لأنها كانت توليتها قاصرة على العلماء من ناحية ، فضلًا عن الصبغة الدينية الواضحة لتلك الوظائف من حيث طبيعة اختصاصتها وأهدافها ، كالقضاء والحسبة وغير ذلك[(٣)] .

أمّا القسم الثالث فهو الوظائف الديوانية ، ولقد أطلق المؤرخون عليها ذلك الاسم ؛ لأنها كانت تنبثق من دواوين[(٤)] الدولة المملوكية المختلفة ، كوظيفة كاتب السر المنبثقة من ديوان الإنشاء ، ووظيفة ناظر الجيش المنبثقة من ديوان الجيش ـ كما سيتضح فيما بعد ـ ، وكان شاغلى تلك الوظائف بين أمراء المماليك والعلماء[(٥)] .

وسوف يعرض الباحث ـ خلال السطور التالية ـ لتلك الولايات الدينية والديوانية التى تولاها العلماء فى القرن التاسع .

= فى دولة المماليك الأولى » ص ٤٤، دكتوراة ، آداب القاهرة ، ١٩٤٢م .

(١) القلقشندى « صبح الأعشى » ح ٤ ص ٦٣، العمرى « مسالك والممالك » ص ٥٥، د. محمد عبد الغنى الأشقر « نائب السلطنة المملوكية فى مصر » ص ٣٨٧، الهيئة العامة للكتاب « سلسلة تاريخ المصريين » رقم (١٥٨) .

(٢) كالحجابة والاستادارية وغير ذلك ، ولمزيد من الإيضاح ، انظر : القلقشندى « صبح الأعشى » ح ٤ ص ١٩، المقريزى « المواعظ والاعتبار » ح ٣ ص ٧١٠.

(٣) القلقشندى « صبح الأعشى » ح ٤ ص ٣٥، ابن كنان « حدائق الياسمين » ص ١٤١، الخالدى « المقصد الرفيع » ص ١٣٠.

(٤) **الديوان** : اختلف فى أصلها فقيل عربى ومعناها الأصل الذى يرجع إليه ، ويقال دونته أى أثبته ، وقيل هى فارسية ومعناها السجل أو الدفتر ، والخليفة الراشد عمر بن الخطاب هو أول من أنشأ الدواوين ورتبها فى الإسلام ، انظر : د. عبد المنعم ماجد « نظم دولة المماليك » ص ٥٠، د. رحيم كاظم ، عواطف محمد « الحضارة العربية الإسلامية » ص ٣٩، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، ٢٠٠٢م .

(٥) القلقشندى « صبح الأعشى » ح ٤ ص ٢٨، ابن كنان « حدائق الياسمين » ص ١٥٩، الخالدى « المقصد الرفيع » ص ١٣٤.

أولًا : الولايات الدينية

ولقد حصر المؤرخون تلك الولايات فى تسع ولايات ، وهى :

١ ـ القضاء[(١)] :

كان الجهاز القضائى فى مصر والشام يأتى على رأسه أربعة من القضاة على المذاهب الفقهية الأربعة « الشافعى ـ الحنفى ـ المالكى ـ الحنبلى » ، وكان القاضى الشافعى أرفعهم قدرًا ـ لأن مذهب هذه الدولة الرسمى هو المذهب الشافعى[(٢)] ـ ، وكان هؤلاء القضاة الأربع يتم اختيارهم من قبل السلطان[(٣)] ، ولم تكن ولاية القضاء فى العهد المملوكى تقتصر

(١) **القضاء :** هو الفصل بين الناس فى الخصومات بالأحكام الشرعية المتلقاة من الكتاب والسنّة ، وتعتبر ولاية القضاء ـ كما قرر الفقهاء ـ ولاية خاصة فى عمل عام ، بمعنى أن الذى يتولى تعيين القضاة فى الشريعة الإسلامية هو رئيس الدولة ، أى عن طريق رأس السلطة التنفيذية وليس عن طريق الانتخاب إلا عند الضرورة الملحة ، وهؤلاء القضاة ـ كما قرر الفقهاء ـ لا تنتهى ولايتهم بوفاة الإمام « رئيس الدولة » الذى عينهم ، وعللوا ذلك بأن القاضى يستمد ولايته من الأمة لا من الإمام ، وأن الإمام عندما عينه إنما كان رسولًا للأمة وممثلًا لها فى مباشرة عقد تعيين القضاة ، ولذلك يطبق عليه المبدأ العام الذى يقرر أن وفاة الوكيل لا أثر لها على العقد الذى باشر لصالح الأصيل ، انظر : ابن الشحنة «أحمد بن محمد « ت ٨٨٢هـ » » «لسان الحكام فى معرفة الأحكام» ص ٢، مخطوطة بجامعة القاهرة ، برقم (١٩٦٨٥) ، أبو يعلى الفراء « محمد بن الحسين « ت ٤٥٨هـ » » « الأحكام السلطانية » ص ٦٥، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٣م ، الماوردى « أبو الحسن على « ت ٤٥٠هـ » » « الأحكام السلطانية والولايات الدينية » ص ١١٨، بغداد ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م ، د. عبد الرازق أحمد السنهورى « أصول الحكم فى الإسلام » ص ٤٦، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٨م ، د. عبد الله جمال الدين « نظام الدولة فى الإسلام » ص ٣٠٧، دار الصحوة ، ١٩٩٨م ، د. أمير محمود « دور الدولة فى كفالة حق التقاضى فى الشريعة الإسلامية والقانون المصرى » ص ٩٠٣، مقال بمجلة كلية الشريعة والقانون « الدقهلية » ، جامعة الأزهر ، عدد (٢) عام ٢٠٠٢م .

(٢) د. سعود محمد « الحياة الثقافية فى دمشق فى عصر المماليك الجراكسة » ص ٣١١، دكتوراة ، آداب عين شمس ، ١٩٩٥م .

(٣) القلقشندى « صبح الأعشى » ح ٤ ص ٣٤، ابن كنان « حدائق الياسمين » ص ١٤٢.

على القضاء بين الناس ـ أى الفصل فى خصوماتهم وفض منازعتهم[(١)] ـ، حيث أضيف لتلك الولاية أمور أخرى غير قضائية بطبيعتها ، والتى يمكن حصرها فى الآتى :

أ ـ النظر فى الأوقاف[(٢)] :

لقد كان للأوقاف فى العصر المملوكى ديوان خاص ـ هو أحد دواوين الدولة المالية ـ، وكان رئاسه هذا الديوان لقاضى الشافعية ، الذى يتولى حفظ أصول الأوقاف واستثمارها وقبض ريعها وصرفه فى أوجه صرفه « الفقراء ـ المرضى ـ إصلاح الجسور ـ تحصين الثغور ـ عمارة المساجد ـ فداء الأسرى »[(٣)] .

ولقد ذكر المؤرخون فى ثنايا تراجم علماء[(٤)] مصر والشام ـ من خلال ولايتهم للقضاء ـ،

---

(١) كانت وظيفة القاضى فى أول أمرها محصورة فى القضاء بين الناس، أى الفصل بين الناس فى الخصومات ، كما كان الأمر عهد الخلفاء الراشدين ، غير أنه فى العصور الإسلامية اللاحقة أضيف إلى اختصاصات القاضى أمور أخرى غير قضائية بطبيعتها ، كالنظر فى الأوقاف ، وتزويج الأيامى وغير ذلك ، انظر : ابن قيم الجوزية « ت ٧٥١هـ » « الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية » ص ٢٠٢، الماوردى « الأحكام السلطانية » ص ١١٩، أبو يعلى الفراؤ « الأحكام السلطانية » ص ٦٦، ابن خلدون « مقدمة ابن خلدون » ص ١٥٥، دار ابن خلدون ، الإسكندرية ، « د .ت » .

(٢) **الوقف** : هو حبس عين والتصدق بمنفعتها على جهة من جهات البرّ ابتداءًا وانتهاءًا ، ولقد اتفق الفقهاء على أن الوقف مُستحب شرعًا مندوب إليه ، وأن ثمرة المال الموقوف وغلته تصبح صدقة على الموقوف عليهم بالقبض إذا كانوا أشخاصًا ويستحقونها إذا كانوا غير ذلك كجهات البرّ ، انظر : د. محمد محمد أمين « الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر » ص ٢٢، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ط ١ (١٩٨٠م) ، د. نصر محمد « نظريات التنمية السياسية المعاصرة » ص ٢٢٥، ماجستير ، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٨م .

(٣) القلقشندى « صبح الأعشى » ح ٤ ص ٣٦، ابن كنان « حدائق الياسمين » ص ٤٣، ابن قيم الجوزية « الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية » ص ٢٠٢.

(٤) سوف يعرض الباحث بفصل « العلماء والحياة الاقتصادية » نماذج أكثر تفصيلًا لعلماء مصر والشام الذين قاموا بحفظ أصول الأوقاف وثمّروا أموالها ومنعوا استبدالها ـ من خلال ولايتهم للقضاء ـ .

أنهم قاموا بحفظ أصول الأوقاف ومنعوا استبدالها[١] وعمّروا وثمّروا أموالها .

فمن مصر ـ على سبيل المثال ـ العالم بدر الدين البغدادى[٢] « ت ٨٥٧هـ »[٣] ، والعالم سعد الدين الديرى[٤] « ت ٨٦٧هـ »[٥] .

ومن علماء دمشق ـ على سبيل المثال ـ العالم شهاب الدين الباعونى[٦] « ت ٨١٦هـ »[٧] ، والعالم أبو نعيم العامرى[٨] « ت ٨٢٢هـ »[٩] ، والعالم أبو المحاسن الصالحى[١٠] « ت ٨٨٠هـ »[١١] .

---

(١) **الاستبدال** : هو أخذ العين الثانية « البدل » لتكون وقفًا مكان العين الأولى ، أو هو شراء عين أخرى تكون وقفًا بدلها ، وكان الاستبدال فى العصر المملوكى وسيلة لنهب الأوقاف وتدميرها ، انظر : محمد إبراهيم « البروتوكول الختامى للوثائق العربية » ص ٤٠.

(٢) بدر الدين البغدادى : محمد بن محمد بن عبد المنعم ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى إفتاء دار العدل ، وقضاء العسكر ، وقضاء الحنابلة بمصر ، توفى ٨٥٧هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٩ ص ١٣١.

(٣) السخاوى « الذيل على رفع الأصر » ص ٣٥١، تحقيق د. جودة هلال ، الدار المصرية للتأليف ، ١٩٦٦م ، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٩ ص ١٣٢.

(٤) سعد الدين الديرى : سعد بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، درس وأفتى ، تولى قضاء الحنفية بمصر ، توفى ٨٦٧هـ ، انظر : السخاوى « الذيل على رفع الأصر » ص ١٢٧.

(٥) الغزى « الطبقات السنية » ح ٤ ص ٢٢، ابن حجر العسقلانى « رفع الأصر عن قضاة مصر » ح ٢ ص ٢٤٥، تحقيق د. حامد عبد المجيد ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٩٦١م ، السخاوى « الذيل على رفع الأصر » ص ١٣٠.

(٦) شهاب الدين الباعونى : أحمد بن ناصر ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى خطابة الجامع الأموى بدمشق ، وقضاء الشافعية بها ، توفى ٨١٦هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٢ ص ٢٣١.

(٧) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٢ ص ٢٣٣.

(٨) أبو نعيم العامرى : أحمد بن عبد الله ، تفقه على شيوخ عصره ، درس وأفتى ، تولى إفتاء دار العدل ، توفى ٨٢٢هـ ، انظر السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ٣٥٦.

(٩) البصروى « تاريخ البصروى » ص ٤١، السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ٣٥٦.

(١٠) أبو المحاسن الصالحى : يوسف بن أحمد ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء الشافعية بدمشق ، توفى ٨٨٠هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ١٠ ص ٢٩٨.

(١١) السخاوى « الضوء اللامع » ح ١٠ ص ٢٩٩.

ومن علماء القدس ـ على سبيل المثال ـ العالم غرس الدين السخاوى[١] « ت ٨٤٧هـ »[٢] .

ومن علماء حلب ـ على سبيل المثال ـ العالم ابن العجمى[٣] « ت ٨٥٧هـ »[٤] .

ب ـ النظر فى أموال اليتامى[٥] :

لقد كانت مؤسسة المودع الحكمى[٦] هى إحدى المؤسسات المالية فى العصر المملوكى التى تقوم بضبط مواريث الأيتام وحفظها وتثمير أموالها حتى يصلوا إلى سن الرشد ، فضلاً

---

(١) غرس الدين السخاوى : خليل بن أحمد ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى نظر الحرمين بالقدس ، توفى ٨٤٧هـ ، انظر : مجير الدين « الأنس الجليل » ح ٢ ص ٩٧.

(٢) مجير الدين الحنبلى « الأنس الجليل » ح ٢ ص ٩٧، ٢٧٦.

(٣) ابن العجمى : محمد بن أحمد ، تفقه على شيوخ عصره ، ولى قضاء الشافعية بحلب ، توفى ٨٥٧هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٧ ص ٣٠.

(٤) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٧ ص ٣٠.

(٥) **اليتيم** : « لغة » : هو الفرد من كل شيء ، و « اصطلاحًا » هو من فقد أباه لأن الأب هو الذى يتولى الحماية والرعاية والإنفاق ، وكل ما يشعر الطفل بالأمان ، وهناك بعض الفقهاء فى العصر الحديث يرون أن اليتيم ـ بصفة عامة ـ هو من فقد أحد أبويه أو كليهما ، والسن التى حددها الإسلام لانتهاء فترة اليتم هى بلوغ اليتيم سن النكاح ، وتحديد السن يخضع لولى الأمر أو القاضى ، انظر : ابن منظور « لسان العرب » ح ١٢ ص ٦٤٥، دار صادر ، بيروت ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م ، المقرى الفيومى « أحمد بن محمد « ت ٧٧٠هـ » » « المصباح المنير فى غريب الشرح الكبير » ص ٩٣٥، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٩٢٢م ، د. منيع عبد الحليم ـ عميد كلية أصول الدين بجامعة الأزهر ـ « اليتيم » ص ٣٦، مقال بجريدة الأهرام المصرية ، عدد (١٢) صفر ١٤٢٥هـ/٢ إبريل ٢٠٠٤م) .

(٦) **المودع الحكمى** : هو موضع حصين أنشأه قاضى الشافعية بمصر ابن دقيق العيد « ت ٧٠٢هـ » ، حيث قرر خلال ولايته للقضاء أن من مات وله وارث ، فإن كان كبيرًا قبض حصته ، وإن كان صغيرًا تم إيداع المال فى ذلك الموضع ، ويكون ذلك تحت إشراف قاضى الشافعية ، ويعد الحاكم بأمر الله الفاطمى هو أول من أمر بأن تودع أموال اليتامى فى «مودع» وذلك بعد وفاة القاضى ابن النعمان «ت٣٨٨هـ» ، وكان هذا المودع «مخزنًا» فى زقاق القناديل ، انظر : د. آدم صبرة « الفقر والإحسان فى مصر عصر سلاطين المماليك » ص ١٠١، ترجمة د. قاسم عبده قاسم ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٣م ، أحمد كامل «الحاكم بأمر الله فى عصره» ص ٥٥ ، ١٠٥ ، ماجستير ، دار العلوم ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

على مراقبة أموال الأيتام الذين لهم وصى خاص، وكانت تلك المؤسسة المالية يديرها قاضى الشافعية[1] .

ولقد ذكر المؤرخون فى ثنايا تراجم علماء[2] مصر والشام ـ من خلال ولايتهم للقضاء ـ، أنهم قاموا بتنمية وتثمير أموال المودع الحكمى .

فمن مصر ـ على سبيل المثال ـ العالم صدر الدين المناوى[3] « ت ٨٠٣هـ »[4] ، والعالم برهان الدين القاهرى[5] « ت ٨٣٤هـ »[6] ، والعالم ولى الدين السفطى[7] « ت ٨٥٤هـ »[8] .

ومن دمشق ـ على سبيل المثال ـ العالم شمس الدين الجزرى[9] « ت ٨١٣هـ »[10] ،

---

(١) القلقشندى « صبح الأعشى » ح ٤ ص ٣٧، ابن قيم الجوزية « ت ٧٥١هـ » « الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية » ص ٢٠٢، تحقيق سيد عمران، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٢م، ابن كنان « حدائق الياسمين » ص ٤٣.

(٢) سوف يعرض الباحث بفصل « العلماء والحياة الاقتصادية » نماذج أكثر تفصيلاً لعلماء مصر والشام الذين قاموا بتثمير أموال الأيتام وتنميتها وحفظ أصولها ـ وذلك من خلال ولايتهم للقضاء ـ.

(٣) صدر الدين المناوى : محمد بن إبراهيم، تفقه على شيوخ عصره، درس وأفتى، تولى قضاء الشافعية بمصر، توفى ٨٠٣هـ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٦ ص ٢٤٩.

(٤) المقريزى « درر العقود الفريدة » ح ٣ ص ٢٩.

(٥) برهان الدين القاهرى : إبراهيم بن على، تفقه على شيوخ عصره، تولى نيابة قضاء الشافعية بمصر، توفى ٨٣٤هـ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ٨٢.

(٦) السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ٨٢.

(٧) ولى الدين السفطى : محمد بن أحمد، تفقه على شيوخ عصره، تولى وكالة بيت المال بمصر، وقضاء الشافعية بها، توفى ٨٥٤هـ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٧ ص ١١٨.

(٨) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٧ ص ١١٩.

(٩) شمس الدين الجزرى : على بن إبراهيم، تفقه على شيوخ عصره، درس، وباشر نظر الأيتام، توفى ٨١٣هـ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٥ ص ١٥٧.

(١٠) ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٦ ص ٢٤٨، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٥ ص ١٥٧، المقريزى « درر العقود » ح ٢ ص ٥٣٩، ابن العماد « شذرات الذهب » ح ٧ ص ١٠٢.

والعالم برهان الدين بن قاضى عجلون[١] « ت ٨٧٢هـ »[٢] .

ومن حلب ـ على سبيل المثال ـ العالم علاء الدين أبو الحسن[٣] « ت ٨٤٢هـ »[٤] ، والعالم تاج الدين الحسينى[٥] « ت ٨٧٥هـ »[٦] ، والعالم ابن العجمى[٧] « ت ٨٥٧هـ »[٨] .

جـ ـ نظر دار الضرب[*] :

كان لقاضى الشافعية رئاسة دار الضرب ، حيث كان يشرف على وزن المعادن الواصلة إلى دار الضرب ووزنها فى مراحلها التى تمر بها من تصفية وضبط عيار وسكّ عملات ونحوها واختبار المعادن ومدى نقاءها وجوازها للسكّ بتحرير عيارها وضبط ذلك[٩] .

---

(١) ابن قاضى عجلون : إبراهيم بن عبد الرحمن ، تفه على شيوخ عصره ، تولى نيابة قضاء الشافعية بدمشق ، توفى ٨٧٢هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح١ ص ٦٤.

(٢) ابن الحمصى « حوادث الزمان » ح ١ ص ١٧٩، السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ٦٤.

(٣) علاء الدين أبو الحسن : على بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، درس وأفتى ، تولى قضاء الشافعية بحلب ، توفى ٨٤٢هـ ، انظر : ابن العجمى « كنوز الذهب » ح ٢ ص ١٤٩.

(٤) ابن العجمى « كنوز الذهب » ح ٢ ص ١٤٩، البقاعى « عنوان الزمان » ح ٢ ص ٤٣٨.

(٥) تاج الدين الحسينى : عبد الوهاب بن عمر ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء الشافعية بحلب ، توفى ٨٧٥هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٥ ص ١٠٦، ابن العجمى « كنوز الذهب » ح ٥ ص ١٠٦.

(٦) ابن العجمى « كنوز الذهب » ح ٢ ص ٢٥٩.

(٧) ابن العجمى : انظر : ص ١٠٤.

(٨) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٧ ص ٣٠.

(*) كانت دور الضرب فى السلطنة فى ثلاث مدن فقط هى القاهرة ، والإسكندرية ، ودمشق ، انظر : د. طه ثلجى « مملكة صفد » ص ١٨٦، محمد عبد الله عوده « الحياة الاجتماعية فى القدس زمن المماليك » ص ١١٢، دكتوراة ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، فرع الآداب العربية ، جامعة القديس يوسف ، بيروت ، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م .

(٩) الخالدى « المقصد الرفيع » ص ١٣٣، ابن كنان « حدائق الياسمين » ص ١٦١، القلقشندى « صبح الأعشى » ح ٣ ص ٤٦٢، المقريزى « السلوك » ح ٣ ص ١١١٧.

ولقد نازع ناظر الخاص[1] القضاء فى نظر دار الضرب ، حيث ذكرت المصادر التاريخية أن تلك الولاية أسندت[*] خلال القرن التاسع إلى ناظر الخاص[2] .

ولكن لم يكن ذلك يعنى غياب القضاء بشكل كامل عن نظر دار الضرب ، حيث ظلت السلطة الحاكمة تعهد نظر دار الضرب فى ذلك القرن للجهاز القضائى .

ومن ذلك ما تذكره المصادر التاريخية عام ٨١٨هـ/١٤١٥م من قيام السلطان المؤيد شيخ[3] بضرب الدراهم المؤيدية من الفضة الخالصة وإبطال العملة الناصرية[4] التى كثر فيها الغش ، ولقد كانت عملية إصلاح العملة ـ سابقة الذكر ـ تمت بعد استشارة القضاة فى ذلك الأمر ، ثم تكليف القضاة بالإشراف على سكّ العملة الجديدة ومراقبة أوزانها[5] .

ولقد تكرر المشهد السابق بحلب عام ٨٦١هـ/١٤٥٦م ، حيث تذكر المصادر التاريخية أنه كثرت شكاوى أهل حلب من غش العملة بها ، فأرسل العلماء والأهالى إلى السلطان إينال[6] يخبرونه بذلك ، فأرسل السلطان إينال إلى القضاة[7] مرسومًا بالإشراف على سك عملة جديدة وإبطال العملة المغشوشة[8] .

---

(١) **ناظر الخاص** : استحدثت تلك الوظيفة فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون « ت ٧٤١هـ » ، وكان متوليها هو المسؤول عن الإقطاع السلطانى وإدارته ، فضلًا على رئاسة ديوان النظر « المالية » فى الجهاز الإدارى المملوكى ، انظر : المقريزى « الخطط » ح ٢ ص ٧٣٤، القلقشندى « صبح الأعشى » ح ٤ ص ٣٠، د. البيومى إسماعيل « النظم المالية » ص٣٧ ـ ٤٠.

(*) لم تعلل المصادر التاريخية سبب إسناد تلك الولاية إلى ناظر الخاص ، وانتزاعها من القضاء .

(٢) القلقشندى « صبح الأعشى » ح ٣ ص ٤٦٢، المقريزى « السلوك » ح ٤ ص ١٢١٩.

(٣) المؤيد شيخ : سبق التعريف به بالفصل الأول ، انظر : ص ٣٧ .

(٤) نسبة إلى السلطان الناصر فرج بن برقوق « ت ٨١٥هـ » .

(٥) المقريزى « السلوك » ح ٦ ص ٣٧٩، ٣٨٠، العينى « عقد الجمان » ص ٣٠٨، المقريزى « ثلاث رسائل » ص ١٥، مطبعة الجوائب ، القسطنطينية ، ١٢٩٨هـ .

(٦) إينال : سبق التعريف به بالفصل الأول ، انظر : ص ١٠ .

(٧) لم تذكر المصادر التاريخية أسماء قضاة حلب عام ٨٦١هـ .

(٨) البقاعى « إظهار العصر » .

د ـ القضاء وتوثيق العقود المالية :

لقد كان للقضاء خلال العصر المملوكى القيام بتوثيق العقود ذات الطبيعة المالية ـ من بيع ورهن وغير ذلك ـ التى كانت تتم بين المصريين والشاميين ، ذلك أن المصريين والشاميين حرصوا على توثيق عقودهم درءًا للنزاع وحماية الحقوق من الضياع ، ولقد كان توثيق تلك العقود يتم من خلال المؤسسة القضائية عبر مرحلتين رئيسيتين ، أولهما صياغة العقد وفق « علم الشروط »(١) من خلال الشهود العدول(٢) ، وثانيهما قيام القاضى(*) بوضع توقيعه عليه

---

(١) **علم الشروط :** هو علم قائم من علوم الفقه ، أرست قواعده المدرسة الحنفية ببغداد ، وسرى منها إلى بقية العالم الإسلامى ، وموضع هذا العلم إنشاء الصيغ الشرعية للعقود من بيع ورهن وشراكة ونحو ذلك ، حيث قام الفقهاء بوضع الصيغ اللازمة لكل عقد ثم يتبعون كل صيغة بالتفسيرات والتعليلات التى تفسر التزامهم بصيغة دون أخرى ، وذلك فى ضوء أحكام الإسلام المستقاة من القرآن والسنّة النبوية ، وبناء على ما توصل إليه الفقهاء صيغت العقود فى العصور التاريخية الإسلامية من بيع ورهن وغير ذلك ، انظر : د. إنصاف عمر « دراسة فى صيغ الوثائق الخاصة فى مصر فى القرن العاشر الهجرى ومدى مطابقتها لقواعد علم الشروط » ص ١٩، دكتوراة ، آداب القاهرة ، ١٩٩٥م .

(٢) **الشهود العدول :** الشاهد العدل هو رجل عدّله القاضى وارتضاه عدلًا ، كى يقوم بمهمات عدة ، منها كتابة العقود بين الناس فى معاملاتهم مستوفاة لشروطها الشرعية ، ولقد أُطلق عليهم فى العصر المملوكى كاتب الحكم والشروط ، وكان يُشترط فى هؤلاء معرفة الفقه والعربية ، وعلم الحساب والفرائض ، خبيرًا بما يكتب فى سائر العقود من دين أو شراكة... إلخ ، انظر : النويرى « شهاب الدين أحمد « ت ٧٣٣هـ » » « نهاية الأرب فى فنون الأدب » ح ٩ ص ١ – ٩، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٣٥١هـ/ ١٩٣٣م ، د. عبد الخالق حسن « النظم القضائية بمصر عصر سلاطين المماليك » ص ٢٠٧، ٢١٩، دكتوراة ، كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة ، ١٩٨١م ، د. محمد محمد أمين « الشاهد العدل فى القضاء الإسلامى : دراسة تاريخية مع نشر وتحقيق إسجال عدالة من عصر سلاطين المماليك » ص ٤٥، مجلة البحث العلمى ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، مكة المكرمة ، السعودية ، العدد (٥) عام ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

(*) يذكر ابن الشحنة « ت ٨٨٢هـ » ـ القاضى المملوكى ـ فى كتابه « لسان الحكام فى معرفة الأحكام » أنه يجوز للقاضى أخذ الأجرة على كتابته السجلات والمحاضر وغيرها من الوثائق بمقدار أجرة المثل ، وذلك لأن القاضى إنما يجب عليه القضاء وإيصال الحق إلى مستحقه فحسب ، أما الكتابة فزيادة عمل يعمله =

الذى عُرِف بـ « الإسجال الحكمى والتوثيقى » ، ولقد اكتشفت تلك الحقيقة التاريخية من خلال وثائق العصر المملوكى بمصر ، والتى منها ـ على سبيل المثال ـ وثيقة بيع برقم (٢٣٨/ محفظة ٣٨) بدار الوثائق القومية[١] ، ووثيقة إيجار برقم (٧٠١ج) بأرشيف وزارة الأوقاف المصرية[٢] .

وكذلك كان الأمر ببلاد الشام ، وذلك ما تثبته وثيقتين من وثائق العصر المملوكى بدمشق وغزة ، الأولى وثيقة وقف واستبدال برقم (٢٢٧/ محفظة ٣٦) بدار الوثائق القومية ، والثانية وقف واستبدال برقم (٢٨١/ محفظة ٤٣) بدار الوثائق القومية .

وهكذا فتلك الاختصاصات ـ سابقة الذكر ـ هى أهم الأمور التى أسندت إلى القضاء

= للمقضى له ، وأجر المثل فى أخذ الأجرة على كتابة المحاضر والسجلات والوثائق فى كل ألف درهم خمسة دراهم إلى العشرة ، والصحيح أنه يرجع فى الأجرة إلى مقدار طول الكتابة وقصرها ، وصعوبتها وسهولتها ، انظر : مجدى إبراهيم « الوثائق المفردة المحفوظة ببطريركية القبط الأرثوذكس بالقاهرة « دراسة أرشيفية وثائقية » » ص ٣٨، آداب القاهرة « فرع بنى سويف » ، ٢٠٠٤م .

(١) د. محمد محمد أمين « فهرست وثائق القاهرة حتى نهاية عصر سلاطين المماليك » ص ٣٣٣، المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ، القاهرة ، « د.ت » .

(٢) د. عبد اللطيف إبراهيم « خمس وثائق شرعية » ص ٢٤٧، مجلة جامعة أم درمان الإسلامية ، العدد (٢) ، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م ، ولقد ظهرت دراسات عدة من قبل الوثائقيين أثبتوا خلالها ـ مستندين لوثائق العصر المملوكى ـ تلك الحقيقة التاريخية ، والتى منها ـ على سبيل المثال : مريم صالح « دراسة دبلوماتية لوثائق فاطمة الخاصكية « ت ٩٠٩هـ » » ص ٣٩٥، ٤٠٢، ماجستير ، آداب القاهرة ، ١٩٩٤م ، طه محمد « توثيق النصوص دراسة مقارنة لوثائق القرن العاشر الهجرى ومخطوطاته المحفوظة بدار الكتب المصرية » ص ١٢٠، ١٢٦، ماجستير ، آداب القاهرة ، ٢٠٠٢م ، د. إنصاف عمر « دراسة فى صيغ الوثائق الخاصة فى مصر فى القرن العاشر الهجرى ومدى مطابقتها لقواعد علم الشروط » ص ١٠٠، ١٢٠، ١٣٢، ١٤١، ١٥١، ١٥٧، دكتوراة ، آداب القاهرة ، ١٩٩٥م ، د. محمد محمد أمين « وثائق من عصر سلاطين المماليك : دراسة ونشر وتحقيق تسعة نماذج متنوعة » ص ٣٤٢، ٣٦٥، ٣٨٣، المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ، القاهرة ، ١٩٨١م ، د. عبد اللطيف إبراهيم « ثلاث وثائق فقهية من وثائق دير سانت كاترين » ص ١٣٠، ١٣١، مقال بمجلة كلية آداب القاهرة ، ١٩٦٣م ، د. محمد عيسى صالحية « من وثائق الحرم القُدسى الشريف المملوكية » ص ٣٩، ٥٨، حولية كلية الآداب ، جامعة الكويت ، الرسالة (٢٦) عام ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

فى العهد المملوكى، ولكن تبقى أهم وظيفة للقضاء فى العهد المملوكى دوره فى تحقيق العدالة بالمجتمع المصرى والشامىّ من إنصاف المظلوم من الظالم والأخذ للضعيف من القوى وفقًا لتعاليم الإسلام، تلك التعاليم التى جعلت علاء الدين البخارى[(١)] «ت ٨٤١هـ» يقول عندما عِلم بتولية العالِم كمال الدين البارزى[(٢)] «ت ٨٦٥هـ» قضاء مصر عام ٨٣٥هـ/١٤٣١م «الآن أمِن الناس على أنفسهم وأموالهم»[(٣)].

ولقد رصدت لنا المصادر التاريخية شواهد ودلائل عدة على قيام علماء مصر والشام عبر ولاية القضاء بتحقيق العدل والأمن بالمجتمع المصرى والشامىّ.

وأول هذه الشواهد تلك الأحكام العادلة التى أصدرها القضاة فى الخصومات والمنازعات التى عرفها المجتمع المصرى والشامىّ، والتى يظهر خلالها ما تمتع به هؤلاء القضاة من عدالة ونزاهة، وبخاصة أن تلك الخصومات والمنازعات فى غالبها كان أحد طرفها السلطة الحاكمة ولكن القضاة لم يداهنوا السلطة ولم يخافوا بأسها.

ففى مصر[(*)]، عام ٨٢٢هـ/١٤١٩م رفعت امرأة قضية تشكو فيها السلطان المؤيد شيخ[(٤)] بأنه تزوجها قديمًا ولها عليه حق، فلما استوثق القاضى شمس الدين الديرى[(٥)] من صحة ادّعائها، أرسل إلى السلطان يطالبه بحقها فأرسل السلطان المال إليه[(٦)].

---

(١) علاء الدين البخارى: على بن محمد البخارى، تفقه بعلماء عصره، وانتفع علماء مصر والشام بعلمه، حيث كان من كبار علماء الهند، ثم ارتحل إلى مصر والشام وأقام بهما مدة طويلة، حتى توفى بدمشق عام ٨٤١هـ، انظر: ابن حجر «إنباء الغمر» ح ٩ ص ٢٣.

(٢) كمال الدين البارزى: كمال الدين أبو المعالى محمد بن محمد بن محمد بن عثمان، تفقه بشيوخ عصره، تولى قضاء دمشق وكتابة السر بمصر، توفى عام ٨٦٥هـ، انظر: ابن طولون «قضاة دمشق» ص ١٦٢، السخاوى «الضوء اللامع» ح ٩ ص ٢٣٦.

(٣) ابن تغرى «النجوم الزاهرة» ح ١٥ ص ٢٩٠، السخاوى «الضوء اللامع» ح٩ ص٢٣٨.

(*) لم تذكر المصادر التاريخية ـ التى اطلعت عليها ـ خلال القرن التاسع سوى تلك الحادثتين.

(٤) المؤيد شيخ: سبق التعريف به بالفصل الأول، انظر: ص ٣٧.

(٥) شمس الدين الديرى: محمد بن عبد الله، درس وأفتى، تولى قضاء الحنفية بمصر، باشر بشهامة وعفة، توفى ٨٢٧هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ٨ ص ٨٨.

(٦) السخاوى «الضوء اللامع» ح ٨ ص ٨٩.

وفى عام ٨٢٣هـ/١٤٢٠م قتل والى[1] القاهرة[2] شخص من العامة بغير موجب شرعى فحكم قضاة مصر ـ جلال الدين البلقينى[3] الشافعى، وزين الدين التفهنى[4] الحنفى، وجمال الدين الأفقهسى[5] المالكى، وعلاء الدين بن مغلى الحنبلى ـ بقتله قصاصًا، وعلى الهيئة التى قُتِل بها ذلك الشخص، وتم تنفيذ الحكم بحضور السلطان المؤيد شيخ[6].

أمّا بلاد الشام:

ففى دمشق عام ٨٩٣هـ/١٤٨٧م أراد الحاجب[7] الكبير إينال الخسيف[8] الاستيلاء بالقوة على قطعة أرض يمتلكها جماعة من فلاحى إحدى قرى دمشق، فلجأ هؤلاء

---

(١) **الوالى**: هو الممثل المحلى للسلطان فى الولاية التى يتولاها، ويطلق عليه أيضًا متولى الحرب، وكان يختار من أمراء المماليك برتبة أمير طبلخاناة، انظر: القلقشندى «صبح الأعشى» ح ٤ ص ٢١.

(٢) القاهرة: انظر: ص ١٩.

(٣) جلال الدين البلقينى: عبد الرحمن بن عمر، تفقه على شيوخ عصره، درس وأفتى، تولى قضاء الشافعية بمصر، توفى ٨٢٤هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ٤ ص ١٠٦.

(٤) زين الدين التفهنى: زين الدين عبد الرحمن، تفقه بشيوخ عصره، باشر قضاء الحنفية بمصر بعفة، توفى ٨٣٥هـ، انظر: التميمى «الطبقات السنية» ح ٤ ص ٩٨.

(٥) جمال الدين الأفقهسى: عبد الرحمن بن أحمد، تفقه على شيوخ عصره، تولى قضاء المالكية بمصر، درس، وأفتى، توفى ٨٢٧هـ، انظر: السخاوى «الذيل التام» ح ١ ص ٢٧.

(٦) المقريزى «السلوك» ح ٤ ص ٥٣٠، العينى «عقد الجمان» ص ٣٨٤.

(٧) **الحاجب الكبير**: هو من كبار موظفى النيابة، وعين السلطان فى دمشق، وعدد الحجاب فى دمشق ستة يرأسهم الحاجب الكبير، ويُلقب فى المكاتبات بالمجلس العالى، انظر: ابن ناظر الجيش «تقى الدين عبد الرحمن» «تثقيف التعريف بالمصطلح الشريف» ص ١٠٧، تحقيق رودلف فسلى، المعهد العلمى الفرنسى للدراسات الشرقية، القاهرة، ١٩٨٧م، د. أكرم حسن «دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين» ص ٣١٣.

(٨) إينال الخسيف: تولى حجوبية الحجاب بدمشق عام ٨٩٢هـ ثم عزل عام ٨٩٤هـ، وتولى نيابة حماة، انظر: ابن الحمصى «حوادث الزمان» ح ١ ص ٣١٦، ابن طولون «مفاكهة الخلان» ص ٧٤، ١١٨، ١٤١.

الفلاحون إلى القاضى شهاب الدين المرينى[1] ، فتصدى القاضى له ومنعه من التعرض لهؤلاء الفلاحين وأرضهم فخضع الحاجب واعتذر للقاضى والفلاحين[2] .

وفى شهر جمادى الآخرى من عام ٨٩٩هـ/١٤٩٣م فرض نائب دمشق[3] قانصوه اليحياوى[4] خمسمائة دينار « دية »[5] على أهل الصالحية[6] ، لأنهم قتلوا شخصًا من أعوان السلطة بسبب أنه استولى على أموالهم بظلم وعسف ، ولكن أهل الصالحية لجأوا إلى قاضى الشافعية شهاب الدين بن الفرفور[7] ، فمنع النائب من ذلك وخضع النائب لحكم القاضى[8] .

---

(١) شهاب الدين المرينى : شهاب الدين أحمد بن المرينى المغربى ، تولى قضاء المالكية بدمشق عام ٨٨٠هـ ، وكانت سيرته حسنة فى القضاء ، توفى ٨٩٦هـ ، انظر : ابن طولون « قضاة دمشق » ص ٢٦٣.

(٢) ابن طولون « مفاكهة الخلان » ص ٨٨.

(٣) **نائب دمشق** : هو سلطان مختصر ـ بتعبير القلقشندى ـ حيث أنه يحكم فى كل ما يحكم فيه السلطان فى نيابته ، ويُعبر عنه فى المكاتبات السلطانية بـ« كافل السلطنة الشريفة بالشام المحروس » ، انظر : القلقشندى « صبح الأعشى » ح ٤ ص ١٩٠، ١٩١.

(٤) قانصوه اليحياوى : ولى نيابة دمشق عام ٨٨٤هـ ثم عزل عام ٨٨٦هـ ، ثم تولى عام ٨٩٢هـ ، توفى ٩٠٢هـ ، وكانت سيرته سيئة ، انظر : ابن طولون « إعلام الورى » ص ٧٢.

(٥) **الدية** : هى مبلغ من المال يفرض على أهل المحِلة التى يوجد فيها قتيل ، لم يُعلم قاتله ، ثم يدفع المبلغ إلى الورثة ، ولكن الشرع الإسلامى اشترط قبل ذلك القيام بإجراء معين اصطلح على تسميته بـ« القسامة » وهى أن ينُتقى خمسون من أهل المحِلة ، يقسِم كل منهم على انفراد أنه ما قتله ، ولا يعلِم له قاتلًا ، عندئذٍ تُفرض « الدية » ، وكان يُطلق على « الدية » فى العصر المملوكى أيضًا مصطلح « الرمية » ، انظر : د. أكرم حسن « نيابة دمشق » ص ٣٧٠، د. حسن خالد « الأحاديث النبوية المتصلة بالقضاء والحكم » ص ٧٠٣، دكتوراة ، كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة ، ٢٠٠١م ، القاضى عياض «ت ٥٤٤هـ» «شرح صحيح مسلم المسمى إكمال المُعلم بفوائد مسلم» ح٥ ص٤٤٧، دار الوفاء ، المنصورة ، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

(٦) **الصالحية** : هى إحدى قرى دمشق الكبرى ذات أسواق ، وتضم قبور جماعة من الصالحين ، انظر : ياقوت الحموى « معجم البلدان » ح ٩ ص ٣٩٠.

(٧) شهاب الدين بن الفرفور : أحمد بن محمود بن عبد الله ، كان سلطان الفقهاء بدمشق ـ على حد تعبير ابن الحمصى ـ ولى قضاء الشافعية بدمشق مدة طويلة ، توفى ٩١١هـ ، انظر : ابن الحمصى « حوادث الزمان » ح ٣ ص ٩٧.

(٨) ابن الحمصى « حوادث الزمان » ح ١ ص ٣٥٢.

أمّا القدس :

ففى عام ٨٤٧هـ/١٤٤٣م أراد نائب القدس مبارك شاة[(١)] قتل جماعة من الفلاحين، حيث ادّعى أنهم لصوص وقاتلون للنفس، فتصدى قاضى المالكية شرف الدين أبو الروح[(٢)] لهذا النائب وأعلمه أنه يجب النظر فى أمرهم، فإن ثبت عليهم ذلك تم القصاص، وإلا فلا سبيل إلى قتلهم، فأظهر النائب إصراره على قتلهم، فقال القاضى : « والله لو قتلهم لكنتُ اقتلك بيدى وأعلقك إلى جانبهم »، « فلم يستطع النائب مراجعته لهيبته »[(٣)].

أمّا ثانى هذه الشواهد التى تبين عدالة واستقلالية أحكام قضاة مصر والشام التى كانوا يحكمون بها، ما تذكره المصادر التاريخية من مقاومة قضاة مصر والشام لأى تدخل من قبل السلطة المملوكية فى أحكامهم القضائية، أو التعدى على اختصاصتهم القضائية المتعلقة بعملية الفصل فى المنازعات والخصومات.

ففى عام عام ٨٤٦هـ/١٤٤٢م رُفِعت قضية إلى القاضى ابن حجر العسقلانى[(٤)]، ومضمون تلك القضية نزاع بين سيدتين فى وقف والدهما، فحكم ابن حجر لصالح إحدى السيدتين، ولكن السيدة الأخرى التى لم يحكم لصالحها حاولت من خلال بعض أكابر رجال الدولة رفع قضيتها إلى السلطان جقمق[(٥)] كى ينقض حكم ابن حجر العسقلانى،

---

(١) مبارك شاه : تولى نيابة القدس عام ٨٤٧هـ، وظل متوليًا حتى نيف وخمسون وثمانمائة، وكان حاكمًا مُعتبرًا ـ على حد تعبير مجير الدين الحنبلى ـ، ولعله يقصد أنه كان حازمًا مُهابًا، انظر : مجير الدين الحنبلى « الأنس الجليل » ح ٢ ص ٢٧٧.

(٢) شرف الدين أبو الروح : عيسى بن شمس الدين محمد المغربى الشحينى، كان من أكابر أهل العلم، تولى قضاء طرابلس ثم القدس أوائل عام ٨٤٧هـ، واستمر فى القضاء حتى توفى ٨٥٤هـ، انظر : مجير الدين الحنبلى « الأنس الجليل » ح ٢ ص ٤٨.

(٣) مجير الدين الحنبلى « الأنس الجليل » ح ٢ ص ٢٤٨.

(٤) ابن حجر العسقلانى : أحمد بن على، تفقه بشيوخ عصره، برع فى علم الحديث، حتى لُقِب بأمير المؤمنين فى الحديث النبوى، ولى قضاء مصر على مذهب الشافعية لمدة تزيد عن إحدى وعشرين عام، توفى عام ٨٥٢هـ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٢ ص ٣٨، ابن تغرى « المنهل الصافى » ح ٢ ص ١٧.

(٥) جقمق : سبق التعريف به بالفصل الأول، انظر : ص ١١

وبالفعل وصل الأمر إلى السلطان جقمق الذى طالب ابن حجر بنقض حكمه السابق، فرفض ابن حجر وأصرّ على ذلك، فاضطر السلطان عن التراجع فيما أراد، بل إنه قام باسترضاء ابن حجر لتدخله فى القضاء، وقال له: «نفذ الأحكام على الكبير والصغير»[(١)].

وفى عام ٨٥٦هـ/١٤٥٢م حدث نزاع بين تاجر يهودى من تجار الجركس[(٢)] وغريم له من التجار المصريين بشأن مسائل ومعاملات مالية قائمة بينهم، ولكن اليهودى يريد أن يُطالب التاجر المسلم بحقوق مالية له بما يتنافى مع أحكام الإسلام ـ هكذا ذكرت المصادر التاريخية ـ، فرُفِع النزاع إلى القاضى جمال الدين السنباطى[(٣)]، فحكم القاضى بأن الحقوق المالية لليهودى لا تؤخذ من التاجر المصرى إلا وفق أحكام الشرع، فغضب اليهودى ورفع الأمر للسلطان جقمق[(٤)]، فاستدعى جقمق القاضى وناقشه فى حكمه فقال القاضى للسلطان «الذى فعلته هو الشرع»، فقال السلطان له: «إن السياسة[(٥)] تجرى مجرى الشرع»، وحاول نقض حكم القاضى، ولكن أثناء ذلك تسامع المصريون بتلك القضية وضغوط السلطان على القاضى، فأخذوا يطلقوا ألسنتهم فى السلطة، ويعلنون تأييدهم للقاضى، فداخل السلطان جقمق الخوف من هذا التأييد الشعبى للقاضى، فتراجع عن

---

(١) البقاعى «عنوان الزمان» ح ١ ص ١٣٥، ابن الصيرفى «نزهة النفوس» ح ٤ ص ٢٥٧، ابن حجر العسقلانى «إنباء الغمر» ح ٩ ص ١٨٧.

(٢) **الجركس**: الأصل «جركاس» وهو الاسم الذى يُطلق على طائفة من الأقوام تكوّن هى والأبخاز والآبازه والأوبخ الفرع الشمالى الغربى من الشعوب الإيبرية القوقازية، انظر: «دائرة المعارف الإسلامية» ح ٨ ص ٢٢٤٨، مركز الشارقة للإبداع الفكرى، الإمارات، «د.ت».

(٣) جمال الدين السنباطى: محمد بن عبد الرحمن، تفقه على شيوخ عصره، ولى قضاء المالكية بمصر، درس وأفتى، توفى ٨٦٠هـ، انظر: ابن حجر «رفع الأصر» ح ٢ ص ٥٧.

(٤) جقمق: سبق التعريف به بالفصل الأول. انظر: ص ١١.

(٥) **السياسة**: كلمة عربية الأصل، فهى مصدر الفعل ساس أى رأس وقاد، والسياسة هى القيام على الشىء بما يصلحه، انظر: السفير، نبيل محمد «موسوعة المفاهيم الإسلامية» ص ٣١٢، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ٢٠٠٠م، د. عبد اللطيف المتدين «إمارة التغلب فى الفكر الإسلامى» ص ١١٢.

موقفه وبالغ فى إكرامه والاعتذار إليه[١] .

وكذلك تصدى قضاة مصر لمحاولات الحجاب[٢] التدخل فى الفصل فى المنازعات التى كانت تحدث بين المصريين ـ مُستغلين اتساع نفوذهم[٣] ـ طلبًا للأموال التى كانوا يحصلون عليها من مظالم العباد[٤] ، ولكن كان ذلك يحدث فى عهد قضاة الرِشا والسوء ، أمّا فى عهد القضاة العدول فكانوا يتراجعون عن ذلك التدخل لعلمهم بقوة شكيمة هؤلاء القضاة وقوة بأسهم ، ولو حدث وحاول أحد هؤلاء الحجاب التدخل فى شئون القضاة تم ردعه .

ومن ذلك ما تذكره المصادر التاريخية[*] بمصر عام ٨٢٣هـ/١٤٢٠م باب الحاجب الطنبغا[٥] حاول التدخل للفصل فى نزاع حدث بين شخصين فرفع القاضى زين الدين التفهنى[٦] الأمر للسلطان شيخ[٧] ، فأنكر على الحاجب ووبخه[٨] .

---

(١) البقاعى « إظهار العصر » ص ٢٤٥، ابن تغرى « حوادث الدهور » ح ١ ص ٢٩ « طبعة كاليفورنيا » ، السخاوى « التبر المسبوك » ص ٣٨٨.

(٢) **الحجاب** : كانت وظيفة الحجابة وظيفة جليلة الشأن ، لا يتولاها إلا أمراء المماليك ، وموضوعها حلّ النزاعات الخاصة بإقطاعات الأمراء والجنود ، ثم اتسعت مهام الحاجب عهد السلطان برقوق (٧٨٤هـ ـ ٨٠١هـ) حيث انتقلت إليه مهام نيابة السلطنة بمصر ، انظر : الخالدى « المقصد الرفيع » ص ١٢٦، المقريزى « المواعظ والاعتبار » ح ٣ ص ٧١٢، القلقشندى « صبح الأعشى » ح ٤ ص ١٩، ابن كنان « حدائق الياسمين » ص ١١٩، محمد عبد الغنى « نيابة السلطنة فى مصر زمن المماليك » ص ١٥٦، ماجستير ، آداب عين شمس ، ١٩٩٣م .

(٣) المقريزى « المواعظ والاعتبار » ح ٣ ص ٧١٢، ٧١٣، حكيم أمين « قيام دولة المماليك الثانية » ص ١٦١، دكتوراة ، آداب القاهرة ، ١٩٦٠م .

(٤) المقريزى « المواعظ والاعتبار » ح ٣ ص ٧١٣.

(*) لم تذكر المصادر التاريخية ـ التى اطلع عليها الباحث ـ خلال القرن التاسع سوى تلك الحادثة .

(٥) لم تترجم المصادر التاريخية لهذا الحاجب ، والتى منها « الضوء اللامع » للسخاوى ، و« المقفى » للمقريزى .

(٦) زين الدين التفهنى : انظر : ص ١١١.

(٧) شيخ : سبق التعريف به بالفصل الأول . انظر : ص ٣٧ .

(٨) ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٧ ص ٣٨٣، المقريزى « السلوك » ح ٤ ص ٥٣٠.

ولم يختلف موقف قضاة الشام من قضاة مصر فى مقاومتهم الصلبة لتدخل السلطة المملوكية فى أحكامهم، ومن ذلك ما تذكره المصادر التاريخية بحلب عام ٨٥٠هـ/١٤٤٦م أن السلطان جقمق[١] أراد التدخل لصالح أحد أهالى حلب، حيث طالب قاضى الشافعية بحلب شهاب الدين السويبنى[٢] أن يُصدر حكمًا لصالح هذا الشخص فى قضية ما ـ لم توضح المصادر التاريخية طبيعتها ـ، ولكن القاضى رفض وقال أنه يحكم طبقًا لأحكام الشرع وليس طبقًا لرغبات السلطان[٣].

وفى دمشق عام ٨٥٢هـ/١٤٤٨م، تذكر المصادر التاريخية ـ فى ثنايا ترجمة قاضى المالكية شهاب الدين التلمسانى[٤] ـ أن ذلك القاضى قام بتعزير[٥] الحاجب الثانى[٦] عندما حاول التدخل فى إحدى النزاعات التى كان القضاء ينظر فيها[٧].

أمّا الشاهد الثالث فيوضح كيف أن عدالة قضاة مصر والشام شملت أيضًا أرباب

---

(١) جقمق: سبق التعريف به بالفصل الأول. انظر: ص ١١.

(٢) شهاب الدين السويبنى: إبراهيم بن عمر، تفقه بشيوخ عصره، ولى قضاء حلب عام ٨٥٠هـ، توفى ٨٥٨هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ١ ص ١٠٠.

(٣) ابن شاهين «الروض الباسم» ص ١٢٨.

(٤) شهاب الدين التلمسانى: أحمد بن سعيد، تفقه بشيوخ عصره، تولى قضاء المالكية بدمشق عام ٨٤٥هـ، وعام ٨٦١هـ، توفى ٨٧٤هـ، انظر: ابن طولون «قضاة دمشق» ص ٢٦١.

(٥) **التعزير**: لغة: بتشديد الزاى ـ يُطلق على التأديب والمنع، وفى الاصطلاح العقوبة المشروعة على جناية لا حدّ فيها، كتطفيف المكيال، وجرائم الزندقة التى لم يتمكن القاضى من إثباتها على المتهم، ومن وسائل التعزير الجلد والسجن، انظر: ابن تيمية «السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية» ص ١١١، دار الكتاب العربى بمصر، ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م، طوغان شيخ «ت ٨٨١هـ» «المقدمة السلطانية فى السياسة الشرعية» ص ١٣١، ١٩٠، مكتبة الزهراء، القاهرة، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، د. عبد الله محمد «أكثر ما قيل فى التعزير بالجلد والسجن وبدائل السجن» ص ١٧٤، ١٧٥، ١٩٢، مقال بمجلة البحوث الإسلامية، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء، الرياض ـ السعودية، العدد (٦٩) لعام ١٤٢٤هـ.

(٦) لقد سبق تعريف الحجابة بدمشق، وأن عددهم بدمشق ستة يرأسهم الحاجب الكبير، انظر هامش (٨) ص (١١١)، ولم تذكر المصادر التاريخية اسم الحاجب الثانى المقصود فى تلك الواقعة.

(٧) ابن طولون «قضاة دمشق» ص ٢٥٩.

السجون[١] من خلال إشرافهم على تلك السجون، حيث كان القضاء يشرف على إدارة السجون فى العصر المملوكى، وكانت تلك السجون يُسجن فيها المتهمون فى قضايا الديون أو فى الجرائم الأخلاقية التى لا تبلغ فى عقوبتها الحد الشرعى تعزيرًا[*][٢]، وكان القاضى فى العهد المملوكى يكتب بخط يده ورقة تُسمى «ورقة اعتقال» وتُمهر بتوقيعه وتُصك بخاتمه، وكانت هذه الورقة يُكتب فيها اسم السجين، والمدة المحكوم عليه بها[٣].

ولقد ذكرت المصادر التاريخية أن أحوال المساجين تدهورت فى ظل ولايات قضاة الرشا والسوء، حيث الأماكن الضيقة المكدسة بالمساجين، وعدم توافر الغذاء والكساء بالقدر المناسب لهؤلاء المساجين[٤]، مناقضة لأحكام الشرع فى ذلك الشأن[٥].

ولكن فى ظل ولايات القضاة العدول كان أرباب السجون يُعاملون طبقًا لأحكام

---

(١) **السجن**: لغة هو المنع، واصطلاحًا هو تعويق شخص ومنعه من التصرف بنفسه سواء كان فى مسجد أو بيت أو بملازمة الخصم للمتّهم، انظر: المقريزى «المواعظ والاعتبار» ص ٥٩٦، د. حسن خالد «الأحاديث النبوية المتصلة بالقضاء» ص ٧٥٣.

(*) التعزير: انظر هامش ٥ ص ١١٦.

(٢) د. عبد المنعم ماجد «نظم دولة المماليك» ص ١٠٣، د. علاء طه «السجون والعقوبات فى مصر عصر سلاطين المماليك» ص ٣١، ٩٤، دار عين للنشر، ٢٠٠٢م، عبد الغنى عبد السلام «نظام السجون فى العصر المملوكى» ص ٥٨، ١١١، ماجستير، آداب طنطا، ١٩٩٥م، د. فوزى حامد «القضاء فى صعيد مصر خلال العصر المملوكى» ص ٣٣٢.

(٣) جمال جرجس «القضاء فى العصر المملوكى» ص ١٢٦، ماجستير، آداب عين شمس، ١٩٧٢م.

(٤) د. علاء طه «السجون والعقوبات» ص ٣٨، ٧٥، جمال جرجس «القضاء فى العصر المملوكى» ص ١٢٢، عبد الغنى عبد السلام «نظام السجون فى العصر المملوكى» ص ٣٩.

(٥) حيث أوجبت تعاليم الإسلام أن المساجين لابد أن يُوفر لهم داخل السجون مؤونتهم من الطعام والشراب والكسوة، وأن الدولة منوطة بذلك الأمر من بيت المال أو من الصدقات، انظر: القاضى يوسف يعقوب بن إبراهيم «الخراج» ص ١٦١، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٠٢هـ، آدم متز «الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى» ح ٢ ص ١٤٤، ترجمة محمد عبد الهادى، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م.

الشرع ، وهذا ما عبرت عنه المصادر التاريخية(*) عندما قام قاضى الشافعية بمصر ابن حجر العسقلانى(١) بفحص أحوال المساجين وتلبية حوائجهم(٢) ، ويتكرر المشهد السابق بمصر عام ٨٥٣هـ/١٤٤٩م من قاضى الشافعية شرف الدين(٣) المناوى(٤) .

أمّا فى بلاد الشام ، فتذكر لنا المصادر التاريخية(*) ذلك المشهد من حلب ، فعندما تولى العالم شهاب الدين السوبينى(٥) قضاء الشافعية بحلب من قبل السلطان جقمق(٦) عام ٨٥٠هـ/١٤٤٦م ، وبمجرد دخوله حلب ـ قادمًا من مصر ـ ، قام بفحص أحوال المساجين ، وأخرج من حُبِس ظلمًا ، ونائب حلب قانباى(٧) « خاضعًا له »(٨) .

أمّا الشاهد الرابع فهو شهادة مؤرخى مصر والشام التى جاءت فى ثنايا تراجم علماء مصر والشام الذى أُسند إليهم ولاية القضاء ورئاسته فى مصر والشام خلال القرن التاسع ، حيث أثنى المؤرخون على مباشرة هؤلاء العلماء عندما أُسند إليهم رئاسة الجهاز القضائى ، ومن هذا الثناء الذى رصدته لنا المصادر التاريخية ، « حمدت سيرته فى القضاء وسار فيه سيرة السلف الصالح » ، « نصر المظلوم وأوصل الحق إلى مستحقيه » ، « باشر القضاة بقوة ومهابة

(*) لم تذكر المصادر التاريخية ـ التى اطلعت عليها ـ خلال القرن التاسع فى هذا الشأن سوى تلك الحادثتين بمصر .

(١) ابن حجر العسقلانى : انظر : ص ١١٣.

(٢) جمال جرجس « القضاء فى العصر المملوكى » ص ١٢٥، ١٢٦.

(٣) شرف الدين المناوى : يحيى بن محمد ، تولى قضاء الشافعية بمصر ، توفى ٨٧١هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ١٠ ص ١٧.

(٤) السخاوى « الذيل على رفع الأصر » ص ٤٥٠، تحقيق د. جودة هلال ، الدار المصرية للتأليف ، ١٩٦٦م .

(*) لم تذكر المصادر التاريخية ـ التى اطلعت عليها ـ خلال القرن التاسع فى هذا الشأن سوى تلك الحادثة ببلاد الشام .

(٥) شهاب الدين السوبينى : انظر : ص ١١٦.

(٦) جقمق : سبق التعريف به بالفصل الأول ، انظر : ص ١١ .

(٧) قانباى : هو قانباى البهلوان ، تولى نيابة صفد وحماة ، ثم انتقل إلى نيابة حلب ، حتى توفى ٨٥١هـ ، انظر : ابن العجمى « كنوز الذهب » ح ٢ ص ٢٠٢.

(٨) ابن العجمى « كنوز الذهب » ح ٢ ص ١٩٦.

وعفة » ، ومن قضاة[*] مصر والشام الذين حظوا بهذا الثناء ـ السابق ذكره ـ ، ابن حجر العسقلانى « ت ٨٥٢هـ » قاضى الشافعية بمصر ـ الذى تولى القضاء أكثر من ٢١عام[١] ـ ، وسعد الدين أبو السعادات « ت ٨٦٨هـ » قاضى الحنفية بمصر ـ الذى تولى القضاء ٢٥عام[٢] ـ ، وعز الدين أبو البركات « ت ٨٧٦هـ » قاضى الحنابلة بمصر ـ الذى تولى القضاء قرابة ٢٠عام[٣] ـ ، أمّا قضاة الشام فمنهم نجم الدين الحسبانى « ت ٨٣٠هـ » قاضى الشافعية بدمشق ـ الذى تولى القضاء أكثر من ١٢عام[٤] ـ ، وشمس الدين العليمى « ت ٨٧٣هـ » قاضى الحنابلة بالقدس ـ الذى تولى القضاء ٢٠عام[٥] ، ويوسف بن عبد الرحمن « ت ٩٠٠هـ » قاضى الحنابلة بحلب ـ الذى تولى القضاء ٢٨عام تقريبًا[٦] ـ .

وهكذا كانت ولاية القضاء فى العهد المملوكى لا تقتصر على القضاء بين الناس ـ أى الفصل فى خصوماتهم وفض منازعتهم ، بل أسندت لتلك الولاية أمور أخرى ، أهمها النظر فى الأوقاف ، والنظر فى أموال اليتامى ، ونظر دار الضرب ، وتوثيق العقود المالية ، وتزويج الأيامى ، ولكن ظلت أهم وظيفة للقضاء فى العهد المملوكى ـ كما يرى الباحث ـ دوره فى تحقيق العدالة بالمجتمع المصرى والشامى من إنصاف المظلوم من الظالم والأخذ للضعيف من القوى وفقًا لتعاليم الإسلام ، تلك التعاليم التى جعلت علاء الدين البخارى « ت ٨٤١هـ » يقول عندما علم بتولية كمال الدين البارزى « ت ٨٦٥هـ » قضاء دمشق عام ٨٣٥هـ/ ١٤٣١م « الآن أمِن الناس على أنفسهم وأموالهم » ، ولقد قام علماء مصر والشام ـ خلال القرن التاسع ـ عبر ولايتهم للقضاء بهذه الوظيفة الهامة ، وذلك ما أكدته المصادر التاريخية

(*) لقد شمل هذا الثناء قطاع كبير من قضاة مصر والشام ـ خلال القرن التاسع ، حيث أعد الباحث بملاحق الدراسة ملحق بقضاة مصر والشام الذين أثنى المؤرخون على مباشرتهم للقضاء ، انظر : ملحق رقم (١) .

(١) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٢ ص ٣٨، البقاعى « عنوان الزمان » ح ١ ص ١٣٤.

(٢) ابن طولون « الغرف العلية فى تراجم الحنفية » ص ٣٣١.

(٣) ابن شاهين « المعجم المفنن » ص ٦٣، السخاوى « الذيل على رفع الأصر » ص ٣٥.

(٤) ابن طولون « قضاة دمشق » ص ١٣٣.

(٥) مجير الحنبلى « الأنس الجليل » ح ٢ ص ٢٦٦.

(٦) ابن الطباخ « إعلام النبلاء » ح ٥ ص ٣٣٠.

فى شواهد ودلائل عدة، أهمها الأحكام العادلة التى أصدرها القضاء فى الخصومات التى عرفها المجتمع المصرى والشامىّ، ومقاومة قضاة مصر والشام أى تدخل من قبل السلطة المملوكية فى أحكامهم القضائية، وإشراف القضاة على السجون، وثناء مؤرخى مصر والشام على مباشرة هؤلاء العلماء لولاية القضاء.

٢ ـ الحسبة:

هى ولاية دينية فى الدولة الإسلامية من أهم الولايات الإدارية ذات الصفة الرقابية، ومنوط بها مراقبة السلوك البشرى فى المجتمع الإسلامى، وتلى ولاية الحسبة ولاية القضاء فى المرتبة إذ أن ولايات رفع المظالم على العموم والنظر فى القضاء بين الناس موزعة على ثلاث جهات، أقواها ولاية المظالم[*]، ويليها ولاية القضاء، ثم ولاية الحسبة، فالحسبة واسطة بين أحكام القضاء وأحكام المظالم[١].

(*) **ولاية المظالم**: أى «النظر فى المظالم»، وهى نوع من القضاء يرمى إلى منع الظلم، وذلك عندما يعجز القضاة على النظر فيه، فيرفع أمره رأسًا إلى صاحب السلطة العليا «السلطان»، ولقد مارس الخلفاء الراشدون النظر فى المظالم، ومن بعدهم الأمويون وكذا العباسيون والفاطميون والأيوبيون، وكان قائمًا كذلك فى العهد المملوكى، وكان السلطان ـ فى الغالب ـ يقوم به، وأحيانًا نائب السلطنة او حاجب الحجاب، وكان يعقد بمكان يُسمى «دار العدل»، انظر: الماوردى «أبى الحسن على «ت ٤٥٠هـ»» «الأحكام السلطانية والولايات الدينية» ص ٢٧، المكتبة العالمية، بغداد، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، المقريزى «المواعظ والاعتبار» ح ٣ ص ٦٦٢، د. عبد المنعم ماجد «نظم دولة المماليك» ص ١٠٦، زينب محمد «التطور الدبلوماتى لمراسيم ديوان الإنشاء بدير سانت كاترين من القرن الخامس إلى القرن العاشر الهجرى» ص ٤٦، ماجستير، آداب القاهرة، ١٩٧٠م.

(١) طوغان شيخ المحمدى «ت ٨٩١هـ» «المقدمة السلطانية فى السياسية الشرعية» ص ١٠٥، مخطوطة بدار الكتب المصرية، برقم (١٧٢٦ فقه حنفى) ومكروفيلم برقم (١٧١٧٦)، د. على عبد القادر «الفقه الإسلامى: القضاء والحسبة» ص ٨٤، مقال بموسوعة الحضارة العربية الإسلامية، إصدار المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، رقم (٣) لعام ١٩٩٥م، د. عدنان أحمد الضمادى «منهج الإسلام فى الحفاظ على البيئة من التلوث» ص ٣٣٣، مقال بمجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الكويت، العدد الحادى والخمسون، شوال ١٤٢٣هـ/ ديسمبر ٢٠٠٢م.

وإذا نظرنا إلى الحسبة فى العصر المملوكى واختصاصاتها نجدها اختصاصات عدة ، منها ما هو ذات طابع اقتصادى ، ومنها ما هو ذات طابع اجتماعى ، ومنها ما هو ذات طابع دينى .

أ ـ اختصاصات الحسبة ذات الطابع الاقتصادى :

لقد كان منوط بالحسبة فى العصر المملوكى عملية « ضبط الأسواق » بمعنى توفير السلع ـ الغذائية بشكل خاص ـ بأسعار معتدلة ، وردع التجار ذوى النفوس الطامعة الذين يفحشون فى أثمان بضائعهم ، بل وتسعير[(١)] تلك السلع فى فترات الغلاء الناجمة عن احتكار التجار لتلك السلع ، وكان على الحسبة أيضًا فحص الموازين والمكاييل لمنع الغش ، وحماية المُستهلك من البضائع المغشوشة ـ كما يحدث فى الجواهر والعطور ونحو ذلك ـ ، والنهى عن البيوع المحرمة مثل بيع النجش[(٢)] وما إلى ذلك ، ومنع الصرافين من ترويج العملة المزيفة والمغشوشة بالأسواق[(٣)] .

---

(١) **التسعير** : هو إلزام ولى الأمر ـ أو من يقوم مقامه ـ الناس بثمن معين لا يبتاعون إلا به فيُمنعون من الزيادة عليه أو النقص عنه عند الضرورة فى الطعام وغيره مما يحتاج الناس إليه بحيث يُراعى حق الطرفين بالعدل للمصلحة العامة ، وهو جائز شرعًا عند رفع التجار للأسعار ، انظر : د. محمد بن أحمد الصالح « التسعير » ص ١٦٦٦، ١٦٦٧، ١٦٧٨، مجلة البحوث الإسلامية ، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء ، الرياض ، العدد الرابع ، ١٣٩٨هـ ، د. فياض عبد المنعم « المنهج الإسلامى للتسعير » ص ٣٥، مقال بجريدة الأهرام المصرية ، عدد (١٣ شعبان ١٤٢٤هـ/ ٩ أكتوبر ٢٠٠٣م) .

(٢) **النجش** : هو تواطئ البائع مع رجل أو أكثر على أن يزيدوا ثمن سلعة ما ـ وهم لا يريدوا شرائها ؛ حتى يسمع بذلك المُشترى ، فيأخذها بأكثر من ثمنها ، ولقد نهى رسول الله ﷺ ـ عن ذلك ـ فيما رواه ابن مالك فى « المُوطأ » « لا تناجشوا » ، انظر : مالك بن أنس « ت ١٧٩هـ » « المُوطأ » ص ٣٩٤، تحقيق د. بشار عواد ، محمود محمد خليل ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ٢ (١٤١٣هـ/١٩٩٣م) ، ابن منظور « لسان العرب » ح ١٤ ص ١٩٩، دار صادر ، بيروت ، ط (٢٠٠٠م) ، ابن الأخوة « معالم القربة فى أحكام الحسبة » ص ١٣١، نقل وصححه روبن ليوى ، مكتبة المُثنىَّ ، بغداد ، « د.ت » ، ابن حجر «فتح البارى» ح ٥ ص ٢٥٨.

(٣) ابن الأخوة « معالم القربة » ص ٥٢، ٧٠، ٨٣، ٨٩، ١٣١، ١٤٦، القلقشندى « صبح الأعشى » ح ١١ ص ٢١١، ح ١٢ ص ٤٧١، ابن قيم الجوزية « شمس الدين محمد « ت ٧٥١هـ » » « الطرق=

ففى مصر، تذكر المصادر التاريخية[*] أن بدر الدين العينى[1] ـ خلال ولايته[2] لحسبة مصر ـ كان يتفقد الأسواق ليلًا ونهارًا، وأنه استطاع توفير السلع الغذائية كالخبز وغيره فى الأسواق بأسعار معتدلة وبخاصة فى الأوقات التى تعرضت فيها البلاد لأزمات غذائية بسبب نقص فيضان النيل أو فساد المزروعات، كما حدث فى الأزمة التى تعرضت لها مصر عام ٨١٨هـ/١٤١٥م وامتدت حتى عام ٨١٩هـ/١٤١٦م، حيث ظهرت مهارة العينى وكفاءته فاستطاع توفير المواد الغذائية من خبز وغيره، وردع التجار الطامعين ـ الذين حاولوا استثمار تلك الأزمة لصالحهم ـ برفع أسعار المواد الغذائية فقام بتسعير[3] المواد الغذائية بأسعار معتدلة، وأصدر العقوبات الصارمة على من خالف أوامره، والتى كان منها مصادرة بضائع هؤلاء التجار، فضبطت الأسواق، وعمّت البهجة المصريين[4].

أمّا بلاد الشام، فنلحظ فيها غياب العلماء عن ولاية الحسبة خلال القرن التاسع، حيث يُسقط المؤرخون ولاية الحسبة من قائمة الولايات التى تولاها علماء الشام خلال القرن التاسع الهجرى كالقضاء وكتابة السر ونظر الجيش ونحوها، ولعل ذلك يرجع إلى ما أشارت إليه بعض المصادر التاريخية إلى أن السلطة المملوكية «السلطان» أسندت ولاية

= الحكمية فى السياسة الشرعية» ص ٢٠٢، ابن طولون «نقد الطالب لزغل المناصب» ص ٤٩، تحقيق محمد أحمد دهمان، دار الفكر المعاصر، لبنان، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، المقريزى «المواعظ والاعتبار» ح ٢ ص ٥١٦، ابن المبرد «يوسف بن الحسن «ت ٩٠٩هـ»» «الحسبة» ص ٣٨٦ ـ ٣٨٩، نشر حبيب زيّات، مجلة المشرق، بيروت، السنة الخامسة والثلاثون، ١٩٣٧م.

(*) لم تذكر المصادر التاريخية ـ التى اطلع الباحث عليها ـ فى هذا الشأن إلا تلك الحادثة.

(١) بدر الدين العينى: محمود بن أحمد، تفقه على شيوخ عصره، تولى قضاء الحنفية بمصر عام ٨٢٩هـ، وحسبة مصر مرات عدة، توفى ٨٥٥هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ١٠ ص ١٣١.

(٢) تولى العينى حسبة مصر مرات عدة، منها عام ٨٠٢هـ، وعام ٨٣٣هـ، وعام ٨٤٤هـ، انظر: ابن حجر «إنباء الغمر» ح ٤ ص ٩٧، ح ٨ ص ١٩٨، ح ٩ ص ٢٦.

(٣) التسعير: انظر هامش ١ ص ١٢١.

(٤) ابن إياس «بدائع الزهور» ح ٢ ص ٢٦، السخاوى «الضوء اللامع» ح ١٠ ص ١٣٢، العينى «عقد الجمان» ص ٢٥٥.

الحسبة بمصر والشام خلال القرن التاسع إلى أمراء[*] المماليك دون العلماء[١] ، إلا أن تلك المقولة غير صحيحة على إطلاقها ، حيث توضح المصادر التاريخية استمرار تولى علماء مصر لولاية الحسبة خلال النصف الأول من القرن التاسع بشكل واضح ـ على الأقل ـ ، كالعالم بدر الدين العينى[٢] « ت ٨٥٥هـ » الذى تولى الحسبة مرات عدة منها عام ٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م[٣] ، وعام ٨٣٣هـ/١٤٢٩م[٤] ، وعام ٨٤٤هـ/١٤٤٠م[٥] . والعالم صدر الدين العجمى[٦] « ت ٨٣٣هـ » الذى تولى الحسبة مرات عدة منها عام ٨٠٨هـ/١٤٠٥م[٧] ، وعام ٨٢٢هـ/١٤١٩م[٨] ، والعالم شرف الدين التبانى[٩] « ت ٨٢٧هـ » الذى تولى الحسبة عام ٨٢٠هـ/١٤١٧م[١٠] ، والعالم جمال الدين البساطى[١١] « ت ٨٢٩هـ » الذى تولى

(*) وذلك بسبب نهم السلطة المملوكية للأموال ، حيث فرضت السلطة على التجار والباعة وأصحاب الحرف والصنائع مكوس شهرية ، عُرفت باسم « المشاهرة » وأسندت إلى المحتسب جباية تلك المكوس ، ولمّا كان العلماء سيمتنعون عن جباية تلك المكوس لعدم شرعيتها ، أسندت السلطة تلك الولاية إلى أمراء المماليك ، انظر : الأسدى « التيسير والاعتبار » ص ١٣٤، ابن الصيرفى « إنباء الهصر » ص ٤١.

(١) الخالدى « المقصد الرفيع » ص ١٣٢، ابن كنان « حدائق الياسمين » ص ١٦٠.

(٢) بدر الدين العينى : محمود بن أحمد ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء الحنفية بمصر عام ٨٢٩هـ ، توفى ٨٥٥هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ١٠ ص ١٣١.

(٣) ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٤ ص ٩٧.

(٤) ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٨ ص ١٩٨.

(٥) ابن شاهين « الروض الباسم » ح ١ ص ١٩، العينى « عقد الجمان » ص ٥١، ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٩ ص ٢٦.

(٦) صدر الدين العجمى : أحمد بن محمد ، من أبرز فقهاء الحنفية فى عصره ، درس وأفتى ، تولى الحسبة مرارًا ، توفى ٨٣٣هـ ، انظر : ابن طولون « الغرف العلية » ص ١٥٨، ابن تغرى « المنهل الصافى » ح ٢ ص ٢١٢.

(٧) ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٥ ص ٢٧٨.

(٨) ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٧ ص ٣٤٦.

(٩) شرف الدين التبانى : محمد بن يعقوب ، تفقه على شيوخ عصره ، درس ، وتولى وكالة بيت المال بمصر ، توفى ٨٢٧هـ ، انظر : ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٨ ص ٦٢.

(١٠) ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٧ ص ٢٧١.

(١١) جمال الدين البساطى : يوسف بن خالد ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء المالكية بعصره ، توفى =

الحسبة عام ٨٢٤هـ/١٤٢١م[(١)] .

وهكذا فتلك المقولة غير صحيحة على إطلاقها بالنسبة لمصر خلال النصف الأول من القرن التاسع بشكل واضح على الأقل ، أمّا بلاد الشام فيصدق عليها تلك المقولة ، ولكن ذلك لا يعنى الغياب التام لعلماء الشام عن الحسبة ، فلقد تولى شمس الدين القرشى[(٢)] « ت ٨٧٣هـ » الحسبة بدمشق أكثر من مرة[(٣)] ، وكذا ابن زريق[(٤)] « ت ٨٤٨هـ »[(٥)] ، وجمال الدين النعمانى[(٦)] « ت ٨٥٠هـ »[(٧)] .

وفى حلب ، كانت الحسبة بيد العالم ابن النصيبى[(٨)] « ت ٨٠٣هـ »[(٩)] .

ب ـ اختصاصات ذات طابع اجتماعى :

لقد كان على المحتسب فى العصر المملوكى محاربة الأمراض الاجتماعية والرذائل

= ٨٢٩هـ ، انظر : ابن حجر « رفع الأصر عن قضاة مصر » ص ٤٧٦، تحقيق د. على محمد ، مكتبة الخانجى ، ط١ (١٤١٨هـ/١٩٩٨م) .

(١) ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٤ ص ٤١، السخاوى « الضوء اللامع » ح ١٠ ص ٣١٢، ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٧ ص ٤٢٢.

(٢) شمس الدين القرشى : محمد بن المعتمد ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى حسبة دمشق ، وكانت سيرته حسنة ، توفى ٨٧٣هـ ، انظر : البصروى « تاريخ البصروى » ص ٣٥.

(٣) البصروى « تاريخ البصروى » ص ٣٥.

(٤) ابن زريق : عبد الله بن أبى بكر ، تفقه على شيوخ عصره ، وكان من علماء الحديث ، توفى ٨٤٨هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٥ ص ١٥.

(٥) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٥ ص ١٥.

(٦) جمال الدين النعمانى : هو القاضى جمال الدين بن القاضى تاج الدين النعمانى ، تفقه على شيوخ عصره ، ولى قضاء وحسبة دمشق ، توفى ٨٥٠هـ ، انظر : ابن شاهين « الروض الباسم » ص ٤٤.

(٧) ابن شاهين « الروض الباسم » ص ٤٤.

(٨) ابن النصيبى : عمر بن أبى بكر ، تفقه على شيوخ عصره ، درس بمدارس حلب ، وولى قضاء العسكر بها ، والحسبة مرارًا ، توفى ٨٠٣هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٦ ص ٧٦.

(٩) ابن الطباخ « إعلام النبلاء » ح ٥ ص ١٣٢، ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٤ ص ٣٠٨، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٦ ص ٧٦.

الأخلاقية التى عانى منها المجتمع المصرى والشامىّ، والتى منها تعاطى الخمر والحشيش[(١)]، وانتشار أماكن البغاء، ودور القِمار[(٢)]، وتبرج النساء فى الطرقات[(٣)].

ومن ذلك ما تذكره المصادر التاريخية[(*)] عام ٨٢٢هـ/١٤١٩م أن صدر الدين العجمى[(٤)] ـ محتسب القاهرة ـ أزال أماكن المنكرات، وأراق الخمور[(٥)].

وفى دمشق، تذكر المصادر التاريخية[(*)] عام ٨٣٠هـ/١٤٢٦م، أنه لما تولى ناصر الدين بن الشبل حسبة دمشق عام ٨٣٠هـ/١٤٢٦م أخذ فى إنكار المنكرات من تبرج النساء وإغلاق دور القِمار ونحو ذلك[(٦)].

جـ ـ اختصاصات ذات طابع دينى :

كان على المحتسب فى العصر المملوكى أن يراعى التزام أهل الذمة ببعض القيود فى الملابس والمظهر ـ كتطبيق الأكمام وتصغير العمائم وغير ذلك ـ طبقًا للشروط

---

(١) **الحشيش** : نبات مخدر شاع فى العصر المملوكى، انظر د. سعيد عاشور «المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك» ص ٢٥٢، دار النهضة العربية، ١٩٩٢م.

(٢) **القِمار** : كل لِعب فيه مراهنة، وهو محرم شرعًا، انظر : ابن سيدة «ابن الحسن على «ت ٤٥٨هـ»» «المخصص» ح ٤ ص ٢٠، الجوهرى «إسماعيل بن حماد» «تاج اللغة وصحاح العربية» ح ٢ ص ٧١٩، «المعجم الوجيز» ص ٥١٤، إصدار مجمع اللغة العربية، المطابع الأميرية، القاهرة، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

(٣) ابن شاهين «الروض الباسم» ص ٩، ١٠، ابن حجر «إنباء الغمر» ح ٧ ص ٣٤٨، ح ٩ ص ١٠، السخاوى «الضوء اللامع» ح ١ ص ١٨١، ابن الأخوة «معالم القربة» ص ٣٢.

(*) لم يظفر الباحث فى هذا الشأن ـ فى المصادر التاريخية التى اطلع عليها ـ إلا بهاتين الحادثتين.

(٤) صدر الدين العجمى : انظر : ص ١٢٣.

(٥) ابن حجر «إنباء الغمر» ح ٧ ص ٣٤٨.

(*) لم تذكر المصادر التاريخية ـ التى اطلع عليها الباحث ـ فى هذا الشأن سوى تلك الحادثة.

(٦) ابن طولون «اللمعات البرقية فى النكت التاريخية» ص ٦٣، مكتبة القدسى والبُدير، دمشق، ١٣٤٨هـ.

العمرية[*][1] .

ومن ذلك ما تذكره المصادر التاريخية عام ٨٢٢هـ/١٤١٩م ، عندما قام صدر الدين العجمى[2] ـ محتسب القاهرة بإلزام أهل الذمة بتلك القيود على ملابس أهل الذمة من تصغير العمائم وتضييق الأكمام ونحو ذلك[3] .

وفى عام ٨٣٠هـ/١٤٢٦م تكرر ذلك المشهد من إلزام المحتسب لأهل الذمة بتلك القيود فى ملابسهم[4] .

(٣) وكالة بيت المال[*] :

وكالة بيت المال من الولايات الدينية التى تولاها العلماء فى العصر المملوكى ، وموضع تلك الولاية التحدث فيما يتعلق بمبيعات بيت المال ومُشترياته من أراضى

(*) سوف يعرض الباحث لتلك الشروط وماهيتها ومدى صحة نسبتها للخليفة الراشد عمر بن الخطاب ، موضحًا آراء علماء مصر والشام فى العصر المملوكى بشأن تلك الشروط بفصل « العلماء والحياة الدينية » .

(١) ابن الأخوة « معالم القربة » ص ٤٠، العمرى « التعريف بالمصطلح » ص ١٤٤، ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٧ ص ٣٤٨.

(٢) صدر الدين العجمى : انظر : ص ١٢٣.

(٣) ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٧ ص ٣٤٨.

(٤) ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٨ ص ١١٨.

(*) **بيت المال** : تعددت دلالات مصطلح بيت المال فى النظم الإسلامية ، ففى البداية كان المقصود ببيت المال « خزانة الدولة » التى يُحفظ فيها الأموال العامة للدولة الإسلامية ، ثم أصبح المصطلح يدل على الإدارة التى كانت تشرف على هذه الأموال ، أما الدلالة الأكثر شيوعًا خاصة لدى المتأخرين من الفقهاء الدلالة المجازية التى ترى أن بيت المال جهات وليس مكانًا ، فهو مجموعة من الموارد الشرعية للدولة الإسلامية ، وهو كذلك أوجه الإنفاق التى تلتزم بها الدولة ، وترجع نشأة بيت المال إلى عهد النبى ﷺ وليس إلى عهد الراشد عمر بن الخطاب ، ولكن نظرًا أنه فى عهد النبى ﷺ وعهد أبى بكر الصديق كانت النفقات فى معظم الأحيان تفوق الإيرادات مما جعل الدولة تعانى من حالة عجز مالى متكرر أوهم بعض المؤرخين بأنه لم يكن للمسلمين بيت مال إلا فى عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ، انظر : د. عماد بدر الدين =

وديار وغير ذلك[١] .

ولقد اشترط الفقهاء لبيع ممتلكات بيت المال أن تكون هناك حاجة ماسة لذلك[٢] ، ولكن السلطة المملوكية ـ « سلطان وأمراء » ـ قامت بنهب أملاك بيت المال من أراضى وعقارات فى شكل بيع وشراء صورى يتم بواسطة وكيل بيت المال، حيث كان السلطان يقوم بالإنعام بثمن العين المباعة على المُشترى مرة أخرى، وذلك ما شهدت به وثائق بيع أملاك بيت المال فى عصر المماليك الجراكسة ـ التى مازالت بأرشيف الأوقاف المصرية ـ، حيث تم رصد ٦٢ حالة بيع تم فيها الإنعام بالثمن على المُشترى، كالوثيقة ٧١ج والتى يرجع تاريخها لعام ٨٠٢هـ/١٣٩٩م، والوثيقة رقم ٦٤٦ج والتى يرجع تاريخها لعام ٩١١هـ[٣] .

ولكن لا يعنى الكلام السابق ذكره أن تلك الولاية كانت قاصرة على فقهاء السلطان الذين ساندوا السلطة المملوكية فى نهب أملاك بيت المال، فلقد رصدت لنا المصادر التاريخية فى ثنايا تراجم علماء مصر والشام ـ فى القرن التاسع ـ من تولى تلك الولاية وباشرها بحرمة وعفة وصيانة وحافظ على أملاك بيت المال من التبديد أمثال شرف الدين التبانى[٤] الذى تولى وكالة بيت المال بمصر منذ عام ٨١٥هـ وحتى وفاته ٨٢٧هـ، وولى

= « وثائق بيع أملاك بيت المال فى عصر المماليك الجراكسة » ص ١٥٤، دكتوراة، آداب القاهرة، ١٩٩٥م، عبد العزيز صالح « نشأة بيت المال فى الدولة الإسلامية » ص ٢٤، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، العدد (٥٠) لعام ١٩٩٨م .

(١) القلقشندى « صبح الأعشى ح ٤ ص ٣٧، ابن كنان « حدائق الياسمين » ص ١٦٦ .

(٢) ابن نجم الحنفى « أحمد بن زين « ت ٩٧٠هـ » » « الرسائل الزينية فى مذهب الحنفية » ص ٢٠، ٢١، مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (٢١٢٣ فقه حنفى)، ومكروفيلم رقم (٤١٩٥٤)، ولى الدين أبو زرعة « أحمد بن عبد الرحيم « ت ٨٢٦هـ » » « ذيل العبر للذهبى ٧٦٢هـ ـ ٧٨٦هـ » ص ٢٠٧، مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (١٢٥٦٠) .

(٣) د. عماد بدر الدين « تطور الحيازة الزراعية زمن المماليك الجراكسة » ص ٨٣، دار عين للنشر، القاهرة، ٢٠٠٠م، د. عماد بدر الدين « وثائق بيع أملاك بيت المال » ص ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٢٩، ح٢ ص ٤٢، ٣٧٨.

(٤) شرف الدين التبانى : انظر : ص ١٢٣.

الدين السفطى[١] « ت ٨٥٤هـ » الذى تولى وكالة بيت المال بمصر عام ٨٤٢هـ حتى عام ٨٥١هـ[٢] ، وشرف الدين الأنصارى[٣] « ت ٨٨١هـ » الذى تولى وكالة بيت المال بمصر مرات عدة عهد السلطان جقمق[٤] والسلطان قايتباى[٥][٦] ، وعلاء الدين بن مفلح[٧] « ت ٨٨١هـ » الذى كان متوليًا وكالة بيت المال بدمشق[٨] ، وصلاح الدين العدوى[٩] « ت ٩٠٨هـ » الذى كان متوليًا وكالة بيت المال بدمشق عهد السلطان قايتباى[١٠] ، والعالم أبو بكر النصيبى[١١] « ت ٨٦٣هـ » الذى كان متوليًا وكالة بيت المال بحلب[١٢] .

---

(١) المقريزى « السلوك » ح ٤ ص ٦٧٣، العينى « عقد الجمان » ص ٢٤٠، ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٧ ص ٦٧، ح ٨ ص ٦٢، ابن طولون « قضاة دمشق » ص ٢٠٩.

(٢) ولى الدين السفطى : محمد بن أحمد ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء الشافعية بمصر ، ونظر البيمارستان المنصورى ، توفى ٨٥٤هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٧ ص ١١٩.

(٣) ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٥ ص ١٣٠، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٧ ص ١١٩، ابن إياس « بدائع الزهور » ح ٢ ص ٢٠٤.

(٤) شرف الدين الأنصارى : موسى بن على ، تفقه بشيوخ عصره ، تولى وكالة بيت المال ونظر الجيش بمصر ، توفى ٨٨١هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ١٠ ص ١٨٥.

(٥) جقمق : سبق التعريف به بالفصل الأول ، انظر : ص ١١ .

(٦) قايتباى : سبق التعريف به بالفصل الأول ، انظر : ص ٢٢ .

(٧) ابن الصيرفى « إنباء الهصر » ص ٥، ابن إياس « بدائع الزهور » ص ١٢٠، السخاوى « الضوء اللامع » ح ١٠ ص ١٨٥.

(٨) علاء الدين بن مفلح : على بن أبى بكر ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء الحنابلة بحلب ، وكتابة سر دمشق ، توفى ٨٨١هـ ، انظر : ابن الحمصى « حوادث الزمان » ح ١ ص ٢١٠، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٥ ص ١٩٨.

(٩) ابن الحمصى « حوادث الزمان » ح ١ ص ٢١٠، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٥ ص ١٩٨.

(١٠) صلاح الدين العدوى : محمد بن عبد الله ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء الشافعية بدمشق ، توفى ٩٠٨هـ ، انظر : ابن طولون « قضاة دمشق » ص ١٧٩.

(١١) ابن طولون « قضاة دمشق » ص ١٧٩.

(١٢) أبو بكر النصيبى : أبو بكر بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، درس بحلب ، وناب فى قضاءها على المذهب الشافعى ، توفى ٨٦٣هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ١١ ص ٨٧.

(١٣) السخاوى « الضوء اللامع » ح ١١ ص ٨٧، ابن الطباخ « إعلام النبلاء » ح ٥ ص ٢٦٠.

٤ ـ نظر البيمارستان[*] :

اهتمت السلطة المملوكية بإنشاء البيمارستانات وأوقفت عليها الأوقاف الضخمة لمداوة المرضى ورعايتهم، فلقد شيد السلطان المنصور قلاوون[١] عام ٦٨٣هـ بيمارستان ضخم وأوقف عليه الأوقاف الكثيرة كما تشهد بذلك وثائق وقف البيمارستان التى وصلت إلينا[٢]، وكان ريع تلك الأوقاف مرصودًا على الخدمات التى تقدم للمرضى بالبيمارستان من توفير الأدوية على اختلاف أنواعها وتوفير الغذاء المناسب والكسوة المناسبة ... إلخ[٣]، وظلت السلطة المملوكية فى القرن التاسع تهتم بذلك البيمارستان، حيث بلغ عوائد أوقاف البيمارستان المنصورى عام ٨٥١هـ أربعة عشر ألف دينار[٤]، وكذلك شيد السلطان شيخ[٥] عام ٨٢١هـ البيمارستان المؤيدى، ولكن هذا البيمارستان أُغلق عقب وفاة السلطان شيخ عام ٨٢٤هـ، وذلك لقلة ما خصصه له السلطان من أوقاف[٦]، وظل البيمارستان المنصورى هو البيمارستان الرئيسى الذى كان يوفر الخدمات العلاجية للمصريين.

(*) **البيمارستان :** كلمة فارسية مركبة من « بيمار » بمعنى مريض، و « ستان » بمعنى محل، وتعنى المستشفى، ويقال ـ أيضًا ـ مارستان، انظر : ابن الحنبلى «محمد بن إبراهيم ت ٩٧١هـ» «بحر العوام فيما أصاب فيه العوام» ص ٩، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٥١٤٧٦)، آدى شير « الألفاظ الفارسية المعربة » ص ٣٣، دار العرب، القاهرة، ١٩٨٨م.

(١) المنصور قلاوون : سيف الدين قلاوون تولى كرسى السلطنة عام ٦٧٨هـ/١٢٧٩م، وظل فى كرسى الحكم حتى وفاته ٦٨٩هـ/١٢٩٠م، انظر : ابن شاهين « نزهة الأساطين » ص ٧٩، المقريزى « السلوك » ح ١ ص ٧٥٥.

(٢) « وثيقة وقف السلطان قلاوون على البيمارستان المنصورى » برقم (٢/١٥) محكمة الأحوال الشخصية » نشر وتحقيق د. محمد محمد أمين، ص ٣٣٨ ـ ٣٥٨، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٧م.

(٣) النويرى « شهاب الدين أحمد « ت ٧٣٣هـ » » « نهاية الأرب فى فنون الأدب » ح ٣١ ص ١٠٦، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، د. محمد محمد أمين « وثيقة وقف السلطان قلاوون » ص ٣٦٣ ـ ٣٦٥.

(٤) السخاوى « التبر المسبوك » ص ١٨٧.

(٥) شيخ : سبق التعريف به بالفصل الأول، انظر : ص ٣٧.

(٦) سعاد حسن « الطب والرعاية الصحية فى مصر المملوكية » ص ٦٤، ماجستير، آداب عين شمس، ١٩٩٩م.

أمّا بيمارستانات بلاد الشام ، فتذكر المصادر التاريخية البيمارستان النورى[1] الذى ظل يقدم خدماته العلاجية لأهالى دمشق فى القرن التاسع ، حيث ذكر المؤرخ ابن شاهين[2] أنه دخل دمشق عام ٨٣١هـ/١٤٢٧م ووجد فى البيمارستان النورى من « المآكل والتحف واللطائف التى لا تحصى والأطعمة الحسنة والدجاج المسمنة والحلوى والأشربة والفواكة المتنوعة »[3] .

ومن بيمارستانات دمشق الهامة ـ أيضًا ـ التى ظلت تقدم خدماتها العلاجية لأهالى دمشق فى القرن التاسع البيمارستان القَيْمَرى ـ الذى أنشأه الأمير سيف الدين أبو الحسن[4] ـ .

وعن بيمارستانات حلب ، تذكر المصادر التاريخية البيمارستان الذى أنشأه نائب حلب أرغون الكاملى[5] بحلب عام ٧٥٥هـ ، وأنه رصد عليه الأوقاف الكثيرة[6] .

ولقد ذكر المؤرخون أن نظر البيمارستان من الولايات الدينية التى أسندتها السلطة المملوكية للعلماء[7] ، وكان ناظر البيمارستان هو المسؤول عن عمارة أوقاف البيمارستان من

---

(١) **البيمارستان النورى :** أسسه السلطان نور الدين زنكى « ت ٥٦٩هـ » عام ٥٤٩هـ ، وهو أول بيمارستان عظيم بدمشق ، وأوقفه السلطان على المرضى الفقراء دون الأغنياء ، ولكنه استثنى بعض الأدوية التى لا توجد إلا فيه ، فمكّن الأغنياء من أخذها إذا احتاجوا إليها ، ولم يجدوها فى مكان آخر ، وظل هذا البيمارستان يعالج المرضى حتى عام ١٣١٧هـ ، انظر : د. صلاح الدين المند « بيمارستان نور الدين » ص ١٣، دمشق ، ١٩٤٦م .

(٢) ابن شاهين : خليل بن شاهين ، تفقه على شيوخ عصره ، له مصنفات عديدة فى الفقه والتفسير والتاريخ ، توفى ٨٧٣هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٣ ص ١٩٧.

(٣) ابن شاهين « زبدة كشف الممالك » ص ٤٥.

(٤) د. أحمد عيسى « تاريخ البيمارستانات فى الإسلام » ص ٢٣٥، مطبوعات جمعية التمدن الإسلامى ، دمشق ، ١٣٥٧هـ/١٩٣٩م .

(٥) أرغون الكاملى : الأمير سيف الدين ، تولى نيابة حلب عام ٧٥٠هـ ، باشر بمهابة ، توفى ٧٥٨هـ ، انظر : المقريزى « المقفى » ح ٢ ص ٢٧.

(٦) ابن العجمى « كنوز الذهب » ح ١ ص ٤٤٨.

(٧) الخالدى « المقصد الرفيع » ص ١٣٣، ابن شاهين « زبدة كشف الممالك » ص ١١٥، ابن كنان « حدائق الياسمين » ص ١٦٣.

إصلاح وترميم، وتحصيل ريع الوقف وصرف الريع على ما تدعو حاجة المرضى إليه من دواء وغذاء مناسب وكسوة ونحو ذلك[1].

ومن أشهر علماء مصر الذين تولوا نظر البيمارستان المنصورى، وأثنى المؤرخون على مباشرتهم لتلك الولاية ولى الدين السفطى[2] «ت ٨٥٤هـ»[3]، وعبد الباسط بن شاكر[4] «ت ٨٨٩هـ»[5]، أما أشهر علماء دمشق الذين تولوا نظر البيمارستان النورى، وأثنى المؤرخون على مباشرتهم لتلك الولاية الشهاب أبو نعيم العامرى[6] «ت ٨٢٢هـ»[7]، وجمال الدين الباعونى[8] «ت ٨٨٠هـ»[10].

٥ ـ نظر الجوالى[*]:

هى من الولايات الدينية التى تولاها العلماء فى العصر المملوكى، وموضوعها التحدث

---

(١) القلقشندى «صبح الأعشى» ح ١١ ص ٢٦٩، د. محمد محمد أمين «وثيقة وقف السلطان قلاوون» ص ٣٦٣ وما بعدها.

(٢) ولى الدين السفطى: انظر: ص ١٢٨.

(٣) ابن شاهين «الروض الباسم» ص ٣١١، السخاوى «الضوء اللامع» ح ٧ ص ١١٩.

(٤) عبد الباسط بن شاكر: تفقه على شيوخ عصره، تولى نظر البيمارستان المنصورى، كانت سيرته حسنة، توفى ٨٨٩هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ٤ ص ٢٨.

(٥) السخاوى «الضوء اللامع» ح ٤ ص ٢٨.

(٦) الشهاب أبو نعيم العامرى: أحمد بن عبد الله، تفقه على شيوخ عصره، ولى قضاء دمشق، وإفتاء دار العدل بها، توفى ٨٢٢هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ١ ص ٣٥٦.

(٧) السخاوى «الضوء اللامع» ح ١ ص ٣٥٦، البصروى «تاريخ البصروى» ص ٤١.

(٨) جمال الدين الباعونى: يوسف بن أحمد، تفقه على شيوخ عصره، تولى قضاء دمشق عام ٨٤٧هـ، توفى ٨٨٠هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ١٠ ص ٢٩٩.

(١٠) ابن طولون «قضاة دمشق» ص ٢٦٣، السخاوى «الضوء اللامع» ح ١٠ ص ٢٩٩.

(*) **الجوالى**: جمع جالية وهم أهل الذمة، لأن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب أجلاهم عن جزيرة العرب، ثم لزم هذا الاسم كل من لزمته الجزية من أهل الذمة، ثم أُطلق هذا المصطلح على الجزية التى كانت الدولة الإسلامية تُحصلها منهم، انظر: حبيب زيّات «الجوالى» ص ١، مجلة المشرق، السنة ٤١، عام ١٩٤٧م.

على الجزية[١] واستخراجها من أهل الذمة[٢]، [٣] وكان ناظر الجوالى يقوم بتحصيل الجزية، حيث يقوم هذا الناظر بإعداد كشوف بأسماء أهل الذمة فى سجلات لديه، فإذا أُخذت الجزية من أحدهم كتب بها «إيصال» وشطب اسمه من سجلات ذلك العام[٤].

وكان على رئيس كل طائفة من أهل الذمة أن يكتب سنويًا إلى ناظر الجوالى قوائم عُرفت باسم «الرقاع» تضم كافة أسماء أبناء الطائفة المقيمين فى البلاد، وقد عُرِف المقيمون من أهل الذمة الذين تضمهم تلك الرقاع فى مصطلح المماليك باسم «الرواتب»، أما الوافدون فكانوا يضافون فى قوائم خاصة «رقاع» تحت اسم «الطوارئ»، وكانت هذه الرقاع تضم أيضًا أسماء الصبية الذين لم يبلغوا الحلم من النصارى واليهود تحت اسم «النوابت»[٥].

وكانت هذه الجزية تُجبى فى بداية شهر محرم[*] من كل سنة، ثم صارت تستخرج فى

---

(١) **الجزية**: مبلغ من المال يُفرض على رؤوس من دخل فى ذمة المسلمين من أهل الكتاب، وهى ثابتة بالنص القرآنى، وتتفاوت مقدارها وفقًا لمقدار ثروة من يدفعها، واتفق الفقهاء على أن يُعفى منها الفقراء والمساكين والنساء والأطفال والشيوخ وذوى العاهات والرهبان المنقطعين للعبادة إذا كانوا من الفقراء، انظر: د. البيومى إسماعيل «النظم المالية فى مصر والشام زمن سلاطين المماليك» ص ١٦٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب، «سلسلة تاريخ المصريين» رقم (١١٨)، ١٩٩٧م، د. محمد أمين «النظم المالى والاقتصادى فى الإسلام» ص ٢٦، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، د. أحمد عبد الرازق «الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى» ص ١٤١، دار الفكر العربى، ط٤ (٢٠٠١م).

(٢) **الذِمة**: لا يعنى ذلك المصطلح انتقاص من قدر أهل الكتاب، حيث أن معناه لغة واصطلاحًا فى شرعنا الإسلامى تدور حول معانى العهد والأمان والكفالة والضمان والحق والحرمة، انظر: أحمد محمود «أحكام الذمة بين الفقه الإسلامى والقانون الوضعى» ص ٢٧، دكتوراة، دار علوم، القاهرة، ٢٠٠١م، عبد التواب عبد السلام «الوثائق العربية الخاصة فى مكتبة دير سانت كاترين» ص ٦٩، ٧٠، ماجستير، آداب القاهرة، ١٩٨١م.

(٣) القلقشندى «صبح الأعشى» ح ٣ ص ٤٥٨، ابن كنان «حدائق الياسمين» ص ١٦٠، النويرى «نهاية الأرب» ح ٨ ص ٢٤١.

(٤) المقريزى «الخطط» ح ١ ص ١٠٢.

(٥) النويرى «نهاية الأرب» ح ٨ ص ٢٤٢ - ٢٤٣، دار الكتب المصرية، (١٣٥٠هـ/١٩٣١م).

(*) ذكر الإمام أبو حنيفة النعمان أن الوقت الذى تُجبى فيه الجزية أول الحول، وقال الإمام الشافعى والإمام أحمد بأن الوقت الذى تُجبى فيه الجزية آخر الحول، انظر: ابن قيم الجوزية «أحكام أهل الذمة» ح ١ ص ٤٦،=

شهر ذى الحجة ، ثم أصبحت أخيرًا تستخرج فى شهر رمضان[(١)] .

ويذكر القلقشندى « ت ٨٢١هـ » أن أعلى قيمة للجزية فى القرن التاسع ٢٥درهم وأدنى قيمة لها ١٠دراهم[(٢)] ، ويذكر ابن حجر العسقلانى « ت ٨٥٢هـ » مقدار الجزية عام ٨١٥هـ/١٤١٢م بواقع أربعة دنانير على الغنى ، ودينارين لمتوسط الحال ، ودينار لمن هو دون المتوسط[(٣)] .

وكانت حصيلة الجزية يُحمل جزء منها إلى بيت المال ، ويوزع الباقى رواتب للقضاة وأهل العلم[(٤)] .

ومن أشهر علماء مصر الذين تولو نظر الجوالى بها صدر الدين العجمى[(٥)] « ت ٨٣٣هـ »[(٦)] ، وفتح الدين المخزومى[(٧)] « ت ٨٤٧هـ »[(٨)] ، وشرف الدين الأنصارى[(٩)] « ت ٨٨١هـ »[(١٠)] .

ومن أشهر علماء دمشق الذين تولو نظر الجوالى بها قطب الدين الخيضرى[(١١)]

=تحقيق طه عبد الرءوف سعد ، دار ابن خلدون ، الإسكندرية ، ط١ (١٤١٥هـ/١٩٩٥م) .

(١) القلقشندى « صبح الأعشى » ح٣ ص ٤٥٨، ابن حجر «إنباء الغمر» ح٧ ص ٣٧، المقريزى « السلوك » ح ٤ ص ٢٤٧.

(٢) القلقشندى « صبح الأعشى » ح٣ ص ٤٥٨.

(٣) ابن حجر «إنباء الغمر » ح٧ ص ٣٧.

(٤) القلقشندى « صبح الأعشى » ح٣ ص ٤٥٨، ابن كنان « حدائق الياسمين» ص ١٦٠.

(٥) صدر الدين العجمى : انظر ص ١٢٣.

(٦) السخاوى «الضوء اللامع » ح ٢ ص ٢٢٣، ابن حجر «إنباء الغمر » ح ٨ ص ٢٠٨.

(٧) فتح الدين المخزومى : محمد بن أبى بكر ، تفقه على شيوخ عصره ، درس وأفتى ، توفى ٨٤٧هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٧ ص ١٥٩.

(٨) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٧ ص ١٥٩.

(٩) شرف الدين الأنصارى : انظر : ص ١٢٨.

(١٠) ابن تغرى « حوادث الدهور » ص ٢٩٨، السخاوى « الضوء اللامع » ح ١٠ ص ١٨٥.

(١١) قطب الدين الخيضرى : محمد بن محمد بن عبد الله ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء الشافعية بدمشق ووكالة بيت المال بها ، توفى ٨٩٤هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٩ ص ١٢١، ابن طولون « قضاة دمشق » ص ١٧٨.

« ت ٨٩٤هـ »[١] ، ومن علماء حلب أبو الفضل ابن الشحنة[٢] « ت ٨٦٥هـ »[٣] .

٦ ـ قضاء العسكر :

هى من الولايات الدينية فى العصر المملوكى التى تولاها العلماء من قبل السلطة المملوكية ، وكان يمثل تلك الولاية ثلاثة قضاة على المذهب الشافعى والحنفى والمالكى دون الحنبلى[*] ، وكان هؤلاء القضاة يجلسون بدار العدل[٤] ، عند جلوس السلطان للنظر فى المظالم[٥] ، فإذا رُفع السلطان قضايا تتعلق بالعسكر تحدث السلطان مع قضاة العسكر ، وكان هؤلاء القضاة أيضًا يصحبون الجيش فى حملاته العسكرية لفصل النزاعات التى قد

---

(١) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٩ ص ١٢١.

(٢) أبو الفضل ابن الشحنة : محمود بن إبراهيم ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء الحنفية بحلب ، درس وأفتى ، توفى ٨٦٥هـ ، انظر : ابن العجمى « كنوز الذهب » ح ٢ ص ٢٠٩.

(٣) ابن العجمى « كنوز الذهب » ح ٢ ص ٢٠٩.

(*) لعل ذلك يرجع لقلة نفوذ المذهب الحنبلى فى العصر المملوكى ، فلقد كان المذهب الشافعى هو المذهب الرسمى للدولة ، يليه المذهب الحنفى فى المرتبة حيث كان المماليك ـ فى غالبيتهم على المذهب الحنفى ، ثم المذهب المالكى الذى كان أول مذاهب السنّة التى انتشرت بين المصريين إلا أن مذهب الشافعى طغى عليه ، أما المذهب الحنبلى فلقد كان نفوذه الرئيسى فى العراق وعندما سقطت العراق على أيدى المغول انتقل إلى مصر محتلًا المرتبة الأخيرة من حيث تأثيره ونفوذه فى العصر المملوكى ، انظر : د. عصام شبارو « قاضى القضاة فى الإسلام » ص ٣٩، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٩٢م ، د. عبد المنعم ماجد « نظم دولة المماليك » ص ٩٤.

(٤) **دار العدل** : أول من بنى دار العدل ـ النظر فى المظالم ـ من الملوك السلطان العادل نور الدين محمود بن زَنْكى بدمشق ، ثم لما أفضت السلطة فى مصر للملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بنى دارًا للنظر فى المظالم وسُميت بـ« دار العدل » ، وكان يجلس بها يومى الأثنين والخميس لإظهار العدل ، ولمّا جاء المماليك بنى السلطان الظاهر بيبرس عام ٦٦١هـ دار تحت قلعة الجبل وسماها « دار العدل » وصار يجلس فيها للنظر فى المظالم وتابعه سلاطين المماليك من بعده فى ذلك ، انظر : المقريزى « المواعظ والاعتبار » ح ٣ ص ٦٥٥ ـ ٦٦٦، د. رفيق العجم « موسوعة مصطلحات علم التاريخ العربى والإسلامى » ص ٣٢٠، مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت ، ط ١ (٢٠٠٠م) .

(٥) النظر فى المظالم : انظر : ص ١٢٠.

تنشب بين الجنود، والإشراف على تقسيم الغنائم عند الانتصار حسب تعاليم الإسلام[(١)].

ومن أشهر علماء مصر الذين تولو قضاء العسكر بها شرف الدين التبانى[(٢)] «ت ٨٢٧هـ»[(٣)]، والشرف محمد البغدادى[(٤)] «ت ٨٥٤هـ»[(٥)].

أمّا أشهر علماء دمشق الذين تولو قضاء العسكر بها تاج الدين ابن الزهرى[(٦)] «ت ٨٢٤هـ»[(٧)]، وتقى الدين الكرمانى[(٨)] «ت ٨٣٣هـ»[(٩)].

وأشهر علماء حلب الذين تولو قضاء العسكر بها برهان الدين الحلبى[(١٠)] «ت ٨٤٧هـ»[(١١)].

---

(١) الطرسوسى «نجم الدين أبو إسحاق ت ٧٥٨هـ» «تحفة النزل فيما يجب أن يعمل فى الملك» ص ١٨، مخطوطة بمعهد المخطوطات برقم ٨٤ سياسة واجتماع، القلقشندى «صبح الأعشى» ح ٤ ص ٣٦، العمرى «التعريف بالمصطلح» ص ١٢٣، ١٢٤، ابن كنان «حدائق الياسمين» ص ١٤٣، ابن الطباخ «إعلام النبلاء» ح ٥ ص ٢٧٧، د. سعيد عاشور «مصر فى عصر دولة المماليك البحرية» ص ١٥٥، د. عبد المنعم ماجد «نظم دولة المماليك» ص ٩٧، ١٦٠.

(٢) شرف الدين التبانى: انظر: ص ١٢٣.

(٣) ابن حجر «إنباء الغمر» ح ٧ ص ٧٢.

(٤) الشرف محمد: محمد بن محمد بن عبد المنعم البغدادى، تفقه على شيوخ عصره، تولى إفتاء دار العدل بمصر وقضاء العسكر بها، توفى ٨٥٤هـ، انظر: السخاوى «وجيز الكلام» ح ٢ ص ٦٥٣.

(٥) السخاوى «وجيز الكلام» ح ٢ ص ٦٥٣.

(٦) تاج الدين ابن الزهرى: عبد الوهاب بن صالح، تولى قضاء الشافعية بدمشق، درس وأفتى، توفى ٨٢٤هـ، انظر: ابن شهبة «طبقات الشافعية» ح ٢ ص ٣٢٠.

(٧) ابن شهبة «طبقات الشافعية» ح ٢ ص ٣٢٠.

(٨) تقى الدين الكرمانى: يحيى بن محمد، تفقه على شيوخ عصره، تولى نظر البيمارستان المنصورى، توفى ٨٣٣هـ، انظر: المقريزى «العقود الفريدة» ح ٣ ص ٥٢١، ابن حجر «إنباء الغمر» ح ٨ ص ٢٢٥، السخاوى «وجيز الكلام» ح ٢ ص ٥٠٩.

(٩) ابن حجر «إنباء الغمر» ح ٥ ص ١٩.

(١٠) برهان الدين الحلبى: إبراهيم بن على، تفقه على شيوخ عصره، تولى قضاء العسكر بحلب، توفى ٨٤٧هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ١ ص ٩٩.

(١١) السخاوى «الضوء اللامع» ح ١ ص ٩٩، ابن الطباخ «إعلام النبلاء» ح ٥ ص ٢٢٧.

٧ ـ إفتاء دار العدل[*]:

هى من الولايات الدينية التى تولاها العلماء من قبل السلطة المملوكية، ويذكر المؤرخون أن موضوع تلك الولاية هو موضوع ولاية قضاء العسكر ذاتها، ويمثلها أربعة علماء يمثلون المذاهب الفقهية الأربعة « الشافعى ـ الحنفى ـ المالكى ـ الحنبلى »[١].

ومن أشهر علماء مصر الذين تولو إفتاء دار العدل بها ابن داود[٢] المصرى « ت ٨٠٧هـ »[٣]، وابن حجر العسقلانى[٤] « ت ٨٥٢هـ »[٥]، وأحمد الأسيوطى[٦] « ت ٨٩١هـ »[٧].

ومن أشهر علماء دمشق الذين تولو إفتاء دار العدل بها تقى الدين الكرمانى[٨] « ت ٨٣٣هـ »[٩]، وابن قاضى شهبة[١٠] « ت ٨٧٤هـ »[١١].

(*) دار العدل: انظر: ص ١٣٤.

(١) القلقشندى « صبح الأعشى » ح ٤ ص ٣٦، ابن شاهين « زبدة كشف الممالك » ص ١١٥، ابن كنان « حدائق الياسمين » ص ١٤٣، الخالدى « المقصد الرفيع » ص ١٣١.

(٢) ابن داود المصرى: عبد المنعم البغدادى، تفقه على شيوخ عصره، درس بالجامع الأزهر، وأفتى، وانتهت إليه رئاسة مذهب الحنابلة بمصر، توفى ٨٠٧هـ، انظر: ابن مفلح « المقصد الأرشد » ح ٢ ص ١٣٨.

(٣) ابن مفلح « المقصد الأرشد » ح ٢ ص ١٣٨.

(٤) ابن حجر العسقلانى: انظر: ص ١١٣.

(٥) ابن حجر العسقلانى « إنباء الغمر » ح ٧ ص ١٧٠.

(٦) أحمد الأسيوطى: أحمد بن أحمد الأسيوطى، تفقه على شيوخ عصره، ولى قضاء الشافعية بمصر، توفى ٨٩١هـ، انظر: السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ٢١٠.

(٧) السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ٢١٠.

(٨) تقى الدين الكرمانى: انظر: ص ١٣٥.

(٩) ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٥ ص ١٩.

(١٠) ابن قاضى شهبة: محمد بن أبى بكر، تفقه على شيوخ عصره، درس وأفتى بدمشق، وتولى إفتاء دار العدل بها، توفى ٨٧٤هـ، انظر: ابن طولون « قضاة دمشق » ص ١٦٩، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٧ ص ١٥٥.

(١١) ابن طولون « قضاة دمشق » ص ١٦٩.

ومن أشهر علماء حلب الذين تولو إفتاء دار العدل بها ابن النصيبى[١] « ت ٨٦٣هـ »[٢] .

٨ ـ التدريس :

أنشأت السلطة المملوكية المؤسسات العلمية وأوقفت عليها الأوقاف الكثيرة[٣]، ولقد تنوعت تلك المؤسسات فى العصر المملوكى، حيث لم تقتصر على المدارس[٤] فقط بل شملت الجوامع كذلك كجامع ابن طولون[٥] والجامع

---

(١) ابن النصيبى : انظر : ص ١٢٨.

(٢) السخاوى « الضوء اللامع » ح ١١ ص ٨٧، ابن الطباخ « إعلام النبلاء » ح ٥ ص ٢٦٠.

(٣) أرثر بروستين « حجة الملك الأشرف قايتباى » ص ٣، ٦٩، لندن، ١٩٣٨م، د. حسنى نويصر « مدرسة جركسية على نمط المساجد الجامعة : مدرسة الأمير سودون بن زاده بسوق السلاح » ص ٧٠، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، ١٩٨٥م، محمود على « نيابة غزة فى العهد المملوكى » ص ٢٢٨، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١ (١٩٨٦م)، سليمان إسحاق « تاريخ التعليم فى فلسطين على عهد سلاطين المماليك » ص ٩، دكتوراة، آداب القاهرة، ١٩٥٧م، عبد الغنى محمود « التعليم فى مصر زمن الأيوبيين والمماليك » ص ١٢٠، ماجستير، آداب القاهرة، ١٩٧٥م.

(٤) **المدرسة :** كان العرب والمسلمون يطلقون على مكان دراسة العلوم « دار العلم »، وكانت مدينة نيسابور أول مدينة إسلامية أطلقت كلمة مدرسة على دار العلم، وكان ذلك فى القرن الرابع الهجرى فى عهد محمود الغزنوى، أى أن الشيعة هم أول من أطلق على دور العلم اسم المدرسة، وكان الغرض من إنشاءها نشر المذهب الشيعى، انظر : د. أحمد رمضان « الإيجازات والتوقيعات المخطوطة فى العلوم النقلية والعقلية من القرن ٤هـ إلى ١٠هـ » ص ٥، هيئة الآثار المصرية « مشروع المائة كتاب » رقم (٤) ١٩٨٦م، د. أحمد رمضان « المدارس والمذهب الشافعى » ص ٢، مقال بمجلة كلية الآثار، جامعة القاهرة، العدد (٥) عام ١٩٩١م.

(٥) **جامع ابن طولون :** يقع شرقى حىّ السيدة زينب جنوبى القاهرة، فى موقع مدينة القطائع التى أنشأها أحمد بن طولون، وشرع أحمد بن طولون فى بناءه ٢٦٣هـ، وأتم بناءه ٢٦٥هـ، وكان هذا الجامع فى العصر المملوكى شهيرًا بدروس التفسير والحديث والفقه ونحو ذلك، انظر د. كرم حلمى « المسجد ودوره الحضارى فى ضوء مكانة جامع ابن طولون » ص ١٤٢، ١٤٨، بحث نشر ضمن أعمال ندوة اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة عام ٢٠٠٢م، وتم نشره فى كتاب بعنوان « الحضارة العربية الإسلامية فى العصور الوسطى »، دار عين للنشر، القاهرة، ٢٠٠٢م.

الأزهر[١] بمصر، والجامع الأموى[٢] بدمشق، كما شملت كذلك الخانقاوات[٣] كخانقاة ابن مزهر[٤] « ت ٨٩٣هـ » بمصر، والخانقاة الدويدارية[٥] بالقدس[٦] .

---

(١) **الجامع الأزهر:** أول مسجد أسس بالقاهرة والذى أنشأه القائد جوهر الصَّقْلى مَوْلى المعز لدين الله بن المنصور بن المهدى الفاطمى، لما اختط القاهرة، واكتمل بناؤه لتسع خلون من شهر رمضان سنة إحدى وستين وثلاث مائة، وكان منارة دينية وعلمية فى عهد المماليك، انظر: المقريزى « المواعظ والاعتبار » ح ٤ ص ٩٠ - ١٠٦.

(٢) **الجامع الأموى:** هو الجامع الذى أنشأه الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك عام ٨٩هـ، وكان قد انفق فى عمارته أموالًا طائلة، وكان هذا الجامع فى العصر المملوكى يدرس فيه فنون العلم من تفسير وحديث ونحو ذلك، انظر: ابن بطوطة « رحلة ابن بطوطة » ص ٩٤، د. محمد أحمد دهمان « مدارس دمشق وحماماتها » ص ٣٢٠، مقال بمجلة المجمع العلمى العربى، دمشق، عدد رمضان، ١٣٦٦هـ.

(٣) **الخانقاوات:** يذكر ابن بطوطة أن أصل الخانقاة هو الزاوية وجمعها خوانق، أمّا المقريزى « ت ٨٤٥هـ » فيقول أنها كلمة فارسية مفردها خَانْكَاة وجمعها خوانك، ومعناها بيت أو دار الصوفية، ثم كثر استعمالها على الألسنة، فقيل خانقاة - بالقاف - بدلًا من الكاف، والخوانك حدثت فى الإسلام فى حدود الأربع مائة من سنى الهجرة، وجُعلت لتتخلى الصوفية فيها لعبادة الله من الرجال والنساء على السواء، انظر: المقريزى « المواعظ والاعتبار » ح ٤ ص ٧٢٤، د. عاصم محمد « خانقاوات الصوفية فى مصر فى العصر الأيوبى والمملوكى » ص ٢١، مكتبة مدبولى، ط١ (١٩٩٧م)، د. نعمان الطيب « الخوانق » ص ٤١٤، مقال بمجلة كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، العدد (٧) عام ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

(٤) ابن مزهر: هو أبو بكر بن محمد، تفقه على شيوخ عصره، تولى كتابة السر بمصر، ونظر الجيش بها، وله منشآت عمرانية كثيرة بمصر والشام، منها المدرسة الخانقاة التى أنشأها بجوار بيته، وكانت تأوى الصوفية وتقوم بالتدريس فى ذات الوقت، توفى ٨٩٣هـ، انظر: ابن شاهين « المعجم المفنن » ص ٥٢، ٥٣، السخاوى « الضوء اللامع » ح ١١ ص ٨٨، السيوطى « نظم العقيان » ص ٩٧، السخاوى « وجيز الكلام » ح ٣ ص ١٠٤٢.

(٥) **الخانقاه الدويدارية:** أنشأها الأمير علم الدين أبو موسى سنجر بن عبد الله الدويدار الصالحى النجمى عام ٦٩٥هـ، وكانت خانقاة الدويدار تؤدى عملها العلمى فى العصر المملوكى، انظر: مجير الحنبلى « الأنس الجليل » ح ٢ ص ٣٩، د. على منصور « الحياة العلمية فى القدس » ص ٣٦.

(٦) د. عاصم محمد « خانقاوات الصوفية فى مصر فى العصر الأيوبى والمملوكى » ص ٦٩، ٧٠، عبد الغنى محمود « التعليم فى مصر زمن الأيوبيين والمماليك » ص ١٤٩، ١٦٨، د. أحمد حطيط « التعليم =

وكانت ولاية التدريس فى تلك المؤسسات العلمية من الولايات الدينية جليلة القدر، حيث كان السلاطين يتولون بأنفسهم اختيار المدرسين للمؤسات التعليمية الكبرى كجامع ابن طولون[(١)] الذى تولى التدريس به عز الدين العسقلانى[(٢)] « ت ٨٧٦هـ »، وشمس الدين الشطنوفى[(٣)] « ت ٨٣٢هـ »، والجامع الأموى[(٤)] بدمشق الذى تولى التدريس به شهاب الدين الحسبانى[(٥)] « ت ٨١٦هـ »، وابن الغزى[(٦)] « ت ٩٣٥هـ »[(٧)].

ولقد كانت العلوم الرئيسية التى تدرس فى تلك المؤسسات العلمية العلوم الدينية من فقه وتفسير وحديث[(*)] وغير ذلك[(٨)].

= بدمشق فى زمن المماليك » ص ٣٤٢، بحث بمجلة المشرق، بيروت، السنة (٧٥) عدد يوليو، ٢٠٠١م، د. أحمد رمضان « المدارس والمذهب الشافعى » ص ١٢.

(١) جامع ابن طولون: انظر: ص ١٣٧.

(٢) عز الدين العسقلانى: أحمد بن إبراهيم، تفقه على شيوخ عصره، تولى قضاء الحنابلة بمصر، ودرس بالجامع الطولونى، توفى ٨٧٦هـ، انظر: عبد الغنى محمود « التعليم فى مصر زمن الأيوبيين والمماليك » ص ١٨٨.

(٣) شمس الدين الشطنوفى: محمد بن إبراهيم، تفقه على شيوخ عصره، برع فى علم القراآت، وقام بالتدريس بالجامع الطولونى، توفى ٨٣٢هـ، انظر: المقريزى « درر العقود » ح ٣ ص ٢٣٠.

(٤) الجامع الأموى: انظر: ص ١٣٨.

(٥) شهاب الدين الحسبانى: أحمد بن حجى، تفقه على شيوخ عصره، انتهت إليه رئاسة العلم بدمشق، درس وأفتى، وتولى التدريس بالجامع الأموى بدمشق، توفى ٨١٦هـ، انظر: العينى « العقد الجمان » ص ١٨٦.

(٦) رضى الدين ابن الغزى: رضى الدين أبو الفضل، تفقه على شيوخ عصره، درس وأفتى، وتولى التدريس بالجامع الأموى بدمشق، توفى ٩٣٥هـ، انظر: ابن طولون « ذخائر القصر » ص ٤٨٤.

(٧) الخالدى « المقصد الرفيع » ص ١٣١، ابن كنان « حدائق الياسمين » ص ١٤٤، د. حسن الباشا « دراسة جديدة فى نشأة الطراز المعمارى للمدرسة المصرية » ص ٤٥، مجلة كلية الآثار، جامعة القاهرة، العدد (٣) عام ١٩٨٩م، د. أحمد حطيط « التعليم بدمشق فى زمن المماليك » ص ٣٦٧.

(*) وسيتناول الباحث ذلك الأمر بشىء من التفصيل بفصل « العلماء والحياة الفكرية ».

(٨) د. طه ثلجى « مملكة صفد فى عهد المماليك » ص ٢٦٧، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٢م، د. حسن الباشا « دراسة جديدة فى نشأة الطراز المعمارى للمدرسة المصرية » ص ٤٥، د. أحمد حطيط « التعليم بدمشق فى زمن المماليك » ص ٣٤٣.

٩ ـ الخطابة[*]:

هى من أجل الولايات الدينية، إذ يقوم صاحبها بمهمة إرشاد الناس وتعليمهم أمور دينهم، وكان يُشترط فى هذه الولاية أن يتصف القائم بها بالفصاحة والبلاغة، وأن يأتى من المواعظ بما يقرع الأسماع بالوعد والوعيد، ويُلين القلوب القاسية، وكانت الخطابة بالمساجد الكبرى بمصر والشام تُولى من قبل السلطان المملوكى كجامع ابن طولون[١] بمصر، والجامع الأموى[٢] بدمشق[٣].

ومن أشهر خطباء جامع ابن طولون، أبو هريرة بن النقاش[٤] «ت ٨١٩هـ»[٥]، وشمس الدين الحمصانى[٦] «ت ٨٩٧هـ»[٧]، أما أشهر خطباء الجامع الأموى بدمشق شهاب الدين

(*) **الخطابة**: هى فى الاصطلاح المقالة التى تُلقى على جمهور من السامعين فى أحد الأغراض العامة التى لهم فى الحديث عنها نفع، انظر: د. محمود رزق «النثر الفنى عصر المماليك» ص ٤٠٥، ماجستير، دار العلوم، القاهرة، ١٩٥٥م.

(١) جامع ابن طولون: انظر: ص ١٣٧.

(٢) الجامع الأموى: انظر ص ١٣٨.

(٣) العمرى «التعريف بالمصطلح» ص ١٢٦، القلقشندى «صبح الأعشى» ح ٤ ص ٣٩، ح ١١ ص ٩٠، ٩٧، ٢٢٣، ابن كنان «حدائق الياسمين» ص ١٥٧، العمرى «مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار» ح ١٣ ص ٣٢٦ ـ ٣٤١، معهد العلوم العربية والإسلامية، فى إطار جامعة فرانكفورت، ألمانيا، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

(٤) أبو هريرة بن النقاش: عبد الرحمن بن محمد، ولد ٧٤١هـ، تفقه على شيوخ عصره، ولى خطابة جامع ابن طولون، توفى ٨١٩هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ٤ ص ١٤١.

(٥) الغزى «بهجة الناظرين فى تراجم الشافعية المتأخرين» ص ١٢٦، ابن حجر «إنباء الغمر» ح ٧ ص ٢٣٢، ابن قاضى شهبة «طبقات الشافعية» ص ٢٧٠، السخاوى «الضوء اللامع» ح ٤ ص ١٤١، المقريزى «درر العقود الفريدة» ح ٢ ص ٢٤٣.

(٦) شمس الدين الحمصانى: محمد بن أبى بكر، تفقه على شيوخ عصره، تولى خطابة جامع ابن طولون، توفى ٨٩٧هـ، انظر: ابن إياس «بدائع الزهور» ص ٢٩٢.

(٧) ابن إياس «بدائع الزهور» ص ٢٩٢، السخاوى «الضوء اللامع» ح ٧ ص ١٩٠.

الحسبانى[1] « ت ٨١٦هـ »[2] ، وبرهان الدين الباعونى[3] « ت ٨٧٠هـ »[4] ، أما أشهر خطباء الجامع الأموى بحلب شمس الدين ابن الدقيق[5] « ت ٨٥٠هـ »[6] ، وابن الموازينى[7] « ت ٨٦٣هـ »[8] .

❁ ❁ ❁

(١) شهاب الدين الحسبانى : أحمد بن حجى ، تفقه على شيوخ عصره ، ولى خطابة الجامع الأموى بدمشق ، توفى ٨١٦هـ ، انظر : المقريزى « درر العقود » ح ١ ص ٣٦٨، ابن قاضى شهبة « طبقات الشافعية » ح ٢ ص ٢٥٨.

(٢) ابن قاضى شهبة « طبقات الشافعية » ح ٢ ص ٢٥٨، المقريزى « درر العقود » ح ١ ص ٣٦٨.

(٣) برهان الدين الباعونى : إبراهيم بن أحمد ، تفقه على شيوخ عصره ، ولى خطابة بيت المقدس والجامع الأموى بدمشق ، توفى ٨٧٠هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ٢٦.

(٤) المقريزى « درر العقود » ح ١ ص ٦٧، السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ٢٦.

(٥) شمس الدين ابن الدقيق : محمد بن عمر ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى خطابة الجامع الأموى بحلب ، توفى ٨٥٠هـ ، انظر : ابن العجمى « كنوز الذهب » ح ٢ ص ١٩٨.

(٦) ابن العجمى « كنوز الذهب » ح ٢ ص ١٩٨.

(٧) ابن الموازينى : علاء الدين بن شهاب الدين ، ناب فى قضاء حلب ، وتولى خطابة الجامع الأموى بها ، توفى ٨٦٣هـ ، انظر : ابن الحنبلى « در الحبب » ح ١ ص ٦٢٢.

(٨) ابن الحنبلى « درر الحبب » ح ١ ص ٦٢٢.

ثانيًا : الولايات الديوانية

لقد حصر المؤرخون الولايات الديوانية التى تولاها العلماء فى ظل السلطة المملوكية فى ولايتين رئيسيتين ، هما كتابة السر ، ونظر الجيش .

١ ـ كتابة السر :

هى من أرفع الولايات الديوانية التى تولاها العلماء فى العصر المملوكى [١] ، وهى نسبة لكاتب السر وهو رئيس ديوان الإنشاء ، ذلك الديوان الذى كان يُشرف على أربعة أمور رئيسية :

أولًا : النظر فى البريد [*] :

حيث كان كاتب السر هو المشرف على جهاز البريد الذى كان يربط مختلف أطراف الدولة المملوكية بعضها ببعض [٢] ، وكان البريد على نوعين ، برى وقوامه الخيل وله محطات مُتقاربة تزود البريديين وخيولهم بما يحتاجون إليه ، وكانت مهمة هؤلاء البريديين توصيل التعليمات من السلطان إلى النواب ، وحمل أخبار هؤلاء إلى السلطان [٣] ، أما البريد الجوى

---

(١) الخالدى « المقصد الرفيع » ص ١٢، ابن كنان « حدائق الياسمين » ص ١٦٧، المقريزى « المواعظ والاعتبار » ح ٣ ص ٧٣١.

(*) **البريد** : لغة هو مسافة معلومة قدرها اثنى عشر ميلًا ، ويُطلق أيضًا على الرسول بريد ، وظهر البريد فى الدولة الإسلامية فى عهد معاوية بن أبى سفيان ، وتم استكمال معالمه فى عهد عبد الملك بن مروان ، واستخدمت وسائل مختلفة لنقل البريد أهمها البغال والخيل والجمال ، وكذا الحمام الزاجل ، انظر : د. رفيق العجم « موسوعة مصطلحات علم التاريخ العربى والإسلامى » ص ٩٠، د. محمود حمدى زقزوق « الموسوعة الإسلامية العامة » ص ٢٨٢، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م ، أحمد عطية « القاموس الإسلامى » ح ١ ص ٣٠٩، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٣م .

(٢) الخالدى « المقصد الرفيع » ص ١٠١، القلقشندى « صبح الأعشى » ح ١ ص ١٤٨، ١٥٣، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، J. Sauvaget "La Poste Aux Chevaux Dans L'Empire Des Mamelouks" p. 44, Paris, 1941.

(٣) د. سعيد عاشور « مصر فى عصر دولة المماليك البحرية » ص ١٤٩.

فعماده الحمام الزاجل الذى كانت قلعة الجبل المركز الرئيسى لأبراجه وشيد لهذا الحمام أبراج على امتداد طرق البريد لتكون بمثابة محطات، ولهذه الأبراج موظفون مدربون[(١)] .

وكذلك كان لكاتب السر الإشراف على أمر العيون والجواسيس الذين كانت الدولة تبثهم بين أعداء الدولة لضمان وصول أخبارهم إليها باستمرار، فتأمن بذلك شرهم وغاراتهم، وكذلك كان هؤلاء العيون يُبثون حول نواب السلطنة فى سائر الولايات بمصر والشام لقمع أى تمرد أو عصيان من جانبهم فى مهده[(٢)] .

ثانيًا : كان كاتب السر هو المشرف على المكاتبات الرسمية التى ترد إلى السلطان من مختلف الدول وإعداد الردود عليها، فضلًا عن إعداد الرسائل التى يبعث بها السلطان إلى مختلف رؤساء الدول[(٣)] .

ثالثًا : كان كاتب السر هو المشرف على كتابة التوقيعات[(٤)] «مراسم التعيين» الخاصة بكافة الولايات[(٥)] ، ولم تكن هذه المهمة بالسهولة التى قد يتصورها البعض فى عصر مثل عصر المماليك الذى عُرِف برعاية قواعد «البروتوكول» والتمسك بهذه القواعد، فلكل مقام مقال ولكل موظف أو أمير وحاكم تقليد خاص حسب درجته ورتبته[(٦)] .

---

(١) د. سعيد عاشور «مصر فى عصر دولة المماليك» ص ١٤٩.

(٢) الخالدى «المقصد الرفيع» ص ١٠٢، القلقشندى «صبح الأعشى» ح ١ ص ١٥٩، ١٦٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، منى إبراهيم «السفارات الأجنبية فى مصر عصر سلاطين المماليك» ص ٢٣٢، ماجستير، آداب القاهرة، ١٩٧٥م، سند أحمد «البريد فى عصر المماليك» ص ٥٢، ٢٢٢، ماجستير، آداب عين شمس، ٢٠٠٠م.

(٣) الخالدى «المقصد الرفيع» ص ١٠١، العمرى «المسالك والممالك» ص ٦٠، المقريزى «المواعظ والاعتبار» ح ٣ ص ٧٣١، القلقشندى «صبح الأعشى» ح ١ ص ١٤٦.

(٤) **التوقيع** : هو قرار تعيين يصدر من السلطان، وهو بمصطلح العصر نسخة أمر أو تشريف خليفى أو ملكى أو أميرى برسم تعيين موظف أو ترتيب مستخدم فى إحدى وظائف الدولة الهامة، كالقضاء والحسبة ونحو ذلك، انظر د. أحمد رمضان «الإيجازات والتوقيعات» ص ٩.

(٥) الخالدى «المقصد الرفيع» ص ١٢، القلقشندى «صبح الأعشى» ح ١ ص ١٤٧.

(٦) د. سعيد عاشور «مصر فى عصر دولة المماليك» ص ١٤٦.

رابعًا : كان كاتب السر مسؤول عن قراءة القصص والتوقيع عليها ، والمقصود بالقصص المظالم التى تُرفع من المُتظلمين من أطراف البلاد ونواحيها للسلطان لكشف تلك المظالم عنهم ، وذلك عند جلوسه للنظر فيها بدار العدل[1] ، فيما عرف فى العصر المملوكى بـ « مجالس النظر فى المظالم »[2] ، وكان يسبق ذلك أن تُعرض هذه القصص « المظالم » على كاتب السر فيقرأها ويفحصها ويقدر أهميتها ثم يقوم بالتوقيع عليها إذا وجدها تستأهل العرض على السلطان ، وعندما يتم عقد مجلس النظر فى المظالم يقوم كاتب السر أو من ينوب عنه بقراءة تلك القصص ، ثم كتابة الحكم الصادر من السلطان فيها[3] .

ومن أشهر علماء مصر الذين تولو كتابة السر بها ناصر الدين البارزى[4] « ت ٨٢٣هـ » ، وكمال الدين البارزى[5] « ت ٨٦٥هـ »[6] ، ....

---

(١) دار العدل : انظر : ص ١٣٤.

(٢) كان مجلس النظر فى المظالم فى العصر المملوكى يتشكل برئاسة السلطان ويحضره كبار رجال الدولة ، حيث كان يحضره قاضى القضاة الشافعى والحنفى والمالكى والحنبلى ، وقضاة العسكر الثلاث « الشافعى ، الحنفى ، المالكى » ، ومفتو دار العدل الأربع » الشافعى ، الحنفى ، المالكى ، الحنبلى » ، وكاتب السر ، ووكيل بيت المال ، والمحتسب ، فضلًا على أكابر أمراء الدولة ، وكان هذا المجلس يعقد يومين فى الأسبوع هما الأثنين والخميس ، ثم أصبح فى عهد الجراكسة يوم السبت والثلاثاء ، ثم أضيف إليهما الجمعة ، انظر : المقريزى « المواعظ والاعتبار » ح ٣ ص ٦٦٦ ، د. عبد المنعم ماجد « نظم دولة المماليك » ص ١٠٦.

(٣) الخالدى « المقصد الرفيع » ص ١٠٨، القلقشندى « صبح الأعشى » ح ١ ص ١٤٥، ح ٦ ص ١٩٣ - ١٩٨، المقريزى « المواعظ والاعتبار » ح ٣ ص ٦٦٧، د. سعيد عاشور « مصر فى عصر دولة المماليك » ص ١٤٧، زينب محمد « التطور الدبلوماتى لمراسيم ديوان الإنشاء بديرسانت كاترين من القرن الخامس إلى القرن العاشر الميلادى » ص ٤٥، ٥٧، ماجستير ، آداب القاهرة ، ١٩٧٠م .

(٤) ناصر الدين البارزى : محمد بن محمد بن عثمان ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء حلب ، وحماة ، وكتابة السر بمصر ، توفى ٨٢٣هـ ، انظر : ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٣ ص ٢٩٨.

(٥) ابن قاضى شهبة « طبقات الشافعية » ح ٢ ص ٣٣٣، المقريزى « درر العقود » ح ٣ ص ١١٥، ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٣ ص ٢٩٨.

(٦) كمال الدين البارزى : انظر : ص ١١٠.

(٧) البقاعى « عنوان الزمان » ح ٤ ص ٦٨٣، ابن طولون « قضاة دمشق » ص ١٦٢، ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٥ ص ٢٩٠.

وابن مزهر[١] « ت ٨٩٣هـ »[٢] .

ومن أشهر علماء دمشق الذين تولو كتابة السر بها موفق الدين العباسى[٣] « ت ٨٩٣هـ »[٤] ، وقطب الدين الخيضرى[٥] « ت ٨٩٤هـ »[٦] .

ومن أشهر علماء حلب الذين تولو كتابة السر بها أبو بكر النصيبى[٧] « ت ٨٦٣هـ »[٨] ، وأبو الفضل ابن الشحنة[٩] « ت ٨٦٥هـ »[١٠] .

٢ ـ نظر الجيش :

هى من الولايات الدينية التى تولاها العلماء فى العصر المملوكى ، وكانت المهمة الرئيسية لناظر الجيش ـ رئيس ديوان الجيش ـ تسجيل أسماء « أرباب الإقطاع »[١١] على اختلاف

---

(١) ابن مزهر : انظر : ص ١٣٨.

(٢) ابن شاهين « المعجم المفنن » ص ٥٢، السخاوى « الضوء اللامع » ح ١١ ص ٨٨.

(٣) موفق الدين العباسى : عبد الرحمن بن أحمد ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى كتابة سر مصر ونظر جيشها ، توفى ٨٩٣هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٤ ص ٤٩.

(٤) ابن مكى « السحب الوابلة » ح ٢ ص ٤٧٣، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٤ ص ٤٩، ابن الحمصى « حوادث الزمان » ح ١ ص ٣٠٠.

(٥) قطب الدين الخيضرى : انظر : ص ١٣٣.

(٦) ابن طولون « قضاة دمشق » ص ١٧٨، ابن الحمصى « حوادث الزمان » ح ١ ص ١٨٣، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٩ ص ١٢١.

(٧) أبو بكر النصيبى : انظر : ص ١٢٨.

(٨) السخاوى « الضوء اللامع » ح ١١ ص ٨٧.

(٩) أبو الفضل ابن الشحنة : محمود بن إبراهيم ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء الحنفية بحلب ، درس وأفتى ، توفى ٨٦٥هـ ، انظر : ابن العجمى « كنوز الذهب » ح ٢ ص ٢٠٩.

(١٠) ابن العجمى « كنوز الذهب » ح ٢ ص ٢٠٩.

(١١) جرى تقسيم الأراضى التى تخضع للتوزيع الإقطاعى بنسب محددة بين السلطان والأمراء والأجناد ، وذلك طبقًا لنظام النسبة الذى كان سائدًا فى ذلك العصر ، والذى يقوم على أساس أن كل وحدة كاملة تعدل ٢٤ قيراط وإلى هذه الوحدة الكاملة أى ٢٤ قيراط ينسب أى توزيع ـ يمثل ذلك فى العصر =

طبقاتهم وعدد الجند التابعين لكل مقطع داخل إقطاعه وأمام اسم كل مقطع عبرة[(١)] إقطاعه رمزًا لا تصريحًا من باب الحذر والسرية ، وكان كل ذلك يكتب ويوضح فى جريدة تسمى جريدة الإقطاع التى خُصص لها موظفون يقوموم بتسجيل إقطاعات كل إقليم وما به من ضياع ومعالم وخصائص والعبرة المالية لكل إقليم ، وقيمة المُتحصل منه وانتقالات الإقطاع من شخص لآخر وتوضيح أسباب ذلك وتقدير مقدار الإقطاع بالدنانير الجيشية[(*)(٢)] .

كما كان ناظر الجيش هو المسؤول عن صرف الرواتب الجارية فى كل يوم أو كل سنة من اللحم والتوابل والخبز والشعير والزيت والشمع والسكر ، وكانت هذه الرواتب يمنحها السلطان للأمراء والمماليك على سبيل النفقة وليس لها علاقة بما يُمنحونه من إقطاع[(٣)] .

= الحديث النسبة المئوية ، بمعنى أنه إذا كانت النسبة ١٢ قيراط من ٢٤ فإنها تعدل ٥٠٪ وهكذا ـ ، وعلى هذا الأساس جرى نظام توزيع الإقطاعات ، فالأراضى المخصصة للإقطاع كانت تعتبر وحدة واحدة تعادل قيراطًا ، اختص السلطان منها بأربعة قراريط ، على حين أفرد عشرة قراريط للأمراء والمنح والزيادات ، أما العشرة الباقية فهى للتوزيع بين الأجناد ، ثم جرى تعديل فى ذلك النظام عهد الناصر محمد بن قلاوون « ت ٧٤١هـ » ، حيث اختص السلطان وخاصته بعشرة قراريط ، والأربعة عشر الباقية لجميع الجيش من أمراء وأجناد ، انظر د. محمد محمد أمين « منشور بمنح إقطاع من عصر السلطان الغورى » ص ١، مجلة Annales Islamologiques، عدد (XIX)، 1983.

(١) **العبرة** : اصطلاح مالى قديم ، يعنى مقدار المربوط من الخراج أو الأموال على كل إقطاع من الأرض وما يُجبى عن كل قرية من عين أو غلة ، انظر د. البيومى إسماعيل « النظم المالية » ص ١٠٥.

(*) **الدنانير الجيشية** : الدينار الجيشى : نقد فرضى قديم يبلغ زمن الروك الناصرى ، عشرة دراهم إلى عشرة دراهم ، وهو يدل على ما يتحمل من خراج البلاد الداخلة فى الإقطاع الخاص بالجيش ، انظر : د. السيد الباز « الفروسية فى مصر فى عصر سلاطين المماليك » ص ١٥٥، دكتوراة ، آداب القاهرة ، ١٩٥٥م .

(٢) الخالدى « المقصد الرفيع » ص ٢٩٠، ابن شاهين « زبدة كشف الممالك » ص ١١٣، النويرى « نهاية الأرب » ح٨ ص ٢٠٠، دار الكتب المصرية (١٣٥٠هـ/١٩٣١م) ، ابن كنان « حدائق الياسمين » ص ١٧٣، محمود نديم « الفن الحربى المملوكى » ص ١٢٥، ماجستير ، آداب عين شمس ، ١٩٨٢م ، خلف عبد العليم « الحياة الاقتصادية فى بلاد الشام فى عصر سلاطين المماليك » ص ١١١ ـ ١١٣، دكتوراة ، آداب المنيا ، ١٩٩٥م .

(٣) ابن الصيرفى « إنباء الهصر » ص٣٣ ـ ٣٦، محمود نديم « الفن الحربى المملوكى » ص ١٣٨.

كما كان ناظر الجيش من خلال ديوان الجيش يساهم فى الإنفاق على خزائن[*] السلاح التى كانت تزود الجيش المملوكى بالمعدات الحربية بكافة أشكالها[١] .

ومن أشهر علماء مصر الذين تولو نظر الجيش بها ابن الأشقر[٢] « ت ٨٦٣هـ »[٣] ، وشرف الدين الأنصارى[٤] « ت ٨٨١هـ »[٥] .

ومن أشهر علماء دمشق الذين تولو نظر الجيش بها موفق الدين العباسى[٦] « ت ٨٩٣هـ »[٧] ، وشهاب الدين بن الفرفور[٨] « ت ٩١١هـ »[٩] .

ومن أشهر علماء حلب الذين تولو نظر الجيش بها علاء الدين بن مفلح[١٠]

(*) خزائن السلاح فى العصور الإسلامية الوسطى كانت تحتوى على السيوف والقسى العربية والنشاب والرماح والدروع والزرد ، وكانت هذه الخزائن يعمل بها صُناع لصنع الأسلحة ولإصلاح المعطوب منها ، وتجديد المُستعمل وكذا صقلها وشحذ وجلاء وتثقيف ما يحتاج منها إلى ذلك ، انظر د. أحمد عبد الرازق « الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى » ص ١٩٠.

(١) د. نبيل محمد « خزائن السلاح ومحتوياتها على عصر الأيوبيين والمماليك » ص ١١٠، المجلة التاريخية المصرية ، مج ١٩٧٦/٢٣م .

(٢) ابن الأشقر : محمد بن عثمان ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى كتابة السر بمصر ، ونظر الجيش بها ، توفى ٨٦٣هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٨ ص ١٤٣.

(٣) ابن تغرى « المنهل الصافى » ح ١٠ ص ١٨٥، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٨ ص ١٤٣.

(٤) شرف الدين الأنصارى : انظر: ص ٤٨.

(٥) السخاوى « الضوء اللامع » ح ١٠ ص ١٨٥.

(٦) موفق الدين العباسى : انظر ص ٧٤.

(٧) ابن مكى « السحب الوابلة » ح ٢ ص ٤٧٣، ابن الحمصى « حوادث الزمان » ح ١ ص ٢١٨، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٤ ص ٤٩.

(٨) شهاب الدين بن الفرفور: انظر ص ١٨.

(٩) ابن طولون « قضاة دمشق » ص ١٨١.

(١٠) علاء الدين بن مفلح : على بن أبى بكر ، تفقه على شيوخ عصره ، ولى قضاء حلب ودمشق ، توفى ٨٨١هـ ، انظر : ابن عبد الهادى « يوسف بن حسن « ت ٩٠٩هـ » » « ذيل ابن عبد الهادى على طبقات ابن رجب » ص ٦٥، دار العاصمة ، الرياض ، ١٤٠٨هـ .

« ت ٨٨١هـ »[١] ، وأثير الدين ابن الشحنة[٢] « ت ٨٩٨هـ »[٣] .

---

(١) ابن عبد الهادى « ذيل ابن عبد الهادى » ص ٦٥، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٥ ص ١٩٨.

(٢) أثير الدين ابن الشحنة : محمد بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء حلب ، ودرس بها ، توفى ٨٩٨هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٩ ص ٢٩٥.

(٣) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٩ ص ٢٩٥.

الفصل الثالث

العلماء والحياة الاقتصادية بمصر والشام

نقاط الفصل الثالث

١ ـ **المحور الأول** : موقف العلماء من موارد ومصارف بيت المال فى العصر المملوكى ـ القرن التاسع الهجرى .

أ ـ آراء العلماء الاقتصادية حول أحكام بيت المال « موارده ـ مصارفه » فى الشرع الحنيف من ناحية ، ومدى التزام أو مخالفة السلطة المملوكية لتلك الأحكام من ناحية أخرى [تقى الدين البلاطنسى ، محمد بن خليل الأسدى ، المقريزى ، السيوطى] .

ب ـ الجهود العلمية لعلماء مصر والشام لإزالة الموارد غير الشرعية لبيت المال .

* العلماء وإزالة المكوس .

* العلماء ومحاربة الاحتكار .

* العلماء ومحاربة الطرح على التجار .

٢ ـ **المحور الثانى** : جهود العلماء فى تنظيم المعاملات المالية والاقتصادية للمصريين والشاميين .

أ ـ القضاة والمعاملات المالية للمصريين والشاميين .

ب ـ استفتاء المصريين والشاميين العلماء فى معاملاتهم المالية « تقنين العلاقة المالية بين المقطع « حائز الإقطاع » والمستأجر « الفلاح » ، حكم العقود المالية عند تغيير النقود » .

٣ ـ **المحور الثالث** : جهود العلماء فى تنمية الحياة الاقتصادية وتطويرها .

أ ـ العلماء وتثمير أموال الأوقاف وتعميرها .

ب ـ العلماء وتثمير أموال المودع الحكمى .

جـ ـ العلماء وإصلاح العملة .

د ـ العلماء وضبط الأسواق .

هـ ـ العلماء وممارسة الأنشطة الاقتصادية .

لكل نظام اجتماعى خصائصه الاقتصادية ومميزاته التى تميزه عن غيره ، فإذا قلنا النظام الرأسمالى أو النظام الشيوعى ، فإن لكل منهما اقتصادًا خاصًا به ، والإسلام كنظام اجتماعى عام ـ يشمل كافة نواحى الحياة ـ له نظامه الاقتصادى الذى له خصائصه المستقلة التى تنبثق عن الخصائص العامة للتشريع الإسلامى ، فهذا النظام الاقتصادى يسمح للمجتمع « حكام ـ محكومين » بحرية محدودة بحدود من القيم الإسلامية التى تهذب الحرية الاقتصادية وتصقلها وتجعل منها أداة خير للإنسانية كلها ، وهذا التحديد أو بالأحرى هذا الضبط لهذه الحرية يتحقق عن طريقين ، أولهما الضبط الذاتى وهو ينبع من أعماق النفس ، ويستمد قوته ورصيده من المحتوى الروحى والفكرى للشخصية الإسلامية ، وثانيهما الضبط الخارجى للحرية من خلال الأحكام المستمدة من الأصول الإسلامية « القرآن ـ السنّة » التى تتعلق بالأنشطة والمعاملات الاقتصادية[1] .

وهنا يأتى دور العلماء لضبط حرية المجتمع « حكام ـ محكومين » فى ممارسة النشاط الاقتصادى وجعله منضبط بمطلوب الشرع[2] .

ولقد مارس علماء العصر المملوكى ـ فى القرن التاسع ـ هذا الدور الرقابى أمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر فى المجتمعين المصرى والشامىّ ، وذلك ما سيوضحه الباحث فى هذا الفصل من خلال ثلاثة محاور رئيسية .

المحور الأول : موقف العلماء من موارد ومصارف بيت المال فى العصر المملوكى .

المحور الثانى : جهود العلماء فى تنظيم المعاملات المالية والاقتصادية للمصريين والشاميين .

المحور الثالث : جهود العلماء فى تنمية الحياة الاقتصادية وتطويرها .

---

(١) محمد باقر الصدر « المدرسة الإسلامية : الإنسان المعاصر والمشكلة الاجتماعية » ص ١٥١، ١٧٩، دار الزهراء ، بيروت ، ١٩٧٣م ، المودودى « مفاهيم إسلامية حول الدين والدولة » ص ١٦٦، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط٢ (١٩٨٧م) ، عبد الله محمد « الدين وسيلة من وسائل الضبط الاجتماعى » ص٢٦، ماجستير ، آداب القاهرة « قسم علم الاجتماع » ، ١٩٧٠م ، د. فوزى على « دور أهل الحل والعقد فى النموذج الإسلامى لنظام الحكم » ص ٥٥٩، دكتوراه ، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، جامعة القاهرة ، ١٩٩٥م .

(٢) د. فوزى على « دور أهل الحل والعقد » ص ٥٦٠ ـ ٥٦٢.

المحور الأول : موقف العلماء من موارد ومصارف بيت المال فى العصر المملوكى

لقد رصدت لنا المصادر موقف العلماء من موارد ومصارف بيت المال[1] فى العصر المملوكى ـ القرن التاسع الهجرى ـ فى أمرين :

أولهما : ما قدمه العلماء من آراء اقتصادية حول أحكام بيت المال « موارده ـ مصارفه » فى الشرع الحنيف من ناحية ، ومدى التزام أو مخالفة السلطة المملوكية لتلك الأحكام من ناحية أخرى .

ثانيهما : ما قام به العلماء من « جهود عملية »[2] لإزالة الموارد غير الشرعية لبيت المال فى العصر المملوكى .

أولًا : آراء العلماء الاقتصادية حول أحكام بيت المال :

لقد اعترت الإدارة المملوكية لأموال بيت المال أوجه انحراف عديدة ، فوجب على علماء مصر والشام كشف الغطاء عن أوجه الانحراف التى مارستها السلطة المملوكية فى إدارتها

---

(١) **بيت المال :** تعددت دلالات مصطلح بيت المال فى النظم الإسلامية ، ففى البداية كان المقصود ببيت المال « خزانة الدولة » التى يُحفظ فيها الأموال العامة للدولة الإسلامية ، ثم أصبح المصطلح يدل على الإدارة التى كانت تشرف على هذه الأموال ، أما الدلالة الأكثر شيوعًا خاصة لدى المتأخرين من الفقهاء الدلالة المجازية التى ترى أن بيت المال جهات وليس مكانًا ، فهو مجموعة من الموارد الشرعية للدولة الإسلامية ، وهو كذلك أوجه الإنفاق التى تلتزم بها الدولة ، وترجع نشأة بيت المال إلى عهد النبى ﷺ ، وليس إلى عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ ، ولكن نظرًا أنه فى عهد النبى ﷺ ، وعهد أبى بكر الصديق كانت النفقات فى معظم الأحيان تفوق الإيرادات مما جعل الدولة تعانى من حالة عجز مالى متكرر أوهم بعض المؤرخين بأنه لم يكن للمسلمين بيت مال إلا فى عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ ، انظر : د. عماد بدر الدين « وثائق بيع أملاك بيت المال فى عصر المماليك الجراكسة » ص ١٥٤، دكتوراة ، آداب القاهرة ، ١٩٩٥م ، عبد العزيز صالح « نشأة بيت المال فى الدولة الإسلامية » ص ٢٤، المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، جامعة الكويت ، العدد (٥٠) لعام ١٩٩٨م .

(٢) المقصود « **بالجهود العملية** » : ممارسة العلماء لمبدأ « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » بـ « اللسان » إزاء السلطة المملوكية لإزالة الموارد غير الشرعية لبيت المال .

لأموال بيت المال .

ولقد كان من أبرز هؤلاء العلماء تقى الدين البلاطنسى[(١)] « ت ٩٣٦هـ » ، الذى عبّر عن الفساد الذى اتسمت به الإدارة المملوكية لأموال بيت المال بقوله : «آل الحال إلى أن استأثر كثير من الناس بأموال بيت المال من غير قيام بمصلحة ولا اتصاف بصفة استحقاق ، وهذه بدعة عمّ فى الدين ضررها ، فوجب على العلماء كشف الغطاء عن فسادها ، لأن الله قد أخذ عليهم الميثاق أن يبينوا للناس الحق ولا يكتموه »[(٢)] .

ولقد كشف تقى الدين البلاطنسى أوجه الانحراف التى اعترت الإدارة المملوكية لأموال بيت المال فى عصره ، والتى حددها فى ثلاثة صور رئيسية :

الصورة الأولى : الإقطاع[(٣)] :

يعتبر الإقطاع من أهم مصارف بيت المال فى العصر المملوكى من حيث حجم الأموال

---

(١) تقى الدين البلاطنسى : هو أبو بكر بن محمد بن عبد الله ، تفقه على شيوخ عصره ، حتى صار رأس الشافعية بدمشق فى عصره ، درس وأفتى ، توفى ٩٣٦هـ ، انظر : ابن المبرد « متعة الأذهان » ص ٢٢٠.

(٢) البلاطنسى « تقى الدين أبو بكر ت ٩٣٦هـ » « تحرير المقال فيما يحل ويحرم من بيت المال » ص ٨٩، تحقيق فتح الله محمد ، دار الوفاء ، المنصورة ، ١٩٨٩م .

(٣) **الإقطاع** : هو تسويغ الإمام من مال بيت المال شيئًا لمن يراه أهلًا لذلك ، وأكثر ما يستعمل فى إقطاع الأرض ، وحقيقته هو إعانة من بيت المال للجند القائمين بحراسة البلاد ، وأول من طبق النظام الإقطاعى السلطان صلاح الدين الأيوبى « ت ٥٨٩هـ » عندما تولى السلطنة ببلاد الشام بعد وفاة نور الدين زنكى عام ٥٦٩هـ ، ثم طبق هذا النظام فى مصر عهد الأيوبيين ثم المماليك من بعدهم ، وكان نظام الإقطاع استحدثه الوزير نظام الملك وزير ألب أرسلان السلطان السلجوقى . انظر : البلاطنسى « تحرير المقال » ص ١٥٣، د. كمال بن مارس «العلاقات الإقليمية والحروب الصليبية «الموصل وحلب» » ص ١٠٥، دار عين للنشر ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م ، د. عامر نجيب «الحياة الاقتصادية فى مصر فى العصر المملوكى» ص ١١٣، د. إبراهيم طرخان «الإقطاع الإسلامى» ص ٧٢، المجلة التاريخية المصرية ، مج ٦، ١٩٥٧م ، د. إبراهيم طرخان « النظم الإقطاعية فى دولة المماليك » ص ٢، دكتوراة ، آداب القاهرة ، ١٩٥٥م ، د. حياة ناصر الحجى « بعض الأبعاد الاقتصادية لسلطنة المماليك » ص ٢٠، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية ، عدد (٢٣) لعام ٢٠٠٣م ، الكويت ، د. محمد محمد أمين « منشور بمنح إقطاع من عصر السلطان الغورى » ص ١، دورية Annales Islamologiques، عدد (XIX) عام (١٩٨٣) .

المرصودة له[1] ، لذلك حرص البلاطنسى على كشف أوجه الانحراف التى أصابت الإقطاع على يد السلطة المملوكية ، حيث يذكر أن تلك السلطة ابتدعت أشكالًا للإقطاع غير شرعية ، كإقطاع من يرتزقون على عمل غير مستديم كجباة الخراج ، أو من يرتزقون على عمل مستديم مثل القضاة ، وكتاب الدواوين[2] .

ومن مظاهر ذلك الانحراف ـ أيضًا ـ ، تحول كثير من الإقطاعات إلى إقطاع « رقبة »[3] ـ تمليك ـ بدلًا من أن تكون إقطاع « ارتفاق »[4] ـ استغلال[5] ـ .

وأخيرًا ما قام به سلاطين المماليك بمنح الإقطاعات التى عرفت بـ « الرزق الجيشية »[6] إلى الأمراء غير المتقاعدين وزوجات الأمراء وذرارى السلاطين السابقين[7] .

---

(١) د. البيومى إسماعيل « النظم المالية فى مصر والشام زمن سلاطين المماليك » ص ٢٣٤، الهيئة العامة للكتاب « سلسلة تاريخ المصريين » رقم (١١٨) لعام ١٩٩٧م .

(٢) البلاطنسى « تحرير المقال » ص ١٦٤، وذلك ما تؤكده المصادر التاريخية ، انظر : د. إبراهيم طرخان « النظم الإقطاعية » ص ٣.

(٣) **إقطاع « رقبة »** : أى يكون لصاحب ذلك الإقطاع حق امتلاكه ، انظر مجدى عبد الرشيد « القرية المصرية » ص ٩٤.

(٤) **إقطاع « ارتفاق »** : أى يكون لصاحب ذلك الإقطاع استغلاله ما دام يؤدى الواجبات المفروضة عليه ، وذلك بمدة متفق عليها أو مدى الحياة ، ثم يئول للدولة مرة أخرى ، انظر : مجدى عبد الرشيد « القرية المصرية » ص ٩٤.

(٥) البلاطنسى : « تحرير المقال » ص ١٦٢، ١٦٥، وذلك ما تؤكده المصادر التاريخية ، انظر : د. أكرم حسن « نيابة دمشق » ص ٢٤٢.

(٦) **الرزق الجيشية** : هى أراضى تمنح من ديوان الجيش إلى الأمراء والأجناد الذين أقعدهم المرض ، أو كبر سنهم وعجزوا عن أداء واجباتهم الحربية ، انظر : مجدى عبد الرشيد « القرية المصرية » ص ١١٣.

(٧) البلاطنسى « تحرير المقال » ص ١٥٢، ١٦٥، وذلك ما أثبتته مجموعة الوثائق التى نشرت حديثًا ، حيث أثبتت بما لا يدع مجالًا للشك أن تلك الرزق الجيشية ـ فى الغالب ـ كانت بأيدى أمراء غير متقاعدين ، حيث أجراها السلاطين على زوجات الأمراء وأراملهم وذرارى السلاطين السابقين ، انظر : مجدى عبد الرشيد « القرية المصرية » ص ١١٣، A.N. Poliak "Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and the Lebanon 1250-1900" p. 37, Porcupine press, philafelphia.

الصورة الثانية : الوقف من بيت المال :

لقد عُرِفَ نظام الوقف من بيت المال وصرف ريعه على جهات البرّ ومصالح المسلمين العامة كالأرامل واليتامى والبيمارستانات والمساجد وغير ذلك على أيدى الفاطميين ثم توسع الأيوبيون فى ذلك النظام، ثم بلغ أوج ازدهاره عصر المماليك، حيث أفرد لتلك الأوقاف ديوان خاص بها أطلق عليه «ديوان الأحباس»[1]، ولقد كشف لنا البلاطنسى بجرأة وشجاعة أن السلطة المملوكية الحاكمة ـ فى كثير من الأحيان ـ رصدت الأوقاف من بيت المال ـ والتى عرفت فى العصر المملوكى بـ «الرزق الأحباسية»[2] ـ على أولاد السلاطين أو جهات أقاربهم وأمراء المماليك وغيرهم[3].

الصورة الثالثة : بيع أملاك بيت المال :

تعتبر مبيعات أملاك بيت المال مصدرًا لتمويل خزائن بيت المال فى مختلف العصور الإسلامية، والبيع إما أن يكون بيعًا لما آل إلى بيت المال على سبيل المواريث الحشرية ـ التركات التى مات عنها أربابها وليس لها وارث ـ وحصيلة تلك المبيعات ينفقها الإمام على مصالح المسلمين العامة، أو يكون بيعًا للأراضى الزراعية المملوكة لبيت المال أصلًا،

---

(١) د. محمد محمد أمين «الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر» ص ٤٨، د. فوزى حامد «القضاء فى صعيد مصر خلال العصر المملوكى» ص ٣٣٢، مقال بدورية كلية الآداب، قنا، عدد (١٠) لعام ٢٠٠٠م.

(٢) **الرزق الأحباسية**: اختصت نفقات الرزق الأحباسية بجهات معينة فى العصر المملوكى كالصرف على المساجد والزوايا والمدارس، وكان يتولى إدارتها أحد الدواوين المالية العامة وهو ديوان الأحباس، انظر: آدم صبره «الفقر والإحسان فى مصر عصر سلاطين المماليك» ص ١٢٦، ترجمة د. قاسم عبده قاسم، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٣م، د. فوزى حامد «القضاء فى صعيد مصر» ص ٣٣٣، سيد محمود «الحياة الاقتصادية فى الريف المصرى عصر المماليك» ص ١٤٤، ماجستير، آداب عين شمس، ٢٠٠٠م.

(٣) البلاطنسى «تحرير المقال» ص ٢١٢.

ويشترط الفقهاء لبيع تلك الأراضى أن تكون هناك حاجة ماسة لذلك، كالإنفاق على الجهاد أو الدفاع عن البلاد[(١)].

ولقد استشرى فى العصر المملوكى ـ وبصفة خاصة فى القرن التاسع ـ ظاهرة بيع أملاك بيت المال[(٢)]، وهنا يشن البلاطنسى هجومًا حادًا على السلطة المملوكية التى بددت أملاك بيت المال، حيث كان ذلك البيع يتم بشكل صورى، فإما أن السلطان المملوكى يُنعم على المشترى بالثمن مرة أخرى، أو يشترى السلطان من خلال وكيل بيت المال[(٣)] ـ الذى يوليه السلطان ـ ما يشاء من أملاك بيت المال[(٤)].

وإزاء هذا التلاعب أملاك بيت المال، يعلن البلاطنسى أن السلطة المملوكية تفتقد شروط

---

(١) ابن نجيم «أحمد بن زين ت ٩٧٠هـ» التحفة المرضية فى الأراضى المصرية» ص ٢٠، ٢١، مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (٤٧٩ مجاميع)، د. عماد بدر الدين «وثائق بيع أملاك بيت المال فى عصر المماليك الجراكسة» ص ١٨٥.

(٢) ولى الدين أبو زرعة «عبد الرحيم بن حسن» «ذيل العبر للذهبى ٧٦٢ ـ ٧٨٦هـ» ص ٢٠٧، مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (٥٦١٥ تاريخ)، (١٢٥٦٠ مكروفيلم)، الاسدى «محمد بن خليل «عاش فى القرن التاسع»، «التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار»، ص ٧٩، تحقيق د. عبد القادر أحمد، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٦٨م، د. عماد بدر الدين «تطور الحيازة الزراعية زمن المماليك الجراكسة» ص ٨٣، دار عين للنشر، القاهرة، ط ١ (٢٠٠٠م)، د. عماد بدر الدين «وثائق بيع أملاك بيت المال» ص ١٨٦.

(٣) **وكيل بيت المال**: وكالة بيت المال من الولايات الدينية التى تولاها العلماء فى العصر المملوكى، وموضوع تلك الولاية التحدث فيما يتعلق بمبيعات بيت المال ومُشترياته من أراضى وآدر وغير ذلك، انظر: القلقشندى «صبح الأعشى» ح ٤، ص ٣٧.

(٤) البلاطنسى «تحرير المقال» ص ٢٦١، ولقد دعم ما هب إليه البلاطنسى ما ذكرته المصادر التاريخية، انظر: ولى الدين أبو زرعة «ذيل العبر الذهبى» ص ٢٠٧، ويدعم ما ذهب إليه البلاطنسى ـ أيضًا ـ، ما شهدت به وثائق بيع أملاك بيت المال فى عصر المماليك الجراكسة ـ التى مازالت بأرشيف الأوقاف المصرية ـ، حيث تم رصد ٦٢ حالة بيع يتم فيها الإنعام بالثمن على المُشترى، كالوثيقة (٧١ج) والتى يرجع تاريخها لعام ٨٠٢هـ، والوثيقة رقم (٦٤٦ج) والتى يرجع تاريخها لعام ٩١١هـ، انظر: د. عماد بدر الدين «تطور الحيازة الزراعية زمن المماليك الجراكسة» ص ٨٣، د. عماد بدر الدين «وثائق بيع أملاك بيت المال» ص ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٢٩.

الإمامة من العدل والأمانة مما يترتب عليه عدم مشروعية تصرفها فى أملاك بيت المال بالبيع أو الشراء فذلك لا يكون إلا للإمام المستجمع لشروط الإمامة ، وذلك رأى علماء الإسلام عبر العصور الإسلامية حتى عصرنا(١) .

ومن العلماء ـ أيضًا ـ الذين آذاهم ما كانت عليه مصر والشام فى العهد المملوكى من مفاسد مالية ، فقام يُنذر المسئولين بعواقب سوء إدارتهم الاقتصادية للبلاد ، ويدعوهم إلى العودة إلى أسس الاقتصاد الإسلامى الثابتة فى أصوله « قرآن وسنّة » ، ونقصد به محمد بن خليل الأسدى(٢) الذى يعتبر من دعاة الإصلاح فى عصره .

حيث يوضح الأسدى للسلطة المملوكية أن موارد بيت المال الشرعية التى حددها الإسلام تتمثل فى « الزكاة(٣) ، ....

(١) البلاطنسى « تحرير المقال » ص ٢٤٠ ـ ٢٥٦ .

(٢) لم يعثر الباحث على ترجمة الأسدى ، وذلك بعد الرجوع إلى المصادر التاريخية المعاصرة للمؤلف ، والتى منها ـ على سبيل المثال ـ « تاج التراجم » لابن قطلوبغا ، « الضوء اللامع » للسخاوى ، و « الجوهر المنضد » لابن المبرد ، ومصدر معلوماتنا الوحيد عن ذلك العالم هو كتابه « التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار » الذى انتهى من تأليفه عام ٨٥٤هـ ، وإهمال المؤرخين لهذا الرجل يدعو إلى العجب لأن المؤلف كما يظهر ـ فى ضوء كتابه ـ لم يكن نكرة إلى الحد الذى يجهله معاصروه ، فرجل مثل الأسدى ، يؤلف كتابًا ويقدمه لأكبر رجل فى الدولة بعد السلطان ، وهو كاتب السر ورئيس ديوان الإنشاء ابن البارزى « ت ٨٥٦هـ » ، لاشك أن له مكانته ، بالإضافة إلى أنه وردت عبارة على لسان المؤلف وهو يخاطب هذا الموظف الكبير يُفهم منها أنه شغل وظيفة ما تحت رئاسته ، حيث يقول أنه أخلص النية لله باهتمام ، وأقدم بها على الحضرة العالية ـ يقصد ابن البارزى ـ لأن له بالخدمة الكريمة إلمام » ، فضلًا على ثقافته الدينية التى تظهر فى كثرة الاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية فى مُؤلفه ، انظر : الأسدى « محمد بن خليل ـ عاش فى القرن التاسع » ، « التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار » ص ٦، ٣٣، ٤٧، ٥٥، ٩٧، ١٣٥، ١٥٠، تحقيق د. عبد القادر أحمد ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٦٨م .

(٣) **الزكاة** : هى أحد أركان الإسلام الخمسة ، فُرضت فى السنة الثانية من الهجرة على من ملك نصابًا وحال عليه الحول ، وأنماط الملكية التى تجب عليها الزكاة هى الماشية وبُدُو الصلاح فى الثمار والحبوب وذوات الزيوت ، وعروض التجارة ، والنقود والذهب والفضة ، والمعادن ، وبالنسبة للزكاة وجباتها فى العهد المملوكى فقد تركت السلطة المملوكية للأفراد توزيع زكاة أموالهم على مُستحقيها ، انظر : د. أحمد على « موسوعة المفاهيم الإسلامية العامة » ص ٢٩١، د. آدم صبرة « الفقر والإحسان فى مصر عصر =

الخراج[١] ، الجزية[٢] ، الغنائم والفئ[٣] ، العشور[٤] »[٥] .

= سلاطين المماليك » ص ٧٥، د. البيومى إسماعيل « النظم المالية » ص ١٦٢.

(١) **الخراج :** هو ما فُرض من مال أو غلال على الأراضى الزراعية التى فتحها المسلمون عنوة ولم يقسمها ولى الأمر بينهم ، أو تلك الأراضى التى أفاء الله بها على المسلمين ، فتركوها أهلها عليها مقابل خراج معلوم يؤدونه فى كل عام ، ولقد كان الخراج فى العصر المملوكى من أهم موارد الدولة ، وكانت جبايته بشكل من العسف والظلم ، انظر : أحمد عبد الكريم « الحياة الزراعية فى مصر فى العصر المملوكى » ص ٣٩، ماجستير آداب القاهرة ، ١٩٧٢م ، جابر سلامة « الزراعة فى مصر فى عهد الأيوبيين والمماليك » ص ٧٣ ماجستير آداب القاهرة ١٩٧٤م ، محمد كرد « خطط الشام » ح ٥، ص ٦٧.

(٢) **الجزية :** مبلغ من المال يفرض على رؤوس من دخل فى ذمة المسلمين من أهل الكتاب ، وهى ثابتة بالنص القرآنى ، وتفاوت مقدارها وفقا لمقدار ثروة من يدفعها ولقد تراوحت مقدار الجزية عصر المماليك الجراكسة ما بين ١٠ درهم و ٢٥ درهم ، ولقد تضاءل هذا المورد فى عصر المماليك لتحول كثير من أهل الكتاب للإسلام انظر : د. البيومى إسماعيل « النظم المالية » ص ١٦٤ د. عماد بدر الدين « وثائق بيع أملاك بيت المال » ص ١٧٥.

(٣) **الغنائم والفئ : الغنائم :** كل ما غنمه المسلمون من المشركين بالقتال وكان خمس الغنائم يؤول إلى بيت المال ويوزع على الفقراء والمساكين واليتامى ، وكان هذا المورد ليس رئيسى فى عصر المماليك الجراكسة إلا فى بعض الحالات النادرة مثل فتح قبرص عام ٨٢٧هـ ، ٨٢٨هـ ، ٨٢٩هـ ، حيث عاد الجيش المملوكى بالغنائم التى وزعت بشكل شرعى ، انظر : د. محمد أمين « النظام المالى والاقتصادى فى الإسلام » ص ٦٠، د. محمد عبد الغنى « الملحمة المصرية فى عصر المماليك الجراكسة » ص ٦٢، مكتبة مدبولى ، القاهرة ، ط ١ (٢٠٠٢م) ، د. عماد بدر الدين « وثائق بيع أملاك بيت المال » ص ١٧١.

أمّا الفئ : كل مال أو عقار وصل من المشركين إلى المسلمين من غير قتال ، وهو من حقوق بيت المال لأن مصرفه موقوف على رأى الإمام واجتهاده ، وذلك بعد استبعاد الخمس ليوزع على أهله ، انظر : د. محمد أمين « النظام المالى والاقتصادى فى الإسلام » ص ٦٠.

(٤) **العشور :** هى الرسوم التى تؤخذ على أموال وعروض تجارة المشركين وأهل الذمة المارين بها على ثغور المسلمين ، وترجع بدايتها التاريخية إلى عهد الخليفة عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ ، وجرى الحال فى عصر المماليك الجراكسة على أساس جباية العشور من التجار الأجانب غير المسلمين وفقًا لما تقرره المعاهدات بين دولة المماليك وتلك الدول التى ينتمى إليها هؤلاء التجار ، انظر : د. محمد أمين « النظام المالى والاقتصادى فى الإسلام » ص ٢٨، د. البيومى إسماعيل « النظم المالية » ص ١٨٨، د. عماد بدر الدين « وثائق بيع أملاك بيت المال » ص ١٧٨.

(٥) الأسدى « التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار » ص ٧٨.

ولكن السلطة المملوكية ـ كما يرى الأسدى ـ أهملت تلك الموارد الشرعية واهتمت بجباية الموارد غير الشرعية، كالضرائب والمكوس[1] ـ التى بلغت أوائل القرن التاسع الهجرى قرابة ٧٢ جهة[2] ـ، ومن أشهرها تلك الضرائب التى استحدثها الجراكسة على الفلاحين والمتاجر كالأفران والطواحين والمعاصر وعرفت باسم «الحمايات»[3]، وضريبة «المشاهرة»[4] التى كان يحصلها المحتسب على الأسواق[5].

ومن تلك الموارد غير الشرعية أيضًا، المتحصل من احتكار[6] الدولة للمعادن كالزمرد، فضلًا على السلع الغذائية الهامة كالقمح والألبان والجبن وغير ذلك[7].

ولقد أوضح الأسدى للسلطة المملوكية أن تلك الموارد غير الشرعية لبيت المال أدت إلى تدهور الأوضاع الاقتصادية بمصر والشام، فلقد أدت كثرة الضرائب التى فرضتها السلطة المملوكية على فلاحى مصر والشام إلى هجرة الفلاحين ـ بمصر والشام ـ الأراضى الزراعية،

---

(١) **المكوس**: أصل المكس فى اللغة الجباية، وغلب المكس لدى مؤرخى مصر الإسلامية على الأموال التى تحصلها السلطة الحاكمة بشكل غير شرعى، انظر: ابن طولون «نقد الطالب لزغل المناصب» ص ١١٨، تحقيق محمد أحمد دهمان، دار الفكر المعاصر، لبنان، ص١ (١٩٩٢م)، المقريزى «الخطط» ح ٢، ص ١٢١، مكتبة الثقافة الدينية، ط٢ (١٩٨٧م)، الأسدى «التيسير والاعتبار» ص ٢٠٣.

(٢) عن تعدد نواحى المكوس فى عصر المماليك، انظر: محمد أمين «التنظيمات الحكومية لتجارة مصر فى عصر المماليك الجراكسة» ص ١٧١، دكتوراة، آداب عين شمس، ١٩٧٠م، د. البيومى إسماعيل «النظم المالية» ص ١٨٧، د. عماد بدر الدين «وثائق بيع أملاك بيت المال» ص ١٩١.

(٣) الأسدى «التيسير والاعتبار» ص ١٣٦.

(٤) **المشاهرة**: هى ضريبة تُجمع من التجار بالأسواق شهريًا، وكانت تذهب للأمراء الذين لم يكن لهم إقطاع، انظر: حسين مصطفى «طوائف الحرفيين ودورهم الاقتصادى والثقافى فى «مصر الإسلامية» ص ١٧٦، ماجستير كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٨٧م.

(٥) الأسدى «التيسير والاعتبار» ص ١٣٧.

(٦) لجأت الدولة المملوكية من خلال حكامها إلى احتكار بعض المواد مثل القمح والسكر والأخشاب بغية الاستئثار بالفائدة، انظر: حسين مصطفى «طوائف الحرفيين» ص ١٧٩، د. محمد أمين «التنظيمات الحكومية» ص ١٥٨، د. عماد بدر الدين «وثائق بيع أملاك بيت المال» ص ١٩٠.

(٧) الأسدى «التيسير والاعتبار» ص ١٣٨.

فخربت الأراضى الزراعية بمصر والشام[1] ، كذلك أدت كثرة الضرائب على قطاع التجارة المحلى إلى إفلاس قطاع كبير من التجار ، فتوقفت الحركة التجارية فى الأسواق بل اختفى الكثير منها[2] ، مثل سوق خان الرَّوَّاسين الذى كان من أحسن أسواق القاهرة ، وبه نحو العشرين حانوتًا مملوءًا بأصناف المأكولات ، وسوق حارة بَرْجَوان الذى كان يباع فيه أصناف اللحوم والخضروات والزيوت وغير ذلك[3] .

كما أدت سياسة الاحتكار التى مارستها الدولة وبخاصة فى السلع الغذائية إلى موجات الغلاء الفاحش التى أصبحت ظاهرة مستديمة طوال العصر المملوكى[4] ، والتى منها أزمة الغلاء التى تعرضت لها مصر لمدة ثلاثة أعوام متتالية تبدأ بعام ٨٧٣هـ/١٤٦٨م وتنتهى بعام ٨٧٥هـ/١٤٧٠م بسبب قيام السلطة المملوكية باحتكار الحبوب الغذائية مما أدى إلى تضخم أسعار الحبوب ، وقلة المعروض منها بالأسواق[5] ، وكذلك أزمة غلاء اللّحم بدمشق عام ٨٤٣هـ/١٤٣٩م بسبب احتكار نائب دمشق جُلُبَّان[6] الكمشبغاوى للّحم ، مما أدى إلى اختفاءه من الأسواق وغلاء أسعاره[7] .

كما أدت فداحة الضرائب التى فرضتها الدولة على تجارة الأجانب الواردة على مصر

---

(١) الأسدى « التيسير والاعتبار » ص ٩١، ٩٥، وذلك ما أكدته المصادر التاريخية ـ أيضًا ـ، انظر : مجدى عبد الرشيد « القرية المصرية » ص ١٤٦ ـ ١٦٠.

(٢) الأسدى « التيسير والاعتبار » ص ٨٤.

(٣) المقريزى « المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار » ح ٣، ص ٣١٧، ٣١٨.

(٤) الأسدى « التيسير والاعتبار » ص ١٣٨ ـ ١٤٢، وذلك ما أكدته المصادر التاريخية ، انظر : د. محمد أمين « التنظيمات الحكومية » ص ١٥٨.

(٥) مجهول : « حوادث الزمان » ص ٥، ٥٧، ٦٦، ابن شاهين « الروض الباسم » ح ٤، ص ٢٠٣، ٢٤٩، ٢٥٠، ابن الصيرفى « إنباء العصر » ص ١٦٢.

(٦) جُلُبَّان الكمشبغاوى : جُلُبَّان بن عبد الله ، ولى نيابة حماة وطرابلس ، ثم دمشق عام ٨٤٣هـ، توفى ٨٥٩هـ، انظر : ابن تغرى « المنهل الصافى » ح٥ ص ١٠.

(٧) العينى « عقد الجمان » ص ٥٥١، المقريزى « السلوك » ح٤ ص ١١٨١، ابن الصيرفى « نزهة النفوس » ح٤ ص ١٦٩، ابن إياس « بدائع الزهور » ح٢ ص ٢٢٢.

والشام إلى حرمان السلطة المملوكية تمامًا من هذا المورد حيث توقف قدوم التجار الأجانب إلى مصر والشام[1] .

وأخيرًا يطالب الأسدى السلطة المملوكية الالتزام بأحكام الشرع الحنيف المرتبطة بموارد ومصارف بيت المال والكف عن جباية تلك الموارد غير المشروعة ، وأن على تلك السلطة أن يحكمها فى إدارة بيت المال الأمانة والعدل ، فلا يؤخذ مال إلا بحق ولا يُنفق إلا لمن يستحق ، وأنه على السلطان المملوكى الكف عن تولية العمال بأجهزة الدولة المالية بالبذل والبرطلة[2] ، وإحلال ذوى الأمانة والكفاءة محلهم[3] ، وكذا تفقد السلطان الدائم لهؤلاء العمال لأن إهمال السلطان لتفقد عماله أدى إلى كثرة المظالم على المصريين والشاميين ، وتبديد أملاك بيت المال[4] .

كذلك كان العالم تقى الدين المقريزى « ت ٨٤٥هـ » من العلماء الذين تبنوّ بعض الأفكار الرائدة فى الاقتصاد والمناداة بها لإصلاح أحوال مصر الاقتصادية ، ولقد حدد المقريزى أسباب ارتفاع الأسعار والأزمات الاقتصادية فى عصره إلى أربعة أسباب رئيسية ، ربط فيها ما هو اقتصادى بما هو سياسى ، وفق رؤية ثاقبة ترى أن الفساد يبدأ من الرأس ليدب فى الجسد ، وأن أعلى الهرم السياسى عندما يكون منحلًا فإن الانحلال سيجرى فى جوانبه وقواعده .

---

(١) الأسدى « التيسير والاعتبار » ص ٨٤، وذلك ما أكدته المصادر التاريخية ، انظر : د. لبيبة إبراهيم « الفتن والقلاقل » ص ٢٢٩ ـ ٢٣٦.

(٢) **البرطلة** : هو مصطلح أطلق على « الرشوة » فى العصر المملوكى ، والرشوة حرام بالكتاب والسنّة ، ولقد عزا ابن تيمية تسمية الرشوة بذلك المصطلح بأن البرطلة من البرطيل وهو الحجر المستطيل ، حيث تلقم الرشوة المرتشى عن التكلم بالحق كما يلقمه الحجر الطويل ، انظر : ابن نجيم الحنفى « الرسائل الزينية فى مذهب الحنفية » ص ٤٤، مخطوطة بدار الكتب المصرية ، برقم (٢١٢٣ فقه حنفى) ، (٤١٩٥٤ مكروفيلم) ، ابن تيمية « مجموع فتاوى ابن تيمية » ح ٢٨ ص ٣٠٤.

(٣) الأسدى « التيسير والاعتبار » ص ١٥٣، ١٥٥، وعن سوء اختيار السلطة المملوكية للموظفين العاملين بأجهزة الدولة المالية ، انظر : د. البيومى إسماعيل « النظم المالية » ص ٢٨٢.

(٤) الأسدى « التيسير والاعتبار » ص ١٥٣، ١٥٥.

١ ـ الإكثار من ضرب النقود :

يرى المقريزى[(١)] أن الإكثار من ضرب النقود أدى إلى غلاء الأسعار ، فالمقريزى ـ كما يرى الدكتور السباعى ـ أول كاتب مسلم تنبه إلى أثر النقد فى الحياة الاقتصادية ، حيث يرى المقريزى أن الإكثار من ضرب النقود يؤدى إلى غلاء الأسعار ، بمعنى أنه يؤدى إلى التضخم النقدى ـ بالتعبير المعاصر ـ بمعنى أن تكثر الدولة من إصدار الورق النقدى ذى القيمة الاعتبارية ، ولما كان النقد فى أساسه عبارة عن وسيط بين بضاعتين تكون محل للتبادل ، وكانت زيادة البضائع فى المجتمع تتطلب مبدئيًا زيادة مماثلة فى النقد ، وكان اللجوء إلى الإكثار من النقد على إبقاء كميات السلع على حالها أو مع إنقاصها يؤدى إلى إيجاد قيم اصطناعية لا واقع لها ، فمن الطبيعى أن يعاد تقسيم النقود على كميات البضائع القائمة ، مما يجعل سعر البضاعة يزيد بالنقد ، أى تهبط قيمة النقد ، وترتفع أسعار البضائع ، وهكذا كان الإكثار من ضرب النقود يؤدى إلى ارتفاع السلع بصورة عامة[(٢)] .

٢ ـ احتكار الدولة للأقوات :

يرجع المقريزى أسباب غلاء الأسعار ـ وبخاصة المواد الغذائية كالقمح ـ إلى احتكار[(٣)]

---

(١) تقى الدين المقريزى : أحمد بن على ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى حسبة مصر ، ودرس ، وصنّف مؤلفاته عدة ، توفى عام ٨٤٥هـ ، انظر المقريزى « درر العقود » ص ٣٠.

(٢) المقريزى : « إغاثة الأمة بكشف الغمة » ص ٣٠، ١٠١، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٩م ، د. محمد سالم « أحوال مصر الاقتصادية عصر سلاطين المماليك : قراءة فى مؤلفات المقريزى » ص ٦٢٢، مجلة كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة ، العدد (٣٣) لعام ٢٠٠٤م .

(٣) سبق أن ذكر الباحث لبعض الأزمات الغلاء التى تعرضت لها مصر والشام بسبب سياسة الدولة الاحتكارية ، انظر : ص ١٦٠، ولمزيد عن سياسة الاحتكار التى اتبعتها السلطة المملوكية ، انظر : د. حياة ناصر « أنماط من الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى سلطنة الماليك فى القرنين الثامن والتاسع الهجريين » ص ٦٧، جامعة الكويت ، ١٩٩٥م ، د. محمد أمين « التنظيمات الحكومية لتجارة مصر فى عصر المماليك الجراكسة » ص ١٥٨، حسين مصطفى « طوائف الحرفيين ودورهم الاقتصادى والثقافى » ص ١٧٩.

الدولة للأقوات ومنع الناس من الوصول إليها إلا بما أحبوا من الأثمان ، كما حدث فى عهد السلطان الناصر فرج[1] بن برقوق « ت ٨١٥هـ » عام ٨٠٢هـ/١٣٩٩م ، وعام ٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م ، فالمقريزى يرى أن سوء تدبير الحكام يؤدى إلى الاضطراب الاقتصادى والذى يتجسد بشكل رئيسى فى أن يكون السلطان تاجرًا[*] ، والأمراء تجار يريدون الثروة[2] .

٣ ـ سوء إدارة الدولة للنشاط الزراعى :

إن المماليك كطبقة عسكرية حاكمة « سلطان ـ أمراء ـ جنود » استحوذت على نسبة كبيرة من الأراضى الزراعية بمصر والشام فى صورة إقطاعات[3] ، ثم تحالف السلطان وإدارته ـ حسب قول المقريزى ـ مع أصحاب الملكيات الكبيرة من الأمراء على استنزاف فلاحى الريف بمصر والشام بالمغارم المالية[4] واستخدامهم فى أعمال السخرة وحفر الجسور ، وشق الترع ، فهجر الفلاح الأراضى الزراعية إلى المدن هربًا من ذلك الظلم ، فضلًا أن أصحاب الإقطاعات لم يأبهوا بإعداد الوسائل المناسبة لزيادة انتاجية تلك الأراضى من تطهير خلجان وإقامة جسور ـ ونحو ذلك ، فتدهورت الأراضى الزراعية ، وقل انتاجها المحصولى ، مما سبب الغلاء بسبب سوء تلك الإدارة ، كما ظهر

---

(١) فرج بن برقوق : سبق التعريف به بالفصل الأول ، انظر : ص ١٥ .

(*) أشار إلى هذا المعنى ـ أيضًا ـ العالم أبى الفضل جعفر بن على الدمشقى ـ من علماء القرن السادس الهجرى ـ فى كتابه « الإشارة إلى محاسن التجارة » ، انظر : الدمشقى « أبو الفضل جعفر » « الإشارة إلى محاسن التجارة » ص ٦١، تحقيق البشرى الشوربجى ، مكتبة الكليات الأزهرية ، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م .

(٢) المقريزى « إغاثة الأمة » ص ٧٢، د. محمد سالم « أحوال مصر الاقتصادية » ص ٦٢١.

(٣) جابر سلامة « الزراعة فى مصر فى عهد الأيوبيين والمماليك » ص ٨٨، ٩٧، ماجستير ، آداب القاهرة ، ١٩٧٤، خلف عبد العليم « الحياة الاقتصادية فى بلاد الشام فى عصر سلاطين المماليك » ص ١٢٥، دكتوراة ، آداب ، جامعة المنيا ، ١٩٩٥م .

(٤) عن تلك المغارم المالية على الفلاحين ، انظر : الأسدى « التيسير والاعتبار » ص ٩١، ٩٥، مجدى عبد الرشيد « القرية المصرية » ص ١٤٦ ـ ١٦٠، أحمد عبد الكريم « الحياة الزراعية فى مصر فى العصر المملوكى » ص ٣٩، ماجستير ، آداب القاهرة ، ١٩٧٢م ، جابر سلامة « الزراعة فى مصر فى عهد الأيوبيين والمماليك » ص ٧٣.

بشكل واضح فى مصر عام ٨٠٦هـ/١٤٠٣م[١] .

٤ ـ البذل والبرطلة :

أعلن المقريزى بصراحة أن أى خلل فى النظام الإدارى سوف يؤدى حتمًا إلى اضطراب الأحوال الاقتصادية ، فعندما شاع نظام البرطلة[٢] ـ أى الرشوة ـ فى تولى المناصب بغض النظر عن الجدارة والكفاءة والأهلة ، ووصل إلى المناصب الخطيرة من لا خلاق لهم ولا كفاءة لديهم اختلت أحوال الناس عمومًا وأهل الريف خصوصًا ، حيث قلّت انتاجية الأراضى الزراعية لرحيل الفلاحين من القرى بسبب شدة وطأة ولاة هؤلاء القرى ـ الذين عينتهم السلطة بالرشوة ـ على الفلاحين الذين ثقُل كاهلهم بالمغارم المالية التى فرضها عليهم هؤلاء الولاة[٣] .

وهكذا فالمقريزى فى كتابه « إغاثة الأمة » يعزو سبب المحن والأزمات الاقتصادية التى تعرضت لها البلاد فى العصر المملوكى إجمالًا إلى سوء تدبير السلطة المملوكية ، وهو ما عبّر عنه بقوله . ومن تأمل هذا الحادث ـ أى المحن والأزمات الاقتصادية ـ فى بدايته إلى نهايته ، وعرفه من أوله إلى غايته ، علم أنه يرجع إلى سوء تدبير الزعماء والحكام ، وغفلتهم عن النظر فى مصالح العباد[٤] .

ومن هؤلاء العلماء ـ أيضًا ـ الذين تصدوا لأوجه الانحراف التى اعترت الإدارة المالية المملوكية العالم جلال الدين السيوطى[٥] « ت ٩١١هـ » الذى أصدر فتواه بعدم شرعية

---

(١) المقريزى « إغاثة الأمة » ص ٧٢، د. نجمان ياسين « التفكير الاجتماعى والاقتصادى فى كتاب إغاثة الأمة » ص ١٥٢، مجلة كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية ، عدد (٢٢) لعام ١٩٩٩م .

(٢) البرطلة : انظر ص ١٦١.

(٣) المقريزى « إغاثة الأمة » ص ١٠١، د. محمد سالم « أحوال مصر الاقتصادية » ص ٦٢٣، د. نجمان ياسين « التفكير الاجتماعى والاقتصادى فى كتاب « إغاثة الأمة » » ص ١٥٢.

(٤) المقريزى « إغاثة الأمة » ص ٣٤.

(٥) جلال الدين السيوطى : جلال الدين عبد الرحمن ، تفقه على شيوخ عصره ، درس وأفتى ، وصنّف مصنفات عديدة ، توفى ٩١١هـ ، انظر : الغزى « الكواكب السائرة » ص ٣١٥.

المكوس[1] التى كانت تفرضها الدولة ، وبيّن كيف شدد الرسول ﷺ فى النهى عن جباية المكوس وبشّر جابيها بالعذاب الأليم من الله عزّ وجلّ[2] .

* الجهود العملية لعلماء مصر والشام لإزالة الموارد غير الشرعية لبيت المال « الجهاد باللسان » .

لقد رصدت لنا المصادر التاريخية سعى علماء مصر والشام لإزالة الموارد غير الشرعية لبيت المال ، فعن المكوس[3] يذكر المؤرخون ـ فى ثنايا ترجمتهم ـ للعالم المصرى سراج الدين البلقينى[4] « ت ٨٠٥هـ » ، أنه أبطل عدة مكوس[5] فى الدولة المملوكية منها ـ على

---

(١) لقد كانت المكوس فى عصر المماليك ـ وبوجه خاص فى عصر المماليك الجراكسة ـ تمثل موردًا رئيسيًا لخزانة الدولة ، فلقد بلغت أوائل القرن التاسع الهجرى ، ٧٢ جهة ، ومن أهم هذه الجهات المكوس التى كانت تؤخذ على المحاصيل الزراعية مثل القمح والقصب ، أو تلك المكوس التى كانت تؤخذ عن الانتاج الصناعى مثل ما كان يؤخذ عن دور صناعة الملابس ، ومعاصر الزيتون والعنب ، أو تلك المكوس التى كانت تؤخذ على بضائع التجار المصريين والشاميين سواء الواردة أو الصادرة مثل مكس قَطْيا ـ قرية بين مصر والشام بالقرب من ساحل البحر المتوسط ـ ، ومكس عكا ، ولقد كانت تلك الضريبة تسمى « موجب باب المنيا » ، أو تلك الضريبة التى عرفت بـ « المشاهرة » والتى كانت تُفرض على الباعة فى الأسواق شهريًا ، انظر : د. طه ثلجى « مملكة صفد فى عهد المماليك » ص ١٧٨، د. البيومى إسماعيل « النظم المالية فى مصر والشام » ص ١٨٧، د. حياة ناصر « أحوال العامة فى حكم المماليك » ص ٣٧٠، دار القلم ، الكويت ، ١٩٩٤م ، ايرا لابيدوس « مدن الشام فى العصر المملوكى » ص ٨٣، د. البيومى إسماعيل « مصادرة الأملاك فى الدولة الإسلامية زمن سلاطين المماليك » ص ٣٤٨ ـ ٣٥٢، « سلسلة تاريخ المصريين » برقم (١١١) الهيئة المصرية العامة للكتاب ، محمد كرد « خطط الشام » ح٥ ص ٧٨، د. أحمد دراج « الحسبة وأثرها على الحياة الاقتصادية » ص ١٣٢ ـ ١٤١، د. قتيبة الشهابى « النقوش الكتابية فى أوابد دمشق » ص ١٩٣، منشورات وزارة الثقافة ، سوريا ، ١٩٩٧م .

(٢) السيوطى « جلال الدين عبد الرحمن ت ٩١١هـ » ، « ذم المكس » ص ١ ـ ٤، مخطوطة بدار الكتب المصرية ، برقم (١٤١٦ حديث) ، ومكروفيلم برقم (٢٢٦٤٤) .

(٣) سبق الحديث عن طبيعة المكوس فى العصر المملوكى ، انظر : ص ١٥٩.

(٤) سراج الدين البلقينى : عمر بن رسلان ، تفقه على شيوخ عصره ، درس ، وأفتى ، توفى عام ٨٠٥هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٦ ص ٨٨.

(٥) لم توضح المصادر التاريخية ـ التى اطلع عليها الباحث ـ الدور الذى لعبه سراج الدين البلقينى فى =

سبيل المثال ـ مكس القراريط(*)، ومكس(**) المغانى[1].

كذلك طلب العالم علاء الدين البخارى[2] «ت ٨٤١هـ» من السلطان برسباى[3] عام ٨٣١هـ/١٤٢٧م إبطال المكوس وبخاصة المكوس التى كانت تفرض على واردات وصادرات تجارة المصريين والشاميين[4]؛ حيث اعتبر الفقهاء أن الأموال التى تُحصل على واردات وصادرات التجار المسلمين ضرائب غير شرعية، بينما المال الذى يؤخذ من البضائع غير المسلمين الذين يقدمون بها إلى الدولة الإسلامية فهى ضريبة شرعية، ولقد أطلق على تلك الضريبة العشور(*)[5]، ولم تذكر المصادر التاريخية هل استجابت السلطة لعلاء الدين البخارى أم لا؟

= إبطال هذه المكوس، حيث جاء خبر إبطاله لتلك المكوس فى ثنايا ترجمته بشكل مقتضب، دون توضيح فى أى عام تم إبطالها.

(*) **مكس القراريط**: هى ضريبة تُفرض على الأشخاص إذا ما أرادوا التصرف فى ممتلكاتهم بالبيع، انظر: د. البيومى إسماعيل «النظم المالية» ص ١٩٢.

(**) **مكس المغانى**: كانت السلطة المملوكية اعترفت بالبغايا، وفرضت عليهن ضرائب مقررة، ولتحصيل تلك الضرائب جعلت الدولة للبغايا ضامنة تذهب إليها محترفة البغاء لتسجيل اسمها عندها، انظر: د. البيومى إسماعيل «النظم المالية» ص ٢٠٠.

(١) جلال الدين البلقينى «عبد الرحمن بن عمر ت ٨٢٤هـ» «ترجمة سراج الدين البلقينى» ص ٦، مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (٥٠٣٦٠)، ابن شهبة «الإعلام بتاريخ أهل الإسلام» ص ٣٢٢، السخاوى «الضوء اللامع» ح ٦ ص ٨٨.

(٢) علاء الدين البخارى: على بن محمد بن من كبار علماء الهند، رحل إلى مصر فى العصر المملوكى، واستقر بها فترة، ثم رحل إلى دمشق، ومكث بها حتى وفاته ٨٤١هـ، وانتفع علماء مصر والشام بعلمه الغزير، وكان كثير الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، انظر: ابن حجر «إنباء الغمر» ح ٩ ص ٢٣.

(٣) برسباى: سبق التعريف به بالفصل الأول، انظر: ص ١٠.

(٤) ابن حجر: «إنباه الغمر» ح ٨ ص ١٤٥.

(*) **العشور**: انظر: ص ١٥٨.

(٥) د. البيومى إسماعيل «النظم المالية» ص ١٨٨، د. محمد أمين «النظام المالى والاقتصادى فى الإسلام» ص ٢٨، د. عماد بدر الدين «وثائق بيع أملاك بيت المال» ص ١٧٨.

وفى عام ٨٧٥هـ/١٤٧٠م طالب علماء مصر بقيادة العالم ابن الشحنة[١] من السلطان قايتباى[٢] بإلغاء مكس الخشب، ومكس قَطْيا[٣] ـ الذى كان يُتحصل منه سنويًا نحو ثمانية ألف دينار[٤] ـ، بسبب تضرر المصريين من هذين المكسين بشكل خاص، فاستجاب السلطان لهما[٥].

أمّا عن مقاومة علماء دمشق للمكوس الظالمة، فتذكر المصادر التاريخية عام ٨٩٤هـ/ ١٤٨٨م أن دويدار[٦] السلطان بدمشق أركماس[٧] فرض مكوس ـ غير محددة ـ على أهالى المِزَّة[٨]، فلجأ أهالى المزة إلى علماء دمشق وعلى رأسهم العالم تقى الدين ابن

---

(١) ابن الشحنة: محمد بن محمد، تفقه على شيوخ عصره، ولى قضاءة الحنفية بالديار المصرية فى عهد السلطان قايتباى «ت ٩٠١هـ»، توفى ٨٩٠هـ، انظر: ابن الطباخ «إعلام النبلاء» ح ٥ ص ٢٩٨.

(٢) قايتباى: سبق التعريف به بالفصل الأول، ص ٢٢.

(٣) **قَطْيا**: قرية فى الطريق بين مصر والشام بالقرب من ساحل البحر المتوسط فى أول شبه جزيرة سيناء من ناحية الشمال الغربى، وحددها البعض بأنها فى الطريق بين القنطرة والعريش فى الجنوب الشرقى من محطة الرمانة، وعلى مسافة ١٠كم منها، وتبعد عن القنطرة ٤٥كم، إذ تقع فى الشمال الشرقى منها، وكانت قطيا تحظى باهتمام كبير من السلطة المملوكية منذ أوائل القرن الثامن، حيث أصبحت بمثابة نقطة جمارك، وبلغت مقدار الأموال المتحصلة من قطيا يوميا ما يقارب ألف دينار من الذهب ـ كما ذكر ابن بطوطة ـ، وتلك الأموال عندما تُجبى من تجارة المسلمين فهى غير شرعية ـ كما سبق القول، انظر: ابن بطوطة «رحلة ابن بطوطة» ص ٥٤، د. عادل عبد الحافظ «قطية: جمرك مصر الشرقى فى العصور الوسطى» ص٤٧ ـ ٥٩، مجلة الجمعية التاريخية المصرية»، مح (٣٧) لعام ١٩٩٠م.

(٤) وهذا بخلاف ما ذكره ابن بطوطة الذى زار مصر والشام عام ٧٢٦هـ، حيث ذكر أن عائد قطيا يبلغ يومًا ما يقارب ألف دينار من الذهب، انظر: ابن بطوطة «رحلة ابن بطوطة» ص ٥٤.

(٥) مجهول «حوادث الزمان» ص ٧٥، مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (١٤٦١٨)، ابن الصيرفى «إنباء الهصر» ص ٢١٧، ٢٢٠.

(٦) **دويدار دمشق**: وظيفة استحدثت بدمشق عام ٨٢٨هـ، وطبيعة عمله مراقبة تصرفات نائب دمشق، وإن كان فى الظاهر أنه فى خدمة النائب وعونًا له، انظر: د. أكرم حسن «نيابة دمشق» ص ٢٥٨.

(٧) **أركماس**: تولى أركماس وظيفة دويدار دمشق فى جمادى الآخرة عام ٨٩٤هـ، ثم نيابة حماة، ثم نيابة حلب، انظر: ابن الحمصى «حوادث الزمان» ح ١ ص ٣١٦، ح ٢ ص ٢٣، ١٣٠.

(٨) **المِزَّة**: هى قرية تقع داخل حدود الغوطة ـ والغوطة هى كل ما أحاط بدمشق من قرى شجراء ـ أى =

عجلون[١] ، فتوجه ابن عجلون يرافقه كبار علماء دمشق إلى أركماس وطالبوه بإبطال تلك المكوس ، فخضع أركماس لهم[٢] .

وكذلك تشير المصادر التاريخية إلى تجمع تجار الحرير بدمشق عام ٨٩٧هـ/١٤٩١م فى الجامع الأموى[٣] بمباركة من علماء[٤] دمشق للاحتجاج على الضريبة الكبيرة التى فُرضت على الأنوال الحريرية والتى بلغت ألفًا وخمسمائة درهم ، ثم توجه التجار بقيادة العلماء إلى دار السعادة[٥] ـ مقر نائب دمشق ـ ، وأخذوا ينددوا بتلك الضريبة ، واعلنوا إنكارهم واستياءهم من تلك الضريبة[٦] ، ولم تشر المصادر التاريخية إلى رد فعل السلطة المملوكية إزاء مظاهرة العلماء والتجار ، وهل استجابت لمطالبهم أم لا ؟

أمّا عن مقاومة علماء مصر والشام للاحتكار[٧] الذى كانت تمارسه السلطة المملوكية ،

= ذات شجر ـ ، وطول الغوطة ٣٠ ميل وعرضها ١٥ ميل ـ ، والمزة هى مما يلى الربوة وعليها بساتين كثيرة ، انظر : ابن طولون « ت ٩٥٣هـ » « المغرة فيما قيل فى المِزَّة » ص ٢، مكتبة القدسى والبُدير ، دمشق ١٣٤٨هـ ، صفوح خير « استغلال الأراضى فى غوطة دمشق » ص ١٣، ١٧، ماجستير ، آداب القاهرة « قسم الجغرافيا » ، ١٩٦٤م .

(١) تقى الدين ابن عجلون : أبو بكر بن عبد الله ، تفقه بشيوخ عصره ، انتهت إليه مشيخة الإسلام ورئاسة الشافعية بدمشق ، درس بالجامع الأموى بدمشق ، توفى ٩٢٨هـ ، انظر : الغزى « الكواكب السائرة » حـ١ ص ١١٥.

(٢) ابن الحمصى « حوادث الزمان » حـ١ ص ٣١٩.

(٣) الجامع الأموى : هو الجامع الذى أنشأه الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك عام ٨٩هـ ، وكان قد أنفق فى عمارته أموالًا طائلة ، وكان هذا الجامع فى العصر المملوكى يدرس فيه فنون العلم المختلفة من تفسير وحديث ونحو ذلك ، انظر : ابن بطوطة « رحلة ابن بطوطة » ص ٩٤، د. محمد أحمد دهمان « مدارس دمشق وحماماتها » ص ٣٢٠، مقال بمجلة المجمع العلمى العربى ، دمشق ، عدد رمضان ١٣٦٦هـ .

(٤) لم تذكر المصادر التاريخية علماء بأعينهم .

(٥) **دار السعادة :** هى مقر نواب دمشق ، ومركز الحكومة بها ، وتقع فى مكان بجامع سوق الحميدية ـ حاليًا ـ ، انظر : د. أكرم حسن « نيابة دمشق » ص ٣٠.

(٦) ابن طولون « مفاكهة الخلان » ص ١٤٦، د. مسعود محمد « الحياة الثقافية فى دمشق » ص ٧٠.

(٧) عن سياسة الاحتكار فى الدولة المملوكية ، انظر : د. حياة ناصر الحجى « أنماط من الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى سلطنة المماليك فى القرنين الثامن والتاسع الهجريين » ص ٦٧، جامعة =

وكان يؤدى إلى غلاء السلع الغذائية ، فتذكر لنا المصادر التاريخية ، أن مصر تعرضت لأزمة غلاء طاحنة فى الحبوب الغذائية وبخاصة القمح لمدة ثلاث أعوام متتالية تبدأ بعام ٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م وتنتهى بعام ٨٧٥هـ/١٤٧٠م ، وذلك لنقص مياه فيضان النيل فى تلك الأعوام ، ولكن المؤرخين كانوا يعزون هذا الغلاء الفادح لسبب آخر وهو قيام السلطة المملوكية « سلطان وأمراء » باحتكار الحبوب الغذائية مما أدى إلى تضخم أسعار الحبوب ، وقلة المعروض منها بالأسواق ، ولكن العلماء ـ كما تذكر المصادر التاريخية ـ بقيادة العالم أمين الآقصراى[(١)] فى عام ٨٧٣هـ/١٤٦٨م ، وعام ٨٧٤هـ/١٤٦٩م ، والعالم ابن الشحنة[(٢)] عام ٨٧٥هـ/١٤٧٠م ظلّوا يطالبوا السلطان قايتباى[(٣)] بفتح « الأهراء السلطانية »[(٤)] وبيع القمح الذى بها فى الأسواق بسعر مناسب ، وردع الأمراء الذين يحتكرون القمح ، واضطر السلطان قايتباى إزاء ضغوط العلماء إلى فتح الأهراء السلطانية ، فانخفض سعر القمح عقب ذلك[(٥)] .

وكذلك قاوم علماء دمشق سياسة الدولة الإحتكارية ، فعندما قام نائب[(٦)] دمشق

= الكويت ، ١٩٩٥م ، د. محمد أمين « التنظيمات الحكومية لتجارة مصر فى عصر المماليك الجراكسة » ص ١٥٨، حسين مصطفى « طوائف الحرفيين ودورهم الاقتصادى والثقافى » ص ١٧٩.

(١) أمين الآقصراى : يحيى بن محمد ، كان من كبار علماء الحنفية بمصر ، درس ، وأفتى ، توفى ٨٨٠هـ ، انظر : ابن إياس « بدائع الزهور » ح ٣ ص ١٠٧.

(٢) ابن الشحنة : انظر : ص ١٦٧.

(٣) قايتباى : سبق التعريف به بالفصل الأول ، انظر : ص ٢٢ .

(٤) **الأهراء السلطانية : الأهراء** : هى الشون ، والمقصود بالأهراء السلطانية شون غلال الدولة ، وكان لتلك الشون ديوان خاص تحت إشراف ديوان النظر « المالية » فى العهد المملوكى ، انظر : د. البيومى إسماعيل ، ص ٣٧، د. حياة ناصر « أنماط من الحياة السياسية » ص ٧٢.

(٥) مجهول « حوادث الزمان » ص ٥، ٥٧، ٦٦، ابن شاهين « الروض الباسم » ح ٤ ص ٢٠٣، ٢٤٩، ٢٥٠، ابن الصيرفى « إنباه الهصر » ص ١٦٢.

(٦) **نائب دمشق** : هو سلطان مختصر ـ بتعير القلقشندى ـ ، حيث أنه يحكم فى كل ما يحكم فيه السلطان فى نيابته ، ويُعبر عنه فى المكاتبات السلطانية بـ« كافل السلطنة الشريفة بالشام المحروس » ، انظر : القلقشندى « صبح الأعشى » ح ٤ ص ١٦، ١٨٤.

جُلُبَّان[١] الكمشبغاوى باحتكار اللحم فى الأسواق عام ٨٤٣هـ/١٤٣٩م مما أدى إلى اختفاء اللحم فى الأسواق وغلاء أسعاره، فتصدى له علماء دمشق بقيادة العالم شمس الدين الونائى[٢] ، فلم يستجب نائب دمشق لهم، فقام العالم شمس الدين الونائى بتأليب أهل دمشق ضد النائب، فثاروا عليه، وهاجموا مقر حكمه بـ « دار السعادة »[٣] ، واشتبكوا مع جنوده فى قتال ضروس، فهرع النائب إلى شمس الدين الونائى يطالبه بتسكين الأهالى، فاستجاب الونائى بعد أن خضع النائب لمطالبه، وتم إلغاء احتكار اللحم[٤] .

ومن تلك الموارد غير الشرعية لبيت المال التى كانت قائمة فى العصر المملوكى سياسة الطرح[٥] على التجار مما كان يؤدى إلى غلاء الأسعار[٦] ، ومن ذلك ما حدث بمصر عام

---

(١) جُلُبَّان الكمشبغاوى: جُلُبَّان بن عبد الله، ولى نيابة حماة وطرابلس، ثم دمشق عام ٨٤٣هـ، توفى ٨٥٩هـ، انظر: ابن تغرى « المنهل الصافى » ح٥ ص ١٠.

(٢) شمس الدين الونائى: محمد بن إسماعيل، تفقه بشيوخ عصره، ووصفه برهان الدين البقاعى « ت ٨٨٥هـ » بأنه « بحر من العلوم »، ولى قضاء الشافعية بدمشق ٨٤٣هـ، وتوفى ٨٤٩هـ، انظر: البقاعى « عنوان الزمان » ح ٢ ص ٤٦٥.

(٣) دار السعادة: انظر: ص ١٦٨.

(٤) العينى « عقد الجمان » ص ٥٥١، المقريزى « السلوك » ح ٤ ص ١١٨١، ابن الصيرفى « نزهة النفوس » ح٤ ص ١٦٩، ابن إياس « بدائع الزهور » ح٢ ص ٢٢٢.

(٥) **الطرح**: هو عبارة عن البيع القسرى الذى تقوم به السلطة المملوكية لبضائعها وسلعها للتجار بسعر يزيد عن قيمة السوق، وكان من أهم الموارد المالية غير المشروعة لبيت المال فى العصر المملوكى، ولقد كانت سياسة الطرح هذه سابقة للعصر المملوكى، فلقد ذكرها العالم أبى الفضل جعفر بن على الدمشقى ـ من علماء القرن السادس الهجرى ـ فى كتابه « الإشارة إلى محاسن التجارة »، انظر: الدمشقى « أبو الفضل جعفر ـ من علماء القرن السادس » « الإشارة إلى محاسن التجارة » ص ٦١، تحقيق البشرى الشوربجى، مكتبة الكليات الأزهرية، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، د. سعود محمد « الحياة الثقافية بدمشق » ص ٦٠.

(٦) عن سياسة الطرح فى الدولة المملوكية، انظر: د. البيومى إسماعيل « مصادرة الأملاك » ص ١٣٩، ايرامارفين لابيدوس « مدن الشام فى العصر المملوكى » ص ٨٣، د. محمد أمين « التنظيمات الحكومية لتجارة مصر » ص ١٦٠، د. فادى إلياس « المناخ والأسعار والأمراض فى بلاد الشام فى عهد المماليك » ص ٢٩٥، بيروت، ١٩٩٨م.

٨٣٢هـ/١٤٢٨م من طرح السلطة المملوكية القمح على التجار[(١)] ، وعام ٨٣٣هـ/١٤٢٩م من طرحها للسكر[(٢)] على التجار[(٣)] .

وما حدث بدمشق عام ٨٣٢هـ/١٤٢٨م ، وعام ٨٨٦هـ/١٤٨١م عندما طرحت السلطة المملوكية السكر على التجار[(٤)] .

أمّا عن مقاومة العلماء لسياسة طرح السلع الغذائية على التجار ، والتى كانت تؤدى إلى غلاء الأسعار ، فتذكر لنا المصادر التاريخية فى ثنايا ترجمة العالم علاء الدين البخارى[(٥)] ، أنه طالب السلطان برسباى[(٦)] ـ أثناء زيارة السلطان لدمشق ـ عام ٨٣٢هـ/١٤٢٨م بإبطال طرح السكر ، فاستجاب السلطان له[(٧)] .

وفى عام ٨٨٦هـ/١٤٨١م عندما طرح نائب دمشق[(٨)] قجماس[(٩)] السكر على تجار دمشق بأسعار عالية وصلت إلى ثلاثة وعشرين درهم للرطل[(*)] ، ولكن علماء دمشق بقيادة تقى الدين بن عجلون[(١٠)] طالبوا النائب أن يكون سعر الرطل خمسة عشر درهم ، فلم

---

(١) المقريزى « السلوك » ح٤ ص ٨٠١.

(٢) كانت صناعة السكر من الصناعات الهامة فى العصر المملوكى ، وكانت السلطة المملوكية لها النصيب الرئيسى فى تلك الصناعة التى أدرت لها أموال طائلة ، انظر : خلف عبد العليم « الحياة الاقتصادية فى بلاد الشام فى عصر سلاطين المماليك » ص ١٨٦، دكتوراة ، آداب جامعة المنيا ، ١٩٩٥م .

(٣) المقريزى « السلوك » ح ٤ ص ٨٣٣.

(٤) ابن طولون « المعزة فيما قيل فى المزة » ص ٣، ابن طولون « مفاكهة الخلان » ص ٣٩.

(٥) علاء الدين البخارى : انظر : ص ١٦٦.

(٦) برسباى : سبق التعريف به بالفصل الأول ، انظر : ص ١٠ .

(٧) ابن طولون « المعزة فيما قيل فى المزة » ص ٣.

(٨) نائب دمشق : انظر : ص ١٦٩.

(٩) قجماس : تولى نيابة دمشق عام ٨٨٦هـ ، وكان ظالمًا ، توفى عام ٨٩٢هـ ، انظر : ابن طولون « إعلام الورى » ص ٩٣.

(*) لم تذكر المصادر التاريخية ـ التى اطلع عليها الباحث ـ سعر رطل السكر قبل الطرح ، ولعله كان قريبًا من خمسة عشر درهم ، وهو السعر الذى طالب به العلماء النائب .

(١٠) تقى الدين بن عجلون : انظر : ص ١٦٨.

يستجب النائب لهم ، فقام ابن عجلون وعلماء دمشق بإرسال رسالة إلى السلطان قايتباى[(١)] فى هذا الموضوع ، وطالبوا تجار دمشق بالامتناع عن شراء السكر بالسعر الذى حدده النائب حتى يصل جواب السلطان على رسالتهم ، وجاء جواب السلطان مستجيبًا لمطالب العلماء حيث طالب النائب بأن يجمع السماسرة وأرباب الخبرة ويقدر سعر السكر بشكل عادل ، وتم تحديد سعر الرطل بستة عشر درهم ، وهو السعر الذى طالب به العلماء منذ بداية الأمر ـ تقريبًا ـ ، حيث كانوا قد طالبوا النائب بأن يكون سعر الرطل خمسة عشر درهم[(٢)] .

---

(١) قايتباى : سبق التعريف به بالفصل الأول ، انظر : ص ٢٢ .

(٢) ابن طوق « شهاب الدين أحمد ت ٩٢٥هـ » « يوميات ابن طوق » ح١ ص ٦٢، ٦٣، ٧٠، ٧٤، ٧٥، المعهد الفرنسى للدراسات العربية ، دمشق ، ٢٠٠٠م ، ابن طولون « مفاكهة الخلان » ص ٣٩ ـ ٤٧، د. سعود محمد « الحياة الثقافية » ص ٦٠.

المحور الثانى : العلماء والمعاملات المالية للمصريين والشاميين

لقد لعب العلماء دورًا مؤثرًا فى المعاملات المالية التى كانت تتم بين المصريين بعضهم البعض وكذلك التى كانت تتم بين الشاميين ، وذلك ما يمكن رصده تاريخيًا فى أمرين رئيسيين :

أ ـ القضاة والمعاملات المالية للمصريين والشاميين .

ب ـ استفتاء المصريين والشاميين العلماء فى معاملاتهم المالية .

أ ـ القضاة والمعاملات المالية للمصريين والشاميين :

لقد كان للعلماء من خلال ولايتهم للقضاء بمصر والشام فى العصر المملوكى الإشراف على المعاملات المالية[1] التى كانت تتم بين المصريين والشاميين ، وذلك أن العقود ذات الطبيعة المالية من ـ البيع[2] والرهن[3] ....

---

(١) **المعاملات المالية** : إن الأحكام العملية فى الشريعة الإسلامية تنتظم نوعين ، أحكام العبادات من صلاة وصوم وحج ونحوها من العبادات التى يقصد بها تنظيم علاقة الإنسان بربه ، وأحكام المعاملات من عقود وعقوبات وغيرها مما عدا العبادات ، والتى يقصد بها تنظيم علاقة المكلفين بعضهم ببعض ، والمعاملات المالية هى جزء من أحكام المعاملات ، ومن موضوعات تلك المعاملات البيع ، والرهن ، والشراكة ... إلخ ، انظر : د. رفيق العجم « موسوعة مصطلحات أصول الفقه عند المسلمين » ح١ ص ٧٢، مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت ، ١٩٩٨م .

(٢) **البيع** : « لغة » هو مبادلة المال بالمال ، وكذا فى الشرع لكن زيد فيه قيد التراضى ، وهو شرعى بالكتاب والسنّة والإجماع ، وهو أقسام صحيح وهو سبعة أنواع ، وفاسد وهو عشرون نوعًا ، والمختلف عليه فى قولين اثنى عشر نوعًا ، والمكروه تسعة أنواع ، انظر : شمس الدين الأسيوطى « جواهر العقود ومعين القضاة والموقعين والشهود » ص ٥٤، مطبعة السنة المحمدية ، ط٢ (١٩٥٥م) ، د. محمد زكى « أحكام المعاملات المالية فى المذهب الحنفى » ص ١٨، دار الثقافة ، قطر ط١ (١٩٨٦م) .

(٣) **الرهن** : هو جعل المال وثيقة على الديْن ليستوفى منه الديْن عند تعذره ، وهو جائز ، وله عناصر خمس « الراهن ـ المرتهن ـ الرهن ـ المرهون به ـ الصيغة » ، انظر : الأسيوطى « جواهر العقود » ص ١٥٢، د. أحمد على « موسوعة المفاهيم الإسلامية العامة » ص ٢٨٢، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ، ٢٠٠٠م .

والضمان[١] ... إلخ ـ كانت تتم من خلال المؤسسة القضائية ، حيث أن العقد كانت تتم صياغته وفق علم الشروط[٢] من خلال « الشهود العدول »[٣] ثم يقوم القاضى بوضع توقيعه عليه الذى عُرِف بـ « الإسجال الحكمى والتوثيقى » ، ولقد اتضح ذلك الأمر من خلال وثائق العصر المملوكى بمصر[٤] ، والتى منها ـ على سبيل المثال ـ وثيقة بيع برقم (٢٣٨/

---

(١) **الضمان :** « لغة » الكفالة ، فتقول ضمّنته الشيء ضمانًا إذا كفله ، واصطلاحًا يطلق على ضمان المال والتزامه سواء كان بعقد أو بغير عقد ، وهو جائز شرعًا حفظًا للحقوق ورعاية للعهود ، انظر : د. على مرعى « موسوعة المفاهيم الإسلامية العامة » ص ٣٥٩.

(٢) **علم الشروط :** هو علم قائم من علوم الفقه ، أرست قواعده المدرسة الحنفية ببغداد ، وسرى منها إلى بقية العالم الإسلامى ، وموضوع هذا العلم إنشاء الصيغ الشرعية للعقود ـ الأداة القانونية للتعامل والمصدر الأساسى للمعاملات ـ من بيع ورهن ونحو ذلك ، حيث قام الفقهاء بوضع الصيغ اللازمة لكل عقد ثم يتبعون كل صيغة بالتفسيرات والتعليلات التى تفسر التزامهم بصيغة دون أخرى ، وذلك فى ضوء أحكام الإسلام المستقاة من القرآن والسنة النبوية ، وبناء على ما توصل إليه الفقهاء صيغت العقود فى العصور التاريخية الإسلامية ، وبواسطته تمت صيانة الأموال التى أمرنا الله بصيانتها ، انظر : د. إنصاف عمر « دراسة فى صيغ الوثائق الخاصة فى مصر فى القرن العاشر الهجرى ومدى مطابقتها لقواعد علم الشروط » ص ١٩، دكتوراة ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٩٥م .

(٣) **الشهود العدول :** الشاهد العدل هو رجل عدّله القاضى وارتضاه عدلا ، كى يقوم بمهمات عدة ، منها كتابة العقود بين الناس فى معاملاتهم مستوفاة لشروطها الشرعية ، ولقد عُرِف هؤلاء أيضًا فى العصر المملوكى بكاتب الحُكم والشروط ، وكان يُشترط فى هؤلاء ـ كما يذكر النويرى ـ معرفة الفقه ، والعربية ، وعلم الحساب ، والفرائض ، خبيرًا بما يُكتب فى سائر العقود من ديْن ، وشراكة ونحو ذلك ، انظر : النويرى « نهاية الأرب فى فنون الأدب » ج ٩ ص ١ ـ ٩، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٣٥١هـ/ ١٩٣٣م ، د. عبد الخالق حسن « النظم القضائية بمصر » ص ٢٠٧، ٢١٩، د. محمد محمد أمين « الشاهد العدل فى القضاء الإسلامى : دراسة تاريخية مع نشر وتحقيق إسجال عدالة من عصر سلاطين المماليك » ص ٤٥، مجلة البحث العلمى ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، مكة المكرمة ، العدد (٥) لعام ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

(٤) حيث ظهرت دراسات عدة من قِبل الوثائقيين أثبتوا خلالها ـ مستندين لوثائق العصر المملوكى ـ أن تلك الوثائق « العقود » من « بيع وإيجار ونحو ذلك » صيغت وفقًا للقواعد التى وضعها علماء الشروط فى طرق صياغة العقود ، كما يظهر فى المصطلحات الفقهية المتداولة فى هذه الوثائق ، وكذلك أثبت الوثائقيين أن هذه العقود كانت يتم توثيقها من القضاة ومساعديه من كتاب الحكم والشروط ، ولقد عرف توقيع =

محفظة ٣٨) بدار الوثائق القومية ، ووثيقة إيجار برقم (٧٠١ح) بأرشيف وزارة الأوقاف المصرية .

وكذلك كان الأمر ببلاد الشام ، وذلك ما تثبته وثيقتين من وثائق العصر المملوكى بدمشق وغزة ، الأولى وثيقة وقف واستبدال رقم (٢٢٧/ محفظة ٣٦) بدار الوثائق القومية ، والثانية وثيقة وقف برقم (٢٨١/ محفظة ٤٣) بدار الوثائق القومية .

ولاشك أن إشراف القضاة وتوثيقهم للعقود المالية للمصريين والشاميين لعب دورًا هامًا فى صيانة أموال المصريين والشاميين ، وقطع المنازعة لأن العقد يصير حكمًا بين المتعاملين فيرجعان إليه عند المنازعة ، ولعل ما يؤكد ذلك لجوء المسيحيين واليهود فى أحوال كثيرة إلى القضاة المسلمين لتوثيق تصرفاتهم القانونية ، من بيع ووقف وميراث ونحو ذلك ، على الرغم من إعطاء السلطة المملوكية حق صياغة عقودهم ومعاملاتهم وفقًا لشريعتهم وبإشراف رهبانهم وأحبارهم[١] ، وذلك ما تشهد عليه إحدى وثائق دير سانت كاترين التى تحمل رقم (٢٥٢) ويرجع تاريخها إلى عام ٨٨٩هـ ، وموضوعها مصادقة شرعية بين رجل وامرأة من طائفة النصارى على تصفية تركة امرأة نصرانية هى أمّ المرأة وزوجة الرجل طرفى الوثيقة ، وقد انحصر إرثها فى هذين الاثنين بالإضافة إلى طفل قاصر هو ابن المتوفاة من

= القاضى فى هذه العقود بـ « الإسجال الحكمى والتوثيقى » ، وبذلك يصبح العقد قانونيًا ملزمًا لا يجوز إبطاله ، انظر :

أ ـ مريم صالح « دراسة دبلوماتية لوثائق فاطمة الخاصكية « ت ٩٠٩هـ » » ص ٣٩٥، ٤٠٢، ماجستير ، آداب القاهرة ، ١٩٩٤م .

ب ـ د. إنصاف عمر « دراسة فى صيغ الوثائق الخاصة فى مصر فى القرن العاشر الهجرى ، ومدى مطابقتها لقواعد علم الشروط » ص ١٠٠، ١٢٠، ١٣٢، ١٤١، ١٥١، ١٥٧.

جـ ـ د. عبد اللطيف إبراهيم « ثلاث وثائق فقهية من وثائق ديرسانت كاترين » ص ١٣٠، ١٣١، مقال بمجلة كلية آداب القاهرة ، ١٩٦٣م .

د ـ د. محمد عيسى صالحية « من وثائق الحرم القُدسى الشريف » ص ٣٩، ٥٨، حولية كلية الآداب ، جامعة الكويت ، الرسالة (٢٦) عام ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

(١) القلقشندى « صبح الأعشى » ح١١ ص ٤٠٢، ٤٠٤، ح١٢ ص ٤٢٥، د. قاسم عبد قاسم « اليهود فى مصر » ص ٦٦، دار الشروق ، ١٩٩٣م .

زوجها ، وقد مات الطفل فانحصر إرثه فى جدته ـ ملتزمين بأحكام الشريعة الإسلامية فى ذلك الأمر[1] ـ .

ب ـ استفتاء المصريين والشاميين العلماء فى معاملاتهم المالية :

تحدثنا المصادر التاريخية عن تزاحم المصريين والشاميين حول علمائهم ليستفتونهم فى أمور دينهم[2] ، ولقد كانت المعاملات المالية بين المصريين بعضهم البعض ، وكذا الشاميين تحتل جزءًا هامًا ، وذلك ما أكده علماء مصر والشام فى القرن التاسع ، حيث جمع بعض هؤلاء العلماء أو أبنائهم الفتاوى التى أجابوا بها المصريين والشاميين ـ الذين استفتوهم ـ فى كتب ، ومن هذه الكتب التى وصلت إلينا ـ وتيسر للباحث الوصول إليها ـ فتاوى سراج الدين البلقينى[3] « ت ٨٠٥هـ » ، والتى جمعها ولده جلال الدين البلقينى « ت ٨٢٤هـ »

---

(١) د. قاسم عبده قاسم « دراسة وتحقيق الوثيقة رقم ٢٥٢ « من مجموعة وثائق ديرسانت كاترين » ص ٢٥٧، المجلة التاريخية ، الجمعية التاريخية المصرية ، مح ٢٥، ١٩٧٨م .

(٢) من أمثال علماء مصر الذين تزاحم المصريين عليهم ليستفتونهم فى أمور دينهم ابن داود المصرى « ت ٨٠٧هـ » ، وابن القطان « ت ٨١٣هـ » ، وولى الدين أبو زرعة « ت ٨٢٦هـ » ، وسعد الدين الديرى « ت ٨٦٧هـ » ، والسيوطى « ت ٩١١هـ » ، وزكريا الأنصارى « ت ٩٢٦هـ » ، أما علماء دمشق ، فمنهم ـ على سبيل المثال ـ شهاب الدين العامرى « ت ٨٢٢هـ » ، برهان الدين الزرعى « ت ٨٧٩هـ » ، وأبى البركات « ت ٩٣٥هـ » ، أما علماء حلب فمنهم ـ على سبيل المثال ـ أبو بكر بن سليمان « ت ٨٠٣هـ » ، وابن خطيب الناصرية « ت ٨٤٣هـ » ، ومن القدس ـ على سبيل المثال ـ ابن الهائم « ت ٨١٥هـ » ، وشمس الدين القلقشندى « ت ٨٠٩هـ » ، انظر : ـ على التوالى ـ ، ابن مفلح « المقصد الأرشد » ح٢ ص ١٣٨، ابن حجر « إنباء الغمر » ح٦ ص ٢٥٩، المقريزى « السلوك » ح٤ ص ٥٨٥، الغزى « الطبقات السنية » ص ٢٢، السيوطى « التحدث بنعمة الله » ص ٨٩، العيدروس « النور السافر » ص ١٧٥، ابن قاضى شهبة « طبقات الشافعية » ح٢ ص ٣١٠، ابن الحمصى « حوادث الزمان « ح١ ص ٢٠٦، ابن طولون « ذخائر القصر » ص ٤٩١، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٤ ص ٢٥، ابن الطباخ « إعلام النبلاء » ح ٥ ص ٢٢١، ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٧ ص ٨١، ابن قاضى شهبة « طبقات الشافعية » ح٢ ص ٢٨٩.

(٣) سراج الدين البلقينى : انظر : ص ١٦٥.

فى مصنف بعنوان « التجرد والاهتمام » ، وكذا فتاوى جلال الدين السيوطى[(١)] « ت ٩١١هـ » التى جمعها فى مصنف بعنوان « الحاوى للفتاوى » ، وكذا فتاوى زكريا الأنصارى[(٢)] « ت ٩٢٦هـ » والتى جمعها ولده محب الدين الأنصارى تحت عنوان « فتاوى زكريا الأنصارى » ، هذا بالنسبة لعلماء مصر ، أما بالنسبة لعلماء الشام فلقد وصل إلينا الفتاوى التى افتى بها شمس الدين البلاطنسى[(٣)] « ت ٨٦٣هـ » وعُرِفت بـ « فتاوى البلاطنسى » .

وبالنظر فى تلك الفتاوى نجد أن المعاملات المالية احتلت فيها جزءًا كبيرًا ، فهناك باب للبيوع[(*)(٤)] ، وباب للضمان[(*)(٥)] ، وباب للرهن[(*)(٦)] ، ....

---

(١) جلال الدين السيوطى : انظر : ص ١٦٤.

(٢) زكريا الأنصارى : زكريا بن محمد ، ولد ٨٢٦هـ ، تفقه على شيوخ عصره ، درس وأفتى ، تولى قضاء الشافعية ، وباشر أمانة الحكم بعفة ، توفى ٩٢٦هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٣ ص ٢٣٨، العيدروس « النور السافر » ص ١٧٥.

(٣) شمس الدين البلاطنسى : محمد بن عبد الله ، تفقه على شيوخ عصره ، درس وأفتى بدمشق ، توفى ٨٦٣هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٨ ص ٨٦.

(*) **البيع** : انظر : ص ٧٣.

(٤) جلال الدين البلقينى « ت ٨٢٤هـ » « التجرد والاهتمام » ص ٣٦ ـ ٤٥، مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (٤٣٥٣) ، محب الدين الأنصارى « فتاوى زكريا الأنصارى » ص ٩٠ ـ ٩٩، مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (١١٩٠١) ، ولى الدين العراقى « الفتاوى » ص ١٦ ـ ١٩، مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم (١٢٤٧٥) ، تقى الدين البلاطنسى « ٩٣٦هـ » « فتاوى شمس الدين البلاطنسى « ت ٨٦٣هـ » » ص ٥٧، ١٣١، ١٧٢، مخطوطة بدار الكتب برقم (١٢٤٥٨) ، السيوطى « الحاوى للفتاوى » ح١ ص ٩١، إدارة الطباعة المنيرية ، القاهرة ، ١٣٥٢هـ .

(*) **الضمان** : انظر : ص ١٧٤.

(٥) محب الدين الأنصارى « فتاوى زكريا الأنصارى » ص ١٠٨، تقى الدين البلاطنسى « فتاوى البلاطنسى » ص ٣١، ولى الدين العراقى « الفتاوى » ص ٢٢، جلال الدين البلقينى « التجرد والاهتمام » ص ٥٤ ـ ٥٧، السيوطى « الحاوى للفتاوى » ح١ ص ١٠٧.

(*) **الرهن** : انظر ص ١٧٣.

(٦) جلال الدين البلقينى « التجرد والاهتمام » ص ٤٦ ـ ٤٨، محب الأنصارى « فتاوى زكريا =

وباب للوكالة(*)(١)، وباب للإجارة(*)(٢)، وباب للسَّلَم(*)(٣) ونحو ذلك .

كذلك تحدثنا المصادر المملوكية عن بعض الموضوعات المرتبطة بالمعاملات المالية للمصريين والشاميين، والتى كثرت استفتاءات المصريين والشاميين حولها حرصًا على الالتزام بأحكام الشرع وعدم مخالفته، ومن هذه الموضوعات موضوعيين رئيسيين هما :

= الأنصارى » ص ١٠٠ ـ ١٠١، ولى العراقى « الفتاوى » ص ٢٠، تقى الدين البلاطنسى « فتاوى البلاطنسى » ص ٣١، السيوطى « الحاوى للفتاوى » ح١ ص ١٠٥.

(*) **الوكالة** : تفويض شخص جائز التصرف حال حياته مثله فى تصرف معلوم تجوز فيه النيابة شرعًا مطلقًا أو مقيدًا، كالبيع والشراء وسائر عقود المعاملات قياسًا عليهما، وكذلك تملك المباحات، وإثبات الأموال، وقبض الديون وإقباضها، ولا تجوز الوكالة فى العبادات الدينية كالصلاة والصوم، د. عبد الهادى محمد « الوكالة » ص ٩٥٠، مجلة البحوث الفقهية والقانونية، العدد (١٨)، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، كلية الشريعة والقانون، فرع دمنهور ـ جامعة الأزهر .

(١) ولى العراقى « الفتاوى » ص ٢٤، محب الأنصارى « فتاوى زكريا الأنصارى » ص ١١٧، جلال البلقينى « التجرد والاهتمام » ص ٦٠، السيوطى « الحاوى » ح١ ص ١١٢.

(*) **الإجارة** : هى عقد على المنافع بعوض، والمقصود بالمنافع هى الأشياء المتعاقد على إجارتها، والعوض هو الثمن المدفوع مقابل هذه المنفعة، وحكمها مباح شرعًا، انظر : د. أحمد يوسف « عقود المعاوضات المالية فى ضوء أحكام الشريعة الإسلامية » ص ٢٣٧، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٩٣م .

(٢) ولى العراقى « الفتاوى » ص ١٣١، جلال البلقينى « التجرد والاهتمام » ص ٦٧، محب الأنصارى « فتاوى زكريا الأنصارى » ص ١٣١، البلاطنسى « فتاوى البلاطنسى » ص ١٧٦، السيوطى « الحاوى » ح١ ص ١٢٤.

(*) **السَّلَم** : السَّلَم له معنيان ـ فى المعاملات ـ، **الأول** : وهو القرض الذى لا منفعة للمقرض فيه غير الأجر والشكر، وعلى المقترض رده كما أخذه، **والثانى** : هو نوع من البيوع يتعجل فيه رأس المال وهو الثمن ويتأجل فيه المبيع ـ وهو المسلم فيه المعلوم ـ إلى أجل معلوم وذلك بشروط خاصة، انظر : د. حمدى عبد المنعم « السَّلَم « أجله، ووجود المسلم فيه » »، ص ٤٠١، مجلة البحوث الفقهية والقانونية، العدد (١٣)، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، كلية الشريعة والقانون، فرع دمنهور ـ جامعة الأزهر .

(٣) ولى العراقى « الفتاوى » ص ١٩، جلال البلقينى « التجرد والاهتمام » ص ٥٤، محب الأنصارى « فتاوى » زكريا الأنصارى » ص ١٠٠، تقى الدين البلاطنسى « فتاوى البلاطنسى » ص ٨٥، ١٧١، السيوطى « الحاوى » ح١ ص ٩٣.

(*) تقنين العلاقة المالية بين المقطع « حائز الإقطاع » والمستأجر « الفلاح » .

(*) حكم العقود المالية عند تغيير النقود .

(*) تقنين العلاقة المالية بين المقطع « حائز الإقطاع » والمستأجر « الفلاح » :

لا تخرج قوانين الفلاحة التى يسير على أساسها الفلاح فى زراعة الأرض ـ فى العصر المملوكى ـ عن نظام الإيجار[*] أو المقاسمة[*][(١)] .

ولقد كثرت الاستفتاءات حول حكم زراعة الأرض المقطعة بنظام الإيجار أو المقاسمة ومدى شرعية ذلك ، وتعرض النظامين للجدل الفقهى بقصد التشريع ، فأما الإيجار ، فقد اختلف علماء مصر والشام[(٢)] فى جوازه من عدم جوازه ، فمن الذين أفتوا بجوازه محى الدين[(٣)] النووى « ت ٦٧٨هـ »[(٤)] ، ....

(*) **الإيجار :** انظر : ص ١٧٨.

(*) **المقاسمة :** هى زراعة الأرض على شرط مما يخرج منها المحصول ، وفى المقاسمة يكون البذر من حائز الإقطاع ، والمقاسمة تختلف بحسب نوع الأرض وتربتها ونوع ريّها فتكون تارة مناصفة وتارة أخرى مثالثة وهكذا ، انظر : د. إبراهيم طرخان « النظم الإقطاعية فى دولة المماليك » ص ١٣١، دكتوراة ، آداب القاهرة ، ١٩٥٥م ، د. عبد العزيز خليفة « المساقاة وأحكامها منهج تنموى فى المؤسسات المالية الإسلامية » ص ٣٩١، مجلة كلية الشريعة والقانون ، جامعة الأزهر ، العدد (٢٨) لعام ٢٠٠٤م .

(١) مجدى عبد الرشيد « القرية المصرية » ص ١٤٠، ١٤٤، د. عماد بدر الدين « تطور الحيازة الزراعية زمن المماليك الجراكسة » ص ٧، دار عين للنشر ، القاهرة ، ٢٠٠٠م ، د. إبراهيم طرخان « النظم الإقطاعية » ص ١٣١، خلف عبد العليم « الحياة الاقتصادية فى بلاد الشام » ص ١٤٧، أحمد عبد الكريم « الحياة الزراعية فى مصر فى العصر المملوكى » ص ٣٩.

(٢) كان النظام الإقطاعى ببلاد الشام مماثل للنظام الإقطاعى فى مصر ، انظر خلف عبد العليم « الحياة الاقتصادية فى بلاد الشام » ص ١٠٣.

(٣) محى الدين النووى : يحيى بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، صار رأس الشافعية بدمشق فى عصره ، درس وأفتى ، توفى ٦٧٨هـ ، انظر : السبكى « طبقات الشافعية » ح ٧ ص ٥١.

(٤) شمس الدين الكفرسوى « ت ٩٣٣هـ » « مجموع شرح فرايض المنهاج » ص ٢٤٦، مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (٤٨٤ مجاميع) ، لسان الدين ابن الشحنة « أحمد بن محمد « ت ٨٨٢هـ » » « لسان الحكام فى معرفة الأحكام » ص ١٧١، مخطوطة بجامعة القاهرة برقم [١٩٦٨٥] .

وابن تيمية[١] « ت ٧٢٨هـ »[٢] ، ولسان الدين ابن الشحنة[٣] « ت ٨٨٢هـ »[٤] ، وسعد الدين الديرى[٥] « ت ٨٦٧هـ »[٦] ، وجلال الدين السيوطى[٧] « ت ٩١١هـ »[٨] ، غير أن هناك فريق من العلماء أفتى بعدم جواز إيجار الإقطاع[٩] ، ومنهم العالم شمس الدين البلاطنسى[١٠] « ت ٨٦٣هـ »[١١] ، ولكن الرأى الغالب لعلماء مصر والشام الجواز[١٢] .

ويعلل الفقهاء الذين رأوا صحة إجارة الإقطاع بأن المقطع مستحق لمنفعة الإقطاع ، وبالتالى فيجوز له إجارة الإقطاع[١٣] ، بينما الفريق الآخر يرى عدم صحة إجارة الإقطاع لأن السلطان « ولى الأمر » قد ينتزع الإقطاع من المقطع ، أو يقطعها غيره[١٤] .

أمّا المقاسمة ، فلقد كثر الاستفتاء حولها ـ أيضًا ـ ، ومن ذلك الاستفتاء الذى صدر فى عصر المماليك خلال القرن التاسع ونصه « ما قول سادتنا علماء المسلمين ـ رحمة الله عليهم

---

(١) ابن تيمية : أحمد بن عبد الحليم ، شيخ الإسلام بدمشق فى عصره ، درس وأفتى ، واشتهر بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، توفى ٧٢٨هـ ، انظر : ابن العماد الحنبلى « شذرات الذهب » ح ٦ ص ٨٠.

(٢) ابن قيم الجوزية « الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية » ص ٢١٢.

(٣) لسان الدين ابن الشحنة : أحمد بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، ولى قضاء الحنفية بحلب ، توفى ٨٨٢هـ ، انظر : ابن الطباخ « إعلام النبلاء » ح٥ ص ٢٧٨.

(٤) لسان الدين ابن الشحنة « لسان الحكام » ص ١٧١.

(٥) سعد الدين الديرى : سعد بن محمد ، تفقه بشيوخ عصره ، حتى صار رأس المذهب الحنفى فى عصره ، ولى قضاء الحنفية بمصر ، توفى ٨٦٧هـ ، انظر : ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٦ ص ٢٨٥.

(٦) ابن الشحنة « لسان الحكام » ص ١٦٩.

(٧) جلال الدين السيوطى : انظر : ص ١٦٤.

(٨) السيوطى « الحاوى للفتاوى » ح ١ ص ١٢٥.

(٩) شمس الدين الكفرسوى « مجموع شرح فرايض المنهاج » ص ٢٤٦.

(١٠) شمس الدين البلاطنسى : انظر : ص ١٧٧.

(١١) تقى الدين البلاطنسى « فتاوى البلاطنسى » ص ١٧٧.

(١٢) شمس الدين الأسيوطى « جواهر العقود » ص ٢٧٢.

(١٣) شمس الدين الكفرسوى « مجموع شرح فرايض المنهاج » ص ٢٤٦.

(١٤) د. إبراهيم طرخان « النظم الإقطاعية » ص ١٣٢.

أجمعين ـ فى الأرض التى أقطعها السلطان أو أرض غيرها إذ زرعها فلاح بطريق شرعى مقاسمة بالثلث والربع، فهل يجوز ذلك أم لا ؟ » .

ولقد أجاب فقهاء الحنفية بالجواز[١]، ولقد أجاز المقاسمة علماء الحنابلة ـ أيضًا ـ أمثال ابن تيمية « ت ٧٢٨هـ »[٢]، وابن قيم الجوزية « ت ٧٥١هـ »[٣]، بل هو رأى جمهور علماء الإسلام[٤] .

(*) حكم عقود المعاملات المالية عند تغيير النقود :

لقد شهد القرن التاسع الهجرى كثرة قيام السلطة المملوكية بإبطال النقود المتداولة وسكّ نقود جديدة[*]، مثلما حدث عام ٨١٨هـ/١٤١٥م عندما قام السلطان المؤيد شيخ[٥] بإبطال الدنانير الناصرية ـ نسبة إلى السلطان الناصر فرج[٦] بن برقوق « ت ٨١٥هـ » ـ وسكّ الدراهم المؤيدية[٧]، ولقد تكرر المشهد السابق عهد السلطان برسباى عام ٨٢٩هـ/

(١) شمس الدين الكفرسوى « شرح فرايض المنهاج » ص ١٩٤، د. إبراهيم طرخان « النظم الإقطاعية » ص ١٣١.
(٢) ابن قيم الجوزية « الطرق الحكمية » ص ٢١٢.
(٣) ابن قيم الجوزية « الطرق الحكمية » ص ٢١٢.
(٤) ابن جماعة «ت ٨٣٣هـ» «شرح مسألة المزارعة» ص ٢٨٥، مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (٤٨٤ مجاميع)، د. إسماعيل إبراهيم « التوزيع والنقود فى الاقتصاد الإسلامى والاقتصاد الوضعى » ص ٥٧، مجلس النشر العلمى، جامعة الكويت، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م .
(*) وذلك بسبب تعرض النقود فى العصر المملوكى لعمليات غش كثيرة وزيف مما كان يؤثر بشدة على الأوضاع الاقتصادية فى البلاد، فتضطر السلطة إلى إبطال تلك العملة المغشوشة وسك عملة جديدة، وعن عمليات غش العملة فى العصر المملوكى، انظر : الأسدى « التيسير والاعتبار » ص ١١٥، ١٢١، ١٢٦، د. حامد زيان « الأزمات الاقتصادية والأوبئة فى مصر عصر سلاطين المماليك » ص ١٥، المكتبة العالمية، القاهرة، « د. ت »، د. فادى إلياس « المناخ والأسعار » ص ٢١٦، د. حمود بن حمد « النظام النقدى المملوكى » ص ٥٠٦ ـ ٥٢٣، دكتوراة كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود، ١٩٨٨م .
(٥) شيخ : سبق التعريف به بالفصل الأول، انظر : ص ٣٧ .
(٦) فرج بن برقوق : سبق التعريف به بالفصل الأول، انظر : ص ١٥ .
(٧) ابن حجر العسقلانى « إنباء الغمر » ح ٧ ص ١٦٦، المقريزى « السلوك » ح ٦ ص ٣٧٩، المقريزى « ثلاث رسائل » ص ١٥، العينى « عقد الجمان » ص ٢٢١.

١٤٢٥م[١] .

كذلك شهد القرن التاسع كثرة قيام السلطة المملوكية بتغيير حساب النقود دون إبطالها بمعنى تغيير النسبة القائمة بين « الدينار والدرهم »[٢] سواء بالزيادة أو النقصان ، مثلما حدث عام ٨٢١هـ/١٤١٨م عندما قام السلطان شيخ بتغيير حساب النقود ، حيث أمر بتغيير سعر صرف الدينار الذى بمائتين وثمانين ليصبح بمائتين وخمسين[٣][*] ، وتكرر المشهد السابق فى عهد السلطان إينال[٤] عام ٨٦٢هـ/١٤٥٧م[٥] .

ولقد كان تغيير النقود ـ السابق ذكره ـ يجعل المصريين والشاميين يهرعون للعلماء يستفتونهم عن اثر تغير النقود على المعاملات المالية المؤجلة الدفع من عقود بيع وشراء وإيجار وقرض ونحو ذلك ، وهذا ما ذكره لنا عالمين من علماء القرن التاسع الهجرى ، أولهما

---

(١) برسباى : سبق التعريف به بالفصل الأول ، انظر : ص ١٠ .

(٢) ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٤ ص ١١٩، المقريزى « السلوك » ح ٤ ص ٧٠٩، ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٨ ص ٩٥.

(٣) ترجع أصول النقد فى مصر والشام زمن المماليك الجراكسة إلى العصور الإسلامية السابقة ، حيث كان التعامل بالذهب والفضة والنحاس ، فكان الدينار هو أعلى قطعة من نقود الذهب ، والدرهم أعلى قطعة من نقود الفضة ، أمّا العملة النحاسية تحمل لفظ الدراهم النحاسية وعُرِفت فى العصر المملوكى بـ « الفلوس » ، وكان يتم تقويم الدينار بوحدات الدراهم الفضية ، وكذلك الحال للدراهم النحاسية ، وهو ما يعبر عنه بسعر الصرف ، ولكن هذا السعر لم يكن يثبت على حال واحدة بل يتغير لأسباب عدة ، مثل كثرة أحد المعدنين وقلة الآخر ، ولمزيد من الإيضاح حول هذا الموضوع ، انظر : د. سامح عبد الرحمن « الوحدات النقدية المملوكية » ص ١٧، دار تهامة ، السعودية ، ١٩٨٣م ، د. حمود بن حمد « النظام النقدى المملوكى » ص ٥٠٦، د. فادى إلياس « المناخ والأسعار » ص ٢١٦، د. نقولا زيادة « دمشق فى عصر المماليك » ص ١٧٠، رأفت البتراوى « مسكوكات المماليك الجراكسة فى مصر » ص٢٤٣ ـ ٢٨٥، دكتوراة ، كلية الآثار ، ١٩٨١م ، د. محمد أمين « التنظيمات الحكومية » ص ١٥٤ وما بعدها .

(*) لم توضح المصادر التاريخية التى اطلع عليها الباحث سبب تغيير السلطان شيخ سعر صرف الدينار .

(٤) المقريزى « السلوك » ح ٤ ص ٤٣٧.

(٥) إينال : سبق التعريف به بالفصل الأول ، انظر : ص ١٠ .

(٦) ابن تغرى « حوادث الدهور » ح٢ ص ٣١٠.

مصرى وهو العالم جلال الدين السيوطى[١] « ت ٩١١هـ »[٢] ، وثانيهما مقدسى وهو العالم ابن الهائم المقدسى[٣] « ت ٨١٥هـ »[٤] .

وكان نص الاستفتاء الذى توجه به المصريون والشاميون إلى العلماء « كيف يتعاملون فيما بينهم من عقود بيع وشراء وإيجار وقرض ونحو ذلك عندما يغير السلطان أو نائبه حساب النقود وقيمتها بالانخفاض أو الزيادة ، أو عندما تحظر السلطة النقود المتداولة وتطرح عملة جديدة ؟ »[٥] .

ولقد أجاب ابن الهائم والسيوطى على استفتاءات المصريين والشاميين بأنه عندما يحدث تغير فى قيمة[*] النقود ـ بالزيادة أو النقصان ـ ، بأنه فى حالة القرض[٦] ، إذا كان فى ذمة

---

(١) جلال الدين السيوطى : انظر : ص ١٦٤.

(٢) السيوطى « الحاوى للفتاوى » ح١ ص ٩٥، السيوطى « التحدث بنعمة الله » ص ١٢٣.

(٣) ابن الهائم : أحمد بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، درس بالقدس الشريف ، وتوفى ٨١٥هـ ، انظر : ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٢ ص ٥٢٥، تحقيق د. حسن حبشى ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، وزارة الأوقاف ، ١٣٩١هـ/١٩٧١م ، المقريزى « درر العقود » ح ١ ص ٢٩٥، ابن قاضى شهبة « طبقات الشافعية » ح ٢ ص ٢٦١.

(٤) ابن الهائم « ت ٨١٥هـ » « نزهة النفوس فى التعامل بالفلوس » ص ٣، مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (١٠٧٣) فقه شافعى ، ومكروفيلم (٢٩٥٥٢) .

(٥) ابن الهائم « نزهة النفوس » ص ٣، السيوطى « الحاوى للفتاوى » ح ١ ص ٩٥، السيوطى « التحدث بنعمة الله » ص ١٢٣.

(*) يرى علماء الإسلام أمثال ابن قيم الجوزية « ت ٧٥١هـ » أنه يجب أن تتسم النقود بالثبات النسبى لتظل تؤدى وظائفها كاملة ، فتكون معيارًا مستقرًا لا يزيد ولا ينقص لأنها مقياس للقيم ، والمقياس يجب أن يكون منضبطًا كمقياس الطول والكيل والوزن ، فالنقود أثمان للمبيعات ، والثمن هو المعيار الذى يعرف به تقويم الأموال ، فيجب أن يكون محددًا مضبوطًا لا يرتفع ولا ينخفض ، إذ لو كان الثمن يرتفع وينخفض كالسلع ، لم يكن لنا ثمن نعتبر به المبيعات ، بل الجميع سلع ، فتفسد معاملات الناس ويحدث الضرر والظلم ، انظر : د. إسماعيل إبراهيم « التوزيع والنقود فى الاقتصاد الإسلامى » ص ٤٣٢، د. محمد عبد المنعم « سوق النقود فى الاقتصاد الإسلامى » ص ٥٦، مجلة البحث العلمى والتراث الإسلامى ، مكة المكرمة ، عدد (٤) ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

(٦) **القرض** : « **الديْن** » : هو ما يثبت فى الذمة من مال بسبب يقتضى ثبوته ، فتدخل فيه كل الديون المالية=

رجل ديْن وحدث تغير فى قيمة النقود ـ بالزيادة أو النقصان ـ قبل الأداء فإن الواجب على المدين أداء النقد المحدد فى العقد دون زيادة أو نقصان ، وليس للدائن سواه ، وكذا فى حالة البيع إذا بيع شىء بثمن معين فتغيرت قيمة النقد ـ بالزيادة أو النقصان ـ قبل قبض الثمن فليس للبائع سوى الثمن على حساب ما كان التعامل به يوم العقد لا حساب ما حدث بعد ذلك التغيير ، ولا ينفسخ العقد ، وهكذا فى سائر المعاملات(١) ، وهذا هو رأى جمهور علماء الإسلام ـ أيضًا ـ(٢) .

أمّا فى حالة إبطال السلطان للنقد المتعامل به ، بأنه فى حالة الديْن ، إذا كان فى ذمة رجل نقدًا فأبطل السلطان المعاملة به ، فليس للدائن سوى النقد الذى أقرضه ، وكذا فى حالة البيع إذا بيع شىء بنقد معين فأبطله السلطان قبل قبض الثمن ، فليس للبائع سوى النقد القديم ، وليس له النقد الذى أحدثه السلطان ، ولا ينفسخ العقد ، وهكذا فى سائر المعاملات(*)(٣) .

= سواء منها ما ثبت فى نظير عين مالية وما ثبت فى نظير منفعة ، وما ثبت حقًا لله تعالى من غير مقابل كالزكاة ، وتخرج عنه سائر الديون غير المالية من صلاة فائتة ونحو ذلك ، انظر : د. نزيه كمال « حقيقة الديْن وأسباب ثبوته فى الفقه الإسلامى » ص ١٦، مجلة البحث العلمى والتراث الإسلامى ، مكة المكرمة ، السعودية ، عدد (٤) ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

(١) ابن الهائم « نزهة النفوس » ص ٣، ٢٢، السيوطى « الحاوى للفتاوى ح ١ ص ٩٧، ٩٨.

(٢) حيث أن ذلك هو رأى الشافعية ، والحنابلة ، والمالكية « على المشهور عندهم » ، وأبو حنيفة النعمان ، انظر : لمزيد من الإيضاح ، د. إسماعيل إبراهيم « التوزيع والنقود فى الاقتصاد الإسلامى » ص ٤٣٦، ٤٥٧، د. نزيه كمال « تغير النقود وأثره على الديون فى الفقه الإسلامى » ص ٧٤، مجلة البحث العلمى والتراث الإسلامى ، مكة المكرمة ، عدد (٣) ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .

(*) اختلف العلماء فى تلك المسألة على أربعة أقوال :

ـ **القول الأول** : للإمام أبى حنيفة النعمان ، وهو يرى أن النقد الذى كسد ، إذا كان ثمنا فى بيع فإنه يفسد العقد ، وعلى المُشترى رد المبيع إن كان قائمًا ، وقيمته أو مثله إن كان هالكًا ، أما إذا كان ديْنًا فى قرض أو مهرًا مؤجلًا فيجب ردّ مثله .

ـ **القول الثانى** : لأبى يوسف والحنابلة ـ على الراجح عندهم ـ ، والمالكية ـ فى غير المشهور ـ ، وهو أنه لا يجزئ ردّ المثل بعد ما كسد ، ويجب على المدين ردّ قيمة النقد الذى وقع عليه العقد ـ يوم التعامل ـ من نقد آخر . =

....

= **ـ القول الثالث**: لمحمد بن الحسن الشيبانى، وبعض الحنابلة، وهو أنه يجب على المدين رد قيمة النقد الذى وقع عليه العقد من النقد الآخر وقت الكساد، أى فى آخر «نفاقها» وهو آخر ما تعامل الناس بها، لأنه وقت الانتقال إلى القيمة، إذ كان يلزمه ردّ مثلها ما دامت نافقة، فإذا كسدت انتقل إلى قيمتها حينئذ.

ـ القول الرابع: وهو للشافعية والمالكية ـ على المشهور عندهم ـ، وهو أن النقد إذا كسد بعد ثبوته فى الذمة وقبل أدائه، فليس للدائن سواه، ويعتبر هذا الكساد كجائحة نزلت بالدائن، ولا فرق فى ذلك أن يكون الدين قرضًا، أو ثمن مبيع أو غير ذلك، انظر: د. نزيه كمال «تغير النقود وأثره على الديون فى الفقه الإسلامى» ص ٦٨.

(٣) ابن الهائم «نزهة النفوس» ص ٢٣، ٢٤، ٢٥، السيوطى «الحاوى للفتاوى» ح ١ ص ٩٧، ٩٨.

المحور الثالث : جهود العلماء فى تنمية الحياة الاقتصادية وتطويرها

سيتم تناول جهود العلماء فى تنمية الحياة الاقتصادية وتطويرها بمصر والشام من خلال خمسة أمور هى :

أ ـ العلماء وتثمير أموال الأوقاف وتعميرها .

ب ـ العلماء وتثمير أموال المودع الحكمى(*) .

جـ ـ العلماء وإصلاح العملة .

د ـ العلماء وضبط الأسواق .

هـ ـ العلماء وممارسة الأنشطة الاقتصادية .

أ ـ العلماء وتثمير أموال الأوقاف[1] وتعميرها :

لقد كان « ديوان الأوقاف » أحد دواوين الدولة المالية الهامة فى العصر المملوكى ، وكان

(*) **المودع الحكمى** : هو موضع حصين أنشأه قاضى الشافعية بمصر ابن دقيق العيد « ت ٧٠٢هـ » ، حيث قرر خلال ولايته للقضاء أن من مات وله وارث ، فإن كان كبيرًا قبض صحته ، وإن كان صغيرًا تم إيداع المال فى ذلك الموضع ، ويكون ذلك تحت إشراف قاضى الشافعية ، انظر : د. آدم صبره « الفقر والإحسان فى مصر » ص ١٠١ ، عبد الأعلى مهدى « عز الدين بن عبد السلام ومدرسته السياسية » ص ١٧١ .

(١) **الوقف** : عرفه الفقهاء بأنه حبس العين والتصدق بمنفعتها على جهة من جهات البرّ ابتداءًا وانتهاءًا ، ولقد اتفق الفقهاء على أن الوقف مستحب شرعًا ومندوب إليه وأنه من سبيل الله كما ثبت فى السنّة النبوية ، وأن ثمرة المال الموقوف وغلته تصبح صدقة على الموقوف عليهم بالقبض إذا كانوا أشخاصًا ويستحقونها إذا كانوا غير ذلك كجهات البرّ ، انظر : د. محمد محمد أمين « الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر » ص ٢٢ ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ط ١ (١٩٨٠م) ، د. نصر محمد « نظريات التنمية السياسية المعاصرة » ص ٢٢٥ ، ماجستير ، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٨م ، د. أيمن محمد « الوقف ودوره فى التنمية الاقتصادية » ص ١٣ ، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية ، جامعة الكويت ، العدد (٦٠) محرم ١٤٢٦هـ/ مارس ٢٠٠٥م .

رئاسة هذا الديوان لقاضى قضاة الشافعية[١] ، الذى يتولى حفظ أصول الأوقاف واستثمارها وقبض ريعها وصرفه فى أوجه صرفه « الفقراء ـ المرضى ـ إصلاح الجسور ـ تحصين الثغور ـ عمارة المساجد ـ فداء الأسرى »[٢] .

فمن علماء مصر ـ الذين تقلدوا القضاء – الذين قاموا بتعمير الأوقاف وتثمير أموالها وحافظوا عليها من الاستبدالات[٣] ، العالم بدر الدين البغدادى[٤] « ت ٨٠١هـ »[٥] ، والعالم الشمس أبو عبد الله القاياتى[٦] « ت ٨٥٠هـ »[٧] ، والعالم ابن حجر العسقلانى[٨]

---

(١) وذلك لانتشار المذهب الشافعى فى مصر منذ قدوم الإمام الشافعى إلى مصر ، ولقد ظل ذلك المذهب قويًا عهد الفاطميين ، ثم ازدهر بعد ذلك فى عهد الأيوبيين ومن بعدهم المماليك ، فلقد كان المذهب الرسمى للدولة ، انظر : د. محمد كامل حسين « الحياة الفكرية والأدبية بمصر من الفتح العربى حتى آخر الدولة الفاطمية » ص ٤٢، مكتبة النهضة المصرية ، سلسلة الألف كتاب رقم (٢٤٤) ، د. سعود محمد « الحياة الثقافية بدمشق » ص ٣١١.

(٢) القلقشندى « صبح الأعشى » ح ٤ ص ٣٦، ابن كنان « حدائق الياسمين » ص ٤٣، ابن قيم الجوزية « الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية » ص ٢٠٢، د. آدم صبرة « الفقر والإحسان فى مصر » ص ١٢٦، د. فوزى حامد « القضاء فى صعيد مصر » ص ٣١٥.

(٣) **الاستبدال** : هو أخذ العين الثانية « البدل » لتكون وقفًا مكان العين الأولى ، أو هو شراء عين أخرى تكون وقفًا بدلها ، وكان الاستبدال فى العصر المملوكى وسيلة لنهب الأوقاف وتدميرها ، فمنعه العلماء ، انظر : محمد إبراهيم « البروتكول الختامى للوثائق العربية » ص ٤٠.

(٤) بدر الدين البغدادى : محمد بن عبد المنعم ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء الحنابلة بمصر ، توفى ٨٠١هـ ، انظر : السخاوى « الذيل على رفع الأصر » ص ٣٤٩، تحقيق د. جودة هلال ، الدار المصرية للتأليف ، ١٩٦٦م .

(٥) السخاوى « الذيل على رفع الأصر » ص ٣٥١.

(٦) أبو عبد الله القاياتى : محمد بن على ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء الشافعية بمصر ، توفى ٨٥٠هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٨ ص ٢١٢.

(٧) السخاوى « الذيل التام على دول الإسلام » ص ٣، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٨ ص ٢١٢، السخاوى « وجيز الكلام » ح ٢ ص ٦٠٨.

(٨) ابن حجر العسقلانى : أحمد بن على ، تفقه بشيوخ عصره ، برع فى علم الحديث ، وولى قضاء الشافعية بمصر ، توفى ٨٥٢هـ ، انظر : ابن تغرى « المنهل الصافى » ح ٢ ص ١٧.

« ت ٨٥٢هـ »[(١)] ، والعالم ولى الدين السفطى[(٢)] « ت ٨٥٤هـ »[(٣)] ، والعالم سعد الدين الديرى[(٤)] « ت ٨٦٧هـ »[(٥)] ، والعالم برهان الدين الديرى[(٦)] « ت ٨٧٦هـ »[(٧)] ، والعالم شهاب الدين الأمشاطى[(٨)] « ت ٨٨٥هـ »[(٩)] ، والعالم بدر الدين السِّدرشى[(١٠)] « ت ٩٠٠هـ »[(١١)] ، والعالم زكريا الأنصارى[(١٢)] « ت ٩٢٦هـ »[(١٣)] .

من علماء دمشق الذين عمّروا الأوقاف وثمّروا أموالها ومنعوا استبدالها العالم شهاب

---

(١) السخاوى « الذيل على رفع الأصر » ص ٨٢.

(٢) ولى الدين السفطى : محمد بن أحمد ، تفقه على شيوخ عصره ، ولى قضاء الشافعية بمصر ، توفى ٨٥٤هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٧ ص ١١٩.

(٣) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٧ ص ١١٩.

(٤) سعد الدين الديرى : سعد بن محمد ، تفقه بشيوخ عصره ، ولى قضاء الحنفية بمصر ، توفى ٨٦٧هـ ، انظر : ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٦ ص ٢٨٥.

(٥) الغزى « الطبقات السنية فى تراجم الحنفية » ح ٤ ص ٢٢، ابن حجر العسقلانى « رفع الأصر عن قضاة مصر » ح ٢ ص ٢٤٥، تحقيق د. حامد عبد المجيد ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٩٦١م ، السخاوى « الذيل على رفع الاصر » ص ١٣٠.

(٦) برهان الديرى : إبراهيم بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء الحنفية بمصر ، توفى ٨٧٦هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ١٥٠، السخاوى « الذيل » ص ١٠.

(٧) ابن طولون « الغرف العلية فى تراجم الحنفية » ص ٤٤، السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ١٥٠، السخاوى « الذيل على رفع الأصر » ص ١٠.

(٨) شهاب الدين الأمشاطى : محمد بن أحمد ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء الحنفية بمصر ، توفى ٨٨٥هـ ، انظر : السخاوى « الذيل على رفع الأصر » ص ٢٠٥.

(٩) ابن إياس « بدائع الزهور » ص ١٧٠، السخاوى « وجيز الكلام » ح ٣ ص ٩١٣، السخاوى « الذيل على رفع الأصر » ص ٢١٢.

(١٠) بدر الدين السِّدرشى : محمد بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء الحنابلة بمصر ، توفى عام ٩٠٠هـ ، انظر : السخاوى « الذيل على رفع الأصر » ص ٣٠٩.

(١١) السخاوى « الذيل على رفع الأصر » ص ٣١٨.

(١٢) زكريا الأنصارى : زكريا بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء الشافعية بمصر ، توفى ٩٢٦هـ ، انظر : الغزى « الكواكب السائرة » ح ١ ص ١٩٦.

(١٣) السخاوى « الذيل على رفع الأصر » ص ١٤٩.

الدين الحسينى « ت ٨٠٣هـ »[(١)]، والعالم شهاب الدين الباعونى[(٢)] « ت ٨١٦هـ »[(٣)]، والعالم أبو نعيم العامرى[(٤)] « ت ٨٢٢هـ »[(٥)]، والعالم شهاب الدين الأموى[(٦)] « ت ٨٤٠هـ »[(٧)]، والعالم شمس الدين العدوى[(٨)] « ت ٨٧٤هـ »[(٩)]، والعالم أبو المحاسن الصالحى[(١٠)] « ت ٨٨٠هـ »[(١١)].

ومن علماء القدس، العالم غرس الدين السخاوى[(١٢)] « ت ٨٤٧هـ »[(١٣)]، والعالم شمس الدين الحموى[(١٤)] « ت ٨٥٣هـ »[(١٥)]، والعالم زين الدين

(١) ابن شهبة « الإعلام بتاريخ أهل الإسلام » ص ٢٤٤.

(٢) شهاب الدين الباعونى : أحمد بن ناصر، تفقه بشيوخ عصره، ولى قضاء دمشق، توفى ٨١٦هـ، انظر : ابن شهبة « طبقات الشافعية » ح ٢ ص ٢٦٣.

(٣) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٢ ص ٢٣١.

(٤) أبو نعيم العامرى : أحمد بن عبد الله، تفقه على شيوخ عصره، درس وأفتى بدمشق، توفى ٨٢٢هـ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ٣٥٦.

(٥) البصروى « تاريخ البصروى » ص ٤١، السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ٣٥٦.

(٦) شهاب الدين الأموى : تفقه على شيوخ عصره، ولى قضاء الشافعية بدمشق، توفى ٨٤٠هـ، انظر : ابن طولون « قضاة دمشق » ص ١٥٧.

(٧) ابن طولون « قضاة دمشق » ص ١٥٧.

(٨) شمس الدين العدوى : محمد بن عبد الرازق، تفقه على شيوخ عصره، عمّر أوقاف البيمارستان النورى، توفى ٨٧٤هـ، انظر : البصروى « تاريخ البصروى » ص ٤١.

(٩) البصروى « تاريخ البصروى » ص ٤١.

(١٠) أبو المحاسن الصالحى : يوسف بن أحمد، تفقه على شيوخ عصره، ولى قضاء الشافعية بدمشق، توفى ٨٨٠هـ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ١٠ ص ٢٩٨.

(١١) السخاوى « الضوء اللامع » ح ١٠ ص ٢٩٩.

(١٢) غرس الدين السخاوى : خليل بن أحمد، تفقه على شيوخ عصره، تولى نظر الحرمين بالقدس، توفى ٨٤٧هـ، انظر : مجير الحنبلى « الأنس الجليل » ح ٢ ص ٩٧، ٢٧٦.

(١٣) مجير الحنبلى « الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل » ح ٢ ص ٩٧، ٢٧٦.

(١٤) شمس الدين الحموى : محمد بن الصلاح، برع فى علم النحو والأدب، وولى نظر القدس والخليل، توفى ٨٥٣هـ، انظر : مجير الحنبلى « الأنس الجليل » ح ٢ ص ٢٧٧.

(١٥) مجير الدين الحنبلى « الأنس الجليل » ح ٢ ص ٢٧٧.

عبد القادر[١] « ت ٨٩٧هـ »[٢] .

ومن علماء حلب ، العالم ابن العجمى[٣] « ت ٨٥٧هـ »[٤] ، والعالم تاج الدين[٥] الحسينى[٦] .

وإجمالًا يمكن القول أن تعمير علماء مصر والشام للأوقاف وتثمير أموالها أدى إلى تعزيز الموازنة العامة للدولة المملوكية ، حيث تكفلت الأوقاف بكثير من النفقات التى تثقل كاهل الدولة كالإنفاق على الفقراء[*] ، والمرضى ، وإصلاح الجسور ، وتحصين الثغور ، وعمارة المساجد ، وفداء الأسرى[٧] .

---

(١) زين الدين عبد القادر : عبد القادر بن عمر ، تفقه على شيوخ عصره ، ولى نيابة النظر على وقف الحرم الخليلى ، توفى ٨٩٧هـ ، انظر : مجير الحنبلى « الأنس الجليل » ح ٢ ص ٢١٢.

(٢) مجير الدين الحنبلى « الأنس الجليل » ح ٢ ص ٢١٢.

(٣) شهاب الدين ابن العجمى : محمد بن أحمد ، تفقه على شيوخ عصره ، ولى قضاء الشافعية بحلب ، توفى ٨٥٧هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٧ ص ٣٠.

(٤) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٧ ص ٣٠.

(٥) تاج الدين الحسينى : عبد الوهاب بن عمر ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء الشافعية بحلب عام ٨٥٧هـ ، ودرس بحلب ، توفى ٨٧٥هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٥ ص ١٠٦، ابن العجمى « كنوز الذهب » ح ٢ ص ٢٥٨.

(٦) ابن العجمى « كنوز الذهب » ح ٢ ص ٢٥٨.

(*) لقد كانت الأوقاف فى العصر المملوكى هى الملجأ الرئيسى للفقراء ، حيث غاب دور الدولة المملوكية فى الإنفاق على الفقراء ورعاياتهم ـ بشكل كبير ـ باستثناء توزيع غير منتظم للطعام من قبل الدولة ، انظر : د. آدم صبرة « الفقر والإحسان » ص ٦٥.

(٧) القلقشندى « صبح الأعشى » ح ٤ ص ٣٦، ابن كنان « حدائق الياسمين » ص ٤٣، ابن قيم الجوزية « الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية » ص ٢٠٢، د. فوزى حامد « القضاء فى صعيد مصر » ص ٣١٥، د. آدم صبرة « الفقر والإحسان فى مصر » ص ١٢٦.

ب ـ العلماء وتثمير أموال المودع الحكمى :

لقد كانت مؤسسة المودع الحكمى[(١)] هى إحدى المؤسسات المالية فى العصر المملوكى ، التى تقوم بضبط مواريث الأيتام[(٢)] وحفظها وتثمير أموالها حتى يصلوا إلى سن الرشد ، فضلًا عن مراقبة أموال الأيتام الذين لهم وصىّ خاص[(٣)] ، وكانت تلك المؤسسة يديرها قاضى قضاة الشافعية[(٤)(*)] .

---

(١) **المودع الحكمى** : هو موضع حصين أنشأه قاضى الشافعية بمصر ابن دقيق العيد « ت ٧٠٢هـ » ، حيث قرر خلال ولايته للقضاء أن من مات وله وارث ، فإن كان كبيرًا قبض حصته ، وإن كان صغيرًا تم إيداع المال فى ذلك الموضع ، ويكون ذلك تحت إشراف قاضى الشافعية ، انظر : د. آدم صبرة « الفقر والإحسان فى مصر » ص ١٠١، عبد الأعلى مهدى « عز الدين عبد السلام ومدرسته السياسة » ص ١٧١.

(٢) **اليتيم** : « لغة » : هو الفرد من كل شيء ، و « اصطلاحًا » هو من فقد أباه لأن الأب هو الذى يتولى الحماية والرعاية والإنفاق ، وكل ما يشعر الطفل بالأمان ، وهناك بعض الفقهاء فى العصر الحديث يرون أن اليتيم ـ بصفة عامة ـ هو من فقد أحد أبويه أو كليهما ، والسن التى حددها الإسلام لانتهاء فترة اليتيم هى بلوغ اليتيم سن النكاح ، وتحديد السن يخضع لولى الأمر أو القاضى ، انظر : المقرى الفيومى « أحمد بن محمد ت ٧٧٠هـ » « المصباح المنير فى غريب الشرح الكبير » ص ٩٣٥، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٩٢٢م ، د. منيع عبد الحليم ـ عميد كلية أصول الدين بجامعة الأزهر ـ « اليتيم » ص ٣٦، مقال بجريدة الأهرام المصرية ، عدد (١٢ صفر ١٤٢٥هـ/ ٢ إبريل ٢٠٠٤م) .

(٣) لم يكن بوسع الأوصياء على ممتلكات اليتامى التصرف فيها إلا بإذن القاضى الشافعى ، وذلك ما تشهد به إحدى الوثائق التاريخية التى ترجع إلى القرن التاسع الهجرى ، حيث أن موضوع تلك الوثيقة عقد بيع طاحونة يمتلكها أبناء الأمير قديد القلمطاوى ، وتوضح تلك الوثيقة أن الأوصياء على أبناء الأمير لم يستطيعوا إتمام عملية البيع إلا بإذن وحضور قاضى الشافعية جمال الدين الطبندى « ت ٨٤٦هـ » ، انظر : « وثيقة بيع بغير تاريخ » ص ٣٠٢، دورية المعهد الفرنسى للآثار الشرقية « ANNALES islamologiques» ، عدد (37) ، عام (2003)، وهذه الوثيقة موجودة بأرشيف وزارة الأوقاف برقم (٥١٧) .

(*) عن سبب اختصاص قاضى الشافعية دون غيره من القضاة ، انظر : هامش ١ ص ١٨٧.

(٤) القلقشندي « صبح الأعشى » ح ٤ ص ٣٧، ابن قيم الجوزية « الطرق الحكمية » ص ٢٠٢، ابن كنان « حدائق الياسمين » ص ٤٣، د. آدم صبرة « الفقر والإحسان » ص ١٠١، د. عبد الخالق حسن « النظم القضائية بمصر » ص ٢٣٩، د. فوزى حامد « القضاء فى صعيد مصر » ص ٣١٥.

ولقد ذكر المؤرخون فى ثنايا تراجم علماء مصر والشام ـ من خلال ولايتهم للقضاء ـ، أنهم قاموا بتنمية وتثمير أموال المودع الحكمى، ومنعوا أيدى السلطة أن تمتد إليها.

فمن علماء مصر الذين قاموا بتنمية وتثمير أموال المودع الحكمى، العالم صدر الدين المناوى(١) «ت ٨٠٣هـ»(٢)، والعالم محمد القلقشندى(٣) «ت ٨٣٠هـ»(٤)، والعالم برهان الدين القاهرى(٥) «ت ٨٣٤هـ»(٦)، والعالم ولى الدين السفطى(٧) «ت ٨٥٤هـ»(٨)، والعالم الشهاب أبو العباس(٩) «ت ٨٥٦هـ»(١٠)، والعالم النجم أبو العطاء(١١) «ت ٨٦٢هـ»(١٢)،

---

(١) صدر الدين المناوى: محمد بن إبراهيم، تفقه على شيوخ عصره، تولى قضاء الشافعية، فى مصر، توفى ٨٠٣هـ، انظر: المقريزى «درر العقود» ح ٣ ص ٢٩.

(٢) المقريزى «درر العقود» ح ٣ ص ٢٩.

(٣) محمد القلقشندى: محمد بن محمد، تفقه على شيوخ عصره، ولى أمانة الحكم أكثر من ثلاثين سنة، وكانت مباشرته حسنة، توفى ٨٣٠هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ٩ ص ٢٠٢.

(٤) السخاوى «الضوء اللامع» ح ٩ ص ٢٠٢.

(٥) برهان الدين القاهرى: إبراهيم بن على، ناب فى قضاء الشافعية بمصر، وأضيفت إليه أمانة الحكم بالقاهرة، وكانت مباشرته حسنة، توفى ٨٣٤هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ١ ص ٨٢.

(٦) السخاوى «الضوء اللامع» ح ١ ص ٨٢.

(٧) ولى الدين السفطى: محمد بن أحمد، تفقه على شيوخ عصره، ولى قضاء الشافعية بمصر، ووكالة بيت المال بها، توفى ٨٥٤هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ٧ ص ١١٩.

(٨) السخاوى «الضوء اللامع» ح ٧ ص ١١٩.

(٩) الشهاب أبو العباس: أحمد بن يعقوب، تفقه على شيوخ عصره، تولى أمانة الحكم، وكانت مباشرته حسنة، توفى ٨٥٦هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ٢ ص ٢٤٥.

(١٠) السخاوى «الضوء اللامع» ح ٢ ص ٢٤٥.

(١١) النجم أبو العطاء: محمد بن محمد، ناب فى قضاء الشافعية، تولى أمانة الحكم، وكانت مباشرته حسنة، توفى ٨٦٢هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ٩ ص ٢٧١.

(١٢) السخاوى «الضوء اللامع» ح ٩ ص ٢٧١.

والعالم زكريا الأنصارى[1] « ت ٩٢٦هـ »[2] .

أمّا علماء دمشق الذين قاموا بتنمية وتثمير أموال المودع الحكمى ، فمنهم ـ على سبيل المثال ـ، العالم علاء الدين أبى الجزرى[3] « ت ٨١٣هـ »[4] ، والعالم شهاب الدين الأموى[5] « ت ٨٤٠هـ »[6] ، والعالم زين الدين[7] الزرعى « ت ٨٣٧هـ »[8] ، والعالم برهان الدين بن قاضى عجلون[9] « ت ٨٧٢هـ »[10] .

أمّا علماء حلب الذين قاموا بتنمية أموال المودع الحكمى ، فمنهم ـ على سبيل المثال ـ العالم ابن خطيب[11] الناصرية « ت ٨٤٣هـ »[12] ، والعام شهاب الدين ابن

---

(١) زكريا الأنصارى : زكريا بن محمد ، ولد ٨٢٦هـ ، تفقه على شيوخ عصره ، درس وأفتى ، تولى قضاء الشافعية ، وباشر أمانة الحكم بعفة ، توفى ٩٢٦هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٣ ص ٢٣٨، العبدروس « النور السافر » ص ١٧٥.

(٢) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٣ ص ٢٣٨.

(٣) علاء الدين ابن الجزرى : على بن إبراهيم ، تفقه على شيوخ عصره ، درس وحدّث بدمشق ، وباشر نظر الأيتام بها مباشرة حسنة ، توفى ٨١٣هـ ، انظر : ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٦ ص ٢٤٨.

(٤) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٥ ص ١٥٧، ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٦ ص ٢٤٨، المقريزى « درر العقود » ح ٢ ص ٥٣٩، ابن العماد الحنبلى « شذرات الذهب » ح ٧ ص ١٠٢.

(٥) شهاب الدين الأموى : تفقه على شيوخ عصره ، ولى قضاء الشافعية بدمشق ، توفى ٨٤٠هـ ، انظر : ابن طولون « قضاء دمشق » ص ١٥٧.

(٦) ابن طولون « قضاة دمشق » ص ١٥٧.

(٧) زين الدين الزرعى : عبد الرحمن بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، باشر نظر الأيتام بدمشق مباشرة حسنة ، توفى ٨٣٧هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٤ ص ١٤٣.

(٨) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٤ ص ١٤٣، مجهول « حوليات دمشقية » ص ٨٣.

(٩) برهان الدين بن قاضى عجلون : إبراهيم بن عبد الرحمن ، تفقه على شيوخ عصره ، ناب فى قضاء الشافعية بدمشق ، ونظر الأيتام بها ، وكانت مباشرته حسنة ، توفى ٨٧٢هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ٦٤.

(١٠) ابن الحمصى : « حوادث الزمان » ح ١ ص ١٧٩، السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ٦٤.

(١١) ابن خطيب الناصرية : على بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء الشافعية بحلب ، توفى ٨٤٣هـ ، انظر : ابن العجمى « كنوز الذهب » ح ٢ ص ١٤٤.

(١٢) ابن العجمى « كنوز الذهب فى تاريخ حلب » ح ٢ ص ١٤٤.

العجمى[١] « ت ٨٥٧هـ »[٢] ، والعالم تاج الدين الحسينى[٣] « ت ٨٧٥هـ »[٤] .

جـ ـ العلماء وإصلاح العملة :

لقد عانت مصر والشام فى القرن التاسع من زيف النقود والتلاعب فى أوزانها وعياراتها[*] »[٥] ، كما حدث بمصر طوال عهد السلطان فرج[٦] (٨٠١ ـ ٨١٥هـ/١٣٩٨ ـ ١٤١٢م)[٧] ، وبدمشق عام ٨٠٨هـ/١٤٠٥م[٨] ، وبحلب عام ٨٦١هـ/١٤٥٦م[٩] .

ولكن فى المقابل شهد القرن التاسع ـ أيضًا ـ قيام السلطة المملوكية بعمليات إصلاح

(١) شهاب الدين ابن العجمى : محمد بن أحمد ، تفقه على شيوخ عصره ، ولى قضاء الشافعية بحلب ، توفى ٨٥٧هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٧ ص ٣٠.

(٢) البقاعى « عنوان الزمان » ح ٢ ص ٤٣٨، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٧ ص ٣٠.

(٣) تاج الدين الحسينى : عبد الوهاب بن عمر ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء الشافعية بحلب عام ٨٥٧هـ ، درس بحلب ، توفى ٨٧٥هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٥ ص ١٠٦، ابن العجمى « كنوز الذهب » ح ٢ ص ٢٥٨.

(٤) ابن العجمى « كنوز الذهب » ح ٢ ص ٢٥٨، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٥ ص ١٠٦.

(*) **العيار** : ورد العيار عند العرب بعدة معان ، فقال اللغويون : عيّر الدنانير تعييرًا بمعنى وزنها واحدًا بعد واحد ، لكن أرباب ضرب الدراهم والدنانير قصدوا به ما جُعل فى هذه الدراهم أو الدنانير من الفضة الخالصة أو الذهب الخالص ، ويأتى العيار ـ أيضًا ـ بمعنى المثال أو الأنموذج الذى تسنّه الدولة لتسير بموجبه ، انظر : سهام محمد « دار الضرب بالإسكندرية منذ الفتح العربى » ص ٦٦٧.

(٥) عن عمليات غش العملة فى العصر المملوكى ، انظر : الأسدى « التيسير والاعتبار » ص ١١٥، ١٢١، ١٢٦، د. حامد زيان « الأزمات الاقتصادية والأوبئة فى مصر عصر سلاطين المماليك » ص ١٥، المكتبة العالمية ، القاهرة ، « د. ت » ، د. فادى إلياس « المناخ والأسعار » ص ٢١٦، د. حمود بن حمد « النظام النقدى المملوكى » ص ٥٠٦ ـ ٥٢٣، دكتوراة ، كلية العلوم الاجتماعية ، جامعة الإمام محمد بن سعود ، ١٩٨٨م .

(٦) السلطان فرج : سبق التعريف به بالفصل الأول ، انظر : ص ١٥ .

(٧) المقريزى « السلوك » ح ٤ ص ٢٢٦.

(٨) د. فادى إلياس « المناخ والأسعار » ص ٥٧.

(٩) د. عادل عبد الحافظ « نيابة حلب » ص ٢١٩.

للعملة ، لأن زيف النقود كان يؤثر بشدة على الأوضاع الاقتصادية ، حيث تضطرب المعاملات المالية ، ويغلق التجار حوانيتهم خوفًا من بخس بضائعهم ، وترتفع الأسعار بشكل عام[(١)] .

ولقد لعب العلماء دور هام فى عمليات إصلاح العملة خلال القرن التاسع الهجرى ، حيث تمت غالب عمليات إصلاح العملة تحت إشراف القضاة[(٢)] وبعد استشارتهم ، وذلك ما توضحه المصادر التاريخية .

ففى عام ٨١٨هـ/١٤١٥م قام السلطان المؤيد شيخ[(٣)] بضرب الدراهم المؤيدية من الفضة الخالصة وإبطال العملة الناصرية[(٤)] التى كثر فيها الغش ، وذلك بعد أن عقد المؤيد شيخ مجلسًا حضر فيها القضاة[(٥)] وكبار الصيارفة ، حيث تمت استشارتهم فى ذلك الأمر ، ثم كلّف المؤيد شيخ بعد انتهاء المجلس القضاة بالإشراف على سكّ العملة الجديدة ومراقبة أوزانها ، ولقد طرحت تلك العملة بعد ذلك للتداول ، وفرح المصريون بتلك العملة بعد معاناة طويلة من العملة المغشوشة[(٦)] .

---

(١) المقريزى « إغاثة الأمة بكشف الغمة » ص ٣٠، ١٠١، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٩٩م ، د. حامد زيان « الأزمات الاقتصادية » ص ١٥، سمير على «الشرق الإسلام والغرب المسيحى» ص ١٥٦، د. محمد أمين « التنظيمات الحكومية » ص ١٥٤ وما بعدها ، د. محمد سالم « أحوال مصر الاقتصادية عصر سلاطين المماليك « قراءة فى مؤلفات المقريزى » » ص ٦٢٢، مجلة كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة ، عدد (٣٣) لعام ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م ، Eliyahu Ashtor "Etudes sur le Systeme Monetaire Des Mamlouks Circassiens" p. 265, London, 1978.

(٢) عن إشراف النظام القضائى على ضرب النقود فى العصر المملوكى ، انظر : د. حمود بن حمد « النظام النقدى المملوكى » ص ٦٠، د. فوزى حامد « القضاء فى صعيد مصر خلال العصر المملوكى » ص ٣١٥، د. جابر سلامة « قاضى القضاة فى مصر على عصر الأيوبيين والمماليك » ص ٢٢٤، مجلة كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، مج ٣١، عام ١٩٨٢/١٩٨٣م .

(٣) المؤيد شيخ : سبق تعريفه بالفصل الأول ، انظر : ص ٣٧ .

(٤) نسبة إلى السلطان فرج بن برقوق « ت ٨١٥هـ » .

(٥) القضاة هم : جلال الدين البلقينى الشافعى ، وناصر الدين بن العديم الحنفى ، وجمال الدين الأقفهسى المالكى ، وعلاء الدين بن مغلى الحنبلى ، انظر : العينى « عقد الجمان » ص ٢١٨، ٢٢٠.

(٦) المقريزى « السلوك » ح ٦ ص ٣٧٩، ٣٨٠، ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٧ ص ١٦٦، العينى « عقد الجمان » ص ٢٢١، المقريزى « ثلاث رسائل » ص ١٥، مطبعة الجوائب ، القسطنطينية ، ١٢٩٨هـ .

وفى عام ٨٦٢هـ/١٤٥٧م قام السلطان إينال[١] بإبطال الدراهم الفضية ـ التى كثر فيها الغش بوجه خاص ـ ، وذلك بعد أن عقد السلطان مجلسًا حضر فيه القضاة[٢] وكبار رجال الدولة ، حيث تمت استشارتهم فى ذلك الأمر ، ثم كلف السلطان إينال بعد انتهاء المجلس القضاة بالإشراف على سكّ العملة الجديدة ومراقبة أوزانها ، ففرح المصريون بتلك العملة بعد معاناة طويلة من العملة المغشوشة[٣] .

أمّا عن عمليات إصلاح العملة ببلاد الشام[٤] ، فكانت ـ أيضًا ـ تتم تحت إشراف القضاة ، وذلك ما ذكرته المصادر التاريخية عام ٨٦١هـ/١٤٥٦م ، حيث كثرت شكاوى أهل حلب من غش العملة بها ، وأرسل الأهالى إلى السلطان إينال يخبرونه بذلك ، فأرسل السلطان إينال إلى القضاة[٥] مرسومًا بالإشراف على سلة عملة جديدة وإبطال العملة المغشوشة[٦] .

د ـ العلماء وضبط الأسواق :

لقد قام علماء العصر المملوكى ـ من خلال ولايتهم للحسبة[٧] ـ بضبط الأسواق ، حيث

---

(١) السلطان إينال : سبق التعريف به بالفصل الأول ، انظر : ص ١٠ .

(٢) لم تذكر المصادر التاريخية ـ التى اطلع عليها الباحث ـ أسماء القضاة فى ذلك العام .

(٣) ابن تغرى : « حوادث الدهور » ص ٣١٠.

(٤) لم تذكر المصادر التاريخية ـ التى اطلع عليها الباحث ـ نماذج تاريخية عن عمليات إصلاح العملة ببلاد الشام تحت إشراف القضاة ، باستثناء حادثة حلب عام ٨٦١هـ.

(٥) القضاة هم : القاضى الشافعى هو شهاب الدين أحمد بن الزهرى ، والقاضى الحنبلى هو جمال الدين يوسف التاذفى ، انظر : ابن العجمى « كنوز الذهب » ح ٢ ص ٢٧٦.

(٦) البقاعى « إظهار العصر » .

(٧) **الحسبة :** هى ولاية دينية فى الدولة الإسلامية من أهم الولايات الإدارية ذات الصفة الرقابية ، ومنوط بها مراقبة السلوك البشرى فى المجتمع الإسلامى ، وتلى ولاية الحسبة ولاية القضاء فى المرتبة ، إذ أن ولايات رفع المظالم على العموم والنظر فى القضاء بين الناس موزعة على ثلاث جهات ، أقواها ولاية المظالم التى يختص بها صاحب السلطة العليا « السلطان » ، ويليها ولاية القضاء ، ثم ولاية الحسبة ، وتعد الحسبة واسطة بين أحكام القضاء وأحكام المظالم ، انظر : طوغان شيخ المحمدى « المقدمة السلطانية فى =

كان الموضوع الرئيسى للحسبة فى العصر المملوكى « توفير السلع الغذائية فى الأسواق بأسعار معتدلة ، وردع التجار ذوى النفوس الطامعة الذين يفحشون فى أثمان بضائعهم ، وفحص الموازين والمكاييل لمنع الغش ، وحماية المستهلك من البضائع المغشوشة ـ كما يحدث فى العطور والجواهر ـ، والنهى عن البيوع المحُرمة مثل بيع النجش[(١)] وما إلى ذلك »[(٢)] .

وعلى الرغم مما أشارت إليه بعض المصادر التاريخية من أن السلطة المملوكية أسندت ولاية الحسبة منذ مطلع القرن التاسع إلى الأمراء المماليك ، بحيث أصبحت قاصرة عليهم[(٣)] ، إلا أن تلك المقولة غير دقيقة فالمصادر التاريخية خلال القرن التاسع الهجرى تشير بوضوح إلى استمرار تولى علماء مصر لولاية الحسبة خلال النصف الأول من القرن التاسع الهجرى ، أمثال العالم بدر الدين العينى[(٤)] « ت ٨٥٥هـ » ، الذى تولى الحسبة مرات عدة

= السياسة الشرعية » ص ١٠٥، مخطوطة بدار الكتب المصرية ، برقم (١٧٢٦) فقه حنفى ، ومكروفيلم برقم (١٧١٧٦) ، د. على عبد القادر « الفقه الإسلامى : القضاء والحسبة » ص ٨٤، مقال بموسوعة الحضارة العربية الإسلامية ، إصدار المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، رقم (٣) لعام ١٩٩٥م ، د. عدنان أحمد الضمادى « منهج الإسلام فى الحفاظ على البيئة من التلوث » ص ٣٣٣، مقال بمجلة الشريعة والدراسات الإسلامية ، جامعة الكويت ، العدد الحادى والخمسون ، شوال ١٤٢٣هـ/ ديسمبر ٢٠٠٢م .

(١) **النجش** : هو تواطئ رجلان أو أكثر على زيادة سعر سلعة حتى يسمع ذلك المُشترى ، فيأخذها بأكثر من ثمنها ، انظر : ابن الأخوة « معالم القربة فى أحكام الحسبة » ص ١٣١، نقله وصححه روبن ليوى ، مكتبة المُثنىّ ، بغداد « د. ت » .

(٢) ابن الأخوة « معالم القربة » ص ٥٢، ٧٠، ٨٣، ٨٩، ١٣١، ١٤٦، القلقشندى « صبح الأعشى » ح ١١ ص ٢١١، ح ١٢ ص ٤٧١، ابن قيم الجوزية « الطرق الحكمية » ص ٢٠٢، ابن طولون « نقد الطالب لشغل المناصب » ص ٤٩، المقريزى « المواعظ والاعتبار » ح ٢ ص ٥١٦، ابن المبرد « يوسف بن الحسن ت ٩٠٩هـ » « الحسبة » ص ٣٨٦ ـ ٣٨٩، نشر حبيب زيّات ، مجلة المشرق ، بيروت ، السنة الخامسة والثلاثون ، ١٩٣٧م .

(٣) الخالدى « المقصد الرفيع » ص ١٣٢، ابن كنان « حدائق الياسمين » ص ١٦٠.

(٤) بدر الدين العينى : محمود بن أحمد ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء الحنفية بمصر عام ٨٢٩هـ ، وحسبة مصر مرات عدة ، توفى ٨٥٥هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ١٠ ص ١٣١.

منها عام ٨٠٢هـ/١٣٩٩م[(١)] ، وعام ٨٣٣هـ/١٤٢٩م[(٢)] ، وعام ٨٤٤هـ/١٤٤٠م[(٣)] .

والعالم صدر الدين العجمى[(٤)] « ت ٨٣٣هـ » الذى تولى الحسبة مرات عدة منها عام ٨٠٨هـ/١٤٠٥م[(٥)] ، وعام ٨٢٢هـ/١٤١٩م[(٦)] ، والعالم شمس الدين التبانى[(٧)] « ت ٨٢٧هـ » الذى تولى الحسبة عام ٨٢٠هـ/١٤١٧م[(٨)] ، والعالم جمال الدين البساطى[(٩)] « ت ٨٢٩هـ » الذى تولى الحسبة عام ٨٢٤هـ/١٤٢١م[(١٠)] .

ولقد أثنى المصريون وكذا المؤرخون على ولاية هؤلاء العلماء للحسبة ، فتذكر المصادر التاريخية أن المصريين استقبلوا ولاية صدر الدين العجمى عام ٨٢٠هـ/١٤١٧م بالسرور الشديد لِما عُرف عنه من حسن مباشرة لتلك الولاية[(١١)] ، وأنه لما عُزِل عام ٨٢٣هـ/١٤٢٠م

---

(١) ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٤ ص ٩٧.

(٢) العينى « عقد الجمان » ص ٣٧٣، ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٨ ص ١٩٨.

(٣) العينى « عقد الجمان » ص ٥١، ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٩ ص ٢٦، ابن شاهين « الروض الباسم » ح ١ ص ١٩.

(٤) صدر الدين العجمى : هو أحمد بن محمد ، من أبرز فقهاء الحنفية فى عصره ، درس وأفتى ، ولى الحسبة بمصر مرارًا ، توفى ٨٣٣هـ ، انظر : ابن طولون « الغرف العلية فى تراجم الحنفية » ص ١٥٨، ابن تغرى « المنهل الصافى » ح ٢ ص ٢١٢.

(٥) ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٥ ص ٢٧٨.

(٦) ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٧ ص ٣٤٦.

(٧) شمس الدين التبانى : محمد بن يعقوب ، تفقه على شيوخ عصره ، درس ، وتولى وكالة بيت المال والحسبة بمصر ، توفى ٨٢٧هـ ، انظر : ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٨ ص ٦٢، المقريزى « السلوك » ح ٤ ص ٦٧٣.

(٨) ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٧ ص ٢٧١.

(٩) جمال الدين البساطى : يوسف بن خالد ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء المالكية بعصره ، توفى ٨٢٩هـ ، انظر : ابن حجر « رفع الأصر عن قضاة مصر » ص ٤٧٦.

(١٠) ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٤ ص ٤١، السخاوى « الضوء اللامع » ح ١٠ ص ٣١٢، ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٧ ص ٤٢٢.

(١١) ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٧ ص ٣٤٦.

تذمر المصريون وكادت تقع فتنة لذلك فاضطر السلطان شيخ[1] إلى إعادته إلى الحسبة بعد أيام من عزله[2]، كذلك لما تولى بدر الدين العينى[3] الحسبة عام ٨٤٤هـ/١٤٤٠م خرج المصريون إلى الطرقات معلنين سرورهم بتوليته، وأنهم أكثروا الدعاء له، لما عُرف عنه ـ أيضًا ـ من حسن مباشرته لتلك الولاية[4].

ولقد شهد المؤرخون ـ أيضًا ـ بحسن مباشرة العلماء لتلك الولاية الجليلة، فلقد ذكر المؤرخون أن بدر الدين العينى ـ خلال ولايته[5] لحسبة مصر ـ كان يتفقد الأسواق ليلًا ونهارًا، وأنه استطاع توفير السلع الغذائية كالخبز وغيره فى الأسواق بأسعار معتدلة وبخاصة فى الأوقات التى تعرضت فيها البلاد لأزمات غذائية بسبب نقص فيضان النيل أو فساد المزروعات، كما حدث فى الأزمة التى تعرضت لها مصر عام ٨١٨هـ/١٤١٥م وامتدت حتى عام ٨١٩هـ/١٤١٦م، حيث ظهرت مهارة العينى وكفاءته فاستطاع توفير المواد الغذائية من خبز وغيره، وردع التجار الطامعين ـ الذين حاولوا استثمار تلك الأزمة لصالحهم ـ برفع أسعار المواد الغذائية فقام بتسعير[6] المواد الغذائية بأسعار معتدلة، وأصدر

---

(١) شيخ: سبق التعريف به بالفصل الأول، انظر: ص ٣٧ .

(٢) ابن حجر: «إنباء الغمر» ح ٧ ص ٣٧٧.

(٣) بدر الدين العينى: انظر: ص ١٩٧.

(٤) ابن شاهين «الروض الباسم» ح ١ ص ١٩، ابن حجر «إنباء الغمر» ح ٩ ص ١٢٦، العينى «عقد الجمان» ص ٥١.

(٥) تولى العينى حسبة مصر مرات عدة، منها عام ٨٠٢هـ، وعام ٨٣٣هـ، وعام ٨٤٤هـ، انظر: ابن حجر «إنباء الغمر» ح ٤ ص ٩٧، ح ٨ ص ١٩٨، ح ٩ ص ٢٦، العينى «عقد الجمان» ص ٥١، ٣٧٣، ابن شاهين «الروض الباسم» ح ١ ص ١٩.

(٦) **التسعير**: هو إلزام ولى الأمر ـ أو من يقوم مقامه ـ الناس بثمن معين لا يبتاعون إلا به فيُمنعون من الزيادة عليه أو النقص عنه عند الضرورة فى الطعام وغيره مما يحتاج الناس إليه بحيث يُراعى حق الطرفين بالعدل للمصلحة العامة، وهو جائز شرعًا عند رفع التجار للأسعار، انظر: د. محمد بن أحمد الصالح «التسعير» ص ١٦٦٦، ١٦٦٧، ١٦٧٨، مجلة البحوث الإسلامية، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء، الرياض، العدد الرابع، ١٣٩٨هـ، د. فياض عبد المنعم «المنهاج الإسلامى للتسعير» ص ٣٥،=

العقوبات الصارمة على من خالف أوامره ، والتى كان منها مصادرة بضائع هؤلاء التجار ، فضبطت الأسواق ، وعمّت البهجة المصريين[(١)] .

أمّا بلاد الشام ، فيصدق عليها بشكل كبير ما ذكرته المصادر التاريخية من تحول ولاية الحسبة فى القرن التاسع ـ إلى الأمراء[(*)] دون العلماء[(٢)] ، حيث تختفى ولاية الحسبة ـ دون سائر ولايات العلماء فى العصر المملوكى من « قضاء ـ كتابة ـ سر ـ نظر جيش ـ إلخ » من قائمة الولايات التى تولاها علماء الشام فى القرن التاسع الهجرى[(٣)] .

ولكن الرغم من ذلك ظل لعلماء الشام نصيب ما فى تلك الولاية ، فلقد ذكرت المصادر التاريخية تولى شمس الدين القرشى[(٤)] « ت ٨٧٣هـ » ولاية الحسبة بدمشق أكثر من مرة مشيدةً بحسن مباشرته لتلك الولاية[(٥)] ، وكذلك العالِم جمال الدين بن النعمانى[(٦)] « ت ٨٥٠هـ »

= مقال بجريدة الأهرام ، عدد (١٣ شعبان ١٤٢٤هـ/ ٩ أكتوبر ٢٠٠٣م) .

(١) ابن إياس « بدائع الزهور » ح ٢ ص ٢٦، السخاوى « الضوء اللامع » ح ١٠ ص ١٣٢، المقريزى « السلوك » ح ٤ ص ٣٤٧، العينى « عقد الجمان » ص ٢٥٥، ٢٥٦.

(*) وذلك بسبب نهم السلطة المملوكية للأموال ، حيث فرضت السلطة على التجار والباعة وأصحاب الحرف والصنائع مكوس شهرية ، عُرفت باسم المشاهرة ، واسندت إلى المحتسب جباية تلك المكوس ، ولمّا كان العلماء سيمتنعون عن جباية تلك المكوس لعدم شرعيتها ، أسندت السلطة تلك الولاية إلى أمراء المماليك ، انظر : الأسدى « التيسير والاعتبار » ص ١٣٤، ابن الصيرفى « إنباء الهصر » ص ٤١.

(٢) الخالدى « المقصد الرفيع » ص ١٣٢، ابن كنان « حدائق الياسمين » ص ١٦٠.

(٣) فبالرغم من توفر المعلومات التاريخية عن ولايات العلماء المختلفة ببلاد الشام فى القرن التاسع من قضاء وكتابة سر ونظر جيش وغيرها ، لا نجد المؤرخين يذكرون ولاية الحسبة فى الولايات التى اسندت إليهم مما يعنى قلة توليتهم لتلك الولاية خلال القرن التاسع .

(٤) شمس الدين القرشي : محمد بن المعتمد ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى حسبة دمشق ، وكانت سيرته حسنة ، توفى ٨٧٣هـ ، انظر : البصروى « تاريخ البصروى » ص ٣٥.

(٥) البصروى « تاريخ البصروى » ص ٣٥.

(٦) جمال الدين النعمانى : هو القاضى جمال الدين بن القاضى تاج الدين النعمانى ، تفقه على شيوخ عصره ، ولى قضاء وحسبة دمشق ، توفى ٨٥٠هـ ، انظر : ابن شاهين « الروض الباسم » ص ٤٤.

الذى كانت بيده حسبة دمشق[١] ، والعالم ابن زريق[٢] « ت ٨٤٨هـ » الذى ناب فى الحسبة بدمشق[٣] .

من علماء حلب الذين تولّوا الحسبة بها وحمدت مباشرتهم لها العالم ابن النصيبى[٤] « ت ٨٠٣هـ »[٥] .

هـ ـ العلماء وممارسة الأنشطة الاقتصادية :

لقد شارك علماء مصر والشام فى غالب الأنشطة الاقتصادية من تجارة وزراعة وصناعة ، فبالنسبة للتجارة ، تذكر المصادر التاريخية[*] ممارسة علماء مصر فى القرن التاسع للتجارة أمثال العالم ناصر الدين التنسى[٦] « ت ٨٠١هـ »[٧] ، وعلاء الدين ابن المُغلى[٨] « ت ٨٢٨هـ »[٩] ، وأبى القسم النويرى[١٠] « ت ٨٥٧هـ »[١١] ، والشهاب

---

(١) ابن شاهين « الروض الباسم » ص ٤٤.

(٢) ابن زريق : عبد الله بن أبى بكر ، تفقه على شيوخ عصره ، حدّث بدمشق ، وناب فى حسبة دمشق ، توفى ٨٤٨هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٥ ص ١٥.

(٣) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٥ ص ١٥.

(٤) ابن النصيبى : عمر بن أبى بكر ، تفقه على شيوخ عصره ، درس بمدارس حلب ، وولى قضاء العسكر بها ، والحسبة مرارًا ، توفى ٨٠٣هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٦ ص ٧٦.

(٥) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٦ ص ٧٦، ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٤ ص ٣٠٨، ابن الطباخ « إعلام النبلاء » ح ٥ ص ١٣٢.

(*) ما ذكرته المصادر التاريخية فى ذلك الشأن معلومات مقتضبة وردت فى ثنايا تراجم العلماء ، حيث اكتفت بذكر ممارسة العالم للتجارة فقط .

(٦) ناصر الدين التنسى : هو أحمد بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء المالكية بمصر ، درس وأفتى ، توفى ٨٠١هـ ، انظر : ابن تغرى « المنهل الصافى » ح ٢ ص ١٥٢.

(٧) ابن تغرى « المنهل الصافى » ح ٢ ص ١٥٢، ابن حجر « رفع الأصر » ص ١٠٧.

(٨) علاء الدين ابن المُغلى : هو على بن محمود ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء الحنابلة بمصر ، توفى عام ٨٢٨هـ ، انظر : المقريزى « درر العقود » ح ٢ ص ٤٦٩.

(٩) المقريزى « درر العقود » ح ٢ ص ٤٧٠.

(١٠) أبى القسم النويرى : محمد بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، عُرِض عليه القضاء أكثر من مرة فامتنع ، توفى ٨٥٧هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٩ ص ٢٤٧.

(١١) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٩ ص ٢٤٧.

أحمد[١] « ت ٨٩٤هـ »[٢] .

ومن علماء دمشق الذين مارسوا التجارة أبو بكر الكنانى[٣] « ت ٨١٧هـ »[٤] ، والعالم تقى الدين أبو بكر[٥] « ت ٨٥٨هـ »[٦] ، وشمس الدين[٧] المغربى[٨] .

من علمــاء حلب الذين مارســوا التجارة العالم شمس الدين محمد « ت ٨٥٧هـ »[٩] .

ومن القدس العالم الشهاب العامرى[١٠] « ت ٨٧٧هـ »[١١] .

وبالنسبة للزراعة ، تذكر المصادر التاريخية[*] ممارسة علماء مصر لها أمثال العالم أبو هريرة

---

(١) الشهاب أحمد : أحمد بن أبى بكر ، تفقه على شيوخ عصره ، ولى قضاء مصر ، توفى ٨٩٤هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ٢٥٩.

(٢) السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ٢٥٩.

(٣) أبو بكر الكنانى : أبو بكر بن على ، تفقه على شيوخ عصره بدمشق ، ولى قضاء بعلبك ، وبيروت ، توفى ٨١٧هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ١١ ص ٥٢.

(٤) ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٧ ص ١٥٤، السخاوى « الضوء اللامع » ح ١١ ص ٥٢.

(٥) تقى الدين أبو بكر : هو الشيخ الإمام المحدّث تقى الدين أبو بكر المالكى ، المشهور بأبى أُصيبعة ، توفى عام ٨٥٠هـ ، انظر : ابن الحمصى « حوادث الزمان » ح ١ ص ١٢٨.

(٦) ابن الحمصى « حوادث الزمان » ح ١ ص ١٢٨، السخاوى « الضوء اللامع » ح ١١ ص ٩٩.

(٧) شمس الدين المغربى : هو شمس الدين محمد المغربى ، تولى قضاء المالكية بدمشق عام ٨٩٧هـ ، انظر : ابن الحمصى « حوادث الزمان » ح ١ ص ٣٣٣.

(٨) ابن الحمصى « حوادث الزمان » ح ١ ص ٣٣٣.

(٩) ابن العجمى « كنوز الذهب » ح ٢ ص ٢٥٨.

(١٠) الشهاب العامرى : أحمد بن عبد الرحمن ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء الرملة ، توفى عام ٨٧٧هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ٣٢٧.

(١١) السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ٣٢٧.

(*) ما ذكرته المصادر التاريخية فى ذلك الشأن معلومات مقتضبة وردت فى ثنايا تراجم العلماء ، حيث اكتفت بذكر ممارسة العالم للزراعة فقط .

النقاش[1] « ت ٨١٩هـ »[2] ، والعالم محمد القاياتى[3] « ت ٨٥٠هـ »[4] .

ومن علماء دمشق الذين مارسوا الزراعة العالم أبو الوفا إبراهيم « ت ٨١٤هـ »[5] ، وبالنسبة للصناعة ، فكانت حياكة الملابس من أشهر الصناعات التى مارسها العلماء أمثال العالم المصرى برهان الدين القرشى[6] « ت ٨١٦هـ »[7] ، وعالِما دمشق ابن عروة الموصلى[8] « ت ٨٣٧هـ »[9] ، وأبو بكر الصالحى[10] « ت ٨٦١هـ »[11] .

---

(١) أبو هريرة ابن النقاش : عبد الرحمن بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، ولى خطابة جامع ابن طولون ، توفى ٨١٩هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٤ ص ١٤١.

(٢) ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٧ ص ٢٣٣، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٤ ص ١٤١.

(٣) محمد القاياتى : محمد بن على ، تفقه على شيوخ عصره ، ولى قضاء الشافعية بمصر ، توفى ٨٥٠هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٨ ص ٢١٢.

(٤) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٨ ص ٢١٢.

(٥) ابن طولون « ذخائر القصر » ص ٣٠٣.

(٦) برهان الدين القرشى : هو إبراهيم بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، وكان زاهدًا ، توفى عام ٨١٦هـ ، انظر : ابن تغرى « المنهل الصافى » ح ١ ص ١٦٥، عثمان مصطفى «إتحاف الأغرة» ح ٤ ص ٢٦ .

(٧) ابن تغرى « المنهل الصافى » ح ١ ص ١٦٥.

(٨) ابن عروة : على بن حسين ، تفقه على شيوخ عصره ، وبرع فى علم الحديث ، توفى ٨٣٧هـ ، انظر : ابن المبرد « الجوهر المنضد فى طبقات متأخرى أصحاب أحمد » ص ٩٩.

(٩) ابن عبد الهادى « ذيل ابن عبد الهادى على طبقات ابن رجب » ص ٦٢، ابن المبرد « الجوهر المنضد » ص ٩٩.

(١٠) أبو بكر الصالحى : أبو بكر بن إبراهيم ، تفقه على شيوخ عصره ، توفى بدمشق عام ٨٦١هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ١١ ص ١٤.

(١١) السخاوى « الضوء اللامع » ح ١١ ص ١٤.

الفصل الرابع

العلماء والحياة الاجتماعية بمصر والشام

نقاط الفصل الرابع

١ ـ المستوى الاجتماعى للعلماء .

أ ـ المكانة الاجتماعية للعلماء لدى السلطة والرعية .

ب ـ المستوى المعيشى للعلماء « مرتبات العلماء ـ ملابسهم ، حياتهم بين الزهد والتقشف وبين الثراء » .

٢ ـ تطهير المجتمع من الأمراض الاجتماعية والرذائل الأخلاقية .

* محاربة تعاطى الخمر والحشيش .
* محاربة البغاء ، والشذوذ الجنسى .
* محاربة تبرج النساء .
* محاربة دور القِمار .

٣ ـ العلماء والفقراء .

* العلماء وتثمير الأوقاف المرصودة على الفقراء .
* إطعام العلماء الفقراء .
* توزيع العلماء أموال الأغنياء على الفقراء .
* حث العلماء الأغنياء الإنفاق على الفقراء .

٤ ـ تزويج الأيامى .

٥ ـ العلماء والعمران .

أ ـ المدارس .

ب ـ المساجد .

جـ ـ الزوايا .

د ـ السبل .

هـ ـ الخانات .

و ـ أبراج الرباط .

١ ـ المستوى الاجتماعى للعلماء

ينقسم المجتمع المملوكى إلى طبقات ثلاث ، الطبقة الأولى يمثلها المماليك الذين عاشوا فى المجتمع كطبقة أو ليجاركيه (Oligarchy) بمعنى طبقة القلة المميزة أو حكومة القلة المميزة ، وكانو يشكلون طبقة عسكرية أرستقراطية أجنبية منفصلة عن الشعب والبلاد التى يحكمونها ، وكانت تلك الطبقة تتكون من السلطان وحاشيته ، والأمراء المماليك أصحاب المراتب العالية والوظائف العليا « وظائف أرباب السيوف »[*][١] .

أمّا الطبقة الثانية ، فقد أطلقت عليها المصادر « الأعيان » أو « المعممون » للدالة على العلماء والفقهاء أرباب الوظائف الدينية[*] « من قضَاء وحسَبه وتدريس وغير ذلك »[٢] .

أمّا الطبقة الثالثة هى طبقة العامة وهى تمثل مختلف الشرائح من التجار وأهل الحرف والصنائع والباعة والسوقة حتى نصل إلى أدنى شريحة من شرائح العامة وهم الحرافيش[٣]

(*) وظائف أرباب السيوف ، تلك الوظائف القاصرة على أمراء المماليك ذوى المراتب العسكرية المختلفة كالنيابة والحجابة والاستادارية وغير ذلك ، وقد أشار إليها الباحث بالفصل الثانى من الدراسة « العلماء والإدارة بمصر والشام » .

(١) د. سعيد عاشور « المجتمع المصرى » ص ٣، ١٠، ١١، د. إبراهيم طرخان « مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة » ص ٢٤٩، ايرا لابيدوس « مدن الشام فى العصر المملوكى » ص ١٣٤، د. لبيبة إبراهيم « الفتن والقلاقل » ص ٩٠.

(*) **الوظائف الدينية :** هى الوظائف كانت توليتها قاصرة على العلماء كالقضاء والحسبة وغير ذلك ، ولقد أشار إليها الباحث بشىء من التفصيل بالفصل الثانى من الدراسة « العلماء والإدارة بمصر والشام » .

(٢) د. إبراهيم طرخان « مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة » ص ٢٤٩ ـ ٢٥١، ايرا لابيدوس « مدن الشام فى العصر المملوكى » ص ١٣٤، د. يسرى زيدان « الفقهاء والعامة فى مصر والشام » ص ٤١، د. لبيبة إبراهيم « الفتن والقلاقل » ص ٩٢، ٩٣.

(٣) **الحرافيش :** مفردها حرفوش ، وهؤلاء الحرافيش كما يصفهم المؤرخون هم فقراء القاهرة وعراتها وعاطليها ، وكان هؤلاء الحرافيش ينهبون ويسرقون ، انظر : د. محمد رجب « حكايات الشطار والعيارين » ص ٩، ١٧٩، ١٨٣، دورية الهلال ، عدد سبتمبر ١٩٨١م ، د. لبيبة إبراهيم « الفتن والقلاقل » ص ٩١.

والزعر[1] ممن لا عمل ثابت لهم[2] .

ولقد كان لكل طبقة من الطبقات السابقة سمات خاصة تحدد وضعها فى بنيان هذا المجتمع ونوع نشاطها ، والذى يعنى الباحث طبقة العلماء ـ موضوع الدراسة ـ ، وسوف يُتناول ملامح تلك الطبقة من خلال أمرين رئيسين :

أ ـ المكانة الاجتماعية للعلماء لدى السلطة والرعية .

ب ـ المستوى المعيشى للعلماء بين الزهد والتقشف وبين الثراء .

أ ـ المكانة الاجتماعية للعلماء لدى السلطة والرعية :

كان الإجلال والخوف من نفوذ العلماء لدى المصريين والشاميين هو البعد الرئيسى الذى كان يحكم العلاقة بين السلطة والعلماء ، ولعل ما يؤكد ذلك تلك الإشارات التاريخية التى وصلت إلينا والتى تؤكد المعنى السابق ، والتى منها ما ذكرته المصادر التاريخية أن السلطان الظاهر[3] بيبرس « ت ٧٧٦هـ » عندما علم بوفاة العالم العز بن عبد السلام[4] « ت ٦٦٠هـ » قال : « اليوم استقر أمرى فى المُلك لأن هذا الشيخ لو كان يقول للناس أخرجوا عليه لانتزع

---

(١) **الزعر** : يقال زعر ريشه أو شعره : قل وتفرق فانكشف الجلد ، وبان ، وزعر الرجل قل خيره ، والأزعر جمعه زعر وزعران ، وهو اللص الخاطف ، والزعارة : شراسة الخُلق ، والزُعر فى العصر المملوكى عصابات منظمة كانت تقوم بالسلب والنهب والقتل ، انظر : د. محمد رجب « حكايات الشطار » ص ٨، ١٩٠، أكرم حسن « دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين » ص ٩٥، ٩٦، ٩٧، الشركة المتحدة للطباعة ، ط ١ (١٤٠٢هـ/١٩٨٢م) .

(٢) د. محاسن محمد « الطبقات الشعبية فى القاهرة المملوكية » ص ٢٣، ٢٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٩م ، د. البيومى إسماعيل « مصادرة الأملاك » ص ٢٨٩، د. إبراهيم طرخان » مصر فى عصر دولة المماليك » ص ٢٤٩ ـ ٢٥١، د. ليبية إبراهيم « الفتن والقلاقل » ص ٩١.

(٣) الظاهر بيبرس : هو المؤسس الحقيقى لدولة المماليك فى مصر والشام ، ولقد شغل كرسى السلطنة على مدار سبعة عشر عام ، توفى عام ٧٧٦هـ ، انظر : المقريزى « السلوك » ح ١ ص ٦٣٥.

(٤) العز بن عبد السلام : عبد العزيز بن عبد السلام ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء مصر ، وخطابة الجامع بدمشق ، وكان سلطان العلماء فى عصره ، توفى ٦٦٠هـ ، انظر : السبكى « طبقات الشافعية الكبرى » ح ٨ ص ٢٠٩.

المُلك منى »[1] ، وكان السلطان الناصر بن قلاوون[2] « ت ٧٤١هـ » يقول : « إنى لا أخاف من أحد إلا من العالم شمس الدين الحريرى[3] « ت ٧٤٥هـ » »[4] .

كذلك عجزت السلطة المملوكية عن المساس بالعالم أبو هريرة ابن النقاش[5] « ت ٨١٩هـ » ـ خطيب جامع ابن طولون[6] ـ رغم تنديد هذا العالم بمظالم السلطة المملوكية من فوق منبر جامع ابن طولون ، وذلك بسبب حُبّ المصريين له[7] .

ومن ذلك ـ أيضًا ـ ما ذكرته المصادر التاريخية أن السلطان برسباى[8] « ت ٨٤١هـ » ، أرسل مرسومًا لنائبه بدمشق عام ٨٣٠هـ/١٤٢٦م بعدم الاقتراب أو المساس من العالم نجم الدين الحسبانى[9] رغم شكاوى أمراء الشام بأنه يُجاهر بمظالم المماليك وذلك لالتفاف

---

(١) السبكى « طبقات الشافعية » ح ٨ ص ٢١٥.

(٢) الناصر بن قلاوون : هو من أقوى سلاطين دولة المماليك البحرية ، تولى الحكم ثلاث مرات ، الأولى عام ٦٩٣هـ ، واستمر سنة واحدة ثم عزل ، ثم تولى ٦٩٨هـ حتى عام ٧٠٨هـ ، ثم أعيد للحكم عام ٧٠٩هـ ، واستمر على كرسى السلطنى حتى وفاته عام ٧٤١هـ ، وكانت هذه الولاية الثالثة أعظم تلك الولايات ، وازدهرت خلالها أحوال مصر والشام ، انظر : المقريزى « السلوك » ح ٢ ص ٥٢٩.

(٣) شمس الدين الحريرى : محمد بن عثمان ، تفقه على شيوخ عصره ، ولى قضاء دمشق ، ثم قضاء القاهرة ، ولد عام ٦٥٣هـ ، توفى ٧٢٨هـ ، انظر : محيى الدين القرشى « الجواهر المضيئة فى طبقات الحنفية » ح ٣ ص ٢٥٠.

(٤) ابن بطوطة « رحلة ابن بطوطة » ص ٤٥.

(٥) أبو هريرة بن النقاش : عبد الرحمن بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، ولى خطابة جامع ابن طولون ، توفى ٨١٩هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٤ ص ١٤١.

(٦) **جامع ابن طولون** : أنشأه السلطان أحمد بن طولون عام ٢٦٥هـ ، وهو يقع شرقى حىّ السيدة زينب جنوبى القاهرة ، وكان بمثابة جامعة علمية يُدرس بها العلوم المختلفة فى العصر المملوكى ، انظر : د. كرم حلمى « المسجد ودوره الحضارى فى ضوء مكانة جامع ابن طولون » ص ١٤٢.

(٧) الغزى « بهجة الناظرين فى تراجم الشافعية المتأخرين » ص ١٢٦، ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٧ ص ٢٣٢، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٤ ص ١٤١.

(٨) برسباى : سبق التعريف به بالفصل الأول ، انظر : ص ١٠ .

(٩) نجم الدين الحسبانى : عمر بن حجى ، تفقه بشيوخ عصره ، تولى قضاء دمشق إحدى عشر عامًا ـ على فترات متفاوتة ـ توفى عام ٨٣٠هـ ، انظر : ابن طولون « قضاة دمشق » ص ١٤٣.

أهالى دمشق حوله[1] .

وما كان السلطان قايتباى[2] « ت ٩٠١هـ » يقوم به من التودد والتواضع للعالم أمين الآقصراى[3] بالرغم من شدة هجومه عليه والتنديد بسياساته خوفًا من نفوذه لدى المصريين[4] .

أمّا عن مظاهر إجلال السلطة للعلماء فى العصر المملوكى الألقاب التى أطلقتها على العلماء ، وكانوا يُخاطبون بها ، وكانت تلك الألقاب على خمس درجات ، الدرجة الأولى الجناب وهى على مرتبتين ، المرتبة الأولى الجناب الكريم ، والمرتبة الثانية الجناب العالى وذلك خاص بالقضاة ، والدرجة الثانية هى المجلس العالى ، وهى للقضاة أيضًا ، والدرجة الثالثة المجلس السامى ، وهى للقضاة والعلماء وأرباب الوظائف الدينية من العلماء كوكيل بيت المال ، وقضاة العسكر ومفتو دار العدل ، والمحتسب ، والمدرس ، والدرجة الرابعة « مجلس القاضى » وهى للقضاة والعلماء ، والدرجة الخامسة « القاضى »[5] ، ومن تلك الألقاب التى أوردها المؤرخون للعلماء ـ أيضًا ـ « سيد العلماء والحكام » ، و « أوحد العلماء الأعلام » ، و « جمال العلماء »[6] .

أمّا عن المكانة الاجتماعية للعلماء لدى المصريين والشاميين ، فلقد شهد مؤرخو العصر المملوكى أن العلماء كانوا يتمتعون بمكانة عالية ومحبة جارفة فى قلوب المصريين والشاميين ، وذلك ما تؤكده العبارات التى أوردها المؤرخون فى ثنايا تراجم علماء مصر

---

(١) ابن طولون « قضاة دمشق » ص ١٤١.

(٢) قايتباى : سبق التعريف به بالفصل الأول ، انظر : ص ٢٢ .

(٣) أمين الدين الآقصراى : يحيى بن محمد ، كان من كبار علماء الحنفية بمصر ، درس وأفتى ، توفى عام ٨٨٠هـ ، انظر : ابن إياس « بدائع الزهور » ح ٣ ص ١٠٧.

(٤) السخاوى « الضوء اللامع » ح ١٠ ص ٢٤١.

(٥) الخالدى « المقصد الرفيع » ص ١٧١، ابن ناظر الجيش « تثقيف التعريف » ص ١٩٢، ١٩٣، ١٩٧، ١٩٩، القلقشندى «صبح الأعشى» ح ٥ ص ٤٩٥ .

(٦) عبد الوهاب حمودة « صفحات من تاريخ مصر فى عصر السيوطى « ص ٨٨، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، « د. ت » ، حسن الباشا « الألقاب والمراسيم » ص ٢٠١.

والشام ، والتى منها « أحبه العامة » ، و « أثنى الناس عليه » ، « كان الناس يحبونه ويهرعون إليه فى كافة أمورهم ويزدحمون ببابه » ، « حملت جنازته على الرؤوس ولم يستطع أحد من كثرة الزحام الوصول إليها » ، و « وقع النوح عليه فى سائر الأقطار » ، ومن أمثال هؤلاء العلماء الذين أورد المؤرخون فى تراجمهم العبارات السابقة ، « **من مصر** » ، سعد الدين الديرى[١][٢] ، وأمين الآقصراى[٣][٤] ، وابن حجر العسقلانى[٥][٦] ، وبدر الدين الحكرى[٧] ، وجمال الدين[٨] البساطى[٩] .

ومن علماء دمشق ، تقى الدين[١٠] الحصنى[١١] ، ....

---

(١) سعد الدين الديرى : سعد بن محمد ، تفقه بشيوخ عصره ، حتى صار رأس المذهب الحنفى فى عصره ، ولى قضاء مصر ، توفى ٨٦٧هـ ، انظر : ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٦ ص ٢٨٥، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٤ ص ٢٥٠.

(٢) ابن شاهين « الروض الباسم » ص ٥٨، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٤ ص ٢٥٠.

(٣) أمين الآقصراى : انظر : ص ٢٠٩.

(٤) السخاوى « الضوء اللامع » ح ١٠ ص ٢٤٢، ابن إياس « بدائع الزهور » ح ٣ ص ١٠٧.

(٥) ابن حجر العسقلانى : أحمد بن على ، تفقه بشيوخ عصره ، برع فى علم الحديث حتى لُقب بأمير المؤمنين فى الحديث النبوىّ ، ولى قضاء مصر على مذهب الشافعية ، توفى ٨٥٢هـ ، انظر : ابن الحمصى « حوادث الزمان » ح ١ ص ٩٠، ابن تغرى « المنهل الصافى » ح ٢ ص ١٧.

(٦) البقاعى « عنوان الزمان » ح ١ ص ٥٦، ابن الحمصى « حوادث الزمان » ح ١ ص ٩٠، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٢ ص ٤٠.

(٧) ابن مفلح « المقصد الأرشد فى ذكر أصحاب أحمد » ح ٢ ص ٤٨١، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٨ ص ١٨١.

(٨) جمال الدين البساطى : يوسف بن خالد ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء المالكية بمصر ، توفى ٨٢٩هـ ، انظر : ابن حجر « رفع الأصر عن قضاة مصر » ص ٤٧٦، تحقيق د. على محمد ، مكتبة الخانجى ، ط ١ (١٤١٨هـ/١٩٩٨م) .

(٩) ابن حجر « رفع الأصر » ص ٤٧٦.

(١٠) تقى الدين الحصنى : أبو بكر بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، حتى صار شيخ الشافعية بدمشق ، توفى ٨٢٩هـ ، انظر : المقريزى « العقود الفريدة « ح ١ ص ١٨٢.

(١١) ابن خطيب الناصرية « الدر المنتخب فى تكملة تاريخ حلب » ص ٢٠٤، البقاعى « عنوان الزمان » ح ١ ص ١٧٧، ابن قاضى شهبة « طبقات الشافعية » ح ٢ ص ٣٠٨.

وأبو بكر بن قاضى[1] عجلون[2] ، وبرهان الدين[3] بن مفلح[4] .

ومن علماء القدس، شهاب الدين[5] الرملى[6] ، ونجم الدين[7] ابن جماعة .

ب ـ المستوى المعيشى للعلماء بين الزهد والتقشف وبين الثراء :

لقد كان أهم الموارد المالية للعلماء فى العصر المملوكى تتمثل فى أمرين :

أولهما « مرتباتهم[8] على الوظائف الرفيعة التى كانت تسندها السلطة المملوكية إليهم من قضاء[*] وحسبة وغير ذلك ، ولقد ذكرت لنا المصادر أن مرتب القاضى خمسين دينار شهريًا ، هذا فضلًا عن راتب عينى من الأرز واللحم والعسل ونحو ذلك ، كذلك ما كان يأخذه القاضى من راتب نظير قيامه بالإشراف على الأوقاف ، وكان ذلك الراتب من ريع الأوقاف[9] .

---

(١) أبو بكر بن قاضى عجلون : أبو بكر بن عبد الله ، تفقه بشيوخ عصره ، انتهت إليه مشيخة الإسلام ورئاسة الشافعية بدمشق ، توفى ٩٢٨هـ ، انظر : الغزى « الكواكب السائرة » ص ١١٥.

(٢) الغزى « الكواكب السائر » ص ١١٥.

(٣) برهان الدين بن مفلح : إبراهيم بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، انتهت إليه مشيخة الحنابلة بدمشق ، تولى قضاء الحنابلة بدمشق ، توفى ٨٠٣هـ ، انظر : ابن طولون « قضاة دمشق » ص ٢٨٨، ابن مكى « السحب الوابلة » ح ١ ص ٦٧.

(٤) ابن مفلح « المقصد الأرشد » ح ١ ص ٣٠، السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ١٥٢.

(٥) شهاب الدين الرملى : أحمد بن حسين ، تفقه على شيوخ عصره ، درس وأفتى ، توفى عام ٨٤٤هـ ، انظر : مجير الدين الحنبلى « الأنس الجليد » ح ٢ ص ١٧٤.

(٦) البقاعى « عنوان الزمان » ح ١ ص ٦٧، مجير الدين الحنبلى « الأنس الجليل » ح ٢ ص ١٧٤.

(٧) الغزى « الكواكب السائرة » ص ٢٥.

(٨) هذه الرواتب التى كان يتقاضها العلماء وردت فى كتب « النُظم المملوكية » بشكل مقتضب موجز دون تفصيل .

(*) تحدث البحث عن تلك الوظائف التى تولاها العلماء من قبل السلطة المملوكية بالفصل الثانى من الدراسة « العلماء والإدارة بمصر والشام » .

(٩) العمرى « المسالك والممالك » ص ٤٩، ابن كنان « حدائق الياسمين » ص ٩٦، جمال جرجس =

أمّا كاتب السر[1] ، فكان راتبه مائة وعشرون دينار ، هذا فضلًا عن بعض الإقطاعات التى كانت السلطة تمنحها له[2] .

أمّا المحتسب ، فكان راتبه حوالى ثلاثين دينار شهريًا ، فلقد ذكرت المصادر أن راتب صدر الدين العجمى[3] الذى كان يتولى حسبة القاهرة عام ٨٢٤هـ/١٤٢١م ثلاثون دينار[4] .

أمّا المُدرس ، فكان السلطان يخصص له خمسين دينار شهريًا ، هذا فضلًا عن الراتب الذى كان يأخذه المدرس من ريع الأوقاف الموقوفة على المؤسسات العلمية من مدارس ومساجد[5] .

ومرتبات العلماء ـ سابقة الذكر ـ تعد ضئيلة إذا قورنت برواتب الأمراء المماليك ، فلقد كان كبار الأمراء تتراوح مرتباتهم ما بين ثلاثة وأربعة آلاف دينار ، أما صغار الأمراء فكانت مرتباتهم تتراوح ما بين ألف وألفين دينار[6] .

= « القضاء فى العصر المملوكى » ص ٨١، د. محمد محمد أمين « الأوقاف فى عصر سلاطين المماليك » ص ١٣٤، د. عبد الخالق حسن « النظم القضائية » ص ٣٠٤، د. البيومى إسماعيل « النظم المالية » ص ٢٦٧.

(١) **كاتب السر** : كتابة السر هى من أرفع الولايات الديوانية التى تولاها العلماء فى العصر المملوكى ، وهى نسبة لكاتب السر ، وهو رئيس ديوان الإنشاء ، ولقد أشار الباحث إلى تلك الوظيفة بشىء من التفصيل بالفصل الثانى من الدراسة « العلماء والإدارة بمصر والشام » .

(٢) سند أحمد « البريد فى عصر دولة سلاطين المماليك البحرية » ص ٥٧، ماجستير ، آداب عين شمس ، ٢٠٠٠م .

(٣) صدر الدين العجمى : أحمد بن محمود ، من أبرز فقهاء الحنفية بمصر فى عصره ، درس ، وأفتى ، تولى الحسبة مرارًا ، توفى ٨٣٣هـ ، انظر : ابن طولون « الغرف العلية » ص ١٥٨، ابن تغرى « المنهل الصافى » ح ٢ ص ٢١٢.

(٤) ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٤ ص ٨.

(٥) ابن العجمى « كنوز الذهب » ح ٢ ص ١٦٥، ١٦٦، العمرى « المسالك والممالك » ص ٤٩، د. عادل عبد الحافظ « نيابة حلب » ص ١٩٧، ايرا لابيدوس « مدن الشام فى العصر المملوكى » ص ٢١٦.

(٦) د. البيومى إسماعيل « النظم المالية » ص ٢٦٧.

أما ثانى الموارد المالية للعلماء فى العصر المملوكى ، ما كان يتحصل عليه العلماء من ريع[*] الأوقاف الموقوفة على المدارس والمساجد نظير قيامهم بوظيفة التدريس أو الخطابة بهذه المدارس والمساجد[(١)] .

أما إذا أردنا الحديث عن ملابس العلماء ـ التى يرى أحد الباحثين أنها كانت تحمل معنى اجتماعيًا مهمًا فى العصر المملوكى[(٢)] ـ ، فتذكر لنا المصادر أن العلماء كانت لهم ملابس تميزهم عن غيرهم ، فلقد كان العلماء يلبسون العمائم الكبار ، وكان من بين هؤلاء العلماء من يجعل طرف عمامته على هيئة ذؤابة طويلة يرسلها بين كتفيه ، كما كانوا يرتدون الدِلْق ، وهو رداء كالعباءة متسع الأكمام طويلها مفتوحًا فوق كتفيه بلا تفريج ، وكان هذا الدلق مسترسلاً حتى القدمين ـ أى سابلاً ـ ، وكان كبار العلماء كقاضى القضاة يتميزون بقطعة أخرى من الملابس وهى « الطرحة » ، وكانت عبارة عن وشاح يلبس فوق العمامة ، ويلتف حول الرقبة ويسترسل على الكتفين[(٣)] .

* العلماء والزهد وحياة التقشف :

لقد آثرت طائفة كبيرة من علماء مصر والشام فى القرن التاسع حياة الزهد[(٤)] والتقشف ،

(*) لم تذكر لنا المصادر التاريخية نسبة تقريبية كان يتحصل عليها العلماء من ريع الأوقاف الموقوفة على المدارس والمساجد نظير قيامهم بوظيفة التدريس أو الخطابة بهذه المدارس والمساجد .

(١) العمرى « المسالك والممالك » ص ٤٩، د. عادل عبد الحافظ « نيابة حلب » ص ١٩٧، ايرالا بيدوس « مدن الشام فى العصر المملوكى » ص ٢١٦.

(٢) آدم صبرة « الفقر والإحسان فى مصر » ص ١٨١.

(٣) القلقشندى « صبح الأعشى » ح ٤ ص ٤١، ٤٢، العمرى « المسالك والممالك » ص ٥٠، ٥١، د. سعيد عاشور « المجتمع المصرى » ص ٢١٣، ٢١٤، ل . أ . ماير « الملابس المملوكية » ص ٨٩ ـ ٩٦، ترجمة صالح الشيتى ، مراجعة د. عبد الرحمن فهمى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٢م ، محمد أحمد «تطور الملابس فى المجتمع المصرى من الفتح الإسلامى إلى نهاية العصر الفاطمى» ص ٢١٨، دكتوراة ، آداب القاهرة ، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م .

(٤) **الزهد** : الزهد خلاف الرغبة ، والزهد فى الشىء يعنى عدم إرادته وعدم قصده ، ومنهج الرسل يقوم أساسًا على الزهد ، والزهد المحمود شرعًا هو ترك ما لا ينفع العبد فى الآخرة ، أو هو ترك مالا يعينك على الآخرة ، انظر : د. محمد السيد الجليند « من قضايا التصوف فى ضوء الكتاب والسنة » ص ٢٤، ٢٥، مكتبة الزهراء ، القاهرة ، ١٩٩٠م .

فى الملبس، والمطعم والمركب والمسكن، وذلك ما أثبته مؤرخو العصر المملوكى، حيث كانت عبارة «كان زاهدًا مُتقشفًا»، و «جمع بين العلم والعمل والزهد»، «وكان فى الزهد والتقشف والورع آية»، من العبارات التى كثيرًا ما كان مؤرخو[*] العصر المملوكى يذيلوا بها تراجم علماء مصر والشام فى القرن التاسع الهجرى.

فمن علماء مصر ـ على سبيل المثال ـ الذين ذكرت المصادر أنهم كانوا يحيون حياة الزهد والتقشف، برهان الدين البيحورى[(١)] «ت ٨٢٥هـ»[(٢)]، وسراج الدين أبو حفص[(٣)] «ت ٨٢٩هـ»[(٤)]، وزين الدين القلمطائى[(٥)] «ت ٨٥٦هـ»[(٦)]، والشهاب أبو العباس[(٧)] القنائى «ت ٨٥٨هـ»[(٨)]، والشهاب أحمد[(٩)] «ت ٨٥٣هـ»[(١٠)]، ونور الدين أبو

(*) لم توضح المصادر التاريخية مشاهد وصور من حياة الزهد والتقشف التى كان يحياها العلماء فى العصر المملوكى.

(١) برهان الدين البيجورى: إبراهيم بن أحمد، تفقه على شيوخ عصره، برع فى الفقه، وكان من كبار علماء الشافعية فى عصره، درس، توفى عام ٨٢٥هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ١ ص ١٧، ابن تغرى «النجوم الزاهرة» ح ١٤ ص ٢٩١.

(٢) السخاوى «الضوء اللامع» ح ١ ص ١٧، ابن تغرى «النجوم الزاهرة» ح ١٤ ص ٢٩١.

(٣) سراج الدين أبو حفص: عمر بن على، تفقه على شيوخ عصره، برع فى الفقه، والتفسير، درس وأفتى، انتهت إليه رئاسة الحنفية فى عصره، توفى عام ٨٢٩هـ، انظر: ابن تغرى «المنهل الصافى» ح ٨ ص ٣٠٤.

(٤) ابن حجر «إنباء الغمر» ح ٨ ص ١١٥، ابن تغرى «المنهل الصافى» ح ٨ ص ٣٠٤.

(٥) زين الدين القلمطائى: عمر بن قديد، تفقه على شيوخ عصره، درس وكان من كبار علماء الحنفية فى عصره، توفى ٨٥٦هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ٦ ص ١١٣.

(٦) ابن تغرى «المنهل الصافى» ح ٨ ص ٣١٢، السخاوى «الضوء اللامع» ح ٦ ص ١١٣.

(٧) الشهاب أبو العباس القنائى: أحمد بن عباد، تفقه على شيوخ عصره، درس، توفى ٨٥٨هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ١ ص ٣٢٠.

(٨) السخاوى «الضوء اللامع» ح ١ ص ٣٢٠.

(٩) الشهاب أحمد: أحمد بن على، تفقه على شيوخ عصره، برع فى الفقه، درس، توفى عام ٨٥٣هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ٢ ص ٦.

(١٠) السخاوى «وجيز الكلام» ح ٢ ص ٦٣٦، السخاوى «الضوء اللامع» ح ٢ ص ٦.

الحسن[(١)] « ت ٨١٣هـ »[(٢)] ، وشهاب الدين[(٣)] أبو الفتح « ت ٨٣٥هـ »[(٤)] ، وشهاب الدين[(٥)] الأبشيطى « ت ٨٨٣هـ »[(٦)] .

ومن علماء دمشق ـ على سبيل المثال ـ الذين ذكرت المصادر أنهم كانوا يحيون حياة الزهد والتقشف، تقى الدين الحصنى[(٧)] « ت ٨٢٩هـ »[(٨)] ، وابن عروة[(٩)] « ت ٨٣٧هـ »[(١٠)] ، وعلاء الدين[(١١)] أبو الحسن « ت ٨٤٤هـ »[(١٢)] ، وعز الدين[(١٣)] أبو

---

(١) نور الدين أبو الحسن : على بن أحمد ، تفقه على شيوخ عصره ، كان عالما بالفقه والتفسير ، درس وأفتى ، توفى ٨١٣هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٥ ص ١٦٣.

(٢) السخاوى « وجيز الكلام » ح ١ ص ٤٠٨، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٥ ص ١٦٣، ١٦٤.

(٣) شهاب الدين أبو الفتح : أحمد بن عثمان ، تفقه على شيوخ عصره ، برع فى علم الحديث ، توفى ٨٣٥هـ ، انظر : ابن طولون « الغرف العلية فى تراجم الحنفية » ص ١٢١، ١٢٢.

(٤) ابن طولون « الغرف العلية » ص ١٢١، ١٢٢، السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ٣٧٨.

(٥) شهاب الدين الأبشيطى : أحمد بن إسماعيل ، تفقه على شيوخ عصره ، درس ، توفى ٨٨٣هـ ، انظر : البقاعى « عنوان الزمان » ح ١ ص ٥٩.

(٦) ابن مكى « السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة » ح ١ ص ١٠١، السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ٢٣٥.

(٧) تقى الدين الحصنى : أبو بكر بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، حتى صار شيخ الشافعية بدمشق ، توفى ٨٢٩هـ ، انظر : المقريزى « العقود الفريدة » ح ١ ص ١٨٢.

(٨) المقريزى « العقود الفريدة » ح ١ ص ١٨٢، السخاوى « الضوء اللامع » ح ١١ ص ٨١.

(٩) ابن عروة : على بن حسين ، تفقه على شيوخ عصره ، برع فى علم الحديث ، توفى عام ٨٣٧هـ ، انظر : ابن عبد الهادى « ذيل ابن عبد الهادى على طبقات ابن رجب » ص ٦٢.

(١٠) ابن عبد الهادى « ذيل ابن عبد الهادى » ص ٦٢، السخاوى « الضوء » ح ٥ ص ٢١٤.

(١١) علاء الدين أبو الحسن : على بن عثمان ، تفقه على شيوخ عصره ، درس ، توفى عام ٨٤٤هـ ، انظر : ابن تغرى « المنهل الصافى » ح ٨ ص ١١١، ١١٢.

(١٢) ابن تغرى « المنهل الصافى » ح ٨ ص ١١١، ١١٢، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٥ ص ٢٥٩.

(١٣) عز الدين أبو البركات : عبد العزيز بن علاء الدين أبو الحسن ، تفقه على شيوخ عصره ، ولى قضاء دمشق والقدس ، توفى عام ٨٤٦هـ ، انظر : مجير الدين الحنبلى « الأنس الجليل » ح ٢ ص ٢٦٢.

البركات « ت ٨٤٦هـ »[(١)] ، وزين الدين[(٢)] ابن داود « ت ٨٥٦هـ »[(٣)] .

ومن علماء حلب ـ على سبيل المثال ـ أبو بكر بن نصر[(٤)] « ت ٨٤٦هـ »[(٥)] ، وشهاب الدين أبو العباس[(٦)] « ت ٨٧٢هـ »[(٧)] .

ومن علماء القدس ـ على سبيل المثال ـ شهاب الدين[(٨)] ابن أرسلان « ت ٨٤٤هـ »[(٩)] ، والزين أبو الجود[(١٠)] « ت ٨٦٧هـ »[(١١)] .

يتضح لنا مما سبق أن العلماء ـ فى غالبهم ـ كان يحيون الزهد والتقشف ، وليس كما ذكر الدكتور قاسم عبده قاسم أنهم « كانوا يغالون فى إظهار مظاهر الترف والنعيم فيركبون الخيول المسومة ، ويرتدون الثياب الغالية ، ويغشون المجالس السلطانية ومجالس الأمراء »[(١٢)] .

---

(١) مجير الدين الحنبلى « الأنس الجليل » ح ٢ ص ٢٦٢.

(٢) زين الدين ابن داود : عبد الرحمن بن أبى بكر ، تفقه على شيوخ عصره ، وكان زاهدًا آمرًا بالمعروف وناهيًا عن المنكر ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٤ ص ٦٢.

(٣) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٤ ص ٦٢.

(٤) أبو بكر بن نصر : تفقه على شيوخ عصره ، كان من علماء حلب وزهادها ، توفى ٨٤٦هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ١١ ص ٩٦.

(٥) السخاوى « الضوء اللامع » ح ١١ ص ٩٦.

(٦) شهاب الدين أبو العباس : أحمد بن أبى بكر ، تفقه على شيوخ عصره ، درس ، وأفتى ، وانتهت إليه رئاسة العلم بحلب ، توفى ٨٧٢هـ ، انظر : ابن طولون « الغرف العلية فى تراجم الحنفية » ص ٩٠.

(٧) ابن طولون « الغرف العلية » ص ٩٠.

(٨) ابن أرسلان : أحمد بن حسين ، تفقه على شيوخ عصره ، له مؤلفات فى التفسير ، والحديث ، والفقه ، توفى عام ٨٤٤هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ٢٨٥.

(٩) السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ٢٨٥.

(١٠) الزين أبو الجود : ماهر بن عبد الله ، تفقه على شيوخ عصره ، درس ، توفى ٨٦٧هـ ، انظر : السخاوى « الضوء » ح ٦ ص ٢٣٦، السخاوى « وجيز الكلام » ص ٧٥٣.

(١١) السخاوى « وجيز الكلام » ح ٢ ص ٧٥٣، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٦ ص ٢٣٦.

(١٢) د. قاسم عبده قاسم « بعض مظاهر الحياة اليومية فى عصر سلاطين المماليك » ص ١٥.

٢ ـ تطهير المجتمع من الأمراض الاجتماعية الخبيثة والرذائل الأخلاقية

إن المجتمع المصرى والشامى عصر سلاطين المماليك عانى من الأمراض الاجتماعية الخبيثة والرذائل الأخلاقية، كتعاطى الخمر والحشيش[(١)]، وممارسة البغاء، والشذوذ الجنسى[(٢)].

ولقد كافح العلماء لتنقية المجتمع المصرى والشامىّ من تلك الأمراض والرذائل، ففى مصر، تذكر لنا المصادر التاريخية سعى العالم سراج الدين[(٣)] البلقينى «ت ٨٠٥هـ» لدى السلطة المملوكية لإبطال ضمان المغانى، وهو أنه من حق أى امرأة أن تمارس البغاء مقابل أن تدفع ضريبة معينة للدولة، وذلك أن السلطة المملوكية كانت قد اعترفت بالبغاء، وفرضت على البغايا ضرائب مقررة، ولتحصيل تلك الضرائب جعلت الدولة للبغايا ضامنة، تذهب إليها محترفة البغاء، لتسجيل اسمها عندها، ولقد استجابت السلطة المملوكية لذلك العالم الفاضل وأبطلت ضمان المغانى[(٤)]؛ تهدئة لغضب العلماء الذين أنكروا ذلك الأمر، غير أن السلطة المملوكية سرعان ما تعود إلى البغاء وفرض ضمان المغانى، وذلك بسبب شره تلك

---

(١) **الحشيش**: هو نبات مخدر، يُسمى لدى الأطباء بـ «القنب الهندى»، ويذكر بدر الدين الزركشى «ت ٧٩٤هـ» أن ذلك النبات ظهر فى أواخر المائة السادسة للهجرة حين ظهرت دولة المغول «التتار»، ولقد شاع هذا النبات فى العصر المملوكى، انظر: بدر الدين الزركشى «محمد بن بهادر» «ت ٧٩٤هـ» «زهر العريش فى تحريم الحشيش» ص ١، مخطوط بدار الكتب المصرية، برقم (٧٢٥ فقه تيمور) ومكروفيلم (١٢٤٩٤)، د. سعيد عاشور «المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك» ص ٢٥٢.

(٢) مجهول «حوادث الزمان» ص ١٤١، ابن طولون «مفاكهة الخلان» ص ٢٠، ١٣٩، ابن تغرى «النجوم الزاهرة» ح ١٠ ص ١٢٩، المقريزى «الخطط» ح ٢ ص ١٨٦، عز الدين المقدسى «ت ٨٢٠هـ» «المفاخرات الباهرة بين عرائس متنزهات القاهرة» ص ٢١، ٥٣، دار الآفاق العربية، القاهرة، ١٩٩٩م، حبيب زيات «دور القمار فى الإسلام» ص ١٧٤، مجلة المشرق، السنة ٣٦، عام ١٩٣٨م.

(٣) سراج الدين البلقينى: عمر بن رسلان، تفقه على شيوخ عصره، درس، وأفتى، وهو من كبار علماء الشافعية بمصر، توفى ٨٠٥هـ، انظر: السخاوى «الضوء» ح ٦ ص ٨٥.

(٤) جلال الدين البلقينى «ترجمة سراج الدين البلقينى» ص ٦، ابن شهبة «الإعلام» ص ٣٢٢، السخاوى «الضوء اللامع» ح ٦ ص ٨٩.

السلطة إلى الأموال أيًا كان مصدرها ، ويستمر ضمان المغانى من الموارد غير الشرعية لبيت المال عصر سلاطين المماليك ، كما أوضحت المصادر التاريخية[1] .

كما قام فقهاء دمياط[2] ـ بمساندة الأهالى ـ عام ٨٣١هـ/١٤٢٧م بإراقة الخمور بالخمارات[3] .

كما تذكر لنا المصادر التاريخية فى ثنايا تراجم علماء مصر ـ فى عبارات مقتضبة موجزة ـ أمثال ولى الدين المحلى[4] « ت ٨٨٢هـ » ، وجمال الدين التعزى[5] « ت ٨١٦هـ » ، وشهاب الدين المنوفى[6] « ت ٩٢٧هـ » ، أنهم طهروا المجتمع المصرى من ظاهرة البغاء وتعاطى الخمور[7] .

ومن المنكرات ـ أيضًا ـ التى حاربها علماء مصر ، ما كان يقوم به بعض المصريين من أرباب المجون والخلاعة ، حيث كان يخرج هؤلاء وقت فيضان النيل ـ بشكل خاص ـ إلى بركة الرطلى[8] ،

---

(١) د. البيومى إسماعيل « النظم المالية » ص ٢٠٠.

(٢) **دمياط** : مدينة على ضفة أحد فرقى النيل ، وهى موضع غِرَّة للعدو من البحر ، انظر : العمرى « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » ص ٩٣.

(٣) ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٨ ص ١٤٩.

(٤) ولى الدين المحلى : أحمد بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى خطابة الجامع الغمرى بالمحلة ، وكان كثير الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، توفى ٨٨٢هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٢ ص ٧٤.

(٥) جمال الدين التعزى : محمد بن عمر ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء بلدته « تعز » ، توفى ٨١٦هـ ، انظر : ابن العماد « شذرات الذهب » ح ٧ ص ١٢٣.

(٦) شهاب الدين المنوفى : شهاب الدين أحمد ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء بلدته منوف العليا ، توفى ٩٢٧هـ ، انظر : الغزى « الكواكب السائرة » ص ١٥٦.

(٧) ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٧ ص ١٤٠، السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ٧٤، الغزى « الكواكب السائرة » ص ٥٦.

(٨) **بركة الرطلى** : كانت بركة الرطلى من أحسن متنزهات مصر فى العصر المملوكى ، وكان طول البركة نحو ٣٥٠ مترًا ، ومتوسط عرضها ١٠٠ مترًا ، ومساحتها نحو ١٩ فدانًا ، وكانت تلك البركة تمتلئ بالماء وقت فيضان النيل ، فتدخلها مراكب النزهة ، وفى فصل الشتاء والربيع ، تزدهى البركة بمنظر أخاذ من نحو الأزهار ، وكان المصريون يأتون إلى البركة أيام أجازاتهم ، ولقد مارس أرباب المجون والخلاعة بتلك =

وجزيرة حليمة[١] ، وهناك يمارسون المنكرات من تعاطى الخمور والحشيش والزنا ونحو ذلك ، كما حدث على سبيل المثال ـ عام ٨٧٩هـ/١٤٧٤م[٢] ، ولقد تصدى علماء مصر لهذه الظاهرة الخبيثة ، فها هو العالم زكريا الأنصارى[٣] « ت ٩٢٦هـ » يدعو المصريين ـ خلال خطبة الجمعة ـ إلى اجتناب تلك المنكرات التى كان يقبل عليها المصريون وقت فيضان النيل ببركة الرطلى ، وجزيرة حليمة ، فهو يُحذر من خلال الموعظة والنصيحة أن يميل المصريون إلى فعل تلك المنكرات التى يمارسها من لا خلاق لهم ولا دين بتلك الأوكار الفاسدة[٤] .

أمّا بلاد الشام ، ففى دمشق تذكر لنا المصادر التاريخية عام ٨٢٦هـ/١٤٢٢م أن علماء دمشق بقيادة نجم الدين الحسبانى[٥] ـ بمساندة الأهالى ـ أراقوا الخمور بالخمارات[٦] .

= البركة المنكرات من تعاطى الخمور ، والحشيش ونحو ذلك ، ولقد درست تلك البركة أيام الخديوى إسماعيل « ت ١٨٩٥م » ، ويشغلها الآن المنطقة المحصورة بين شارع الظاهر شمالًا وغربًا ، وشارع غالى ، وما فى امتداده جنوبًا وخط رأسى موازى لشارع البكرية شرقًا ، انظر : عز الدين المقدسى « المفاخرات الباهرة » ص ١٥، ٢١، ٢٢، المقريزى «المواعظ والاعتبار» ح ٣ ص ٥٤٠ .

(١) **جزيرة حليمة :** تقع هذه الجزيرة بين بولاق وجزيرة أروى ، ولقد ظهرت تلك الجزيرة للوجود عام ٧٤٧هـ ، وصارت منذ ذلك الوقت متنزهًا للمصريين ، ولقد قصدها أرباب المجون والخلاعة ، ومارسوا فيها المنكرات ، ولقد اتصلت تلك الجزيرة بجزيرة أروى بواسطة طرح النيل وصارت جزيرة واحدة ، وأصبح اسم الجزيرة الوسطى علما عليها فى الوثائق والمصادر التاريخية ، ومنذ أيام محمد على « ١٢٢٠ ـ ١٢٦٥هـ/ ١٨٠٥ ـ ١٨٤٨م » صار الجزء الجنوبى منها يعرف باسم الجزيرة ، والجزء الشمالى يعرف باسم « الزمالك » ، انظر : المقريزى « الخطط » ح٣ ص ٥٩٤، عز الدين المقدسى « المفاخرات الباهرة » ص ٥٣، ٥٤.

(٢) مجهول « حوادث الزمان » ص ١٤١.

(٣) زكريا الأنصارى : زكريا بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، درس ، وتولى قضاء الشافعية بمصر ، توفى ٩٢٦هـ ، انظر : الغزى « الكواكب السائرة » ص ١٩٦.

(٤) عبد الوهاب حمودة « صفحات من تاريخ مصر عصر السيوطى » ص ١٠٦، د. محمود رزق « النثر الفنى عصر المماليك » ص ٤١٥، ماجستير ، دار العلوم ، القاهرة ، ١٩٥٥م .

(٥) نجم الدين الحسبانى : عمر بن حجى ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء الشافعية بدمشق ، توفى ٨٣٠هـ ، انظر : ابن طولون « قضاة دمشق » ص ١٤١.

(٦) ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٨ ص ١٢.

وفى عام ٨٥٩هـ/١٤٥٤م أعاد نائب دمشق قانباى الحمزاوى[١] مكس المغانى[٢] ، فلما سمع علماء دمشق بذلك ، توجهوا إلى شمس الدين البلاطنسى[٣] ، الذى كتب إلى النائب « إن إعادة المكس مصادمة للشريعة ومخالفة لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وإجماع العلماء ، وإن الناس ما حكموكم فيهم إلا بالإسلام فإذا تُرِك الإسلام زال الحكم » ، فارتاع النائب لذلك وأبطل المكس[٤] .

كما قام تقى الدين ابن قاضى[٥] عجلون عام ٨٨٥هـ/١٤٨٠م ، وعام ٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م ، وعام ٨٩٩هـ/١٤٩٣م بتطهير المجتمع الدمشقى من البغاء وتعاطى الخمور ، حيث كان يتوجه هذا العالم على رأس علماء دمشق ـ يساندهم الأهالى ـ إلى تلك الأماكن التى يُمارس فيها الرذائل فيقوم بإزالتها[٦] .

ومن علماء دمشق ـ أيضًا ـ التى ذكرت المصادر التاريخية فى ثنايا تراجمهم ـ فى عبارات مقتضبة موجزة ـ أنهم طهروا المجتمع الدمشقى من تلك المنكرات قوام الدين الرومى[٧] « ت ٨٥٨هـ » ، وزين الدين[٨] خطاب « ت ٨٧٨هـ »[٩] .

---

(١) قانباى الحمزاوى : تولى نيابة دمشق عام ٨٥٩هـ ، ونيابة حلب ، وحماة ، وطرابلس ، وكان ظالمًا ، توفى ٨٦٣هـ ، انظر : ابن طولون « إعلام الورى » ص ٧٤، ابن تغرى « المنهل الصافى » ح ٩ ص ١٨، ابن العجمى « كنوز الذهب » ح ٢ ص ١٤٢.

(٢) **مكس المغانى** : انظر : ص ٢١٧.

(٣) شمس الدين البلاطنسى : محمد بن عبد الله ، تفقه بشيوخ عصره ، درس ، أفتى ، توفى عام ٨٦٣هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٨ ص ٨٦.

(٤) البقاعى « إظهار العصر » .

(٥) تقى الدين بن قاضى عجلون : أبو بكر بن عبد الله ، تفقه بشيوخ عصره ، انتهت إليه مشيخة الإسلام ورئاسة الشافعية بدمشق ، توفى ٩٢٨هـ ، انظر : الغزى « الكواكب السائرة » ص ١١٥.

(٦) ابن طولون « مفاكهة الخلان » ص ٣٠، ٣٢، ابن الحمصى « حوادث الزمان » ح ١ ص ٢٨٧، ٣٥٧.

(٧) قوام الدين الرومى : قوام الدين محمد الرومى ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء دمشق ، توفى ٨٥٨هـ ، انظر : ابن الحمصى « حوادث الزمان » ح ١ ص ١٢٩.

(٨) زين الدين خطاب : خطاب بن عمر ، تفقه على شيوخ عصره ، حتى صار فقيه الشام ومفتيها ، كان كثير الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، انظر : البصروى « تاريخ البصروى » ص ٦٠.

(٩) البقاعى « إظهار العصر » ، ابن الحمصى « حوادث الزمان » ح ١ ص ١٢٩.

وفى حلب ، تذكر المصادر التاريخية عام ٨٤٥هـ/١٤٤١م أن جمال الدين الباعونى ـ قاضى الشافعية بحلب ـ عندما سمع بخمر فى بيت عند خان الدهانين[١] ، أرسل نقيبه لإراقته ، فلما علم بذلك الأمير طوغان ـ أحد أمراء حلب ـ أرسل خلف نقيب القاضى وضربه ضربًا شديدًا ، فلما علم بذلك القاضى قام بتأليب الأهالى على طوغان ، ثم توجه ـ ومعه العلماء والأهالى ـ إلى نائب حلب قانباى[٢] الحمزاوى ، وطالبوه بإحضار طوغان ليقوم القاضى بتأديبه ، فاضطر النائب إلى إحضار طوغان للقاضى ، فقام بتأديبه[٣] .

كما تذكر المصادر التاريخية أن شهاب الدين السويينى[٤] لما تولى قضاء الشافعية بحلب عام ٨٥٠هـ/١٤٤٦م توجه بنفسه إلى الأماكن التى كان يمارس فيها المنكرات فأزالها[٥] .

كما قام علماء مصر والشام ـ من خلال ولايتهم للحسبة[٦] ـ بمحاربة الأمراض

(١) جمال الدين الباعونى : يوسف بن أحمد ، تفقه على شيوخ عصره ، ولى قضاء الشافعية بحلب ، باشر بعفة ونزاهة ، توفى ٨٨٠هـ ، انظر : ابن المبرد « متعة الأذهان » ح ٢ ص ٨٣٢.

(٢) خان الدهانين : يوجد بدرب الدهانين أحد دروب حلب ، انظر : ابن العجمى « كنوز الذهب » ح ١ ص ٤٥٤.

(٣) قانباى الحمزاوى : انظر : ص ٢٢٠.

(٤) ابن العجمى « كنوز الذهب » ح ٢ ص ١٦٦.

(٥) شهاب الدين السويينى : إبراهيم بن عمر ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء الشافعية بحلب ، انظر : ابن العجمى « كنوز الذهب » ح ٢ ص ١٩٦.

(٦) ابن العجمى « كنوز الذهب » ح ٢ ص ١٩٦.

(٧) **الحسبة** : هى ولاية دينية فى الدولة الإسلامية ذات الصفة الرقابية ، ومنوط بها مراقبة السلوك البشرى فى المجتمع الإسلامى ، وتلى ولاية القضاء فى المرتبة ، إذ أن ولايات رفع المظالم على العموم ، أو النظر فى القضاء بين الناس موزعة على ثلاث جهات ، أقواها ولاية المظالم ـ التى تقوم بها السلطة العليا « السلطان » ـ ، ويليها ولاية القضاء ، ثم ولاية الحسبة ، فالحسبة واسطة بين أحكام القضاء وأحكام ولاية المظالم ، انظر : طوعان شيخ المحمدى « المقدمة السلطانية فى السياسة الشرعية » ص ١٠٥ ، مخطوطة بدار الكتب المصرية ، برقم (١٧٢٦ فقه حنفى) ، ومكروفيلم (١٧١٧٦) ، د. على عبد القادر « الفقه الإسلامى : القضاء والحسبة » ص ٨٤، مقال بموسوعة الحضارة الإسلامية ، إصدار المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، رقم (٣) لعام ١٩٩٥م ، د. عدنان أحمد « منهج الإسلام فى الحفاظ على البيئة من التلوث » ص ٣٣٣، مقال بمجلة الشريعة والدراسات الإسلامية ، جامعة الكويت ، العدد الحادى والخمسون ، شوال ١٤٢٣هـ/ ديسمبر ٢٠٠٢م .

الاجتماعية والرذائل الأخلاقية التى عانى منها المجتمع المصرى والشامى ، والتى منها تعاطى الخمر والحشيش ، وانتشار أماكن البغاء ، ودور القِمار[(١)] ، وتبرج النساء فى الطرقات[(٢)] .

ومن ذلك ما تذكره المصادر التاريخية عام ٨٢٢هـ/١٤١٩م أن صدر الدين العجمى[(٣)] ـ محتسب القاهرة ـ أزال أماكن المنكرات ، وأراق الخمور[(٤)] ، ولقد تكرر منه ذلك العمل عندما تولى الحسبة عام ٨٤١هـ/١٤٣٧م[(٥)] .

ومن ذلك ـ أيضًا ـ ما تذكره المصادر التاريخية ، أنه لما تولى بدر الدين[(٦)] العينى الحسبة عام ٨٤٤هـ/١٤٤٠م ، أمر بمنع خروج النساء متبرجات[(٧)] ، ولقد كانت ملابس النساء فى العصر المملوكى ـ بشكل عام ـ يغلب عليها طابع عدم التبرج ، فلقد كانت أكثر الملابس النسائية انتشارًا فى ذلك العصر القباء ، وهو نوع من الرداء المحكم المشابه للقفطان ، يصل فى طوله إلى منتصف عضلة الساق ، مشقوق فى مقدمته ، ومغلق عند الصدر ، وكان ينسج من القطن أو الصوف أو الحرير ، وكذلك هناك القناع ، وهو غطاء اتخذته النساء لتغطية الرأس والوجه معًا[(٨)] ، وها هو السفير جان تينو الذى زار القاهرة أواخر العصر المملوكى يذكر أن النساء لم يكن يرتدين الملابس المطرزة والمذهبة ، ولا يخرجون حاسرات الوجوه[(٩)] .

ولكن بعض النساء كانوا يبتدعن بعض الأمور المنكرة فى ملابسهم ، كا اتدرائهم ثياب

---

(١) **القِمار :** كل لعب فيه مراهنة ، وهو محرم شرعًا ، انظر : ابن سيدة « ابن الحسن على « ت ٤٥٨هـ » « المخصص » ح ٤ ص ٢٠، الجوهرى « إسماعيل بن حماد » « تاج اللغة وصحاح العربية » ح ٢ ص ٧٩٩، « المعجم الوجيز » ص ٥١٤، إصدار مجمع اللغة العربية ، المطابع الأميرية ، القاهرة ، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م .

(٢) ابن شاهين « الروض الباسم » ص ٩، ١٠، ابن الأخوة « معالم القربة » ص ٣٢، ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٧ ص ٣٤٨، ح ٩ ص ١٠، السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ١٨١.

(٣) صدر الدين العجمى : أحمد بن محمد ، من أبرز فقهاء الحنفية بمصر ، درس وأفتى ، توفى ٨٣٣هـ ، انظر : ابن طولون « الغرف العلية » ص ١٥٨.

(٤) ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٧ ص ٣٤٨.

(٥) ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٩ ص ١٠.

(٦) بدر الدين العينى : محمود بن أحمد ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء الحنفية بمصر ، درس وأفتى ، توفى ٨٥٥هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ١٠ ص ١٣١.

(٧) ابن شاهين « الروض الباسم » ص ٩، ١٠.

(٨) د. محمد عيسى « من وثائق الحرم القدس الشريف المملوكية » ص ٢١، ٢٤، حولية الآداب والعلوم والاجتماعية ، جامعة الكويت ، الرسالة (٢٦) ، الحولية (٦) لعام ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

(٩) آدم صبرة « الفقر والإحسان فى مصر » ص ١٨٢.

ذات أكمام واسعة بلغت ٧٢ ذراعًا ، أو يعتصبن بعصائب كبيرة على رؤوسهن كأمثلة الأسنمة ، وهى ملابس شهرة(*) نهى الإسلام عنها ، كما أنها تجذب الأعين إليها(١) .

وفى دمشق ، تذكر المصادر التاريخية عام ٨٣٠هـ/١٤٢٦م ، أنه لما تولى ناصر الدين بن الشبل(٢) حسبة دمشق عام ٨٣٠هـ/١٤٢٦م أخذ فى إنكار المنكرات من تبرج النساء وإغلاق دور القِمار ونحو ذلك(٣) .

وهكذا فقد كافح العلماء لتنقية المجتمع المصرى والشامى من تلك الأمراض والرذائل بكل حزم وقوة ، حيث أبطلوا ضمان المغانى الذى كان بمثابة اعتراف رسمى من السلطة المملوكية بالبغاء مقابل ضريبة مقررة ، كما توجهوا إلى المصريين والشاميين بالنصح والتوجيه ـ باللسان ـ ليكفوا عن تلك الرذائل والمنكرات . كذلك تحالفوا مع المصريين والشاميين لإزالة أوكار الفساد بالقوة كالخمارات وأماكن البغاء .

كما قام العلماء من خلال ولايتهم للحسبة بمحاربة تلك الأمراض الاجتماعية والرذائل الأخلاقية ، حيث أزالوا أماكن البغاء وتعاطى الخمر والحشيش ودور القِمار ، وحاربوا ظاهرة تبرج النساء فى الطرقات .

*** الجهاد بالقلم :**

كذلك كافح علماء مصر والشام تلك الأمراض الاجتماعية والرذائل الأخلاقية التى عانى منها المجتمع المصرى والشامى من خلال « الجهاد بالقلم » ، فلقد صنف الشهاب الأقفهسى(٤) « ت ٨٠٨هـ » العالم المصرى كتاب « إكرام من يعيش بمعرفة أحكام الخمر والحشيش » ، ذكر فيه أحكام الخمر والحشيش فى الشريعة الإسلامية ، حيث تحدث عن

(*) نهى الإسلام عن لبس ثوب الشهرة ، فلقد روى أبو داود ، وابن ماجة ـ وحسنه الألبانى ـ من حديث ابن عمر ـ رضى الله عنه ـ ، أن الرسول ﷺ ، قال : « من لبس ثوب شهرة ألبسه الله يوم القيامة ثوبا مثله » ، انظر : السيوطى « الأمر بالاتباع والنهى عن الابتداع » ص ٩٩، دار الاستقامة ، القاهرة ، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م ، أبو داود « سنن أبو داود » ح ٤ ص ١٧٣، ابن ماجه «سنن ابن ماجه» ح٢ ص ١١٩٢، الألبانى «صحيح الجامع» ص ١١١٣.

(١) كوركيس عواد « الذخائر الشرقية » ح ٥ ص ٦٠، ٦١، د. سعدون الساموك « الأزياء العربية عبر التاريخ » ص ١٤٨، مجلة المؤرخ العربى ، بغداد ، العدد (٢٥) عام ١٩٨٤م .

(٢) لم تقدم المصادر التاريخية التى اطلع عليها الباحث تعريفًا لهذا المحتسب .

(٣) ابن طولون « اللمعات البرقية » ص ٦٣ .

(٤) الشهاب الأقفهسى : أحمد بن عماد ، تفقه على شيوخ عصره ، برع فى الفقه الشافعى ، له مؤلفات عديدة ، توفى ٨٠٨هـ ، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٢ ص ٤٧.

الخمر وأنواعها ، وما ورد فى تحريمها ، وعقاب شاربها فى الدنيا والآخرة[1] ، كما تحدث عن الحشيش ، وإثبات أنه محرم شرعًا لأنه مُسكر[2] ، ثم ذكر الحالات التى يُباح فيها تناول الحشيش ، والتى منها التداوى باستشارة الأطباء فقط ، وكمخدر فى العمليات الجراحية[3] ، ثم أورد آراء الأطباء فى آثاره السلبية على صحة الإنسان[3] . وكذلك صنف العالم المصرى أبو عبد الله الواسطى[4] «ت٨٤٩هـ» كتابه «الحكم المضبوط فى تحريم عمل قوم لوط» ، أبان فيه حكم الشرع فى ذلك الفعل القبيح[5] . كما صنف العالم المصرى جلال الدين السيوطى[6] «ت٩١١هـ» كتابه «رفع منار الدين وهدم بناء المفسدين» ، وهى رسالة ألفها أبان فيها رأى الشرع فى هدم الأماكن التى يمارس فيها الرذائل الأخلاقية ويتعاطى فيها الخمور[7] ، وذلك أنه رفعت للسيوطى مسألة من أحد المصريين أن أحد الأشخاص أخذ أحد الأماكن وبنى بها بناءًا ، جعله وكرًا لفعل المحرمات والرذائل بشتى أنواعها ، فقال السيوطى للسائل اذهب لصاحب البناء ، وأخبره بأنه إن لم يطهر هذا البناء من تلك المنكرات أفتيت بهدمه ، ولقد أراد السيوطى تدعيم هذه الفتوى بأسانيدها الشرعية فى الكتاب والسنة النبوية ، فألف هذه الرسالة[8] . وكذلك صنف العالم ابن المبرد الدمشقى[9] «ت٩٠٩هـ» كتابه «ذم اللواط وصاحبه» ، أبان فيه رأى الشرع فى ذلك الفعل[10] .

---

(١) شهاب الدين الأقفهسى « إكرام من يعيش بمعرفة أحكام الخمر والحشيش » ص ١٠٠ ـ ١٠٢، مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (٢/١١٤ مجاميع) .

(٢) شهاب الدين الأقفهسى « إكرام من يعيش » ص ٧٣ .

(٣) شهاب الدين الأقفهسى « إكرام من يعيش » ص ٧٥ .

(٤) أبو عبد الله الواسطى : محمد بن عمر ، تفقه على شيوخ عصره ، كان زاهدًا متقشفًا ، توفى عام ٨٤٩هـ ، انظر : الشوكانى «البدر الطالع» ح ٢ ص ١١٨، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٨ ص ٢٣٨ .

(٥) الشوكانى « البدر الطالع بمحاسن ما بعد القرن السابع » ح ٢ ص ١١٨.

(٦) جلال الدين السيوطى : جلال الدين عبد الرحمن ، تفقه على شيوخ عصره ، درس وأفتى ، وصنف مصنفات عديدة ، توفى ٩١١هـ ، انظر : الغزى « الكواكب السائرة » ص ٣١٥.

(٧) السيوطى « التحدث بنعمة الله » ص ١٧٩.

(٨) السيوطى « الحاوى للفتاوى » ص ١٤٤، إدارة الطباعة المنيرية ، القاهرة ، ١٣٥٢هـ .

(٩) ابن المبرد : يوسف بن الحسن ، تفقه على شيوخ عصره ، كان إمامًا بارزًا فى الحديث والتفسير ، ورأس علماء الحنابلة بدمشق فى عصره ، درس وأفتى ، وصنف تصانيف عديدة ، توفى ٩٠٩هـ ، انظر السخاوى « الضوء اللامع » ح ١٠ ص ٣٠٨.

(١٠) ابن المبرد « الجوهر المنضد فى طبقات متأخرى أصحاب أحمد » ص ٢٩.

٣ ـ العلماء والفقراء

لقد عاش غالب المصريين والشاميين فى ظل الدولة المملوكية ـ فى أغلب الأحيان ـ حياة اقتصادية بائسة عانوا فيها الفقر والحرمان[(١)] ، بينما المماليك يحيون حياة الترف والنعيم[(٢)] .

وفى ظل ذلك الواقع الاقتصادى الكئيب ظهرت الأوقاف[(٣)] وازدهرت ازدهارًا كبيرًا ، وأصبحت تلك الأوقاف هى الملجأ الذى أوى إليه الفقراء بمصر والشام ، حيث خصص ريع تلك الأوقاف لإطعام الفقراء والمساكين والأرامل ، وكسوة العرايا صيفًا وشتاءًا ، وتجهيز البنات الفقراء إلى أزواجهن ، وتغسيل فقراء المسلمين وتكفينهم ، وتوفير الدواء والعلاج للفقراء[(٤)] .

---

(١) آدم صبرة « الفقر والإحسان فى مصر عصر سلاطين المماليك » ص ٦٥، د. البيومى إسماعيل « مصادرة الأملاك » ص ٩٧، د. محاسن محمد « الطبقات الشعبية فى العصر المملوكى » ص ١٢٥، عثمان على « الأزمات الاقتصادية فى مصر فى العصر المملوكى » ص ٢٣٧، ماجستير ، دار العلوم ، جامعة القاهرة ، ١٩٩٩م .

(٢) د. أحمد عبد الرازق « البذل والبرطلة » ص ١٣٥.

(٣) **الوقف** : هو حبس العين والتصدق بمنفعتها على جهة من جهات البرّ ابتداءًا وانتهاءًا ، ولقد اتفق الفقهاء على أن الوقف مستحب شرعًا ومندوب إليه ، وأنه من سبيل الله كما ثُبت فى السنة النبوية ، وأن ثمرة المال الموقوف وغلته تصبح صدقة على الموقوف عليهم بالقبض إذا كانوا أشخاصًا ويستحقونها إذا كانوا غير ذلك كجهات البرّ ، انظر : د. محمد محمد أمين « الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر » ص ٢٢، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ط ١ (١٩٨٠م) ، د. نصر محمد « نظريات التنمية السياسية المعاصرة » ص ٢٢٥، ماجستير ، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٨م ، د. أيمن محمد « الوقف ودوره فى التنمية الاقتصادية » ص ١٣، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية ، جامعة الكويت ، العدد (٦٠) ، محرم ١٤٢٦هـ/ مارس ٢٠٠٥م .

(٤) البصروى « تاريخ البصروى » ص ٤١، د. آدم صبرة « الفقر والإحسان فى مصر » ص ١٢٣، د. محمد محمد أمين « الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر » ص ١٥٦، ١٥٨، ١٦٦، ١٧٠، ١٧٢، ١٧٤، ١٨٨، ٢١٠، د. عبد اللطيف إبراهيم « وثيقة الأمير آخور كبير قراقجا الحسنى » ص ١٣٨، مقال بمجلة كلية آداب القاهرة ، ديسمبر ، ١٩٥٦م ، د. خلف عبد العليم « الحياة الاقتصادية ببلاد الشام » ص ١٤٣.

ولقد كانت الأوقاف فى العصر المملوكى لها ديوان خاص ـ هو أحد دواوين الدولة المالية ـ ، وكان رئاسة هذا الديوان لقاضى الشافعية ، وذلك لانتشار المذهب الشافعى فى مصر منذ قدوم الإمام الشافعى إلى مصر ، ولقد ظل ذلك المذهب قويًا عهد الفاطميين ، ثم ازدهر بعد ذلك فى عهد الأيوبيين ، ومن بعدهم المماليك ، فلقد كان المذهب الرسمى للدولة[١] ، وكان قاضى الشافعية يتولى حفظ أصول الأوقاف ، واستثمارها وقبض ريعها وصرفه فى أوجه صرفه[٢] ، ولقد ذكر المؤرخون فى ثنايا تراجم علماء مصر والشام ـ من خلال ولايتهم للقضاء ـ أنهم قاموا بحفظ أصول الأوقاف ومنعوا استبدالها وعمّروها وثمّروا أموالها ، وذلك عاد بالطبع بعظيم النفع على الفقراء والمساكين المستفيد الكبير من ريع تلك الأوقاف .

ومن تولى ديوان الأوقاف بمصر ، العالم بدر الدين[٣] البغدادى « ت ٨٠١هـ »[٤] ، والعالم ولى الدين السفطى[٥] « ت ٨٥٤هـ »[٦] ، والعالم سعد الدين[٧] الديرى

---

(١) د. محمد كامل حسين « الحياة الفكرية والأدبية بمصر من الفتح العربة ، حتى آخر الدولة الفاطمية » ص ٤٢، مكتبة النهضة المصرية ، سلسلة الألف كتاب رقم (٢٤٤) ، د. سعود محمد « الحياة الثقافية بدمشق » ص ٣١١.

(٢) القلقشندى « صبح الأعشى » ح ٤ ص ٣٦، ابن كنان « حدائق الياسمين » ص ٤٣، ابن قيم الجوزية « الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية » ص ٢٠٢، د. آدم صبرة « الفقر والإحسان » ص ١٢٦، د. فوزى حامد « القضاء فى صعيد مصر » ص ٣١٥.

(٣) بدر الدين البغدادى : محمد بن عبد المنعم ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء الحنابلة بمصر ، توفى ٨٠١هـ ، انظر : السخاوى « الذيل على رفع الأصر » ص ٣٤٩، تحقيق د. جودة هلال ، الدار المصرية للتأليف ، ١٩٦٦م .

(٤) السخاوى « الذيل على رفع الأصر » ص ٣٥١.

(٥) ولى الدين السفطى : محمد بن أحمد ، تفقه على شيوخ عصره ، ولى قضاء الشافعية بمصر ، توفى ٨٥٤هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٧ ص ١١٩.

(٦) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٧ ص ١١٩.

(٧) سعد الدين الديرى : سعد بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء الحنفية بمصر ، توفى ٨٦٧هـ ، انظر : ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٦ ص ٢٨٥.

« ت ٨٦٧هـ »[(١)] ، والعالم شهاب الدين[(٢)] الأمشاطى « ت ٨٨٥هـ »[(٣)] ، والعالم بدر الدين[(٤)] السِّدرش « ت ٩٠٠هـ »[(٥)] ، والعالم زكريا[(٦)] الأنصارى « ت ٩٢٦هـ »[(٧)] .

ومن تولى ديوان الأوقاف بدمشق ، العالم شهاب الدين الحسينى « ت ٨٠٣هـ »[(٨)] ، والعالم شهاب الدين الباعونى[(٩)] « ت ٨١٦هـ »[(١٠)] ، والعام أبو نعيم العامرى[(١١)] « ت ٨٢٢هـ »[(١٢)] ، والعالم شهاب الدين الأموى[(١٣)] « ت ٨٤٠هـ »[(١٤)] ، والعالم شمس

---

(١) الغزى « الطبقات السنية فى تراجم الحنفية » ح ٤ ص ٢٢، ابن حجر العسقلانى « رفع الأصر عن قضاة مصر » ح ٢ ص ٢٤٥، تحقيق د. حامد عبد المجيد ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٩٦١هـ ، السخاوى « الذيل على رفع الأصر » ص ١٣٠.

(٢) شهاب الدين الأمشاطى : محمد بن أحمد ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء الحنفية بمصر ، توفى عام ٨٨٥هـ ، انظر : السخاوى « الذيل على رفع الأصر » ص ٢٠٥.

(٣) ابن إياس « بدائع الزهور » ص ١٧٠، السخاو ى « وجيز الكلام » ح ٣ ص ٩١٣، السخاوى « الذيل على رفع الأصر » ص ٢١٢.

(٤) بدر الدين السِّدرشى : محمد بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء الحنابلة بمصر ، توفى عام ٩٠٠هـ ، انظر : السخاوى « الذيل على رفع الأصر » ص ٣٠٩.

(٥) السخاوى « الذيل على رفع الأصر » ص ٣١٨.

(٦) زكريا الأنصارى : زكريا بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء الشافعية بمصر ، توفى عام ٩٢٦هـ ، انظر : الغزى « الكواكب السائرة » ح ١ ص ١٩٦.

(٧) السخاوى « الذيل على رفع الأصر » ص ١٤٩.

(٨) ابن شهبة « الإعلام بتاريخ أهل الإسلام » ص ٢٤٤.

(٩) شهاب الدين الباعونى : أحمد بن ناصر ، تفقه على شيوخ عصره ، ولى قضاء دمشق ، توفى عام ٨١٦هـ ، انظر : ابن شهبة « طبقات الشافعية » ح ٢ ص ٢٦٣.

(١٠) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٢ ص ٢٣١.

(١١) أبو نعيم العامرى : أحمد بن عبد الله ، تفقه على شيوخ عصره ، درس وأفتى بدمشق ، توفى ٨٢٢هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ٣٥٦.

(١٢) البصروى « تاريخ البصروى » ص ٤١، السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ٣٥٦.

(١٣) شهاب الدين الأموى : تفقه على شيوخ عصره ، ولى قضاء الشافعية بدمشق ، توفى ٨٤٠هـ ، انظر : ابن طولون « قضاة دمشق » ص ١٥٧.

(١٤) ابن طولون « قضاة دمشق » ص ١٥٧.

الدين العدوى[(١)] « ت ٨٧٤هـ »[(٢)] ، والعالم أبو المحاسن الصالحى[(٣)] « ت ٨٨٠هـ »[(٤)] .

وممن تولى ديوان الأوقاف بالقدس ، العالم غرس الدين السخاوى[(٥)] « ت ٨٤٧هـ »[(٦)] ، والعالم شمس الدين الحموى[(٧)] « ت ٨٥٣هـ »[(٨)] ، والعالم زين الدين عبد القادر[(٩)] « ت ٨٩٧هـ »[(١٠)] .

وممن تولى ديوان الأوقاف بحلب ، العالم ابن العجمى[(١١)] « ت ٨٥٧هـ »[(١٢)] ، والعالم تاج الدين الحسينى[(١٣)] « ت ٨٧٥هـ »[(١٤)] .

---

(١) شمس الدين العدوى : محمد بن عبد الرازق ، تفقه على شيوخ عصره ، عمّر أوقاف البيمارستان النورى ، توفى عام ٨٧٤هـ ، انظر : البصروى « تاريخ البصروى » ص ٤١.

(٢) البصروى « تاريخ البصروى » ص ٤١.

(٣) أبو المحاسن الصالحى : يوسف بن أحمد ، تفقه على شيوخ عصره ، ولى قضاء الشافعية بدمشق ، توفى ٨٨٠هـ ، انظر ط السخاوى « الضوء اللامع » ح ١٠ ص ٢٩٨.

(٤) السخاوى « الضوء اللامع » ح ١٠ ص ٢٩٩.

(٥) غرس الدين السخاوى : خليل بن أحمد ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى نظر الحرمين بالقدس ، توفى ٨٤٧هـ ، انظر : مجير الدين الحنبلى « الأنس الجليل » ح ٢ ص ٩٧، ٢٧٦.

(٦) مجير الحنبلى « الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل » ح ٢ ص ٩٧، ٢٧٦.

(٧) شمس الدين الحموى : محمد بن الصلاح ، برع فى علم النحو والأدب ، وولى نظر القدس والخليل ، توفى ٨٥٣هـ ، انظر : مجير الحنبلى « الأنس الجليل » ح ٢ ص ٢٧٧.

(٨) مجير الحنبلى « الأنس الجليل » ح ٢ ص ٢٧٧.

(٩) زين الدين عبد القادر : عبد القادر بن عمر ، تفقه على شيوخ عصره ، ولى نيابة النظر على وقف الحرم الخليلى ، توفى ٨٩٧هـ ، انظر : مجير الدين الحنبلى « الأنس الجليل » ح ٢ ص ٢١٢.

(١٠) مجير الدين الحنبلى « الأنس الجليل » ح ٢ ص ٢١٢.

(١١) شهاب الدين ابن العجمى : محمد بن أحمد ، تفقه على شيوخ عصره ، ولى قضاء الشافعية بحلب ، توفى عام ٨٥٧هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٧ ص ٣٠.

(١٢) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٧ ص ٣٠.

(١٣) تاج الدين الحسينى : عبد الوهاب بن عمر ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء الشافعية بحلب عام ٨٥٧هـ ، ودرس بحلب ، توفى ٨٧٥هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٥ ص ١٠٦، ابن العجمى « كنوز الذهب » ح ٢ ص ٢٥٨.

(١٤) ابن العجمى « كنوز الذهب » ح ٢ ص ٢٥٨.

كذلك أشارت المصادر التاريخية إلى ثلاثة أمور ، ساهم خلالها علماء مصر والشام فى تخفيف المعاناة التى عانى منها الفقراء بمصر والشام فى العصر المملوكى ـ القرن التاسع ـ ، وتلك الأمور هى :

أ ـ إطعام العلماء الفقراء .

ب ـ توزيع العلماء أموال الأغنياء ـ نيابة عنهم ـ على الفقراء .

جـ ـ حث العلماء للأغنياء للإنفاق على الفقراء .

أ ـ إطعام العلماء الفقراء :

إن الإسلام يُعلى من الإنفاق فى سبيل الله ، ويجعل المسلم مُستخلف فى ماله ، ويحذر من يكتنز المال ويمنعه عن مستحقيه من الفقراء ، ويعتبره إذا فعل ذلك متعديًا لحدود الله[(١)] ، ولمّا كان العلماء هم مفسروا الشريعة الإسلامية السامية ، فلقد شهدت المصادر التاريخية لعلماء مصر والشام فى القرن التاسع برعايتهم للفقراء وسد حوائجهم من طعام وكساء وغير ذلك ، ولكن للأسف فقد كانت هذه الشهادات التاريخية موجزة مقتضبة ، اكتفت بذكر قيام العالم بتعهد الفقراء والمساكين بالصدقات وسد حوائجهم من طعام وكساء وغير ذلك ، وذلك دون توضيح كيفية توزيع الصدقات ، وعملية الإطعام ، وفى أى الأوقات التى كان يكثر فيها توزيع العلماء للصدقات والطعام على الفقراء؟ ، غير أن الصدقات والأعمال الخيرية بشكل عام كانت تكثر فى المناسبات الدينية كالمولد النبوى ، وشهر رمضان ، وعيد الأضحى ، ويوم عاشوراء[(٢)] .

ومن أشهر علماء مصر فى ذلك المجال ـ على سبيل المثال ـ سراج الدين البلقينى[(٣)]

---

(١) د. إبراهيم الدسوقى « الثورة الإيرانية : الجذور الإيدلوجية » ص ٢٠٠، دار الوطن العربى ، بيروت ، ١٩٧٩م .

(٢) ابن الحاج « المدخل » ح ١ ص ٢٨٩، د. آدم صبرة « الفقر والإحسان فى مصر » ص ٨٩، ٩٠، ٩١.

(٣) سراج الدين البلقينى : انظر : ص ٢١٧.

« ت ٨٠٥هـ »[١] ، وسراج الدين القرمى[٢] « ت ٨٠٩هـ »[٣] ، ومحمد الزبيرى[٤] « ت ٨٤١هـ »[٥] ، وشمس الدين الطندتائى[٦] « ت ٨٥٢هـ »[٧] ، وابن حجر العسقلانى[٨] « ت ٨٥٢هـ »[٩] ، وعز الدين أبو البركات[١٠] « ت ٨٧٦هـ »[١١] ، وأحمد الأبشيطى[١٢] « ت ٨٨٣هـ »[١٣] ، وأبو الطيب الأسيوطى[١٤] « ت ٨٩٣هـ »[١٥] ،

---

(١) ابن شهبة « الإعلام بتاريخ أهل الإسلام » ص ٣٢٢، ابن شهبة « طبقات الشافعية » ص ٢٧٨.

(٢) سراج الدين القرمى : عمر بن منصور ، تفقه على شيوخ عصره ، درس بجامع ابن طولون ، توفى عام ٨٠٩هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٦ ص ١٣٨.

(٣) ابن تغرى « المنهل الصافى » ح ٨ ص ٣٢٩.

(٤) محمد الزبيرى : محمد بن حسن ، تفقه على شيوخ عصره بمصر ، توفى ٨٤١هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٧ ص ٢٢١.

(٥) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٧ ص ٢٢٣.

(٦) شمس الدين الطندتائى : محمد بن عبد الرحمن ، تفقه على شيوخ عصره ، وبرع فى علم القراءات ، توفى عام ٨٥٢هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٧ ص ٢٩٧.

(٧) البقاعى « عنوان الزمان » ح ٢ ص ٥٦٤، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٧ ص ٢٩٧.

(٨) ابن حجر العسقلانى : أحمد بن على ، تفقه على شيوخ عصره ، برع فى علم الحديث ، تولى قضاء الشافعية بمصر ، توفى ٨٥٢هـ ، ابن تغرى « المنهل » ح ٢ ص ١٧.

(٩) البقاعى « عنوان الزمان » ح ١ ص ١٣٨، ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٥ ص ٢٥٩.

(١٠) عز الدين أبو البركات : أحمد بن إبراهيم ، تفقه على شيوخ عصره ، درس ، وولى قضاء الحنابلة بمصر ، توفى ٨٧٦هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ٢٠٥.

(١١) ابن شاهين « المعجم المفنن » ص ٦٣، ابن الصيرفى « إنباء الهصر » ص ٣٤٧، ابن مكى « السحب الوابلة » ح ١ ص ٩٠، السخاوى « الذيل على رفع الأصر » ص ٣٨، السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ٢٠٥.

(١٢) أحمد الأبشيطى : أحمد بن إسماعيل ، تفقه على شيوخ عصره ، وتوفى عام ٨٨٣هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ٢٣٥.

(١٣) البقاعى « عنوان الزمان « ح ١ ص ٥٩، السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ٢٣٥.

(١٤) أبو الطيب الأسيوطى : محمد بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، توفى عام ٨٩٣هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ١١ ص ١١٨.

(١٥) السخاوى « الضوء اللامع » ح ١١ ص ١١٨.

وابن مزهر[١] « ت ٨٩٣هـ »[٢] .

أمّا بلاد الشام ، فمن أشهر علماء دمشق فى هذا المجال ابن عبدان[٣] « ت ٨٠٢هـ »[٤] ، ونجم الدين الحسبانى[٥] « ت ٨٣٠هـ »[٦] ، وابن قاضى شهبة[٧] « ت ٨٥١هـ »[٨] ، وابن قندس[٩] « ت ٨٦١هـ »[١٠] ، وشمس الدين القرشى[١١] « ت ٨٧٣هـ »[١٢] ، وابن جساس[١٣] « ت ٨٧٤هـ »[١٤] .

---

(١) ابن مزهر : أبو بكر بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، ولى نظر الجوالى المصرية ، وكتابة سر مصر ، توفى عام ٨٩٣هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ١١ ص ٨٧.

(٢) ابن شاهين « المعجم المقنن » ص ٥٢، السخاوى « الذيل على رفع الأصر » ص ٤٧٩، السخاوى « الضوء اللامع » ح ١١ ص ٨٨.

(٣) ابن عبدان : بدر الدين محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى القضاء بحمص ، ودرس بدمشق ، توفى ٨٠٢هـ ، انظر : ابن قاضى شهبة « الإعلام » ص ١٩٦.

(٤) ابن قاضى شهبة « الإعلام » ص ١٩٦.

(٥) نجم الدين الحسبانى : عمر بن حجى ، تفقه بشيوخ عصره ، تولى قضاء دمشق إحدى عشر عامًا ـ على فترات متفاوتة ـ ، توفى ٨٣٠هـ ، انظر : ابن طولون « قضاة دمشق » ص ١٤٣.

(٦) ابن طولون « قضاة دمشق » ص ١٤٣.

(٧) ابن قاضى شهبة : أبو بكر بن أحمد ، تفقه على شيوخ عصره ، درس وأفتى ، وتولى قضاء دمشق ، توفى ٨٥١هـ ، انظر السخاوى « الضوء اللامع » ح ١١ ص ٢١.

(٨) ابن العجمى « كنوز الذهب » ح ٢ ص ٢٠٨.

(٩) ابن قندس : أبو بكر بن إبراهيم ، تفقه على شيوخ عصره ، توفى ٨٦١هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ١١ ص ١٤.

(١٠) السخاوى « الضوء اللامع » ح ١١ ص ١٤.

(١١) شمس الدين القرشى : محمد بن المعتمد ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى حسبة دمشق ، وكانت سيرته حسنة ، توفى ٨٧٣هـ ، انظر : البصروى « تاريخ البصروى » ص ٣٥.

(١٢) البصروى « تاريخ البصروى » ص ٣٥.

(١٣) ابن جساس : شمس الدين محمد بن عبد الرازق ، كان يحسن للفقراء ، توفى ٨٧٤هـ ، انظر : البصروى « تاريخ البصروى » ص ٤٠.

(١٤) البصروى « تاريخ البصروى » ص ٤٠.

ومن أشهر علماء حلب محمد الحلبى[1] « ت ٨٠٣هـ »[2] ، وجمال الدين الباعونى[3] « ت ٨٨٠هـ »[4] .

ومن أشهر علماء القدس ابن أرسلان[5] « ت ٨٤٤هـ »[6] ، وشمس الدين العليمى « ت ٨٧٣هـ »[7] .

ب ـ توزيع العلماء أموال الأغنياء على الفقراء :

لقد قام علماء مصر والشام بتوزيع[*] أموال الأغنياء ـ سواء كانت زكوات أو صدقات ـ على الفقراء ، وذلك لوثوق هؤلاء الأغنياء بعفة وأمانة العلماء ، ولقد أدى العلماء هذه المهمة بأمانة وعفة .

---

(١) محمد الحلبى : محمد بن أحمد ، تفقه على شيوخ عصره ، وخطب بحلب ، توفى ٨٠٣هـ ، انظر : ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٤ ص ٣١٩.

(٢) ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٤ ص ٣١٩.

(٣) جمال الدين الباعونى : يوسف بن أحمد ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى القضاء بدمشق ، وحلب ، وتوفى ٨٨٠هـ ، انظر : ابن العجمى « كنوز الذهب » ح ٢ ص ١٦٥.

(٤) ابن العجمى « كنوز الذهب » ح ٢ ص ١٦٥، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٨ ص ٨٦.

(٥) ابن أرسلان : أحمد بن حسين ، تفقه على شيوخ عصره ، درس وأفتى ، وله مصنفات عديدة ، توفى ٨٤٤هـ ، انظر : مجير الدين الحنبلى « الأنس الجليل » ح ٢ ص ١٧٤.

(٦) البقاعى « عنوان الزمان » ح ١ ص ٦٧، السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ٣٨٢.

(٧) شمس الدين العليمى : محمد بن أبى هريرة ، تفقه على شيوخ عصره ، ولى قضاء الرملة ، والقدس ، توفى ٨٧٣هـ ، انظر : مجير الدين الحنبلى « الأنس الجليل » ح ٢ ص ٢٦٢.

(٨) مجير الدين الحنبلى « الأنس الجليل » ح ٢ ص ٢٦٦.

(*) أشارت المصادر التاريخية لذلك الأمر بشكل موجز ومقتضب ، فلم توضح الطريقة التى كان يتم بها موجب التوزيع ، وأماكن التوزيع ، والأوقات التى كان يتم فيها التوزيع ؟ ، وإن كان هناك مناسبات معينة وأوقات مخصصة يوزع فيها الصدقات فى العصر المملوكى ، وهى المناسبات الدينية مثل المولد النبوى ، وشهر رمضان ، وعيد الأضحى ، ويوم عاشوراء ، كما سبق القول ، انظر : ص ٢٢٩.

ومن أمثال هؤلاء العلماء بمصر، العالم برهان الدين القصورى[(١)] «ت ٨٥٢هـ»[(٢)]، وابن إمام الكاملية[(٣)] «ت ٨٦٤هـ»[(٤)]، وولى الدين الأسيوطى[(٥)] «ت ٨٩١هـ»[(٦)]، وأمين الدين الدمياطى[(٧)] «ت ٩٢٩هـ»[(٨)].

ومن أمثال هؤلاء العلماء بدمشق شمس الدين البلاطنسى[(٩)] «ت ٨٦٣هـ»[(١٠)].

ومن علماء القدس ابن أرسلان[(١١)] «ت ٨٤٤هـ»[(١٢)].

جـ ـ حث العلماء للأغنياء للإنفاق على الفقراء:

لقد قام علماء مصر والشام بدعوة الأغنياء وحثهم[(*)] على مساعدة الفقراء وانقاذهم من براثن الجوع والحرمان، واستجاب هؤلاء الأغنياء لدعوة العلماء.

---

(١) برهان الدين القصورى: إبراهيم بن خضر، تفقه على شيوخ عصره، درس، وبرع فى علم الحديث، توفى عام ٨٥٢هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ١ ص ٤٣.

(٢) السخاوى «الضوء اللامع» ح ١ ص ٤٧.

(٣) ابن إمام الكاملية: محمد بن محمد، تفقه على شيوخ عصره، درس، وصنف مؤلفات عدة، توفى عام ٨٦٤هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ٩ ص ٩٣.

(٤) السخاوى «الضوء اللامع» ح ٩ ص ٩٥.

(٥) ولى الدين الأسيوطى: أحمد بن أحمد، تفقه على شيوخ عصره، ناب فى قضاء الشافعية بمصر، توفى ٨٩١هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ١ ص ٢١٠.

(٦) السخاوى «الضوء اللامع» ح ١ ص ٢١٢.

(٧) أمين الدين الدمياطى، محمد بن أحمد، تفقه على شيوخ عصره، كان إمامًا فى علوم الشرع، وخطيب جامع الغمرى، توفى ٩٢٩هـ، انظر: الغزى «الكواكب السائرة» ص ٣٣.

(٨) الغزى «الكواكب السائرة» ص ٣٢، الشعرانى «لواقح الأنوار» ص ٥٦.

(٩) شمس الدين البلاطنسى: محمد بن عبد الله، تفقه على شيوخ عصره، درس وأفتى، توفى ٨٦٣هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ٨ ص ٨٦.

(١٠) السخاوى «الضوء اللامع» ح ٨ ص ٨٧.

(١١) ابن أرسلان: انظر: ص ٢٣٢.

(١٢) السخاوى «الضوء اللامع» ح ١ ص ٢٨٥.

(*) أشارت المصادر التاريخية فى ثنايا تراجم العلماء بدعوة العلماء وحثهم للأغنياء لمساعدة الفقراء بأموالهم فى عبارات مقتضبة موجزة تؤكد قيام العلماء بهذا الأمر، ولكن دون توضيح كيفية دعوة العلماء للأغنياء لمساعدة الفقراء.

ومن أمثال هؤلاء العلماء بمصر، شمس الدين[(١)] البوصيرى «ت ٨٢٤هـ»[(٢)]، وأمين الآقصراى[(٣)] «ت ٨٨٠هـ»[(٤)].

ومن أمثال هؤلاء العلماء بدمشق الزين أبو الفرج[(٥)] «ت ٨٥٦هـ»[(٦)].

---

(١) شمس الدين البوصيرى : محمد بن إبراهيم ، تفقه على شيوخ عصره ، وكان إمام جامع البوصيرى ، توفى عام ٨٢٤هـ ، انظر : ابن حجر «إنباء الغمر» ح ٧ ص ٤٤٥.

(٢) ابن حجر «إنباء الغمر» صح ٧ ص ٤٤٥.

(٣) أمين الآقصراى : يحيى بن محمد ، كان من كبار علماء الحنفية بمصر ، درس وأفتى ، توفى عام ٨٨٠هـ ، انظر : ابن إياس «بدائع الزهور» ح ٣ ص ١٠٧.

(٤) السخاوى «الضوء اللامع» ح ١٠ ص ٢٤١.

(٥) الزين أبو الفرج : عبد الرحمن بن ابى بكر ، تفقه على شيوخ عصره ، توفى ٨٥٦هـ ، انظر : ابن مفلح «المقصد الأرشد» ح ٢ ص ٨٥.

(٦) ابن مفلح «المقصد الأرشد» ح ٢ ص ٨٥.

٤ ـ القضاء وتزويج الأيامى[١]

لقد كانت وظيفة القاضى فى صدر الإسلام وعهد الخلفاء الراشدين محصورة فى الفصل بين الناس فى الخصومات ، غير أنه فى العصور الإسلامية اللاحقة أضيف إلى اختصاص القاضى أمور أخرى غير قضائية بطبيعتها كتزويج الأيامى[٢] .

وعلة إسناد تزويج الأيامى إلى القاضى ؛ أن الأيم قد يعضلها وليّها ـ أى يمنعها ـ من تزويجها بمَنْ هو كفء لها راغب فى زواجها ، وفى هذه الحالة ذهب علماء الإسلام أن السلطان « الحاكم » أو من يفوضه السلطان يزوّج الأيم ، وذهب العلماء أن القاضى هو الذى ينوب عن السلطان فى ذلك الأمر ، كذلك قد يغيب ولى المرأة غيبة مُنقطعة ، وهى الغيبة التى لا يصل الكِتاب فيها إليه ، أو يصل فلا يجيب ، ويصعب الوصول إليه إلا بكُلْفَة ومشقة ، عندئذٍ يقوم السلطان أو من يفوضه بتزويج المرأة[٣] .

ولدينا عدة شواهد تاريخية بأن المؤسسة القضائية « القضاء » فى العصر المملوكى كانت تقوم بتزويج الأيم ـ نيابة عن السلطان ـ عند غياب ولىّ المرأة ، فلقد ذكر العمرى[٤] صاحب

---

(١) **الأيم** : من لا زوج له رجلًا كان أو امرأة ، وسواء تزوج من قبل أو لم يتزوج ، ويُقال رجل أيم وامرأة أيم ، انظر : المقرى الفيومى « المصباح المنير فى غريب الشرح الكبير » ص ٤٦ .

(٢) الماوردى « الأحكام السلطانية » ص ١١٩، أبو يعلى الفراء « الأحكام السلطانية » ص ٦٦، ابن قيم الجوزية « الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية » ص ٢٠٢ .

(٣) ابن قدامة « ت ٦٣٠هـ » « المُغنى » ح ٩ ص ١٦٠، ١٨٤، ١٨٧، تحقيق د. محمد شرف الدين خطاب ، د. السيد محمد السيد ، دار الحديث ، القاهرة ، ط ١ (١٤١٦هـ/١٩٩٦م) ، العز بن عبد السلام «فتاوى عز الدين بن عبد السلام» ص ٣٨٦، ابن قدامة المقدسى « ت ٦٣٠هـ » « الكافى » ح ٤ ص ٢٣١، ٢٣٢، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركى ، دار هجر للنشر ، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م ، د. عبد الودود السّربتى « أحكام الزواج والطلاق فى الشريعة الإسلامية » ص ١١٠، الدار الجامعية ، بيروت ، أحمد الحصرى « النكاح والقضايا المتعلقة به » ص ٥١٦، مكتبة الكليات الأزهرية ، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م .

(٤) شهاب العمرى : أحمد بن يحيى ، تفقه على شيوخ عصره ، أديب ، ومؤرخ ، تولى كتابة السر بدمشق ، وباشر كتابة السر بمصر نيابة عن والده ، توفى ٧٤٩هـ ، انظر : المقريزى « المقفى » ح ١ ص ٧٣٢، ابن العماد « شذرات الذهب » ح ٦ ص ١٦٠ .

كتاب « التعريف بالمصطلح الشريف » أن من مهام قاضى الحنفية تزويج الأيامى ، وذلك عند غياب الولى أو عضله المرأة عن تزويجها بمن هو كفء لها راغب فى زواجها[١] .

من تلك الشواهد ـ أيضًا ـ ما ذكرته المصادر التاريخية عام ٨٧٥هـ/١٤٧٠م أن فتاة رفعت قضية إلى قاضة الحنفية محب الدين ابن الشحنة[٢] مضمونها أنها شابة فقيرة غاب أبواها عن القاهرة[٣] ثلاث سنين وأنها وصلت سن النكاح وتريد الزواج وليس لها ولى شرعى يقوم بتزويجها ، فكتب قاضى الحنفية لنائبه ابن الصيرفى[٤] ليقوم بإتمام زواجها من شخص كفئ مستوفيًا الشروط الشرعية الخاصة بهذا الأمر ، وبعد التأكد من أن والديها غائبين عن القاهرة ، قام ابن الصيرفى بتنفيذ أمر ابن الشحنة وتم تزويج الفتاة[٥] .

ومن ذلك ـ أيضًا ـ ما جاء فى « فتاوى شمس الدين البلاطنسى »[٦] « ت ٨٦٣هـ » عن صحة قيام القاضى الشافعى بتزويج فتاة لم يكن وليّها غائبًا غيبة مُنقطعة ، فأجاب أنه لا يجوز قيام القاضى بتزويج الفتاة إلا إذا كان وليها غائبًا غيبة مُنقطعة ، وهى الغيبة التى لا يصل الكِتاب فيها إليه ، أو يصل فلا يجيب ، ويصعب الوصول إليه إلا بكُلْفَة ومشقة[٧] .

ومن ذلك ـ أيضًا ـ وثيقة عقد زواج مُؤرخة بعام ٦٨٩هـ ، ظهر خلالها قيام القاضى

---

(١) العمرى « التعريف بالمصطلح الشريف » ص ١١٩، ١٢٠، القلقشندى «صبح الأعشى» ح١١ ص ٢٠٠.

(٢) محب الدين ابن الشحنة : أحمد بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، ولى قضاء الحنفية بالديار المصرية فى عهد السلطان قايتباى « ت ٩٠١هـ » ، توفى عام ٨٨٢هـ ، انظر : « الضوء اللامع » ح ٢ ص ١٩٤.

(٣) **القاهرة** : بناها القائد جوهر المعزى لمولاه المعز بن المنصور بن المهدى الفاطمى عام ٣٥٨هـ ، ولقد اهتم بعمارتها الفاطميين وكذا الأيوبيين ، وبلغت أوج ازدهارها عهد المماليك لكونها عاصمة الدولة ومقر السلطان ، انظر : القلقشندى « صبح الأعشى » ح ٣ ص ٣٤٤.

(٤) ابن الصيرفى : على بن داود ، تفقه على شيوخ عصره ، ناب فى قضاء الحنفية بمصر عام ٨٧١هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٥ ص ١٢٧.

(٥) ابن الصيرفى « إنباء الهصر » ص ٢٢٦.

(٦) شمس الدين البلاطنسى : محمد بن عبد الله ، تفقه على شيوخ عصره ، درس وأفتى ، وذاع صيته وشهرته لدى المصريين والشاميين على السواء ، توفى ٨٦٣هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٨ ص ٨٦.

(٧) تقى الدين البلاطنسى « ت ٩٣٦هـ » « فتاوى شمس الدين البلاطنسى » « ت ٨٦٣هـ » ص ١٦٢، مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم مكروفيلم (١٢٤٥٨) ، (٣٥٤ فقه شافعى طلعت) .

وحيد الدين إبراهيم نائب قاضى القضاة الشافعية تقى الدين ابن بنت الأعز «ت٦٩٥هـ»[(١)] «ت هـ»، بتزويج فتاة فقدت وليّها[(٢)].

(١) تقى الدين بن بنت الأعز: تقى الدين عبد الرحمن بن قاضى القضاة تاج الدين بن عبد الوهاب، تولى قضاء الشافعية بمصر، توفى عام ٦٩٥هـ، انظر: ابن العماد «شذرات الذهب» ح ٥ ص ٤٣١.

(٢) د. أحمد عبد الرازق «عقد نكاح من عصر المماليك البحرية» ص ٧١، ٧٢، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، الكويت، عدد (٢٢) لعام ١٩٨٦م.

٥ ـ العلماء والعمران

ساهم علماء مصر والشام ـ فى القرن التاسع ـ فى حركة العمران، حيث أنشأوا المدارس، والمساجد، والزوايا، والخانات، والسبل، وأبراج المرابطة.

* **المدارس :**

كان العرب والمسلمون يُطلقون على مكان دراسة العلوم « دار العلم »، وكانت مدينة نيسابور أول مدينة إسلامية أطلقت كلمة مدرسة على دار العلم، وكان ذلك فى القرن الرابع الهجرى فى عهد محمود الغزنوى، وهناك من المؤرخين من يرى أن الوزير الفارسى نظام الملك الطوسى هو أول من بنى مدرسة فى الإسلام، وهى المدرسة التى بناها ببغداد عام ٤٥٧هـ، وكان هذا الوزير قد بنى قبل هذا التاريخ مدرسة فى نيسابور(١) .

ومن علماء مصر الذين ذكرت المصادر التاريخية أنهم أنشأوا بها المدارس العالم بدر الدين العينى(٢) « ت ٨٥٥هـ »، الذى أنشأ مدرسة بحارة كُتامَة(٣) بالقرب من الجامع الأزهر(٤)

---

(١) د. حسن شميسانى « مدارس دمشق فى العصر الأيوبى » ص ١٣، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ١ (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، د. أحمد رمضان « الإيجازات والتوقيعات المخطوطة فى العلوم النقلية والعقلية من القرن ٤ إلى ١٠هـ » ص ٥، هيئة الآثار المصرية « مشروع المائة كتاب » رقم (٤) ١٩٨٦م، د. أحمد رمضان « المدارس والمذهب الشافعى » ص ٢، مقال بمجلة كلية الآثار، جامعة القاهرة، العدد (٥) عام ١٩٩١م.

(٢) بدر الدين العينى : محمود بن أحمد، تفقه على شيوخ عصره، تولى قضاء الحنفية بمصر عام ٨٢٩هـ، وحسبة مصر مرات عدة، توفى ٨٥٥هـ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ١٠ ص ١٣١.

(٣) **حارة كتامة :** ذكر عنها المقريزى أنها هى المجاورة للباطِلِيَّة، وتارة يضيفونها إليها، والصحيح أنها حارة مفردة، انظر : المقريزى « المواعظ والاعتبار » ص ٣٣١.

(٤) **الجامع الأزهر :** أول مسجد أسس بالقاهرة، والذى أنشأه القائد جوهر الصَّقْلى مَوْلى المعز لدين الله بن المنصور بن المهدى الفاطمى، لما اختط القاهرة، واكتمل بناؤه لتسع خلون من شهر رمضان سنة إحدى وستين وثلاث مائة، وكان منارة دينية وعلمية فى عهد المماليك، انظر : المقريزى « المواعظ والاعتبار » ح ٤ ص ٩٠ ـ ١٠٦.

الشريف عام ٨١٤هـ/١٤١١م، وأوقف عليها الأوقاف[١].

ومن هؤلاء العلماء ـ أيضًا ـ عز الدين أبو البركات[٢] «ت ٨٧٦هـ»، الذى أنشأ مدرسة بشبرا الخيمة[٣]، ومدرسة أخرى بجوار بيته[٤]، والعالم أبى القسم النويرى[٥] «ت ٨٥٧هـ» الذى بنى مدرسة بالخانقاه السرياقوسية[٦]، وأوقف عليها ما كان فى حوزته من أملاك[٧]، والعالم ابن مزهر[٨] «ت ٨٩٣هـ»، الذى بنى مدرسة مجاورة لبيته[٩]، والعالم أبو البقاء بن الجيعان[١٠]

---

(١) العينى «عقد الجمان» ص ٧٤، ٣٩٧، ابن الصيرفى «نزهة النفوس» ح ٢ ص ٢٩٠، السخاوى «الذيل على رفع الأصر» ص ٤٣٤.

(٢) عز الدين أبو البركات: أحمد بن إبراهيم، تفقه على شيوخ عصره، درس، ولى قضاء الحنابلة بمصر، توفى ٨٧٦هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ١ ص ٢٠٥.

(٣) **شبرا الخيمة**: يذكر ابن دقماق أنها من ضواحى القاهرة العامرة، عصر المماليك، كان بها طواحين وأفران ومعاصر زيت حار وغير ذلك، وكان سوقها يوم الثلاثاء، انظر: ابن دقماق «الانتصار لواسطة عقد الأمصار» ح ٥ ص ٤٧، تحقيق كارل فولرنس، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، فى إطار جامعة فرانكفورت، جمهورية ألمانيا الاتحادية، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، محمد رمزى «القاموس الجغرافى» ح ١ ص ١٢.

(٤) السخاوى «وجيز الكلام» ح ٢ ص ٨٣٥، ابن الصيرفى «إنباء الهصر» ص ٣٤٧، السخاوى «الذيل على رفع الأصر» ص ٣٨، السخاوى «الضوء اللامع» ح ١ ص ٢٠٥.

(٥) أبى القسم النويرى: محمد بن محمد، تفقه على شيوخ عصره، برع فى الفقه والنحو والمنطق، أفتى، توفى ٨٥٧هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ٩ ص ٢٤٦.

(٦) **الخانقاه السرياقوسية**: هى من الخوانق التى أنشأها السلطان الناصر محمد بن قلاوون بسرياقوس ـ من الأعمال القليوبية ـ، عام خمس وعشرين وسبع مائة، وأوقف عليها الأوقاف، انظر شمس الدين الشجاعى «تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى وأولاده» ص ١١٧، تحقيق برباره شيفر، فرانز شتاينر ـ ڤيسبادن، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، ابن دقماق «الانتصار» ح ٥ ص ٤٩، ٥٠.

(٧) السخاوى «الضوء اللامع» ح ٩ ص ٢٤٧.

(٨) ابن مزهر: أبو بكر بن محمد، تفقه على شيوخ عصره، تولى وكالة بيت المال، ونظر الجيش، وكتابة السر بمصر، توفى ٨٩٣هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ١١ ص ٨٨.

(٩) ابن شاهين «المعجم المفنن» ص ٥٢، السخاوى «الضوء اللامع» ح ١١ ص ٨٨.

(١٠) أبو البقاء بن الجيعان: البدر بن محمد بن يحيى، تفقه على شيوخ عصره، ولد عام ٨٤٧هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ١١ ص ٨، ٩.

الذى بنى مدرسة بالزاوية[(١)] الحمراء بالقرب من قناطر الأوز[(٢)] ، والعالم سراج الدين البلقينى[(٣)] « ت ٨٠٥هـ » الذى أنشأ مدرسة بالقاهرة[(٤)] .

أمّا علماء دمشق الذين ذكرت المصادر التاريخية أنهم أنشأوا بها المدارس شمس الدين الإخنائى[(٥)] « ت ٨١٦هـ » ، الذى أنشأ المدرسة الإخنائية التى تقع على يمين الخارج من باب الزيادة[(٦)] عام ٨١٦هـ/١٤١٣م ، وكانت تلك المدرسة تقوم بتدريس القرآن وعلومه ، والحديث وعلومه ، والفقه الشافعى ـ مذهب الإخنائى ـ ، وذلك كما يظهر من وثيقة وقفها[(٧)] ، ويذكر الباحث أكرم حسن العلبى أن تلك المدرسة لا تزال

---

(١) **الزاوية الحمراء :** هى القرية التى ذكرها ابن عبد الحكم فى كتاب « فتوح مصر » باسم « ياق » ، وقال إنها كانت بغرب « أم دنين » ، ثم عرفت فيما بعد باسم « كوم الريش » ، وقال عنها المقريزى إنها تقع بين أرض البعل ـ من أعمال ضواحى القاهرة ـ ومنية السيرج ، كان النيل يمر بغربيها بعد مروره بغربى أرض البعل ، ولقد قام الأشرف قايتباى عام ٨٩٠هـ بتجديد هذه القرية وأنشأ بها زاوية دهنت حيطانها من الخارج باللون الأحمر فعرفت بالزاوية الحمراء واختفى اسمها القديم وهو كوم الريش ، انظر : محمد رمزى « القاموس الجغرافى للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥م » ح ١ القسم الثانى ص ١١، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، « د. ت » .

(٢) السخاوى « الضوء اللامع » ح ١١ ص ٨، ٩.

(٣) سراج الدين البلقينى : انظر : ص ٢١٧.

(٤) ابن قاضى شهبة « طبقات الشافعية » ص ٢٧٨.

(٥) شمس الدين الإخنائى : محمد بن محمد بن عثمان ، تفقه على شيوخ عصره ، درس ، ولى قضاء الشافعية بدمشق ، ووكالة بيت المال ، توفى ٨١٦هـ ، انظر : ابن طولون « قضاة دمشق » ص ١٢٥، النعيمى « الدارس فى تاريخ المدارس » ح ١ ص ١٤٤.

(٦) **باب الزيادة :** باب الزيادة هو أحد أبواب الجامع الأموى بدمشق ، حيث أن الجامع له أربعة أبواب ، الباب الشرقى وهو باب جيرون والباب الغربى ويعرف بباب البريد ، والباب الشمالى ويعرف بباب الناطفيين ، أما باب الزيادة هو الباب القبلى ، ومنه يُنفذ إلى سوق الصاغة ، والبيمارستان العتيق وسوق القمح ، انظر : البدرى « أبو البقاء عبد الله ولد ٨٤٧هـ » « نزهة الأنام فى محاسن الشام » ص ٥٦، أكرم حسن العلبى « خطط دمشق دراسة تاريخية شاملة على مدى ألف عام من سنة ٤٠٠هـ حتى سنة ١٤٠٠هـ » ص ٢٨٧، دار الطباع ، دمشق ، ط ١ (١٤١٠هـ/١٩٨٩م) .

(٧) النعيمى « الدارس فى تاريخ المدارس » ح ١ ص ١٢، د. قتيبة الشهابى « النقوش الكتابية فى أوابد =

محافظة على شكلها العام[١] .

ومن هؤلاء العلماء ـ أيضًا ـ قطب الدين الخيضرى[٢] « ت ٨٩٤هـ » الذى أنشأ المدرسة الخيضرية ـ التى تقع داخل باب الجابية[٣] ـ عام ٨٧٨هـ/١٤٧٣م وذلك لتدريس القرآن وعلومه ، وأوقف عليها الأوقاف[٤] ، ومازال بناء المدرسة قائمًا ، وقد تحول إلى مسجد[٥] .

والعالم ابن الجزرى[٦] « ت ٨٣٣هـ » الذى أنشأ المدرسة الجزرية بدرب الحجر[٧] ، لتدريس القرآن وعلومه[٨] ، ولقد درست هذه المدرسة[٩] .

= دمشق » ص ١٥١، أكرم حسن « خطط دمشق » ص ٦٨، ٩٨، د. سعود محمد « الحياة الثقافية بدمشق » ص ١٦١.

(١) أكرم حسن « خطط دمشق » ص ٩٨.

(٢) قطب الدين الخيضرى : محمد بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء الشافعية بدمشق ، ووكالة بيت المال ، توفى ٨٩٤هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٩ ص ١٢١، ابن طولون « قضاة دمشق » ص ١٧٨.

(٣) **باب الجابية** :باب رومانى الأصل فى الجهة الغربية لسور المدينة القديمة ، ويقابله فى جهة الشرق الباب الشرقى ، ويمتد بينهما الشارع المستقيم ـ سوق مدحت باشا وامتداده ـ ، وكان له ثلاث بوابات ، انظر : د. قتيبة الشهابى « النقوش الكتابية فى أوابد دمشق » ص ٣٧، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٩٧م .

(٤) النعيمى « الدارس فى تاريخ المدارس » ح ١ ص ٣، النعيمى « دور القرآن بدمشق » ص ٢٩، ابن المبرد « ثمار المقاصد فى ذكر المساجد » ص ٢١٣، البصروى « تاريخ البصروى » ص ٦٢، د. سعود محمد « الحياة الثقافية » ص ١٤٤.

(٥) د. قتيبة الشهابى « النقوش الكتابية فى أوابد دمشق » ص ٩٦، أكرم حسن « خطط دمشق » ص ٦٥.

(٦) ابن الجزرى : محمد بن محمد بن محمد بن يوسف ، تفقه على شيوخ عصره ، برع فى علم القرآت ، توفى ٨٣٣هـ ، انظر : النعيمى « الدارس » ح ١ ص ٨.

(٧) **درب الحجر** : درب قديم ، وهو الطريق الواصل بين باب توما والقشلة ، انظر : النعيمى « الدارس فى تاريخ المدارس » ح ١ ص ٨، أكرم حسن « خطط دمشق » ص ٤٣٩.

(٨) النعيمى « دور القرآن بدمشق » ص ١، ٢٨، النعيمى « الدارس فى تاريخ المدارس » ح ١ ص ٨، ابن طولون « قضاة دمشق » ص ١٢١.

(٩) أكرم حسن « خطط دمشق » ص ٦٤.

والعالم نظام الدين أبو حفص[١] « ت ٨٧٢هـ » الذى أنشأ المدرسة النظامية ـ التى تقع إلى الشمال من المدرسة الشبلية[٢] ـ حوالى عام ٨٥٠هـ/١٤٤٦م ، لتدريس الحديث وعلومه ، والمدرسة تشمل على إيوان المحراب[٣] ، وبه إيوان غربى ، وشمالى إيوان المحراب إيوان لطيف به بركة ماء ، وعن شرقيها رواق[٤] معد للنساء[٥] .

كما قام العالم زين الدين عبد الرحمن[٦] « ت ٨٥٦هـ » بتجديد عمارة المدرسة العمرية[٧]

---

(١) نظام الدين أبو حفص : عمر بن إبراهيم ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء غزة ، وتولى قضاء دمشق ، توفى عام ٨٧٢هـ ، انظر : ابن طولون « تاريخ الصالحية » ح ١ ص ١٤٥.

(٢) **المدرسة الشبلية :** تقع المدرسة الشبلية بسفح جبل قاسيون ، وأنشأ هذه المدرسة شبل الدولة كافور الحسامى نسبة إلى حسام الدين محمد بن لاجين ، توفى عام ٦٢٣هـ ، انظر : ابن طولون « تاريخ الصالحية » ح ١ ص ١٩٤.

(٣) **الإيوان :** كلمة فارسية معربة مأخوذة من « ايفان » وتعنى لغويًا قاعة العرش ، ومنه إيوان كسرى ، أما فى العمارة المملوكية فالإيوان يمثل وحدة معمارية مربعة أو مستطيلة الشكل لها ثلاث حوائط أى من ثلاث جهات فقط والجهة الرابعة مفتوحة ، وإذا سد الإيوان بحائط من الجهة الرابعة فلا يقال له إيوان بل مجلس ، والإيوان يعلو دائمًا بمقدار درجة أو سلمة أو أكثر عن باقى مسطحات المكان ، وسقف الإيوان إما معقود أو مسطح ، انظر : د. محمد محمد أمين ، ليلى على إبراهيم « المصطلحات المعمارية فى الوثائق المملوكية » ص ١٧، دار النشر بالجامعة الأمريكية ، القاهرة ، ١٩٩٠م ، د. فاطمة محجوب « الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية » ح ٦ ص ٣٠١، أحمد عطية « القاموس الإسلامى » ص ٢٢٩، مكتبة النهضة المصرية ، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م .

(٤) **رواق :** الرواق فى المساجد يطلق على المسطحات المسقفة التى بين الأعمدة ، وفى الدور يعنى الرواق وحدة سكنية أو جزء من الوحدة السكنية ، انظر : د. محمد محمد أمين ، ليلى على إبراهيم « المصطلحات المعمارية فى الوثائق المملوكية » ص ٥٧.

(٥) ابن طولون « تاريخ الصالحية » ح ١ ص ١٤٥، ١٤٦، أكرم حسن « خطط دمشق » ص ٨٩.

(٦) زين الدين عبد الرحمن : عبد الرحمن بن أبى بكر ، تفقه على شيوخ عصره ، وكان زاهدًا آمرًا بالمعروف وناهيًا عن المنكر ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٤ ص ٦٢، النعيمى « الدارس فى تاريخ المدارس » ح ٢ ص ٢٠٢.

(٧) **المدرسة العمرية :** أو مدرسة « أبى عمر » ، أنشأها العالم أبو عمر محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة سنة ٥٥٥هـ بمدينة الصالحية ، انظر : النعيمى « الدارس فى تاريخ المدارس » ح ٢ ص ١٠٠، ابن طولون « تاريخ الصالحية » ص ٢٤٨، د. قتيبة الشهابى « النقوش الكتابية فى أوابد دمشق » ص ١٦٧.

بالصالحية[(١)(٢)] .

* المساجد :

المسجد اسم مشتق من الجذر اللغوى سجد ، وهى اسم لمكان السجود ، والمعنى الدلالى مكان أداء الصلوات الخمس وعبادة الله ، وهناك ادعاءات للمستشرقين بأن أصل كلمة « مسجد » لغويًا غير عربى ، وأن أصلها إيطالى من الكلمة الإيطالية القديمة « Meschita» ، أو أنها أسبانى تعود إلى كلمة « Mazad» « مزد » ، ثم استخدمها أهل المغرب بلفظ « مسيد » ، ثم انتقلت للبلدان العربية لتصبح « مسجد »[(٣)] .

ومن علماء مصر الذين ذكرت المصادر التاريخية أنهم أنشأوا بها المساجد العالم عز الدين أبو البركات[(٤)] « ت ٨٧٦هـ » الذى أنشأ جامعًا بشبرا[(٥)] الخيمة[(٦)] ، كما قام العالم شمس الدين الغمرى[(٧)] «ت٨٤٩هـ» ببناء جامع بسوق أمير الجيوش[(٨)] ، كما

---

(١) **الصالحية** : قرية كبيرة بنيت فى العهد الأيوبى فى لحف جبل قاسيون من غوطة دمشق ، ثم زاد المماليك فى عمارتها ، وكان فيها عدد كبير من المساكن والمدارس والحمامات والمتنزهات ، انظر : ياقوت الحموى « معجم البلدان » ح ٥ ص ٣٦٣، أكرم حسن « خطط دمشق » ص ٦٢.

(٢) النعيمى « الدارس فى تاريخ المدارس » ح ٢ ص ٢٠٢، محمد أديب « منتخبات التواريخ لدمشق » ص ٥٥٨.

(٣) بشير سعيد « الدور السياسى للمسجد » ص ١٦، ماجستير ، كلية الاقتصاد والعلوم السياسة ، جامعة القاهرة ، ١٩٩٤م .

(٤) عز الدين أبو البركات : انظر : ص ٢٣٩.

(٥) شبرا الخيمة : انظر : ص ٢٣٩.

(٦) السخاوى « وجيز الكلام » ح ٢ ص ٨٣٥، ابن الصيرفى « إنباء الهصر » ص ٣٤٧، ابن مكى « السحب الوابلة » ح ١ ص ٩٠، السخاوى « الذيل على رفع الأصر » ص ٣٨.

(٧) شمس الدين الغمرى : محمد بن عمر ، تفقه على شيوخ عصره ، كان زاهدًا متقشفًا ، توفى ٨٤٩هـ ، انظر : السخاوى «الضوء اللامع» ح ٨ ص ٣٢٨ ، الشوكانى « البدر الطالع » ح ٢ ص ١١٨ .

(٨) **سوق أمير الجيوش** : سُوَيقة أمير الجيوش ـ كما يذكر المقريزى ـ منسوبة إلى أمير الجيوش بدر الجمالى وزير المستنصر بالله أبى تميم مَعَدّ بن الظاهر «ت٤٨٨هـ» ، وتقع هذه السويقة من باب حارة بَرْجَوان إلى قريب الجامع الحاكمى ، انظر : المقريزى «المواعظ» ح ٣ ص ٣٣٤.

جدد عدة جوامع كانت قد دثرت أو أشرفت على الدثور[1] .

أما علماء دمشق الذين ذكرت المصادر التاريخية أنهم أنشأوا بها المساجد العالم بدر الدين حسن[2] « ت ٨٣١هـ » ، الذى قام بتحديد عمارة جامع الجوزة[3] وتوسعته عام ٨٣٠هـ/١٤٢٦م[4] .

كما قام العالم ابن مزهر[5] « ت ٨٩٣هـ » بتجديد عمارة مسجد ابن هشام[6] ، وجعل له منارة[7] فائقة الحسن ، ولازال هذا المسجد قائمًا[8] ، ومن علماء دمشق ـ أيضًا ـ التى

---

(١) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٨ ص ٢٣٩ .

(٢) بدر الدين حسن : هو بدر الدين حسن بن ناظر الجيش نجم الدين ، تولى نظر الجيش وكتابة السر بدمشق ، وذكر ابن طولون أنه تولى قضاء المالكية بدمشق عام ٨٠٧هـ ، توفى ٨٣١هـ ، انظر : النعيمى « الدارس فى تاريخ المدارس » ح ٢ ص ٤٢٨، ٤٢٩، ابن طولون « قضاة دمشق » ص ٢٥٢.

(٣) **جامع الجوزة :** من مساجد دمشق القديمة قبلى حمام السكاكرى ، ذكره ابن عساكر الذى عايش العهود السلجوقية والأتابكية والنورية ومطلع العهد الأيوبى ، انظر : أكرم حسن « خطط دمشق » ص ٣٢٣، د. قتيبة الشهابى « النقوش الكتابية » ص ٢٠٨.

(٤) النعيمى « الدارس فى تاريخ المدارس » ح ٢ ص ٤٢٨، ٤٢٩، ابن المبرد « ثمار المقاصد » ص ١١٢، ٢٠٧.

(٥) ابن مزهر : أبو بكر بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى كتابة السر بمصر ، وتوفى ٨٩٣هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ١١ ص ٨٨.

(٦) **مسجد ابن هشام :** ذكر ابن عساكر هذا المسجد ، ويرى أهل الشام أنه مسجد هشام بن عمّار المقرئ المتوفى ٢٤٥هـ أحد رواة المقرئ ابن عامر الشامى ، ويقع المسجد فى أول سوق مدحت باشا ، مقابل خان الدكّة ، ومازال هذا المسجد قائمًا ، انظر : أكرم حسن « خطط دمشق » ص ٣٥٩.

(٧) **منارة :** المنارة أو المأذنة موضع الآذان ، وكانت المنارة أو المئذنة كتلة معمارية مرتفعة كالبرج ، وقد تكون مربعة أو مستديرة أو بها جزء مربع ، وأعلاها مستدير ، وبداخلها سلم يؤدى إلى دورات ـ أى شرفات ـ تحيط بالمأذنة يؤذن من عليها المؤذن ليصل صوته إلى أبعد مدى ممكن ، والمآذن المملوكية تتكون غالبًا من جزء مربع ثم جزء مثمن ثم جزء مستدير بينهم الدورات ، ويعلوها جوسق ينتهى بخوذة يثبت بها صوارى تعلق بها « ثريات » أو فوانيس ، انظر : د. محمد محمد أمين « المصطلحات المعمارية » ص ٩٧، ٩٨.

(٨) أكرم حسن « خطط دمشق » ص ٣٥٩.

ذكرت المصادر أنهم أنشأوا بها المساجد كمال الدين الحمزاوى[(١)] « ت ٩٣٣هـ » الذى أنشأ مسجدًا وصفته المصادر بأنه يدخل إليه من ممر ضيق يؤدى إلى صحن[(٢)] مغطى بالحجارة البيضاء والسوداء، وفيه بركة ماء، وبه محراب[(٣)] ومنبر[(٤)] عاديان[(٥)] .

* **الزوايـــا :**

كانت الزوايا فى العصر المملوكى يمارس فيها العبادة من صلاة وقراءة قرآن، كما استخدمت كمأوى لطوائف المريدين من الصوفية يقيمون فيها ليلهم ونهارهم، كما اتخذت مأوى لأصحاب العاهات وكبار السن والمكفوفين، وكذا المطلقات من النساء[(٦)] .

ومن علماء مصر الذين ذكرت المصادر التاريخية أنهم أنشأوا بها الزوايا العالم أبو

---

(١) كمال الدين الحمزاوى : محمد بن حمزة، تفقه على شيوخ عصره، صار أحد شيوخ الإسلام المعول عليهم بدمشق فقهًا، وأصولًا، وعربية، ولى إفتاء دار العدل بدمشق، درس، وأفتى، توفى ٩٣٣هـ، انظر : ابن العماد « شذرات الذهب » ح ٨ ص ١٩٤.

(٢) **الصحن** : الصحن مساحة وسط الدار، والصحن المستوى من الأرض، وفى العمارة المملوكية صحن المكان أو المدرسة هو دور قاعتها بين إيواناتها الأربعة، أو صحن المسجد يحيط به الأروقة، وغالبًا ما يكون الصحن كشف سماوى، ويطلق عليه بعض رجال المعمار فى العصر المملوكى « وسط »، انظر : د. محمد محمد أمين « المصطلحات المعمارية » ص ٧٢.

(٣) **المحراب** : المحراب حنية فى حائط حرم الصلاة تشير إلى جهة القبلة « المسجد الحرام » بمكة، ويقف الإمام أمام المحراب ليؤم المصلين، والمحراب عند العامة فى العصر المملوكى مقام الإمام، وتجويف المحراب على شكل نصف اسطوانة تغطيها نصف قبة تسمى « خوذة »، ويكتنف المحراب عادة عمودان، انظر : د. محمد محمد أمين « المصطلحات المعمارية » ص ١٠٠.

(٤) **منبر** : المنبر مرقاة الخطيب بالجامع، ولا يستخدم هذا المصطلح فى الوثائق المملوكية لغير ذلك، انظر : د. محمد محمد أمين « المصطلحات المعمارية » ص ١١٦.

(٥) ابن المبرد « ثمار المقاصد » ص ٢٤٨.

(٦) طارق محمد المرسى « الزوايا فى العصر المملوكى بالقاهرة : دراسة أثرية حضارية » ص ٢٦١، ٢٦٣، ماجستير، كليى الآثار، ٢٠٠٠م .

إسحاق[1] الأبناسى « ت ٨٠٢هـ » ، الذى أنشأ زاوية[2] بالمقس[3] .

أمّا الزوايا التى أنشأها علماء دمشق، فمنها الزاوية الداودية ـ التى تقع بسفح قاسيون[4] ـ ، وهى أعظم زوايا مدينة الصالحية[5] ، قام العالم زين الدين[6] عبد الرحمن « ت ٨٥٦هـ » بتعمير وتوسعة الزاوية التى أنشأها والده الشيخ أبو بكر بن داود ، وأوقف عليها الأوقاف ، وجعل لها صهريجًا[7] ، وخلاوى[8] كثيرة للفقراء الصوفية ،

---

(١) أبو إسحق الأبناس : إبراهيم بن حسن ، تفقه على شيوخ عصره ، خطيب جامع المقس ، وولى مشيخة الخانقاه الناصرية ، توفى ٨٠٢هـ ، انظر : المقريزى « المقفى » ح ١ ص ١٣٩.

(٢) **المقس** : يدل على موضعه اليوم ميدان رمسيس ، حيث كان النيل يجرى فى عهد الدولة الفاطمية فى المكان الذى يمر فيه اليوم شارع محمد فريد وميدان رمسيس ، ويدخل فيه مدخل شارع الجمهورية والمبانى التى على جانبيه جنوبًا حتى شارع نجيب الريحانى ، ومن الشرق حتى شارع بورسعيد ، انظر : المقريزى « المواعظ والاعتبار » هامش ٢ ص ٦٠، تحقيق د. أيمن فؤاد سيد ، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامى ، لندن ، ١٤١٦هـ ، ١٩٩٥م .

(٣) المقريزى « المقفى » ح ١ ص ١٣٩.

(٤) **قاسيون** : جبل قاسيون ، هو الجبل الأشم الذى تقوم مدينة دمشق على أقدامه ، يتصل من جهة الغرب بسلسلة جبال لبنان ، ومن الشمال والشرق بسلسلة جبال قلمون الممتدة إلى منطقة حمص ، ولقاسيون سفحان يفصل بينهما نهر يزيد ، انظر : ابن طولون « تاريخ الصالحية » ص ٣٧، ٤٣.

(٥) الصالحية : انظر ص ٢٤٣.

(٦) زين الدين عبد الرحمن : ص ٢٤٢.

(٧) **الصهريج** : قيل إن الصهريج سمّى صهريجًا نسبة إلى الصاروج وهى المادة العازلة التى كان يصرج بها ـ أى يطلى ـ من الداخل ، والصهريج خزان للمياه يبنى بالأجر والخافقى فى تخوم الأرض لحفظ المياه ، ويغطى عادة بقباب ضاحلة غير عميقة ، وتغطى فوهة الصهريج بخرزة من الرخام أو الحجر الصلد ، ويمكن النزول إلى قاع الصهريج لتنظيفه ، وتطهيره عن طريق سلم ، انظر : د. محمد محمد أمين « المصطلحات المعمارية » ص ٧٣.

(٨) **خلاوى** : **الخلوة** : حجرة صغيرة بدون شبابيك فى الغالب يختلى داخلها الصوفى بمفرده ، انظر : د. محمد محمد أمين « المصطلحات المعمارية » ص ٤٣.

وميضأة[(١)] ، ومكتبة ، ومساكن للنساء[(٢)] .

ومن تلك الزواية ـ أيضًا ـ الزاوية الحصنية ـ التى تقع بحى الشاغور[(٣)] ـ التى أنشأها العالم تقى الدين الحصنى[(٤)] « ت ٨٢٩هـ »[(٥)] .

والزاوية المنصورية التى أنشأها العالم برهان الدين بن منصور[(٦)] ، وهى تقع عند الجامع الجديد[(٧)] بمدينة الصالحية[(٨)] ، وجعل برهان الدين بهذه الزاوية خلوة[(٩)] للشيخ ، ورواقًا[(١٠)] [(١١)] .

---

(١) **ميضأة :** مكان يخصص بجوار المساجد ، وأماكن الصلاة ، به مراحيض ، وأحواض للتطهر ، انظر : د. محمد محمد أمين « المصطلحات المعمارية » ص ١١٨.

(٢) النعيمى « الدارس فى تاريخ المدارس » ح ٢ ص ٢٠٢، ابن طولون « تاريخ الصالحية » ح ١ ص ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٠، محمد أديب « منتخبات التواريخ لدمشق » ص ٥٥٨، أكرم حسن « خطط دمشق » ص ٤١٦.

(٣) **الشاغور :** هو من أحياء دمشق الكبرى ، ويقع إلى الجنوب الشرقى من الباب الصغير ـ أصغر أبواب مدينة دمشق المسورة ـ ، انظر : ياقوت الحموى « معجم البلدان » ح ٣ ص ٣١٠، أكرم حسن « نيابة دمشق » ص ٢٥، ٣٥، ٦٨.

(٤) تقى الدين الحصنى : أبو بكر بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، حتى صار شيخ الشافعية بدمشق ، توفى ٨٢٩هـ ، انظر : المقريزى « العقود الفريدة » ح ١ ص ١٨٢.

(٥) أكرم حسن « خطط دمشق » ص ٤١٥، د. سعود محمد « الحياة الثقافية » ص ٢٢٥.

(٦) برهان الدين بن منصور : تفقه على شيوخ عصره ، كان من علماء الشافعية بدمشق ، توفى فى حدود التسعين وثمانمائة ، انظر : ابن طولون « تاريخ الصالحية » ص ٣٠٥.

(٧) **الجامع الجديد :** يقع على حافة نهر يزيد على الطريق الآخذ إلى كهف جبريل ، وأصله تربة الست خاتون بنت معين الدين اتز زوج السلطان نور الدين محمود ثم السلطان صلاح الدين الأيوبى ، ولقد بنيت الخاتون تلك التربة عام ٥٧٧هـ ، ودفنت فيها عام ٥٨١هـ ، وفى عام ٦٥٣هـ أنشأ إلى جانب التربة من الشرق مسجدًا ، وفى عام ٧٩٠هـ وسع المسجد وضمت التربة إليه ، فصار يسمى « الجامع الجديد » ، انظر : ابن طولون « تاريخ الصالحية » ح ١ ص ١٠٣، أكرم حسن « خطط دمشق » ص ٣٢١.

(٨) الصالحية : انظر : ص ٢٤٣.

(٩) الخلوة : انظر : ص ٢٤٦.

(١٠) الرواق : انظر : ص ٢٤٢.

(١١) ابن طولون « تاريخ الصالحية » ح ١ ص ٣٠٥.

والزاوية الرجيحية التى أنشأها العالم محيى الدين عبد القادر[1] « ت ٩١٠هـ » ، وهى تقع بسفح جبل قاسيون[2] ، وهذه الزاوية تشمل محل للذكر ، وخلوة ، ورواق ، وميضأة[3] [4] .

السـبل :

السبيل مصطلح للوحدة المعمارية التى تعمل على توفير مياه الشرب للناس ويتكون السبيل من ثلاث طوابق ، الأول فى تخوم الأرض وهو الصهريج الذى يملأ بالماء ، والطابق الثانى أرضه أعلى من مستوى الشارع بقليل ويمثل حجرة السبيل أو « حانوت السبيل » ، ولهذه الحجرة شبابيك للتسبيل ، وبداخلها أحواض تحت الشبابيك تملأ بالماء العذاب من الصهريج ، وأما الطابق الثالث أى العلوى فهو غالبًا قاعة لتعليم الأطفال الأيتام أى « كُتّاب » ، وأحيانًا كان يخصص الدور الثالث للمزملاتى وهو الشخص المسئول عن التسبيل ، ولقد سُمّى السبيل بذلك الاسم لأنه موضع أوقفه الخيّرون ليوضع فيه الماء المسبل أى المجعول فى سبيل الله ، وقد يخصص الواقف السبيل للشراب فقط أو النفع العام[5] .

ومن علماء مصر الذين ذكرت المصادر التاريخية أنهم أنشأوا بها السبل عز الدين أبو البركات[6] « ت ٨٧٦هـ »[7] ، وابن مزهر[8] « ت ٨٩٣هـ »[9] .

---

(١) محيى الدين عبد القادر : عبد القادر بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، ناب فى الحكم عن قضاء الحنابلة بدمشق ، توفى ٩١٠هـ ، انظر : ابن العماد الحنبلى « شذرات الذهب » ح ٨ ص ٤٦، ٤٧.

(٢) جبل قاسيون : انظر : ص ٢٤٦.

(٣) ميضأة : انظر : ص ٢٤٧.

(٤) ابن طولون « تاريخ الصالحية » ح ١ ص ٣٠١، ٣٠٢.

(٥) د. محمد محمد أمين ، ليلى على إبراهيم « المصطلحات المعمارية فى الوثائق المملوكية » ص ٦٢، جلال أسعد « عمائر السلطان قايتباى فى بيت المقدس » ص ٢٥، ماجستير ، آثار القاهرة ، ١٩٧٤م .

(٦) عز الدين أبو البركات : انظر : ص ٢٣٩.

(٧) السخاوى « الذيل على رفع الأصر » ص ٣٨، السخاوى « وجيز الكلام » ح ٢ ص ٨٣٥، ابن مكى « السحب الوابلة » ح ١ ص ٩٠، ابن الصيرفى « إنباء الهصر » ص ٣٤٧.

(٨) ابن مزهر : انظر : ص ٢٤٤.

(٩) ابن شاهين « المعجم المفنن » ص ٥٢.

كما يرجع الفضل إلى علماء القدس فى عمارة السبيل[(١)] الذى أنشأه السلطان قايتباى[(٢)] عام ٨٨٧هـ/١٤٨٢م ، حيث أرسلوا إليه يطالبونه ببناء هذا السبيل الذى كان السلطان إينال[(٣)] شرع فى بناءه ، ولكنه لم يتم ، فاستجاب لهم السلطان قايتباى[(٤)] .

* **الخـانات :**

الخان لفظة فارسية الأصل بمعنى البيت والمنزل ، ولقد أطلقت على منزل المسافر[(٥)] .

ومن علماء القرن التاسع الذين أنشأوا خانات للمسافرين ، العالم الدمشقى زين الدين عبد الرحمن[(٦)] « ت ٨٥٦هـ » ، الذى أنشأ خانًا بقرية الحسينية من وادى نهر بَرَدَى[(٧)] على طريق بعلبك[(٨)] ....

(١) يقع هذا السبيل فى منتصف الطريق المؤدى إلى قبة الصخرة ، والمسجد الأقصى ـ تقريبًا ـ ، انظر : جلال أسعد « عمائر السلطان قايتباى » ص ١٢٨، ١٣١.

(٢) قايتباى : سبق التعريف به بالفصل الأول ، انظر : ص ٢٢ .

(٣) إينال : سبق التعريف به بالفصل الأول ، انظر : ص ١٠ .

(٤) مجير الدين الحنبلى « الأنس الجليل » ح ٢ ص ٢٨٤، جلال أسد « عمائر السلطان قايتباى » ص ١٢٦.

(٥) حبيب زيات « خانات دمشق القديمة » ص ٦٦، مجلة المشرق ، بيروت ، السنة ٣٦، عام ١٩٣٨م .

(٦) زين الدين عبد الرحمن : انظر : ص ٢٤٢.

(٧) **نهر بَرَدَى** : أعظم أنهر دمشق ، ومخرج نهر بردى من قرية يقال لها قَنْوا من كورة الزبدانى على خمسة فراسخ من دمشق مما يلى بعلبك ، يظهر الماء عن عيون هناك ثم يصب إلى قرية تعرف بالفيجة على فرسخين من دمشق ، وتنضم إليها عين أخرى ثم يخرج الجميع إلى قرية تعرف بجمرايا فيفترق حينئذ فيصير أكثره فى بردى ، ويحمل الباقى نهر يزيد ـ وهو نهر حفره يزيد بن معاوية فى لحف جبل قاسيون ، فإذا صار ماء بردى إلى قرية يقال لها دُمَّر افترق على ثلاثة أقسام ، لبردى منه نحو النصف ، ويفترق الباقى نهرين يقال لأحدهما ثورا فى شمالى بردى ، وللآخر باناس فى قبليه ، انظر : شيخ الربوة « شمس الدين أبى عبد الله محمد الدمشقى » « نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر » ص ١٩٤، البدرى « نزهة الأنام » ص ٩٢، ٩٣، د. فاطمة محجوب « الموسوعة الذهبية » ح ٦ ص ٦١٩.

(٨) **بعلبك** : مدينة قديمة فى سهل البقاع على سفح جبل لبنان الشرقى على بعد ٨٥ كم شرقى بيروت ، =

وطرابلس[١] يأوى إليه المسافرون[٢]، وكذلك العالم الدمشقى تقى الدين الحصنى[٣] « ت ٨٢٩هـ » الذى أنشأ خانًا بميدان الحصى[٤] بدمشق[٥].

* أبراج الرباط :

جرت العادة عقب الفتوحات الإسلامية الأولى بتشييد نوع من المبانى العسكرية بالثغور ـ التى هى موضع المخافة من العدو ـ، وعرفت تلك المبانى العسكرية بالربط، وكانت تلك الربط أشبه بالقلاع الحصينة، يرابط فيها حامية لدفع عادية الأعداء، وكان التصميم المعمارى لهذه الربط عبارة عن مبانى ذات تخطيط مستطيل يتألف من صحن أوسط تحيط به أبراج فى الأركان، وبالجانب القبلى للحصن مُصلى، وبالجوانب الأخرى حجرات صغيرة بغير نوافذ للمرابطين، ولا يؤدى إلى الرباط إلا مدخل واحد[٦].

= وفيها أبنية عجيبة وآثار عظيمة، وبعلبك هى إحدى كور جند دمشق البرية، وتزخر بالعديد من المساجد التى ترجع إلى القرنين السادس والسابع الهجريين، انظر: ياقوت الحموى « معجم البلدان » ح ٢ ص ٦٧٣، د. فاطمة محجوب « الموسوعة الذهبية » ح ٧ ص ٢١٥.

(١) **طرابلس** : طرابلس الشام، وردت فى بعض المصادر التاريخية باسم « اطرابلس » بزيادة ألف مهموزة، تمييزًا لها عن مدينة طرابلس الليبية، وطرابلس الشام تقع على شاطئ البحر المتوسط فى منتصف الطريق الساحلى الشرقى للبحر المتوسط بين الأسكندرونة فى الشمال وغزة فى الجنوب، انظر: د. السيد عبد العزيز سالم « طرابلس الشام فى التاريخ الإسلامى » ص ٤، وفاء محمد « ساحل الشام فى العصر المملوكى » ص ٣٥.

(٢) النعيمى « الدارس فى تاريخ المدارس » ح ٢ ص ٢٠٢، محمد أديب « منتخبات التواريخ لدمشق » ص ٥٥٨.

(٣) تقى الدين الحصنى: انظر: ص ٢٤٧.

(٤) **ميدان الحصى** : هو أحد أحياء أربعة تقع جنوب دمشق، وهى « السويقة »، والمُصلى، وميدان الحصى، والقبيبات، أمّا حى ميدان الحصى يقع جنوب حى المُصلى مُباشرة، انظر: أكرم حسن « دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين » ص ٦١.

(٥) البقاعى « عنوان الزمان » ح ١ ص ١٧٦.

(٦) عميد أ.ح. محمود نديم « الفن الحربى للجيش المصرى فى العصر المملوكى » ص ٣٥، د. عاصم محمد « خانقاوات الصوفية » ص ٩٨، دولت عبد الكريم « الخوانق فى مصر » ص ٢٠، د. عفيف البهنسى « الفن الإسلامى » ص ٢٧٣.

ومن علماء القرن التاسع الذين أنشأوا أبراجًا للمرابطة شهاب الدين ابن أرسلان[(١)] « ت ٨٤٤هـ » ، حيث عمّر برجًا للمرابطة بثغر[(٢)] يافا[(٣)] ، كما عمّر العالمان تقى الدين[(٤)] ابن قاضى عجلون « ت ٩٢٨هـ » ، وتقى الدين البلاطنسى[(٥)] « ت ٩٣٦هـ » برجًا للمرابطة ببيروت[(٦)] عام ٨٨٨هـ/١٤٨٣م[(٧)] .

كذلك العالم أبو البركات[(٨)] محمد « ت ٩٣٣هـ » عمّر برجًا للمرابطة ببيروت[(٩)] .

وهناك دور آخر للعلماء فى حركة العمران ، حيث أشارت تعاليم الإسلام[(١٠)] إلى

---

(١) شهاب الدين ابن أرسلان : أحمد بن حسين ، تفقه على شيوخ عصره ، درس وأفتى ، وله مصنفات عديدة ، وهو من كبار علماء القدس ، انظر السخاوى : « الضوء اللامع » ح ١ ص ٢٨٥.

(٢) **يافا** : ميناء هام فيه مرسى السفن الواردة إلى القدس والمُقلعة عنها ، وكان هذا الميناء يستقبل الحجاج المسيحيين فى العصر المملوكى ، انظر : وفاء محمد « ساحل الشام فى العصر المملوكى » ص ٢٨.

(٣) مجير الدين الحنبلى « الأنس الجليل » ح ٢ ص ١٧٤، السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ٢٨٥ ـ ٢٨٨.

(٤) تقى الدين بن قاضى عجلون : انظر : ص ٢٢٠.

(٥) تقى الدين البلاطنسى : محمد بن عبد الله ، تفقه على شيوخ عصره ، حتى صار رأس الشافعية بدمشق ، درس وأفتى ، توفى ٩٣٦هـ ، انظر : ابن المبرد « متعة الأذهان » ص ٢٢٠.

(٦) **بيروت** : مدينة مشهورة على البحر المتوسط ، بينها وبين صيدا ثلاث فراسخ ، تمتعت بازدهار تجارى فى العصر المملوكى ، حيث كانت ميناء دمشق الذى تتوارد إليها خيرات البلاد المجاورة لتصدر عن طريقها ، انظر : وفاء محمد « ساحل الشام » ص ٣٤.

(٧) ابن طوق « يوميات ابن طوق » ح ١ ص ٢٥٢.

(٨) أبو البركات محمد : محمد بن عبد الرحمن ، تفقه على شيوخ عصره ، وكان ملازمًا للرباط ببيروت ، وأنشأ بها برجًا للمرابطة ، توفى عام ٩٣٣هـ ، انظر : ابن طولون « ذخائر القصر » ص ٤٠٤.

(٩) ابن طولون « ذخائر القصر » ص ٤٠٧ ـ ٤١٤.

(١٠) صاغ الفقهاء المسلمين أحكام فقهية تنظم العلاقة بين العمارة والمجتمع والبيئة ، ولقد أُطلق على هذا الفرع من الفقه الإسلامى « فقه العمارة » ، ولقد اعتمد فقهاء المسلمين فى تناولهم لأحكام البنيان على قوله تعالى : ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ ، حيث يفسرون العرف فى هذه الآية بالنسبة لأحكام البنيان بما جرى عليه الناس ، وارتضوه ، ولم يعترضوا عليه ، طالما لا يتعارض ذلك مع القرآن الكريم أو السنة النبوية ، كذلك اعتمد فقهاء المسلمين فى تناولهم لأحكام البنيان على الحديث النبوى =

حق الطريق، وعدم الاعتداء عليه سواء بالبناء، أو باستخدامه بأسلوب يضر بالمارة، وعدم إلقاء الفضلات فيه، فالطريق ملكًا لمجموع الأمة، لا يثبت فيه ملك خاص لأحد[1] .

ومن هنا أجاز علماء العصر المملوكى ـ فى القرن التاسع ـ أمثال جلال الدين السيوطى[2] « ت ٩١١هـ »، وزكريا الأنصارى[3] « ت ٩٢٦هـ » هدم ما أُنشِئ فى الطرقات من أبنية بغير طريق شرعى[4] .

كما ذكرت المصادر التاريخية عام ٨٤٦هـ/١٤٤٢م أن السلطان جقمق[5] استفتى العلماء فى أمر الطرقات بتوسيعها، وهدم ما أُنشئ فيها من أبنية بغير طريق شرعى، فأجاز العلماء له ذلك[6] .

ولقد تكرر هذا المشهد عام ٨٨٢هـ/١٤٧٧م، حيث كلف السلطان قايتباى القاضى[7]

= الوارد عن الرسول ﷺ « لا ضرر ولا ضرار »، وهو أحد الأحاديث الخمسة التى يقوم عليها الفقه الإسلامى، لمزيد من الإيضاح، انظر: خالد عزب « دور الفقه الإسلامى فى العمارة المدنية فى مدينتى القاهرة ورشيد فى العصرين المملوكى والعثمانى » ص١٢ ـ ١٤، ماجستير، كلية آثار القاهرة، ١٩٩٥م.

(١) ابن حامد المقدسى « ت ٨٩٣هـ » « الفوائد النفيسة الباهرة فى بيان حكم شوارع القاهرة فى مذاهب الأئمة الأربعة الزاهرة » ص ١، تحقيق د. أمال العمرى، سلسلة الثقافة الأثرية والتاريخية « مشروع المائة كتاب » (١٠)، عام ١٩٨٨م، خالد عزب « دور الفقه الإسلامى فى العمارة المدنية » ص ٢٩، د. صبرى السعداوى « الطرق العامة وحمايتها فى الفقه الإسلامى » ص ٦٧٠، مجلة كلية الشريعة والقانون، جامعة الأزهر، عدد (٢٨) عام ٢٠٠٤م.

(٢) جلال الدين السيوطى: انظر: ص ١٦٤.

(٣) زكريا الأنصارى: انظر: ص ٢١٩.

(٤) جلال الدين السيوطى « الحاوى للفتاوى » ص ١٣٣، زكريا الأنصارى « فتاوى زكريا الأنصارى » ص ١٠٦.

(٥) جقمق: سبق التعريف به بالفصل الأول، اتظر: ص ١١ .

(٦) ابن شاهين « الروض الباسم » ص ٦٤، ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٩ ص ١٨١.

(٧) قايتباى: سبق التعريف به بالفصل الأول، انظر: ص ٢٢ .

فتح الدين السوهاجى[1] بهدم ما أُنشِئ فى شوارع القاهرة بغير طريق شرعى من أبنية ورباع وحوانيت ومصاطب وغيرها ، ولقد تم الهدم فعلاً[2] .

***

(١) فتح الدين السوهاجى : هو أحد نواب الحكم لقاضى قضاة الشافعية آنذاك ، انظر : ابن شاهين « نيل الأمل » ح ٧ ص ١٨٨.

(٢) أبى حامد المقدسى « ت ٨٩٣هـ » « الفوائد النفيسة الباهرة » ص ٤، ابن شاهين « نيل الأمل » ح ٧ ص ١٨٨، ١٩٤.

الفصل الخامس

العلماء والحياة الدينية بمصر والشام

نقاط الفصل الخامس

١ ـ العلماء ومحاربة الطوائف المنحرفة :

أ ـ مبتدعة الصوفية [التصوف الفلسفى ، تصوف الدراويش] .

ب ـ العلماء والزنادقة .

جـ ـ العلماء وغلاة الشيعة .

٢ ـ العلماء ومحاربة البدع :

أ ـ الاعتقاد فى التنجيم والسحر والجان .

ب ـ البدع المرتطبة بالقبور .

جـ ـ بدعة خروج النساء إلى المساجد متبرجات .

د ـ بدعة صلاة الرغائب .

هـ ـ البدع المتعلقة بالنكاح .

و ـ بدعة مشاركة المسلمين أهل الذمة الاحتفال بأعيادهم .

٣ ـ العلماء والمجالس الدينية ووعظ السلطة المملوكية :

أ ـ العلماء والمجالس الدينية للمصريين والشاميين .

ب ـ العلماء ووعظ السلطة المملوكية « وعظ دينى » .

٤ ـ العلماء والمحن والابتلاء « الجفاف ، الطاعون » :

أ ـ حث العلماء السلطة والرعية على التوبة من المعاصى .

ب ـ التضرع إلى الله والدعاء والصلاة « صلاة الاستسقاء » لرفع البلاء .

٥ ـ العلماء وأهل الذمة :

أ ـ العلماء ومسألة الكنائس .

ب ـ العلماء واستعمال أهل الذمة بالجهاز الإدارى للدولة .

جـ ـ العلماء وملابس أهل الذمة .

١ ـ العلماء ومحاربة الطوائف المنحرفة

شهدت مصر والشام ـ فى القرن التاسع الهجرى ـ طوائف منحرفة حاولت القدح فى الإسلام وثوابته، ولكن علماء مصر والشام تصدوا بحزم وقوة لتلك الطوائف، ويمكن تقسيم تلك الطوائف إلى ثلاث طوائف رئيسية، مبتدعة الصوفية، والزنادقة، وغلاة الشيعة.

أ ـ العلماء ومبتدعة الصوفية :

ازدهر التصوف بمصر والشام(*) فى العصر المملوكى(١)، وكان من مظاهر هذا الازدهار اعتناق كثير من علماء مصر والشام للتصوف السنّى(٢)، أمثال :

(*) يرجع ازدهار التصوف بمصر والشام عصر سلاطين المماليك إلى عناية سلاطين المماليك بأمر الصوفية والتصوف فنجدهم يشاركون عامة الشعب الاعتقاد فى مشايخهم وأوليائهم والعطف عليهم، فينشئون الكثير من البيوت التى خصصت لهم كالخوانق والزوايا، ويوقفون عليها الأوقاف الكثيرة، كذلك وجد المصريون والشاميون ملاذًا فى التصوف من الضيق والبؤس وحياة القهر والظلم التى عاشوها فى ظل حكم المماليك حيث انقطعوا للعبادة وآثروا الزهد، وفى ذات الوقت وجدوا فى التصوف مستقرًا ينعمون فيه بما يضمن لهم البقاء من خلال ما كان يصرف على الصوفية من ريع الأوقاف التى أوقفها سلاطين المماليك على الصوفية، انظر : غادة سيد «وثائق الأوقاف على مقام السيد البدوى : دراسة دبلوماتية» ص ٢٠، ٢١، ماجستير، «قسم الوثائق»، آداب القاهرة، ٢٠٠٣م، د. سعود محمد «الحياة الثقافية بدمشق» ص ٣٤٣.

(١) د. سعيد عاشور «مصر فى عصر دولة المماليك البحرية» ص ١٨٦، د. نقولا زيادة «دمشق فى عصر المماليك» ص ١٢٦، د. سعود محمد «الحياة الثقافية بدمشق» ص ٣٤٣، غادة سيد «وثائق الأوقاف على مقام السيد البدوى» ص ٢٠، د. على منصور «الحياة العلمية فى القدس فى القرن الثامن فى ضوء كتاب «الدرر الكامنة» لابن حجر» ص ٣٦، حولية الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة الكويت، العدد (٢٢) عام ١٤٢١ـ١٤٢٢هـ/٢٠٠٠ـ٢٠٠١م.

(٢) التصوف السنّى : هو التصوف الذى يتمشى مع الكتاب والسنّة النبوية، ويرمى إلى الزهد والتقشف وتهذيب النفس وإصلاح أخلاقها، ومن أبرز أعلام هذا التصوف الغزالى «ت ٥٠٥هـ» الذى أرسى =

«**من علماء مصر**» ، برهان الدين البيجورى[1] «ت ٨٢٥هـ»[2] ، وسراج الدين أبو حفص[3] «ت ٨٢٩هـ»[4] ، وزين الدين القلمطاوى[5] «ت ٨٥٦هـ»[6] ، والشهاب أبو العباس القنائى[7] «ت ٨٥٨هـ»[8] ، وشهاب الدين الأبشيطى[9] «ت ٨٨٣هـ»[10] .

= قواعد التصوف السنّى فى موسوعته «إحياء علوم الدين» ، انظر : الواسطى «محمد بن عمر «ت ٨٤٩هـ»» «قواعد الصوفية» ص ٥، ٧، مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (٢٦٢ تصوف) ، ومكروفيلم (٣٢٥٩٠) ، د. محمد حسن «المصطلح الصوفى عند ابن عربى» ص ١١٥، مجلة كلية دار العلوم ، القاهرة ، العدد (٣٠) عام ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م ، توفيق بن عامر «مواقف الفقهاء من الصوفية فى الفكر الإسلامى» ص ٣٢، حولية الجامعة التونسية ، كلية الآداب ، عدد (٣٩) عام ١٩٩٥م ، د. محيى الدين صافى «بحث فى التصوف الإسلامى والتجارب الروحية الأخرى» ص ٢١٦، بحث نضر ضمن أعمال المؤتمر الدولى الأول للفلسفة الإسلامية ، دار العلوم ، القاهرة ، ١٩٩٦م ، د. أمين يوسف «فى أصل مصطلح التصوف» ص ١٢٨، مجلة البحوث والدراسات الصوفية ، عدد (١) جمادى الآخرة ، ١٤٢٤هـ ، أغسطس ٢٠٠٣م .

(١) برهان الدين البيجورى : إبراهيم بن أحمد ، تفقه على شيوخ عصره ، برع فى الفقه ، وكان من كبار علماء الشافعية فى عصره ، درس وأفتى ، توفى عام ٨٢٥هـ ، انظر : السخاوى «الضوء اللامع» ح ١ ص ١٧.

(٢) ابن تغرى «النجوم الزاهرة» ح ١٤ ص ٢٩١، السخاوى «الضوء اللامع» ح ١ ص ١٧.

(٣) سراج الدين أبو حفص : عمر بن على ، تفقه على شيوخ عصره ، برع فى الفقه والتفسير ، درس وأفتى ، انتهت إليه رئاسة الحنفية فى عصره ، توفى عام ٨٢٩هـ ، انظر : ابن تغرى «المنهل الصافى» ح ٨ ص ٣٠٤.

(٤) ابن تغرى «المنهل الصافى» ح ٨ ص ٣٠٤، ابن حجر «إنباء الغمر» ح ٨ ص ١١٥.

(٥) زين الدين القلمطاوى : هو عمر بن قديد ، تفقه على شيوخ عصره ، درس وبرع فى العربية ، توفى عام ٨٥٦هـ ، انظر : ابن تغرى «المنهل الصافى» ح ٨ ص ٣١٢.

(٦) ابن تغرى «المنهل الصافى» ح ٨ ص ٣١٢، السخاوى «الضوء اللامع» ح ٦ ص ١١٣.

(٧) الشهاب أبو العباس : أحمد بن عباد ، تفقه على شيوخ عصره ، درس ، توفى عام ٨٥٨هـ ، انظر : السخاوى «الضوء اللامع» ح ١ ص ٣٢٠.

(٨) السخاوى «الضوء اللامع» ح ١ ص ٣٢٠.

(٩) شهاب الدين الأبشيطى : أحمد بن إسماعيل ، تفقه على شيوخ عصره ، درس ، توفى ٨٨٣هـ ، انظر : السخاوى «الضوء اللامع» ح ١ ص ٢٣٥، البقاعى «عنوان الزمان» ح ١ ص ٥٨.

(١٠) البقاعى «عنوان الزمان» ح ١ ص ٥٨، السخاوى «الضوء اللامع» ح١ ص ٢٣٥.

« **من علماء دمشق** » ، تقى الدين الحصنى[١] « ت ٨٢٩هـ »[٢] ، وابن عروة[٣] « ت ٨٣٧هـ »[٤] ، والزين أبو الفرج[٥] « ت ٨٤٤هـ »[٦] ، وزين الدين ابن داود[٧] « ت ٨٥٦هـ »[٨] .

« **من علماء حلب** » ، أبو بكر بن نصر[٩] « ت ٨٤٦هـ »[١٠] ، وشهاب الدين أبو العباس[١١] « ت ٨٧٢هـ »[١٢] .

« **من علماء القدس** » شهاب الدين ابن رسلان[١٣] « ت ٨٤٤هـ »[١٤] ، والزين

---

(١) تقى الدين الحصنى : أبو بكر بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، برع فى علم الفقه ، توفى ٨٢٩هـ ، انظر : ابن شهبة « طبقات الشافعية » حـ٢ ص ٣٠٨.

(٢) المقريزى « العقود الفريدة » حـ١ ص ١٨٢.

(٣) ابن عروة : على بن حسين ، تفقه على شيوخ عصره ، برع فى علم الحديث ، توفى عام ٨٣٧هـ ، انظر : المقريزى « درر العقود » حـ٢ ص ٤٨٢.

(٤) ابن عبد الهادى « ذيل ابن عبد الهادى » ص ٦٢.

(٥) الزين أبو الفرج : عبد الرحمن بن سليمان ، تفقه على شيوخ عصره ، كان بارعًا فى الفقه والتفسير ، توفى عام ٨٤٤هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » حـ٤ ص ٨٢.

(٦) السخاوى « الضوء اللامع » حـ٤ ص ٨٢.

(٧) زين الدين ابن داود : عبد الرحمن بن أبى بكر ، تفقه على شيوخ عصره ، وكان زاهدًا ، آمرًا بالمعروف وناهيا عن المنكر ، توفى عام ٨٥٦هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » حـ٤ ص ٦٢، النعيمى « الدارس فى تاريخ المدارس » حـ٢ ص ٢٠٢.

(٨) السخاوى « الضوء اللامع » حـ٤ ص ٦٢.

(٩) أبو بكر بن نصر : أبو بكر بن نصر ، تفقه على شيوخ عصره ، كان عالمًا زاهدًا ورعًا ، من علماء حلب ، توفى عام ٨٤٦هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » حـ١١ ص ٩٦.

(١٠) السخاوى « الضوء اللامع » حـ١١ ص ٩٦.

(١١) شهاب الدين أبو العباس : أحمد بن أبى بكر ، تفقه على شيوخ عصره ، انتهت إليه رئاسة العلم بحلب فى زمانه ، درس وأفتى ، توفى ٨٧٢هـ ، ابن تغرى « المنهل الصافى » حـ١ ص ٢٢٤.

(١٢) ابن طولون « الغرف العلية فى تراجم الحنفية » ص ٩٠، ابن تغرى « المنهل الصافى » حـ١ ص ٢٢٤.

(١٣) شهاب الدين ابن أرسلان : أحمد بن حسين ، تفقه على شيوخ عصره ، حتى صار إمامًا فى الفقه والتفسير والحديث بالقدس ، توفى عام ٨٤٤هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » حـ١ ص ٢٨٥.

(١٤) البقاعى « عنوان الزمان » حـ١ ص ٦٧، السخاوى « الضوء اللامع » حـ١ ص ٢٨٥.

أبو الجود[١] « ت ٨٦٧هـ »[٢] .

ولكن ظهر إلى جانب هذا التصوف السنّى تصوف بدعى ، ولقد أخذ هذا التصوف البدعى شكلين رئيسيين ، أولهما التصوف الفلسفى ، وثانيهما تصوف الدراويش والمجاذيب ، ولقد حارب علماء مصر والشام هذين الشكلين من التصوف البدعى .

* العلماء والتصوف الفلسفى :

لقد جاء التصوف الفلسفى بأراء ونظريات اصطدمت مع العقيدة ، كنظرية وحدة الوجود[٣] ، ولقد كانت تلك النظريات خليط من الفلسفات الهيلينية والفكر الشيعى ، والغنوصية المسيحية ، وكان من رواد هذا الاتجاه ابن عربى[٤] « ت ٦٣٨هـ » ، وابن الفارض[٥]

---

(١) الزين أبو الجود : ماهر بن عبد الله ، تفقه على شيوخ عصره ، كان شيخ الشافعية ببيت المقدس ، توفى عام ٨٦٧هـ ، انظر : السخاوى « وجيز الكلام » ح٢ ص ٧٥٣.

(٢) السخاوى « وجيز الكلام » ح٢ ص ٧٥٣.

(٣) **وحدة الوجود :** ترى هذه النظرية أن ذات الله عزّ وجلّ قد حلت فى مخلوقاته ، واتحدت بها ، يعنى أنه ليس ثمة إلا كائن واحد موجود حقيقة وضرورة بل هو الوجود كله ، ولا تسمى الكائنات الأخرى موجودات إلا بضرب من التوسع والمجاز ، انظر : د. مصطفى حلمى « ابن تيمية والتصوف » ص ١٩٩، دار الدعوة ، الإسكندرية ، ١٤١٢هـ ، د. عبد اللطيف محمد العبد « موسوعة المفاهيم الإسلامية العامة » ص ٥٧٥، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ، ٢٠٠٠م .

(٤) ابن عربى : أبو بكر بن محمد ، ولد بمرسية من أعمال الأندلس ، نشأ فى أسرة متصوفة ، طاف بالأندلس ، وزار شمال إفريقيا ، وآسيا الصغرى ، ثم رحل لدمشق ، وأقام بها حوالى عشرين سنة ، صاغ نظرية فى التصوف فى كتابيه « فصوص الحكم » ، و « الفتوحات المكية » ، توفى ٦٣٨هـ ، انظر : جان شوفيلى « التصوف والمتصوفة » ص ٦١، ترجمة عبد القادر قنينى ، دار إفريقيا الشرق ، بيروت ، ١٩٩٩م ، د. نقولا زيادة « دمشق فى عصر المماليك » ص ١٩٠.

(٥) ابن الفارض : أبو القاسم عمر ، ولد بالقاهرة عام ٥٦٧هـ ، لُقب بـ « سلطان العاشقين » ، صاغ نظريته فى التصوف فى قصيدته « نظم السلوك » المسماة بـ « التائية الكبرى » ، وهى تحتوى على ٧٦١ بيتًا ، توفى ٦٣٢هـ ، انظر : جوزيف سكاتولين « عمر بن الفارض وحياته الصوفية » ص ٣٧٠، مجلة المشرق ، السنة ٦٧، عام ١٩٩٣م .

« ت ٦٣٢هـ »[1] .

ولقد صدرت الفتاوى من علماء مصر والشام بكفر ابن عربى وابن الفارض والقائلين بآرائهم .

« **من علماء مصر** » ـ على سبيل المثال ـ سراج الدين البقلينى[2] « ت ٨٠٥هـ »[3] ، وسعد الدين الديرى[4] « ت ٨٦٧هـ »[5] ، وابن حجر العسقلانى[6] « ت ٨٥٢هـ »[7] ، وبدر الدين العينى[8] « ت ٨٥٥هـ »[9] ، وولى الدين العراقى[10] « ت ٨٢٦هـ »[11] .

---

(١) د. مصطفى حلمى « ابن تيمية والتصوف » ص ١٩٩، جان شوفيلى « التصوف والمتصوفة » ص ٦١، د. محمد حسن « المصطلح الصوفى عند ابن عربى » ص ١١٦، د. عثمان إسماعيل « خطبة الفتوحات المكية لابن عربى » ص ١٣٧، مجلة المشرق ، السنة ٦٤، عام ١٩٧٠م ، جوزيف سكاتولين « عمر بن الفارض وحياته الصوفية » ص ٣٧٨.

(٢) سراج الدين البلقينى : عمر بن رسلان ، تفقه على شيوخ عصره ، درس ، وأفتى ، توفى ٨٠٥هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح٦ ص ٨٥.

(٣) المقبلى « صالح بن مهدى ـ من علماء القرن الحادى عشر ـ » « العلم الشامخ فى إيثار الحق على الأباء والمشايخ » ص ٩٨، مخطوطة بدار الكتب برقم (٢٤٠٢ تصوف) ، عبد الرحمن الوكيل « مصرع التصوف » ص ١٧٦، ٢١٥، مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة ، ١٣٧٢هـ/١٩٥٣م .

(٤) سعد الدين الديرى : سعد بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، حتى صار راس المذهب الحنفى فى عصره ، ولى قضاء مصر ، توفى ٨٦٧هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح٤ ص ٢٥٠.

(٥) عبد الرحمن الوكيل « مصرع التصوف » ص ٢١٦.

(٦) ابن حجر العسقلانى : أحمد بن على ، تفقه على شيوخ عصره ، ولى قضاء مصر على المذهب الشافعية ، توفى ٨٥٢هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح٢ ص ٣٨.

(٧) عبد الرحمن الوكيل « مصرع التصوف » ص ١٧٦، ٢١٦.

(٨) بدر الدين العينى : محمود بن أحمد ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء الحنفية بمصر ، توفى ٨٥٥هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح١٠ ص ١٣١.

(٩) عبد الرحمن الوكيل « مصرع التصوف » ص ٢١٦.

(١٠) ولى الدين العراقى : أحمد بن عبد الرحيم ، تفقه على شيوخ عصره ، برع فى علم الحديث ، توفى عام ٨٢٦هـ ، انظر : المقريزى « درر العقود » ح ١ ص ٣٠٩.

(١١) عبد الرحمن الوكيل « مصرع التصوف » ص ١٣٥.

و « **من علماء دمشق** » ـ على سبيل المثال ـ شمس الدين البلاطنسى[(١)] « ت ٨٦٣هـ »[(٢)] ، وبرهان الدين الدمشقى[(٣)] « ت ٨٢٥هـ »[(٤)] ، وتقى الدين[(٥)] ابن قاضى عجلون « ت ٩٢٨هـ »[(٦)] .

وكذلك قام علماء مصر والشام بتصنيف المؤلفات العلمية للرد على أراء ابن عربى الباطلة من القول بالحلول والاتحاد[(٧)] .

« **فمن علماء مصر** » ، صنّف شمس الدين السخاوى[(٨)] « ت ٩٠٢هـ » كتابه « القول

---

(١) شمس الدين البلاطنسى : محمد بن عبد الله ، تفقه بشيوخ عصره ، درس ، وأفتى ، توفى ٨٦٣هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ج ٨ ص ٨٦.

(٢) عبد الرحمن الوكيل « مصرع التصوف » ص ٢١٧.

(٣) برهان الدين الدمشقى : إبراهيم بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، درس بدمشق ، وناب فى قضاء الشافعية بها ، توفى عام ٨٢٥هـ ، انظر : ابن قاضى شهبة « طبقات الشافعية » ج ٢ ص ٣٠٦.

(٤) ابن شاهين « المعجم المفنن » ص ٣٥.

(٥) تقى الدين ابن قاضى عجلون : أبو بكر بن عبد الله ، تفقه بشيوخ عصره ، انتهت إليه مشيخة الإسلام ورئاسة الشافعية بدمشق ، توفى عام ٩٢٨هـ ، انظر : الغزى « الكواكب السائرة » ص ١١٥.

(٦) الغزى « الكواكب السائرة » ص ١١٥.

(٧) إن مذهب وحدة الوجود الذى قرره ابن عربى فى كتابيه « الفصوص » ، و « الفتوحات المكية » فى صورته النهائية ، ووضع له مصطلحًا صوفيًا كاملاً ، استمده من كل مصدر وسعه أن يستمد منه كالقرآن ، والحديث ، والفلسفة المشائية ، والفلسفة الأفلاطونية ، والغنوصية المسيحية ، ونظرية « اللوغوس » «Logos» لدى فيلون الإسكندرى ، كما انتفع بمصطلحات الإسماعيلية الباطنية ، والقرامطة ، وإخوان الصفا ، ولكنه صبغ هذه المصطلحات جميعها بصبغته الخاصة ، وأعطى لكل منها معنى جديدًا يتفق مع روح مذهبه العام فى وحدة الوجود ، انظر : ابن عربى « خطبة الفتوحات المكية » ص ١٣٤ـ ١٣٧ ، تحقيق د. عثمان إسماعيل ، مجلة المشرق ، السنة (٦٤) ، عام ١٩٧٠م ، د. محمد حسن « المصطلح الصوفى عند ابن عربى » ص ١٢٥ ، جان شوفيلى « التصوف والمتصوفة » ص ٦٥.

(٨) شمس الدين السخاوى : محمد بن عبد الرحمن ، تفقه على شيوخ عصره ، درس وصنف مؤلفات عدة ، برع فى علم الحديث ، ولد عام ٨٣١هـ ، توفى ٩٠٢هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ج ٨ ص ٢.

المُنبى عن ترجمة عربى »[*] للرد على أراء ابن عربى الباطلة[١]، كما صنّف علاء الدين البخارى[٢] « ت ٨٤١هـ » رسالة سمّاها « فاضحة الملحدين وناصحة الموحدين فى الرد على المحيوى ابن العربى »، هاجم فيها أراء ابن عربى[٣].

أمّا جلال الدين السيوطى[٤] « ت ٩١١هـ » فقد صنّف ـ فى البداية ـ كتابه « تنبئة الغبى بتبرئة ابن عربى »[*]، ذكر فيه أنه لا يجب تكفير ابن عربى لاحتمال دس بعض الكلام فى كتبه، فضلًا هل قصد ابن عربى بكلامه المعنى المتعارف عليه، وهذا لا طريق لإثباته، ولذلك يجب السكوت فى أمره، مع عدم تداول كتب ابن عربى وإقرائها للمريدين[٥]،

(*) هذا الكتاب مخطوط ببرلين برقم (Spr ٢٨٤٩)، كما يذكر الدكتور أحمد الطيب، ولقد أحصى الدكتور أحمد فى ذلك الكتاب (١٣٨) فتوى أصدرها الفقهاء ضد ابن عربى، وضد كتبه وأفكاره، وذلك فى مقابل (٣٣) فتوى فقط تدافع عنه، ولقد اطلع الباحث أحمد عبد الله على ذلك الكتاب ـ بألمانيا ـ، فوجده منصبًا على مناقشة ابن عربى فى آرائه، حيث يقول فى المقدمة « فهذا الكتاب مرشد ـ إن شاء الله ـ للصواب، جمعت فيه من الألفاظ والنصوص المنتقد بها صاحب الفتوحات والفصوص ...»، ثم يخلص فى نهاية الكتاب إلى نتيجة نهائية بصدد هذه الآراء والقائلين بها حيث يقول « فإن أرادوا بالحلول والاتحاد ما ذكرناه، فقد ظهر بطلانه، وإن أرادوا غيره فلابد من البيان ليتمكن الإثبات أو النفى »، لهذا فالكتاب مناقشة عقائدية، وليس ترجمة بالمعنى المفهوم للترجمة، انظر: أحمد عبد الله « الذيل التام على دول الإسلام للسخاوى » ص ٤٢، ماجستير، آداب عين شمس، ١٩٦٨م، د. أحمد الطيب « دراسات الفرنسيين عن ابن عربى » ص ٣٧١، بحث ضمن أعمال المؤتمر الدولى الأول للفلسفة الإسلامية، كلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة، ١٩٩٦م.

(١) أحمد عبد الله « الذيل التام على دول الإسلام للسخاوى » ص ٤٢.

(٢) علاء الدين البخارى: على بن محمد البخارى، من كبار علماء الهند، رحل إلى مصر فى العصر المملوكى، واستقر بها فترة، توفى ٨٤١هـ، انظر: ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٩ ص ٢٣.

(٣) ابن طولون « المعزة فيما قيل فى المزة » ص ٤.

(٤) جلال الدين السيوطى: انظر: ص ١٦٤.

(*) لقد ذكر السيوطى هذا الكتاب فى كتابه « التحدث بنعمة الله »، تحت قسم ما ألفه السيوطى فى واقعات الفتاوى، انظر: السيوطى « التحدث بنعمة الله » ص ١٢٤.

(٥) السيوطى « تنبئة الغبى بتبرئة ابن عربى » ص ٤٢، ٤٣، ٤٥، ٤٧، تحقيق محمد إبراهيم، دار العلم والثقافة، القاهرة، ١٩٩٥م.

ولكن السيوطى عقب ذلك[1] هاجم ابن عربى ، وقال عنه أنه « شيخ سوء كذاب » ، وهاجم أفكاره[2] .

أمّا علماء الشام ، فلقد صنّف عالم دمشق برهان الدين البقاعى[3] « ت ٨٨٥هـ » « تنبيه الغبى إلى تكفير ابن عربى » ، و « تحذير العباد من أهل العناد ببدعة الاتحاد »[4] ، ورسالته « الرد على فصوص ابن عربى »[5] ، حيث دحض البقاعى فى تلك المؤلفات آراء ابن عربى

---

(١) حيث توجد رسالة للسيوطى تحت عنوان « قضية جرت بين السيوطى وبين رجل من أهل الاتحاد » ، بدار الكتب المصرية برقم (٢٥٠٠ تصوف) ، ومكروفيلم برقم (٤٠٩١٠) ، هاجم فيها السيوطى ابن عربى .

(٢) السيوطى « قضية جرت بين السيوطى ورجل من أهل الاتحاد » ص ٣، مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (٢٥٠٠) تصوف .

(٣) برهان الدين البقاعى : إبراهيم بن عمر ، تفقه على شيوخ عصره ، برع فى علوم كثيرة مثل التفسير ، وعلم الحديث ، وصنف مؤلفات عديدة ، توفى ٨٨٥هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ١٠١، « موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين » ح ٣ ص ٦٧٧، دار الجيل ، بيروت ، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م .

(٤) قام عبد الرحمن الوكيل بنشر هذين الكتابين « تنبيه الغبى » ، و « تحذير العباد » فى مجلد واحد بعنوان « مصرع التصوف » ، وكان منهج البقاعى فى هذين الكتابين لنقد ابن عربى يقوم على أمرين ، أولهما نقل نصوص كثيرة من « فصوص الحكم » لابن عربى ، وعن « التائية الكبرى » لابن الفارض ، ثم يعلق البقاعى على هذه النصوص ، ويكشف عما فيها من مجافاة لروح التوحيد ، وثانيهما : ذكر فتاوى كبار علماء القرن السابع والثامن والتاسع الهجرى التى هاجمت وكفّرت ابن عربى ، انظر : عبد الرحمن الوكيل « مصرع التصوف » ص ١٠، ١١، ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤٢، ٤٥، ٥٢، ٦٦، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٩، ٢٢١، ٢٢٦، ٢٤٩، مطبعة السنّة المحمدية ، القاهرة ، ١٣٧٢هـ/١٩٥٣م .

(٥) هذه الرسالة مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (٥١ مصورات زكية) ، ومكروفيلم (٦٠١٩٤) ، ذكر فى مقدمتها أن الهدف من تأليفها الرد على ترهات ابن عربى وتنزيه الله ـ عزّ وجلّ ـ وذاته سبحانه من عقائد الاتحاد ، والمنهج الذى اتبعه فى نقد آراء ابن عربى هو نقل كلام ابن عربى الذى ورد فى « فصوص الحكم » كما هو ، ثم يقوم بتحليل ومناقشة كلامه الذى يحتاج إلى متخصص فى العلوم الشرعية والفلسفية ـ التى يتميز فيها البقاعى ـ ، أى محاربة آراء ابن عربى بدراسة عقائده جيدًا ، ثم الرد عليها بالقرآن والسنّة من موقع القوة الفكرية للتدليل على فساد عقائده ، وهو بذلك يشابهه إلى حد كبير شيخه الحنبلى ابن تيمية « ت ٧٢٨هـ » ، الذى حارب التصوف الفلسفى عن طريق دراسة العقائد الصوفية الفلسفية جيدًا ، ثم قام بالرد عليها بالقرآن والسنّة من موقع القوة الفكرية للتدليل على خطأ هؤلاء ، =

وأبان اصطدامها بالعقيدة الصحيحة[1] .

وكذلك صنف عالم القدس سراج بن مسافر[2] « ت ٨٥٦هـ » كتابًا للرد على أباطيل ابن عربى[3] .

وهكذا تصدى علماء مصر والشام لذلك التصوف الفلسفى الذى جاء بآراء ونظريات اصطدمت مع العقيدة الإسلامية كنظرية وحدة الوجود، حيث أصدروا الفتاوى العديدة ضد القائلين بهذه النظريات والذين كان من أبرزهم ابن عربى، وابن الفارض، وأوضحوا فى تلك الفتاوى مدى فساد عقيدة رواد هذه الأفكار؛ حتى ينفض الناس عنهم ولا يتأثروا بأفكارهم، كما قاموا بتصنيف المؤلفات العلمية التى تفند الآراء والأفكار التى دعا إليها هؤلاء المتصوفة، وتوضح مدى اصطدامها مع العقيدة الإسلامية الصحيحة، وتبين صلة تلك الأفكار بالفلسفات الهيلينية والفكر الشيعى، والغنوصية المسيحية. فكانوا حقًا حراس للعقيدة الإسلامية ضد ترهات التصوف الفلسفى الذى يمكن أن يميل إليه العامة من المصريين والشاميين، فيفسد عليهم عقيدتهم .

= انظر: البقاعى « رسالة فى الرد على فصوص ابن عربى » ص ١، ٢، مخطوطة بدار الكتب المصرية، برقم (٦٠١٩٤)، ابن تيمية « مجموع لابن تيمية » ص ٣٨٤ ـ ٣٩٣، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٢٠٥٤٥ب) ومكروفيلم (٢١١٤٣)، محمد ماهر « تطور الفكر الكلامى فى بلاد الشام منذ مطلع القرن الرابع عشر الهجرى »، ص ٢٣، دكتوراة، دار العلوم، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م .

(١) البقاعى « رسالة فى الرد على فصوص ابن عربى » ص ١، ٢، عبد الرحمن الوكيل « مصرع التصوف » ص ١٠، ١١، ١٩، ٤٠، ٦٦، ٢١٤، ٢٢١، ٢٢٦، ٢٤٩.

(٢) سراج بن مسافر: تفقه على شيوخ عصره، وكان من كبار علماء القدس، ودرس بها، توفى ٨٥٦هـ، انظر: السخاوى « الضوء اللامع » ح ٣ ص ٢٤٣.

(٣) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٣ ص ٢٤٣.

* العلماء وتصوف الدراويش(*) والمجاذيب :

لقد كان تصوف الدراويش والمجاذيب(١) فى العصر المملوكى يقوم بالابتداع والزيادة فى التشريع ، والانحراف بالعقيدة الإسلامية عن طريق الغلو فى المشايخ والأولياء(٢) وإثبات الكرامات(٣) الوهمية(٤) لهم ـ كالزواوى المجذوب المصرى « ت ٨٣٥هـ »(٥) ، وشهاب الدين الحسبانى الدمشقى ـ المعروف بابن هلال « ت ٨٢٤هـ »(٦) ـ ، أولئك الأولياء الذين

(*) **درويش :** تحريف لكلمة درفيش الفارسية ، وهى بمعنى الفقير ، ولكنه بالمعنى الصوفى ، أى ذلك الذى لا يجد غير الله ولا يستغنى إلا به ، وهذا الفقير ليس له إلا شيخه يضعه نصب عينيه ، ويبصر فيه ، انظر : د. رفيق العجم « موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامى » ص ٧٢٥، مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت ، ١٩٩٩م .

(١) أطلق على هؤلاء الدراويش المجاذيب فى مصر لقب « الحرافيش » ، بينما أطلق عليهم فى دمشق لقب « الفقراء » ، انظر : د. آدم صبرة « الفقر والإحسان فى مصر » ص ٣٨ ـ ٤٠، أحمد غسان سبانو « دمشق مقالات مجموعة » ص ١٣٦، دار قتيبة ، « سلسلة دراسات ووثائق دمشق الشام » (٥) ، ١٩٨٥م .

(٢) **الأولياء :** الأولياء فى الإسلام هم الذين آمنوا وكانوا يتقون ، والذين كانوا فى حياتهم عبادًا مخلصين ، قال تعالى : ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس : ٦٢ ـ ٦٣] ، أمّا الأولياء عند العامة أو فى المعتقد الشعبى هم قوم من الصالحين ـ حقيقة أو زعمًا ـ من الأموات أو الأحياء خصهم الله بقوى وقدرات خاصة خارقة للطبيعة ، ويعتقد فيهم العامة القدرة على النفع والضر ، ويعتقد العامة أن حماية الولى وبركته تظل تشملهم حتى بعد وفاته ، طالما أنهم يلتزمون بأداء ما عليهم من التزامات وواجبات تجاهه ، تتمثل فى الزيارة ، والمولد ، والنذر ، انظر : غادة السيد « وثائق الأوقاف على مقام السيد البدوى » ص ٢٩، ٣٠.

(٣) **الكرامة :** الكرامة لاحقة بمعجزات نبينا محمد ﷺ لأن كل من ليس بصادق فى الإسلام تمتنع عليه الكرامات ، فكل نبى ظهرت له كرامة على واحد من أمته ، فهى معدودة من جملة معجزاته إذ لو لم يكن ذلك الرسول صادقًا لم تظهر على من تابعه المعجزة يعنى التى هى الكرامة لهذا الواحد ، انظر : د. رفيق العجم « موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامى » ص ٧٧٩.

(٤) كادّعاء هؤلاء الصعود إلى السماء ، ومعرفتهم ما فى أرحام النساء وغير ذلك ، انظر : السيوطى « قضية جرت بين السيوطى ورجل من أهل الاتحاد » ص ٦، ٧، ابن إياس « بدائع الزهور » ح ٢ ص ٢٨.

(٥) أحمد صبحى « العقائد الدينية » ص ٢٧٤.

(٦) د. سعود محمد « الحياة الثقافية فى دمشق » ص ٣٤٨.

وصفتهم المصادر التاريخية بأنهم صاروا كسقط المتاع لا ينسبون إلى علم ولا ديانة[1].

كذلك نسبت المصادر التاريخية لهؤلاء الدراويش والمجاذيب كثيرًا من المنكرات، والتى منها، أنهم كانوا يثقبون آذانهم ويوصلون شعورهم ويضعون الأطواق فى أعناقهم تبعًا لشيوخهم[2]، وكذلك ما كانوا يقومون به فى المساجد والزوايا من السماع[3] والرقص وضرب الدف وغير ذلك من المنكرات[4]، فضلًا على إحياء موالد الأولياء التى بها قبر الولى، ولقد كانت تلك الموالد يحدث بها المنكرات من تهتك وفضائح خلقية[5]، كما عرف عن هؤلاء الدراويش تعاطيهم الحشيش بشراهة[6].

---

(١) الشعرانى «رسالته فيمن يدعى المشيخة والولاية» ص ٢، ١٣، مخطوطة بدار الكتب المصرية، برقم (٧٧٧ تصوف)، ومكروفيلم برقم (٣٧٣٥٧)، السيوطى «قضية جرت بين السيوطى ورجل من أهل الاتحاد» ص ٦، ٧.

(٢) ابن بيدكين «اللمع فى الحوادث والبدع» ص ٢٠، ٢١، مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (٤٨٧٣٠ مكروفيلم)، محمد بن إبراهيم الدمشقى «النور المبين فى الوعظ المتين» ص ٣٤٦ - ٣٥٠.

(٣) **السماع**: المقصود به فى المصطلح الصوفى الإنشاد الذى ينطق فيه بكلمات غير مفهومة، ويصاحبه الضرب بالدف، والرقص بشكل هستيرى، وكان ذو النون المصرى «ت ٨٥٩م»، أول من ابتدع هذا الأمر الذى بلغ أوجه مع الدراويش الجوالين أيام جلال الدين الرومى «ت ١٢٧٣م»، وانتشر فى العالم الإسلامى بكامله، ولقد حرم العلماء هذا السماع وعدّوه من البدع المذمومة، انظر: تقى الدين الحصنى «ت ٨٢٩هـ» «سير السالك فى أسنى المسالك» ص ١٦٥، ابن الحاج «المدخل» ح ٣ ص ٩٩، السيوطى «تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية» ص ٩٥، المطبعة الإسلامية، القاهرة، ١٣٥٢هـ/١٩٣٤م، جان شوفيلى «التصوف والمتصوفة» ص ١١٢، د. رفيق العجم «مصطلحات التصوف الإسلامى» ص ٤٨١.

(٤) ابن بيدكين «اللمع فى الحوادث» ص ٤٤، مجدى عبد الرشيد «القرية المصرية» ص ٢٨٠، طارق محمد المرسى «الزوايا فى العصر المملوكى بالقاهرة: دراسة أثرية حضارية» ص ٢٦٠، ماجستير، كلية الآثار، القاهرة.

(٥) السخاوى «التبر المسبوك» ص ١٧٦، ٢٢٠، ابن بيدكين «اللمع فى الحوادث» ص ٧٦، ابن الحاج «المدخل» ح ٣ ص ٩٩، ابن شاهين «نيل الأمل» ح ٧ ص ١٢١.

(٦) بدر الدين الزركشى «زهر العريش فى تحريم الحشيش» ص ١، د. آدم صبرة «الفقر والإحسان» ص ٣٨ - ٤٠، د. علاء طه «عامة القاهرة فى عصر سلاطين المماليك» ص ١٣٤، شلبى إبراهيم «طبقة العامة =

وكان من أشهر طوائف الدراويش ـ بمصر والشام ـ التى عرف عنها تلك القبائح فى العصر المملوكى طائفة القلندرية[١]، وطائفة الحيدرية[٢].

ولقد قام علماء مصر والشام بمحاربة بدع هؤلاء الدراويش ومفاسدهم، ففى عام ٨٤٨هـ/١٤٤٤م قام السلطان جقمق[٣] بحبس وتعزير[٤] طائفة من مجاذيب الصوفية ـ

= فى مصر فى العصر الأيوبى » ص ١٥٠، الهيئة المصرية العامة للكتاب، « سلسلة تاريخ المصريين »، (برقم ٢١٢)، ٢٠٠٣م.

(١) **القلندرية**: تنسب تلك الطائفة إلى جمال الدين الساوجى ـ محمد بن يونس ـ، كان من صوفية العراق، قدم إلى دمشق فى القرن السابع الهجرى ـ فى حدود العشرين وستمائة ـ، ثم سافر إلى دمياط، واعتقده الناس هناك، وبها توفى فى حدود سنة ٦٣٠هـ، وانتشر أتباعه بعد وفاته بمصر والشام خلال العصر المملوكى، ولقد أفتى ابن تيمية بأن هؤلاء القلندرية هم أهل ضلالة، وأكثرهم كافرون بالله ورسوله، وقد يكون فيهم من هو مسلم، ولكنه مبتدع ضال أو فاسق فاجر، انظر: ابن تيمية « فتاوى ابن تيمية » ح ٣٥ ص ١٦٣، النعيمى « عبد القادر بن محمد ت ٩٢٧هـ » « الدارس فى تاريخ المدارس » ح ٢ ص ٢١٠، تحقيق جعفر الحسنى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٨٨م، د. محمد مؤنس «دراسات فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب» ص ٩٣، ٩٤.

(٢) **الحيدرية**: مؤسس تلك الطائفة قطب الدين حيدر، الذى لا يعرف عنه سوى القليل، وترجع أصوله إلى خراسان، ولقد ظهرت تلك الطائفة ببلاد الشام فى منتصف القرن السابع الهجرى، وكان من شعارهم لبس الفراجى والطراطير، ويحلقون لحاهم ويتركون شواربهم، وذلك متابعة لشيخهم قطب الدين حيدر، وكانت سلوكيات تلك الطائفة تتشابه بسلوكيات طائفة القلندرية، ولقد كان لهؤلاء الحيدرية أتباع بمصر والشام فى العصر المملوكى، انظر: النعيمى « الدارس فى تاريخ المدارس » ح ٢ ص ٢١٢، د. آدم صبرة « الفقرة والإحسان » ص ٥٢، ٥٣، د. ليلى الصباغ « الفتح العثمانى لسوريا » ص ٢٤٧.

(٣) جقمق: سبق التعريف به بالفصل الأول، انظر: ص ١١.

(٤) **التعزّير**: لغة ـ بتشديد الزاى ـ يُطلق على التأديب والمنع، وفى الاصطلاح العقوبة المشروعة على جناية لا حدّ فيها كتطفيف المكيال، وجرائم الزندقة التى لم يتمكن القاضى من إثباتها على المتهم، ومن وسائل التعزير الجلد والسجن، انظر: ابن تيمية « السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية » ص ١١١، دار الكتاب العربى بمصر، ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م، د. عبد الله محمد «أكثر ما قيل فى التعزير بالجلد والسجن وبدائل السجن» ص ١٧٤، ١٧٥، ١٩٢، مقال بمجلة البحوث الإسلامية، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء، الرياض، السعودية، العدد (٦٩) عام ١٤٢٤هـ.

عرفت باسم المطاوعة ـ ظهرت فى مدينة الشرقية[(١)] ، وذلك بعد أن خاطب علماء مصر ـ أمثال ابن حجر العسقلانى[(٢)] ، وسعد الدين الديرى[(٣)] ـ السلطان جقمق فى شأن هذه الطائفة ، وطالبوه بردعهم ، حيث ارتكبت مفاسد كثيرة ، كالرقص والتصفيق بالمساجد ، وارتكابهم الانحرافات الخُلقية وغير ذلك من القبائح[(٤)] .

كما حكم بدر الدين البغدادى[(٥)] ـ قاضى الحنابلة بمصر ـ عام ٨٥٢هـ/١٤٤٨م بمنع جماعة من هؤلاء الدراويش من الرقص والغناء فى الزوايا والمساجد[(٦)] .

كما تذكر المصادر التاريخية أن السلطان جقمق[(٧)] عام ٨٥١هـ/١٤٤٧م قام بإبطال المولد الأحمدى[(٨)] نظرًا للمفاسد التى كانت تحدث فيه من تعاطى الخمور والانحرافات الخلقية ، وذك بعد أن خاطب العلماء ـ أمثال ابن حجر العسقلانى ، وبرهان الدين البقاعى[(٩)] ـ السلطان

---

(١) **الشرقية** : عمل من أعمال الوجه البحرى ، وهو متصل البر ببرِّ الشام والقُلْزُم ، والحجاز ، وكذلك أُشْمُوم ، انظر : العمرى « مسالك الأبصار » ص ٩٩.

(٢) ابن حجر العسقلانى : انظر : ص ٢٦٠.

(٣) سعد الدين الديرى : انظر : ص ٢٦٠.

(٤) السخاوى « التبر المسبوك » ص ١٠٤، ١٠٥.

(٥) بدر الدين البغدادى : محمد بن محمد بن عبد المنعم ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء الحنابلة بمصر ، درس ، توفى عام ٨٥٧هـ ، انظر : السخاوى « الذيل على رفع الأصر » ص ٣٤٩، السخاوى « وجيز الكلام » ح ٢ ص ٦٨١.

(٦) السخاوى « وجيز الكلام » ص ٦٢١.

(٧) جقمق : سبق التعريف به بالفصل الأول ، انظر : ص ١١ .

(٨) **المولد الأحمدى** : نسبة إلى السيد أحمد البدوى ، وهو أحمد بن على ، ولد بمدينة فاس ٥٩٦هـ ، ثم هاجر مع والده إلى مكة ، واستقر بها ٦٠٧هـ ، ثم رحل إلى العراق ٦٣٤هـ ، ثم إلى مصر عام ٦٣٥هـ ـ تقريبًا ـ ، ولقب بألقاب عدة منها « السيد » ، و « الشريف » ، و « البدوى » ، توفى ٦٧٥هـ ، انظر : غادة سيد « وثائق الأوقاف على مقام السيد البدوى » ص ٢٢ ـ ٣٠.

(٩) برهان الدين البقاعى : إبراهيم بن عمر ، تفقه على شيوخ عصره ، من كبار علماء الحنابلة بدمشق ، درس وأفتى ، توفى عام ٨٨٥هـ ، انظر : ابن المبرد « متعة الأذهان » ح ٢ ص ٥١.

جقمق فى ذلك الأمر[١] .

كما أفتى علماء مصر أمثال ـ جلال الدين السيوطى[٢] « ت ٩١١هـ » ، وزكريا الأنصارى[٣] « ت ٩٢٦هـ » ، وعلماء الشام أمثال ـ تقى الدين البلاطنسى[٤] « ت ٩٣٦هـ » ، وتقى الدين ابن قاضى عجلون[٥] « ت ٩٢٨هـ » ، بتحريم السماع[٦] والرقص الذى كان يقوم به أولئك الدراويش بالزوايا والمساجد ، وصرحوا بأن ذلك بدعة مذمومة لا يقرها الشرع[٧] .

وهكذا تصدى علماء مصر والشام بكل حزم لتصوف الدراويش والمجاذيب الذين أحدثوا كثيرًا من المنكرات ، التى كان منها ما يقومون به فى المساجد والزوايا من السماع ، والرقص ، وضرب الدف ، فضلًا عما كانوا يقترفونه فى موالد الأولياء من تهتك وفضائح خلقية ، حيث خاطب العلماء السلطة بردع تلك الطوائف كما حدث مع طائفة المطاوعة ، كما أصدر القضاة أوامرهم بمنع هؤلاء الدراويش من فعل المنكرات التى كانوا يحدثونها فى المساجد من السماع والرقص ونحو ذلك ، كما خاطبوا السلطة بمنع هؤلاء الدراويش من إحياء موالد الأولياء لما كان يحدث بها من منكرات ، كما أصدروا الفتاوى العديدة التى

---

(١) السخاوى « التبر المسبوك » ص ١٧٧، السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ١٠٨، ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٤ ص ١، البقاعى « إظهار العصر » .

(٢) جلال الدين السيوطى : جلال الدين عبد الرحمن ، تفقه على شيوخ عصره ، درس وأفتى ، وصنف مصنفات عديدة ، توفى عام ٩١١هـ ، انظر : الغزى « الكواكب السائرة » ص ٣١٥.

(٣) زكريا الأنصارى : زكريا بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، درس ، وتولى قضاء الشافعية بمصر ، توفى ٩٢٦هـ ، انظر : الغزى « الكواكب السائرة » ص ١٩٦.

(٤) تقى الدين البلاطنسى : أبو بكر بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، حتى صار رأس الشافعية بدمشق فى عصره ، درس وأفتى ، توفى ٩٣٦هـ ، انظر ابن المبرد « متعة الأذهان » ص ٢٢٠.

(٥) تقى الدين ابن قاضى عجلون : انظر : ص ٢٦١.

(٦) السماع : انظر ص ٢٦٦.

(٧) زكريا الأنصارى « فتاوى زكريا الأنصارى » ص ٣٠٦، البلاطنسى « فتاوى البلاطنسى » ص ١٨٨ ـ ١٩٣، السيوطى « الأمر بالاتباع والنهى عن الابتداع » ص ١١١، دار الاستقامة ، القاهرة ، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م .

تحرم بدعة السماع التى ابتدعها هؤلاء فى المساجد، وتبين أنها بدعة مذمومة لا يقرها الشرع . وبذلك طهروا المجتمع من الممارسات المنحرفة لهؤلاء الطوائف، حيث أغلقوا منافذ الفساد أمام تلك الطوائف، وحدوا من وجودها وانتشارها فى المجتمع بكل حزم .

ب ـ العلماء والزنادقة[1] :

اتخذت حركة الزندقة فى العصر المملوكى أشكالًا عديدة، بين الإلحاد فى الله، ومزج الإسلام بالعقائد الوثنية، والتهكم بتعاليم الإسلام، وإباحة المحرمات، ولقد تصدى العلماء لهؤلاء الزنادقة بقوة وحزم، ومن ذلك ما ذكرته المصادر التاريخية عام ٨٦٦هـ/١٤٦١م، أنه ورد الخبر من قرية ططية ـ بالوجه الغربى من أعمال القاهرة ـ أن بها جماعة من الزنادقة، منهم من ادّعى الألوهية، ومنهم من ادّعى النبوة، ولقد انضم إليهم جماعة من أوباش الناس، مالوا إلى معتقداتهم، فأرسل لهم السلطان خشقدم[2] القاضى ابن عبد الوارث[3] ،

---

(١) **الزندقة** : قيل أنها تعريب لكلمة فارسية، وإن اختلفوا فى هذه الكلمة هل هى «زند» وهى اسم كتاب مزدك الذى جاء بتفسير جديد للأفستا ينحرف به عن ظاهر التنزيل، أو هى «زندى» أى الذى يؤمن بالزند أو كتاب زرادشت، أو هى «زندكرد» أى القائل ببقاء الدهر، أ، هى «زنده كرد» أى عمل الحياة وبقاء الدهر، ومن المرجح أنها معربة عن كلمة «زندة» أو «زنديك» على أساس إبدال الهاء أو الكاف قافًا كما هى العادة، وقد أطلق العرب كلمة زنديق على من يؤول نصوص القرآن أو الحديث تأويلًا يخالف المعنى الطبيعى مخالفة غير معقولة أو تأويلًا منافيًا للأصول الاعتقادية، ويطلق الإمام الغزالى كلمة زنديق على من ينكر وجود الله أو على المشرك أو على من ينكر الحكمة الإلهية أو على من لا يتدين بدين، أو على من ينكر الحياة الآخرة وما فيها، أو على من يقول بقدم العالم وأزليته، ولعل أول جهاز حكومى يخصص لمقاومة الزندقة فى تاريخ الدولة الإسلامية هو الديوان الذى أنشأه المهدى العباسى وأطلق على رئيس هذا الديوان اسم «صاحب الزنادقة»، وكان الهدف من هذا الديوان تتبع الزنادقة وقتلهم، انظر : إسماعيل صبرى «موسوعة العلوم السياسية» ص ١٤٦، د. جيرار جهامى «موسوعة مصطلحات الفلسفة عند العرب» ص ٣٣٤، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط١ (١٩٩٨م)، د. محفوظ عزام «الموسوعة الإسلامية العامة» ص ٧٣٤.

(٢) خشقدم : سبق التعريف به بالفصل الأول، انظر : ص ١٢

(٣) ابن عبد الوارث : عبد الرحمن بن عبد الوارث، تفقه على شيوخ عصره، درس، وتولى نيابة القضاء=

فقام بتعزيرهم[١] ، ثم حبسوا ، وتم القضاء على حركتهم وأفكارهم[٢] .

كما تذكر المصادر التاريخية(*) عام ٨٢٣هـ/١٤٢٠م أنه رُفع إلى قاضى الشافعية[٣] جلال الدين البلقينى[٤] دعوى[٥] أن شخصًا يقال له أبو بكر الغزولى قدح فى الأنبياء ـ

= بمصر ، توفى عام ٨٦٨هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٤ ص ٩٠.

(١) **التعزّير** : لغة ـ بتشديد الزاى ـ يُطلق على التأديب والمنع ، وفى الاصطلاح العقوبة المشروعة على جناية لا حدّ فيها ، كتطفيف المكيال ، وجرائم الزندقة التى لم يتمكن القاضى من إثباتها على المتهم ، ومن وسائل التعزير الجلد والسجن ، انظر : ابن تيمية « السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية » ص ١١١، دار الكتاب العربى ، مصر ، ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م ، د. عبد الله محمد « أكثر ما قيل فى التعزير بالجلد والسجن وبدائل السجن » ص ١٧٤، ١٧٥، ١٩٢، مقال بمجلة البحوث الإسلامية ، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء ، الرياض ، السعودية ، العدد (٦٩) عام ١٤٢٤هـ.

(٢) ابن تغرى « حوادث الدهور » ح ١ ص ٤٢١، البقاعى « إظهار الهصر » .

(*) لم توضح لنا المصادر التاريخية معلومات تفصيلية عن هؤلاء الزنادقة وأماكن تواجدهم بالتحديد ، وتأثير أفكارهم على العامة ، فقد جاءت المعلومات عنهم مقتضبة موجزة .

(٣) كانت دعاوى الزندقة فى العصر المملوكى ترفع إلى قاضى المالكية بشكل عام ، وذلك ما يظهر فى وصية شهاب الدين العمرى إلى قاضى المالكية حيث خصّه بقوله ـ دون الشافعى والحنفى والحنبلى ـ « مذهبه له السيف المصلت على من كفر والمذهب بدم من طل دمه ، وحصل به الظفر ، ومن غدا قدره الوضيع وتعرض إلى أنبياء الله بالقول الشنيع ، فإنه إنما يقتل بسيفه المجرد ، ويراق دمه تعزيرا ، بقوله الذى له تفرد ، ولم يزل سيف مذهبه لهم بارز الصفحة مسلمًا لهم إلى مالك خازن النار من مذهب مالك الذى ما فيه فسحة ، وعليه بالثبوت والبينة التى لا يستدرك بها ما يفوت ، وإنما هو رجل يحيا أو يموت ، فليتمهل قبل بت القضا » ، انظر : العمرى « التعريف بالمصطلح الشريف » ص ١٢٠، ١٢١، مطبعة العاصمة ، مصر ، ١٣١٢هـ .

(٤) جلال الدين البلقينى : عبد الرحمن بن عمر ، تفقه على شيوخ عصره ، درس وأفتى ، تولى قضاء الشافعية بمصر ، توفى ٨٢٤هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٤ ص ١٠٦.

(٥) **دعوى** : لغة : التمنى والطلب ، واصطلاحًا قول يطلب به الإنسان إثبات حق على الغير فى مجلس القاضى أو المحكم ، وأركانها ـ عند الحنفية ـ هى نفس الإخبار عن ذلك الحق ، وعند غيرهم ثلاثة مُدعى وهو من إذا ترك دعواه ترك ، ومدعى عليه ، وهو من إذا ترك الخصومة لم يترك ، ومدعى به ، وهو الشىء الذى ادعاه المُدعِى ، والأصل فى الدعوى الإباحة ، وقد تحرم إذا كانت بباطل ، أو بغرض التشنيع ، والأصل فى مشروعيتها ما رواه البخارى عن النبى ﷺ « لو يعطى الناس بدعواهم ، لذهب دماء قوم =

عليهم السلام ـ، وقال إنهم عرايا من العلم ونحو ذلك من القبائح، فقام القاضى[1] بتعزيره[2].

وفى عام ٨٤٤هـ/١٤٤٠م نُسب إلى شخص يُدعى علىّ بن أخى قطلو خجا أنه سبّ الله ـ عزّ وجلّ ـ والنبى ﷺ، فقام قاضى الحنفية سعد الدين الديرى[3] بضرب عنقه بعد إقامة البينة عليه[4].

أمّا بلاد الشام[*]، ففى حلب عام ٨٢٠هـ/١٤١٧م أرسل علماء حلب إلى السلطان شيخ[5] بأنه ظهر بحلب رجل يُدعى نسيم الدين التبريزى ينكر الألوهية، ويطعن فى الأنبياء ـ عليهم السلام ـ، فأرسل السلطان مرسومًا إلى نائب حلب بقتل هذا الزنديق، وتم قتله فى ذات العام[6].

وفى حلب عام ٨٤٦هـ/١٤٤٢م ظهر شخص يُدعى حيداد قاسم يدعو بدعوة نسيم الدين التبريزى ـ السابق ذكره ـ، فأرسل السلطان جقمق[7] مرسومًا بمعاملته بما يوجبه

= وأموالهم، اليمين على المدعى عليه»، انظر: طوغان شيخ «ت٨٨١هـ» «المقدمة السلطانية فى السياسة الشرعية» ص٤٣، مكتبة الزهراء، القاهرة ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، د. أحمد يوسف سليمان «الموسوعة الإسلامية العامة» ص ٦٤٤، عثمان على «مجالس الشورى وأثرها فى سياسة الدولة والمجتمع المصرى زمن سلاطين المماليك» ص ٢٠١، دكتوراة، دار العلوم، القاهرة، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

(١) ما ذكرته المصادر التاريخية من تعزيره، والذى يكون بالجلد أو السجن ـ كما سبق فى توضيح مفهوم التعزير ـ، يعنى أن الدعوى بأنه سب الأنبياء ـ عليهم السلام ـ لم تثبت عليه، وإلا تم قتله، حيث حكم العلماء على من قام بسبّ النبى محمد ﷺ بالقتل، انظر: ابن قيم الجوزية «أحكام أهل الذمة» ح ٢ ص ٢٢٨، ٣٣٠.

(٢) ابن حجر «إنباء الغمر» ح ٧ ص ٣٩٣.

(٣) سعد الدين الديرى: انظر: ص ٢٦٠.

(٤) ابن حجر «إنباء الغمر» ح ٩ ص ١٢٢، ١٢٤، ١٢٥.

(*) لم توضح لنا المصادر التاريخية معلومات تفصيلية عن هؤلاء الزنادقة ببلاد الشام، كأماكن تواجدهم بالتحديد، وتأثير أفكارهم على العامة، فقد جاءت المعلومات عنهم مقتضبة موجزة.

(٥) شيخ: سبق التعريف به بالفصل الأول، انظر: ص ٣٧.

(٦) ابن حجر «إنباء الغمر» ح ٧ ص ٢٦٩.

(٧) جقمق: سبق التعريف به بالفصل الأول، انظر: ص ١١.

الشرع، فحكم علماء حلب بإهدار دمه، وتم قتله[١].

وفى دمشق، تذكر المصادر التاريخية عام ٨٣٨هـ/١٤٣٤م أن علماء دمشق أمثال ـ علاء الدين البخارى[٢] «ت ٨٤١هـ» ـ تصدوا لعقائد وأفكار النسيمية[٣]، والتى منها إنكار الألوهية، والطعن فى الأنبياء، وكشف العلماء فساد تلك العقائد والأفكار[٤].

كما جاهد علماء مصر أمثال سعد الدين الديرى[٥] «ت ٨٦٧هـ»، وعلماء الشام أمثال علاء الدين البخارى[٦] «ت ٨٤١هـ»، بأقلامهم حركة الزندقة، فصنّف سعد الدين الديرى كتابه «السهام المارقة فى الرد على الزنادقة»[٧]، وصنّف علاء الدين البخارى كتابه «الملجمة[*] للمجسمة»[٨].

وهكذا تصدى علماء مصر والشام بكل حزم لحركة الزندقة التى كان يقوم بها بعض الجماعات والأشخاص، فمن ثبت عليه الإلحاد فى الله، أو ادعائه للنبوة، وقدحه فى الأنبياء يقوم القضاة ـ بعد إقامة البينة عليه ـ بضرب عنقه حدًا، فيرتدع من تسول له نفسه فعل ذلك، أمّا من لم يثبت عليه البينة بالإلحاد والقدح فى الأنبياء، ولكن عرف عنه التهكم على بعض الشعائر الإسلامية، فيقوم القاضى بتعزيره بالجلد أو السجن.

---

(١) ابن العجمى: «كنوز الذهب» ح ٢ ص ١٦٨.

(٢) علاء الدين البخارى: على بن محمد، من كبار علماء الهند، رحل إلى دمشق فى العصر المملوكى، ومكث بها حتى وفاته عام ٨٤١هـ، وكان كثير الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، انظر: ابن حجر «إنباء الغمر» ح ٩ ص ٢٣.

(٣) نسبة إلى نسيم الدين التبريزى الذى قُتِل بحلب عام ٨٢٠هـ ـ كما سبق القول ـ.

(٤) ابن حجر «إنباء الغمر» ح ٨ ص ٣٥٢.

(٥) سعد الدين الديرى: انظر: ص ٢٦٠.

(٦) علاء الدين البخارى: انظر: ص ٢٦٢.

(٧) ابن طولون «الغرف علية فى تراجم الحنفية» ص ٣٣١.

(*) هذه الكتب التى صنفها العلماء فى هذا المجال ذكرها المؤرخون فى ثنايا تراجمهم لهؤلاء العلماء، ولم يتيسر للباحث الحصول على تلك المؤلفات سواء كانت مخطوطة أو مطبوعة.

(٨) ابن طولون «المعزة فيما قيل فى المزة» ص ٤.

وبذلك يصان المجتمع من تلك الأفكار الهدامة التى يدعوا إليها هؤلاء والتى لو تركت، فقد تجد صدى لدى بعض ضعاف العقيدة والإيمان، وحينئذ يفقد المجتمع المسلم تماسكه وقوته ويدب فيه معاول الهدم والانحلال.

كذلك قام العلماء بأقلامهم بمجاهدة حركة الزندقة وأفكارهم، وبيان مدى فسادها وعواقبها الوخيمة لمن اعتنقها.

جـ ـ العلماء وغلاة الشيعة(*) :

إن المذهب الشيعى كان منتشرًا فى صعيد مصر كمدينة قوص[1]، طوال العصر الأيوبى والمملوكى، ويرجع ذلك إلى أن الصعيد كان منفى وملجأ للخارجين على سلطة الدولة من أنصار الفاطميين، ومعتنقى المذهب الشيعى، ولم يحدث صدام بين الشيعة وبين أهل السنّة فى القرن التاسع ـ فيما أطلعت عليه من مصادر ـ، واقتصر التشيع لدى العامة فى مصر على حُبّ أهل البيت، وإقامة الموالد لرموز الشيعة الفاطميين مثل سيدنا الحسين(*)، والسيدة زينب[2].

(*) الشيعة قسمين، غلاة كالسبئية والكيسانية، والكاملية، ومعتدلة وهم الإمامية الاثنا عشرية، والزيدية، انظر: د. فاطمة محجوب «الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية» مج ٤٨ ص ٣٨، دار الغد العربى، القاهرة، ١٩٩٣م.

(١) **قوص**: هى من أكبر ولايات الصعيد فى عصر سلاطين المماليك، إذ أنها تشمل من البلاد ـ حاليًا ـ محافظتى قنا وأسوان، وجزء من محافظة سوهاج، انظر: عبد الفتاح «قوص فى عصر سلاطين المماليك» ص ٢٢، ماجستير، آداب سوهاج، ١٩٩٠م.

(*) جزم العالم ابن تيمية بكذب المشهد المضاف إلى سيدنا الحسين بن علىّ بن أبى طالب بمصر، انظر: ابن تيمية «فتاوى ابن تيمية» ح ٢٧ ص ٤٤٦، ٤٥١.

(٢) د. محمد زغلول «الأدب فى العصر المملوكى» ص ٣٢٨، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٩٤م، شلبى إبراهيم «طبقة العامة فى مصر فى العصر الأيوبى» ص ١٦٧، ١٦٨، عبد الفتاح «قوص فى عصر سلاطين المماليك» ص ٢٢٦، أحمد كامل «مصر بين المذهب السنى والمذهب الإسماعيلى فى العصر الفاطمى» ص ١٧٦ وما بعدها، دكتوراة، دار العلوم، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، محمد خليل أحمد «إقليم قوص من الفتح العربى حتى نهاية عصر المماليك» ص ٢٤٨، ماجستير، معهد الدراسات الإسلامية، وزارة التعليم العالى، ١٤١٤هـ/١٩٩٢م.

أمّا بالنسبة لبلاد الشام، ففى دمشق توجد الفرق الشيعية المعتدلة كالإمامية[(١)]، والزيدية[(٢)]، والمتطرفة المتركزة خاصة فى المناطق الجبلية، كالنصيرية[(٣)]، والدروز[(٤)] [(٥)].

---

(١) **الإمامية:** الشيعة الإمامية، فرقة من المسلمين الذين تمسكوا بحق سيدنا علىّ بن أبى طالب فى وراثة الخلافة بعد النبى ﷺ، ومن بعد علىّ بن أبى طالب فى أولاده حتى الإمام الثانى عشر محمد بن الحسن العسكرى، وهم إن خالفوا جماعة المسلمين فى عرض المسائل إلا أن مخالفتهم لا تخرجهم عن ملة الإسلام، لأنهم يعترفون بالعقائد الإسلامية وقواعد الإسلام المعلومة من الدين بالضرورة، انظر: تقى الدين عبد الرحمن «ابن ناظر الجيش» «تثقيف التعريف بالمصطلح الشريف» ص ١٦٤، تحقيق رودلف فسلى، المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٨٧م، د. فاطمة محجوب «الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية» ح ٦ ص ٥٢، د. موسى الموسوى «الشيعة والتصحيح» ص ٩، دار الزهراء، القاهرة، ١٩٨٩م.

(٢) **الزيدية:** كان أصحاب هذه الفرقة يقيمون فى دمشق غربى باب توما بين النصارى وأهل السنّة، بالإضافة إلى إقامتهم فى قرى كثيرة كداريا وغيرها، انظر: إبراهيم حامد «نيابة دمشق فى عصر سلاطين المماليك» ص ٣١٤، ماجستير، دار العلوم، جامعة المنيا، ٢٠٠٠م.

(٣) **النصيرية:** فرقة متطرفة من الشيعة، يذكر القلقشندى أنهم أتباع نصير غلام على بن أبى طالب، بينما يذكر باحثون آخرون أنهم يرجعون بتسميتهم إلى محمد بن نصير النصيرى الذى ظهر أيام الحسن العسكرى، وهم يعتقدون بالأقانيم الثلاثة علىّ بن أبى طالب ويمثل روح الله ـ فى رأيهم الفاسد ـ، وسيدنا محمد ﷺ هو المظهر الخارجى لروح الله، وسلمان الفارسى ـ رضى الله عنه ـ حامل كتابه، وهم يألهون علىّ، ويعتقدون بتناسخ الأرواح، وقد كان المماليك يعتبرونهم كفرة، ويفرضون عليهم ما يسمى بـ «درهم الرجال»، وهو يشبه إلى حد ما الجزية المأخوذة من أهل الذمة، انظر: ابن ناظر الجيش «تثقيف التعريف» ص ١٦٢، د. ليلى الصباغ «الفتح العثمانى لسوريا» ص ٢٣٨، العمرى «التعريف بالمصطلح» ص ١٥٦.

(٤) **الدروز:** هم أتباع أبى محمد إسماعيل الدرزى، وهم يقولون برجعة الحاكم بأمر الله الفاطمى، وأن الألوهية انتهت إليه وتدبّرت ناسوته، وهو يغيب ويظهر بهيئته ويقتل أعداءه، وشأنهم شأن النصيرية فى استباحة فروج المحارم وغيرهم، وهم أشد كفرًا ونفاقًا منهم، وينكرون الميعاد، وقد أفتى ابن تيمية بقتالهم، انظر: ابن ناظر الجيش «تثقيف التعريف» ص ١٦٥، د. ليلى الصباغ «الفتح العثمانى لسوريا» ص ٢٣٩.

(٥) ابن طوق «يوميات ابن طوق» ص ٧١٧، ابن طولون «مفاكهة الخلان» ص ٨٢، د. ليلى الصباغ «الفتح العثمانى لسوريا» ص ٢٣٦ ـ ٢٣٩، إبراهيم حامد «نيابة دمشق فى عصر سلاطين المماليك» ص ٣١٤.

ولم توضح المصادر التاريخية خلال القرن التاسع[*] ـ فيما اطلعت عليه من المصادر ـ طبيعة العلاقة بين أهل السنّة بدمشق وتلك الفرق الشيعية المعتدلة منها أو المتطرفة، باستثناء حادثتين ذكرتهما المصادر التاريخية يكشفا بعض ملامح تلك العلاقة بين أهل السنّة والشيعة الإمامية.

أولهما عام ٨٩٢هـ/١٤٨٦م، عندما أمر السلطان قايتباى[(١)] بهدم مسجد للشيعة الإمامية ـ الذى يقع عند باب جيرون[(٢)]، وذلك بعد أن طالب علماء دمشق ـ أمثال تقى الدين ابن قاضى عجلون[(٣)] ـ بإغلاق هذا المسجد، حيث اتخذه الشيعة مركزًا لدعوتهم، ونشر أفكارهم التى تعرضوا فيها للصحابة والخلفاء الراشدين، وتم هدم ذلك المسجد الذى أثار ثائرة أهل السنّة[(٤)].

وثانيهما عام ٨٩٥هـ/١٤٨٩م زار بعض أعيان الشيعة الإمامية من العراق دمشق، واجتمعوا بأعيان شيعة دمشق، ودارة مناقشات بينهم تعرضوا فيها للصحابة، فقام عليهم علماء دمشق، وطالبوا نائب دمشق قانصوه اليحياوى[(٥)] بردعهم، فاستجاب لهم

(*) حيث أشارت المصادر التاريخية فى القرن الثامن إلى الصراع الفكرى بين ابن تيمية وتلك الفرق الشيعية المتطرفة كالدروز.

(١) قايتباى: سبق التعريف به بالفصل الأول، انظر: ص ٢٢.

(٢) **باب جيرون**: هو الباب الشرقى للجامع الأموى، وهو أعظم أبواب المسجد، ويسمى ـ أيضًا ـ باب النوفرة، وباب الساعات، انظر: ابن بطوطة «رحلة ابن بطوطة» ص ٩١، البورينى «الحسن بن محمد «ت ١٠٢٤هـ»» «تراجم الأعيان من أبناء الزمان» ص ٣٢٦، تحقيق د. صلاح الدين المنجد، مطبوعات المجمع العلمى العربى بدمشق، ١٩٥٩م، د. صلاح الدين المنجد «باب جيرون» ص ٤٣، مجلة المشرق، السنة (٤٣)، عام ١٩٤٩م.

(٣) تقى الدين ابن قاضى عجلون: انظر: ص ٢٦١.

(٤) النعيمى «مذكرات يومية» ص ١٣٠، مخطوطة بدار الكتب الظاهرية بدمشق، برقم (٤٥٣٣ عام)، ابن طوق «يوميات ابن طوق» ص ٧١٧، ابن طولون «مفاكهة الخلان» ص ٨٢، السخاوى «الذيل التام» ص ٣٨١، د. صلاح الدين المنجد «باب جيرون» ص ٤٦، ٤٧، ٤٨.

(٥) قانصوه اليحياوى: ولى نيابة دمشق عام ٨٨٤هـ، ثم عزل عام ٨٨٦هـ، ثم تولى عام ٨٩٢هـ، كانت سيرته سيئة، توفى عام ٩٠٢هـ، انظر: ابن طولون «إعلام الورى» ص ٧٢.

النائب[1] ، وفى هاتين الحادثتين السابق ذكرهما يظهر مدى السطوة والنفوذ لأهل السنّة وعلماءها بدمشق ومحدودية القوة والفعالية للشيعة الإمامية بدمشق .

وفى حلب ، تذكر المصادر التاريخية أن شرف الدين أبو المكارم[2] ـ خطيب حلب ـ كان يتصدى[*] لأفكار ومعتقدات غلاة الشيعة[3] .

وهكذا يظهر لنا من تلك الحوادث والإشارات التاريخية القليلة فى هذا الشأن ـ خلال القرن التاسع ـ أن علماء السنّة تصدوا لمحاولات الشيعة الإمامية لنشر أفكارها التى تخالف رأى أهل السنّة والجماعة ، فقاموا بإغلاق أحد مراكزهم الدعوية عند باب جيرون ، كما قاموا ـ من خلال السلطة المملوكية ـ بمنعهم من عقد المجالس الحوارية والنقاشية التى يعلنون فيها آرائهم وأفكارهم ، حتى لا يتأثر بهذه الآراء العامة ، وينخدعوا بها .

---

(١) سعود محمد « الحياة الثقافية بدمشق » ص ٣٣٢.

(٢) شرف الدين أبو المكارم : محمد بن عمر بن الشيخ شرف الدين أبى المكارم ، كان يخطب ويعظ بحلب ، توفى عام ٩٣٩هـ ، انظر : ابن الحنبلى « در الحبب » ح ٢ ص ٦٤.

(*) لم توضح المصادر التاريخية طبيعة هذا التصدى ، ونتائجه ، حيث جاءت المعلومات فى هذا الشأن موجزة مقتضبة فى ثنايا ترجمة هذا العالم .

(٣) ابن الحنبلى « در الحبب فى أعيان حلب » ح ٢ ص ٦٤.

٢ ـ العلماء ومحاربة البدع

* الاعتقاد فى التنجيم والسحر والجان :

من البدع[١] التى عانى منها المجتمع المصرى والشامىّ الاعتقاد فى التنجيم[٢]، والسحر[٣]، والجان، حيث شاع بين المصريين والشاميين الاعتقاد فى هذه الأمور، وكثر ترددهم على هؤلاء المنجمين والدجالين[٤].

---

(١) **البدعة :** هى فعل ما لم يُعهد فى عصر الرسول ﷺ، وهى منقسمة إلى بدعة واجبة، وبدعة محرمة، وبدعة مندوبة، وبدعة مكروهة، وبدعة مباحة، والطريق فى معرفة ذلك أن تُعرض البدعة على قواعد الشريعة فإن دخلت فى قواعد الإيجاب فهى واجبة، وإن دخلت فى قواعد التحريم فهى محرمة، وهكذا، انظر : العز بن عبد السلام «قواعد الأحكام فى مصالح الأنام» ح ٢ ص ١٩٥، المكتبة الحسينية، القاهرة، ١٣٥٣هـ/١٩٣٤م، السيوطى «الأمر بالاتباع» ص ٢٦ ـ ٢٩.

(٢) **التنجيم :** هو النظر فى الكواكب والنجوم، وحساب حركاتها، واستخدام ذلك فى ادعاء معرفة الغيب، واستطلاع أقدار الناس وآجالهم وأرزاقهم، ولقد نهى الإسلام عن التنجيم، واعتبر الإيمان به كفرًا، وهؤلاء المنجمين الذين يفعلون هذه الأفعال هم أهل تلبيس وكذب وخداع، انظر : ابن أبى العز الحنفى «على بن محمد ت ٧٩٢هـ» «شرح العقيدة الطحاوية» ص ٤٣٤، ٤٣٦، تحقيق أيمن محمد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، «د. ت»، ابن تيمية «فتاوى ابن تيمية» ح ٣٥ ص ١٧٢، ١٩١.

(٣) **السحر :** وجود السحر لا خلاف فيه بين العلماء، فلقد تحدث عنه القرآن الكريم والسنّة النبوية، إلا أنه من الملاحظ أنه ليس هناك إجماع على ماهية السحر، فالبعض يرى أنه مجرد خيال لا حقيقة له، والبعض يرى أن له حقيقة وله تأثير على الناس، ولكن ما مدى تأثيره، هل يغير الواقع، ويقلب الشىء عن حقيقته إلى حقيقة أخرى، وينشئ شيئًا من العدم؟، أم هو مجرد تأثير فى الحواس والقوى المتخيلة، كما ترى العين ماء وهو ليس بماء؟، أم يجمع بينهما؟، ويتفق العلماء أن حدّ الساحر هو القتل، ولمزيد من الإيضاح، انظر : ابن أبى العز الحنفى «شرح العقيدة الطحاوية» ص ٤٣٦، محمد أبو عاقلة «السحر وموقف الإسلام منه» ص ١٥٢، ١٥٥، ٢٢٠، ماجستير، كلية أصول الدين ـ قسم العقيدة والفلسفة، جامعة الأزهر، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

(٤) مجدى عبد الرشيد «القرية المصرية» ص ٢٤٧، د. عادل عبد الحافظ «نيابة حلب» ص ٢٣٦، إسماعيل عبد المنعم «الأمراض الاجتماعية بين الطبقة الارستقراطية المملوكية» ص ٢٩٤ ـ ٣٢٠، محاسن =

ولقد كافح علماء مصر والشام لإزالة تلك البدعة، فلقد صنّف العالم جلال الدين السيوطى[(١)] كتابه «لقط المرجان فى أحكام الجان» للرد على هؤلاء الدجالين الذين ادّعوا قدرتهم على تسخير الجان، واستخدامه فى شتى الأغراض، حيث بيّن حقيقة الجن فى الإسلام، وأنه كعالم الملائكة من المغيبات التى أُمر الإيمان بها[(٢)]، ثم يكشف زيف من يدعون علمهم بالغيب من الكهان من خلال الجن، حيث يوضح السيوطى بالأدلة الشرعية أنه ببعثة الرسول ﷺ انتهى ذلك الأمر[(٣)]، كما يوضح أن السبيل الوحيد للحماية من أذى الجن ووساوسه هو قراءة القرآن، والصلاة، والدعاء، وليس بما يقوله الكهان، وما يقدمونه من تمائم[(٤)].

وفى دمشق عام ٨٩٤هـ/١٤٨٨م عندما ادّعى أحد الدجالين أنه رأى فى المنام أن كبير الجان قال لامرأة أنه من لم يضع الحناء سيصاب بمرض، فاشتهر ذلك بين الأهالى، فأنكر علماء[(*)] دمشق ذلك الأمر[(٥)].

كما قام كمال الدين الحموى[(٦)] بالتصدى[(٧)] لأحد هؤلاء الدجالين الذى كان أهالى

= محمد «الطبقات الدنيا فى القاهرة فى عصر سلاطين المماليك» ص ٢١٥ ـ ٢١٨، ماجستير، آداب عين شمس، أحمد صبحى «أثر التصوف فى مصر فى العصر المملوكى» ص ٣١٦، ٣١٨، ٣٢٢، دكتوراة، كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، ١٩٨٠م.

(١) جلال الدين السيوطى: انظر: ص ١٦٤.

(٢) السيوطى «لقط المرجان فى أحكام الجان» ص ١٦، ١٨، تحقيق مصطفى عاشور، مكتبة القرآن، القاهرة، ١٩٨٨م.

(٣) السيوطى «لقط المرجان» ص ١٢٠.

(٤) السيوطى «لقط المرجان» ص ٩١، ٩٨ ـ ١١٦.

(*) لم تذكر المصادر التاريخية علماء بأعينهم.

(٥) ابن طولون «مفاكهة الخلان» ح١ ص ١٠٥، د. سعود محمد «الحياة الثقافية بدمشق» ص ٧١.

(٦) كمال الدين الحموى: محمد بن أحمد، تفقه على شيوخ عصره، ولى قضاء المالكية بدمشق، توفى عام ٨٩٥هـ، انظر: ابن طولون «قضاة دمشق» ص ٢٦٢.

(٧) لم توضح المصادر التاريخية طبيعة هذا التصدى، ولعله كان تصديًا باللسان، حيث يكشف زيف هذا الدجال، ويبين بالأدلة الشرعية ـ كعالم ـ تحريم الإسلام للتنجيم والدجل، والعاقبة السيئة لمن يعتقد ذلك.

دمشق يعتقدون صدقه ، وأنه يُشفى كل مرض بالتمائم[١] .

كما كان العلماء يكافحون هؤلاء المنجمين من خلال ولايتهم للحسبة ، حيث كان من مهام المحتسب تعزير[٢] هؤلاء الدجالين وإغلاق الأماكن التى يمارسون فيها أعمالهم غير المشروعة[٣] .

* العلماء وبدع القبور :

حرم الإسلام اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد ، ففى صحيح البخارى فيما رواه ابن عباس ، والسيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ ، قوله ﷺ : « لَعْنَةُ الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد »[٤] ، وفى صحيح مسلم ، من حديث جندب بن عبد الله البجلى ، أنه سمع النبى ﷺ قبل أن يموت بخمس « إن من كان قبلكم ، كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، إنى أنهكم عن ذلك »[٥] .

كما حرم الإسلام البناء على القبور ، أو تجديد ما دثر أو ترميم ما وَهى ، فالبناء على القبور محرم ، ففى صحيح مسلم ، من حديث علىّ بن أبى طالب ، قوله : « بعثنى رسول الله ﷺ على ألا أدع صورة إلا طمستها ولا قبر مشرفًا إلا سويته »[٦] .

وفى هذه الأحاديث الصحيحة دلالة ظاهرة على التحذير من البناء على القبور واتخاذها

---

(١) سعود محمد « الحياة الثقافية بدمشق » ص ٧١.

(٢) التعزير : انظر : ص ٢٧١.

(٣) طوغان شيخ المحمدى « المقدمة السلطانية فى السياسة الشرعية » ص ١١٢، ابن الأخوة « معالم القربة فى أحكام الحسبة » ص ١٨٢، العمرى « التعريف بالمصطلح الشريف » ص ١٢٥، مطبعة العاصمة ، مصر ، ١٣١٢هـ ، القلقشندى « صبح الأعشى » ح ١١ ص ٢١٥.

(٤) ابن حجر العسقلانى « فتح البارى بشرح صحيح البخارى » ح ٣، ص ٩٨، مكتبة الكليات الأزهرية ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م ، البلاطنسى « تحرير المقال » ص ٢٢٠، مسلم «صحيح مسلم» ح١ ص٣٧٦، القاضى عياض «شرح صحيح مسلم» ح٢ ص ٤٥٣.

(٥) ابن تيمية « فتاوى ابن تيمية » ح ٢٧ ص ٣٢٧، البلاطنسى « تحرير المقال » ص ٢١٩.

(٦) البلاطنسى « تحرير المقال » ص ٢١٨.

مساجد[*] ، وأن ذلك حرام ، وبدعة ، وضلالة[١] .

ولقد علل العلماء تحريم اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد ، أو البناء على تلك القبور ، خوفًا من المبالغة فى تعظيم صاحب القبر ، والافتتان به ، فربما أدى ذلك إلى الكفر كما جرى للكثير من الأمم الخالية[٢] .

أما عن زيارة القبور ، سواء كان قبر نبى أو صالح أو أى مسلم فهو أمر مشروع ومستحب للرجال والنساء[*][٣] ، ولكن بضوابط معينة ، حيث حرم الإسلام أن تشد الرحال لزيارة قبر

(*) يقول ابن تيمية بشأن قبر النبى ﷺ ، ولما مات النبى ﷺ دفن فى حجرة السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ ، وكانت هى وحجر نسائه فى شرقى المسجد وقبليه ، ولم يكن شىء من ذلك داخلاً فى المسجد ، واستمر الأمر على ذلك إلى أن انقرض عصر الصحابة بالمدينة ، ثم فى خلافة الوليد بن عبد الملك الأموى بنحو سنة من بيعته وسع المسجد ، وادخلت فيه الحجرة للضرورة » ، ويقول البلاطنسى فى ذلك « لما احتاج الصحابة والتابعون إلى توسعة المسجد ، وأدخلوا مدفنه الشريف فيه ، بنوا على القبر حيطانا مرتفعة مستديرة حوله ، لئلا يظهر فى المسجد ، فيصلى إليه العوام ، ويؤدى إلى المحذور ، كما بنوا جدارين من ركنى القبر الشماليين حرفوهما حتى التقيا ، حتى لا يتمكن أحد من استقبال القبر ، وفى ذلك تقول السيدة عائشة « ولولا ذلك لأبرز قبره غير أنه خشى أن يتخذ قبره مسجدًا » ، وذلك كما رواه ـ البخارى ومسلم ـ » ، انظر : ابن تيمية « فتاوى ابن تيمية » ح ٢٧ ص ٣٢٣، البلاطنسى « تحرير المقال » ص ٢٢٢، مسلم «صحيح مسلم» ح ١ ص ٣٧٦ .

(١) البلاطنسى « تحرير المقال » ص ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٢٤، ابن تيمية « فتاوى ابن تيمية » ح ٢٧ ص ٣٣٢، ٣٤٤، ٣٨٠.

(٢) ابن حجر « فتح البارى بشرح صحيح البخارى » ح ٣ ص ٨٦.

(*) ورد بشأن الإذن للنساء فى زيارة القبور ، ما رواه مسلم والترمذى وابن ماجة وغيرهم قول النبى ﷺ « كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، فزوروها ، فإنها تذكر الآخرة » ، وما رواه الشيخان عن أنس أن النبى ﷺ مر بامرأة تبكى عند قبر فقال : « اتقى الله واصبرى » ، فأنكر عليها الجزع ولم ينكر عليها الزيارة ، كما روى مسلم عن السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : كيف أقول لهم يارسول الله ؟ ـ تعنى إذا زرت القبور) ، قال ﷺ : « قولى السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، ويرحم الله المستدقمين منا والمستأخرين ، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون » ، أما عن الحديث الذى رواه أبو هريرة أن الرسول ﷺ قال : « لعن زوّارات القبور » ، فهذا الحديث هو للمكثرات من الزيارة لما تقتضيه الصيغة من المبالغة ، والذى قد يستتبعه تضييع حق الزوج والتبرج وما ينشأ من الصياح ونحو ذلك ، كذلك لقد جاءت أحاديث نبوية صحيحة تأذن بالزيارة ، وثبت فى بعضها أنها جاءت بعد النهى عن الزيارة كما جاء فى صيغة =

نبى أو صالح ـ عدا قبر النبى ﷺ ـ ، فالسفر إلى قبور الأنبياء والصالحين لم يكن موجودًا زمن الصحابة والتابعين[(١)] ، كذلك حرم الإسلام لمن يزور قبر نبى أو صالح أن يتشفع به ، وأن يسأله حاجته ، أو أن يقوم بالنذر على قبر النبى أو الصالح[(٢)] ، إنما المشروع والسنّة لمن زار قبر مسلم أن يُسلم عليه ويدعو له[(٣)] .

ولقد شاع فى مصر وبلاد الشام ـ فى العصر المملوكى ـ بدعة شد الرحال لزيارة قبور الأنبياء والصالحين ، كقبر الخليل إبراهيم[(٤)] ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالقدس ، وقبر الست[(٥)]

= الحديث « كنت نهيتكم عن زيارة القبور » ، فثبت أن الإباحة هى المتأخرة ، والنهى هو المتقدم ، فينسخ المتأخر المتقدم ، انظر : ابن قيم الجوزية «إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان» ص ١٦٥، السخاوى « أبو الحسن نور الدين على ـ عاش حتى عام ٨٨٩هـ ـ » « تحفة الأحباب وبغية الطلاب فى الخطط والمزارات » ص ٥، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية ، فى إطار جامعة فرانكفورت ، جمهورية ألمانيا الاتحادية ، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م ، د. محمد قاسم المنسى « دراسات فى السنّة وعلم الحديث » ص ٨١ ـ ٨٣، دار النصر للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٩٨م .

(٣) ابن تيمية « فتاوى ابن تيمية » ح ٢٧ ص ٣٣٠، ٣٨١، السخاوى « تحفة الأحباب » ص ٤، ٥، ولى الدين العراقى « فتاوى ولى الدين العراقى » ص ٩، ١٠.

(١) ابن تيمية « الفتاوى » ح ٢٧، ص ٣٣٢، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٨٤، ٣٨٥.

(٢) ولى الدين العراقى « فتاوى ولى الدين العراقى » ص ٩، ١٠، السيوطى « الأمر بالاتباع والنهى عن الابتداع » ص ٣٧ ـ ٣٨، دار الاستقامة ، القاهرة ، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م ، البلاطنسى « تحرير المقال » ص ٢١٤ ـ ٢١٦، ابن تيمية « فتاوى ابن تيمية » ح ٢٧ ص ٣٣٨، ٤٤٨، ٤٩٠.

(٣) السخاوى « تحفة الأحباب » ص ٤، ٥، ابن تيمية « فتاوى ابن تيمية » ح ٢٧ ص ٤٤٨.

(٤) يرى غالب العلماء والجمهور أن قبر سيدنا إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ الذى يوجد بقرية جبرون ـ والتى تسمى مدينة الخليل ـ هو قبره ، انظر : ابن تيمية « فتاوى ابن تيمية » ح ٢٧ ص ٤٤٤، الفزارى « باعث النفوس إلى زيارة القدس المحروس » ص ٧٧، مجير الدين الحنبلى « الأنس الجليل » ح ٢ ص ٧٦.

(٥) يذكر العامة أن قبر « الست » بدمشق هو قبر به امرأة من أهل البيت ، قالوا إنها السيدة أم كلثوم بنت علىّ بن أبى طالب ـ رضى الله عنهما ـ ، وهذا ليس بصحيح ، انظر : شمس الدين البلاطنسى « ت ٨٦٣هـ » « الباعث على إنكار ما تجدد من الحوادث » ص ٤٨، ٤٩، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٢١٩٧ تصوف) ، ومكروفيلم (٣٤٩٣٣) ، ابن طولون «شمس الدين محمد ت ٩٥٣هـ» «ضرب الحوطة على جميع الغوطة» ص ٦ ، مخطوطة بدار الكتب برقم (٢٠٨١) تاريخ تيمور .

بدمشق، ومشهد سيدنا الحسين[1] بن على بن طالب بمصر وغيرها[2]، كما شاع فى ذلك العصر زيارة قبور الأنبياء والصالحين والتشفع بهم، وطلب الحوائج منهم، والنذر على قبورهم، كنذر الشموع العظيمة على قبر الخليل ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ونذر الأموال وغيرها على قبور الأولياء والصالحين، كمشهد السيدة نفيسة بمصر[3]، كما كان يتولد من زيارة القبور اختلاط الرجال بالنساء، كما كان يحدث عن قبر إبراهيم بن أدهم[4] ـ بدمشق، وقبر الست بدمشق[5].

ولقد حارب علماء مصر والشام تلك البدع المتعلقة بالقبور، فأفتى العالمان المصريان ولى الدين العراقى[6] «ت ٨٢٦هـ»، وجلال الدين السيوطى[7] «ت ٩١١هـ» بتحريم التشفع

---

(١) جزم العالم ابن تيمية، وتقى الدين البلاطنسى، وغيرهم أن مشهد سيدنا الحسين بن علىّ بن أبى طالب ـ رضى الله عنهما بمصر ـ كذب، انظر: ابن تيمية «فتاوى ابن تيمية» ح٢٧ ص ٤٤٦، ٤٥١، تقى الدين البلاطنسى «تحرير المقال» ص ٢٣٤.

(٢) البلاطنسى «الباعث على إنكار ما تجدد من الحوادث» ص ٣، ٥، ٧، ١٧، ابن تيمية «فتاوى ابن تيمية» ح ٢٧ ص ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٣٨، ٣٨٠، ٣٨٤.

(٣) ولى الدين العراقى «فتاوى ولى الدين العراقى» ص ٩، ١٠، مخطوطة بدار الكتب المصرية، برقم (٤٦٨ فقه تيمور)، ومكروفيلم (١٢٤٧٥)، السيوطى «الأمر بالاتباع والنهى عن الابتداع» ص ٣٧ ـ ٣٨، البلاطنسى «تحرير المقال» ص ٢١٤، ٢١٥، ٢٣٠، ٢٣١، ابن تيمية «فتاوى ابن تيمية» ح ٢٧ ص ٣٣٨، ٤٩٠، ابن إياس «بدائع الزهور» ح ٥ ص ١٩٢.

(٤) يذكر تقى الدين البلاطنسى أن ذلك القبر المنسوب إلى إبراهيم بن أدهم غير صحيح، ويذكر ابن تيمية أن غالب المشاهد المشهورة بمصر والشام غير صحيحه، وأن الذى اتفق العلماء عليه قبر النبى ﷺ، وقبر سيدنا الخليل إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، يرى غالب العلماء والجمهور بصحته، أما قبور الأنبياء مثل قبر سيدنا نوح، ويوسف وإسحاق ـ عليهم السلام ـ، وغيرها من قبور الصالحين كمشهد سيدنا الحسين بن علىّ بمصر وغيره فهى كذب، انظر: تقى الدين البلاطنسى «تحرير المقال» ص ٢٣٣، ابن تيمية «فتاوى ابن تيمية» ح ٢٧ ص ٤٤٤ ـ ٤٤٦.

(٥) شمس الدين البلاطنسى «الباعث على إنكار ما تجدد من الحوادث» ص ١٧، تقى الدين البلاطنسى «تحرير المقال» ص ٢٣٣.

(٦) ولى الدين العراقى: أحمد بن عبد الرحيم، تفقه على شيوخ عصره، درس وبرع فى علم الحديث، توفى ٨٢٦هـ، انظر: ابن فهد «لحظ الألحاظ» ص ١٦٤.

(٧) جلال الدين السيوطى: انظر: ص ٢٤.

بأصحاب القبور ـ سواء كانوا أنبياء أو صالحين ـ ، وسؤالهم حوائجهم ، أو النذر على تلك القبور كما كان يحدث بقبر سيدنا الخليل ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالقدس ، وقبر السيدة نفيسة بمصر ، وقال السيوطى : « أن ذلك بدعة وشرك صريح »[1] .

كذلك حرم العالم الدمشقى تقى الدين البلاطنسى « ت ٩٣٦هـ » النذر أو الوقف على قبور الأنبياء أو الصالحين ، وقال : « إن ذلك النذر أو الوقف باطل ، لأن العامة عندما تفعل ذلك ، فإنها تعتقد أن هذه الأماكن لها خصوصيات لأنفسها ، ويرون أنها مما يدفع بها البلاء ويستجلب به النعماء ، ويستشفى بالنذر لها من الأدواء أو الأوزار »[2] .

كما حارب شمس الدين البلاطنسى[3] « ت ٨٦٣هـ » ، ما كان يقوم به أهل الشام من شد الرحال إلى قبر الست بدمشق ، الذى كان يزعم العامة أن به السيدة أم كلثوم بنت سيدنا علىّ بن أبى طالب ـ رضى الله عنهما ـ ، فبيّن كذب هذا الزعم ، واستنكر تلك الزيارة التى كانت تتم فى موسم الحج ـ شهرى ذى القعدة وذى الحجة ـ ، حيث كان يتوافد أهل الشام إلى القبر متشبهين بالحجاج فى زيارتهم لقبر النبى ﷺ ، وكأن الفضل سواء ، فضلًا عن سفر النساء من أرجاء الشام إلى ذلك القبر دون محرم ، واختلاط النساء بالرجال[4] .

كذلك استنكر تقى الدين البلاطنسى[5] « ت ٩٣٦هـ » ، الاختلاط المحرم بين الرجال والنساء الذى كان يتم عند قبر إبراهيم بن أدهم ـ المزعوم ـ بدمشق فى منتصف شعبان[6] .

---

(١) ولى الدين العراقى « فتاوى ولى الدين العراقى » ص ٩، ١٠، السيوطى « الأمر بالاتباع والنهى عن الابتداع » ص ٣٧ ـ ٣٨.

(٢) تقى الدين البلاطنسى « تحرير المقال » ص ٢١٤ ـ ٢١٧، ٢٣٠ ـ ٢٣١.

(٣) شمس الدين البلاطنسى : انظر : ص ٢٦١.

(٤) شمس الدين البلاطنسى « الباعث على إنكار ما تجدد من الحوادث » ص ٣، ٥، ٦، ٧، ١٧، ١٨، ٤٨، ٤٩.

(٥) تقى الدين البلاطنسى : انظر : ص ٢٦٩.

(٦) تقى الدين البلاطنسى « تحرير المقال » ص ٢٣٣.

* بدعة خروج النساء إلى المساجد متبرجات :

إن خروج النساء إلى المساجد أمرٌ أقرّه الإسلام ، ففى صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ أن النبى ﷺ قال : « لا تمنعوا نساءكم المساجد إذا استأذنَّكُمْ إليها[*] »[(١)] ، وفى رواية أخرى عن عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ أن النبى ﷺ قال : « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله »[(٢)] .

وفى ذلك الأمر ورد ـ أيضًا ـ قول السيدة عائشة ، الذى روته عنها عَمْرَة بنت عبد الرحمن ، حيث قالت : سمعت عائشة زوج النبى ﷺ تقول : « لو أن رسول الله ﷺ رأى ما أحدث النساء لمنعهن المسجد كما مُنعت نساء بنى إسرائيل »[(٣)] .

وعلى أساس هذا القول الذى روّى عن السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ ، رأى علماء العصر المملوكى ، أنه إذا كان النبى ﷺ أذن للنساء إذنًا عامًا فى الخروج إلى المساجد ، كما ورد فى الأحاديث النبوية الصحيحة ـ سالفة الذكر ـ ، إلا أن هذا الاستحباب انقلب إلى التحريم فى زماننا ، حيث أصبحن النساء ـ فى الغالب ـ يخرجن إلى المساجد ، وهن متبرجات بالزينة ويضعن الطيب ، بل ويختلطن[*] بالرجال فى المساجد أثناء « المواعيد » ـ

(*) جاء فى صحيح مسلم ، أن بلال بن عبد الله بن عمر ، لما سمع حديث النبى ﷺ ، قال : والله لنمنعُهُنّ ، فأقبل عليه عبد الله بن عمر ، وسبّه سبًّا شديدًا ، وقال أخبرك عن رسول الله ﷺ وتقول : والله لنمنعُهُنّ ، انظر : النووى « يحيى بن شرف ت ٦٧٦هـ » « صحيح مسلم بشرح النووى » ح ٤ ص ٢١٢، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر ، ط ٣ (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م) .

(١) النووى « صحيح مسلم بشرح النووى » ح ٤ ص ٢١٢.

(٢) النووى « صحيح مسلم بشرح النووى » ح ٤ ص ٢١٣.

(٣) النووى « صحيح مسلم بشرح النووى » ح ٤ ص ٢١٦.

(*) روى أبو داود ، من حديث أبى أسيد الأنصارى ، أنه سمع رسول الله ﷺ وهو خارج من المسجد ، فاختلط الرجال مع النساء فى الطريق ، فقال النبى ﷺ للنساء : « استأخرن ، ، فإنه ليس لكن أن تحققن الطريق ، عليكن بحافات الطريق » ، قال فكانت المرأة تلتصق بالجدار حتى أن ثوبها ليتعلق بالجدار من لصوقها به ! ، انظر : شمس الدين البلاطنسى « الباعث على إنكار ما تجدد من الحوادث » ص ٢٤، أبو داود «سنن أبى داود» ح٤ ص ٢٢٣٩.

المجالس الدينية ـ التى كانت تعقد بتلك المساجد .

ومن أشهر علماء مصر والشام ـ فى القرن التاسع ـ الذين أفتوا بتحريم خروج النساء إلى المساجد بسبب فساد الزمن والمحارم التى تحدث بسبب ذلك ، من مصر ، العالم علاء الدين البخارى[١] « ت ٨٤١هـ » ، والعالم شهاب الدين الأقفهسى[٢] « ت ٨٤٧هـ » ، ومن دمشق ، العالم تقى الدين الحصنى[٣] « ت ٨٢٩هـ » ، والعالم ابن علوان[٤] « ت ٩١٧هـ » ، والعالم شمس الدين البلاطنسى[٥] « ت ٨٦٣هـ » ، والعالم تقى الدين البلاطنسى[٦] « ت ٩٣٦هـ »[٧] .

ومن تلك البدع التى حاربها علماء العصر المملوكى صلاة الرغائب[٨] ، فلقد أفتى العالم

---

(١) علاء الدين البخارى : على بن محمد ، من كبار علماء الهند ، رحل إلى مصر فى العصر المملوكى ، توفى عام ٨٤١هـ ، انظر : ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٩ ص ٢٣.

(٢) شهاب الدين الأقفهسى : أحمد بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، توفى عام ٨٤٧هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٢ ص ١٨٠.

(٣) تقى الدين الحصنى : أبو بكر بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، برع فى علم الفقه ، توفى عام ٨٢٩هـ ، انظر : ابن شهبة « طبقات الشافعية » ح ٢ ص ٣٠٨.

(٤) ابن علوان : على بن عطية ، تفقه على شيوخ عصره ، من كبار علماء دمشق ، له مصنفات عدة ، توفى ٩٣٦هـ ، انظر : ابن الحنبلى « در الحبب » ح ١ ص ٦٧٤.

(٥) شمس الدين البلاطنسى : انظر : ص ٢٦١.

(٦) تقى الدين البلاطنسى : انظر : ص ٢٦٩.

(٧) شهاب الدين الأقفهسى « تسهيل المقاصد لزوار المساجد » ص ٢٤٢، مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (١٤٤٠ فقه شافعى) ، شمس الدين البلاطنسى « الباعث على إنكار ما تجدد من الحوادث » ص ١٩، ٢٠، ٢٤، ٣٢، ابن علوان « أسنى المقاصد فى بدع المساجد » ص ٣٢، ٣٣، مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (٩٠ مجاميع تيمور) ومكروفيلم (١٧٨٢٨) ، تقى الدين البلاطنسى « تحرير المقال » ص ٢٢٦، ٢٢٧.

(٨) **صلاة الرغائب** : الأصل فى تلك الصلاة حديث موضوع يقول : « لا تغفلوا من أول ليلة فى رجب ، فإنها ليلة تسميها الملائكة الرغائب » ، ثم قال : « وما من أحد يصوم يوم الخميس ـ أول خميس من رجب ، ثم يُصلى ما بين العشاء والعتمة ـ يعنى ليلة الجمعة اثنتى عشر ركعة » ، وهذا حديث موضوع ، ورجاله مجهولون ، واشتهرت تلك الصلاة بين العامة فى العصر المملوكى ، ولقد كان حدوث تلك الصلاة =

العز بن عبد السلام[١] « ت ٦٦٠هـ » ، وابن تيمية[٢] « ت ٧٢٨هـ » بأنها بدعة[٣] .

أما علماء مصر والشام ـ فى القرن التاسع ـ الذين أفتوا بأن تلك الصلاة بدعة ، العالم المصرى زكريا الأنصارى[٤] « ت ٩٢٦هـ »[٥] ، ومن دمشق ، العالم تقى الدين البلاطنسى[٦] « ت ٩٣٦هـ »[٧] ، والعالم قطب الدين الخيضرى[٨] « ت ٨٩٤هـ »[٩] ، والعالم محمد بن إبراهيم[١٠] « ت ٨٩١هـ »[١١] .

= بعد المائة الرابعة من الهجرة ، وكانت تُصلى فى أول جمعة من شهر رجب اثنتا عشرة ركعة ، وهناك من كان يصليها ليلة النصف من شعبان ، انظر : محمد بن إبراهيم « النور المبين فى الوعظ المتين » ص ٣٥٦، تقى الدين البلاطنسى « تحرير المقال » ص ٢٢٥، ابن الحاج « المدخل » ح ٤ ص ٢٤٨، ٢٥٤.

(١) العز بن عبد السلام : عبد العزيز بن عبد السلام ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء مصر ، وخطابة الجامع بدمشق ، وكان سلطان العلماء فى عصره ، توفى ٦٦٠هـ ، السبكى « طبقات الشافعية » ح ٨ ص ٢٠٩.

(٢) ابن تيمية : أحمد بن عبد الحليم ، شيخ الإسلام بدمشق فى عصره ، درس وأفتى ، اشتهر بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، توفى ٧٢٨هـ ، انظر : ابن العماد « شذرات الذهب » ح ٦ ص ٨٠.

(٣) تقى الدين البلاطنسى « تحرير المقال » ص ٢٢٥، السبكى «طبقات الشافعية» ح٨ ص ٢٥٢، محمد الخضر حسين « السنة والبدعة » ص ٢٤، مقال بدورية دراسات عربية وإسلامية ، عدد (٢٠) ، عام ١٩٩٩م .

(٤) زكريا الأنصارى : انظر : ص ٢٦٩.

(٥) تقى الدين البلاطنسى « تحرير المقال » ص ٢٢٥.

(٦) تقى الدين البلاطنسى : انظر ص ٢٦٩.

(٧) تقى الدين البلاطنسى « تحرير المقال » ص ٢٢٥.

(٨) قطب الدين الخيضرى : محمد بن محمد بن عبد الله ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء الشافعية بدمشق ، توفى عام ٨٩٤هـ ، انظر : ابن طولون « قضاة دمشق » ص ١٧٨.

(٩) ألف قطب الدين الخيضرى فى صلاة الرغائب رسالة من ورقتين ، عام ٨٨٩هـ ، وسماها « تحفة الحبائب بالنهى عن صلاة الرغائب » ، انظر حاجى خليفة « كشف الظنون » ح ١ ص ٣٦٥.

(١٠) محمد بن إبراهيم : هو محمد بن إبراهيم ، يعرف بابن قاضى عجلون ، تفقه على شيوخ عصره ، درس ، وناب فى خطابة الجامع الأموى بدمشق ، وناب فى قضاء دمشق ، توفى عام ٨٩١هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٢ ص ٢٥٤.

(١١) محمد بن إبراهيم « النور المبين فى الوعظ المتين » ص ٣٥٠ ـ ٣٦١.

ومن البدع التى عانى منها المجتمع المصرى والشامى فى العصر المملوكى البدع المتعلقة بالنكاح ، كالإسراف فى حفلات النكاح ، واختلاط النساء بالرجال فى تلك الحفلات ، وما يحدث من رقص وغناء فى تلك الحفلات ، وإقبال الشباب على المرأة ذات المال والزهد فى المرأة ذات الدين[(١)] .

ولقد ندد العالم الدمشقى ابن علوان « ت ٩٣٦هـ » بهذه الأمور المنكرة حيث يذكر فى كتابه « نسمات الأسحار فى كرامات الأولياء الأخيار »[(*)] ، أن الرجال أصبحن يتهافتن على المرأة الحسناء ، ذات المال ، وزهدن فيمن ذات دين مخالفين بذلك سنّة الرسول ﷺ « اظفر بذات الدين تربت يداك » ، كما أسرفن فى حفلات النكاح ، واختلطن الرجال مع النساء ، وأحضرت فى تلك الحفلات أرباب الغناء[(٢)] .

ومن تلك البدع المنكرة التى ذكرها ابن علوان فى كتابه «أسنى المقاصد فى بدع المساجد » ، أن عقد النكاح كان يتم فى المسجد ، وأثناء ذلك يختلطن النساء المتبرجات بالرجال ، وتقدم أطعمة العرس بالمسجد[(٣)] .

ومن البدع التى كافحها علماء العصر المملوكى مشاركة المسلمين أهل الذمة فى الاحتفال بأعيادهم ، كعيد النيروز[(٤)] ، ....

---

(١) ابن بيدكين « إدريس بن بيدكين ـ عاش فى القرن السابع الهجرى وبداية القرن الثامن الهجرى ـ » « اللمع فى الحوادث والبدع » ص ٧٣، مخطوطة بدار الكتب المصرية ، برقم (٤٨٧٣٠) ، د. ليلى الصباغ « الفتح العثمانى لسوريا » ص ٣١٤ ـ ٣١٩، د. فايزة الوكيل « الشّوار » « جهاز العروس » فى مصر فى عصر سلاطين المماليك » ص ٤٢٩، دار نهضة الشرق ، ٢٠٠١م .

(*) هذا الكتاب مخطوط بدار الكتب الظاهرية بدمشق برقم (١٤١٥ عام) ، ولقد نشرت أجزاء منه الدكتورة ليلى الصباغ بملاحق رسالتها « الفتح العثمانى لسوريا » .

(٢) د. ليلى الصباغ « الفتح العثمانى لسوريا » ص ٣١٤ ـ ٣١٩ « نقلًا عن « نسمات الأسحار » لابن علوان » .

(٣) ابن علوان « أسنى المقاصد فى بدع المساجد » ص ٢، ٢٥.

(٤) **النيروز** : هو من أعياد القبط النصارى بمصر ، وهو أول السنة القبطية بمصر ، وهو أول يوم من تُوت ، وكان من مواسم لهو المصريين قديمًا وحديثًا ـ كما يذكر المقريزى ـ ، وهناك رأى بأن الفيروز ، لفظ فارسى =

وعيد النهر[1] «مارجرجس»، فلقد نهى العلماء من خلال مجالسهم الدينية التى كانوا يعقدونها بالمساجد أمثال محمد بن إبراهيم الدمشقى[2]، الذى استنكر على المسلمين مشاركتهم لأهل الذمة فى الاحتفال بأعيادهم، كعيد النيروز، حيث كان المسلمون يشاركونهم فى أكل أصناف معينة من الطعام كالهريسة، والبلح، والبطيخ، والخروج إلى المتنزهات، وبين لهم أن ذلك الأمر بدعة محرمة[3]، كما أفتى السيوطى[4] «ت ٩١١هـ» بأن ذلك الأمر بدعة[5].

وهكذا حارب علماء مصر والشام البدع التى عانى منها المجتمع المصرى والشامى،

= أصله بالفارسية نيغ روز، وتفسيره يوم جديد، وهو أحد أعياد الفرس القديمة، اعتاد المجوس على تقديم الهدايا والقربات لملوكهم فيه، وقد درج الدهاقين على تقديم الهدايا فيه للعمال والخلفاء فى العصر الأموى والعباسى، ولقد شارك المسلمين فى الاحتفال به، انظر: المقريزى «الخطط» ح ١ ص ٧٢٤، د. عبد الحكيم عبد الحق محمد «دور العلماء فى الحياة السياسية والاقتصادية فى العصر العباسى الأول» ص ٣٦٧، دكتوراة، آداب المنصورة، ٢٠٠٤م.

(١) **عيد النهر** «**مارجرجس**»: هو عيد يحتفل به نصارى بيروت فى ثالث وعشرين نيسان «إبريل» من كل عام حيث يخرجون فى ذلك اليوم إلى نهر بيروت، ويشاركهم المسلمون فى هذا الاحتفال، ويرتبط هذا العيد بقصة رواها صالح بن يحيى ـ صاحب كتاب «تاريخ بيروت» ـ، أن النصارى زعموا أنه فى القدم خرج فى بيروت تنين عظيم، فقرر أهل بيروت له فى كل عام بنتا يخرجونها اكتفاء لشره، فوقعت القرعة فى سنة من السنين على بنت صاحب بيروت، فأخرج بنته، فتوسلت بالدعاء، فتصور لها مارجرجس القديس، فقتل التنين، فأمر صاحب بيروت ببناء كنيسة بالقرب من النهر، والنصارى تصور هذه الكائنة فى سائر كنائس بلادهم، انظر: وفاء محمد «ساحل الشام فى العصر المملوكى» ص ٢٦٩.

(٢) محمد بن إبراهيم: هو محمد بن إبراهيم، يعرف بابن قاضى عجلون، تفقه على شيوخ عصره، درس، وناب فى خطابة الجامع الأموى بدمشق، وناب فى قضاء دمشق، وصفه السخاوى بالعلامة، توفى عام ٨٩١هـ، انظر السخاوى «الضوء اللامع» ح ٢ ص ٢٥٤، السخاوى «وجيز الكلام» ح ٣ ص ٩٨٦.

(٣) محمد بن إبراهيم «النور المبين فى الوعظ المتين» ص ٣٦٢، ٣٦٨، ٣٦٩، مخطوطة بدار الكتب المصرية، برقم (٥٦٨٠٥)، ابن بيدكين «اللمع» ص ٢٩٣، ابن الحاج «المدخل» ح ٢ ص ٤٦، ٤٨، ٤٩.

(٤) السيوطى: انظر: ص ١٦٤.

(٥) السيوطى «الأمر بالاتباع والنهى عن الابتداع» ص ٥٠ ـ ٥٦.

فتصدوا للاعتقاد فى التنجيم والسحر والجان ، حيث جاهدوا بلسانهم وأقلامهم هؤلاء الدجالين الذين ادّعوا قدرتهم على تسخير الجان ، واستخدامه فى شتى الأغراض ، وبينوا أن الجن ليس له سلطان على المسلم ، وأن السبيل الوحيد للحماية من أذى الجن ووساوسه هو قراءة القرآن ، والصلاة والدعاء وليس بما يقوله الكهان ، وما يقدموه من تمائم .

كذلك قام العلماء من خلال ولايتهم للحسبة بتعزير هؤلاء الدجالين وإغلاق الأماكن التى كانوا يمارسون فيها أعمالهم غير المشروعة .

كذلك تصدى العلماء للبدع المرتبطة بالقبور ، والتى كان منها شد الرحال لزيارة قبور الأنبياء والصالحين ، والتشفع بهم ، وطلب الحوائج منهم ، والنذر على قبورهم ، فأفتوا بتحريم تلك الأمور ، مظهرين رأى الشرع فى تلك الأمور ، كما نهوا عن ذلك فى مؤلفاتهم التى صنفوها وتحدثوا فيها عن البدع بشكل عام ، ومنها تلك البدعة المذمومة .

كما تصدى علماء مصر والشام لبدعة خروج النساء إلى المساجد متبرجات ، واختلاطهن بالرجال فى المساجد أثناء المواعيد « المجالس الدينية » ، التى كانت تعقد بتلك المساجد ، حيث أفتى العلماء بتحريم خروج النساء إلى المساجد ؛ بسبب تلك المفاسد سدًا للذرائع .

كذلك تصدى العلماء لبدعة صلاة الرغائب التى كانت قائمة بمصر والشام فى القرن التاسع ، وأفتوا بتحريمها ، وبينوا رأى الشرع فيها فى مصنفاتهم العلمية .

كما تصدى العلماء للبدع المتعلقة بالنكاح ، كالإسراف فى حفلات النكاح ، واختلاط النساء بالرجال فى تلك الحفلات ، وما يحدث من رقص وغناء فى تلك الحفلات وغير ذلك ، حيث جاهدوا بأقلامهم تلك الأمور المستقبحة وبينوا رأى الشرع الحنيف فى ذلك الأمر .

كذلك تصدى العلماء لمشاركة المسلمين أهل الذمة فى الاحتفال بأعيادهم كعيد النيروز وغيره ، فنهوا فى مجالسهم الدينية عن ذلك الأمر ، كما أصدروا الفتاوى التى تحرم ذلك الأمر وتوضح أنه بدعة مذمومة .

٣ ـ العلماء والمجالس الدينية ووعظ السلطة المملوكية

لقد كان الوعظ[*] والنصح فى القرآن مرتبطًا برسالات الأنبياء، ولأن العلماء هم ورثة الأنبياء، فإنه من الواجب عليهم إكمال مسيرة الأنبياء فى هذا الشأن، ولقد أدى علماء مصر والشام ـ فى القرن التاسع ـ هذا الواجب خير أداء، حيث تذخر المصادر التاريخية وكتب التراجم والطبقات بهؤلاء العلماء الذين كانوا يعقدون المجالس الدينية ـ المواعيد بمصطلح العصر المملوكى ـ فى المساجد لنصح ووعظ المصريين والشاميين وتعليمهم أمور دينهم، ولكن تلك المصادر التاريخية ضنت بذكر ماهية الموضوعات والقضايا التى كانا يتناولها العلماء فى تلك المجالس، غير أن لدينا بعض الإشارات التى يمكن أن نستنبط منها ما أغفلت المصادر التاريخية ذكره، فلقد جمع العالم محمد بن إبراهيم الدمشقى[١] «ت ٨٩١هـ» دروسه الوعظية التى كان يُلقيها بمساجد دمشق فى كتاب سمّاه «النور المبين فى الوعظ المتين»[٢].

ويظهر من خلال ذلك الكتاب، ماهية الموضوعات والقضايا التى كانت تطرح فى المجالس الدينية فى ذلك العصر، والتى كان منها ـ على سبيل المثال ـ محاربة البدع التى كانت سائدة لدى العامة، والتى منها بدعة صلاة الرغائب[٣]، وبدعة مشاركة المسلمين

(*) **الوعظ**: لغة: هو النصح والتذكير بالعواقب، واصطلاحًا: هو تذكير الإنسان بما يلين قلبه من ثواب وعقاب، انظر: د. عبد الله عفيفى «الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» ص ٥٦، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٩٩٦م.

(١) محمد بن إبراهيم: هو محمد بن إبراهيم، يعرف بابن قاضى عجلون، تفقه على شيوخ عصره، درس، وناب فى خطابة الجامع الأموى بدمشق، وناب فى قضاء دمشق، وصفه السخاوى بالعلامة، توفى عام ٨٩١هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ٢ ص ٢٥٤، السخاوى «وجيز الكلام» ح ٣ ص ٩٨٦.

(٢) هذا الكتاب مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٥٦٨٠٥).

(٣) ذكر الباحث ـ فى موضع سابق من الفصل ـ تصدى العالم محمد بن إبراهيم لتلك البدعة «صلاة الرغائب»، انظر: ص ٢٨٧.

للنصارى فى الاحتفال بأعيادهم كعيد النيروز، وعيد النهر[١] ، ومن تلك الموضوعات ـ أيضًا ـ محاربة طوائف الصوفية المبتدعة « الدراويش والمجاذيب » ، وانحرافاتهم والتى كان منها السماع والرقص وضرب الدف بالزوايا والمساجد[٢] ، كذلك بعض الموضوعات المتعلقة بالأسرة المسلمة وتربية الأبناء على المنهج الإسلامى، والذى منه الاهتمام بتربية الابنة وحسن رعايتها مثل الابن دون تمييز[٣] ، فضلًا على بعض الموضوعات الوعظية كالتذكير بالموت[٤] ، وحكايات بعض الصالحين وعباداتهم وزهدهم[٥] .

ويمكن القول أن تلك الموضوعات والقضايا التى تناولها محمد بن إبراهيم الدمشقى فى مجالسه الدينية قريبة الشبه لحدٍ كبير بالموضوعات والقضايا التى تناولها أقرانه فى مجالسهم الدينية .

كذلك لدينا إشارات فى بعض كتب التراجم والطبقات، أن تلك المجالس الدينية التى كان يعقدها العلماء بالمساجد كانت تتناول دروسًا فى تفسير القرآن الكريم، ومن هؤلاء العلماء الذين كانت مجالسهم الدينية دروسًا فى تفسير القرآن الكريم، ـ من مصر ـ، العالم سراج الدين البلقينى[٦] « ت ٨٠٥هـ »[٧] ، والعالم سعد الدين الديرى[٨] « ت٨٦٧هـ »[٩] ،

---

(١) ذكر الباحث ـ فى موضع سابق من الفصل ـ تصدى العالم محمد بن إبراهيم لتلك البدعة « مشاركة المسلمين للنصارى فى احتفالاتهم ـ، انظر: ص ٢٨٩.

(٢) ذكر الباحث ـ فى موضع سابق من الفصل ـ تصدى العالم محمد بن إبراهيم لانحرافات الدراويش والمجاذيب .

(٣) محمد بن إبراهيم الدمشقى « النور المبين فى الوعظ المتين» ص ٣٧٩.

(٤) محمد بن إبراهيم الدمشقى « النور المبين فى الوعظ المتين» ص ١٧ ـ ٢٤.

(٥) محمد بن إبراهيم الدمشقى « النور المبين فى الوعظ المتين» ص ٢٥ ـ ٣٣.

(٦) سراج الدين البلقينى: عمر بن رسلان، تفقه على شيوخ عصره، درس، وأفتى، توفى ٨٠٥هـ، انظر: السخاوى « الضوء اللامع » ح ٦ ص ٨٥.

(٧) جلال الدين البلقينى « ترجمة سراج الدين البلقينى » ص ٢٠ ـ ٢٩، ابن شهبة « الإعلام بتاريخ الإسلام » ص ٣٢٢.

(٨) سعد الدين الديرى: انظر: ص ٢٦٠.

(٩) ابن طولون « الغرف العلية فى تراجم الحنفية » ص ٣٣١.

وجلال الدين البلقينى[(١)] « ت ٨٢٤هـ »[(٢)] ، وأبو النجا ابن خلف[(٣)] « ولد ٨٤٩هـ »[(٤)] .

ـ ومن دمشق ، العالم برهان الدين البقاعى[(٥)] « ت ٨٨٥هـ »[(٦)] .

ـ ومن القدس ـ العالم شهاب الدين[(٧)] أبو العباس « ت ٨٧٠هـ »[(٨)] .

والآن يعرض الباحث لهؤلاء العلماء الذين ذكرت المصادر التاريخية أنهم كانوا يعقدون المجالس الدينية ـ المواعيد بمصطلح العصر المملوكى ـ فى المساجد لنصح ووعظ المصريين والشاميين وتعليمهم أمور دينهم .

فمن مصر ـ على سبيل المثال ـ جلال الدين البلقينى « ت ٨٢٤هـ »[(٩)] ، وجمال الدين الأذرعى[(١٠)] « ت ٨٤٦هـ »[(١١)] ، وشمس الدين محمد[(١٢)] « ت ٨٤٧هـ »[(١٣)] ، وصالح

---

(١) جلال الدين البلقينى : عبد الرحمن بن عمر ، تفقه على شيوخ عصره ، درس ، وأفتى ، تولى قضاء الشافعية بمصر ، توفى ٨٢٤هـ ، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٤ ص ١٠٦.

(٢) ابن حجر « إنباء الغمر » ح٣ ص ٢٦٠، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م .

(٣) أبو النجا ابن خلف : هو من فقهاء مدينة فوة ـ إحدى مدن مصر ، قطنها مدة طويلة ، ثم ذهب إلى القاهرة ، وعقد مجلسًا للتفسير بجامع الأزهر ، واستُحسنت مجالسه ، وسمعها جمع من الأعيان ، ولد عام ٨٤٩هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ١١ ص ١٤٤.

(٤) السخاوى « الضوء اللامع » ح ١١ ص ١٤٤.

(٥) برهان الدين البقاعى : انظر : ص ٢٦٣.

(٦) البقاعى « إظهار العصر » ص ٥٨.

(٧) شهاب الدين أبو العباس : أحمد بن عبد الله ، تفقه على شيوخ عصره ، اجتمع عليه أهالى القدس لسماع وعظه وتذكيره ، توفى ٨٧٠هـ ، انظر : ابن شاهين « المعجم المفنن » ص ٩١.

(٨) ابن شاهين « المعجم المفنن » ص ٩١.

(٩) ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٧ ص ٤٤٠.

(١٠) جمال الدين الأذرعى : عبد الله بن الحسن ، تفقه على شيوخ عصره ، درس ، توفى عام ٨٤٦هـ ، انظر : ابن الصيرفى « نزهة النفوس » ح ٤ ص ٢٦١.

(١١) ابن الصيرفى « نزهة النفوس » ح ٤ ص ٢٦١.

(١٢) شمس الدين محمد : محمد بن حسن ، العالم الفقيه الربانى ، كان ديِّنا فقيهًا ، عالمًا ، توفى ٨٤٧هـ ، انظر : ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٥ ص ٢٣٣.

(١٣) ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٥ ص ٢٣٣.

البلقينى[(١)] « ت ٨٦٨هـ »[(٢)] ، وسعد الدين الديرى[(٣)] « ت ٨٦٧هـ »[(٤)] ، وشهاب الدين أبو العباس[(٥)] « ت ٨٧٠هـ »[(٦)] ، وبرهان الدين الديرى[(٧)] « ت ٨٧٦هـ »[(٨)] ، وزكريا الأنصارى[(٩)] « ت ٩٢٦هـ »[(١٠)] .

ومن علماء دمشق الذين تزاحم الدمشقيون على مجالسهم الدينية إبراهيم بن مفلح[(١١)] « ت ٨٠٣هـ »[(١٢)] ، وابن الجزرى[(١٣)] « ت ٨١٣هـ »[(١٤)] ، وأبو بكر بن مفلح[(١٥)]

---

(١) صالح البلقينى : صالح بن عمر ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء الشافعية بمصر ، درس ، توفى ٨٦٨هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٣ ص ٣١٢.

(٢) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٣ ص ٣١٢، السخاوى « الذيل على رفع الأصر » ص ١٦١.

(٣) سعد الدين الديرى ، انظر : ص ٢٦٠.

(٤) ابن طولون « الغرف العلية فى تراجم الحنفية » ص ٣٣١، الغزى « الطبقات السنية فى تراجم الحنفية » ص ٢٢، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٣ ص ٢٥٠.

(٥) شهاب الدين أبو العباس : أحمد بن عبد الله ، تفقه على شيوخ عصره بالقدس ، قدم إلى القاهرة ، وعقد المجالس الدينية بها ، توفى ٨٧٠هـ ، انظر : ابن شاهين « المعجم المفنن » ص ٩١.

(٦) ابن شاهين « المعجم المفنن » ص ٩١، ابن إياس « بدائع الزهور » ح ٢ ص ٤٣٧.

(٧) برهان الدين الديرى : إبراهيم بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، درس ، وتولى قضاء الحنفية بمصر ، توفى عام ٨٧٦هـ ، انظر : السخاوى « الذيل على رفع الأصر » ص ٤.

(٨) السخاوى « الذيل على رفع الأصر » ص ٥.

(٩) زكريا الأنصارى : زكريا بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، درس ، وتولى قضاء الشافعية بمصر ، توفى عام ٩٢٦هـ ، انظر : الغزى « الكواكب السائرة » ص ١٩٦.

(١٠) السخاوى « الذيل على رفع الأصر » ص ١٤٦.

(١١) إبراهيم بن مفلح : إبراهيم بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، ولى قضاء الحنابلة بدمشق عام ٨٠١هـ ، توفى عام ٨٠٣هـ ، انظر : ابن طولون « قضاة دمشق » ص ٢٨٨.

(١٢) ابن مفلح « المقصد الأرشد » ح ١ ص ٢٣٧، ابن طولون « قضاة دمشق » ص ٢٨٨.

(١٣) ابن الجزرى : على بن إبراهيم ، تفقه على شيوخ عصره ، برع فى الفقه ، ودرس ، توفى عام ٨١٣هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٥ ص ١٥٧.

(١٤) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٥ ص ١٥٧، المقريزى « درر العقود » ح ٢ ص ٥٣٩.

(١٥) أبو بكر بن مفلح : هو أبو بكر بن إبراهيم ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء الحنابلة بدمشق ، توفى عام ٨٢٠هـ ، انظر : ابن طولون « قضاة دمشق » ص ٢٩٠.

« ت ٨٢٠هـ »[١]، وتقى الدين الحصنى[٢] « ت ٨٢٩هـ »[٣]، وتاج الدين أبو حامد « ت ٨٣١هـ »[٤]، وابن زكنون[٥] « ت ٨٣٧هـ »[٦]، ومحيى الدين أبو زكريا[٧] « ت ٨٤٠هـ »[٨]، وأبى شعر[٩] « ت ٨٤٤هـ »[١٠]، وعلاء الدين الدمشقى[١١] « ت ٨٤٤هـ »[١٢]، وعمر بن مفلح[١٣] « ت ٨٧٠هـ »[١٤].

ومن علماء حلب الذين تزاحم الحلبيون على مجالسهم الدينية شهاب الدين

---

(١) السخاوى « الضوء اللامع » ح ١١ ص ١٣، ابن طولون « قضاة دمشق » ص ٢٩١.

(٢) تقى الدين الحصنى : أبو بكر بن محمد، تفقه على شيوخ عصره، برع فى علم الفقه، توفى ٨٢٩هـ، انظر : ابن قاضى شهبة « طبقات الشافعية » ح ٢ ص ٣٠٨.

(٣) البقاعى « عنوان الزمان » ح١ ص ١٧٦.

(٤) البقاعى « عنوان الزمان » ح٢ ص ٤٦٧.

(٥) ابن زكنون : على بن حسين، تفقه على شيوخ عصره، برع فى علم الحديث، توفى ٨٣٧هـ، انظر : المقريزى « درر العقود » ح ٢ ص ٤٨٢.

(٦) ابن المبرد « الجوهر المنضد » ص ٩٥، ابن مفلح « المقصد الأرشد » ح ٢ ص ٢٣٧، ابن عبد الهادى « ذيل ابن عبد الهادى » ص ٦٢.

(٧) محيى الدين أبو زكريا : يحيى بن يحيى، تفقه على شيوخ عصره، ناب فى قضاء الشافعية بدمشق، درس وأفتى، توفى ٨٤٠هـ، انظر : ابن شهبة « طبقات الشافعية » ح ٢ ص ٣٣٦.

(٨) ابن شهبة « طبقات الشافعية » ح ٢ ص ٣٣٦.

(٩) أبى شعر : عبد الرحمن بن سليمان، تفقه على شيوخ عصره، كان بارعًا فى الفقه والتفسير، توفى عام ٨٤٤هـ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٤ ص ٨٢.

(١٠) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٤ ص ٨٢.

(١١) علاء الدين الدمشقى : على بن عثمان، تفقه على شيوخ عصره، درس بدمشق، وأفتى، ناب فى القضاء، توفى ٨٤٤هـ، انظر : المقريزى « درر العقود » ح ٢ ص ٥٤١.

(١٢) المقريزى « درر العقود » ح ٢ ص ٥٤٢.

(١٣) عمر بن مفلح : عمر بن مفلح، تفقه على شيوخ عصره، تولى قضاء الحنابلة بدمشق، توفى ٨٧٠هـ، انظر : ابن طولون « قضاة دمشق » ص ٢٩٦.

(١٤) ابن المبرد « الجوهر المنضد » ص ١٠٦، ابن طولون « قضاة دمشق » ص ٢٩٦، ابن عبد الهادى « ذيل ابن عبد الهادى » ص ٦٧.

الحاضرى[(١)] « ت ٩١٣هـ »[(٢)] ، وابن الشماع[(٣)] « ت ٨٦٣هـ »[(٤)] ، وقوام الدين الحلبى[(٥)] « ت ٩٢٤هـ »[(٦)] ، وابن الرسام « ت ٨٤٤هـ »[(٧)] ، وعبد المنعم بن عبد الله « ت ٨٠٢هـ »[(٨)] .

وهكذا قام ـ علماء مصر والشام خلال القرن التاسع ـ كما أظهرت كتب التراجم ـ بعقد المجالس الدينية التى كانت تقام بالمساجد والزوايا ، والتى قاموا فيها بتعليم المصريين والشاميين أمور دينهم « عبادات ـ معاملات » ، كما تصدوا خلالها لتلك البدع التى انتشرت فى المجتمع آنذاك ، كما تصدوا لتلك الطوائف المنحرفة من الصوفية المبتدعة وهاجموا أفكارهم المنحرفة ، فضلًا على قيام بعض العلماء بتخصيص مجالسهم لتفسير القرآن الكريم .

* العلماء ووعظ السلطة المملوكية :

تذكر لنا المصادر التاريخية أن بعض علماء مصر والشام تصدوا لوعظ[(*)] السلطة المملوكية ، ومن أشهر علماء مصر فى هذا الميدان العالم بدر الدين العينى[(٩)] « ت ٨٥٥هـ » ،

---

(١) شهاب الدين الحاضرى : هو أحمد بن أحمد ، تفقه على شيوخ عصره ، أفتى ، وعقد المجالس الدينية بحلب ، توفى ٩١٣هـ ، انظر : ابن الحنبلى « در الحبب فى أعيان حلب » ح ١ ص ٨٩، ٩٠.

(٢) ابن الحنبلى « در الحبب فى أعيان حلب » ح ١ ص ٨٩، ٩٠.

(٣) ابن الشماع : محمد بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، وكان يعقد المجالس الدينية بحلب ، توفى ٨٦٣هـ ، انظر : ابن الحنبلى « در الحبب فى أعيان حلب » ح ٢ ص ٣٢.

(٤) ابن الحنبلى « در الحبب فى أعيان حلب » ح ٢ ص ٣٢.

(٥) قوام الدين الحلبى : محمد بن أبى بكر ، كان عالمًا فقيهًا ، درس بجامع حلب ، وعقد المجالس الدينية بحلب ، توفى ٩٤٢هـ ، انظر : ابن الحنبلى « در الحبب فى أعيان حلب » ح ٢ ص ٤٣.

(٦) ابن الحنبلى « در الحبب فى أعيان حلب » ح ٢ ص ٤٣ .

(٧) البقاعى « عنوان الزمان » ح ١ ص ٧، ابن مفلح « المقصد الأرشد » ح ١ ص ٨٠.

(٨) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٥ ص ٨٩.

(*) الوعظ : انظر : ص ٢٩١.

(٩) بدر الدين العينى : محمود بن أحمد ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء الحنفية بمصر ، توفى ٨٥٥هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ١٠ ص ١٣١.

الذى كان له مواعظ حسنة للسلطان المؤيد شيخ[1] « ت ٨٢٤هـ » ، والتى منها حثّه على معرفة أمور الرعية قليلها وكثيرها[2] ، وإنصاف المظلومين ، والجلوس مع العلماء وأرباب الرأى وتجنب مجلس اللهو والمنكرات[3] ، وعدم احتقار أرباب الحوائج[4] ، وتتبع أحوال نوابه وأخبارهم[5] ، والإكثار من قراءة سير الخلفاء الراشدين[6] ، وحسن اختيار نوابه وعماله[7] .

كذلك كان أمر بدر الدين العينى مع السلطان برسباى[8] « ت ٨٤١هـ » ، حيث كان العينى مستشاره الخاص ـ بمفهومنا المعاصر ـ ، فكان يقرأ له التاريخ باللغة العربية ، ثم يُفسره له باللغة التركية لتمكنه منها ، وكان يوضح له أمور الدين فى كل وقت وحين ، ويعلمه مباشرة النظر فى مصالح المسلمين ، يبعده عن المظالم ، ولذلك قال السلطان برسباى مرارًا « لولا العينى ما حسن إسلامنا »[9] .

ومن هؤلاء العلماء ـ أيضًا ـ بدر الدين البغدادى[10] « ت ٨٥٧هـ » ، الذى ذكرت المصادر التاريخية أنه كان له « رياسة ضخمة وحرمة وافرة وكلمة مقبولة ، وأوامر مطاعة » ،

---

(١) المؤيد شيخ : سبق تعريفه بالفصل الأول ، انظر : ص ٣٧ .

(٢) العينى « السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودى » ص ٢٨٨، تحقيق فهيم محمد شلتوت ، الهيئة الهامة لقصور الثقافة ، « سلسلة الذخائر » (٩٢) ، ٢٠٠٣م .

(٣) العينى « السيف المهند » ص ٢٩٢.

(٤) العينى « السيف المهند » ص ٢٨٧.

(٥) العينى « السيف المهند » ص ٢٩٠.

(٦) العينى « السيف المهند » ص ٢٩١.

(٧) العينى « السيف المهند » ص ٢٩٧ ـ ٣٠٠.

(٨) برسباى : سبق التعريف به بالفصل الأول ، انظر : ص ١٠ .

(٩) السخاوى « الضوء اللامع » ح ١٠ ص ١٣٢، ١٣٣، العينى « عقد الجمان « ٨٢٤ ـ ٨٥٠هـ » » ص ١٨ ـ ٢٢، ٤٧ ـ ٤٨.

(١٠) بدر الدين البغدادى : محمد بن محمد بن عبد المنعم ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء الحنابلة بمصر ، درس ، توفى عام ٨٥٧هـ ، انظر : السخاوى « الذيل على رفع الأصر » ص ٣٤٩، السخاوى « وجيز الكلام » ح ٢ ص ٦٨١.

وأنه كان كثيرًا ما يتوجه بالنصح والوعظ والتوجيه للسطان جقمق[١] « ت ٨٥٧هـ » ، وكان السلطان جقمق « منقاد معه إلى الغاية » ـ كما تذكر المصادر التاريخية ـ[٢] .

ومن هؤلاء العلماء ـ أيضًا ـ العالم زكريا الأنصارى[٣] « ت ٩٢٦هـ » الذى كان كثير النصح والوعظ للسلطان قايتباى[٤] « ت ٩٠١هـ » ، وتذكر المصادر التاريخية أنه عندما أوعز حاشية السلطان قايتباى للسلطان بأن يكف زكريا الأنصارى عن نصحه ووعظه ، زجرهم ، وقال لهم من يُصرنى بعيوبى إذن[٥] !

ومن وعظيات زكريا الأنصارى للسلطان قايتباى ـ التى حفظتها لنا المصادر التاريخية ـ قوله للسلطان « قد كنت عدمًا ، فصرت وجودًا ، وكنت كافرًا فصرت مسلمًا ، وكنت رقيقًا فصرت حرًا ، وكنت مأمورًا فصرت آمرًا ، وكنت أميرًا فصرت سلطانًا ، فلا تقابل هذه النعمة بالتجبر والتكبر ، وتنسى مبتداك ومنتهاك ، ووضع أنفك فى التراب حين تموت ، ثم يأكلك الدود ، وتصير ترابًا » ، فبكى السلطان ، وقال لمن حوله من الأمراء ، إذا أبعدت هذا فمن يقول لى هذا الوعظ[٦] ! .

ومن هؤلاء العلماء ـ أيضًا ـ الكافياجى[٧] « ت ٨٧٩هـ » ، الذى صنف كتاب بعنوان « سيف الملوك والحكام »[٨] ، ليكون مرشدًا للسلطة المملوكية إلى سبيل الحق ، ومرشدًا لهم فى كيفية تدبير أمور الرعية ـ كما ذكر فى مقدمة كتابه ـ[٩] .

---

(١) جقمق : سبق التعريف به بالفصل الأول ، انظر : ص ١١ .
(٢) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٩ ص ١٣١.
(٣) زكريا الأنصارى : انظر : ص ٢٦٩ .
(٤) السلطان قايتباى : سبق التعريف به بالفصل الأول ، انظر : ص ٢٢ .
(٥) الشعراوى « ذيل الطبقات » ص ٤٠ ـ ٤١.
(٦) الشعرانى « ذيل الطبقات » ص ٤٠ ـ ٤١.
(٧) الكافياجى : محمد بن سليمان ، تفقه على شيوخ عصره ، درس ، وأفتى ، وله مصنفات عديدة ، توفى ٨٧٩هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٧ ص ٢٦٠.
(٨) هذا الكتاب مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٢٤٢٦٣ب) ومكروفيلم (٤٩٣١٣) .
(٩) الكافياجى « سيف الملوك والحكام » ص ١.

ولقد بيّن فى ذلك الكتاب للسلطة المملوكية ـ من خلال الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، وسير الخلفاء الراشدين ـ ، عدة أمور أهمها أن المهمة الرئيسية لهم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر[١] ، كما يأمرهم بالعدل مع الرعية[٢] ، وحفظ أموال بيت المال ، فلا يأخذ مال إلا بحق ، ولا ينفق مال إلا لمستحق[٣] ، ويبشره بأن الجنّة هى عاقبة الحاكم العادل ، كما ذكر الرسول ﷺ فى الحديث الذى رواه مسلم[*] ، أن النبى ﷺ قال : « أهل الجنة ثلاثة ذو سلطان مقسط ، ورجل رحيم القلب بكل ذى قربة ، وفقير عفيف متعفف ذو عيال »[٤] ، ثم يذكر له سير الخلفاء الراشدين أمثال الخليفة عمر بن الخطاب ، والخليفة عمر بن عبد العزيز للاعتبار بهم[٥] .

ومن علماء الشام الذين تصدوا لوعظ السلطة المملوكية ، العالم برهان الدين البقاعى[٦] « ت ٨٨٥هـ » ، الذى دخل على السلطان المؤيد[٧] أحمد بن إينال عندما تولى السلطنة عام ٨٦٥هـ/ ١٤٦٠م ، وأخذ يعظه ويحثه على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ويحذره من دعوة المظلوم وعاقبة الظالمين ، ويذكره بسيرة الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز قائلًا له : « إن عمر بن عبد العزيز كانت مدة ولايته سنتين وخمسة ، وكان المفاسد قبله قد كثرت ، حتى ملأت الأرض ، ومع ذلك لم يمت ومنها شىء ، بل زالت كلها فى هذه المدة اليسيرة ، ومن قال إن الزمان غير قابل لذلك ، فهو غير مصيب ، فلم يزل الله يبعث للناس من يرحمهم به »[٨] .

(*) وهو جزء من حديث طويل رواه عياض المجاشعى عن رسول الله ﷺ ـ جاء فيه « وأهل الجنة ثلاثة : ذو سلطان مقسط مُتصدِّق مُوَفَّق ، ورجل رحيم رقيق القلب لكلِّ ذى قُربى ومسلم ، وعفيف مُتعفِّف ذو عيال » ، انظر : القاضى عياض «شرح صحيح مسلم» ح٨ ص ٣٩٦.

(١) الكافياجى « سيف الملوك والحكام » ص ٢، ٢٨.

(٢) الكافياجى « سيف الملوك والحكام » ص ٣ ـ ٨.

(٣) الكافياجى « سيف الملوك والحكام » ص ٣، ٣٨، ٣٩.

(٤) الكافياجى « سيف الملوك والحكام » ص ٧.

(٥) الكافياجى « سيف الملوك والحكام » ص ٧٠ ـ ٧٥.

(٦) برهان الدين البقاعى : انظر : ص ٢٦٣.

(٧) السلطان المؤيد أحمد : سبق التعريف به بالفصل الأول ، انظر : ص ١٢ .

(٨) البقاعى « إظهار العصر » .

ومن هؤلاء العلماء ـ أيضًا ـ العالم علاء الدين البخارى[1] « ت ٨٤١هـ » ، الذى قال للسلطان برسباى[2] « ت ٨٤١هـ » عند زيارته لدمشق عام ٨٣٦هـ/١٤٣٢م « إنه كان قبلك من الملوك من هو أعظم منك دولة ، فمنهم من سلك طريق العدل كالخلفاء الراشدين ، ومنهم من سلك طريق الظلم كفرعون ونمرود ، والجميع تركوا الدنيا ، وإنك تموت مثلهم وتمضى ، فاختر لنفسك أى الطريقين »[3] .

وهكذا قام العلماء بمهمة الوعظ والنصح للسلطة المملوكية ، فبينوا لهم الواجبات التى كلف الله بها الحاكم تجاه الرعية ، وصنفوا لهم فى ذلك الأمر المؤلفات ، كما كثر ترددهم على مجالسهم لوعظهم وحثهم على الرفق بالرعية ، وإقامة العدل فيهم ، وتذكيرهم بأنهم سيموتون ثم بعد ذلك يبعثون ويُسألون أمام الله عن أمانة الحكم التى حملوها فى دنياهم .

ولقد كان ذلك الوعظ والنصح له تأثيره فى نفوس السلاطين المماليك ، كما حدث مع السلطان برسباى ، وجقمق ، وقايتباى ـ كما سبق القول ـ .

---

(١) علاء الدين البخارى : على بن محمد ، من كبار علماء الهند ، رحل إلى دمشق فى العصر المملوكى ، ومكث بها حتى وفاته ٨٤١هـ ، ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٩ ص ٢٣ .

(٢) برسباى : سبق التعريف به بالفصل الأول ، ص ١٠ .

(٣) ابن عربشاة : « سيرة جقمق » ص ١٥ ، مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (٢٥٩٢ تاريخ) ، ومكروفيلم (٣٦٣٤٤) .

٤ ـ العلماء والمحن والابتلاء

إن ابتلاء الله ـ عزّ وجلّ ـ للمجتمع المسلم للتمحيص والتمييز، قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾ [الكهف: ٧]، والابتلاء لا يكون وضعًا سيئًا دائمًا إنما ينصرف إلى الخير كما ينصرف إلى الشر، قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

ولقد جعل الله الابتلاء ـ بالشر ـ ضابطا ومقومًا للمجتمع المسلم عندما ينحرف ذلك المجتمع عن منهج الله وصراطه المستقيم، فيكون الابتلاء عندئذٍ ضابط ومقوم لذلك المجتمع وراجع به إلى منهج الله الذى انحرف عنه، حيث ينيب المجتمع إلى الله ويتضرع إليه بالدعاء، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ [الزمر: ٨]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ [الزمر: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ۝٤٢﴾ [الأنعام: ٤٢][(١)].

ولقد ذكرت المصادر التاريخية أن المجتمع المصرى والشامىّ تعرض للونين رئيسيين من المحن والابتلاء ـ طيلة القرن التاسع ـ، وهما الجفاف والطاعون.

فلقد أصاب مصر موجات من الجفاف ـ بسبب عدم وفاء النيل[(٢)] ـ، كما حدث على سبيل المثال ـ عام ٨٠٤هـ/١٤٠١م[(٣)]، و٨٠٦هـ/١٤٠٣م[(٤)]، و٨٢٣هـ/١٤٢٠م[(٥)]،

(١) العز بن عبد السلام «ت ٦٦٠هـ» «الفتن والبلايا والمحن والرّزايا» ص ٩، ١٠، دار الفكر، دمشق، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، د. نصر محمد «نظريات التنمية السياسية المعاصرة، دراسة نقدية مقارنة فى ضوء المنظور الحضارى الإسلامى» ص ١٥٨، ١٩١، ماجستير، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، ١٩٨٨م.

(٢) تبدأ زيادة النيل فى شهر حزيران «يونيو»، فإذا بلغت زيادته ستة عشر ذراعًا حدث وفاء النيل، و إن نقص إلى أربعة عشر ذراعًا حدث الجفاف، انظر: ابن بطوطة «رحلة ابن بطوطة» ص ٤٠، ٤١.

(٣) ابن تغرى «النجوم الزاهرة» ح ١٥ ص ١٧٠.

(٤) ابن حجر «إنباء الغمر» ح ٥ ص ١٣٤.

(٥) ابن تغرى بردى «النجوم الزاهرة» ح ١٣ ص ٢٤٥، ابن حجر «إنباء الغمر» ح ٧ ص ٣٨٣.

و ٨٥٤هـ/١٤٥٠م[١] .

أما بلاد الشام، فلقد أصابها موجات من الجفاف شملت كافة نواحيها، بسبب قلة سقوط المطر[٢] ، كما حدث على سبيل المثال بدمشق[٣] عام ٨٣٨هـ/١٤٣٤م[٤] ، والقدس عام ٨٩٥هـ/١٤٨٩م[٥] .

أمّا الطاعون[٦] ، فلقد تعرضت مصر لحوالى عشرة جوائح طاعونية، منها ما حدث عام ٨١٣هـ/١٤١٠م[٧] ، و ٨١٩هـ/١٤١٦م[٨] ، و ٨٢٢هـ/١٤١٩م[٩] ، و ٨٣٣هـ/١٤٢٩م[١٠] ، و ٨٤١هـ/١٤٣٧م[١١] .

---

(١) ابن تغرى «حوادث الدهور» ص ٢٣٤.

(٢) عن تلك الموجات التى تعرضت لها بلاد الشام، انظر: فادى إلياس «المناخ والأسعار» ص ٧٦، وفاء محمد «ساحل الشام فى العصر المملوكى» ص ٢٣١.

(٣) هناك ثلاثة مصادر للمياه بدمشق، هى الأمطار الشتوية، ومياه الأنهار، ومياه العيون والينابيع، ومياه الأمطار محدودة، ولا تفى بحاجة السكان، وتعد مياه نهر بردى أهم مورد للمياه فى مدينة دمشق، انظر: د. محمد حسين محاسنة «تاريخ مدينة دمشق خلال الحكم الفاطمى» ص ٣٨، دار الأوائل للنشر، دمشق، ط ١ (٢٠٠١م).

(٤) مجهول «حوليات دمشقية» ص ١٢٩.

(٥) مجير الحنبلى «الأنس الجليل» ح ٢ ص ٣٤٨.

(٦) **الطاعون:** فى مفهوم أطباء العصر المملوكى ورم قاتل، يصيب عادة الأعضاء الغددية خلف الأذنين، والإبطين، والفخذين، وتظهر الأعراض المصاحبة له على هيئة ارتفاع فى درجة الحرارة مع ألم فى الصدر، واضطراب فى النبض، والطاعون ـ كما تذكره الموسوعة البريطانية ـ كان يطلق قديمًا على أى مرض واسع الانتشار، مسببًا للموت الجماعى، ولكنه الآن محصور فى حمّى معديه من نوع خاص تسببه البكتريا العصوية، انظر: ابن حجر «بذل الماعون فى فضل الطاعون» ص ٢٥، تحقيق أحمد عصام، دار العاصمة، السعودية، ١٤١١هـ، سعاد حسن «الطب والرعاية الصحية فى مصر المملوكية» ص ٢٦، ماجستير، آداب عين شمس، ١٩٩٩م، د. جيرار جهامى «موسوعة مصطلحات العلوم عند العرب» ح١ ص٩٠٧.

(٧) ابن حجر «بذل الماعون» ص ٣٦٩.

(٨) ابن حجر «بذل الماعون» ص ٣٦٩.

(٩) ابن حجر «إنباء الغمر» ح ٧ ص ٣٥٦.

(١٠) ابن إياس «بدائع الزهور» ح ٢ ص ١٣١، ابن حجر «إنباء الغمر» ح ٨ ص ٢٠١.

(١١) ابن الصيرفى «نزهة النفوس» ح ٣ ص ٤٠٥.

أمّا بلاد الشام، فلقد تعرضت بلاد الشام لعدة جوائح طاعونية[(١)]، منها ـ على سبيل المثال ـ طاعون دمشق عام ٨٩٧هـ/١٤٩١م[(٢)]، وطاعون حلب عام ٨٥٢هـ/١٤٤٨م[(٣)].

ولقد رصدت لنا المصادر التاريخية دورًا بارزًا لعلماء مصر والشام إزاء تلك المحن وذلك الابتلاء الذى أصاب المجتمع المصرى والشاميّ، حيث كان العلماء يدعون المجتمع «حكام ـ ومحكومين» بالكف عن المعاصى والذنوب، ثم يتضرع الجميع بعد ذلك إلى الله بالدعاء لرفع الابتلاء.

ومن ذلك ما ذكرته المصادر التاريخية عام ٨٣٣هـ/١٤٢٩م، عندما تعرضت مصر لجائحة طاعونية شديدة، فاستفتى السلطان برسباى[(٤)] العلماء عن كيفية كشف هذا البلاء، فأفتاه العلماء بكف السلطة عن المظالم، والتى منها المكوس ونحو ذلك، وأن يقلع المصريون عن المعاصى، ويكثروا من الطاعات، ثم خرج بعد ذلك العلماء بقيادة علم الدين البلقينى[(٥)] يقود حشد كبير من المصريين إلى الصحراء، وأكثروا من الدعاء والتضرع إلى الله، فارتفع الطاعون[(٦)].

وكذلك تكرر المشهد السابق ـ مع شيء من الاختلاف ـ عام ٨٤١هـ/١٤٣٧م عندما أصاب الطاعون مصر، عندما سئل السلطان برسباى العلماء عن الذنب الذى إذا فشا فى المجتمع المسلم عاقبهم الله بالطاعون، فأجابه بعض العلماء أن الزنا إذا فشا فى الناس سلط

---

(١) عن تلك الجوائح الطاعونية التى تعرضت لها بلاد الشام، انظر: زكريا الأنصارى «تحفة الراغبين فى بيان أمر الطواعين» ص ٣٣، مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (١٤١ حديث تيمور، مكروفيلم (٢٢٢٧٣)، فادى إلياس «المناخ والأسعار» ص ٣٨٥، وفاء محمد «ساحل الشام» ص ٢٣٤.

(٢) ابن الحمصى «حوادث الزمان» ح ١ ص ٣٣٥.

(٣) ابن العجمى «كنوز الذهب» ح ٢ ص ٢١١، ٢١٢.

(٤) برسباى: سبق التعريف به بالفصل الأول، انظر: ص ١٠.

(٥) علم الدين البلقينى: صالح بن عمر، تفقه على شيوخ عصره، تولى قضاء الشافعية بمصر، درس، توفى عام ٨٦٨هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ٣ ص ٣١٢.

(٦) ابن تغرى «النجوم الزاهرة» ح ١٣ ص ١٧٢، السخاوى «وجيز الكلام» ح ٢ ص ٥٠٧، ابن حجر «إنباء الغمر» ح ٨ ص ٢٠٠، المقريزى «السلوك» ح ٤ ص ٨٢٩، ابن إياس «بدائع الزهور» ح ٢ ص ١٣١.

الله عليهم الطاعون[*] ، ثم بيّن له العلماء أن النساء يخرجن من بيوتهن متبرجات ويمشين فى الطرقات ليلًا ونهارًا ، ورأى بعض العلماء أن المصلحة تقتضى منع النساء من المشى فى الأسواق[١] أو الخروج من بيوتهن ، ولكن هذا الرأى خالفه فريق آخر من العلماء ، حيث رأى أن المنع يقتصر على النساء المتبرجات ، ولكن السلطان اختار المنع المطلق ، ثم خفق ذلك المنع بعد ذلك ، حيث صرح للإماء بقضاء حوائج مواليهن من الأسواق ، وأن تخرج العجائز لقضاء الحوائج اللاتى لابد لهن منها[٢] .

أمّا بلاد الشام ، فعندما حدث الطاعون بدمشق عام ٨٩٧هـ/١٤٩١م قام العلماء على رأسهم ـ شهاب الدين بن الفرفور[٣] ـ بالتضرع إلى الله ، والابتهال إليه ، ليرفع عنهم ذلك البلاء[٤] ، كما قاموا بقراءة « صحيح البخارى »[٥] من أوله إلى آخره مرتين[٦] .

(*) لعل العلماء قصدوا بذلك ما رواه ابن ماجه فى « سننه » وصححه الألبانى عن الرسول «يا معشر المهاجرين : خمس إذا ابتليتم بهن ، وأعوذ بالله أن تدركوهن ، لم تظهر الفاحشة فى قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون ، والأوجاع التى لم تكن مضت فى أسلافهم الذين مضوا ، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أُخذوا بالسِّنين وشِدّة المئُونة ، وجور السلطان عليهم ، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا مُنعوا القَطْرَ من السماء ، ولولا البهائم لم يُمطروا ، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدوًّا من غيرهم ، فأخذوا بعض ما فى أيديهم ، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا مِمّا أَنْزَل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم » ، انظر : ابن ماجه «سنن ابن ماجه» ص ١٣٣٣، الألبانى «الجامع الصغير» ح٢ ص ١٣٢١.

(١) لعل هذا الرأى الخاص بمنع خروج النساء إلى الأسواق أوقات الابتلاء ، يرجع إلى ما كان يصدر من بعض النساء من الممازحة مع الباعة ، وهذا ما أثار استياء ابن الحاج ـ أحد فقهاء العصر المملوكى ـ ، وأشار إليه فى كتابه « المدخل » ، انظر : ابن الحاج « المدخل » ح ٤ ص ٣٢، خالد عزب « دور الفقه الإسلامى فى العمارة المدنية فى مدينتى القاهرة ورشيد فى العصر المملوكى والعثمانى » ص ٦٣، ماجستير ، آثار القاهرة ، ١٩٩٥م .

(٢) ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٩ ص ٧، ابن الصيرفى « نزهة النفوس » ح ٣ ص ٤٠٥، ٤٠٦، ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٤ ص ٢٧٣.

(٣) شهاب الدين بن الفرفور : أحمد بن محمود ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء الشافعية بدمشق مدة طويلة ، توفى ٩١١هـ ، انظر : ابن الحمصى « حوادث الزمان » ح ٣ ص ٩٧.

(٤) لم تذكر المصادر التاريخية هل رفع الطاعون أم لا ؟!

(٥) كانت قراءة صحيح البخارى بالمساجد من الأمور الشائعة فى العصر المملوكى ، بل كانت قراءة صحيح البخارى من أهم المظاهر الرسمية لإحياء شهر رمضان فى ذلك العصر ، انظر : د. سعيد عاشور « المجتمع المصرى » ص ١٨٦.

(٦) ابن الحمصى « حوادث الزمان » ح ١ ص ٣٣٥.

وكذا كان الأمر بحلب عندما حدث بها الطاعون عام ٨٥٢هـ/١٤٤٨م، حيث قام العلماء والأهالى بالتضرع إلى الله والابتهال إليه ليرفع عنهم ذلك الابتلاء[١].

ولم يختلف الأمر بالنسبة لموجات الجفاف التى كانت تتعرض لها مصر بسبب عدم وفاء النيل، حيث كان يخرج العلماء ومعهم المصريون للاستسقاء[٢]، ويظلون يدعون الله ويتضرعون له حتى يحدث وفاء النيل.

ومن ذلك ما ذكرته المصادر التاريخية عام ٨٢٣هـ/١٤٢٠م، أنه عندما توقف النيل عن الزيادة، خرج العلماء وعلى رأسهم العالم جلال الدين البلقينى[٣] إلى الصحراء، وأقبل المصريون أفواجًا من كل جهة، ثم أقبل السلطان شيخ[٤]، ثم صلى بهم العالم جلال الدين ركعتين كهيئة صلاة العيد، ثم خطب فى الناس خطبتين حث فيهما على التوبة والاستغفار وأعمال البرّ، وحذّرهم ونهاهم، ثم استقبل القبلة ودعا وأطال الدعاء والسلطان يبكى وينتحب، فجاءت زيادة النيل عقب ذلك مباشرة[٥].

ولقد تكرر المشهد السابق عام ٨٥٤هـ/١٤٥٠م عندما تعرضت مصر للجفاف بسبب

---

(١) ابن العجمى «كنوز الذهب» ح ٢ ص ٢١١، ٢١٢.

(٢) **الاستسقاء**: لغة: طلب السقى، وإعطاء ما يشربه، والاسم السُقيا، وشرعًا طلب إنزال المطر من الله على وجه مخصوص عند شدة الحاجة بأن يحبس المطر عن المسلمين، ولم يكن لهم أودية وأنهار وآبار يشربون منها، ويسقون مواشيهم وزروعهم، وطريقة صلاة الاستسقاء تتحقق بواحدة من ثلاث طرق، الأولى الدعاء المجرد من الارتباط بصلاة أو خطبة جمعة فى أى مكان صالح للدعاء فى مسجد أو خارج مسجد، والثانية، أن يضمن الإمام خطبة الجمعة دعاء الاستسقاء مكتفيًا به بلا صلاة، والثالثة، وهى المشهور والأفضل، وهى أن يصلى الإمام بالمسلمين ركعتين كركعتى العيدين تماما، ويخطب خطبتين مرتكزتين على الدعاء، والإلحاح فى طلب الماء مستهلًا خطبته الأولى بالاستغفار تسعًا، وخطبته الثانية بالاستغفار سبعًا، انظر: د. فاطمة محجوب «الموسوعة الذهبية» ح ٤ ص ٢٤٦.

(٣) جلال الدين البلقينى: عبد الرحمن بن عمر، تفقه على شيوخ عصره، درس وأفتى، تولى قضاء الشافعية بمصر، توفى ٨٢٤هـ، السخاوى «الضوء اللامع» ح ٤ ص ١٠٦.

(٤) السلطان شيخ: سبق التعريف به بالفصل الأول، انظر: ص ٣٧.

(٥) ابن تغرى «النجوم الزاهرة» ح ١٣ ص ٢٤٥، ابن حجر «إنباء الغمر» ح ٧ ص ٣٨٣، ٣٨٤.

عدم وفاء النيل[١] .

وكذلك كان الأمر فى بلاد الشام، فعندما حدث الجفاف بدمشق عام ٨٣٨هـ/ ١٤٣٤م، بسبب عدم سقوط المطر، قام العلماء والأهالى بصلاة الاستسقاء، والتضرع إلى الله، والابتهال[*] إليه، فنزل المطر عقب ذلك[٢] .

وكذلك عندما حدث الجفاف بالقدس عام ٨٩٥هـ/١٤٨٩م، بسبب عدم سقوط المطر، قام العلماء والأهالى بصلاة الاستسقاء، والتضرع إلى الله، فنزل المطر عقب ذلك[٣] .

وهكذا استطاع العلماء بفهمهم لأسباب وقوع المحن والابتلاء بالمجتمع المصرى والشامى ـ خلال القرن التاسع ـ والذى تمثل بشكل رئيسى فى الجفاف والطاعون ـ إزالة هذا الابتلاء وتلك المحن، حيث فطن العلماء أن تلك المحن ضابط ومقوم للمجتمع المسلم عندما ينحرف ذلك المجتمع عن منهج الله وصراطه المستقيم، فيكون الابتلاء عندئذ ضابط ومقوم لذلك المجتمع وراجع به إلى منهج الله الذى انحرف عنه، حيث ينيب المجتمع «حكام ومحكومين» إلى الله، ويتضرع إليه بالدعاء، عندئذ ينكشف البلاء، وهو ما حدث فعلًا، وصدقته الوقائع التاريخية ـ كما سبق القول ـ.

❁ ❁ ❁

---

(١) ابن تغرى بردى «حوادث الدهور» ص ٢٣٤.

(*) **الابتهال**: هو أن تبسط يديك وذراعيك إلى السماء، والابتهال حين ترى أسباب البكاء، انظر: د. رفيق العجم «موسوعة مصطلحات أصول الفقه» ص ٥.

(٢) مجهول «حوليات دمشقية» ص ١٢٩، ١٣٠.

(٣) مجير الدين الحنبلى «الأنس الجليل» ح ٢ ص ٣٤٨.

٥ ـ العلماء وأهل الذمة[*]

حرصت السلطة المملوكية ـ كما يظهر من خلال الوثائق الكثيرة التى خلّفها ذلك العصر ـ على إثبات التزامهم بالعدالة تجاه أهل الذمة من يهود ونصارى عملًا بتعاليم الدين الإسلامى ، فقد صدرت المراسيم من سلاطين المماليك ـ طيلة العصر المملوكى ـ أمثال السلطان الظاهر بيبرس[١] ، والسلطان فرج بن برقوق[٢] ، والسلطان المؤيد شيخ[٣] ـ تأمر لأهل الذمة « ... أن تكون جهتهم مرعية على الدوام ، وذمتهم محفوظة بذمة الإسلام لأنهم أهل ذمة وكتاب »[٤] .

ولقد رصدت لنا المصادر التاريخية طبيعة العلاقة بين العلماء وأهل الذمة فى أمور ثلاثة :

(*) **الذمة :** لا يعنى ذلك المصطلح انتقاص من قدر أهل الكتاب ، حيث أن معناه لغة واصطلاحًا فى شرعنا الإسلامى تدور حول معانى العهد والضمان والكفالة والأمان والحق والحرمة ، ولقد سموا بذلك لأن لهم عهد الله ورسوله وعهد جماعة المسلمين أن يعيشوا فى حماية الإسلام وفى كنف المجتمع الإسلامى آمنين مطمئنين ، فهم فى أمان المسلمين وضمانهم بناء على عقد الذمة ، انظر : د. حسن على حسن « أهل الذمة فى المجتمع الإسلامى » ص ١٥، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، « سلسلة دراسات إسلامية « العدد ١٢٠ » ، القاهرة ، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م ، أحمد محمود « أحكام الذمة بين الفقه الإسلامى والقانون الوضعى » ص ٢٧، دكتوراة ، دار العلوم ، ٢٠٠١م .

(١) الظاهر بيبرس : سبق تعريفه بالفصل الأول ، انظر : ص ٢٤ .

(٢) فرج بن برقوق : سبق تعريفه بالفصل الأول ، انظر : ص ١٥ .

(٣) المؤيد شيخ : سبق تعريفه بالفصل الأول ، انظر : ص ٣٧ .

(٤) د. حياة ناصر « العلاقات بين سلطنة المماليك والممالك الأسبانية فى القرنين الثامن والتاسع الهجرى » ص ٤، مؤسسة الصباح ، الكويت ، ١٩٨٠، د. قاسم عبده « اليهود فى مصر » ص ١٤٥، دار الشروق ، القاهرة ، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م ، د. حسن على حسن « أهل الذمة فى المجتمع الإسلامى » ص ١٣٦، د. قاسم عبده « أهل الذمة فى مصر فى عصر سلاطين المماليك : دراسة وثائقية » ص ٦٨، دكتوراة ، آداب القاهرة ، ١٩٧٥م ، زينب محمد « التطور الدبلوماتى لمراسيم ديوان الإنشاء بدير سانت كاترين من القرن الخامس إلى القرن العاشر الهجرى » ص ١٠٨، ١١٣، ١٣٧، ١٧١، ماجستير ، آداب القاهرة « قسم الوثائق » ، ١٩٧٠م .

أ ـ العلماء ومسألة الكنائس .

ب ـ العلماء واستعمال أهل الذمة بالجهاز الإدارى للدولة .

جـ ـ العلماء وملابس أهل الذمة .

أ ـ العلماء ومسألة الكنائس :

أجمع علماء الإسلام أن الكنائس التى كانت قائمة فى المدائن التى فتحها المسلمون صلحًا لا تسكن ولا تهدم ولا ينتقص من مساحتها ، أمّا الكنائس التى كانت قائمة فى المدائن التى فتحها المسلمون عنوة ـ كعامة بلاد الشام إلا مواضع قليلة ففتحت صلحًا ، وكأرض مصر التى فتحت أولًا صلحًا ثم نقض أهلها العهد ففتحت عنوة فى المرة الثانية ـ ، فإنه فى رأى الإمام أبو حنيفة النعمان والإمام أحمد بن حنبل ـ فى المشهور عنه ـ ، وما دلت عليه سنّة الرسول ﷺ ، وقول الأكثرين أن الإمام مخير بين ترك الكنائس لهم أو لا بحسب المصلحة ، ولكن إذا رأى الإمام هدم تلك الكنائس أو انتزاعها منهم لم يكن ذلك ظلمًا منه ، بل تجب طاعته فى ذلك كما رأى جمهور علماء الإسلام من المذاهب الأربعة وكبار الأئمة مثل سفيان الثورى والأوزاعى والليث بن سعد وكبار الصحابة والتابعين ، كذلك أجمع علماء الإسلام على أنه لا يجوز أن يُحدث كنيسة فى المدائن التى فتحها المسلمون صلحًا أو عنوة[(١)] .

وعلى هذا الأساس ـ الذى سبق ذكره ـ تحدد موقف علماء مصر والشام من كنائس أهل الذمة بمصر والشام .

ففى مصر ، تذكر المصادر التاريخية أنه فى عام ٨٣١هـ/١٤٢٧م توجه القاضى الشافعى

---

(١) ابن تيمية « مسألة فى الكنائس » ص ١٠١، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٢٢، تحقيق على بن عبد العزيز ، مكتبة العبيكان ، الرياض ، ط ١ (١٤١٦هـ/١٩٩٥م) ، ابن قيم الجوزية « أحكام أهل الذمة » ص ٦٨٢، ٦٨٥، ٦٨٩، ٦٩٠، ٦٩٦، ٦٩٧، دار ابن خلدون ، مصر ، ١٩٩٥م ، القلقشندى « صبح الأعشى » ح ١٣ ص ٣٥٦، « المؤسسة المصرية العامة للتأليف » « د. ت » ، ابن تيمية « فتاوى ابن تيمية » ح ٢٨ ص ٦٣٤.

ابن حجر العسقلانى[(١)] للكشف عن كنيسة لليهود ، قيل أنهم أحدثوا فيها بعض الأبنية ، ولمّا وصل ابن حجر وعاين تلك الكنيسة ثبت لديه بناء بعض الأبنية المُحدثة بتلك الكنيسة ، فأصدر ابن حجر حكمه بهدم تلك الأبنية ، وتم الهدم[(٢)] .

وفى عام ٨٤٤هـ/١٤٤٠م توجه القاضى الشافعى ابن حجر العسقلانى إلى الدير[(٣)] الذى بباستين الوزير ، قيل أن النصارى أحدثوا فيه بعض الأبنية ، ولما وصل ابن حجر وعاين الدير ، وثبت لديه بناء بعض الأبنية المُحدثة بذلك الدير أصدر حكمه بهدمها ، وتم الهدم[(٤)] .

ولقد تكرر ذلك المشهد ـ أيضًا ـ عام ٨٤٥هـ/١٤٤١م حيث كلّف السلطان جقمق[(٥)] العالم الأمين الآقصراى[(٦)] بالكشف عن بعض كنائس النصارى واليهود بأرض مصر ، وهدم ما جُدد فيها من أبنية ، فقام العالم أمين الآقصراى بهذه المهمة خير قيام ، وفى ذلك قال أهل الذمة : « ما أحد إلا توصلنا إليه بحيلة إلا الشيخ أمين الآقصراى فإنه قد أعيانا أمره »[(٧)] .

أمّا بالنسبة للسماح لأهل الذمة بترميم كنائسهم القديمة[(*)] ، فلقد أجاز لهم علماء مصر

---

(١) ابن حجر العسقلانى : انظر : ص ٢٦٠.

(٢) ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٨ ص ١٣٧.

(٣) ذكر ابن دقماق أن هذا الدير هو دير النسطور ، وهو مخصص لطائفة النصارى اليعاقبة ، فقال عنه « دير النسطور يختص باليعاقبة بظاهر مصر ببساتين الوزير بالرمل » ، انظر : ابن دقماق « الانتصار لواسطة عقد الأمصار » ح ٤ ص ١٠٧، تحقيق كارل فولرس ، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية ، فى إطار جامعة فرانكفورت ، جمهورية ألمانيا الاتحادية ، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م .

(٤) ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٩ ص ١٣٥.

(٥) جقمق : سبق التعريف به بالفصل الأول ، انظر : ص ١١ .

(٦) أمين الآقصراى : يحيى بن محمد ، من كبار علماء الحنفية بمصر ، درس وأفتى ، توفى ٨٨٠هـ ، انظر : ابن إياس « بدائع الزهور » ح ٣ ص ١٠٧.

(٧) ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٩ ص ١٦٩، ١٧٠، البقاعى « عنوان الزمان » ح ٤ ص ٧٥٠، ٧٥١.

(*) يرى غالب علماء الإسلام كالشافعى وأصحابه ، وأصحاب أبى حنيفة وكثير من أصحاب مالك ، وبعض أصحاب أحمد بجواز ترميم الكنائس القديمة إذا رثت ، انظر : ابن تيمية « مجموع ابن تيمية » ص ٤٢٣، مخطوطة بدار الكتب المصرية ، برقم (٢٠٥٤٥ب) (٢١١٤٣ مكروفيلم) ، ابن قيم الجوزية « أحكام أهل الذمة » ح ٢ ص ١٣٩، ١٤٠.

ذلك ، ففى عام ٨٤١هـ/١٤٣٧م رفع النصارى إلى قاضى الحنفية بدر الدين العينى[(١)] بترميم كنيسة[(٢)] قديمة لهم ببساتين الوزير ، فأذن لهم بذلك[(٣)] .

أمّا بلاد الشام ، ففى القدس ، تذكر المصادر التاريخية فى أحداث عام ٨٩٥هـ/١٤٨٩م أنه عندما بنى الرهبان الفرنسيسكان[(٤)] كنيسة لهم فوق مقام السيدة مريم ـ عليها السلام ـ على حد زعمهم، وهو يُعرف لدى المسيحيين باسم محراب مريم «Oratoire de Marie»[(٥)] ، فكتب علماء القدس وعلى رأسهم الكمالى[(٦)] بن أبى شريف إلى السلطان قايتباى[(٧)] يخبروه بذلك ، فأرسل السلطان إليهم بالنظر فى الأمر وفعل ما يوجبه الشرع ، فحكم العلماء بهدمها[(٨)] .

كما قام علماء القدس وعلى رأسهم ـ برهان الدين الأنصارى[(٩)] ـ بهدم الكنيسة التى

---

(١) بدر الدين العينى : محمود بن أحمد ، تفقه على شيوخ عصره ، ولى قضاء مصر على المذهب الحنفى ، توفى ٨٥٥هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ١٠ ص ١٣١.

(٢) ذكر المقريزى أنه يوجد ببساتين الوزير كنيسة تسمى كنيسة مريم وهى قبلى بركة الحبش ، وأنها الآن خالية ليس بها أحد ، انظر : المقريزى « تاريخ الأقباط المعروف « بالقول الإبريزى » ص ٢١٤، تحقيق د. عبد المجيد دياب ، دار الفضيلة ، القاهرة ، ١٩٩٨.

(٣) ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٩ ص ٤.

(٤) **الفرنسيسكان :** هم أتباع القديس فرنسيس الذى استوطن بالقدس فوق جبل صهيون عام ١٢١٩م ، حيث سمحت لهم السلطة الأيوبية بالإقامة هناك للتعبد ، وكان الهدف من إقامتهم فوق جبل صهيون أن يحصلوا من السلطات الإسلامية على حق رعاية الأماكن المسيحية المقدسة فوق جبل صهيون ، انظر : د. أحمد دراج « وثائق دير صهيون » ص ٢٢.

(٥) د. أحمد دراج « المماليك والفرنج » ص ١١٨.

(٦) الكمالى بن أبى شريف : محمد بن أبى بكر ، تفقه على شيوخ عصره ، درس وأفتى ، صار عالم القدس ومفتيها فى عصره ، ولد عام ٨٢٢هـ ، انظر : مجير الدين الحنبلى « الأنس الجليل » ح ٢ ص ٣٧٧.

(٧) قايتباى : سبق التعريف به بالفصل الأول ، انظر : ص ٢٢ .

(٨) مجير الحنبلى « الأنس الجليل » ح ٢ ص ٣٥٠.

(٩) برهان الدين الأنصارى : إبراهيم بن عبد الرحمن ، تفقه على شيوخ عصره ، ناب فى القضاء بالقدس ، درس ، وأفتى ، توفى عام ٨٩٣هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ٥٦.

شيدها اليهود عام ٨٧٩هـ/١٤٧٤م[١] .

أمّا بالنسبة للسماح لأهل الذمة بترميم كنائسهم القديمة ، فلقد أفتى علماء القدس بترميم كنيسة المهد ببيت لحم عام ٨١٤هـ/١٤١١م[٢] ، وعام ٨٨٥هـ/١٤٨٠م[٣] .

كما أشارات المصادر التاريخية إلى دور علماء القدس فى قضية مسجد النبى داود ـ عليه السلام ـ ، وملخص تلك القضية أنه حدث تنازع بين المسيحيين « الرهبان الفرنسيسكان »[٤] وبين اليهود حول تملك هذا المسجد ، حيث يرى المسيحيون أن هذا المسجد كان فى بادئ الأمر بيتًا لوالد يوحنا مرقص ـ أحد تلاميذ السيد المسيح ـ عليه السلام ـ ، وكان مكانًا مختارًا لاجتماعه بهم ، ومن هنا ارتبط تاريخ هذا البيت بتاريخ السيد المسيح ـ عليه السلام ـ والحواريين ، وكان هذا البيت يتكون من طابقين ، وفى القرن الرابع الميلادى حوّل البيزنطيون الطابق العلوى إلى كنيسة ، ولقد سقطت تلك الكنيسة عام ١٢١٧م ، وترتب على سقوط الكنيسة إهمال المسيحيين لهذا المكان ، واقتصر الأمر على أن أصبح هذا المكان مزارًا للحجاج المسيحيين ، ولقد دفع ذلك الإهمال المسلمين إلى العناية بهذا المكان ، حيث كان يوجد بالطابق السفلى من هذا البيت ـ فى جهته الشرقية قبوًا يضم قبرًا ظل مجهولًا لا يعرف رفات من يضمه قرونًا عديدة ، غير أن روايات اليهود أخذت تتواتر منذ القرن السادس الهجرى على أن هذا القبر هو قبر سيدنا داود ـ عليه السلام ـ ، ولهذا رأى المسلمون العناية بهذا المكان فأقاموا به قبلة وحولوه إلى مسجد[٥] .

ولقد أشار إلى هذه الحقيقة الهامة أحد حجاج الفرنج ريكولد دى مونت كروس «Ricold de Mont Croce» الذى أدى فريضة الحج فى أواخر القرن السابع الهجرى/

---

(١) ابن إياس « بدائع الزهور » ص ١٠٢، ١٠٣، مجير الدين الحنبلى « الأنس الجليل » ح ٢ ص ٣٠٠، السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ٥٦.

(٢) د. أحمد دراج « وثائق دير صهيون » ص ٥٢.

(٣) د. أحمد دراج « المماليك والفرنج » ص ١٠٧، ١٠٨.

(٤) الرهبان الفرنسيسكان : انظر : ص ٣١٠.

(٥) د. أحمد دراج « المماليك والفرنج » ص ١٣.

السادس عشر الميلادى، ولكن الرهبان الفرنسيسكان استطاعوا عام ١٣٣٥م بناء كنيسة بالطابق العلوى والتى سميت بكنيسة «عُليّة صهيون»، ولكن اليهود منذ أواخر القرن الرابع عشر الميلادى/ الثامن الهجرى طالبوا بأحقيتهم فى تملك هذا القبو للقيام على رعاية قبر نبى الله داود، وهذا ما نجحوا فيه عهد المؤيد شيخ(١) عام ٨٢٣هـ/١٤٢٠م، وعهد برسباى(٢) عام ٨٣٣هـ/١٤٢٩م، غير أن الرهبان استطاعوا استعادته عقب كل مرة(٣)، وأخيرًا رأى السلطان جقمق(٤) عام ٨٥٦هـ/١٤٥٢م تحويل القبو إلى مسجد(٥)، ولكن الرهبان لم يسكتوا على ذلك، فأثاروا هذا الموضوع فى عهد الأشرف إينال(٦)، وكذلك عهد السلطان قايتباى(٧) عام ٨٩٤هـ/١٤٨٩م، فكتب السلطان قايتباى عام ٨٩٥هـ/١٤٩٠م إلى علماء القدس للنظر فى موضوع استحقاق الرهبان لهذا القبو، فحكم علماء القدس وعلى رأسهم ـ الكمالى بن أبى شريف(٨) ـ بعدم أحقية هذا القبو للرهبان وأنه بأيدى المسلمين بمقتضى مرسوم السلطان جقمق عام ٨٥٦هـ/١٤٥٢م، وأقر السلطان قايتباى حكم العلماء(٩).

وهكذا تصدى علماء مصر والشام بكل حزم للمحاولات التى قام بها أهل الذمة بإقامة بعض الأبنية المحدثة بكنائسهم، مخالفين بذلك حكم الإسلام فى ذلك الأمر، الذى يحرم أن تحدث كنيسة فى المدائن التى فتحها المسلمون صلحًا أو عنوة.

أما بالنسبة للسماح لأهل الذمة بترميم كنائسهم القديمة، فلقد أجاز لهم علماء مصر

---

(١) شيخ: سبق التعريف به بالفصل الأول، انظر: ص ٣٧.

(٢) برسباى: سبق التعريف به بالفصل الأول، انظر: ص ١٠.

(٣) د. أحمد دراج «المماليك والفرنج» ص ٧٧.

(٤) جقمق: سبق التعريف به بالفصل الأول، انظر: ص ١١.

(٥) مجير الحنبلى «الأنس الجليل» ح ٢ ص ٩٨.

(٦) د. أحمد دراج «المماليك والفرنج» ص ٨١.

(٧) قايتباى: سبق التعريف به بالفصل الأول، انظر: ص ٢٢.

(٨) الكمال بن أبى شريف: انظر: ص ١١٤، ٣١٠.

(٩) مجير الحنبلى «الأنس الجليل» ح ٢ ص ٣٤٩ ـ ٣٥١.

والشام ذلك، كما يرى غالب علماء الإسلام ـ كما سبق القول ـ.

ب ـ العلماء واستعمال أهل الذمة بالجهاز الإدارى للدولة :

نهى الرسول ﷺ استعمال المسلمين غير المسلمين فى أعمالهم، فلقد أخرج الإمام مسلم(*) فى صحيحه، أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى بدر تبعه رجل من المشركين فلحقه عند الحرّة، فقال: إنى أردت أن اتبعك وأصيب معك. قال ﷺ: «تؤمن بالله ورسوله؟» قال: «لا»، قال ﷺ: «ارجع، فلن استعين بمشرك»، ثم لحقه عند الشجرة، ففرح بذلك أصحاب رسول الله ﷺ وكان له قوة وجلد، قال: «جئت لأتبعك وأصيب معك»، قال ﷺ: «تؤمن بالله ورسوله؟»، قال: «لا»، قال ﷺ: «ارجع فلن استعين بمشرك»، ثم لحقه حتى ظهر على البيداء، فقال له: «مثل ذلك» قال ﷺ: «أتؤمن بالله ورسوله؟» قال: «نعم»، فخرج معه[1].

وكذلك فعل الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ، حيث نهى الصحابى أبو موسى الأشعرى ـ رضى الله عنه ـ عن استعمال أهل الذمة[2]، ولهذا فقد أجمع علماء الإسلام على عدم مشروعية استعمال أهل الذمة فى الولايات العامة[3].

ولكن أهل الذمة فى العصر(*) المملوكى شاركوا فى الجهاز الإدارى للدولة، فلقد كانوا

(*) القاضى عياض «شرح صحيح مسلم» ح ٦ ص ٢١٣ .

(١) ابن قيم الجوزية «أحكام أهل الذمة» ح ١ ص ١٦٤.

(٢) ابن قيم الجوزية «أحكام أهل الذمة» ح ١ ص ١٦٥.

(٣) ابن جماعة «تحرير الأحكام» ص ٤٣، ابن النقاش «محمد بن على»، «المذَمّة فى استعمال أهل الذمة» ص ٧٩، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٣٩٥٢ تاريخ)، ومكروفيلم (٣٥٣٩٥)، ابن تيمية «مسألة الكنائس» ص ١٢٨، ابن قيم الجوزية «أحكام أهل الذمة» ح ١ ص ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦، ابن تيمية «فتاوى ابن تيمية» ح ٢٨ ص ٦٤٣.

(*) كان أهل الذمة يشاركون فى الجهاز الإدارى للدولة الإسلامية ـ وبخاصة الجهاز الإدارى المالى ـ فى العصور السابقة للعصر المملوكى كالعصر الفاطمى والأيوبى، ولمزيد من الإيضاح، انظر: إبراهيم راشد مصطفى «حالة مصر الاقتصادية فى العصر الفاطمى» ص ٢٨٥، دكتوراة، آداب القاهرة، ١٩٩٤م، حسنين محمد ربيع «النظم المالية فى مصر زمن الأيوبيين» ص ١١٠، ماجستير، آداب القاهرة، ١٩٦٤م، =

يشغلون حيزًا كبيرًا فى الجهاز الإدارى المالى بشكل خاص، فكان غالبية كتاب المال فى الدواوين المملوكية من أهل الذمة بسبب براعتهم فى الأعمال الحسابية منذ القدم، وأيضًا لعدم خوف السلاطين منهم على كرسى الحكم[(١)]، كذلك تولى أهل الذمة جباية أموال الضرائب[(٢)].

ولقد استنكر علماء العصر المملوكى ذلك الأمر، فطالبوا السلطة المملوكية بعدم استعمال أهل الذمة بالجهاز الإدارى للدولة، ومن ذلك ما تذكره المصادر التاريخية عام ٨٢٢هـ/١٤١٩م حينما طالب علماء[(*)] مصر السلطان شيخ[(٣)] أن لا يباشر أحد من أهل الذمة فى دواوين الدولة فاستجاب لهم السلطان شيخ، ولم يستجب للمحاولات التى بذلها أهل الذمة من أجل الرجوع إلى المباشرة بالدواوين مقابل إيراد مبلغ من المال فى خزانة الدولة[(٤)].

ولقد تكرر ذلك المشهد السابق عام ٨٦٨هـ/١٤٦٣م، حيث طالب علماء مصر ـ أمثال ـ علم الدين البلقينى[(٥)] السلطان خشقدم[(٦)] أن لا يباشر أحد من أهل الذمة فى دواوين

= قاسم عبده «أهل الذمة فى مصر فى عصر سلاطين المماليك دراسة وثائقية» ص ٥٣، دكتوراة، آداب القاهرة، ١٩٧٥م.

(١) د. البيومى إسماعيل «النظم المالية» ص ٥١، ٥٢، د. محاسن محمد «اليهود فى مصر المملوكية فى ضوء وثائق الجنيزة» «٦٤٨ ـ ٩٢٣هـ» ص ٦٥ ـ ٨٣، دكتوراة، آداب عين شمس، ١٩٩٦م، د. قاسم عبده «أهل الذمة في مصر من الفتح الإسلامى حتى نهاية المماليك» ص ٨٠، دار عين للنشر، القاهرة، ٢٠٠٣م.

(٢) د. قاسم عبده «أهل الذمة فى مصر من الفتح الإسلامى» ص ٨١.

(*) لم تذكر المصادر التاريخية علماء بأعينهم.

(٣) شيخ: سبق التعريف به بالفصل الأول، انظر: ص ٣٧.

(٤) ابن تغرى بردى «النجوم الزاهرة» ج ١٣ ص ٢٣٠.

(٥) علم الدين البلقينى: صالح بن عمر، تفقه على شيوخ عصره، تولى قضاء الشافعية بمصر، درس، توفى ٨٦٨هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ج ٣ ص ٣١٢.

(٦) خشقدم: سبق التعريف به بالفصل الأول، انظر: ص ١٢.

الدولة فاستجاب لهم السلطان[*][1] .

وهكذا حارب علماء مصر والشام مشاركة أهل الذمة فى الجهاز الإدارى للدولة ، وذلك من خلال مطالبة السلطة المملوكية بعدم استعمالهم بالجهاز الإدارى للدولة ، فيضطر السلطان ـ فى أحيان غير قليلة كما سبق القول ـ إزاء ضغوطهم عليه بعزلهم من الجهاز الإدارى للدولة ، حتى لا يظهر بأنه يخالف رأى الشرع الذى ينص على عدم مشروعية استعمالهم فى الولايات العامة .

جـ ـ العلماء وملابس أهل الذمة :

إن أمر تمييز ملابس أهل الذمة عن ملابس المسلمين أقرّه علماء الإسلام طبقًا للشروط العمرية[2] التى قسمها الفقهاء إلى قسمين ، شروط مستحقة مثل عدم ذكر الإسلام بذم له أو

(*) يذكر ابن تغرى بردى ، وابن إياس : عدم مباشرة أهل الذمة بالجهاز الإدارى للدولة ذلك العام ، غير أنهم بعد ذلك عادوا لوظائفهم بعد أن دفعوا مبلغًا من المال إلى خزانة السلطان المملوكى ، ويذكر أحد الباحثين أن أهل الذمة كانوا يعودون إلى وظائفهم بإحدى وسيلتين ، إما ادعاؤهم كذبًا الدخول فى الإسلام ، وهو ما يفهم من اعتناقهم الإسلام مباشرة عقب طردهم من وظائفهم ـ ، وإما إيراد أهل الذمة مبلغًا من المال فى خزانة السلطان حتى يرضى السلطان عنهم ، انظر : ابن إياس « بدائع الزهور » ح ٢ ص ٤١٢، ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٦ ص ٢٨١، د. البيومى إسماعيل « النظم المالية » ص ٥١، ٥٢.

(١) ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٦ ص ٢٨١، ابن إياس « بدائع الزهور » ح ٢ ص ٤١٢، البقاعى « إظهار العصر » .

(٢) إن الشروط العُمرية أساسها ما كتبه أهل الجزيرة إلى عبد الرحمن بن غنم من شروط اشترطوها على أنفسهم منها « أن نلزم زينا حيثما كنا ، وألا نتشبه بالمسلمين فى لبس قلنسوة ولا عمامة » ، فكتب عبد الرحمن بذلك إلى الخليفة عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ ، فكتب إليه عمر « أن أمضى لهم ما سألوا ، وأضاف إلى تلك الشروط شرطين ، اشترطهما عليهم ، وهما ألا يشتروا من سبايانا ، ومن ضرب مسلما فقد خلع عهده » ، وهذه الشروط بأسانيد عدة ، وقد تلقاها العلماء بالقبول ، وذكروها فى كتبهم ، واحتجوا بها ، أمثال الماوردى ، وابن تيمية ، وابن قيم الجوزية ، وهناك من الباحثين المعاصرين من أنكر هذه الشروط ، ومنهم الأستاذ الدكتور عبد الرحمن سالم ، حيث ذكر أن الشروط العمرية التى كتبها الخليفة عمر لأهل بيت المقدس لم تشمل هذه الأمور أو الشروط المستحبة ـ من لبس الغيار وغيره ـ ، إنما كانت قاصرة =

قدح فيه، وعدم ذكر رسول الله ﷺ بتكذيب له أو ازدراء، فهذه شروط ملزمة متى نقضوها نقض عهدهم، وشروط مستحبة كلبس الغيار ـ الملابس ذات اللون المخالف للون ملابس المسلمين لتمييزهم عنهم ـ، وألا تعلو أبنيتهم فوق أبنية المسلمين، وألا يجاهروا بشرب الخمر، وتلك الشروط المستحبة لا يكون ارتكابها يلزم عنه نقض عهدهم[1].

ولقد رأى علماء العصر المملوكى أنه يجب تمييز ملابس أهل الذمة عن ملابس المسلمين، أمثال العالم ابن تيمية[2] «ت ٧٢٨هـ»[3]، والعالم ابن قيم الجوزيه[4]

= على إعطائهم الأمان لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم، شأنها فى ذلك شأن المعاهدات الأخرى التى أبرمها الخليفة عمر بن الخطاب فى سائر البلدان المفتوحة، وذلك كما ذكر الطبرى فى تاريخه، ثم يذكر أستاذنا الدكتور أن رواية الطبرى للشروط العمرية التى كتبها الخليفة عمر لأهل القدس أدق من رواية ابن عساكر التى ذكرها فى تاريخه بشأن فتح القدس، تلك الرواية التى جاء فيها بعض الشروط المشابهة للشروط العمرية التى اشترطها أهل الجزيرة على أنفسهم، وأقرها الخليفة عمر ـ كما سبق القول ـ، وأنه إن كان رواية الطبرى فى فتح بيت المقدس أدق من رواية ابن عساكر فى فتح القدس ـ كما يرى أستاذنا الدكتور، وكما يراه الباحث أيضًا ـ، غير أن الأصل فى الشروط العمرية ليس رواية ابن عساكر فى العهدة العمرية عند فتح المقدس، ولكن أساسها ما اشترطه أهل الجزيرة على أنفسهم، وأقره الخليفة عمر، كما ذكر العلماء القدامى، انظر: ابن زين القاضى «شروط النصارى» ص٣، الماوردى «الأحكام السلطانية» ح٢ ص ٣٢٦، ٣٢٧، تحقيق د. عبد الرحمن عميرة، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٩٥م، ابن قيم الجوزية «أحكام أهل الذمة» ح٢ ص ١١٣، ١٦٥، ابن تيمية «فتاوى ابن تيمية» ح٢٨ ص ٦٥١، عبد الراضى محمد «منهج ابن تيمية فى دراسة النصرانية» ص ٧٠، ٧١، ماجستير، قسم الفلفسة الإسلامية، دار العلوم، جامعة القاهرة، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، محاسن محمد «اليهود فى مصر المملوكية» ص ٨٥، ٨٨، د. عبد الرحمن سالم «بين العهدة العمرية وعهد محمد الفاتح لأهالى القسطنطينية» «دراسة تحليلية مقارنة» ص ٥٩، ٦٤، مجلة ندوة التاريخ الإسلامى، العدد (١٨) عام ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة.

(١) الماوردى «الأحكام السلطانية» ح٢ ص ٣٢٦، ٣٢٧، ابن قيم الجوزية «أحكام أهل الذمة» ح١ ص ١٨٣، ١٨٤، ح٢ ص ١٦٥، ١٦٦، عبد الراضى محمد «منهج ابن تيمية فى دراسة النصرانية» ص ٧٠، ٧١.

(٢) ابن تيمية: انظر: ص ٢٨٧.

(٣) ابن تيمية «فتاوى ابن تيمية» ح٢٨ ص ٦٥٤.

(٤) ابن قيم الجوزية: محمد بن أبى بكر، تفقه على شيوخ عصره، درس وأفتى، صنف تصانيف عديدة،=

« ت ٧٥١هـ »[١] ، كما تذكر المصادر التاريخية أنه فى عام ٨٦٨هـ/١٤٦٣م عقد مجلس بالصالحية[٢] ، حضره القضاة ، وقرروا خلاله طبيعة القيود التى كانت تفرض عليهم فى ملابسهم كشد الزنار[٣] على أوساطهم ، وتصغير عمائهم[*] ونحو ذلك ، وذلك حتى يلتزم بها أهل الذمة ولا يخالفوها[٤] .

كذلك قام العلماء فى العصر المملوكى من خلال ولايتهم للحسبة ، بمراعاة التزام أهل الذمة ببعض القيود التى كانت تفرض على ملابسهم كتصغير عمائهم ونحو ذلك[٥] ، ومن ذلك ما

= توفى عام ٧٥١هـ ، انظر : ابن العماد « شذرات الذهب » ح ٦ ص ١٦٨ .

(١) ابن قيم الجوزية « أحكام أهل الذمة » ح ١ ص ١٨٣، ١٨٤، ح ٢ ص ١٦٥، ١٦٦ .

(٢) **الصالحية** : هى المدرسة الصالحية ، التى بناها الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ابتداء من عام ٦٣٩هـ ، وهى تقع بخط بين القصرين بالقاهرة ، ولقد رتب فيها الملك الصالح دروسًا أربعة للفقهاء المنتمين إلى المذاهب الأربعة ، وأوقف عليها الأوقاف ، وكانت هذه المدرسة من أجلّ مدارس القاهرة ، انظر : المقريزى « المواعظ والاعتبار » ح ٢ ص ٣٧٤، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ط ٢ (١٩٨٧م) ، محمود رزق سليم « عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى » ح ٣ ص ٣٩، مكتبة الآداب ، القاهرة ، « د . ت » .

(٣) **الزنار** : خيط غليظ يُشد فى وسط أهل الذمة ، وهو من الإبريسيم ـ نوع من الحرير ـ ، انظر : الشيخ المولوى محمد أعلى بن على التهانوى « موسوعة اصطلاحات العلوم الإسلامية المعروف بكشاف اصطلاحات الفنون » ح ٣ ص ٦١٦، دار خيّاط ، بيروت ، حبيب زيّات « سمات اليهود والنصارى فى الإسلام » ص ٢٠٠، مجلة المشرق ، بيروت ، ١٩٤٩م .

(*) يذكر ابن قيم الجوزية أن عمائم أهل الذمة كانت من اللون الأصفر ، والأزرق ، حيث كان هذين اللونين لا يلبسه المسلمون ، ولقد ذكر الرحالة جون دى موند ڤيل ، وغيره من الرحالة الذين زاروا مصر فى القرن التاسع الهجرى أن اليهود كان يلبسون عمائم لونها أصفر ، وكان النصارى عمائمهم زرقاء ، والمسلمين كانت عمائمهم بيضاء ، وتشير المراجع المسيحية أن النصارى كانت عمائمهم صفراء واليهود عمائمهم زرقاء مشرب بلون رمادى ، انظر : ابن قيم الجوزية « أحكام أهل الذمة » ح ٢ ص ١٨٣، د. محاسن محمد « اليهود فى مصر المملوكية » ص ٩٤.

(٤) ابن إياس « بدائع الزهور » ح ٢ ص ٤١٢، ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٦ ص ٢٨١، البقاعى « إظهار العصر » .

(٥) ابن الأخوة « معالم القربة » ص ٤٠، ابن بسام « نهاية الرتبة فى طلب الحسبة » ص ٢٠٧، تحقيق حسام الدين السامرائى ، مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٩٦٨م .

ذكرته المصادر التاريخية عام ٨٢٢هـ/١٤١٩م عندما قام صدر الدين العجمى[١] - محتسب القاهرة - بإلزام أهل الذمة بتلك القيود على ملابسهم من تصغير العمائم وتضييق الأكمام[٢] .

وهكذا حرص علماء مصر والشام على تمييز ملابس أهل الذمة عن ملابس المسلمين، وذلك وفقًا لما أقره علماء الإسلام طبقًا للشروط العمرية ، فلقد صرح علماء العصر المملوكى بذلك فى مؤلفاتهم ، كذلك كان القضاة بين الحين والآخر يصدرون أحكامهم بعدم مخالفة أهل الذمة للقيود التى فرضت على ملابسهم من شد الزنار ونحو ذلك ، وذلك عندما يجدوا تهاونًا منهم فى ذلك الأمر .

كما كان العلماء - من خلال ولايتهم للحسبة - يراقبون التزام أهل الذمة بهذا الأمر حتى لا يخالفوه .

---

(١) صدر الدين العجمى : هو أحمد بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، وهو من أبرز فقهاء الحنفية فى عصره ، تولى حسبة مصر ، توفى ٨٣٣هـ ، ابن طولون « الغرف العلية » ص ١٥٨.

(٢) ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٧ ص ٣٤٨، العينى «عقد الجمان» ص ٣٦١ .

الفصل السادس

« العلماء والحياة الفكرية بمصر والشام »

نقاط الفصل السادس

١ ـ عوامل ازدهار الحياة الفكرية ومظاهر ازدهارها بمصر والشام .

أ ـ عوامل ازدهار الحياة الفكرية [عناية السلطة المملوكية بإنشاء المؤسسات العلمية .

ب ـ هجرة العلماء من شتى الأمصار إلى مصر والشام .

جـ ـ ازدهار الأوقاف فى العصر المملوكى .

د ـ ازدهار صناعة الورق وتجليد الكتب فى العصر المملوكى .

هـ ـ حُبّ المصريين والشاميين للعلم والمجالس العلمية .

٢ ـ العلماء والتأليف العلمى بمصر والشام .

أ ـ مؤلفات العلماء فى الفقه وأصوله .

ب ـ مؤلفات العلماء فى علم الحديث .

جـ ـ مؤلفات العلماء فى القراءات .

د ـ مؤلفات العلماء فى التفسير .

هـ ـ مؤلفات العلماء فى التصوف .

و ـ مؤلفات العلماء فى المنطق .

٣ ـ العلماء والتدريس والمؤسسات العلمية « بمصر والشام » .

أ ـ العلماء وتدريس علوم القرآن « التفسير ، القراءات » .

ب ـ العلماء وتدريس الفقه .

جـ ـ العلماء وتدريس علم الحديث .

٤ ـ العملاء والاجتهاد ومحاربة التعصب والجمود المذهبى .

أ ـ مهاجمة العلماء للفكر القائم على التقليد الأعمى للمذاهب الأربعة والتعصب لها .

ب ـ رفع لواء التجديد والاجتهاد فى الأحكام والحرية فى الفتوى بما يناسب ظروف المجتمع .

٥ ـ الخلافات الفكرية بين علماء الأشاعرة وعلماء الحنابلة .

أ ـ موضوعات الاتفاق والاختلاف بين علماء الأشاعرة والحنابلة .

ب ـ نماذج من التعصب الشديد بين الأشاعرة والحنابلة .

٦ ـ العلماء والمكتبات .

ازدهار الحركة الفكرية بمصر والشام فى العصر المملوكى

كانت مصر والشام فى عصر دولة المماليك أكثر العواصم الإسلامية ازدهارًا بالبحث والدرس وحملت مشعل الثقافة العربية الإسلامية ، وحافظت عليها من خطر الضياع بعد أن ذوت مراكز العلم والتنوير فى معظم البلاد الإسلامية ، خاصة بعد سقوط بغداد فى أيدى المغول ، وتدميرهم لكنوز المخطوطات ، وتعرض قرطبة فى الأندلس لحركة الاسترداد المسيحية[١] .

ولقد تضافرت عوامل عدة أدت إلى ازدهار الحياة الفكرية بمصر والشام فى العصر المملوكى ، ويأتى على رأس هذه العوامل عناية[٢] السلطة المملوكية بالحركة الفكرية ، وتشجيعهم للعلم والعلماء ، فلقد عنى الحكام المماليك عناية كبيرة بإنشاء المؤسسات العلمية ، ورصدوا لتلك المؤسسات الأوقاف الضخمة للإنفاق عليها إنفاقًا دائمًا متصلًا ، وزودوها بما تحتاج إليه من مكتبات غصت بنفائس الكتب فى العلوم المختلفة مثلما فعل السلطان المؤيد شيخ المحمودى[٣] « ت ٨٢٤هـ » صاحب المدرسة المؤيدية ، والسلطان قايتباى[٤] « ت ٩٠١هـ » ، كما كان بعض سلاطين المماليك على جانب كبيرًا من العلم والمعرفة كالسلطان المؤيد شيخ « ت ٨٢٤هـ » الذى تصدر للإقراء والدرس ، حيث كان يحمل إجازة برواية « صحيح البخارى » ، كما كان المؤيد شيخ كثير التعظيم لأهل العلم والإكرام لهم ، كذلك كان الظاهر جقمق[٥] « ت ٨٥٧هـ » يُجلّ العلماء ويرفع من

---

(١) د. محمود محمد الحريرى « مصر فى العصور الوسطى » ص ٢٩٢، دار عين للنشر ، ط ٣ (٢٠٠٣م) .

(٢) يعزو المؤرخون المعاصرون ذلك لأسباب سياسية ، تتمثل فى دعم نفوذهم السياسى لدى المصريين والشاميين بوجه عام ولدى العلماء بوجه خاص ، انظر : د. محمد عبد الستار « نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية الباقية بمدن القاهرة » ص ١٠١، د. محمد محمد أمين « تاريخ الأوقاف فى مصر فى عصر سلاطين المماليك » ص ٧٧ – ٨٨.

(٣) المؤيد شيخ : سبق التعريف به بالفصل الأول ، انظر : ص ٣٧ .

(٤) السلطان قايتباى : سبق التعريف به بالفصل الأول ، انظر : ص ٢٢ .

(٥) السلطان جقمق : سبق التعريف به بالفصل الأول ، انظر : ص ١١ .

مقامهم ، ويبحث مع العلماء والفقهاء ، ويلازم مشايخ القراءات ، ويقرأ عنهم[(١)] .

كذلك كان من عوامل ازدهار الحياة الفكرية بمصر والشام فى العصر المملوكى هجرة علماء الإسلام إلى مصر والشام ، وذلك بعد أن ذوت مراكز العلم والتنوير فى معظم البلاد الإسلامية ، خاصة بعد سقوط بغداد فى أيدى المغول سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م ، وتدميرهم لكنوز المخطوطات ، وتعرض قرطبة فى الأندلس لحركة الاسترداد المسيحية ، فضلًا على رعاية المماليك للحركة الفكرية ـ كما تقدم[(٢)] ـ .

ومن أمثال هؤلاء العلماء الذين هاجروا إلى مصر والشام ـ فى القرن التاسع ، فمن العراق ، العالم عبد السلام البغدادى[(٣)] « ت ٨٥٩هـ » ، والعالم عبد الرحمن البغدادى[(٤)]

---

(١) مجهول «تاريخ السلطان الأشرف قايتباى» ص ١٤ ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٦١ تاريخ) ، ارثربروستين « حجة الملك الأشرف قايتباى » ص ٣، ٦٩، لندن ، ١٩٣٨م ، د. حسنى نويصر « مدرسة جركسية على نمط المساجد الجامعة : مدرسة الأمير سودون بن زاده بسوق الصلاح » ص ٧٠، مكتبة نهضة الشرق ، القاهرة ، ١٩٨٥م ، محمود على « نيابة غزة فى العهد المملوكى » ص ٢٢٨، منشورات الآفاق الجديدة ، بيروت ، ١٩٨٦م ، د. أحمد الإيبش « معالم دمشق التاريخية » ص ١٢٥، ترجمة د. قتيبة الشهابى ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٩٦م ، سليمان إسحاق « تاريخ التعليم فى فلسطين على عهد سلاطين المماليك » ص ٩، عبد الغنى محمود « التعليم فى مصر زمن الأيوبيين والمماليك » ص ١٢٠، ماجستير ، آداب القاهرة ، ١٩٧٥م ، خالد محسن « الحياة العلمية فى الحجاز خلال العصر المملوكى » ص ١١٩، ١٢٠، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامى ، مكة المكرمة ، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م ، د. زبيدة محمد عطا « مكتبات المدارس فى العصرين الأيوبى والمملوكى » ص ٢١٦، بحث ضمن أبحاث كتاب « ندوة المدارس فى مصر الإسلامية » ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٢م ، د. عبد اللطيف إبراهيم « وثيقة الأمير آخور كبير قراقجا الحسنى » ص ١٨٣، مجلة كلية الآداب ، القاهرة ، ديسمبر ، ١٩٥٦م .

(٢) د. محمود محمد الحريرى « مصر فى العصور الوسطى » ص ٢٩٢، أحمد محمود « الدور السياسى والحضارى للصوفية » ص ٤٨١.

(٣) عبد السلام البغدادى : هو عبد السلام بن أحمد ، العز البغدادى ، تفقه على شيوخ عصره ، كان عالمًا فى التفسير والمنطق ، درس وأفتى ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٤ ص ١٩٨.

(٤) عبد الرحمن البغدادى : عبد الرحمن بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، برع فى الفقه والتفسير ، والقراءات ، توفى ٨٣٦هـ ، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٤ ص ١٥٤.

« ت ٨٣٦هـ » اللذان هاجرا إلى مصر[(١)] ، والعالم حسين الوسطانى[(٢)] « ت ٨٥٨هـ » الذى هاجر إلى دمشق[(٣)] .

ومن المغرب ، العالم عباس بن أحمد[(٤)] « ت ٨٨٩هـ » الذى هاجر إلى مصر[(٥)] ، والعالم أمين الدين سالم[(٦)] « ت ٨٧٣هـ » ، والعالم شمس الدين محمد[(٧)] « ت ٨٧٦هـ » اللذان هاجرا إلى القدس[(٨)] .

ومن الأندلس ، شرف الدين يحيى[(٩)] « ت ٨٩٥هـ » الذى هاجر إلى القدس[(١٠)] .

ومن الهند ، العالم علاء الدين البخارى[(١١)] « ت ٨٤١هـ » الذى هاجر إلى مصر ، حيث أقام بها فترة ، ثم انتقل منها إلى دمشق حتى توفى بها[(١٢)] .

---

(١) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٤ ص ١٥٤، ١٩٨.

(٢) حسين الوسطانى : حسين بن يوسف ، تفقه على شيوخ عصره ، رحل من العراق إلى دمشق عام ٨٥١هـ ، وتوفى عام ٨٥٨هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٣ ص ١٥٩.

(٣) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٣ ص ١٥٩.

(٤) عباس بن أحمد : كان من علماء القراءات بالمغرب ، هاجر إلى مصر ، توفى عام ٨٨٩هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٤ ص ١٨.

(٥) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٤ ص ١٨.

(٦) أمين الدين سالم : سالم بن إبراهيم ، كان عالماً بالمغرب ، ثم هاجر إلى القدس ، وتولى قضاء المالكية بها عام ٨٤٥هـ ، وتوفى عام ٨٧٣هـ ، انظر : مجير الدين الحنبلى « الأنس الجليل » ح ٢ ص ٢٤٧.

(٧) شمس الدين محمد : محمد بن على ، تفقه على شيوخ عصره ، ناب فى قضاء القدس ، توفى عام ٨٧٦هـ ، انظر : مجير الدين الحنبلى « الأنس الجليل » ح ٢ ص ٢٤٩.

(٨) مجير الدين الحنبلى « الأنس الجليل » ح ٢ ص ٢٤٧، ٢٤٩.

(٩) شرف الدين يحيى : يحيى بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره بالأندلس ، ثم قدم إلى القدس ، وتولى قضاء المالكية بها عام ٨٨٨هـ ، وتوفى عام ٨٩٥هـ ، انظر : مجير الدين الحنبلى « الأنس الجليل » ح ٢ ص ٢٥٣.

(١٠) مجير الدين الحنبلى « الأنس الجليل » ح ٢ ص ٢٥٣.

(١١) علاء الدين البخارى : على بن محمد ، من كبار علماء الهند ، رحل إلى مصر فى العصر المملوكى ، واستقر بها فترة ، ثم رحل إلى دمشق ، ومكث بها حتى وفاته ٨٤١هـ ، وانتفع علماء مصر والشام بعلمه الغزير ، انظر : ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٩ ص ٢٣.

(١٢) ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٩ ص ٢٣، المقريزى « درر العقود » ح ٣ ص ١٢٦.

كذلك ساهم فى ازدهار الحياة الفكرية بمصر والشام ازدهار الأوقاف فى العصر المملوكى ، حيث كانت تلك الأوقاف هى مصدر التمويل الأساسى للمؤسسات[(١)] العلمية بمصر والشام الذى يمكّنها من أداء رسالتها العلمية[(٢)] .

ومما ساعد ـ أيضًا ـ فى ازدهار الحياة الفكرية بمصر والشام ازدهار صناعة الورق وتجليد الكتب فى العصر المملوكى ، والقرن التاسع ـ بوجه خاص ـ ، حيث يمثل العصر الذهبى لصناعة تجليد الكتب فى مصر والشام من حيث المهارة الفنية ، وأصبح لمدينة القاهرة فى عصر المماليك مركز الصدارة فى إنتاج الكتب والمصاحف وزخرفتها وتجليدها ، وخاصة بعد أن اجتذبت الكثير من الفنانين والمجلدين من أنحاء العالم الإسلامى وخاصة من إيران ، كما ذخرت دمشق بمصانع الورق وأسواق بيعه مثل سوق الوراقين وسوق الكتبيين[(٣)] .

وأخيرًا حُبّ المصريين والشاميين للعلم والمجالس العلمية ، وحرصهم على حضور تلك المجالس[(٤)] .

---

(١) تتمثل المؤسسات العلمية فى مصر والشام فى العصر المملوكى فى المدارس والمساجد والخانقاوات والربط والزوايا ، انظر : د. أحمد حطيط « قضايا من تاريخ المماليك السياسى والحضارى » ص ٢٢٢، ٢٢٣، دار الفرات للنشر ، بيروت ، ٢٠٠٣م ، د. عاصم محمد « خانقاوات الصوفية فى مصر فى العصر الأيوبى والمملوكى » ص ٦٩، د. عبد الغنى محمود « التعليم فى مصر زمن الأيوبيين والمماليك » ص ١٤٩، ١٦٨، د. أحمد محمود « الدور السياسى والحضارى للصوفية فى عصر زمن سلاطين المماليك » ص ٤٨٣، ماجستير ، دار العلوم ، القاهرة ، ٢٠٠٦م .

(٢) النعيمى « دور القرآن بدمشق » ص ٦، البصروى « تاريخ البصروى » ص ١٧، د. طه ثلجى « مملكة صفد فى عهد المماليك » ص ١٥١، د. محمد محمد أمين « الأوقاف والحياة الاجتماعية » ص ٢٤٠، د. على السيد « القدس فى العصر المملوكى » ص ١٥٢، د. عادل عبد الحافظ « نيابة حلب » ص ١٩٢.

(٣) د. أحمد حطيط « التعليم بدمشق فى زمن المماليك » ص ٣٥١، مجلة المشرق ، بيروت ، السنة (٧٥) عدد (٢٠٠١م) ، كوركيس عواد « الخزانة الشرقية » ح ٢ ص ٤٧٦، ح ٥ ص ٢٠٦، د. أيمن فؤاد « صناعة الكتاب العربى المخطوط » ص ٢٢، مقال بدورية Annales Islamologiques، عدد (١٩٩٧) .

(٤) لطفى أحمد « وسائل الترفية فى عصر سلاطين المماليك فى مصر » ص ٤٨، ماجستير ، آداب عين شمس ، ١٩٨٧م ، د. مجاهد توفيق « الحركة العلمية فى مصر فى عصر سلاطين المماليك البرجية ودور الأزهر فيها » ص ٦٨٧، دكتوراة ، كلية اللغة العربية ، جامعة الأزهر ، ١٩٨١م .

١ ـ العلماء والتأليف العلمى بمصر والشام

لقد ساهم علماء[(١)] مصر والشام فى إثراء الحياة الفكرية فى القرن التاسع من خلال إنتاجهم العلمى، الذى خرج فى صورة مُؤلفات علمية فى سائر أنواع العلوم الدينية[(٢)] .

أ ـ الفقه :

الفقه فى الاصطلاح علم بحكم شرعى فرعى مكتسب من دليل تفصيلى سواء كان من نصه أو استنباطًا منه، وموضوع الفقه أفعال المكلفين من حيث عروض الأدلة المعروفة، واستمداده من الكتاب والسنّة والإجماع والقياس وسائر الأدلة المعروفة، وفائدته امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه المحصلان للفوائد الدنيوية والأخروية[(٣)] .

---

(١) لقد أُطلق على المُتفقهين فى العلوم الدينية فى العصر المملوكى لقب عالِم أو فقيه، أمّا المتفقهين فى العلوم الأخرى فلا، فقد كان الطبيب يُقال له الرئيس أو الحكيم، ويُقال لطبيب العيون الكحال، ولمهندس المبانى الشاد وهكذا، وهؤلاء المتفقهين فى العلوم غير الدينية لا يدخلون فى نطاق دراسة الباحث، حيث حدد الباحث بالفصل التمهيدى، أن المقصود بالعلماء فى هذه الدراسة هم المتفقهين فى العلوم الدينية فقط، انظر: التمهيد: ص ١، ٢.

(٢) كانت العلوم الدينية من « فقه، وتفسير، وحديث، وقراءات ... إلخ » هى العلوم الرئيسية التى تُدرس فى المؤسسات العلمية فى العصر المملوكى، أما سوى ذلك من علوم طبيعية ورياضيات وفلك، فقد كان الالتفات إليها ضئيلاً ومحدودًا، انظر: د. عبد اللطيف حمزة « الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول » ص ١٧١، دار الفكر العربى، القاهرة، « د . ت »، د. طه ثلجى « مملكة صفد فى عهد المماليك » ص ٢٦٧، د. حسن الباشا « دراسة جديدة فى نشأة الطراز المعمارى للمدرسة المصرية » ص ٤٥، مجلة كلية الآثار، جامعة القاهرة، العدد (٣) عام ١٩٨٩م .

(٣) ابن الأكفانى « محمد بن إبراهيم ت ٧٤٩هـ » « إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد فى أنواع العلوم » ص ١٦٢، ١٦٤، تحقيق عبد المنعم محمد عمر، دار الفكر العربى، القاهرة، العلموى « عبد الباسط موسى « ت ٩٨١هـ » » « المُعيد فى أدب المفيد والمستفيد » ص ٦٨، شرحه وعلق عليه د. مروان العَطية، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م، طاش كبرى زاده « مفتاح السعادة ومصابيح =

ولقد صنّف علماء مصر والشام فى هذا العلم مُؤلفات علمية رصينة محكمة، فمن علماء مصر ـ فى القرن التاسع ـ الذين صنّفوا المؤلفات فى ذلك العلم، قاسم بن قطلوبغا[١] « ت ٨٧٩هـ »، الذى شرح « الورقات »، والورقات كتاب صغير الحجم فى أصول الفقه، ولكنه غزير المعانى لإمام الحرمين الجوينى « عبد الملك بن عبد الله « ت ٤٧٨هـ[٢] » »، كما صنّف ابن قطلوبغا « مختصر المنار »، والمنار كتاب فى أصول الفقه بعنوان « منار الأصول » للنسفى « حافظ الدين أبو البركات عبد الله بن أحمد « ت ٧١٠هـ » »، وتوجد نسخة مخطوطة من المنار بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة تحت رقم (١/٦٧٩٣)[٣]، كما توجد نسخة من كتاب « مختصر المنار » لابن قطلوبغا بمكتبة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة[٤] تحت رقم (٤٩٨)[٥].

والعالم شمس الدين البساطى[٦] « ت ٨٤٢هـ » الذى شرح « مختصر ابن الحاجب »، ومختصر ابن الحاجب كتاب فى أصول الفقه ويسمى « منتهى السؤل والأمل فى علم الأصول والجدل » لجمال الدين عثمان بن عمر المعروف بابن الحاجب « ت ٦٤٦هـ »، ثم اختصره ابن الحاجب وهو المشهور المتداول باسم « مختصر المنتهى » و « مختصر ابن الحاجب »[٧]، كما شرح شمس الدين البساطى « مختصر الشيخ خليل »، و « مختصر

= السيادة » ح ٢ ص ١٩٤، السيوطى « جلال الدين عبد الرحمن « ت ٩١١هـ » » « إتمام الدراية لقراء النقاية » ص ٧٩، المطبعة الأدبية، القاهرة، ١٣١٧هـ.

(١) قاسم بن قطلوبغا: تفقه على شيوخ عصره، برع فى الفقه الحنفى، درس وأفتى، توفى ٨٧٩هـ، انظر: المقريزى « درر العقود » ح ٣ ص ٢٢، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٦ ص ١٨٧.

(٢) د. عبد اللطيف العبد « التفكير المنطقى » ص ٢٣٧.

(٣) « فهرس كتب القواعد الفقهية وأصول الفقه فى مكتبة المصغرات الفيلمية فى عمادة شؤون المكتبات فى الجامعة الإسلامية » ص ٣٨٥، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ١٤١٥هـ.

(٤) « فهرس كتب القواعد الفقهية » ص ٢٩٨.

(٥) المقريزى « درر العقود » ح ٣ ص ٢٢، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٦ ص ١٨٧.

(٦) شمس الدين البساطى: محمد بن أحمد، برع فى الفقه المالكى، تولى قضاء المالكية بمصر، درس، توفى ٨٤٢هـ، انظر: المقريزى « درر العقود » ح ٣ ص ٢٠، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٧ ص ٥.

(٧) د. على منصور « الحياة العلمية بالقدس » ص ٨٣.

الشيخ خليل » كتاب فى الفقه المالكى[1] لصدر الدين عبد الخالق بن على المعروف بابن الفرات « ت ٧٩٤هـ »[2] ، والعالم شهاب الدين الطوخى[3] « ت ٨٥٣هـ » الذى صنّف « الزبدة فى الأصول لطالب الوصول » ، الذى توجد نسخة مخطوطة منها بجامعة الإمام محمد بن سعود برقم [٩/٦٠٠١][4] .

والعالم صدر الدين المناوى[5] « ت ٨٠٣هـ » الذى صنف « مختصر جمع الجوامع » ، و « جمع الجوامع » كتاب فى أصول الفقه[6] لتاج الدين السبكى « ت ٧٧١هـ »[7] ، وشمس الدين البرماوى[8] « ت ٨٣١هـ » الذى صنف « ألفية فى أصول الفقه وشرحها » ، و « شرح عمدة الأحكام » ، و « عمدة الأحكام »[9] كتاب فى الفقه الحنبلى للعالم أبى محمد عبد الله بن قدامة الحنبلى « ت ٦٦٠هـ » ، وهو مختصر فى العبادات الخمس[10] .

والعالم بدر الدين العينى[11] « ت ٨٥٤هـ » الذى شرح « الهداية » فى إحدى عشر

---

(١) حاجى خليفة « كشف الظنون » ح ٤ ص ٤٤٩.

(٢) المقريزى « درر العقود » ح ٣ ص ١٢٠، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٧ ص ٥، محمد بن محمد مخلوف « شجرة النور الزكية فى طبقات المالكية » ح ١ ص ٢٤١، دار الكتاب العربى ، بيروت ، « د.ت » .

(٣) شهاب الدين الطوخى : أحمد بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، درس ، توفى ٨٥٣هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٢ ص ١٦٦.

(٤) « فهرس كتب القواعد الفقهية » ص ٤٢٣.

(٥) صدر الدين المناوى : محمد بن إبراهيم ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء الشافعية بمصر ، درس ، توفى ٨٠٣هـ ، انظر : المقريزى « درر العقود » ح ٣ ص ٢٨.

(٦) حاجى خليفة « كشف الظنون » ص ٥٩٥.

(٧) المقريزى « درر العقود » ح ٣ ص ٢٨.

(٨) شمس الدين البرماوى : محمد بن عبد الدائم ، تفقه على شيوخ عصره ، درس وأفتى ، توفى ٨٣١هـ ، انظر : المقريزى « درر العقود » ح ٣ ص ١٥٦.

(٩) حاجى خليفة « كشف الظنون » ح ٢ ص ١١٦٤.

(١٠) المقريزى « درر العقود » ح ٣ ص ١٥٦.

(١١) بدر الدين العينى : محمود بن أحمد ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء الحنفية بمصر ، درس ، توفى ٨٥٤هـ ، انظر : المقريزى « درر العقود » ح ٣ ص ٤٦٨.

مجلدًا، و « الهداية » كتاب فى فروع الفقه[١] الحنفى للشيخ برهان الدين على بن أبى بكر المرغينانى « ت ٥٩٣هـ »، وكذا فى فروع الفقه الشافعى لأبى حسن منصور بن إسماعيل « ت ٣٠٦هـ »، وأيضًا فى فروع الفقه الحنبلى للشيخ أبى الخطاب البغدادى « ت ٥١٠هـ »، والذى شرحه بدر الدين العينى هو كتاب برهان الدين المرغينانى فى الفقه الحنفى، حيث كان العينى من علماء الحنفية، كما شرح بدر الدين العينى كتاب « الكنز »[٢]، والكنز كتاب « كنز الدقائق فى فروع الحنفية » لحافظ الدين أبو البركات عبد الله بن أحمد النسفى « ت ٧١٠هـ »[٣]، والعالم عز الدين البكرى[٤] الذى صنّف كتاب « الخلاصة فى الفقه »[٥]، والعالم الجلال المحلى[٦] « ت ٨٦٤هـ » الذى شرح « جمع الجوامع »، وهو كتاب فى أصول الفقه[٧] لتاج الدين السبكى « ت ٧٧١هـ »[٨]، والعالم تاج الدين الدميرى[٩] « ت ٨٠٥هـ » الذى له ثلاثة شروح على « مختصر الشيخ خليل » كبير ووسيط وصغير، واشتهر الوسيط، ومختصر الشيخ خليل[١٠] كتاب فى الفقه المالكى

---

(١) حاجى خليفة « كشف الظنون » ح ٢ ص ٢٠٣١، ٢٠٣٢، عمر رضا كحالة « معجم المؤلفين » ح ٧ ص ٤٥.

(٢) المقريزى « درر العقود » ح ٣ ص ٤٦٨، السخاوى « الذيل على رفع الأصر » ص ٤٣٦.

(٣) ابن العجمى « كنوز الذهب » ح ٢ ص ٢٤٣، عمر رضا « معجم المؤلفين » ح ٦ ص ٣٢.

(٤) عز الدين البكرى: عبد العزيز بن على، تفقه على شيوخ عصره، تولى قضاء الحنابلة بمصر عام ٨٢٩هـ، انظر: المقريزى « درر العقود » ح ٢ ص ٢٩٦.

(٥) المقريزى « درر العقود » ح ٢ ص ٢٩٦.

(٦) الجلال المحلى: محمد بن أحمد، تفقه على شيوخ عصره، تولى قضاء مصر، توفى ٨٦٤هـ، انظر: السخاوى « الذيل على رفع الأصر » ص ٢٣٤.

(٧) حاجى خليفة « كشف الظنون » ص ٥٩٥.

(٨) السخاوى « الذيل على رفع الأصر » ص ٢٣٤.

(٩) تاج الدين الدميرى: بهرام بن عبد الله، تفقه على شيوخ عصره، برع فى الفقه المالكى، وانتهت إليه رئاسته فى عصره، توفى ٨٠٥هـ، انظر: محمد بن محمد مخلوف « شجرة النور الزكية » ح ١ ص ٢٣٩.

(١٠) حاجى خليفة « كشف الظنون » ح ٤ ص ٤٤٩.

لصدر الدين عبد الخالق بن على المعروف بابن الفرات « ت ٧٩٤هـ »[(١)] ، والعالم ابن الهمام[(٢)] « ت ٨٦١هـ » الذى صنّف « التحرير فى أصول الفقه » ، وشرح كتاب « الهداية » ، ويسمى هذا الشرح « فتح القدير » ، وهو شرح « الهداية » فى الفقه الحنفى لبرهان الدين المرغينانى « ت ٥٩٣هـ » ـ كما سبق القول[(٣)] ـ ، وهذا الشرح توجد نسخ مخطوطة منه بمكتبة الأسد بدمشق تحت رقم (٢/٥٨ـ٦١) ، ولقد وصل فيه أبو الهمام إلى كتاب « الوكالة »[(٤)] ثم أكمل الكتاب أحمد بن قودر المعروف بقاضى زاده « ت ٩٨٨هـ »[(٥)] .

ومن علماء دمشق ـ فى القرن التاسع ـ الذين صنّفوا المؤلفات العلمية فى ذلك العلم ، العالم تقى الدين الحصنى[(٦)] « ت ٨٢٩هـ » الذى شرح « التنبيه » فى خمس مجلدات[(*)] ، و « التنبيه » كتاب فى فروع الفقه الشافعى[(٧)] للعالم أبى إسحاق إبراهيم الشيرازى « ت ٤٧٦هـ » ، وهو أحد الكتب الخمس المشهورة المتداولة بين الشافعية ، وله شروح كثيرة ، كما شرح تقى الدين « المنهاج » ، والمنهاج هو كتاب « شرح منهاج[(٨)] الطالبين فى مختصر كتاب المحرر » فى فروع الشافعية للإمام أبى القاسم عبد الكريم بن محمد القزوينى المتوفى فى حدود سنة ٦٢٣هـ ، وله شروح ومختصرات منها « مختصر الإمام محى الدين بن شرف النووى « ت ٦٧٦هـ » » وسماه « المنهاج » ، كما شرحه تقى الدين السبكى « ت

---

(١) محمد بن محمد مخلوف « شجرة النور الزكية » ح ١ ص ٢٣٩.

(٢) ابن الهمام : محمد بن عبد الواحد ، تفقه على شيوخ عصره ، درس وأفتى ، توفى ٨٦١هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٨ ص ١٢٧.

(٣) انظر : ص ٣٢٩.

(٤) د. فاطمة محجوب « الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية » ح ٣٤ ص ٣٣٣.

(٥) المقريزى « درر العقود » ح ٣ ص ٤١٣.

(٦) تقى الدين الحصنى : أبو بكر بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، حتى صار شيخ الشافعية بدمشق ، توفى ٨٢٩هـ ، انظر : المقريزى « درر العقود » ح ١ ص ١٨٢.

(*) توجد قطعة من هذا الشرح بدار الكتب المصرية برقم (٢٢٥ فقه شافعى طلعت) .

(٧) حاجى خليفة « كشف الظنون » ح ١ ص ٤٨٩.

(٨) عمر رضا كحالة « معجم المؤلفين » ح ٧ ص ١٢٧ ، د. على منصور « الحياة العلمية فى القدس » ص ٨٧.

٧٥٦هـ» وسماه «الابتهاج فى شرح المنهاج»[(١)].

والعالم شهاب الدين الحسبانى[(٢)] «ت ٨١٦هـ» الذى شرح «الحاوى»، والحاوى هو من الكتب المعتبرة[(٣)] فى الفقه الشافعى للعالم نجم الدين عبد الغفار بن عبد الكريم القزوينى «ت ٦٦٥هـ»، والكتاب له شروح عديدة[(٤)].

والعالم ابن المبرد[(٥)] «ت ٩٠٩هـ» الذى صنّف «غاية السوّل إلى علم الأصول»، وهذا الكتاب توجد منه نسخة مخطوطة[(٦)] بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة برقم [٢/١٠٥٢][(٧)].

والعالم شهاب الدين الدمشقى[(٨)] «ت ٨٢٢هـ» الذى شرح «جمع الجوامع»، وهو كتاب فى أصول الفقه[(٩)] لتاج الدين السبكى «ت ٧٧١هـ»، كما شرح كتاب «الحاوى» ـ الذى سبق الإشارة إليه ـ[(١٠)].

والعالم علاء الدين الدمشقى[(١١)] «ت ٨٤٤هـ» الذى صنّف كتاب «نتائج الفكر فى

---

(١) ابن قاضى شهبة «طبقات الشافعية» ح ٢ ص ٣٠٨.

(٢) شهاب الدين الحسبانى: أحمد بن إسماعيل، تفقه على شيوخ عصره، درس وأفتى، توفى ٨١٥هـ، انظر: ابن قاضى شهبة «طبقات الشافعية» ح ٢ ص ٢٥٦.

(٣) حاجى خليفة «كشف الظنون» ح ١ ص ٦٢٥.

(٤) المقريزى «درر العقود» ح ١ ص ٣٦٦.

(٥) ابن المبرد: يوسف بن الحسن، تفقه على شيوخ عصره، صار رأس الحنابلة بدمشق فى عصره، درس وأفتى، كان إمامًا بارزًا فى الحديث والتفسير، تبلغ حوالى مائة وخمسين مُؤلف توفى ٩٠٩هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ١٠ ص ٣٠٨، ابن مكى «السحب الوابلة» ح ٣ ص ١١٦٥، صلاح محمد «ابن المبرد حياته وآثاره المخطوطة والمطبوعة» ص ٧٧٦، مجلة معهد المخطوطات العربية، مج (٢٦)، ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م.

(٦) «فهرس كتب القواعد الفقهية» ص ٣٢٣.

(٧) ابن المبرد «الجوهر المنضد» ص ٢٦.

(٨) شهاب الدين الدمشقى: أحمد بن عبد الله، تفقه على شيوخ عصره، درس وأفتى، تولى القضاء، توفى ٨٢٢هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ١ ص ٣٥٦، ابن قاضى شهبة «طبقات الشافعية» ح ٢ ص ٣١١.

(٩) حاجى خليفة «كشف الظنون» ص ٥٩٥.

(١٠) المقريزى «درر العقود» ح ١ ص ٢٤٩، ابن قاضى شهبة «طبقات الشافعية» ح ٢ ص ٣١١.

(١١) علاء الدين الدمشقى: على بن عثمان، تفقه على شيوخ عصره، درس، توفى ٨٤٤هـ، انظر: المقريزى «درر العقود» ح ٢ ص ٥٤٢.

ترتيب مسائل المنهاج[1] على المختصر »[2] .

ومن علماء القدس ـ فى القرن التاسع ـ الذين صنفوا المُؤلفات العلمية فى هذا العلم، العالم شهاب الدين ابن[3] أرسلان « ت ٨٤٤هـ » ، الذى صنف « لمع اللوامع فى توضيح جمع الجوامع »[4] الذى يعتبر توضيح لما أُشكِل من معانى كتاب « جمع الجوامع » لتاج الدين السبكى « ت ٧٧١هـ » ، حيث أن هذا الكتاب ـ كما يذكر ابن أرسلان ـ « صغير الحجم غزير العلم ، وهو من الإيجاز ، حتى كاد يعد من الألغاز ، وقد استخرت ـ أى ابن أرسلان ـ فى توضيح معانيه وتخريج بعض الفروع على الأصول كما هو مسطور من كلام الأئمة وذكر الأمثلة »[5] ، والعالم شمس الدين[6] الأسدى « ت ٨٠٨هـ » الذى شرح جمع الجوامع » لتاج الدين السبكى « ت ٧٧١هـ » ، كما علّق على « مختصر ابن الحاجب »[7] وسمّى هذا التعليق « التوضيح »[8] ، والعالم كمال الدين بن أبى شريف[9] « ت ٩٠٥هـ » الذى صنّف « الدرر اللوامع بتحرير جمع الجوامع »[*] وهو حاشية على شرح الجلال

---

(١) المنهاج : انظر : ص ٣٣٠.
(٢) المقريزى « درر العقود » ح ٢ ص ٥٤٢.
(٣) شهاب الدين ابن أرسلان : أحمد بن حسين ، تفقه على شيوخ عصره ، درس وأفتى ، وله مصنفات عديدة ، وهو من كبار علماء القدس ، توفى ٨٤٤هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ٢٨٥.
(٤) هذا الكتاب مخطوط بدار الكتب المصرية برقم مكروفيلم (٢١٧٤١) .
(٥) ابن أرسلان « شهاب الدين أحمد « ت ٨٤٤هـ » » « لمع اللوامع فى توضيح جمع الجوامع » ص ١، مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم مكروفيلم (٢١٧٤١) ، العيدروسى « النور السافر » ص ٧٥، المقريزى « درر العقود » ح ١ ص ٢٦١، السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ٢٨٥.
(٦) شمس الدين الأسدى : محمد بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، له مصنفات فى الفقه كثيرة ، توفى ٨٠٨هـ ، انظر : ابن قاضى شهبة « طبقات الشافعية » ح ٢ ص ٢٩٣.
(٧) مختصر ابن الحاجب : انظر : ص ٣٢٧.
(٨) ابن قاضى شهبة « طبقات الشافعية » ح ٢ ص ٢٩٣، د. على منصور « الحياة العلمية » ص ٨٣، ٨٤.
(٩) كمال الدين بن أبى شريف : محمد بن الأمير ناصر الدين محمد بن أبى بكر ، تفقه على شيوخ عصره ، كان من أعيان علماء القدس فى عصره ، درس وأفتى ، توفى ٩٠٥هـ ، انظر : مجير الحنبلى « الأنس الجليل » ح ٢ ص ٣٧٧.
(*) يوجد نسخة من هذا الكتاب بدار الكتب المصرية برقم (١٧ أصول فقه) .
(١٠) سبق ذكر ذلك الشرح الذى صنفه الجلال المحلى « ت ٨٦٤هـ » ، انظر : ص ٣٢٩.

المحلى[١٠] « ت ٨٦٤هـ » لجمع الجوامع للسبكى[١] .

ومن علماء حلب ـ فى القرن التاسع ـ الذين صنفوا المُؤلفات فى ذلك العلم ، العالم شمس الدين الحلبى[٢] « ت ٨٧١هـ » الذى شرح « المنهاج »[٣] فى أربعة عشر مجلد ، وصنّف « الأنجم الزاهرات على حلّ ألفاظ الورقات »[٤] ، الذى يوجد نسخة منه بمكتبة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة تحت رقم (٧٦٦٤)[٥] .

ومن علماء حماة ـ فى القرن التاسع ـ الذين صنفوا المؤلفات فى ذلك العلم ، نور الدين الحموى[٦] « ت ٨٣٤هـ » الذى صنف « تكملة شرح منهاج النووى « ت ٦٧٦هـ » » فى ثلاث عشرة مجلدة[٧] .

ويظهر مما سبق أنّه غلب على مصنفات العلماء باختلاف مشاربهم الفقهية طابع الشرح والاختصار ، أو تعليق النكت والحواشى على كتب المتقدمين ، ومن تلك الكتب التى ظفرت بمزيد عنايتهم كتاب « المنهاج » ، و « التنبيه » ، و « الحاوى » فى فقه الشافعية ، وكتاب « الهداية فى فقه الحنفية » ، وكتاب « مختصر ابن الحاجب » فى الفقه المالكى ، وكتاب « عمدة الأحكام » فى الفقه الحنبلى .

كما اتّجه فريق من العلماء إلى وضع المنظومات العلمية فى الفقه ؛ تيسيرًا على الدارسين ولاسيما المبتدئين منهم ، كما فعل شمس الدين البرماوى « ت ٨٣١هـ » ـ كما سبق القول ـ .

---

(١) العيدروسى « النور السافر » ص ٧٥، يوسف اليان سركيس « معجم المطبوعات العربية والمعربة » ح ٢ ص ١٥٦٨، دار صادر ، بيروت ، « د.ت » ، كوركيس عواد « الذخائر الشرقية » ح ٤ ص ٣٣.

(٢) شمس الدين الحلبى : محمد بن عثمان ، تفقه على شيوخ عصره ، توفى ٨٧١هـ ، انظر : ابن الطباخ « إعلام النبلاء » ح ٥ ص ٢٦٥.

(٣) المنهاج : انظر : ص ٣٣٠.

(٤) الورقات : انظر : ص ٣٢٧.

(٥) ابن الطباخ « إعلام النبلاء » ح ٥ ص ٢٦٥، « فهرس كتب القواعد الفقهية » ص ١٢٥.

(٦) نور الدين الحموى : محمود بن أحمد ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء الشافعية بحماة ، درس وأفتى ، توفى ٨٣٤هـ ، انظر : المقريزى « درر العقود » ح ٣ ص ٤٥٨.

(٧) المقريزى « درر العقود » ح ٣ ص ٤٥٩.

ب ـ الحديث :

علم الحديث علم بقوانين يُعرف بها أحوال السند والمتن ، وموضوعه السند والمتن ، وغايته معرفة الصحيح من غيره ، وقسم العلماء علوم الحديث إلى علمين رئيسيين ، علم الحديث رواية ، فهو علم موضوعه نقل الأحاديث ، وتداولها بين الناس ، والهدف منه حفظ الخبر ونقله دون الحكم عليه من حيث القبول والرد ومن ثم يعنى هذا العلم بالراوى والمروى ، والمروى عنه والمروى إليه ، أما علم الحديث دراية يعنى بفهم وتتبع أحوال الرواة وطبقاتهم ، وفهم المروى وأنواعه ، وما قد يعتريه من علل خفية وغير ذلك مما عنى به المحدثون[(١)] .

ولقد صنف علماء مصر والشام ـ فى القرن التاسع ـ فى هذا العلم مُؤلفات علمية رصينة مُحكمة .

فمن علماء مصر ـ فى القرن التاسع ـ الذين صنّفوا فى هذا العلم ، العالم ابن الملقن[(٢)] « ت ٨٠٤هـ » الذى شرح « صحيح البخارى » فى عشرين مجلدًا ، كما شرح « زوائد مسلم » و « زوائد أبى داود » ، كما صنّف « المقنع فى علم الحديث » ، و « المعين على تفهم الأربعين » ، ويوجد من هذا الكتاب نسخة مخطوطة بمكتبة الملك عبد العزيز التابعة لوزارة الحج والأوقاف بالمدينة المنورة ، رقمها (٦٠٨) ، ولقد حقق عبد العال مسعد هذا الكتاب ، ونشرته دار الفاروق الحديثة للطباعة والنشر عام ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م[(٣)] وله ـ أيضًا ـ «التذكرة فى علوم الحديث» ، ويوجد منها نسخة بمكتبة الخالدية بالقدس برقم (٤٢٤/٦)[(٤)] ، والعالم زين الدين العراقى[(٥)] « ت ٨٠٦هـ » ، الذى صنّف « الألفية » فى علوم الحديث ، وهى ألف

---

(١) العلموى « المُعيد فى أدب المفيد والمستفيد » ص ١٦، د. محمد قاسم المنسى « دراسات فى السنّة وعلم الحديث » ص ١٩، ١٤٣، ١٦٢، دار النصر والتوزيع، القاهرة ، ١٩٩٨م .

(٢) ابن الملقن : عمر بن على ، تفقه على شيوخ عصره ، برع فى علم الحديث ، درس وأفتى ، توفى ٨٠٤هـ ، انظر : المقريزى « درر العقود » ح ٢ ص ٣٤٠، ابن قاضى شهبة « تاريخ ابن قاضى شهبة « ٨٠١ـ٨٠٨هـ » » ح ٤ ص ٢٨١، تحقيق عدنان درويش ، المعهد الفرنسى للدراسات العربية ، دمشق ، ١٩٩٧م .

(٣) المقريزى « درر العقود » ح ٢ ص ٣٤٠، ابن قاضى شهبة « تاريخ ابن قاضى شهبة » ح ٤ ص ٢٨١، ابن فهد « لحظ الألحاظ » ص ١٩٧.

(٤) « فهر الخالدية » ص ١٧٨ .

(٥) زين الدين العراقى : عبد الرحيم بن الحسين ، تفقه على شيوخ عصره ، برع فى علم الحديث ، درس ، =

بيت ، على نحو ما فعل ابن مالك فى ألفيته المشهورة فى علم النحو ، ثم شرح العراقى ألفيته وسمّاها « فتح المغيث بشرح ألفية الحديث » وهذا الشرح قد طبع بالحجر[١] فى لنكاو « الهند » سنة ١٣٠٣هـ/١٨٨٥م ، كما شرح العراقى « جامع الترمذى » شرحًا كبيرًا[٢] .

والعالم ولى الدين أبو زرعة[٣] « ت ٨٢٦هـ » الذى صنّف « الأطراف بأوهام الأطراف للمزى « يوسف بن عبد الرحمن ت ٧٤٢هـ » » ، والمقصود بالأطراف عند علماء الحديث ، هو أن يذكر أهل الأطراف حديث الصحابى مفردًا ـ كأهل المسانيد ـ إلا أنهم لا يذكرون من الحديث إلا طرفًا يُعرف به ، مع الجمع لأسانيده ، إما على سبيل الاستيعاب أو على جهة التقيد بكتب مخصوصة ، أما أهل المسانيد يذكرون الحديث كاملًا ويستقصون جميع حديث ذلك الصحابى سواء رواه من يُحتج به أم لا ، فقصدهم حصر جميع ما روى عنه من غير نظر إلى التبويب الفقهى[٤] ، كما صنّف ولى الدين « المستفاد من مبهمات المتن والإسناد »[٥] ، كما كتب على سُدُس « سنن أبى داود » سبع مجلدات[٦] .

والعالم شهاب الدين البوصيرى[٧] « ت ٨٤٠هـ » الذى صنّف « إتحاف البررة بزوائد مسانيد العشرة » فى سبع مجلدات ، والمسانيد هى كتب مرتبة على الصحابة ، حيث تذكر روايات الصحابى الواحد كلها فى مكان واحد ، ثم ينتقل إلى صحابى آخر ، دون تبويب

= توفى ٨٠٦هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٤ ص ١٧١، ابن فهد « لحظ الألحاظ » ص ٢٢٠.

(١) كوركيس عواد « الذخائر الشرقية » ح ٤ ص ١٠٣.

(٢) ابن ناصر الدين «شرح بديعة البيان عن موت الأعيان من رجال الحديث» ص ١٨٠، مخطوط بمعهد المخطوطات برقم (٢٩٠ تاريخ)، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٤ ص ١٧١، المقريزى « درر العقود » ح ٢ ص ٢٣٦.

(٣) ولى الدين أبو زرعة : أحمد بن عبد الرحيم ، تفقه على شيوخ عصره ، برع فى علم الحديث ، درس ، توفى ٨٢٦هـ ، انظر : ابن فهد « لحظ الألحاظ » ص ٢٨٤، المقريزى « درر العقود » ح ١ ص ٣٠٩.

(٤) ابن حجر العسقلانى « إتحاف المهرة » ص ٢٥، ٢٧، تحقيق د. زهير بن ناصر الناصر ، مركز خدمة السنّة والسيرة النبوية ، المدينة المنورة ، ط ١ (١٤١٥هـ/١٩٩٤م) .

(*) توجد نسخة من هذا الكتاب بدار الكتب المصرية برقم (٤٩٤ حديث) .

(٥) ابن فهد « لحظ الألحاظ » ص ٢٨٤، المقريزى « درر العقود » ح ١ ص ٣٠٩.

(٦) شهاب الدين البوصيرى : أحمد بن أبى بكر ، تفقه على شيوخ عصره ، برع فى علم الحديث ، توفى ٨٤٠هـ ، انظر : البقاعى « عنوان الزمان » ح ١ ص ٤٧.

للأحاديث ، ومن أشهر الكتب فى ذلك « المسند » للإمام أحمد بن حنبل « ت ٢٤١هـ » ، وبعض هذه المسانيد اتبع أسلوب جمع روايات الصحابى الواحد ، ولكنه بوّب أحاديث كل صحابى كما فعل البزار فى « المسند الكبير »[١] ، كما صنّف « مصباح الزجاجة فى زوائد ابن ماجة » اشتمل على ما فيه من الزيادة على الكتب الستة[٢] .

والعالم ابن حجر العسقلانى[٣] « ت ٨٥٢هـ » الذى صنّف « فتح البارى فى شرح البخارى » فى اثنى عشر مجلدًا ، ولقد وصف العالم برهان الدين البقاعى[٤] « ت ٨٨٥هـ » هذا الكتاب قائلًا « هو عجب لمن تأمله ، جمع من المنقول والمعقول خزائن علم ، مع حسن النظم وصغر الحجم ، وسلك فيه طريقًا ما سُبق إلى مثلها فى هذا الكتاب بجمع طرق الحديث فيشرح بعضُها بعضًا ، وبيّن الألفاظ التى اختلف فيها رواة البخارى ، ثم يأخذ كلام الشراح أولًا فأولًا إلى عصره ، فيبين صواب المصيب ، ووهم الواهم ومن أين جاءه الغلط »[٥] ، كما صنّف « إتحاف المهرة بأطراف[٦] العشرة[*] » ـ وهى « الموطأ » للإمام مالك ، و « مسند الشافعى » ، ومسند الإمام أحمد ، وجامع الدارمى ، وصحيح ابن خزيمة ، ومنتقى ابن الجارود ، وصحيح ابن حبان ، ومستخرج أبى عوانة ، وشرح معانى الآثار للطحاوى ، ومستدرك الحاكم[٧] ـ .

---

(١) د. محمد قاسم المنسى « دراسات فى السنة وعلم الحديث » ص ٦٢.

(٢) المقريزى « درر العقود » ح ١ ص ٢٨٨، البقاعى « عنوان الزمان » ح ١ ص ٤٧.

(٣) ابن حجر العسقلانى : أحمد بن على ، تفقه على شيوخ عصره ، برع فى علم الحديث ، حتى لقب بأمير المؤمنين فى الحديث النبوى ، ولى قضاء مصر على المذهب الشافعى ، توفى ٨٥٢هـ ، انظر : ابن تغرى « المنهل الصافى » ح ٢ ص ١٧، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٢ ص ٣٨.

(٤) برهان الدين البقاعى : إبراهيم بن عمر ، تفقه على شيوخ عصره ، من كبار علماء الحنابلة بدمشق ، درس ، وأفتى ، توفى ٨٨٥هـ ، انظر : ابن المبرد « متعة الأذهان » ح ٢ ص ٥١.

(٥) البقاعى « عنوان الزمان » ح ١ ص ١٢٤، ابن فهد « لحظ الألحاظ » ص ٣٣٢.

(٦) فن الأطراف : انظر : ص ٣٣٥.

(*) هذا الكتاب قام بتحقيقه الدكتور زهير بن ناصر الناصر ، ونشره مركز خدمة السنّة والسيرة النبوية بالمدينة المنورة ، عام ١٤١٥هـ/١٩٩٤م فى ستة عشر جزءًا .

(٧) البقاعى « عنوان الزمان » ح ١ ص ١٤٢، السخاوى « الذيل على رفع الأصر » ص ٨٧.

والعالم شمس الدين السخاوى[١] « ت ٩٠٢هـ » ، الذى صنّف « عمدة الأصحاب فى معرفة الألقاب » وهو فى علم الحديث[٢] ، والعالم جلال الدين السيوطى[٣] « ت ٩١١هـ » ، الذى صنّف « لم الأطراف[٤] وضم الأتراف » مرتب على حروف المعجم فى ألفاظ الأحاديث ، وهو مختصر « أطراف المزى « يوسف بن عبد الرحمن ت ٧٤٢هـ »[٥] .

والعالم زكريا الأنصارى[٦] « ت ٩٢٦هـ » ، الذى صنف « تحفة البارى على صحيح البخارى »[٧] ، و « فتح الباقى بشرح ألفية العراقى[*] »[٨] .

ومن علماء دمشق ـ فى القرن التاسع ـ الذين صنّفوا المؤلفات فى هذا العلم ، العالم ابن زكنون[٩] « ت ٨٣٧هـ » ، الذى كتب شرحًا كبيرًا على مسند الإمام أحمد بن حنبل[١٠] ، والعالم ابن ناصر الدين[١١] « ت ٨٤٢هـ » الذى صنّف « افتتاح القارى لصحيح البخارى » ،

---

(١) شمس الدين السخاوى : محمد بن عبد الرحمن ، تفقه على شيوخ عصره ، درس ، وأفتى ، برع فى علم الحديث ، له مصنفات عديدة ، توفى ٨٠٢هـ ، انظر : العيدروس « النور السافر » ص ١٥٠.

(٢) د. عبد الحق حميش « مصطلحات الألقاب عند فقهاء المذاهب الأربعة » ص ٣٠٤، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية ، جامعة الكويت ، العدد (٦٠) ، محرم ١٤٢٦هـ/ مارس ٢٠٠٥م .

(٣) جلال الدين السيوطى : جلال الدين عبد الرحمن تفقه على شيوخ عصره ، درس ، وأفتى ، وصنف مصنفات عديدة ، توفى ٩١١هـ ، انظر : « الكواكب السائرة » ص ٣١٥.

(٤) فن الأطراف : انظر : ص ٣٣٥.

(٥) السيوطى « التحدث بنعمة الله » ص ١٠٧.

(٦) زكريا الأنصارى : زكريا بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، درس ، وتولى قضاء الشافعية بمصر ، توفى ٩٢٦هـ ، انظر : الغزى « الكواكب السائرة » ص ١٩٦.

(٧) هذا الكتاب توجد منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (١٣٧ حديث) .

(*) هى الألفية التى صنّفها العالم زين الدين العراقى « ت ٨٠٦هـ » فى علم الحديث ، ولقد سبق الحديث عنها ، انظر : ص ٣٣٤.

(٨) هذا الكتاب توجد منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (٥١ مصطلح حديث) .

(٩) ابن زكنون : على بن حسين ، تفقه على شيوخ عصره ، برع فى علم الحديث ، ودرّسه ، توفى ٨٣٧هـ ، انظر : المقريزى « درر العقود » ح ٢ ص ٤٨٢.

(١٠) المقريزى « درر العقود » ح ٢ ص ٤٨٢.

(١١) ابن ناصر الدين : محمد بن أبى بكر ، تفقه على شيوخ عصره ، برع فى علم الحديث ، ودرّسه =

و « الأربعون المتباينة الإسناد والمتون » ، و « الإعلام بما وقع فى مشتبه الذهبى من الأوهام » و « توضيح المشتبه فى ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم[*] »[(١)] ، وابن المبرد[(٢)] « ت ٩٠٩هـ » الذى صنف « التخريج الصغير والتحبير الكبير » وهو فى علم الحديث[(٣)] .

ومن علماء حلب ـ فى القرن التاسع ـ الذين صنفوا فى هذا العلم ، العالم سبط ابن العجمى[(٤)] « ت ٨٤١هـ » ، الذى صنّف « غاية السول فى رواة الستة الأصول » ، وشرح « سنن ابن ماجة » ، وتعليق على « صحيح البخارى » فى مجلدين سمّاه « التنقيح لفهم قارئ الصحيح »[(٥)] ، و«التوضيح لمبهمات الجامع الصحيح» ، وتوجد منه نسخة مخطوطة بجامعة الإمام محمد بن سعود[(٦)] ، والعالم موفق الدين أبو ذر[(٧)] « ت ٨٨٤هـ » ، الذى أفرد مبهمات البخارى ، ووضع التوضيح للأوهام الواقعة فى الصحيح ، كما أفرد مبهمات مسلم[(٨)] .

ومن علماء القدس فى القرن التاسع ـ الذين صنّفوا فى هذا العلم ، العالم ابن أرسلان[(٩)]

= بدمشق ، توفى ٨٤٢هـ ، انظر : ابن فهد « لحظ الألحاظ » ص ٣١٧.

(*) هذا الكتاب حققه محمد نعيم العرقسوس ، ونشرته مؤسسة الرسالة ، بيروت ، عام ١٩٩٣م ، انظر د. عبد الحق حميش « مصطلحات الألقاب عند فقهاء المذاهب الأربعة » ص ٣٠٤.

(١) ابن فهد « لحظ الألحاظ » ص ٣١٧، المقريزى « درر العقود » ح ٣ ص ١٢٨، ابن تغرى « المنهل الصافى » ح ٩ ص ٢٣٤، د. عبد الحق حميش « مصطلحات الألقاب » ص ٣٠٤.

(٢) ابن المبرد : يوسف بن الحسن ، تفقه على شيوخ عصره ، صار رأس الحنابلة بدمشق فى عصره ، درس وأفتى ، وكان إمامًا فى الحديث والتفسير ، توفى ٩٠٩هـ ، السخاوى « الضوء اللامع » ح ١٠ ص ٣٠٨.

(٣) ابن المبرد « الجوهر المنضد » ص ٢٤.

(٤) سبط ابن العجمى : إبراهيم بن محمد ، سمع الحديث على شيوخ عصره ، صار شيخ الحديث بحلب ، توفى ٨٤١هـ ، انظر : المقريزى « درر العقود » ح ١ ص ٦٥، السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ١٣٨.

(٥) البقاعى « عنوان الزمان » ح ٢ ص ٩٠، ابن فهد « لحظ الألحاظ » ص ٣٠٨، المقريزى « درر العقود » ح ١ ص ٦٥.

(٦) د. عابد سليمان « أنماط التوثيق فى المخطوط العربى فى القرن التاسع الهجرى» ص ٢١٠ .

(٧) موفق الدين أبو ذر : أحمد بن محمد ، سمع الحديث على شيوخ عصره ، توفى ٨٨٤هـ ، انظر : ابن الحنبلى « در الحبب » ح ١ ص ١٥٣.

(٨) ابن الحنبلى « در الحبب » ح ١ ص ١٥٣.

(٩) ابن أرسلان : انظر : ص ٣٣٢.

« ت ٨٤٤هـ » ، الذى شرح « سنن أبى داود » فى أحد عشر مجلدًا[(١)] .

ويتضح مما سبق عناية علماء مصر والشام ـ فى القرن التاسع ـ بالتأليف العلمى فى علم الحديث بفرعيه الرئيسيين ، سواء كان علم الحديث رواية ، حيث صنف علماء مصر والشام مؤلفات اختصت بنقل الأحاديث ، بهدف تداولها بين الناس ، وكان الهدف منها حفظ الخبر ونقله ، دون الحكم عليه من حيث القبول والرد ، فظهرت كتب المسانيد وهى كتب مرتبة على الصحابة بحيث تذكر روايات الصحابى الواحد كلها فى مكان واحد ثم ينتقل إلى صحابى آخر ، دون تبويب للأحاديث ، ومن ذلك ما صنّفه شهاب الدين البوصيرى « ت ٨٤٠هـ » ، كما ظهرت ـ أيضًا ـ كتب الأطراف ، التى تذكر حديث الصحابى مفردًا ـ كأهل المسانيد ـ إلا أنهم لا يذكرون من الحديث إلا طرفًا يعرف به ، ومن ذلك ما صنفه ابن حجر العسقلانى « ت ٨٥٢هـ » .

كما ظهرت المصنفات فى علم الحديث دراية ، والذى يعنى بفهم أحوال الرواة وطبقاتهم ، وفهم المروى وأنواعه ، وما قد يعتربه من علل خفية ، ومن ثم الحكم بعد ذلك على الحديث من حيث القبول أو الرد ، وذلك ما ظهر فى الشروح والتعليقات لعلماء مصر والشام لمصنفات علماء الحديث المتقدمين ، فظهر « شرح مسند الإمام أحمد بن حنبل » لابن زكنون « ت ٨٣٧هـ » ، و « شرح سنن أبى داود » لابن أرسلان . و « شرح سنن ابن ماجة » لابن العجمى « ت ٨٤١هـ » .

وبالإضافة إلى ما سبق فقد ظهرت مؤلفات أخرى فى علم الحديث عنيت « بعلوم الحديث » من حيث أصول الرواية وآداب المحدث ونحو ذلك ، كما ظهر فى مؤلفات ابن المبرد « ت ٩٠٩هـ » ، وزين الدين العراقى « ت ٨٠٦هـ » ، والسخاوى « ت ٩٠٢هـ » .

---

(١) البقاعى « عنوان الزمان » ح ١ ص ٦٩.

جـ ـ القراءات :

علم القراءات هو علم يعرف به كيفية النطق بالكلمات القرآنية وطرق أدائها اتفاقًا واختلافًا مع عزو كل وجه لناقله ، وحكمه فرض كفاية تعلمًا وتعليمًا ، ويصبح فرض عين إذا خشى ذهابه واندراسه وعدم قيام أحد به ، وفائدته العصمة من الخطأ فى النطق بالكلمات القرآنية وصيانتها عن التحريف والتغيير[(١)] .

فمن علماء مصر فى القرن التاسع الذين صنّفوا فى هذا العلم ، العالم برهان الدين الكركى[(٢)] ، الذى صنّف « النكت على الشاطبية « فى مجلد ، والشاطبية نسبة للعالم أبى القاسم بن نفيرة ـ بمعنى الحديد بلغة عجم الأندلس ـ بن خلف بن أحمد الشاطبى الأندلسى ، ولد عام ٥٣٨هـ بشاطبية ـ وهى قرية من قرى الأندلس ، تلقى القراءات بها ، وحذقها ، ثم رحل إلى القاهرة ، وتصدر بها للإقراء ، ونظم فيها أربع قصائد مشهورة أشهرها « حرز الأمانى ووجه التهانى » ، المعروفة « بالشاطبية » اختصر فيها كتاب « التيسير فى القراءات السبع » للإمام ابن عمرو عثمان بن سعيد الدانى[(٣)] .

كما صنّف برهان الدين الكركى « درة القارئ المجيد فى أحكام القراءة والتجويد » ، و « عمدة المحصل الهمام فى مذاهب السبعة الأعلام » ، والسبعة الأعلام هم القراء السبعة الذين ينسب إليهم القراءات السبع المعروفة[(٤)] ، وهم نافع المدنى ، وابن كثير المكى « ت ١٢٠هـ » ، وأبو عمرو البصرى « ت ١٥٤هـ » ، وابن عامر الشامى ، وعاصم الكوفى « ت

(١) د. سليمان معرفى « فى علوم القرآن » ص ٢٣٧، مجلس النشر العلمى ، جامعة الكويت ، ط ١ (٢٠٠٣م) ، « الموسوعة القرآنية المتخصصة » ص ٣٠٦، إشراف د. محمود حمدى زقزوق ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م .

(٢) برهان الدين الكركى : إبراهيم بن موسى ، تفقه على شيوخ عصره ، استوطن بالقاهرة منذ عام ٨٠٨هـ ، برع فى القراءات ، انظر : البقاعى « عنوان الزمان » ح ٢ ص ١٠٢.

(٣) د. سليمان معرفى « فى علوم القرآن » ص ٢٥٦.

(٤) ابن النديم « محمد بن إسحاق » « الفهرست » ص ٥٧ ـ ٦٢، تحقيق د. ناهد عباس عثمان ، دار قطرى بن الفجاءة ، قطر ، ط ١ (١٩٨٥م) ، د. سليمان معرفى « فى علوم القرآن » ص ٢٤٠.

١٢٧هـ » ، وحمزة الكوفى « ت ١٥٦هـ » ، والكسائى « ت ١٩٩هـ »[١] .

والعالم أبو القاسم النويرى[٢] « ت ٨٥٧هـ » ، الذى له شرح حافل على « طيبة النشر لابن الجزرى « ت ٨٣٣هـ » » ، وطيبة النشر هى منظومة شهيرة فى علم القراءات وتسمى « طيبة النشر فى القراءات العشر »[٣] ، ولقد اشتمل شرح النويرى معزوة إلى طرقها ، وعلى توجيهها بشكل جيد موجز ، ويعد كتاب النويرى من كتب القراءات العشر[*] الكبرى[٤] .

والعالم شهاب الدين القسطلانى[٥] « ت ٩٢٣هـ » ، الذى صنّف « لطائف الإشارات لفنون القراءات » وهو يشتمل على الرواية والدراية للقراء الأربعة عشر ـ وهم القراء العشر السابق ذكرهم ، ويضاف إليهم الحسن البصرى وابن محيصن المكى ، ويحيى اليزيدى البصرى ، والشنبوذى[٦] ـ ، وعلى وسائل علم القراءات كعلم مرسوم الخط ، وفن عدد الآيات ، والوقف والابتداء وغيرها[٧] ، وللقسطلانى ـ أيضًا ـ « اللآلئ السنية فى شرح المقدمة الجزرية » ، ويوجد نسخة من هذا الكتاب مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (٦ قراءات)[٨] .

والعالم زكريا الأنصارى[٩] « ت ٩٢٦هـ » ، الذى صنّف « الدقائق المحكمة فى شرح

---

(١) البقاعى « عنوان الزمان » ح ٢ ص ١٠٢.

(٢) أبو القاسم النويرى : محمد بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، عُرض عليه القضاء أكثر من مرة فامتنع ، توفى ٨٥٧هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٩ ص ٢٤٧.

(٣) « الموسوعة القرآنية المتخصصة » ص ٣٥١.

(*) **القراءات العشر** : هى قراءات القراء السبع – السابق ذكرهم – ويضاف إليهم أبو جعفر المدنى ، ويعقوب البصرى ، وخلف البغدادى ، والقراءات العشر كلها متواترة سواء كانت من قبيل اللفظ أو من قبيل الأداء كالإمالة والمد ونحو ذلك ، انظر : د. سليمان معرفة « فى علوم القرآن » ص ٢٤٣، ٢٥٣.

(٤) « الموسوعة القرآنية المتخصصة » ص ٣٥٢.

(٥) شهاب الدين القسطلانى : أحمد بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، برع فى علم القراءات ، توفى ٩٢٣هـ ، انظر : ابن العماد «شذرات الذهب» ح ٨ ص ١٢١.

(٦) د. سليمان معرفى « فى علوم القرآن » ص ٢٤٣.

(٧) « الموسوعة القرآنية المتخصصة » ص ٣٥٢.

(٨) ابن العماد « شذرات الذهب » ح ٨ ص ١٢١ .

(٩) زكريا الأنصارى : انظر : ص ٣٣٧.

المقدمة الجزرية » ، ويوجد نسخة من هذا الكتاب بدار الكتب المصرية برقم (٨٦ قراءات) .

ومن علماء دمشق ـ فى القرن التاسع ـ الذين صنّفوا فى هذا العلم ، ابن الجزرى[(١)] « ت ٨٣٣هـ » ، الذى صنّف « متن الدرة » وهى منظومة شهيرة سماها « الدرة المضيئة » ، وهى فى القراءات الثلاث المكملة للعشر الصغرى ، كما صنّف « طيبة النشر فى القراءات العشر »[(٢)] ، والعالم برهان الدين البقاعى[(٣)] « ت ٨٨٥هـ » الذى أفرد قراءة أبى عمرو[(٤)] بتصنيف لم يُسبق إليه مثله فى الاشتغال والترتيب[(٥)] .

ومن علماء القدس ـ فى القرن التاسع ـ الذين صنفوا فى هذا العلم ، العالم برهان الدين بن أبى شريف المقدسى[(٦)] ، الذى نظم قراءة أبى عمرو ابن العلاء فى نحو خمسمائة بيت[(٧)] .

ويتضح مما سبق عناية علماء مصر والشام بعلم القراءات عناية تدرجهم ضمن أئمة هذا الفن وعلمائه أمثال ابن الجزرى « ت ٨٣٣هـ » صاحب « طيبة النشر فى القراءات العشر » ذائعة الصيت فى هذا الفن ، وأبو القاسم النويرى « ت ٨٥٧هـ » ، والذى يعد مصنفه وهو « شرح لطيبة النشر » لابن الجزرى « ت ٨٣٣هـ » من كتب القراءات العشر الكبرى .

كما صنّف علماء مصر والشام شروحًا للمصادر الأصلية فى هذا العلم ، أو نظمًا لها ليسهل حفظها ، أو اختصارًا لها ، كما فعل برهان الدين الكركى ، وابن الجزرى « ت ٨٣٣هـ » ، وبرهان الدين المقدسى .

---

(١) ابن الجزرى : محمد بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، درس بدمشق ، وعين لقضاء الشافعية بها ، ولكن لم يتم له ذلك ، توفى ٨٣٣هـ ، انظر : مجير الدين الحنبلى « الأنس الجليل » ح ٢ ص ١٠٩.

(٢) « الموسوعة القرآنية المتخصصة » ص ٣٥١.

(٣) برهان الدين البقاعى : انظر : ص ٣٣٦.

(٤) أبو عمرو : هو زبان بن العلاء بن عمار بن عبد الله المازنى البصرى ، أحد القراء السبع ، انظر : ابن النديم « الفهرست » ص ٥٧.

(٥) البقاعى « عنوان الزمان » ح ٢ ص ٦١.

(٦) برهان الدين بن أبى شريف : إبراهيم بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، برع فى علم القراءات ، انظر : البقاعى « عنوان الزمان » ح ٢ ص ٨٨.

(٧) البقاعى « عنوان الزمان » ح ٢ ص ٨٨، السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ١٣٥ .

د ـ التفسير :

علم التفسير علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه، واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو، وعلم البيان، وأصول الفقه، والقراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ[(1)].

ولقد صنّف علماء مصر والشام ـ فى القرن التاسع ـ فى هذا العلم مُؤلفات عليمة رصينة مُحكمة.

فمن علماء مصر، الذين صنّفوا فى هذا العلم، العالم جلال الدين البلقينى[(2)] «ت ٨٢٤هـ»، الذى ذكر المؤرخون أن له عدة مصنفات فى التفسير، ذكروا منها مصنفه «مواقع العلوم من مواقع النجوم»[(3)].

والعالم علم الدين البلقينى[(4)] «ت ٨٦٨هـ»، الذى صنّف «تفسير القرآن العظيم» فى ثلاثة عشر مجلدًا[(5)]، والعالم ابن إمام[(6)] الكاملية «ت ٨٦٤هـ» الذى اختصر «تفسير

---

(١) ابن الأكفانى «إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد» ص ١٥٧، د. محمد بلتاجى «مدخل إلى علم التفسير» ص ١٨، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٩٨م.

(٢) جلال الدين البلقينى : عبد الرحمن بن عمر، تفقه على شيوخ عصره، تولى قضاء الشافعية بمصر، درس، وأفتى، توفى ٨٢٤هـ، انظر : السخاوى «الضوء اللامع» ح ٤ ص ١٠٦، ابن فهد المكى «أبى الفضل تقى الدين محمد بن محمد ت ٨٧١هـ» «لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ» ص ٢٨٢، مطبعة التوفيق، دمشق، ١٣٤٧هـ

(٣) ابن فهد «لحظ الألحاظ» ص ٢٨٢، السخاوى «الضوء اللامع» ح ٤ ص ١١٣، د. سليمان معرفى «فى علوم القرآن» ص ١٨.

(٤) علم الدين البلقينى : صالح بن عمر، تفقه على شيوخ عصره، ولى قضاء الشافعية بمصر، درس وأفتى، توفى ٨٦٨هـ، انظر : السخاوى «الضوء اللامع» ح ٣ ص ٣١٢.

(٥) السخاوى «الذيل على رفع الأصر» ص ١٥٥.

(٦) ابن إمام الكاملية : محمد بن محمد، تفقه على شيوخ عصره، درس، توفى ٨٦٤هـ، انظر : السخاوى «الضوء اللامع» ح ٩ ص ٩٣.

البيضاوى[*] »[1] ، والعالم عز الدين أبو البركات[2] « ت ٨٧٦هـ » الذى صنّف فى التفسير « مختصر زاد المسافر »[3] ، والعالم ابن تيم السكندرى « ت ٨٤٢هـ » الذى صنّف فى علم التفسير « تفسير الفاتحة » ، و « تفسير سورة النبأ إلى آخر القرآن » سماه أصحابه « سراج الإغراب فى التفسير ومعانى الإعراب »[4] ، والعالم جلال الدين السيوطى[5] « ت ٩١١هـ » الذى ألف « الدر المنثور فى التفسير بالمأثور » فى اثنى عشر مجلدًا ـ وهو مطبوع ـ ، و « تناسق الدرر فى تناسب الآيات والسور » و « أسرار التنزيل »[6] ، والعالم زكريا الأنصارى[7] « ت ٩٢٦هـ » الذى صنّف « فتح الجليل ببيان خفى أنوار التنزيل » ، وهذا الكتاب توجد منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (١٧٨) تفسير[8] .

ومن علماء دمشق ـ فى القرن التاسع ـ الذين صنّفوا فى هذا العلم ، العالم شهاب الدين الحسبانى[9] « ت ٨١٥هـ » ، الذى صنّف « جامع التفاسير » الذى قال المؤرخون أنه أجاد فيه وجمع فيه فأوعى[10] ، والعالم برهان الدين البقاعى[11] « ت ٨٨٥هـ » الذى صنّف « نظم الدرر فى تناسب الآى والسور » ، ولقد طبعت[12] بعض أجزاء هذا الكتاب فى حيدرآباد الدكن ،

(*) «تفسير البيضاوى» هو كتاب «أنوار التنزيل وأسرار التأويل فى التفسير» لناصر الدين البيضاوى «ت ٦٨٥هـ» وقيل ٦٩٢هـ ، وكتابه هذا عظيم الشأن فى هذا الميدان ، انظر : حاجى خليفة «كشف الظنون» ح١ ص ١٨٦ .

(١) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٩ ص ٩٣.

(٢) عز الدين أبو البركات : أحمد بن إبراهيم ، تفقه على شيوخ عصره ، درس ، ولى قضاء الحنابلة فى مصر ، توفى ٨٧٦هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ٢٠٥.

(٣) السخاوى « الذيل على رفع الأصر » ص ٢٨.

(٤) أحمد محمود « الدور السياسى والحضارى للصوفية » ص ٥١٧.

(٥) جلال الدين السيوطى : انظر : ص ٣٣٧.

(٦) السيوطى « التحدث بنعمة الله » ص ١٠٥، العيدروسى « النور السافر » ص ٩١.

(٧) زكريا الأنصارى : انظر : ص ٣٣٧.

(٨) العيدروسى « النور السافر » ص ١٧٦، الغزى « الكواكب السائرة » ص ١٩٩.

(٩) شهاب الدين الحسبانى : أحمد بن إسماعيل ، تفقه على شيوخ عصره ، درس الحديث بدمشق ، توفى ٨١٥هـ ، انظر : ابن فهد « لحظ الألحاظ » ص ٢٤٤.

(١٠) المقريزى « درر العقود » ح ١ ص ٣٦٦، ابن فهد « لحظ الألحاظ » ص ٢٤٤، السخاوى «الضوء اللامع» ح١ ص ٢٣٩.

(١١) برهان الدين البقاعى : انظر : ص ٣٣٦.

(١٢) البقاعى « إظهار العصر » ص ٣٧، البقاعى « الأقوال القديمة فى حكم النقل من الكتب القديمة » ص ٣٩.

وقامت الدار العربية بلبنان بطبع هذا الكتاب ، كما أنه هدف الباحثين بجامعة الأزهر ، فقد أخذت أجزاؤه السبعة ليعد فى كل منها بحث لنيل درجة الدكتوراة بكلية أصول الدين[١] .

ومن علماء القدس ـ فى القرن التاسع ـ الذين صنفوا فى هذا العلم ، العالم مجير الدين العليمى « ت ٩٢٨هـ » الذى صنّف « فتح الرحمن فى تفسير القرآن »[٢] ، والعالم ابن أرسلان[٣] «ت٨٤٤هـ» الذى صنف قطع متفرقة من التفسير[٤] .

ويتضح مما سبق ، أنّه قد تنوعت مؤلفات العلماء فى علم التفسير ، فمنهم من اتجه إلى تفسير القرآن كله كالسيوطى « ت ٩١١هـ » وعلم الدين البلقينى « ت ٨٦٨هـ » ، ومنهم من اكتفى بتفسير سورة أو أكثر من سور القرآن كابن تيم « ت ٨٤٢هـ » ، ومنهم من قصد إلى دراسة ناحية معينة فى القرآن كالتناسب فى الترتيب بين الآى وسور القرآن مثلما فعل برهان الدين البقاعى « ت ٨٨٥هـ » فى كتابه « نظم الدرر فى تناسب الآى والسور » ، ومنهم من قام بوضع اختصار لكتب التفسير السابقة كابن إمام الكاملية « ت ٨٦٤هـ » الذى اختصر « تفسير البيضاوى » .

هـ ـ التصوف :

التصوف ـ كما يذكر ابن خلدون « ت ٨٠٨هـ » ـ علم من العلوم الشرعية الحادثة فى الملة ، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية ، وأصلها العكوف على العبادة ، والانقطاع إلى الله والإعراض عن زخرف الدنيا ، وكان ذلك عامًا بين الصحابة والسلف ، فلما فشا الإقبال على الدنيا ، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية ، والمتصوفة[٥] ، وهذا العلم مضبوط بالكتاب والسنّة[٦] .

---

(١) البقاعى « إظهار العصر » ص ٣٧.
(٢) محمد عبد الله « الحياة الاجتماعية بالقدس » ص ٥٧.
(٣) ابن أرسلان : انظر : ص ٣٣٢ .
(٤) السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ٢٨٤ .
(٥) ابن خلدون « المقدمة » ص ٣٢٨ ، د. أمين يوسف « فى أصل مصطلح التصوف » ص ١٢٨، مجلة البحوث والدراسات الصوفية ، عدد (١) جمادى الأخرى ١٤٢٤هـ ، أغسطس ٢٠٠٣م .
(٦) الواسطى « محمد بن عمر « ت ٨٤٩هـ » » « قواعد الصوفية » ص ٥، مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (٢٦٢ تصوف) ، ومكروفيلم (٣٢٥٩٠) .

ولقد صنّف علماء مصر والشام ـ فى القرن التاسع ـ فى هذا العلم مؤلفات علمية رصينة محكمة .

ومن علماء مصر الذين صنّفوا المُؤلفات العلمية فى هذا العلم ، العالم شمس الدين الغمرى[1] « ت ٨٤٩هـ » ، الذى صنّف « قواعد الصوفية » ، وهذا الكتاب يوجد منه نسخة بدار الكتب المصرية[*] برقم (٢٦٢ تصوف)[2] .

والعالم شمس الدين السخاوى[3] « ت ٩٠٢هـ » الذى صنّف « القول المُنبى فى ترجمة ابن عربى » ، وهذا الكتاب مخطوط ببرلين[4] برقم (Spr ٢٨٤٩)[5] .

والعالم جلال الدين السيوطى[6] « ت ٩١١هـ » الذى صنّف « تذكرة النفس » فى التصوف ، و « تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية » ـ وهو مطبوع[7] ـ ، والعالم زكريا الأنصارى[8] « ت ٩٢٦هـ » الذى صنّف « قواعد الصوفية » ، وشرح « الرسالة القشيرية[*] »[9] .

ومن علماء دمشق ـ فى القرن التاسع ـ الذين صنفوا فى هذا العلم ، العالم تقى الدين

---

(١) شمس الدين الغمرى : محمد بن عمر ، تفقه على شيوخ عصره ، كان من العلماء الزهاد ، توفى ٨٤٩هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٨ ص ٢٣٨.

(*) كما توجد نسخة أخرى بدار الكتب المصرية برقم (١٣٨ تصوف تيمور) ، ومكروفيلم (٤١٠٨) ، انظر : Denis Gril "Sources Manuscrites De L'Histoire Du Soufisme A Dar Al-Kutub UN Premier Bila" p. 163.

(٢) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٨ ص ٢٣٩، إسماعيل البغدادى « إيضاح المكنون » ح ٣ ص ٢٤٢.

(٣) شمس الدين السخاوى : انظر : ص ٣٣٧.

(٤) د. أحمد الطيب « دراسات الفرنسيين عن ابن عربى » ص ٣٧١، بحث ضمن أعمال المؤتمر الدولى الأول للفلسفة الإسلامية ، كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة ، ١٩٩٦م .

(٥) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٨ ص ١٧.

(٦) جلال الدين السيوطى : انظر : ص ٣٣٧.

(٧) السيوطى « التحدث بنعمة الله » ص ١١٣، ١٢٠.

(٨) زكريا الأنصارى : انظر : ص ٣٣٧.

(*) الرسالة القشيرية : ألفها عبد الكريم القشيرى «ت٤٦٥هـ» ، وهى أربعة وخمسين بابًا وثلاثة فصول ، وهى عمدة فى هذا الفن ، انظر : حاجى خليفة «كشف الظنون» ح ١ ص ٨٨٢.

(٩) الغزى « الكواكب السائرة » ص ١٩٨، ٢٠٢، تحقيق جبرائيل سليمان ، بيروت ، « د.ت » .

الحصنى[1] « ت ٨٢٩هـ » ، الذى صنّف « سير السالك فى أسنى المسالك »[2] ، و « المؤمنات الصالحات والإيقاظ من المهلكات »[3] ، والعالم ابن المبرد[4] « ت ٩٠٩هـ » الذى صنّف « صدق التشوف إلى علم التصوف » ، و « يد العلقة بلبس الخرقة[*] »[5] .

ومن علماء حلب ، الذين صنفوا فى هذا العلم ، ابن الشماع[6] الذى صنّف « منشأ الأغاليط فى اصطلاح الصوفية »[7] .

ومن علماء طرابلس الشام ، الذين صنفوا فى هذا العلم ، تاج الدين عبد الوهاب[8] « ت ٨٩٥هـ » ، الذى صنّف « مختصر الرعاية فى التصوف »[9] .

ويتضح مما سبق عناية علماء مصر والشام بحركة التأليف العلمى فى علم التصوف ، ولعل ذلك بسبب ازدهار الحركة الصوفية وكثرة من انتحل طريقها ودان بأفكارها فى العصر المملوكى[10] ، ولقد تنوعت تلك المؤلفات من حيث الموضوعات التى طرقتها تنوعًا

---

(١) تقى الدين الحصنى : انظر : ص ٣٣٠.

(٢) هذا الكتاب يوجد منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية ، برقم (٨٥٩ تصوف) ومكروفيلم (٣٤٩٠٤) ، كما توجد نسخة أخرى برقم (١٤٧٩ تاريخ تيمور) ، انظر :
Denis Gril "Sources Manuscrites" p. 161.

(٣) يوجد من هذا الكتاب نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية ، برقم (٤٢٤١ تصوف) ومكروفيلم (٣٣٣٥٥) .

(٤) ابن المبرد : انظر : ص ٣٣٨.

(*) **الخِرْقَة** : القطعة أو المزقة من الثوب اكتسبت لدى الصوفية دلالة ترمز إلى ثقة الشيخ بمن يلبس الخرقة ـ أى المريد ـ بالتزام أصول الطريقة الصوفية التى يعتنقها ، وذلك بعد اجتيازه ثلاث سنوات من الرياضة والمجاهدة وتهذيب النفس ، انظر : د. إحسان ذنون الثامرى «رسائل من التراث الصوفى فى لبس الخرقة» ، دار الرازى ، الأردن ، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م .

(٥) ابن طولون « الفلك المشحون » ص ١٧.

(٦) ابن الشماع : محمد بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، وكان من كبار علماء حلب ، برع فى علم الكلام والتصوف ، انظر : ابن الطباخ « إعلام النبلاء » ح ٥ ص ٢٦١.

(٧) ابن الطباخ « إعلام النبلاء » ح ٥ ص ٢٦١.

(٨) تاج الدين عبد الوهاب : عبد الوهاب بن محمد ، تفقه بشيوخ عصره ، درس وأفتى ، وخطب بطرابلس ، توفى ٨٩٥هـ ، انظر : ابن الملا الحلبى « متعة الأذهان » ح ١ ص ٤٨٧.

(٩) ابن طولون « ذخائر القصر » ص ٢٥٦.

(١٠) أحمد محمود « الدور السياسى والحضارى للصوفية فى مصر » ص ٥٥٢.

واضحًا ، فمنها ما عنى بالحديث عن الطريق الصوفى وبيان أركانه وقواعده وشروط الانتساب إليه ونحو ذلك ، ومنها ما كان ترجمة لفريق من الصوفية البارزين ، ومنها ما كان شرحًا لكتب وضعها بعض متقدمى الصوفية وشغلت مكانة متميزة فى علم التصوف مثل كتاب « الرسالة القشيرية » للإمام القشيرى .

و ـ المنطق :

علم المنطق ، هو العلم الذى يشتمل على القوانين ، التى من شأنها أن تقوّم العقل وتسدد الإنسان نحو الصواب فى كل ما يمكن أن يخطأ فيه من المعقولات ، فهو يعصم الذهن عن الخطأ فى الفكر ، كما يعصم علم النحو اللسان من الخطأ[(١)] .

ولقد صنّف علماء مصر والشام ـ فى القرن التاسع ـ فى علم المنطق[(٢)] مُؤلفات علمية رصينة مُحكمة .

فمن علماء مصر الذين صنّفوا فى هذا العلم ، العالم قاسم بن قطلوبغا[(٣)] « ت ٨٧٩هـ » الذى صنّف « شرح ميزان النظر فى المنطق » لابن سينا[(٤)] .

---

(١) الفاربى « إحصاء العلوم » ص ٥٣، ٥٤، تحقيق د. عثمان أمين ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ط ٢ (١٩٤٩م) ، د. عبد اللطيف محمد « التفكير المنطقى » ص ١٠، دار الثقافة العربية ، ط ٣ (١٩٩٧م) .

(٢) دار جدل بين علماء العصر المملوكى حول حكم تدريس المنطق ، فمنهم من أفتى بأنه علم نافع ، وأنه علم عقلى محض كالحساب كزكريا الأنصارى « ت ٩٢٦هـ » ، ومنهم من أفتى بتحريمه كالسيوطى « ت ٩١١هـ » ، انظر : زكريا الأنصارى « فتاوى زكريا الأنصارى » ص ٣١٢، السيوطى « صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام » ص ١٤، ٣٢، نشره على سامى النشار ، مكتبة الخانجى ، مصر ، ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م ، السيوطى « جهد القريحة فى تجريد النصيحة » ص ٢٠١، مكتبة الخانجى ، القاهرة ، ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م .

(٣) ابن قطلوبغا : قاسم بن قطلوبغا ، تفقه على شيوخ عصره ، درس ، وأفتى ، توفى ٨٧٩هـ ، انظر : ابن تغرى بردى « المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى » ح ٩ ص ١٠، تحقيق د. محمد محمد أمين ، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م .

(٤) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٦ ص ١٩٠، ابن تغرى « المنهل الصافى » ح ٩ ص ١٠، حاجى خليفة « كشف الظنون » ح ٢ ص ١٩١٩.

والعالم عز الدين أبو البركات[(١)] « ت ٨٧٦هـ » ، الذى كتب على « الجمل للخُوْنَجى » ، وكتاب الجمل هو كتاب « الجمل[(٢)] فى مختصر نهاية الأمل » فى قواعد المنطق وأحكامه ، للقاضى أفضل الدين محمد بن نامور الخُوْنَجى المتوفى « ٦٢٤هـ » أو « ت ٦٤٩هـ » ، كما نظم أبو البركات فى المنطق « إيساغوجى » نحو ستين بيتًا ، وإيساغوجى[(٣)] لفظ يونانى معناه الكليات الخمس ـ أى الجنس والنوع والفصل والخاصة والعرض العام ـ وهو باب من الأبواب التسعة للمنطق ، وصنّف فيه جماعة من المتقدمين والمتأخرين ، والمشهور المتداول هو المختصر المنسوب إلى أثير الدين مفضل بن عمر الأبهرى المتوفى فى حدود سنة سبعمائة ، وهو مشتمل على ما يجب استحضاره من المنطق ، وقد سُمِّى إيساغوجى مجازًا من باب إطلاق اسم الجزء وإرادة الكل[(٤)] .

والعالم زكريا الأنصارى[(٥)] « ت ٩٢٦هـ » الذى شرح « إيساغوجى » ، والذى يُعرف بـ « المطلع على إيساغوجى » ، وهذا الكتاب توجد منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (١/٤٥٧) مجاميع ، كما أنه طبع[(٦)] عام ١٢٨٢هـ « بولاق » فى مجموعة رقم ٩٣[(٧)] .

ومن علماء الشام ، برهان الدين المقدسى[(٨)] الذى صنف «الجمل» فى المنطق[(٩)] .

---

(١) عز الدين أبو البركات : انظر : ص ٣٤٤.

(٢) طاش كبرى زاده « أحمد بن مصطفى « ت ٩٦٨هـ » » « مفتاح السعادة ومصباح السيادة فى موضوعات العلوم » ح ١ ص ٢٩٨، تحقيق كامل كامل بكرى ، عبد الوهاب أبو النور ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، ١٩٦٨م ، حاجى خليفة « كشف الظنون » ح ١ ص ٦٠٢.

(٣) حاجى خليفة « كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون » ح ١ ص ٦٠٢، دار إحياء التراث العربى ، بيروت .

(٤) السخاوى « الذيل على رفع الأصر » ص ٢٩.

(٥) زكريا الأنصارى : انظر : ص ٣٣٧.

(٦) يوسف سركيس « معجم المطبوعات » ح ١ ص ٤٨٥.

(٧) الغزى « الكواكب السائرة » ص ٢٠٢.

(٨) برهان الدين المقدسى : ص ٣٤٢ .

(٩) السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ١٣٥ .

والعالم الشهاب الإبشيطى[١]، الذى صنّف «شرح الجمل[٢] للخُوْنَجى»، و «إيساغوجى»[٣].

والعالم الجلال[٤] المحلى «ت ٨٦٤هـ» الذى له «شرح الشمسية»، والشمسية متن مختصر فى المنطق[٥] لنجم الدين عمر بن على القزوينى المعروف بالكاتبى «ت ٦٧٥هـ»، واسم هذه الرسالة «الرسالة الشمسية فى القواعد المنطقية»[١٠].

ومن علماء دمشق ـ فى القرن التاسع ـ الذين صنّفوا فى هذا العلم، العالم برهان الدين البقاعى[٦] «ت ٨٨٥هـ» الذى صنّف «تهذيب الجمل للخونجى»، و «التتميم[*] على إيساغوجى[٧]»[٨]، والعالم رضى الدين ابن الغزى[٩] «ت ٩٣٥هـ»، الذى له منظومة فى

---

(١) الشهاب الأبشيطى: أحمد بن إسماعيل، تفقه على شيوخ عصره، درس، برع فى الفقه وأصوله، والمنطق، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ١ ص ٢٣٥.

(٢) الجمل: انظر: ص ٣٤٩.

(٣) السخاوى «الضوء اللامع» ح ١ ص ٢٣٥، ٢٣٦.

(٤) الجلال المحلى: محمد بن أحمد، تفقه على شيوخ عصره، برع فى الفقه والمنطق، توفى ٨٦٤هـ، انظر: السخاوى «الذيل على رفع الأصر» ص ٢٣٤.

(٥) عمر رضا كحالة «معجم المؤلفين» ح ٧ ص ١٥٩.

(١٠) السخاوى «الذيل على رفع الأصر» ص ٢٣٤.

(٦) برهان الدين البقاعى: انظر: ص ٣٣٦.

(٧) إيساغوجى: انظر: ص ٣٤٩.

(*) توجد نسخة من هذا المُؤلف بمكتبة الأسد بدمشق برقم (١٤١١٤)، انظر: خير الله الشريف «الإمام البقاعى ومؤلفاته» ص ٨١، مجلة آفاق الثقافة والتراث، السنة (٣)، العدد (٩) محرم ١٤١٦هـ/ يونيو ١٩٩٥م، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبى.

(٨) البقاعى «إظهار العصر ٨٥٥هـ ـ ذى الحجة ٨٥٧هـ» ص ٣٤، ٣٥، تحقيق د. محمد سالم، دار هجر للطباعة، القاهرة، ١٩٩٢م، حاجى خليفة «كشف الظنون» ح ١ ص ٦٠٢، خير الله الشريف «الإمام البقاعى ومؤلفاته» ص ٨١، ٨٥.

(٩) رضى الدين ابن الغزى: رضى الدين أبو الفضل بن أبى البركات، تفقه على شيوخ عصره، ناب فى قضاء دمشق، درس وأفتى، توفى ٩٣٥هـ، انظر: ابن طولون «ذخائر القصر» ص ٤٩٢، ٤٩٣.

المنطق بعنوان « حسن المنطق فى علمى الجدل والمنطق »[1] .

ويتضح مما سبق أن عناية علماء مصر والشام بالتأليف العلمى فى علم المنطق كانت عناية قليلة ، ولعل ذلك كان راجعًا إلى ذلك الجدل بين علماء العصر المملوكى حول حكم تدريس المنطق ، فمنهم من أفتى بأنه علم نافع ، وأنه علم عقلى محض كالحساب كزكريا الأنصارى « ت ٩٢٦هـ » ، ومنهم من أفتى بتحريمه كالسيوطى « ت ٩١١هـ » .

ولقد اقتصرت غالب مصنفات علماء مصر والشام على شروح لكتب المتقدمين فى ذلك العلم ككتاب « شرح ميزان المنظر فى المنطق » لابن سينا ، كما فعل قاسم بن قطلوبغا ، وكتاب « الجمل » للخُوْنَجى ، كما فعل عز الدين أبو البركات ، وكتاب « الشمسية » للكابتى ، كما فعل الجلال المحلى « ت ٨٦٤هـ » ، ومنهم من صنّف فى علم المنطق « إيساغوجى » مثلما فعل عز الدين أبو البركات « ت ٨٧٦هـ » ، ورضى الدين ابن الغزى « ت ٩٣٥هـ » الذى له منظومة فى المنطق » .

(١) ابن طولون « ذخائر القصر » ص ٤٩٢، ٤٩٣.

٢ ـ العلماء والتدريس بالمؤسسات العلمية

تنوعت المؤسسات العلمية فى العصر المملوكى، حيث لم تقتصر على المدارس[(١)] فقط، بل شملت الجوامع كجامع ابن طولون[(٢)] بمصر، والجامع الأموى[(٣)] بدمشق، والجامع

---

(١) **المدرسة :** كان العرب والمسلمون يطلقون على مكان دراسة العلوم « دار العلم »، وكانت مدينة نيسابور أول مدينة إسلامية أطلقت كلمة مدرسة على « دار العلم »، وكان ذلك بعد الأربعمائة من سنى الهجرة، على أساس أن المدرسة التى شيدها أبو بكر بن فورك « ت ٤٠٦هـ » هى اقدم هذه المدارس، يليها المدرسة البيهقية التى شيدها أبو بكر البيهقى « ت ٤٥٨هـ » عام ٤٥٠هـ، والمدرسة السعيدية التى شيدها الأمير نصر بن سبكتكين أمير نيسابور، ومع ذلك فقد أجمعت الدراسات التاريخية على أن الازدهار الحقيقى لإنشاء المدارس لم يتم إلا على يد الوزير السلجوقى نظام الملك الطوسى « ت ٤٨٥هـ » الذى أنشأ مدارس عديدة فى كل من بغداد، والبصرة، والموصل، ونيسابور، وعرفت جميعًا بالنظامية، وأصبحت المدرسة النظامية نموذجًا يحتذى، وأثر على جميع المدارس التى جاءت بعدها فى الشكل والوظيفة، انظر : ابن علوان الحموى « ت ٩٣٦هـ » « الأمر الدارس فى الأحكام المتعلقة بالمدارس » ص ٥٢، تحقيق د. عماد الدين غانم، نشرته مجلة الوثائق والمخطوطات، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالى، السنة الثالثة، العدد (٣) عام ١٩٨٨م، د. أحمد عبد الرازق « الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى « العلوم العقلية » » ص ٣٣، ٣٤، دار الفكر العربى، ط ٢ (١٤١٧هـ/١٩٩٧م)، د. أحمد رمضان « الإيجازات والتوقيعات » ص ٥، د. أحمد رمضان « المدارس والمذهب الشافعى » ص ٢، د. حسن شميسانى « مدارس دمشق فى العصر الأيوبى » ص ١٣.

(٢) **جامع ابن طولون :** يقع شرقى حىّ السيدة زينب جنوبى القاهرة، فى موقع بمدينة القطائع التى أنشأها أحمد بن طولون، وشرح أحمد بن طولون فى بناءه ٢٦٣هـ، وأتم بناءه ٢٦٥هـ، وكان هذا الجامع فى العصر المملوكى شهيرًا بدروس التفسير، والحديث، والفقه، ونحو ذلك، انظر : د. كرم حلمى « المسجد ودوره الحضارى فى ضوء مكانة جامع ابن طولون » ص ١٤٢، ١٤٨، بحث نشر ضمن أعمال « ندوة اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة، عام ٢٠٠٢م، وتم نشره فى كتاب بعنوان « الحضارة العربية الإسلامية فى العصور الوسطى »، دار عين للنشر، القاهرة، ٢٠٠٢م.

(٣) **الجامع الأموى بدمشق :** هو الجامع الذى أنشأه الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك عام ٨٩هـ، وكان قد أنفق فى عمارته أموالًا طائلة، وكان هذا الجامع فى العصر المملوكى يُدرس فيه فنون العلم من تفسير وحديث ونحو ذلك، انظر : ابن بطوطة « رحلة ابن بطوطة » ص ٩٤، د. محمد أحمد دهمان « مدارس دمشق وحماماتها » ص ٣٢٠، مقال بمجلة المجمع العلمى العربى، دمشق، عدد رمضان، ١٣٦٦هـ.

الأموى[1] بحلب، كما شملت كذلك الخانقاوات[2]، كخانقاة ابن مزهر[3] «ت ٨٩٣هـ»، والخانقاة الدودارية[4] بالقدس[5].

---

(١) **الجامع الأموى بحلب**: ويسمى - أيضًا - الجامع الكبير، ولقد تم بناءه عندما فتح الصحابى أبو عبيدة مدينة حلب، حيث صالح أهلها على موضع الجامع فاختطه الصحابة، وكان بستانًا للكنيسة العظمى التى تنسب إلى هيلانة أم قسطنطين، ثم قام الخليفة سليمان بن عبد الملك «ت ٩٩هـ» بتوسيع المسجد، وكانت عمارته وفق تخطيط الجامع الأموى بدمشق، وعمارة هذا الجامع حاليًا ترجع للعهد المملوكى باستثناء منارته التى يرجع تاريخها إلى سنة ٤٨٢هـ/١٠٨٩م، وكان هذا الجامع يقوم بتدريس الفقه على المذاهب الأربعة فى العصر المملوكى، انظر: ابن العجمى «كنوز الذهب» ح ١ ص ٢٠٦، ٢٣٠، ٢٣٣، حامد زيان «حلب فى العصر الزنكى ٤٨٨هـ - ٥٧٩هـ/١٠٩٥ - ١١٨٣م» ص ١٧٠، ماجستير، آداب القاهرة، ١٩٧٠م، د. عبد الرحمن سليمان «الحياة العلمية فى القرنين السابع والثامن الهجريين» ص ٩٧، المدينة المنورة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، د. فاطمة محجوب «الموسوعة الذهبية» ح ١١ ص ٤٨١، د. أحمد رمضان «العمائر الدينية فى بلاد الشام فى العصر الأيوبى والمملوكى» ص ١٣٢، مقال بمجلة كلية الآثار «عدد خاص» عام ١٩٧٨م.

(٢) **الخانقاوات**: يذكر ابن بطوطة أن أصل الخانقاة هو الزاوية وجمعها خوانق، أما المقريزى «ت ٨٤٥هـ» فيقول إنها كلمة فارسية مفردها خانكاة وجمعها خوانك، ومعناها بيت أو دار الصوفية، ثم كثر استعمالها على الألسنة، فقيل خانقاة - بالقاف - بدلًا من الكاف، والخوانك حدثت فى الإسلام فى حدود الأربع مائة من سنى الهجرة، وجُعلت لتتخلى الصوفية فيها لعبادة الله من الرجال والنساء على السواء، انظر: المقريزى «المواعظ والاعتبار» ح ٤ ص ٧٢٤، د. عاصم محمد «خانقاوات الصوفية فى مصر فى العصر الأيوبى والمملوكى» ص ٢١، مكتبة مدبولى، ط ١ (١٩٩٧م)، د. نعمان الطيب «الخوانق» ص ٤١٤، مقال بمجلة كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، العدد (٧) عام ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

(٣) ابن مزهر: هو أبو بكر بن محمد، تفقه على شيوخ عصره، تولى كتابة السر بمصر، ونظر الجيش بها، وله منشآت عمرانية كثيرة بمصر والشام، منها المدرسة الخانقاة التى أنشأها بجوار بيته، توفى ٨٩٣هـ، انظر: ابن شاهين «المعجم المفنن» ص ٥٢، ٥٣، السخاوى «الضوء اللامع» ح ١١ ص ٨٨، السيوطى «نظم العقيان» ص ٩٧، السخاوى «وجيز الكلام» ح ٣ ص ١٠٤٢.

(٤) **الخانقاة الدويدارية**: أنشأ تلك الخانقاة الأمير علم الدين أبو موسى سنجر بن عبد الله الدويدار الصالحى النجمى عام ٦٩٥هـ، وكانت تلك الخانقاة يُدرس بها الفقه الشافعى، وكانت تلك الخانقاة عامرة فى القرن التاسع الهجرى، انظر: مجير الدين «الأنس الجليل» ح ٢ ص ٣٩، د. على منصور «الحياة العلمية فى القدس» ص ٣٥.

(٥) د. عاصم محمد «خانقاوات الصوفية فى مصر فى العصر الأيوبى والمملوكى» ص ٦٩، عبد الغنى =

ولقد كانت للمؤسسات العلمية ـ من مدارس ومساجد وخانقاوات ـ نظمها وطرقها التعليمية وهيئة التدريس بها الذى هيأ الجو العلمى الذى يكفل لها أداء رسالتها على أكمل وجه .

* النظم التعليمية بالمؤسسات العلمية :

كان نظام التعليم فى هذه المؤسسات يسير على النهج الذى يراه الواقف ، فلم تكن الدولة تنفق على جميع المؤسسات العلمية ، بل يقتصر ذلك على بعض المؤسسات ، وكانت المؤسسات عمومًا تُنشأ بموجب وقفيات شخصية يحدد شروطها الواقف على المؤسسة العلمية ، فكان يقرر ما يراه للتدريس بها ، فيعيّن المدرسين والطلبة بها ، وفقًا لأحد المذاهب الأربعة ، كما يختار العلوم التى تدرس بها ، ومن ذلك ما يذكره الحافظ شمس الدين الذهبى « ت ٧٤٨هـ/١٣٤٨م » أنّ واقف المدرسة الرواحية بدمشق زكى الدين بن رواحة « ت ٦٢٣هـ/١٢٢٦م » قد أفردها لتدريس الفقه الشافعى ووضع شروطًا قاسية لتعيين المدرسين فى مدرسته ، ولقد كانت تلك الوقفيات هى موارد الإنفاق الرئيسية للمؤسسات العلمية[(٦)] .

أما عن **المناهج التعليمية** بالمؤسسات العلمية فى العصر المملوكى ، فلقد كانت علوم

= محمود «التعليم فى مصر زمن الأيوبيين والمماليك» ص ١٤٩، ١٦٨، د. أحمد حطيط «التعليم بدمشق فى زمن المماليك» ص ٣٤٢، بحث بمجلة المشرق ، بيروت السنة ٧٥، عدد يوليو ٢٠٠١م ، د. أحمد رمضان «المدارس والمذهب الشافعى» ص ١٢.

(٦) خالد محسن حسان « الحياة العلمية فى الحجاز خلال العصر المملوكى » ص ٣٧٢، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامى ، مكة المكرمة ، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م ، إبراهيم ياسين « التعليم فى العصر الأيوبى » ص ٦٨، ماجستير ، جامعة القديس يوسف ، بيروت ، ١٩٨٦م ، د. أحمد حطيط « التعليم بدمشق فى زمن المماليك » ص ٣٤٢، بحث بمجلة المشرق ، بيروت ، السنة (٧٥) عدد يوليو ، ٢٠٠١م ، د. أمينة بيطار « التعليم فى دمشق فى القرن السادس الهجرى » ص ٢٤٣، بحث ضمن ذكرى الاحتفال بمؤرخ دمشق ابن عساكر بمناسبة مرور تسعمائة سنة على ولادته ، ولقد نشرت بحوث الاحتفالية ، وزارة التعليم العالى فى سوريا ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .

القرآن الكريم والحديث الشريف والفقه الإسلامى إلى جانب علوم اللغة العربية هى العلوم الرئيسية التى تدرس بتلك المؤسسات ، ولم تكن مناهج التدريس محددة بدقة كى يتقيد بها العالم والمتعلم ، وغالبًا ما كان يختار العالم عدد من الكتب فى الفقه أو الحديث يتعلمها الطالب مثل كتاب « التنبيه » أو « المنهاج » للنووى « ت ٦٧٦هـ » وهما فى فروع الفقه الشافعى ، أو « صحيح البخارى » و « صحيح مسلم » فى الحديث النبوى ، بالإضافة إلى بعض القراءات التى يراها ضرورية للمتعلم(١) .

أمّا عن **طرق التدريس** بتلك المؤسسات فكانت طريقة الإملاء الطريقة الفضلى لتدريس العلوم الدينية من فقه وحديث ونحو ذلك ، حيث كان المدرس يملى على الطلبة من ذاكرته حصيلة أبحاثه وخلاصة ما اطلع عليه مستخدمًا حينًا مرجعًا نادرًا ومرتفع الثمن ليس بمقدور المتعلم اقتناؤه ، ومعتمدًا حينًا آخر على ملاحظات مدونة يستعين بها فى التدريس(٢) .

ومن الطرق ـ أيضًا ـ التى كانت سائدة فى ذلك العصر طريقة الإلقاء والمحاضرة حيث يضع الشيخ كتابًا معينًا بين أيدى الطلبة ويطلب إليهم أن يأتوا حجرة التدريس ، بعد أن يكون قد قرأوا على أنفسهم الدرس الجديد ، ثم يبدأ الشيخ محاضرته بتقديم فكرة عامة عن موضوع الدرس ، ومن ثم يعرض بإيجاز لأفكاره الرئيسية متجنبًا التفاصيل المعقدة لينتقل بعد ذلك إلى قراءة الدرس ، فيما الطلبة يتابعون النص فى نسخ الكتاب خاصتهم ، والشيخ

---

(١) د. عفاف صبرة « المدارس فى العصر الأيوبى » ص ١٧٠، بحث ضمن أبحاث ندوة « المدارس فى مصر الإسلامية » ، التى نشرتها الهيئة المصرية العامة للكتاب فى سلسلة تاريخ المصريين (٥١) عام ١٩٩٢م ، خالد محسن « الحياة العلمية فى الحجاز خلال العصر المملوكى » ص ٣٧٢، د. أمينة بيطار « التعليم فى دمشق » ص ٢٥٩، د. أحمد حطيط « التعليم بدمشق زمن المماليك » ص ٣٥٤.

(٢) د. عفاف صبرة « المدارس فى العصر الأيوبى » ص ١٠ ، د. محمد كمال الدين « مجالس الإملاء فى مصر فى ظل حكم سلاطين المماليك » ص ٣٩٢، بحث ضمن أبحاث كتاب « ندوة المدارس فى مصر الإسلامية » ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٢م ، د. أحمد حطيط « التعليم فى دمشق » ص ٣٥٩، د. منير الدين أحمد «تاريخ التعليم عند المسلمين والمكانة الاجتماعية لعلمائهم فى القرن الخامس الهجرى» ص ٦٣، ترجمة د. منير الدين أحمد ، دار المريخ ، الرياض ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، الصمدى خالد «مجالس الحديث بقرطبة خلال القرن الخامس الهجرى» ص ١٤١.

يتوقف عن القراءة بين الفينة والفينة كى يشرح بعض الأمور أو ليوضح بعض المعانى[(١)] .

أمّا عن **أعضاء هيئة التدريس** بتلك المؤسسات ، فلقد كانت لكل مؤسسة علمية هيئة تدريس تتألف من فئات ثلاث الشيخ أو الصدر ، والمدرس ، والمعيد ، ويتم تصنيف رتبهم العلمية على أساس العلم والكفاية ، وكان فقهاء المؤسسات العلمية من حيث تحصيلهم العلمى فئتين الفقهاء المنتهون ولهم مهمة الإشراف على حسن سير التدريس ، والفقهاء المدرسون ويناط بهم الشأن التعليمى كل بحسب اختصاصه ، ولقد جرت العادة أن يكون الشيخ أو الصدر من مشاهير العلماء ومن أرسخهم فى الدين والعلم ، وهو رأس المؤسسة التعليمية ، أما المعيد فهو المدرس الثانى للطالب يعيد للطلبة الدرس ويوضح لهم ما قرره المدرسين[(٢)] .

ولقد كانت تلك المؤسسات العلمية تمنح طلابها الإجازات العلمية وهى أشبه بالدرجات العلمية فى عصرنا الحالى ينالها الطالب بعد أن يشعر أستاذه بمقدرته وكفاءته ، وكانت الإجازة نوعين إجازة عامة أو تسمى إجازة الفتيا وهى شهادة يمنحها الشيخ لأحد طلابه يشهد فيها أن الأخير قد أتم دراسته وأضحى مؤهلًا للفتيا والتدريس ، وإجازة تحريرية تتوزع بين فئات ثلاث إجازة بعراضة الكتب وهى أن يحفظ المتعلم كتابًا فى الفقه أو الحديث أو غير ذلك من المعارف المتصلة بعلوم الدين ثم يعرضه على مشايخ العصر ، فيختبره الشيخ ليطمئن إلى استيعاب الطالب مضمون الكتاب ، فيكتب له إجازة فى عرضه ، وإجازة بالمرويات وهى الشهادة التى يمنحها الفقهاء والعلماء للمتقدمين فى العلم المقيمين بعيدًا عنهم ، فيجيزون لهم فيها الرواية أو السماع عنهم بناءًا على استدعاءات خاصة عبر المراسلة ، وإجازة المناولة وهى أن يناول الشيخ الطالب الكتاب الذى رواه أو الحديث الذى اختاره ويطلب إليه أن يرويه بدوره[(٣)] .

---

(١) د. عفاف صبرة « المدارس فى العصر الأيوبى » ص ١٩٠، د. أحمد حطيط « التعليم فى دمشق » ص ٣٦١.

(٢) خالد محسن « الحياة العلمية فى الحجاز خلال العصر المملوكى » ص ٣٧٢، د. أحمد حطيط « التعليم بدمشق فى زمن المماليك » ص ٣٦٧، د. أمينة بيطار « التعليم فى دمشق » ص ٢٥١، ٢٥٨، د. عبد الغنى محمود «التعليم فى مصر زمن الأيوبيين والمماليك» ص ٢٠٣، ٢٠٨، دار المعارف ، ٢٠٠٢م .

(٣) د. أحمد حطيط « التعليم فى دمشق » ص ٣٦١، د. أمينة بيطار « التعليم فى دمشق » ص ٢٤٥.

ولقد قام علماء مصر والشام ـ فى القرن التاسع ـ بتدريس العلوم الدينية فى تلك المؤسسات العلمية[1]، حيث أفادوا طلاب العلم من علمهم الوافر، حيث صرف كثير من هؤلاء العلماء حياتهم فى التدريس حتى انقضاء أعمارهم.

أ ـ الفقه :

فمن علماء مصر الذين قاموا بتدريس الفقه بالمؤسسات العلمية، صدر الدين المناوى[2] « ت ٨٠٣هـ »[3]، وسراج الدين البلقينى[4] « ت ٨٠٥هـ »[5]، وشمس الدين البرماوى[6] « ت ٨٣١هـ »[7]، وشمس الدين البساطى[8] « ت ٨٤٢هـ »[9]، وشهاب الدين الطنتدائى[10] « ت ٨٣٢هـ »[11]، ....

---

(١) لم تحدد لنا المصادر التاريخية أسماء المؤسسات العلمية التى درس بها علماء مصر والشام سواء كانت مدارس أو جوامع أو خانقاوات، واكتفت فقط بذكر أن العالم درس الفقه أو الحديث أو نحو ذلك.

(٢) صدر الدين المناوى: محمد بن إبراهيم، تفقه على شيوخ عصره، ولى قضاء الشافعية بمصر، توفى ٨٠٣هـ، انظر: المقريزى « درر العقود » ح ٣ ص ٢٨.

(٣) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٦ ص ٢٤٩، المقريزى « درر العقود » ح ٣ ص ٢٨.

(٤) سراج الدين البلقينى: عمر بن رسلان، تفقه على شيوخ عصره، انتهت إليه مشيخة الفقه فى عصره، درس، وأفتى، توفى عام ٨٠٥هـ، انظر السخاوى « الضوء اللامع » ح ٦ ص ٨٥، المقريزى « درر العقود » ح ٢ ص ٤٣٤.

(٥) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٦ ص ٨٥، المقريزى « درر العقود » ح ٢ ص ٤٣٤.

(٦) شمس الدين البرماوى: محمد بن عبد الدائم، تفقه على شيوخ عصره، درس، وأفتى، توفى ٨٣١هـ، انظر: المقريزى « درر العقود » ح ٣ ص ١٥٦.

(٧) المقريزى « درر العقود » ح ٣ ص ١٥٦.

(٨) شمس الدين البساطى: محمد بن أحمد، تفقه على شيوخ عصره، تولى قضاء المالكية بمصر، توفى ٨٤٢هـ، انظر: المقريزى « درر العقود » ح ٣ ص ١٢٠.

(٩) المقريزى « درر العقود » ح ٣ ص ١٢٠.

(١٠) شهاب الدين الطنتدائى: أحمد بن عبد الرحمن، تفقه على شيوخ عصره، درس، وخطب، توفى ٨٣٢هـ، انظر: المقريزى « درر االعقود » ح ١ ص ٣١٥.

(١١) المقريزى « درر العقود » ح ١ ص ٣١٥.

وقاسم بن قطلوبغا[١] « ت ٨٧٩هـ »[٢] ، وعز الدين[٣] البكرى[٤] ، وشمس الدين الغَزَّاقى[٥] « ت ٨١٦هـ »[٦] .

ومن علماء دمشق ـ فى القرن التاسع ـ الذى قاموا بتدريس الفقه بالمؤسسات العلمية ، شهاب الدين الحسبانى[٧] « ت ٨١٦هـ »[٨] ، وشهاب الدين الدمشقى[٩] « ت ٨٢٢هـ »[١٠] ، وابن الزهرى[١١] « ت ٨٢٤هـ »[١٢] ، وإسماعيل المغربى[١٣] « ت ٨٠٣هـ »[١٤] ، وعلاء الدين الدمشقى[١٥] « ت ٨٤٤هـ »[١٠] .

---

(١) قاسم بن قطلوبغا : قاسم بن قطلوبغا ، تفقه على شيوخ عصره ، برع فى فقه الحنفية ، توفى ٨٧٩هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٦ ص ١٨٧.

(٢) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٦ ص ١٨٧، المقريزى « درر العقود » ح ٣ ص ٢٢.

(٣) عز الدين البكرى : عبد العزيز بن على ، تفقه على شيوخ عصره ، ولى قضاء الحنابلة بمصر عام ٨٢٩هـ ، درس ، انظر : المقريزى « درر العقود » ح ٢ ص ٢٩٦.

(٤) المقريزى « درر العقود » ح ٢ ص ٢٩٦.

(٥) شمس الدين الغَزَّاقى : محمد بن أحمد ، تفقه على شيوخ عصره ، درس بالجامع الأزهر الفقه ، توفى ٨١٦هـ ، انظر : المقريزى « درر العقود » ح ٣ ص ٣٩٤.

(٦) المقريزى « درر العقود » ح ٣ ص ٣٩٤ .

(٧) شهاب الدين الحسبانى : انظر : ص ٣٣١.

(٨) ابن قاضى شهبة « طبقات الشافعية » ح ٢ ص ٢٥٦، المقريزى « درر العقود » ح ١ ص ٣٦٦.

(٩) شهاب الدين الدمشقى : انظر : ص ٣٣١.

(١٠) ابن قاضى شهبة « طبقات الشافعية » ح ٢ ص ٣١١، المقريزى « درر العقود » ح ١ ص ٢٤٩، السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ٣٥٦.

(١١) ابن الزهرى : عبد الوهاب بن صالح ، تفقه على شيوخ عصره ، صار شيخ الشافعية بدمشق فى عصره ، درس ، وأفتى ، توفى ٨٢٤هـ ، انظر : ابن قاضى شهبة « طبقات الشافعية » ح ٢ ص ٣٢٠.

(١٢) ابن قاضى شهبة « طبقات الشافعية » ح ٢ ص ٣٢٠.

(١٣) إسماعيل المغربى : إسماعيل بن عبد الله ، تفقه على شيوخ عصره ، ناب فى القضاء بدمشق ، أفتى ، توفى ٨٠٣هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٢ ص ٣٠١.

(١٤) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٢ ص ٣٠١.

(١٥) علاء الدين الدمشقى : انظر : ص ٢١.

(١٦) المقريزى « درر العقود » ح ٢ ص ٥٤٢.

ومن علماء حلب، الذين قاموا بتدريس الفقه بالمؤسسات العلمية، تاج الأصفهندى[(١)] « ت ٨٠٧هـ »[(٢)] ، وشرف الدين أبو البركات[(٣)] « ت ٨٠٣هـ »[(٤)] ، وعز الدين الحاضرى[(٥)] « ت ٨٢٤هـ »[(٦)] ، وابن خطيب الناصرية[(٧)] « ت ٨٤٣هـ »[(٨)] .

ومن علماء القدس، الذين قاموا بتدريس الفقه بالمؤسسات العلمية ابن أرسلان[(٩)] « ت ٨٤٤هـ »[(١٠)] ، وكمال الدين بن أبى شريف[(١١)] « ت ٩٠٥هـ »[(١٢)] .

---

(١) تاج الأصفهندى : تاج بن محمد، تفقه على شيوخ عصره، درس وأفتى، وكان من كبار علماء حلب، توفى ٨٠٧هـ، انظر : ابن قاضى شهبة « طبقات الشافعية » ح ٢ ص ٢٦٥.

(٢) ابن قاضى شهبة « طبقات الشافعية » ح ٢ ص ٢٦٥.

(٣) شرف الدين أبو البركات : موسى بن محمد، تفقه على شيوخ عصره، درس، وأفتى، وتولى القضاء بها، توفى ٨٠٣هـ، انظر : ابن قاضى شهبة « طبقات الشافعية » ح ٢ ص ٢٩٩.

(٤) ابن قاضى شهبة « طبقات الشافعية » ح ٢ ص ٢٩٩.

(٥) عز الدين الحاضرى : محمد بن خليل، تفقه على شيوخ عصره، برع فى الفقه الحنفى، توفى ٨٢٤هـ، انظر : المقريزى « درر العقود » ح ٣ ص ١٠٠.

(٦) المقريزى « درر العقود » ح ٣ ص ١٠٠، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٧ ص ٢٣٢.

(٧) ابن خطيب الناصرية : على بن محمد، تفقه على شيوخ عصره، ولى قضاء الشافعية بحلب، توفى ٨٤٣هـ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٥ ص ٣٠٦.

(٨) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٥ ص ٣٠٦.

(٩) ابن أرسلان : انظر : ص ٣٣٢.

(١٠) السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ٢٨٥، مجير الحنبلى « الأنس الجليل » ح ٢ ص ١٧٤.

(١١) كمال الدين بن أبى شريف : انظر : ص ٣٣٢.

(١٢) مجير الدين الحنبلى « الأنس الجليل » ح ٢ ص ٣٣٧.

ب ـ الحديث :

فمن علماء مصر، الذين درسوا الحديث بالمؤسسات العلمية، زين الدين العراقى[١] «ت ٨٠٦هـ»[٢]، وولى الدين أبو زرعة[٣] «ت ٨٢٦هـ»[٤]، وجلال الدين البغدادى[٥] «ت ٨١٢هـ»[٦]، وابن الملقن[٧] «ت ٨٠٤هـ»[٨]، وابن حجر العسقلانى[٩] «ت ٨٥٢هـ»[١٠]، ومجد الدين[١١] الحنفى[١٢]، وجلال الدين السيوطى[١٣] «ت ٩١١هـ»[١٤].

ومن علماء دمشق، الذين درسوا الحديث بالمؤسسات العلمية، علاء الدين بن الجزرى[١٥]

---

(١) زين الدين العراقى : انظر : ص ٣٣٤.

(٢) السخاوى «الضوء اللامع» ح ٤ ص ١٧١، المقريزى «درر العقود» ح ٢ ص ٢٣٦، ابن فهد «لحظ الألحاظ» ص ٢٢٠.

(٣) ولى الدين أبو زرعة : انظر : ص ٣٣٥.

(٤) ابن فهد «لحظ الألحاظ» ص ٢٨٤، المقريزى «درر العقود» ح ١ ص ٣٠٩.

(٥) جلال الدين البغدادى : نصر الله بن أحمد، تفقه على شيوخ عصره، برع فى الحديث، ودرس الحديث، توفى ٨١٢هـ، انظر : المقريزى «درر العقود» ح ٣ ص ٥٠٣.

(٦) المقريزى «درر العقود» ح ٣ ص ٥٠٣.

(٧) ابن الملقن : انظر : ص ٣٣٤.

(٨) ابن فهد «لحظ الألحاظ» ص ١٩٧، المقريزى «درر العقود» ح ٢ ص ٣٤٠، ابن قاضى شهبة «تاريخ ابن قاضى شهبة» ح ٤ ص ٢٨١.

(٩) ابن حجر العسقلانى : انظر : ص ٣٣٦.

(١٠) البقاعى «عنوان الزمان» ح ١ ص ١٢١.

(١١) مجد الدين الحنفى : إسماعيل بن إبراهيم، تفقه على شيوخ عصره، تولى قضاء الحنفية بمصر، انظر : المقريزى «درر العقود» ح ١ ص ٤١٠.

(١٢) المقريزى «درر العقود» ح ١ ص ٤١٠.

(١٣) جلال الدين السيوطى : انظر ص ٣٣٧.

(١٤) السيوطى «التحدث بنعمة الله» ص ٨٨.

(١٥) علاء الدين بن الجزرى : على بن إبراهيم، تفقه على شيوخ عصره، درس الحديث بالجامع الأموى بدمشق، توفى ٨١٣هـ، انظر : المقريزى «درر العقود» ح ٢ ص ٥٣٩.

« ت ٨١٣هـ »[١] ، وابن زكنون[٢] « ت ٨٣٧هـ »[٣] ، وابن ناصر الدين[٤] « ت ٨٤٢هـ »[٥] ، وعلاء الدين الدمشقى[٦] « ت ٨٤٤هـ »[٧] .

ومن علماء حلب ، الذين درسوا الحديث بالمؤسسات العلمية ، ابن خطيب الناصرية[٨] « ت ٨٤٣هـ »[٩] ، وسبط ابن العجمى[١٠] « ت ٨٤١هـ »[١١] .

القراءات :

من علماء مصر الذين درسوا القراءات بالمؤسسات العلمية ، أبو العباس ابن السويداوى[١٢] « ت ٨٠٤هـ »[١٣] ، وشمس الدين الشطنوفى[١٤] « ت ٨٣٢هـ »[١٥] ،

---

(١) المقريزى « درر العقود » ح ٢ ص ٥٣٩.

(٢) ابن زكنون : انظر : ص ٣٤.

(٣) المقريزى « درر العقود » ح ٢ ص ٤٨٢.

(٤) ابن ناصر الدين : انظر : ص ٣٤.

(٥) ابن فهد « لحظ الألحاظ » ص ٣١٧، ابن تغرى « المنهل الصافى » ح ٩ ص ٢٣٤، المقريزى « درر العقود » ح ٣ ص ١٢٨.

(٦) علاء الدين الدمشقى : انظر : ص ٢١.

(٧) المقريزى « درر العقود » ح ٢ ص ٥٤٢.

(٨) ابن خطيب الناصرية :

(٩) ابن الطباخ « إعلام النبلاء » ح ٥ ص ٢١٥.

(١٠) سبط ابن العجمى : انظر : ص ٣٦.

(١١) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٢ ص ١٣٨، المقريزى « درر العقود » ح ١ ص ٦٥.

(١٢) أبو العباس ابن السويداوى : أحمد بن الحسن ، تفقه على شيوخ عصره ، درس القراءات ، توفى ٨٠٤هـ ، انظر : ابن الجزرى « غاية النهاية » ح ١ ص ٤٧، السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ٢٧٨.

(١٣) ابن الجزرى « غاية النهاية » ح ١ ص ٤٧.

(١٤) شمس الدين الشطنوفى : محمد بن إبراهيم ، تفقه بشيوخ عصره ، درس القراءات بجامع ابن طولون ، توفى « ٨٣٢هـ » ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٦ ص ٢٥٦.

(١٥) المقريزى « درر العقود » ح ٣ ص ٢٣٠، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٦ ص ٢٥٦.

وعثمان بن عبد الرحمن[1] « ت ٨٠٤هـ »[2] ، وشمس الدين الزَّراتيتى[3] « ت ٨٢٥هـ »[4] ، وأبو العباس[5] الأسكندرى[6] .

ومن علماء دمشق الذين درسوا القراءات بالمؤسسات العلمية ، ابن الجزرى[7] ،[8] والزين الدمشقى[9] « ت ٨٧٣هـ »[10] ، وأبو العباس[11] الدمشقى[12] .

ومن علماء القدس الذين درسوا القراءات بالمؤسسات العلمية ، الحسين التبريزى[13]

---

(١) عثمان بن عبد الرحمن : كان من كبار علماء القراءات بمصر ، توفى ٨٠٤هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٥ ص ١٣٠، المقريزى « درر العقود » ح ٢ ص ٤٢١.

(٢) المقريزى « درر العقود » ح ٢ ص ٤٢١، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٥ ص ١٣٠.

(٣) شمس الدين الزّراتيتى : محمد بن على ، تفقه على شيوخ عصره ، درس القراءات ، توفى ٨٢٥هـ ، انظر : المقريزى « درر العقود » ح ٣ ص ٤٣٢.

(٤) المقريزى « درر العقود » ح ٣ ص ٤٣٢.

(٥) أبو العباس الأسكندرى : أحمد بن صالح ، كان من كبار علماء القراءات بالأسكندرية ، ولد عام ٧٣٣هـ ، وعاش بعد عام ٨٠٧هـ ، السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ٣١٥، ابن الجزرى « غاية النهاية » ح ١ ص ٦١.

(٦) ابن الجزرى « غاية النهاية » ح ١ ص ٦١.

(٧) ابن الجزرى : أحمد بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، درس القراءات بمدارس دمشق ، ولد ٧٨٠هـ ، انظر : ابن الجزرى « غاية النهاية » ح ١ ص ١٢٩.

(٨) ابن الجزرى « غاية النهاية » ح ١ ص ١٢٩.

(٩) الزين الدمشقى : عبد الرحمن بن أحمد ، تفقه بشيوخ عصره ، كان من كبار علماء القراءات بدمشق ، توفى ٨٧٣هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٤ ص ٤٤.

(١٠) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٤ ص ٤٤، المقريزى « درر العقود » ح ٢ ص ٢٥٣.

(١١) أبو العباس الدمشقى : أحمد بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، كان من كبار علماء القراءات بدمشق ، انظر : المقريزى « درر العقود » ح ١ ص ٣١٧.

(١٢) المقريزى « درر العقود » ح ١ ص ٣١٧.

(١٣) الحسين التبريزى : الحسين بن حامد ، تفقه بشيوخ عصره ، درس القراءات بالقدس ، توفى ٨٠١هـ ، انظر : ابن الجزرى « غاية النهاية » ح ١ ص ٢٣٩.

« ت ٨٠١هـ »[١] ، وشهاب الدين[٢] أبو العباس « ت ٨٠٨هـ »[٣] ، وعبد الله المغربى[٤] « ت ٨٢٩هـ »[٥] ، وإبراهيم[٦] بن زقاعة[٧] .

التفسير :

ومن علماء مصر ، الذين درسوا التفسير بالمؤسسات العلمية ، سراج الدين البلقينى[٨] « ت ٨٠٥هـ »[٩] ، وجلال الدين البلقينى[١٠] « ت ٨٢٤هـ »[١١] ، وعلم الدين البلقينى[١٢] « ت ٨٦٨هـ »[١٣] ، وسعد الدين[١٤] الديرى « ت ٨٦٧هـ »[١٥] ، وابن الهمام[١٦] « ت ٨٦١هـ »[١٧] .

ومن علماء القدس برهان الدين المقدسى[١٨] [١٩] .

---

(١) ابن الجزرى « غاية النهاية » ح ١ ص ٢٣٩.

(٢) شهاب الدين أبو العباس : أحمد بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، كان من علماء القراءات بالقدس ، توفى ٨٠٨هـ ، انظر : مجير الدين الحنبلى « الأنس الجليل » ح ٢ ص ٢٤٥.

(٣) مجير الدين الحنبلى « الأنس الجليل » ح ٢ ص ٢٤٥.

(٤) عبد الله المغربى : عبد الله بن إبراهيم ، تفقه على شيوخ عصره ، درس القراءات بالقدس ، توفى ٨٢٩هـ ، انظر : مجير الدين الحنبلى « الأنس الجليل » ح ٢ ص ٢٤٦.

(٥) مجير الدين الحنبلى « الأنس الجليل » ح ٢ ص ٢٤٦.

(٦) إبراهيم بن زقاعة : كان من كبار علماء القراءات بغزة ، توفى بعد عام ٨٠٠هـ ، انظر : ابن الجزرى « غاية النهاية » ح ١ ص ١٥.

(٧) ابن الجزرى « غاية النهاية » ح ١ ص ١٥ .

(٨) سراج الدين البلقينى : انظر : ص ٣٥٧.

(٩) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٦ ص ٨٦، المقريزى « درر العقود » ح ٢ ص ٤٣٤، الداودى «طبقات المفسرين» ح ٢ ص ٤.

(١٠) جلال الدين البلقينى : انظر ص ٣٤٣.

(١١) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٤ ص ١٠٩.

(١٢) علم الدين البلقينى : انظر : ص ٣٤٣.

(١٣) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٣ ص ٣١٢.

(١٤) سعد الدين الديرى : سعد بن محمد ، تفقه بشيوخ عصره ، ولى قضاء الحنفية بمصر ، توفى ٨٦٧هـ ، انظر : ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٦ ص ٢٨٥، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٤ ص ٢٥٠.

(١٥) السخاوى « الذيل على رفع الأصر » ص ١٣١.

(١٦) ابن الهمام : انظر : ص ٣٣٠ .

(١٧) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٨ ص ١٢٧.

(١٨) برهان الدين المقدسى : إبراهيم بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، ولد ٨٣٦هـ ، درس ، انظر : السخاوى «الضوء اللامع» ح ١ ص ١٣٤ .

(١٩) السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ١٣٤ ، ١٣٥ .

٣ ـ العلماء والاجتهاد ومحاربة التعصب والجمود المذهبى

إن المذاهب مدارس فكرية لتفسير مفاهيم الشريعة، وتوضيح معانيها، نشأت وتطورت مع تطور وسائل العلوم والفنون، وبجهود العلماء ونشاطاتهم العلمية والفكرية، وقد اختلفت مناهج تلك المدارس فى تفسير جزئيات المسائل إلى أن استقلت كل مدرسة بمنهج متميز عن أختها فى بعض الأمور، وأخيرًا سمّيت باسم خاص بالانتماء إلى إمام معين كالشافعية والحنفية والمالكية والحنابلة والظاهرية وما شابه ذلك[1].

ولكن حدث عقب ذلك أن ظهر التقليد والتعصب للمذاهب، وهنا ظهر العلماء المخلصون الذين كانوا يشعرون بمرارة تفرق الأمة الإسلامية وتشتتها، فقد بذلوا جهودهم الطيبة فى دراسة تلك القضية وبحثها للقضاء على التفرق البغيض الذى نشأ بسبب سوء الفهم للقضية، فدعوّ أولًا إلى احترام الأئمة والاستفادة من آرائهم وعدم التعصب المذهبى البغيض الذى نهجه مقلدى المذاهب الأربعة من التعصب والحمية الجاهلية إلى ترجيح مذهب إمامه، وإطلاق لسانه فى غيره بعدم أدب وغير خوف من الله. وأن الأئمة الأعلام أصحاب المذاهب مجتهدون منهم من يصيب ومنهم من يخطأ، والمصيب له أجران، والمخطئ فلا إثم عليه، وله أجر واحد.

وذلك ما دعا إليه عالمين جليلين ـ فى العصر المملوكى ـ، ابن تيمية «ت ٧٢٨هـ» فى كتابه «رفع الملام عن الأئمة الأعلام»، والسيوطى «ت ٩١١هـ» فى كتابه «جزيل المواهب فى اختلاف المذاهب»[2].

---

(١) السيوطى «جزيل المواهب فى اختلاف المذاهب» ص ٧، تحقيق عبد القيوم محمد، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٨٩م.

(٢) مرعى بن يوسف «ت ١٠٣٣هـ» «تنوير بصائر المقلدين فى مناقب الأئمة المجتهدين» ص ١٣٧، مخطوطة بدار الكتب المصرية، برقم (٢١٢٠ تاريخ)، ومكروفيلم (٣٥٧٨٢)، ابن تيمية «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» ص ١٤٨، تحقيق د. محمد سعيد البدرى، دار الكتاب المصرى، القاهرة، ط ١ (١٤١١هـ/١٩٩١م)، السيوطى «جزيل المواهب فى اختلاف المذاهب» ص ٨، ٣٢ ـ ٣٥.

وثانيًا دعوّا العالمين الجليلين إلى نبذ التقليد، فبالتقليد فقدت الأمة الهداية بالكتاب والسنة، وحدث القول بانسداد باب الاجتهاد[*] وصارت الشريعة هى أقوال الفقهاء وأقوال الفقهاء هى الشريعة، واعتبر كل من يخرج عن أقوال الفقهاء مبتدعًا، لا يوثق بأقواله، ولا يعتد لفتاويه ـ كما يذكر ابن تيمية[1] ـ، كما ندد السيوطى من خلال كتابه «الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد فى كل عصر فرض» بهؤلاء القائلين المنكرين للاجتهاد الذين عدّوه منكرًا بين العباد، وجهلوا أن الاجتهاد فرض من فروض الكفايات فى كل عصر، وواجب على أهل كل زمان أن يقوم به طائفة فى كل قطر، ثم يفند قولهم بأن المجتهد المطلق فقد فى عصرنا، ولم يعد موجود إلا المجتهد المقيد، حيث يوضح خطأهم بأن المجتهد المطلق هو الذى وجدت فيه شروط الاجتهاد، فقام بالاجتهاد دون أن يبتكر لنفسه قواعد بل سلك طريقة إمام من أئمة المذاهب فى الاجتهاد، وهذا قول العلماء كالنووى[2] «ت ٦٧٨هـ» وغيره[3].

ولقد ظهر فى مصر والشام ـ فى القرن التاسع ـ علماء امتازوا بالاجتهاد والتجديد، ولم يتقيدوا بما جاء فى المذاهب الأربعة، واجتهدوا فى إبداء الرأى والفتوى بما يناسب ظروف المجتمع المتغيرة، دون الخروج عن روح الدين وعدالته، ومن أشهر هؤلاء العلماء[*] سراج الدين البلقينى[4] «ت ٨٠٥هـ»[5]،

(*) الاجتهاد: انظر: ص ٣.

(١) ابن تيمية «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» ص ١٤٨.

(٢) محيى الدين النووى: يحيى بن محمد، تفقه على شيوخ عصره، صار رأس الشافعية بدمشق فى عصره، درس وأفتى، توفى ٦٧٨هـ، انظر: السبكى «طبقات الشافعية» ح٧ ص ٥١.

(٣) الشعرانى «عبد الوهاب «ت ٩٧٣هـ»» «ذيل الطبقات الكبرى» ص ٣، مخطوطة بدار الكتب المصرية، برقم (٦٧٤ تاريخ تيمور)، ومكروفيلم (٢٧٥٢٧)، مرعى بن يوسف «تنوير بصائر المقلدين» ص ١٣٧، السيوطى «التحدث بنعمة الله» ص ٢١٥، تحقيق اليزابث مارى سارتين، مطبعة كمبردج، ١٩٧٥م، السيوطى «الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد فى كل عصر فرض» ص ٢، ٨، ٢٦، ٣٨، ٤٣، ٦٥، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

(*) لم تذكر المصادر التاريخية نماذج من الآراء الاجتهادية لهؤلاء العلماء.

(٤) سراج الدين البلقينى: انظر: ص ٣٥٧.

(٥) الجرجاوى «محمد بن محمد ت ١٣٤٣هـ» «بغية المقتدين ومنحة المجدين على تحفة المهتدين فى =

وابن قطلوبغا[١] « ت ٨٧٩هـ »[٢] ، والسيوطى[٣] « ت ٩١١هـ » الذى صرّح بأنه بلغ مرتبة الاجتهاد المطلق على مذهب الإمام الشافعى[٤] ، وزكريا الأنصارى[٥] « ت ٩٢٦هـ »[٦] .

ومن علماء الشام ـ على سبيل المثال ـ إسماعيل البقاعى[٧] « ت ٨٠٦هـ »[٨] ، وبدر الدين الأنصارى الدمشقى[٩] « ت ٨٠٧هـ »[١٠] ، وابن قاضى شهبة[١١] « ت ٨٧٤هـ »[١٢] .

= بيان أسماء المجددين » ص ٦١، ٦٢، مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (١٩٨٧ تاريخ) ، (١٠٦٤٧ مكروفيلم) ، ابن ناصر الدين «شرح بديعة البيان عن موت الأعيان من رجال الحديث» ص١٧٩ .

(١) ابن قطلوبغا : انظر : ص ٣٥٨.

(٢) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٦ ص ١٨٨، ابن قطلوبغا « تاج التراجم فى طبقات الحنفية » ص ١٤، تحقيق محمد خير رمضان ، دمشق ، دار القلم ، ط ١ (١٤١٣هـ/١٩٩٢م) .

(٣) السيوطى : انظر : ص .

(٤) الشعرانى « ذيل الطبقات الكبرى » ص ٢، الجرجاوى « بغية المقتدين » ص ٧٧، الشعرانى « لواقح الأنوار القدسية فى طبقات العلماء والصوفية » ص ١٨، تحقيق سعيد هارون عاشور ، مكتبة الآداب ، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م ، السيوطى « التحدث بنعمة الله » ص ٢٠٥، سعيد شبّار « شروط الاجتهاد قراءة فى جدل الائتلاف والاختلاف » ص ٢٠٣، مقال بدورية « التجديد » ، عدد (١٠) جمادى الأولى ١٤٢٢هـ ، أغسطس ٢٠٠١م ، قطر ، د. محمد الزحيلى « السيوطى وكتابه الأشباه والنظائر فى الفقه » ص ٦٨٤، دورية مجمع اللغة العربية بدمشق ، ربيع الآخر ١٤١٣هـ/ أكتوبر ١٩٩٢م .

(٥) زكريا الأنصارى : انظر : ص .

(٦) الجرجاوى « بغية المقتدين » ص ٨٥.

(٧) إسماعيل البقاعى : إسماعيل بن على ، تفقه على شيوخ عصره ، درس الحديث ، توفى ٨٠٦هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٢ ص ٣٠٣.

(٨) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٢ ص ٣٠٣، سعود محمد «الحياة الثقافية» ص ٣١٢ .

(٩) بدر الدين الأنصارى : أنس بن على ، تفقه على شيوخ عصره ، برع فى علم الحديث ، توفى ٨٠٧هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٢ ص ٣٢٣.

(١٠) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٢ ص ٣٢٣، سعود محمد «الحياة الثقافية» ص ٣١٢ .

(١١) برهان الدين البقاعى : انظر : ص .

(١٢) د. سعود محمد « الحياة الثقافية بدمشق » ص ٣١٢.

٤ ـ الخلافات الفكرية بين علماء الأشاعرة والحنابلة

لقد تجددت الخلافات الفكرية بين متكلمى الأشاعرة ـ أتباع أبى الحسن الأشعرى « ت ٣٢٤هـ » ـ ومتكلمى الحنابلة ـ أتباع الإمام أحمد ابن حنبل ـ فى العصر المملوكى، وقبل أن يعرض الباحث لقضايا الخلاف الرئيسية بين الفريقين، سيوضح أسس التقارب بين الفريقين، فمتكلمى الحنابلة والأشاعرة هم أقرب طوائف أهل السنّة إلى بعضهما فى قضايا الأصول، إلى الحد الذى كان يصنّف فيه بعض أئمة العلم ضمن هؤلاء أو هؤلاء، ويتنازع فى نسبته مترجمو المذهبين، ولم يخرج عن ذلك حتى مؤسس المذهب الأشعرى نفسه الإمام أبو الحسن الأشعرى، الذى ثبت عنه قوله « أنه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل فى الأصول »، وذلك فى كتابه « الإبانة »، ومن مسائل الاتفاق الرئيسية بين الفريقين مفهوم النبوة وحقيقتها، ومسائل السمعيات « الحياة الآخرة، وحياة البرزخ وما فيها من نعيم وعذاب »، ومسألة الإمامة والقول فى الصحابة[1].

أمّا قضايا الخلاف الرئيسية بين علماء الأشاعرة والحنابلة، فتتمثل فى :

أ ـ مسألة الاستدلال على وجود الله، فعلماء الحنابلة يرون أن معرفة الله فطرية فى نفوس الخلق، لا تحتاج إلى سرد الأدلة ولا إلى حشد البراهين على وجوده سبحانه تعالى، ولا يحتاج إلى النظر إلا من اضطربت عقيدته، وتعرض للتشكيك والوساوس، فمن كان على هذا النحو، فله فى أدلة القرآن العقلية شفاء عن أدلة المتكلمين والفلاسفة، أمّا الأشاعرة لا يحتجون بدليل الفطرة على وجود الله إذ يرون أن المعرفة بالله تأتى عن طريق النظر وليست فطرية[2].

ب ـ مسألة الأسماء والصفات الإلهية، الحنابلة مذهبهم إثبات كل ما ورد فى الكتاب

---

(١) مشعل ركابى « أسس الاتفاق والاختلاف فى قضايا أصول الدين بين متكلمى الحنابلة والأشاعرة من القرن الخامس حتى القرن الثامن الهجرى » ص ٤١٥، ٤٤٣، ٤٥٧، ٤٧٦، ٤٩١، ٤٩٣، دكتوراة « قسم الفلسفة »، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

(٢) مشعل ركابى « أسس الاتفاق والاختلاف » ص ١٣٣، ١٤١.

والسنّة من الأسماء والصفات الإلهية ، فلا ينفونها ولا يعطلونها ، ولكنهم يثبتونها على الوجه الذى يليق بجلال الله تعالى من غير تمثيل ولا تشبيه ، أما الأشاعرة فلا يثبتون إلا الصفات المعنوية السبع وهى « الحياة ، والعلم ، والقدرة ، والإرادة ، والسمع ، والبصر ، والكلام » ، وذلك لأن العقل دلّ على ثبوتها ، أما سواها من الصفات الخبرية كاليد ، والوجه فلم يثبتها الأشاعرة بل أولوها إلى معانٍ أخرى مستساغة فى لغة العرب بقصد تنزيه الله عن مشابهة خلقه[١] .

وإجمالًا فإن منهج متكلمى الحنابلة قائم على التسليم المطلق للسمع والانقياد التام لمعانيه الظاهرة المحتملة فى لغة العرب ، ولا يلجأون إلى التأويل إلا فى حال كون ذلك التأويل مستساغًا فى اللغة مصحوبًا بالقرائن الصارفة لهذا اللفظ عن ظاهره ، وهم مع ذلك لا يستغنون عن العقل ، بل يرون أن العقل الصريح موافق للنقل الصحيح ولا تعارض بينهما ، أو تناقض[٢] .

أمّا منهج متكلمى الأشاعرة قائم على أن السمع متوقف ثبوته على العقل ، فلا يقدم السمع على العقل إن تعارضا ، فالسمع إن وافق العقل أخذنا به ، وإن عارضه عملنا على التوفيق بينهما ، فإن لم يتحقق التوفيق بينهما ، صرف السمع عن ظاهره إلى معنى آخر يتوافق مع دلالة العقل ، فإن لم يتحقق ذلك ، عمل بمقتضى العقل مقدمًا على ما يفيده السمع ، وهذا المنهج العقلى الذى استقر عليه الأشاعرة ، هو المعمول به والمحكم لديهم فى جميع قضايا الأصول ، ويظهر أثره فى آراء الأشاعرة فى التوحيد ، والصفات الإلهية ، والقدر ـ كما سبق القول[٣] ـ .

ولقد تجدد فى العصر المملوكى تلك الخلافات الفكرية بين متكلمى الأشاعرة ، ومتكلمى الحنابلة ـ الذين كان رأسهم آنذاك ابن تيمية[٤] « ت ٧٢٨هـ » ـ ، حيث ألمحت وأشارت

---

(١) مشعل ركابى « أسس الاتفاق والاختلاف » ص ٢٠١، ٤٨٣.
(٢) مشعل ركابى « أسس الاتفاق والاختلاف » ص ٤٧٧.
(٣) مشعل ركابى « أسس الاتفاق والاختلاف » ص ٤٧٧، ٤٧٨.
(٤) ابن تيمية : أحمد بن عبد الحليم ، تفقه على شيوخ عصره ، صار شيخ الإسلام بدمشق فى عصره ، درس وأفتى ، توفى ٧٢٨هـ ، انظر : ابن العماد « شذرات الذهب » ح ٦ ص ٨٠.

المصادر التاريخية وكتب التراجم المملوكية ـ خلال القرن التاسع ـ إلى طبيعة العلاقة بين علماء الأشاعرة والحنابلة ـ أتباع ابن تيمية ـ، حيث أخذ طريق العنف والتعصب، وأنذر بوقوع فتنة بين الفريقين، ومن ذلك ما حدث بدمشق فى شعبان ٨٢٨هـ/١٤٢٤م عندما جلس تقى الدين الحصنى[١] بالجامع الأموى، واجتمع عليه خلق كثير، فشرع يتكلم فى العقائد، ويصرح بالذم الشديد لابن تيمية، فشق ذلك على الحنابلة، وأشرف الأمر على فتنة وقى الله شرها، وفى شوال من السنة نفسها أصدر السلطان برسباى[٢] مرسومه « بأن لا يتكلم أحد فى العقائد، والمخالفة للكتاب والسنّة وطريقة السلف، وأن لا يتعرض أحد إلى ابن تيمية وغيره من علماء المسلمين »[٣].

ولقد تجدد الخلاف بين الأشاعرة والحنابلة عامى ٨٣٥هـ/١٤٣١م، و ٨٣٦هـ/١٤٣٢م عندما قدح علاء الدين البخارى[٤] « ت ٨٤١هـ » فى آراء ابن تيمية، وبالغ فى الحط على ابن تيمية، فتعصب جماعة من علماء دمشق لابن تيمية، وصنف الحافظ شمس الدين ابن ناصر الدين[٥] « ت ٨٤٢هـ » مُؤلفًا فى فضل ابن تيمية، وسرد أسماء من أثنى عليه من أهل عصره، فمن بعدهم، على حروف المعجم، وأرسله إلى القاهرة فكتب له عليه غالب علماء مصر بالتصويب وأيدوه، وخالفوا علاء الدين البخارى فى الحط على ابن تيمية، وأصدر السلطان برسباى مرسومًا بالكف عن تلك الأمور، وسكن الأمر[٦].

---

(١) تقى الدين الحصنى: انظر: ص ٣٣٠.

(٢) السلطان برسباى: سبق التعريف به بالفصل الأول، انظر: ص ١٠.

(٣) المقريزى « درر العقود » ح ١ ص ١٨٢.

(٤) علاء الدين البخارى: على بن محمد، من كبار علماء الهند، رحل إلى مصر فى العصر المملوكى، واستقر بها فترة، ثم رحل إلى دمشق، ومكث بها حتى وفاته ٨٤١هـ، وكان كثير الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وانتفع علماء مصر والشام بعلمه، انظر: ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٩ ص ٢٣.

(٥) شمس الدين ابن ناصر الدين: محمد بن أبى بكر، تفقه على شيوخ عصره، برع فى علم الحديث، درّسه بدمشق، توفى ٨٤٢هـ، انظر: ابن فهد « لحظ الألحاظ » ص ٣١٧.

(٦) ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٨ ص ٢٧٣، مجهول « حوليات دمشقية » ص ٢٢، ابن العماد « شذرات الذهب » ح ٧ ص ٢١١، د. سعود محمد «الحياة الثقافية» ص ٣١٠ وما بعدها .

٥ ـ العلماء والمكتبات

لم تكن المكتبة ـ فى العصر المملوكى ـ مؤسسة علمية قائمة بذاتها، ولكنها كانت تابعة ومساعدة للمؤسسات العلمية القائمة آنذاك، وهى المدارس، والمساجد، والخانقاوات، حيث ألحقت المكتبات بتلك المؤسسات مثل مكتبة المدرسة المحمودية[(١)]، ومكتبة الجامع الأزهر[(٢)] ـ بمصر ـ، ومكتبة المدرسة الضيائية[(٣)]، ومكتبة الجامع الأموى[(٤)] ـ بدمشق ـ، ومكتبة المدرسة النورية[(٥)]، ومكتبة جامع منكلى بغا[(٦)] ـ

(١) **المدرسة المحمودية**: أسس هذه المدرسة الأمير محمود بن على الاستادار «ت ٧٩٩هـ»، ووقف عليها مجموعة كبيرة من الكتب، وظلت هذه المدرسة باقية حتى عصر المقريزى «ت ٨٤٥هـ»، وكانت مكتبتها تضم فى العقد الثانى من القرن التاسع «قرابة أربعة آلاف مجلد»، كما ذكر السخاوى «ت ٩٠٢هـ»، انظر: عبد الرحمن سليمان «الحياة العلمية فى القرنين السابع والثامن» ص ١٦٧، د. عبد الوهاب حمودة «صفحات من تاريخ مصر فى عصر السيوطى» ص ١٠٢.

(٢) **الجامع الأزهر**: أول مسجد أسس بالقاهرة، والذى أنشأه القائد جوهر الصّقْلى، مَوْلى المعز لدين الله بن المنصور بن المهدى الفاطمى، لما اختط القاهرة، واكتمل بناؤه لتسع خلون من شهر رمضان سنة إحدى وستين وثلاث مائة، وكان منارة دينية وعلمية فى عهد المماليك، انظر: المقريزى «المواعظ والاعتبار» ح ٤ ص ٩٠ – ١٠٦.

(٣) **المدرسة الضيائية**: هى المدرسة الضيائية المحمدية، تقع بسفح جبل قاسيون شرقى الجامع المظفرى، بناها الفقيه ضياء الدين محمد، وكان الإنشاء عام ٦٢٠هـ، ولهذه المدرسة خزانة كتب أوقفها مُنشئها ضياء الدين محمد «ت ٦٤٣هـ» على أهل الحديث والفقهاء، انظر: النعيمى «الدارس فى تاريخ المدارس» ح ٢ ص ٩١، د. حسن شميسانى «مدارس دمشق فى العصر الأيوبى» ص ١٦٧.

(٤) الجامع الأموى: انظر: ص ٣٥٢.

(٥) **المدرسة النورية**: وقف نور الدين محمود زنكى عام ٥٤٣هـ خزانة كتب على مدرسته النورية بحلب، وجعل لها خازنًا، وكانت هذه الخزانة موجودة فى العصر المملوكى، انظر: د. عبد الرحمن سليمان «الحياة العلمية فى القرنين السابع والثامن» ص ١٠٣.

(٦) **جامع منكلى بغا**: أنشأ هذا الجامع منكلى بغا سنة ٧٦٧هـ، ووقف عليه كتبًا نفيسة، ويُذكر أن الكتب وضعت فى خزائن متقنة محكمة، فيها الصنائع القديمة، انظر: د. عبد الرحمن سليمان «الحياة العلمية» ص ١٠٣.

بحلب[1] .

ولقد لعبت المكتبات دورًا هامًا فى تشجيع وتنشيط الحياة العلمية فى العصر المملوكى ، حيث أن الكتب لم تكن منتشرة ، ولم يكن باستطاعة الكثيرين شراءها نظرًا لارتفاع أثمانها ، وقلة عدد الموجود منها ، فلقد كانت جميع الكتب مخطوطة تعتمد على النسخ اليدوى ، مع غلاء مواد الكتابة من الأوراق ، والأقلام ، والمداد[2] .

ومن هنا كانت المكتبات العون الرئيسى للمدرسين والطلبة فى البحث ، والدراسة ، والاستزادة من العلم .

ولقد كانت القوى العاملة فى تلك المكتبات ـ فى العصر المملوكى ـ فئات ثلاث ، خازن الكتب ، وفئة المناولين[3] ، وفئة الوراقين[4] ، والذى يعنينا ـ فى موضوع البحث ـ الفئة

---

(١) د. أحمد حطيط « قضايا من تاريخ المماليك السياسى والحضارى » ص ٢٢٤، دار الفرات ، بيروت ، ط ١ (٢٠٠٣م) ، د. عدنان محمد « عمارة المدرسة فى مصر والحجاز فى القرن التاسع الهجرى » ص ٣٩٦، جامعة أم القرى ، ١٤١٧هـ ، د. عبد الرحمن سليمان « الحياة العلمية فى القرنين السابع والثامن » ص ٩٠، د. عادل عبد الحافظ « نيابة حلب » ص ١٩٨، عبد الغنى محمود « التعليم فى مصر زمن الأيوبيين والمماليك » ص ٢٠٤، على محمد « دولة الظاهر برقوق وأسرته فى مصر » ص ٢٣٤، دكتوراة ، دار العلوم ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٧م .

(٢) د. زبيدة محمد عطا « مكتبات المدارس « خزانة الكتب » فى العصرين الأيوبى والمملوكى » ص ٢٠٣، بحث ضمن أبحاث ندوة « المدارس فى مصر الإسلامية » التى عقدت بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية من ٢٢ ـ ٢٥ أبريل ١٩٩١م ، وأعدها للنشر د. عبد العظيم رمضان ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، د. مجاهد توفيق « الحركة العلمية » ص ٣٥٩، عبد الغنى محمود « التعليم فى مصر » ص ٢٠٤، ٢٠٥.

(٣) **فئة المناولين :** المناول صاحب وظيفة وسط بين وظيفتى الخازن والفراش فى المكتبة المملوكية ، ولا يمكن الاستغناء عنه ، فهو مساعد الخازن ، ويقوم بإرشاد القراء إلى مواضع الكتب وإحضارها من الخزانة إلى من يرغب منهم فى القراءة أو النسخ وغير ذلك ، ثم يقوم بإرجاعها إلى الخزانة أو الرفوف لوضعها فى أماكنها بعد فراغهم منها ، انظر : السيد السيد النشار « تاريخ المكتبات فى مصر العصر المملوكى » ص ١٤٥، الدار المصرية اللبنانية ، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م ، القاهرة .

(٤) **فئة الوراقين :** تضم هذه الفئة النساخ ، والخطاطين ، والمجلدين وغيرهم ممن اتخذوا الوراقة حرفة لهم ، وهذه الفئة هى التى قامت بنسخ التراث العلمى والأدبى وصيانته ، فقام النساخ بعمل آلة الطباعة والتصوير =

الأولى وهى خازن الكتب ، حيث كانت هذه الوظيفة قاصرة على العلماء ، فلقد اشترطت غالب الحجج الشرعية[1] فى خازن الكتب أن يكون من أهل العلم ؛ لتكون له دراية بالكتب ، ومعرفة محتوياتها ، حيث يقوم بإرشاد من يطلب منه مساعدته فى اختيار الكتب التى تعينه فى بحثه ودراسته ، فوظيفة خازن الكتب وظيفة تربوية تعليمية توجيهية تهدف إلى تعريف الطلبة تراثهم ، وتوجيههم إلى مصادر المعرفة ، وإعانتهم على تحصيلها ، مع معرفته وتقديره لقيمة الكتب التى يتولى الإشراف عليها ، الأمر الذى يجعله حريصًا على المحافظة عليها وصيانتها[2] .

ويتأكد ذلك ـ أيضًا ـ بتبع أسماء « خازن الكتب » بالمكتبات المملوكية ، حيث نجد أنه كان هناك حرص من جانب الواقف أو الناظر من بعده على إسناد وظيفة الخازن إلى شخصية علمية، فقد تولى ـ على سبيل المثال ـ العالم ابن حجر العسقلانى[3] « ت ٨٥٢هـ » وظيفة خازن الكتب بالمدرسة المحمودية[4] ، والعالم محمد الجلالى[5] « ت ٨٦٠هـ » الذى كان خازنًا بالمدرسة ذاتها[6] ، ونجم الدين الزرعى[7] « ت ٨٧٦هـ » ،

= فى العصر الحاضر ، وأمدوا المكتبات باحتياجها من الكتب ، انظر : السيد السيد النشار « تاريخ المكتبات فى مصر » ص ١٤٨.

(١) مثل وثيقة السلطان فرج بن برقوق ت (٨١٥هـ) رقم ٦٦ محفظة (١١) ، ووثيقة السلطان قانصوه الغورى برقم (٨٨٣) أوقاف ، انظر : السيد السيد النشار « تاريخ المكتبات » ص ١٣٩، عبد الغنى محمود « التعليم فى مصر زمن الأيوبيين والمماليك » ص ٢٠٨.

(٢) السيد السيد النشار « تاريخ المكتبات » ص ١٣٩، مجاهد توفيق « الحركة العلمية » ص ٣٦٢، عبد الغنى محمود « التعليم فى مصر » ص ٢٠٨، د. زبيدة محمد « مكتبات المدارس فى العصرين الأيوبى والمملوكى » ص ٢٢٠.

(٣) ابن حجر العسقلانى : انظر : ص ٣٣٦.

(٤) د. عصام الدين عبد الرؤوف « السيوطى » ص ١٠٨، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٨م ، السيد السيد « تاريخ المكتبات » ص ١٩٨.

(٥) محمد الجلالى : محمد بن على ، تفقه على شيوخ عصره ، درس ، وتولى خزانة كتب المحمودية ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٨ ص ٢٢٨.

(٦) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٨ ص ٢٢٨.

(٧) نجم الدين الزرعى : محمد بن عبد الله ، تفقه على شيوخ عصره ، درس بجامع ابن طولون ، وتولى إفتاء دار العدل ، توفى ٨٧٦هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٨ ص ٩٦.

الذى كان خازنًا للكتب بالمدرسة الباسطية[(١)(٢)] ، وإبراهيم القلقشندى[(٣)] « ت ٨٩٨هـ » الذى كان خازنًا للكتب بالمدرسة الأشرفية[(٤)] .

ومن علماء دمشق الذين تولوا وظيفة خازن كتب بالمؤسسات العلمية المملوكية ، ناصر الدين محمد[(٥)] « ت ٨٤١هـ » الذى كان خازنًا بمكتبة المدرسة السابقية[(٦)] ، وشمس الدين ابن طولون[(٧)] « ت ٩٥٣هـ » الذى كان خازنًا بمدرسة[(٨)] أبى عمر[(٩)] .

ولقد كانت مهام خازن الكتب ، إرشاد القراء إلى ما يناسبهم من مراجع ، وهذا ما فعله ابن حجر العسقلانى[(١٠)] « ت ٨٥٢هـ » ، عندما كان خازنا بمكتبة المدرسة المحمودية ، فقد كان لا يأتيه مستعير كتابًا إلا دلّه عليه ، وفى الدلالة إرشاد وتوجيه ، وهذه الخدمة يمكن أن نطلق عليها ـ بالمصطلح المعاصر ـ « الإرشاد الببليوجرافى »[(١١)] ، كذلك كان من مهام

---

(١) المدرسة الباسطية : أنشأها القاضى عبد الباسط خليل « ولد عام ٧٨٤هـ » عام ٨٢٣هـ ، انظر : عادل شريف «اللوحات التأسيسية» ص ٨٨ ، ٢٢٩ .

(٢) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٨ ص ٩٦.

(٣) إبراهيم القلقشندى : إبراهيم بن على ، تفقه على شيوخ عصره ، درس الحديث ، والتفسير ، ولد ٨٣١هـ ، وتوفى ٨٩٨هـ ، انظر السخاوى « الضوء » ح ١ ص ٧٧.

(٤) السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ٧٨.

(٥) ناصر الدين محمد : محمد بن سعد ، تفقه على شيوخ عصره ، وكان عالمًا فاضلًا ، تولى خزانة مكتبة المدرسة السابقية ، توفى ٨٤١هـ ، انظر : البقاعى « عنوان الزمان » ح ٢ ص ٤٧١.

(٦) البقاعى « عنوان الزمان » ح ٢ ص ٤٧١.

(٧) ابن طولون : محمد بن على ، تفقه على شيوخ عصره و برع فى علوم عدة ، أبرزها الحديث ، درس ، توفى ٩٥٣هـ ، انظر : ابن العماد « شذرات الذهب » ح ٨ ص ٢٩٨ .

(٨) مدرسة أبى عمر : أو المدرسة العمرية ، أنشأها العالم أبو عمر محمد بن أحمد بن قدامة سنة ٥٥٥هـ بمدينة الصالحية ، انظر النعيمى « الدارس فى تاريخ المدارس » ح ٢ ص ١٠٠، ابن طولون « تاريخ الصالحية » ص ٢٤٨، د. قتيبة الشهابى « النقوش الكتابية فى أوابد دمشق ، ص ١٦٧.

(٩) ابن طولون « الفلك المشحون فى أحوال محمد بن طولون » ص ٢٣، مكتبة القُدسىّ والبُدير ، دمشق ، ١٣٤٨هـ .

(١٠) ابن حجر العسقلانى : انظر : ص ٣٣٦.

(١١) السيد السيد النشار « المكتبات فى العصر المملوكى » ص ٢١٠.

الخازن تنظيم الكتب وترتيبها فى الخزانة ، وهذا ما قام به ابن حجر العسقلانى « ت ٨٥٢هـ » ، حيث وضع فهرسًا هجائى بعناوين وأسماء الكتب ، وفهرس آخر بالموضوع وهذا ييسر الوصول إلى الكتب بسرعة من جانب المستفيدين[١] ، وكان من مهامه ـ أيضًا ـ الحفاظ على محتويات المكتبة ، فيتعهد الكتب من حين لآخر ، ويصلح ما أصابها من تلف ، ولا يعيرها[٢] إلا لمن ليس قادرًا على اقتنائها[٣] .

(١) السيد السيد النشار « تاريخ المكتبات » ص ١٧٨، د. عصام الدين عبد الرؤوف « السيوطى » ص ١٠٨.

(٢) كانت الاستعارة فى المكتبات المملوكية نوعان ، استعارة داخلية لطلبة العلم والمدرسين القاطنين بالمؤسسة العلمية ، حتى ينهلوا مما تحتويه مكتبة المؤسسة العلمية من ذخائر الكتب ، وكان هناك الاستعارة الخارجية ، وكانت تلك الاستعارة مرهونة بشروط منها أن يقدم فى الاستعارة الفقراء الذين يصعب عليهم تحصيل الكتب على الأغنياء ، كما كان يشترط كثير من الواقفين ألا يخرج الكتاب إلا برهن ، ولقد ألّف جلال الدين السيوطى « ت ٩١١هـ » رسالة بعنوان « بذل المجهود فى خزانة محمود » كتبها عام ٨٦٧هـ ، حاول فيها أن يجد مفرًا من شروط الواقفين الذين كانوا يشترطون منع إخراج الكتب الموقوفة من المكتبة ، انظر : د. على السيد « القدس فى العصر المملوكى » ص ١٧٠، السيد السيد « تاريخ المكتبات » ص ٢٠٨، د. زبيدة محمد « مكتبات المدارس » ص ٢٢١.

(٣) د. أحمد حطيط « قضايا فى تاريخ المماليك » ص ٢٢٤، د. على السيد « القدس فى العصر المملوكى » ص ١٧٠، د. أحمد حطيط « التعليم بدمشق » ص ٣٥١، السيد السيد « تاريخ المكتبات » ص ١٣٨، مجاهد توفيق « الحركة العلمية » ص ٣٦٤.

« الخاتمة والنتائج والتوصيات »

لقد انتهت هذه الدراسة إلى إثبات ما افترضه الباحث فى مقدمة دراسته بشأن ماهية الدور الذى قام به علماء مصر والشام فى المجتمع المصرى والشامى ، كما انتهت إلى جملة من النتائج تخالف ما استقر لدى كثير من الباحثين من آراء عن هامشية وسلبية الدور الذى قام به علماء مصر والشام إبان العصر المملوكى ، وأخيرًا طرحت تساؤلين تولدا عن البحث حول ما استقر عليه العلماء بشأن مسألة التغلب كآلية للوصول إلى الحكم وموقف العلماء من ذلك ، وكذا ما استقر عليه العلماء بشأن كيفية التعامل مع انحراف السلطة المملوكية فى أداء مهامها وواجباتها المنوطة بها .

أولًا بشأن ماهية الدور الذى قام به علماء مصر والشام فى المجتمع المصرى والشامى فى العصر المملوكى ـ القرن التاسع الهجرى ـ ، فلقد أثبتت الدراسة ـ بفصولها ومباحثها ـ أن ماهية الدور الذى قام به علماء مصر والشام هى فى جوهرها حمل الرسالة التى بعث الله بها نبيه سيدنا محمد ﷺ ، أى الإسلام ـ والذى يعنى الاعتقادات والعبادات والمعاملات شخصية كانت أو جماعية ، سياسية أو اقتصادية ... إلخ ، كما أنه هو الذى ينظم العلاقة بين عناصر المجتمع الإسلامى « السلطة الحاكمة ، العلماء « أهل الحل والعقد » ، الرعية » ، وهو مصدر الولاء والانتماء ووحدة المجتمع وتماسكه ، وهو كذلك الضابط الاجتماعى لذلك المجتمع الذى به ينتظم سلوك المجتمع المسلم وتصرفاته الاجتماعية إزاء مواقف الحياة المختلفة ، فضلًا عن أنه الوازع الذى يدفع عناصر المجتمع الإسلامى بعضها عن بعض .

والإسلام بالمعنى السابق الذكر ذو تأثير اجتماعى كبير فى المجتمع المسلم ، ومن هنا كان توصيف دور علماء مصر والشام بتلك الصفة دون غيرها من الصفات ، تلك الصفة التى هى ثمرة تطبيق المجتمع المسلم مبادئ الإسلام ، والتى يحملها ويحرسها ويحميها العلماء ، حيث امتد هذا الدور ـ بالمعنى السابق ـ ليشمل جوانب الحياة المختلفة بمصر والشام ـ « السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والدينية ، والفكرية » ـ .

أمّا عن أهم النتائج التى انتهت إليها هذه الدراسة ، فهى ما يلى :

(١) إن علماء مصر والشام مارسوا مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تجاه السلطة المملوكية ، حيث جاهدوا تلك السلطة بلسانهم لإزالة المظالم المالية التى فرضوها على المصريين والشاميين ، كذا جهادهم لإقصاء الإداريين الذين عانى المصريين والشاميين من ظلمهم وسوء إدارتهم ، كما شارك العلماء المصريين والشاميين ثوراتهم ضد الولاة والنواب الجائرين .

(٢) لقد جاهد وناضل علماء مصر والشام لدفع الأخطار الخارجية التى هددت أمن المجتمع المصرى والشامى ، والتى كان أهمها « المغول ، الصليبيون ، التركمان » ، حيث قاموا بتعبئة المصريين والشاميين للإنضمام إلى صفوف الجيش المملوكى لصد تلك الأخطار ، وخرجوا بأنفسهم مع الجيش المملوكى للقتال ضد أعداء البلاد ، ورابطوا بالثغور لصد غارات الصليبيين .

(٣) شارك علماء مصر والشام فى الجهاز الإدارى للدولة المملوكية ، حيث شغلوا الولايات الدينية من قضاء ، وحسبة ، ووكالة بيت المال ، وقضاء العسكر ، ونظر البيمارستان ، كما شغلوا بعض الولايات الديوانية ، ككتابة السر ، ونظر الجيش ، وأبدوا كفاءة ملحوظة فى القيام بأعباء تلك الولايات جميعها .

(٤) كان لعلماء مصر والشام دور لضبط حرية المجتمع « حكام ـ محكومين » فى ممارسة النشاط الاقتصادى وجعله منضبط بمطلوب الشرع ، حيث كانت لهم جهودهم فى تنظيم المعاملات المالية والاقتصادية للمصريين والشاميين ، كما قدموا الآراء والأفكار الرائدة فى الاقتصاد لإصلاح أحوال المجتمع الاقتصادية ، وكذا آرائهم حول أحكام بيت المال « موارده ـ مصارفه » فى الشرع الحنيف من ناحية ، ومدى التزام أو مخالفة السلطة المملوكية لتلك الأحكام من ناحية أخرى ، كما كانت لهم جهودهم فى تنمية الحياة الاقتصادية وتطويرها ، كما حدث ـ على سبيل المثال ـ فى تثمير أموال الأوقاف ، وإصلاح العملة ، وضبط الأسواق .

(٥) كان لعلماء مصر والشام دور فى تنقية المجتمع المصرى والشامى من الأمراض

الاجتماعية الخبيثة والرذائل الأخلاقية ، كتعاطى الخمر والحشيش ، وممارسة البغاء والشذوذ الجنسى .

(٦) كان لعلماء مصر والشام دور فى تخفيف ما عاناه المصريين والشاميين من الفقر والحرمان فى ظل الدولة المملوكية ، حيث إنهم قاموا ـ من خلال ولايتهم للقضاء ـ بحفظ أصول الأوقاف وعمّروها وثمرّوا أموالها ، مما عاد بعظيم النفع على الفقراء والمساكين المستفيد الكبير من ريع تلك الأوقاف ، كما قام العلماء بأنفسهم برعاية الفقراء وسد حوائجهم من طعام وكساء وغير ذلك ، كما قاموا بتوزيع أموال الأغنياء ـ نيابة عنهم ـ على الفقراء ، وحثّوا الأغنياء على الإنفاق على الفقراء .

(٧) ساهم علماء مصر والشام فى حركة العمران ، حيث أنشأوا المدارس والمساجد ، والزوايا ، والخانات ، والسبل ، وأبراج المرابطة .

(٨) تصدى علماء مصر والشام بحزم للطوائف المنحرفة التى حاولت القدح فى الإسلام وثوابته ، كمبتدعة الصوفية ، والزنادقة ، وغلاة الشيعة .

(٩) حارب علماء مصر والشام البدع التى عانى منها المجتمع المصرى والشامى ، كالاعتقاد فى التنجيم والسحر ، والجان ، والبدع المرتبطة بالقبور ، والتى كان منها شد الرحال لزيارة قبور الأنبياء والصالحين ، والتشفع لهم ، والنذر على قبورهم .

(١٠) عقد علماء مصر والشام المجالس الدينية بالمساجد لنصح ووعظ المصريين والشاميين ، وتعليمهم أمور دينهم ، كما قاموا بوعظ السلطة المملوكية ، وحثها على العدل مع الرعية ، وحفظ أموال المسلمين ، وتتبع أحوال النواب وأخبارهم ، وتجنب مجالس اللهو ، ومعرفة أمور الرعية قليلها وكثيرها .

(١١) تصدى علماء مصر والشام بشكل حازم للمحاولات التى قام بها أهل الذمة بإقامة بعض الأبنية المحدثة بكنائسهم ، مخلفين بذلك حكم الإسلام فى ذلك الأمر ، كما حاربوا مشاركة أهل الذمة فى الجهاز الإدارى للدولة .

(١٢) شارك علماء مصر والشام مشاركة فاعلة فى الحركة الفكرية فى القرن التاسع ، وكان لهم دور فى تنميتها وإثراء جوانبها ، حيث درسوا العلوم الدينية كالقراءات ،

والتفسير ، والفقه ، والحديث ، كما صنّفوا المؤلفات العلمية الرصينة فى تلك العلوم .

أمّا التساؤلان اللذان تولدا عن البحث ، فبالنسبة للتساؤل الأول ، وهو ما استقر عليه علماء مصر والشام بشأن مسألة التغلب كآلية للوصول إلى الحكم وموقف العلماء من ذلك ؟

إن السلطة الحاكمة ، وهى السلطة المملوكية ـ فى الدراسة ـ قامت واستمر تداول السلطة فيها على مبدأ القهر والتغلب والقوة ، فالنظام المملوكى هو نظام عسكرى يستمد قوته الحقيقية من الأرستقراطية الحربية التى أوصلته إلى الحكم ، والسلطان فى ذلك النظام لا يخرج عن كونه أميرًا مميزًا بين الأمراء مكنته قوته وكثرة مماليكه وتحالف الأمراء معه من التفوق على أقرانه والوصول إلى منصب السلطنة ؛ ولذلك كان هذا السلطان بمجرد وصوله لكرسى الحكم يغدق الأموال والمناصب الإدارية الكبرى بالدولة على حلفائه الذين ساندوه للوصول إلى كرسى الحكم ، وأنه لما كان التصور الإسلامى يرى أن الكيفية التى يتم بها تأسيس السلطة وتداولها يقوم على الشورى ، فكان إهدار قيمة الشورى بالمجتمع المسلم ينجم عنه خرقًا كبيرًا بذلك المجتمع ، وسلبيات كثيرة يجنيها ذلك المجتمع ـ ككل ـ ، حيث هناك علاقة وثيقة بين الكيفية التى يتم بها تأسيس السلطة وتداولها ـ فى المفهوم الإسلامى ـ وبين طبيعة ممارساتها لواجباتها ـ والتى هى فى جوهرها حراسة الدين وتطبيق مبادئه ـ ، حيث لا يتصور أن الحاكم المتغلب الذى وصل إلى السلطة بالغلبة والقهر مهدرًا مبدأ الشورى الذى أوجبه الإسلام هو نفسه الذى سيمارس واجباته كما حددها الإسلام .

وهذا التصور العقلى والمنطقى أثبته الواقع التاريخى فى العصر المملوكى ، فقد كانت السلطة المملوكية لا يعنيها من شؤون رعيتها أكثر من جمع الأموال سواء باستنزاف ثروات البلاد التى تحكمها ، أو باستنزاف أموال هؤلاء الرعية فضلًا أن منطق القوة الذى قامت عليه السلطة المملوكية أغرى أعضاء تلك السلطة للإنقلاب على قائدهم الأعلى طمعًا فى الغنائم التى يتمتع بها والتى تفوقهم بالطبع ، فتُدبر المكائد والانقلابات وتُثار الفتن والقلاقل ، ويتقاتل هؤلاء المماليك مع بعضهم البعض .

ولقد طرح علماء مصر والشام إزاء مسألة التغلب والقوة كآلية لوصول المماليك إلى

السلطة والحكم اجتهاد فقهى ، مضمونه أنه إذا كانت الشورى هى السبيل الشرعى لتداول السلطة فى الإسلام ، لكن الواقع التاريخى عقب عهد الراشدين عرف نظام ولاية العهد ـ الذى يعتبر افتئاتًا على حق الرعية فى اختيار حاكمها ، وترسيخًا لمبدأ القوة والتغلب كسبيل لتداول السلطة ـ ، فرأى العلماء الاعتراف بتلك السلطة المتغلبة استنادًا لمبدأ الضرورة ـ التى أوضحها الفقهاء بأنها تُلْجِأ إلى المحظور وتجعله مباحًا ـ ، حيث أن الخروج على المستولى بالسلطة بالقوة ، وعدم الاعتراف بولايتها سيؤدى إلى كثرة الفتن وسفك الدماء ، وتلك مفاسد يجب درئها سواء بارتكاب أخف الضررين ، أو بتفويت مصلحة مقابل درء مفسدة . وهذا الاجتهاد الفقهى الذى طرحه العلماء إزاء مسألة التغلب أغفل العلاقة الوثيقة بين الكيفية التى يتم بها تأسيس السلطة وتداولها وبين طبيعة ممارسة تلك السلطة لواجباتها ـ والتى هى فى جوهرها حراسة الدين وتطبيق مبادئه ، حيث إن وصول سلطة متغلبة إلى الحكم فى المجتمع المسلم سينعكس بشكل مباشر على طبيعة أدائها السياسى وطبيعة ممارساتها لوظائفها والتى ستكون مخالفة بشكل كبير لما أراده الإسلام منها ـ أى من تلك السلطة ، وهذا ما حدث تاريخيًا بشأن السلطة المملوكية ، وهنا يُثار تساؤلًا عن صحة وواقعية الاجتهاد الذى طرحه العلماء إزاء مسألة التغلب والقوة كآلية للوصول إلى السلطة ، والاعتراف بتلك السلطة المتغلبة استنادًا لمبدأ الضرورة ؟!! .

أمّا بالنسبة للتساؤل الثانى ، وهو ما استقر عليه علماء مصر والشام بشأن كيفية التعامل مع انحراف السلطة المملوكية فى أداء مهامها وواجباتها المنوطة بها ؟

إن القيام بمبدأ « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » كان هو الآلية التى قام بها العلماء إزاء انحراف السلطة المملوكية فى أداء مهامها وواجباتها المنوطة بها ، ولقد اتخذ قيام العلماء بهذا المبدأ ثلاثة أشكال ، أولها جهاد السلطة باللسان ، وهو يمثل الجانب الأكبر من ممارسة العلماء لمبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ـ ، ولقد أثمر ثمارًا طيبة أوضحها الباحث فى دراسته ، ولقد عضدّ العلماء فى القيام بهذا الجهاد باللسان المصريين والشاميين ، حيث كانوا ظهيرًا وسندًا قويًا تترس به العلماء وهم يأمرون السلطة المملوكية بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ـ كما أوضحت الدراسة ـ ، أما الشكل الثانى فهو الدعوة والمشاركة فى ثورات المصريين والشاميين ضد السلطة الحاكمة لكفها عن مظالمها وجبروتها الذى كان يزداد حدته

فى أحيان غير قليلة ، فكانت ثورات المصريين والشاميين رد فعل مناسب وفعال إزاء ذلك الظلم ، غير أن هذه الثورات التى قام بها المصريين والشاميين سواء كانت بدعوة العلماء لها ، أو مشاركة العلماء فيها بعد قيامها وتأجيج شعلتها كانت محدودة ، أما الشكل الثالث فتمثل فى دعوة العلماء ومشاركتهم لخلع السلطان المملوكى عندما يبلغ من الجور والفسق حدًا لا يمكن الصبر عليه أو السكوت عنه ، حيث رأى فريق من علماء مصر والشام ـ وليس غالبية علماء مصر والشام ـ أن السلطان عندما يُسرف فى الظلم ويتجاهر بالمعاصى يجب عزله ، ولكن ذلك يكون من خلال الاستعانة بـ « أهل الشوكة » أولئك الذين يملكون مقومات القوة العسكرية فى تلك الدولة حتى يتيسر لهم خلع السلطان دون إراقة الكثير من الدماء ، وهذا ما ظهر فى خلع السلطان فرج بن برقوق عام ٨١٥هـ .

ويظهر مما سبق أن غالب علماء مصر والشام كانوا ينتمون لمدرسة الصبر التى لا تجيز الخروج على السلطة الحاكمة الجائرة بالقوة « اليد » ، وأنه يجب الصبر على تلك السلطة الجائرة ، وذلك خوفًا من الفتن ، وأن معارضة الحاكم الجائر تقتصر على اللسان فقط ، كما ظهر فى أدبياتهم السياسية والواقع التاريخى فى القرن التاسع ، أما أنصار « مدرسة التمكن » من علماء مصر والشام فكانوا قليل وهم الذين يرون أن الخروج على السلطة الجائرة بالقوة « اليد » والثورة عليها أمر جائز شرعًا ، بل هو أمر واجب ، ولكن بشرط الموازنة بين المصالح والمفاسد عند الخروج على السلطة الجائرة ، وامتلاك الثائرين القوة والقدرة إزاء السلطة الجائرة .

وهنا يثار تساؤلًا هل كان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر « الجهاد باللسان » فقط ـ مذهب مدرسة الصبر ـ هو السبيل الصحيح والفعال فى تقويم الأداء السياسى للسلطة المملوكية ، وجعلها تقوم بوظائفها المنوطة بها شرعًا(*) ؟!!.

(*) نعم استطاع الجهاد باللسان فقط « مذهب مدرسة الصبر » تقويم أداء السلطة السياسى وجعلها تقوم بوظائفها المنوطة بها شرعًا أحيانًا ، ولكنه فشل فى تحقيق ذلك أحيان غير قليلة ، حيث كان المجتمع المصرى والشامى فى جوانبه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية فى العصر المملوكى ملئ بالسلبيات والتى رصدتها الدراسة فى فصولها ومباحثها .

وأخيرًا فإن ضياع قيمة الشورى فى تأسيس السلطة الحاكمة بالمجتمع المسلم، ثم ضياعها ـ بالطبع ـ من قبل تلك السلطة التى اغتصبت الحكم بالقوة هو مسؤولية العلماء والرّعية على السواء، فالعلماء واجبهم توعية الرعية بأهمية قيمة الشورى، وعدم التخاذل فى الدفاع عنها، والرعية عليها الاستجابة والطاعة التامة للعلماء فى ذلك الشأن الخطير، فالشورى هى مسؤولية المجتمع المسلم كافة، وضياعها ليس مسؤولية حاكم فرد مهما بلغ طغيانه، فلقد أنحى القرآن الكريم باللائمة على قوم فرعون الذين قبلوا الطاعة له مع تجبره عليهم، واستخفافه بهم، قال تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤]، فالمجتمع الذى يقبل التبعية للكبراء مجتمع هالك لا محالة لأنه يفتقد تلك القوة المعنوية التى تُشعر الفرد بعزته وكرامته، وتعين المجتمع على تخطى الخطوب والنوازل[(١)].

(١) د. الطيب زين العابدين «خصائص الشورى الإسلامية فى المجتمع المعاصر» ص ٧٧، حولية الجامعة الإسلامية، إسلام آباد، عدد (١) ١٩٩٣م.

الملاحــق

« ملحق رقم ١ »

« نماذج من قضاة مصر العدول »

الاسم	المصدر
١ ـ ولى الدين العراقى « ت ٨٢٦هـ »	ابن الصيرفى « نزهة النفوس » ح ٣ ص ٣٤
٢ ـ جمال الدين البساطى « ت ٨٢٩هـ »	ابن حجر « رفع الأصر عن قضاة مصر » ص ٤٧٦
٣ ـ أحمد بن بكر « ت ٨٤٤هـ »	السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ٢٥٣
٤ ـ أحمد بن محمد « ت ٨٠٢هـ »	البقاعى « عنوان الزمان » ح ١ ص ٩٤
٥ ـ محمد بن أحمد « ت ٨٤٦هـ »	السخاوى « الضوء اللامع » ح ٧ ص ٧٤
٦ ـ محمد بن على « ت ٨٥٠هـ »	السخاوى « الضوء اللامع » ح ٨ ص ٢١٢
٧ ـ ابن حجر العسقلانى « ت ٨٥٢هـ »	البقاعى « عنوان الزمان » ح ١ ص ١٣٤
٨ ـ سعد الدين أبو السعادات « ت ٨٦٨هـ »	ابن طولون « الغرف العلية فى تراجم الحنفية » ص ٣٣١
٩ ـ ابن عبد الوارث « ت ٨٦٨هـ »	السخاوى « الضوء اللامع » ح ٤ ص ٩٠
١٠ ـ عز الدين أبو البركات « ت ٨٧٦هـ »	السخاوى « الذيل على رفع الأصر » ص ٣٥

« نماذج من قضاة بلاد الشام العدول »

قضاة دمشق	المصدر
١ ـ علاء الدين السبكى « ت ٨٠٩هـ »	ابن طولون « قضاة دمشق » ص ١٣٠
٢ ـ نجم الدين الحسبانى « ت ٨٣٠هـ »	ابن طولون « قضاة دمشق » ص ١٣٣
٣ ـ قوام الدين الرومى « ت ٨٥٨هـ »	ابن طولون « قضاة دمشق » ص ١٤٥
٤ ـ تاج الدين الزهرى « ت ٨٢٤هـ »	ابن طولون « قضاة دمشق » ص ١٤٧
٥ ـ شهاب الدين ابن المحمرة « ت ٨٤٠هـ »	ابن طولون « قضاة دمشق » ص ١٦٠
٦ ـ ابن قاضى شهبة « ت ٨٥١هـ »	ابن طولون « قضاة دمشق » ص ١٦٨
٧ ـ جمال الدين الباعونى « ت ٨٨٨هـ »	ابن طولون « قضاة دمشق » ص ١٧٢

قضاة حلب	المصدر
١ ـ شرف الدين أبو البركات « ت ٨٠٣هـ »	ابن قاضى شهبة « طبقات الشافعية » ح ٢ ص ٣٠٠
٢ ـ ناصر الدين البارزى « ت ٨٢٣هـ »	ابن قاضى شهبة « طبقات الشافعية » ح ٢ ص ٣٣٢
٣ ـ جمال الدين ابن العديم « ت ٨٤٩هـ »	البقاعى « عنوان الزمان » ح ١ ص ٤ « المخطوط »
٤ ـ شهاب الدين أحمد « ت ٨٧٩هـ »	ابن الحمصى « حوادث الزمان » ح ١ ص ٢٠٦
٥ ـ يوسف بن عبد الرحمن « ت ٩٠٠هـ »	ابن الطباخ « إعلام النبلاء » ح ٥ ص ٣٣٠

المصدر	قضاة حماة
المقريزى « در العقود » ح ٢ ص ٤٧٠	١ ـ علاء الدين الحموى « ت ٨٢٨هـ »
ابن قاضى شهبة « طبقات الشافعية » ح ٢ ص ٣٣٤	٢ ـ نور الدين الحموى « ت ٨٣٤هـ »
السخاوى « الضوء اللامع » ح ١٠ ص ٢٦	٣ ـ أبو عبد الله محمد « ت ٨٤٠هـ »
ابن مكى « السحب الوابلة » ح ٢ ص ٥١١	٤ ـ عبد الرحمن بن الكازرونى « ت ٨٩٥هـ »

المصدر	قضاة القدس
مجير الحنبلى « الأنس الجليل » ح ٢ ص ١١٤	١ ـ جمال الدين عبد الله « ولد عام ٧٨٠هـ »
مجير الحنبلى « الأنس الجليل » ح ٢ ص ٢٢٤	٢ ـ شمس الدين محمد « ولد عام ٧٨٣هـ »
البقاعى « عنوان الزمان » ح ١ ص ٢٢	٣ ـ شهاب الدين أحمد « ولد عام ٨١٠هـ »
مجير الحنبلى « الأنس الجليل » ح ٢ ص ١٣٣	٤ ـ برهان الدين إبراهيم « ت ٨٧٢هـ »
مجير الحنبلى « الأنس الجليل » ح ٢ ص ٢٦٦	٥ ـ شمس الدين العليمى « ت ٨٧٣هـ »

ملحق (٢)

* **مرسوم من قاضى الشافعية بدمشق برهان الدين السوبينى « ت ٨٥٨هـ » إلى نوابه بإبطال البراطيل « الرشاوى » التى كان القضاة يأخذوها .**

(١) بسم الله الرحمن الرحيم . بتاريخ سابع عشرين صفر سنة أربع وخمسين وثمانمائة ، ورد مرسوم كريم إلى بلاطنس وصهيون واللاذقية من مولانا وسيدنا قاضى القضاة شيخ الإسلام برهان الدين السوبينى – أسبع الله ظلاله – بإبطال ما أحدثه قضاة السوء من الأجرة .

(٢) ... قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أَحَدثَ فى أمرنا ما ليس فيه هو رَدٌّ عليه »[١] ، وهو ما يأخذه القضاة من الرسم على القضاء وهو من السحت الحرام كقوله عليه السلام « هدايا العمال غلول »[٢] .

(٣) ولعنة الله وسخطه وغضبه على من أخذ بعد فى مستقبل الزمان ولعن الله من يرتشى أو يأخذ على الأحكام أجرة ، ولعن الله كل قاضى يأخذ من قوس النصارى قدر ما أو شمعا ، أو يأخذ من البلاد بيدرية و ولعن الله من يأخذ على النساء من الأجناد وغيرهم حلوانا وهو البراطيل و ولعنه الله وسخمه الله وعذبه .

٤ ـ ... ما كان عليه قضاة السوء من الأمور المحرمة التى ترخصت ومن فعلها يغضب يا جبار – هكذا – ، يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه .

المصدر : د. أحمد عبد الرازق « البذل والبرطلة » ص ٢٠٩.

---

(١) هذا الحديث روته السيدة عائشة رضى الله عنها عن رسول الله ﷺ ، أنه قال : « مَنْ أَحَدثَ فى أَمرِنا هَذَا مَا لَيسَ مِنهُ فهو رَدٌّ » ، انظر : مسلم «صحيح مسلم» ح٣ ص ١٣٤٣ .

(٢) هذا الحديث رواه أحمد فى «المسند» ، وعلاء الدين الهندى «ت٩٧٥هـ» فى «كنز العمال» ، والطبرانى فى «المعجم الأوسط» وابن حجر العسقلانى فى «المطالب العالية» بهذه الرواية «هدايا العمال غلول» ، انظر : ابن حنبل «المُسند» ح ١٧ ص ٤٩، علاء الدين الهندى « ت ٩٧٥هـ» «كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال» ص ١١١ ، ابن حجر العسقلانى «المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية» ص ٩٥، الطبرانى «أبو القاسم سليمان ت ٣٦٠هـ» ، «المعجم الأوسط» ح ٥ ص ٢٩٤، ح ٨ ص ٥٩، دار الحديث ، القاهرة ، ط١ (١٤١٧هـ/١٩٩٦م) .

ملحق (٣)

وثيقة بيع من أملاك بيت المال خلال ولاية العالم شرف الدين الأنصارى « ت ٨٨١هـ » وكيل بيت المال بمصر ، الذى أشاد المؤرخون بنزاهته وعفته .

رقم الوثيقة : ٦٧٦ج ، محفوظات دفترخانه : وزارة الأوقاف بالقاهرة .

موضوع التصرف : بيع من أملاك بيت المال .

المتصرف : « المُشترى » : السيفى جقماس الإسحاقى .

البائع : بيت المال باسم السلطان قايتباى ، وكيله أبو عمران موسى بن على الأنصارى « وكيل بيت المال » .

المتصرف فيه : قطعة أرض بظاهر الثغر الأسكندرى تجاه باب رشيد .

الثمن : (٥٢) دينار من الذهب الأشرفى والظاهرى .

الإشهاد التوثيقى :

نوع الإسجال : حكمى .

تاريخه : ٥ جمادى الثانى ٨٧٨هـ .

القاضى الموثق : موسى بن محمد العزيزى الشافعى .

علامته : العزة لله ولرسوله .

المصدر : د. محمد محمد أمين « فهرست وثائق القاهرة » ص ٣٨٣ .

قائمة

المصادر والمراجع

أولًا : الوثائق :

١ ـ وثيقة بيع طاحونة ، وزارة الأوقاف ، رقم (٥١٧) يرجع تاريخها إلى القرن التاسع الهجرى(*) ، نشرها المعهد الفرنسى للآثار الشرقية فى دوريته Annales Islamologiques، عدد (٣٧) ، عام (٢٠٠٣) .

٢ ـ وثيقة بيع من أملاك بيت المال ، وزارة الأوقاف ، رقم (٦٧٦ج) ، بتاريخ ٥ جمادى الآخرة ٨٧٨هـ ، نشرها الدكتور محمد محمد أمين ، ضمن كتابه « فهرست وثائق القاهرة » ، المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ، القاهرة ، « د . ت » .

٣ ـ وثيقة حصر ميراث ، دير سانت كاترين رقم (٢٥٢) ، بتاريخ ٨٨٩هـ ، نشرها وحققها الدكتور قاسم عبده قاسم ، بالمجلة التاريخية ، التى تصدرها الجمعية التاريخية المصرين ، مج ٢٥، ١٩٧٨م .

٤ ـ وثيقة عقد نكاح ، بتاريخ ٦٨٩هـ ، نشرها الدكتور أحمد عبد الرازق ، بالمجلة العربية للعلوم الإنسانية ، الكويت ، عدد (٢٢) ، عام ١٩٨٦م .

٥ ـ وثيقة وقف السلطان المؤيد شيخ ، وزارة الأوقاف ، رقم (٩٣٨) ، بتاريخ ٤ جمادى الآخرة ٨٢٣هـ ، نشرها الدكتور عبد الغنى محمود ، ضمن ملاحق كتابه « التعليم فى مصر زمن الأيوبيين والمماليك » ، دار المعارف ، ٢٠٠٣م .

٦ ـ وثيقة وقف السلطان قايتباى ، دار الوثائق القومية رقم (٧٩٣٢ح) ، بتاريخ ٢٨ جمادى الآخرة ٨٧٩هـ ، نشرها أرثر بروستين ، ط (لندن) ، ١٩٣٨م .

٧ ـ وثيقة وقف السلطان قلاوون على البيمارستان المنصورى ، محكمة الأحوال الشخصية رقم (١٥/ ٢) ، نشرها وحققها الدكتور محمد محمد أمين ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٧٧م .

٨ ـ وثيقة وقف واستبدال بدمشق ، دار الوثائق القومية رقم ٢٢٧، محفظة (٣٦) ، بتاريخ ١١ شعبان ٩٠٥هـ ، ٩ شوال ٩٠٨هـ .

٩ ـ وثيقة وقف واستبدال بغزة ، دار الوثائق القومية رقم ٢٨١، محفظة (٤٣) ، بتاريخ ١٣ ذو الحجة ٩١٢هـ ، ٢٧ شعبان ٩١٩هـ .

(*) حيث تم عقد البيع بعد إذن وحضور قاضى الشافعية جمال الدين الطبندى « ت ٨٤٦هـ » .

ثانيًا : المخطوطات :

١ ـ ابن أرسلان « شهاب الدين أحمد « ت ٨٤٤هـ » » « لمع اللوامع فى توضيح جمع الجوامع » ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم مكروفيلم (٢١٧٤١) .

٢ ـ بدر الدين الزركشى « محمدبن بهادر » « ت ٧٩٤هـ » « زهر العريش فى تحريم الحشيش » ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، برقم (٧٢٥ فقه تيمور) ومكروفيلم (١٢٤٩٤) .

٣ ـ البقاعى « إبراهيم بن عمر ت ٨٨٥هـ » « إظهار العَصْر لإسْرَار أهل العَصْر » ، مخطوط بمعهد المخطوطات ، جامعة الدول العربية ، برقم (٨٩٢ تاريخ) .

٤ ـ البقاعى « رسالة فى الرد على فصوص ابن عربى » ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، برقم (٦٠١٩٤) .

٥ ـ البقاعى « عنوان الزمان بتراجم الشيوخ والأقران » مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (١٧٩٥١) .

٦ ـ ابن بيدكين « اللمع فى الحوادث والبدع » ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٤٨٧٣٠ مكروفيلم) .

٧ ـ تقى الدين البلاطنسى « أبو بكر بن محمد ت ٩٣٦هـ » « فتاوى شمس الدين البلاطنسى « ت ٨٦٣هـ » » ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم مكروفيلم (١٢٤٥٨) .

٨ ـ تقى الدين الحصنى « أبو بكر بن محمد ت ٨٢٩هـ » « سير السالك فى أسنى المسالك » ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، برقم (٨٥٩ تصوف) ، (١٧٤٩ تاريخ تيمور) .

٩ ـ تقى الدين الحصنى « أبو بكربن محمد « ت ٨٢٩هـ » » « قمع النفوس » ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٣٤٩٨٤) .

١٠ ـ ابن تيمية « أحمد بن عبد الحليم ت ٧٢٨هـ » « مجموع ابن تيمية » ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، برقم (٢٠٥٤٥ ب) (٢١١٤٣ مكروفيلم) .

١١ ـ الجرجاوى « محمد بن محمد ت ١٣٤٣هـ » « بغية المقتدين ومنحة المجدين على تحفة المهتدين فى بيان أسماء المجددين » ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (١٩٨٧ تاريخ) ، (١٠٦٤٧ مكروفيلم) .

١٢ ـ جلال الدين البلقينى « عبد الرحمن بن عمر ت ٨٢٤هـ » « التجرد والاهتمام » ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٤٣٥٣) .

١٣ ـ جلال الدين البلقينى «عبد الرحمن بن عمر ت ٨٢٤هـ» «ترجمة سراج الدين البلقينى»، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٥٠٣٦٠) .

١٤ ـ ابن جماعة «شرح مسألة المزارعة»، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٤٨٤ مجاميع) .

١٥ ـ ابن جماعة «محمد بن إبراهيم «ت ٧٣٣هـ»» «تحرير الأحكام فى تدبير أهل الإسلام»، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٣٠٤) .

١٦ ـ ابن حجر العسقلانى «أحمد بن على ت ٨٥٢هـ» «ضياء الأنوار فى فضل العلم والعلماء الأخيار»، مخطوط بمعهد المخطوطات برقم (١١٦ سياسة واجتماع) .

١٧ ـ ابن الحنبلى «محمد بن إبراهيم ت ٩٧١هـ» «بحر العوام فيما أصاب فيه العوام»، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٥١٤٧٦) .

١٨ ـ ابن الحنبلى «محمد بن إبراهيم «ت ٩٧١هـ»» «در الحبب فى أعيان حلب»، مخطوط بدار الكتب المصرية، برقم (١٨٤١٩) .

١٩ ـ الخالدى «من رجال القرن التاسع الهجرى» «المقصد الرفيع»، مخطوط بالمكتبة المركزية بجامعة القاهرة، برقم (٢٤٠٤٥) .

٢٠ ـ ابن خطيب الناصرية «ت ٨٤٣هـ» «الدر المنتخب فى تكملة تاريخ حلب»، مخطوط بمعهد المخطوطات برقم (١١٩٨) .

٢١ ـ ابن دقماق «ت ٨٠٩هـ» «الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين»، مخطوط بمعهد المخطوطات، برقم (٦٤٣ تاريخ) .

٢٢ ـ زكريا الأنصارى «ت ٩٢٦هـ» «تحفة الراغبين فى بيان أمر الطواعين»، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (١٤١ حديث تيمور، مكروفيلم (٢٢٢٧٣) .

٢٣ ـ زكريا الأنصارى «ت ٩٢٦هـ» «فتاوى زكريا الأنصارى»، مخطوط بدار الكتب المصرية، برقم (١١٩٠١) .

٢٤ ـ الزين أبو الروح «عبد الرحمن بن أبى بكر «ت ٨٥٦هـ»» «الكنز الأكبر فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر»، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٤٦٧٢٦) .

٢٥ ـ ابن زين القاضى ـ من رجال القرن التاسع ـ «شروط النصارى»، مخطوط بمعهد المخطوطات برقم (٢٩٢ تاريخ) .

٢٦ ـ السخاوى «شمس الدين محمد ت ٩٠٢هـ» «القول التام فى الرمى بالسهام»، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٢ فنون حربية) .

٢٧ ـ السلامى « شهاب الدين أحمد » « مختصر التواريخ » ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (١٤٣٥ تاريخ) .

٢٨ ـ السيوطى « جلال الدين عبد الرحمن ت ٩١١هـ » ، « ذم المكس » ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، برقم (١٤١٦ حديث) .

٢٩ ـ السيوطى « غرس الأنشاب فى الرمى بالنشاب » ، مخطوط بمعهد المخطوطات برقم (٢٩ فنون حربية) .

٣٠ ـ السيوطى « قضية جرت بين السيوطى ورجل من أهل الاتحاد » ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٤٠٩١٠) .

٣١ ـ ابن شاهين « عبد الباسط بن خليل « ت ٩٢٠هـ » » « الروض الباسم فى حوادث العمر والتراجم » ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٢٤٠٣) .

٣٢ ـ ابن شاهين « عبد الباسط بن خليل « ت ٩٢٠هـ » » « المعجم المفنن بالمعجم المعنون » ، مخطوط بمكتبة الإسكندرية برقم (٨٠٠ ب) .

٣٣ ـ ابن الشحنة « أحمدبن محمد « ت ٨٨٢هـ » » « لسان الحكام فى معرفة الأحكام » ، مخطوط بالمكتبة المركزية بجامعة القاهرة برقم (١٩٦٨٥) .

٣٤ ـ الشعرانى « عبد الوهاب « ت ٩٧٣هـ » » « ذيل الطبقات الكبرى » ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، برقم (٦٧٤ تاريخ تيمور) ، ومكروفيلم (٢٧٥٢٧) .

٣٥ ـ الشعرانى « عبد الوهاب ت ٩٧٣هـ » « رسالة فيمن يدعى المشيخة والولاية » ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، برقم (٧٧٧ تصوف) ، ومكروفيلم برقم (٣٧٣٥٧) .

٣٦ ـ شمس الدين البلاطنسى « ت ٨٦٣هـ » « الباعث على إنكار ما تجدد من الحوادث » ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٢١٩٧ تصوف) ، ومكروفيلم (٣٤٩٣٣) .

٣٧ ـ شمس الدين الكفرسوى « ت ٩٣٣هـ » « مجموع شرح فرايض المنهاج » ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٤٨٤ مجاميع) .

٣٨ ـ شهاب الدين الأقفهسى « أحمد بن عماد ت ٨٠٨هـ » « تسهيل المقاصد لزوار المساجد » ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (١٤٤٠ فقه شافعى) .

٣٩ ـ شهاب الدين الأقفهسى « إكرام من يعيش بمعرفة أحكام الخمر والحشيش » ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٢/١١٤ مجاميع) .

٤٠ ـ الطرسوسى « إبراهيم بن على ت ٧٥٨هـ » « تحفة الترك فيما يجب أن يعمل فى الملك » ،

مخطوط بمعهد المخطوطات برقم (٨٤ سياسة واجتماع) .
٤١ ـ طوغان شيخ المحمدى «ت ٨٨١هـ» « المقدمة السلطانية فى السياسة الشرعية » ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، برقم (٧٢٦) فقه حنفى ، ومكروفيلم برقم (١٧١٧٦) .
٤٢ ـ ابن طولون « شمس الدين محمد ت ٩٥٣هـ » « ذخائر القصر فى تراجم نبلاء العصر » ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، برقم (٢٥٣٦٤) .
٤٣ ـ ابن طولون « ضرب الحوطة على جميع الغوطة » مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٢٠٨١ تاريخ تيمور) .
٤٤ ـ ابن طولون « الغرف العلية فى تراجم متأخرى الحنفية » ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، برقم (١٣٣٢٤) .
٤٥ ـ عبد الصمد الصالح « هدية العبد القاصر إلى الملك الناصر » ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، برقم (٢٦٠٢) .
٤٦ ـ ابن عربشاه «ت ٨٥٤هـ» « سيرة جقمق » ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٢٥٩٢، ٢٥٩٣) .
٤٧ ـ ابن علوان « على بن عطية ت ٩٣٦هـ » «أسنى المقاصد فى بدع المساجد » ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٩٠ مجاميع تيمور) ومكروفيلم (١٧٨٢٨) .
٤٨ ـ ابن علوان « على بن عطية ت ٩٣٦هـ » « نسمات الأسحار فى مناقب الأولياء الأخيار » مخطوط بدار الكتب الظاهرية بدمشق ، برقم (٨٤٦٠) .
٤٩ ـ العينى « بدر الدين محمود ت ٨٥٥هـ » « عقد الجمان » « ٨٠٦ ـ ٨١٧هـ » ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، برقم (٣٥٠٩٥) .
٥٠ ـ الغزى « نجم الدين أبو المكارم « ت ١٠٦١هـ » » « بهجة الناظرين فى تراجم الشافعية المتأخرين » ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٣٦٠٠٣) .
٥١ ـ الغمرى « محمدبن عمر « ت ٨٤٩هـ » » « قواعد الصوفية » ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٢٦٢ تصوف) ، ومكروفيلم (٣٢٥٩٠) .
٥٢ ـ الكافياجى « محمد بن سليمان ت ٨٧٩هـ » « سيف الملوك والحكام » ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، برقم (٤٩٣١٣) .
٥٣ ـ ابن المبرد « يوسفبن الحسن « ت ٩٠٩هـ » » « ذم الهوى والذعر فى أحوال الزعر » ، مخطوط بدار الكتب الظاهرية بدمشق برقم (٧٣ أدب) .

٥٤ ـ محمد بن إبراهيم « ت ٨٩١هـ » « النور المبين فى الوعظ المتين » ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، برقم (٥٦٨٠٥) .

٥٥ ـ مرعى بن يوسف « ت ١٠٣٣هـ » « تنوير بصائر المقلدين فى مناقب الأئمة المجتهدين » ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، برقم (٢١٢٠ تاريخ) ، ومكروفيلم (٣٥٧٨٢) .

٥٦ ـ المقبلى « صالح بن مهدى من علماء القرن الحادى عشر » « العلم الشامخ فى إيثار الحق على الأباء والمشايخ » ، مخطوط بدار الكتب برقم (٢٤٠٢ تصوف) .

٥٧ ـ ابن ناصر الدين « شمس الدين محمد ت ٨٤٢هـ » « شرح بديعة البيان عن موت الأعيان من رجال الحديث » ، مخطوط بمعهد المخطوطات برقم (٢٩٠ تاريخ) .

٥٨ ـ ابن نجم الحنفى « أحمد بن زين « ت ٩٧٠هـ » » « الرسائل الزينية فى مذهب الحنفية » ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٢١٢٣ فقه حنفى) .

٥٩ ـ ابن نجيم « أحمدبن زين ت ٩٧٠هـ » التحفة المرضية فى الأراضى المصرية » ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٤٧٩ مجاميع) .

٦٠ ـ ابن النحاس « أحمد بن إبراهيم ت ٨١٤هـ » « مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق » ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٣٧٢٨٣) .

٦١ ـ النعيمى « محيى الدين عبد القادر ت ٩٢٧هـ » « مذكرات يومية » ، مخطوط بدار الكتب الظاهرية بدمشق ، برقم (٤٥٣٣ عام) .

٦٢ ـ ابن النقاش « محمدبن على » ، « المَذَمّة فى استعمال أهل الذمة » ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٣٩٥٢ تاريخ) ، ومكروفيلم (٣٥٣٩٥) .

٦٣ ـ ابن الهائم « أحمد بن محمد ت ٨١٥هـ » « نزهة النفوس فى التعامل بالفلوس » ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (١٠٧٣) فقه شافعى ، ومكروفيلم (٢٩٥٥٢) .

٦٤ ـ ولى الدين أبو زرعة « أحمد بن عبد الرحيم « ت ٨٢٦هـ » » « ذيل العبر للذهبى ٧٦٢هـ ـ ٧٨٦هـ » ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (١٢٥٦٠) .

٦٥ ـ ولى الدين أبو زرعة « أحمد بن عبد الرحيم ت ٨٢٦هـ » « فتاوى ولى الدين » ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (١٢٤٧٥) .

٦٦ ـ مجهول « تاريخ السلطان الأشرف قايتباى » ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٦١ تاريخ) .

٦٧ ـ مجهول « حوادث الزمان » ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (١٤٦١٨) .

ثالثًا : المصادر :

١ ـ أبى حامد المقدسى « ت ٨٩٣هـ » « الفوائد النفيسة الباهرة فى بيان حكم شوارع القاهرة فى مذاهب الأئمة الأربعة الزاهرة » ، تحقيق د . آمال العمرى ، سلسلة الثقافة الآثرية والتاريخية ، مشروع المائة كتاب ، (١٠) ، ١٩٨٨م .

٢ ـ ابن أبى العز الحنفى « على بن محمد ت ٧٩٢هـ » « شرح العقيدة الطحاوية » ، تحقيق أيمن محمد ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة ، « د . ت » .

٣ ـ أبى الفداء « عماد الدين إسماعيل « ت ٧٣٢هـ » » « تقويم البلدان » ، دار صادر ، بيروت ، « د . ت » .

٤ ـ ابن أجا « محمد بن محمود « ت ٨٨١هـ » « تاريخ الأمير يشبك » ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٤م .

٥ ـ الآجرى « محمد بن الحسين ت ٣٦٠هـ » « أخلاق العلماء » ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ١٩٩٦م .

٦ ـ ابن الأخوة « معالم القربة فى أحكام الحسبة » ، نقل وصححه روبن ليوى ، مكتبة المُثنىَّ ، بغداد ، « د . ت » .

٧ ـ ابن الأكفانى « محمد بن إبراهيم ت ٧٤٩هـ » « إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد فى أنواع العلوم » ، تحقيق عبد المنعم محمد عمر ، دار الفكر العربى ، القاهرة .

٨ ـ ابن إياس « ت ٩٣٠هـ » « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » ، تحقيق د . محمد مصطفى ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .

٩ ـ البدرى « أبو البقاء عبد الله « ولد ٨٤٧هـ » » « نزهة الأنام فى محاسن الشام » ، دار الرائد العربى ، بيروت ، ١٩٨٠م .

١٠ ـ ابن بسام « نهاية الرتبة فى طلب الحسبة » ، تحقيق حسام الدين السامرائى ، مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٩٦٨م .

١١ ـ البصروى « علاء الدين الدمشقى ت ٩٠٥هـ » « تاريخ البصروى » ، تحقيق أكرم حسن العلبى ، دار المأمون للتراث ، بيروت ، ١٩٨٨م .

١٢ ـ ابن بطوطة « رحلة ابن بطوطة المسماة « تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » » ، شرحه وكتب هوامشه طلال حرب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ٢، (١٤١٣هـ/١٩٩٢م) .

١٣ ـ البغدادى «صفى الدين عبد المؤمن «ت ٧٣٩هـ» » «مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع» ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٩٢م .

١٤ ـ البقاعى «برهان الدين «ت ٨٨٥هـ» » «عنوان الزمان بتراجم الشيوخ والأقران» ، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م .

١٥ ـ البقاعى «ت ٨٨٥هـ» «إظهار العصر ٨٥٥ ـ ٨٥٧هـ» ، تحقيق د . محمد سالم ، دار هجر للطباعة ، القاهرة ، ١٩٩٢م .

١٦ ـ البقاعى «ت ٨٨٥هـ» «الأقوال القديمة فى حكم النقل من الكتب القديمة» تحقيق محمد مرسى ، مجلة معهد المخطوطات ، مج (٢٦) ، ١٩٨٠م .

١٧ ـ البقاعى «ت ٨٨٥هـ» «تنبيه الغبى» و «تحذير العباد» ، نشره عبد الرحمن الوكيل بعنوان «مصرع التصوف» ، مطبعة السنّة المحمدية ، القاهرة ، ١٣٧٢هـ/١٩٥٣م .

١٨ ـ البورينى «الحسن بن محمد «ت ١٠٢٤هـ» » «تراجم الأعيان من أبناء الزمان» ، تحقيق د . صلاح الدين المنجد ، مطبوعات المجمع العلمى العربى ، دمشق ، ١٩٥٩م .

١٩ ـ البيهقى «أبو بكر أحمد «ت ٤٥٨» » «الجامع لشعب الإيمان» ، الدار السلفية ، بومباى ، الهند ، (١٩٨٩م) .

٢٠ ـ الترمذى «محمد بن عيسى ت ٢٩٧هـ» «سنن الترمذى» ، تحقيق إبراهيم عطوة ، مكتبة مصطفى البابى الحلبى ، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م .

٢١ ـ ابن تغرى «جمال الدين يوسف ت ٨٧٤هـ» «النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة» ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٢م .

٢٢ ـ ابن تغرى : «حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور» ، تحقيق وليم بوير ، طبعة كاليفورنيا .

٢٣ ـ ابن تغرى بردى «ت ٨٧٤هـ» «المنهل الصافى» ، تحقيق د . محمد محمد أمين ، الهيئة المصرية للكتاب .

٢٤ ـ تقى الدين البلاطنسى «تقى الدين أبو بكر ت ٩٣٦هـ» «تحرير المقال فيما يحل ويحرم من بيت المال» ، تحقيق فتح الله محمد ، دار الوفاء ، المنصورة ، ١٩٨٩م .

٢٥ ـ تقى الدين التميمى «ت ١٠١٠هـ» » «الطبقات السنية فى تراجم الحنفية» ، دار الرفاعى ، الرياض ، ١٩٨٣م .

٢٦ ـ ابن تيمية «أحمد بن عبد الحليم «ت ٧٢٨هـ» » «الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» ، تحقيق د . صلاح الدين المنجد ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، ط١ (١٩٧٦م) .

٢٧ ـ ابن تيمية « ت ٧٢٨هـ » « الحسبة فى الإسلام » ، المكتبة العلمية ، السعودية ، « د . ت » .

٢٨ ـ ابن تيمية « ت ٧٢٨هـ » « رفع الملام عن الأئمة الأعلام » ، تحقيق د . محمد سعيد ، دار الكتاب المصرى ، القاهرة ، ١٤١١هـ/١٩٩١م .

٢٩ ـ ابن تيمية « السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية » ، تحقيق محمد إبراهيم البنا ، محمد أحمد عاشور ، مكتبة دار الشعب ، القاهرة ، ١٩٧٠م .

٣٠ ـ ابن تيمية « مجموع فتاوى ابن تيمية » ، مكتبة ابن تيمية ، ١٤٠٣هـ .

٣١ ـ ابن تيمية « مسألة فى الكنائس » ، تحقيق على بن عبد العزيز ، مكتبة العبيكان ، الرياض ، (١٤١٦هـ/١٩٩٥م) .

٣٢ ـ ابن الجزرى « شمس الدين محمد ت ٨٣٣هـ » « غاية النهاية فى طبقات القراء » ، نشره ج . برجستراسر ، مكتبة الخانجى ، مصر ، ١٣٥١هـ/١٩٣٢م .

٣٣ ـ ابن جماعة « بدر الدين إبراهيم ت ٧٣٣هـ » « تذكرة السامع والمتكلم فى أدب العالم والمتعلم » ، دائرة المعارف العثمانية ، حيدرآباد ـ الدكن ، ١٣٥٣هـ .

٣٤ ـ الجوهرى « إسماعيل بن حماد » « تاج اللغة وصحاح العربية » ، القاهرة ، ١٩٨٢م .

٣٥ ـ الجوينى « أبو عبد الله محمد « ت ٤٧٨هـ » » « غياث الأمم فى التياث الظلم » ، تحقيق د . عبد العظيم الديب ، مكتبة إمام الحرمين ، ١٤٠١هـ .

٣٦ ـ ابن الحاج « المدخل إلى الشرع » ، المكتبة الخالدية ، القاهرة ، ١٣٤٨هـ .

٣٧ ـ حاجى خليفة « كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون » ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت .

٣٨ ـ الحاكم النيسابورى « المستدرك على الصحيحين » ، دار الحرمين للطباعة ، القاهرة ، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م .

٣٩ ـ ابن حجر « بذل الماعون فى فضل الطاعون » ، تحقيق أحمد عصام ، دار العاصمة ، السعودية ، ١٤١١هـ .

٤٠ ـ ابن حجر « ت ٨٥٢هـ » « إتحاف المهرة بأطراف العشرة » ، تحقيق د . زهير بن ناصر الناصر ، مركز خدمة السنّة والسيرة النبوية ، المدينة المنورة ، ط ١ (١٤١٥هـ/١٩٩٤م) .

٤١ ـ ابن حجر « ت ٨٥٢هـ » « إنباء الغمر بأبناء العمر » ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

٤٢ ـ ابن حجر « ت ٨٥٢هـ » « رفع الأصر عن قضاة مصر » ، تحقيق د . حامد عبد المجيد ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٩٦١م .

٤٣ ـ ابن حجر العسقلانى « ت ٨٥٢هـ » « الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة » ، تحقيق محمد سيد ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة .

٤٤ ـ ابن حجر العسقلانى « فتح البارى بشرح صحيح البخارى » ، مكتبة الكليات الأزهرية ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م .

٤٥ ـ ابن الحمصى « شهاب الدين أحمد « ت ٩٣٤هـ » » « حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران » ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٢م .

٤٦ ـ ابن الحنبلى الحلبى « ت ٩٧١هـ » « الزبد والضرب فى تاريخ حلب » ، تحقيق د . محمد التونجى ، مركز المخطوطات والتراث والوثائق ، سوريا ، (١٤٠٩هـ/١٩٨٨م) .

٤٧ ـ ابن خلدون « ت ٨٠٨هـ » « مقدمة ابن خلدون » ، دار ابن خلدون ، الإسكندرية « د . ت » .

٤٨ ـ أبو داود « سنن أبو داود » ، تحقيق د . السيد محمد ، دار الحديث ، القاهرة ، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م .

٤٩ ـ الداودى « طبقات المفسرين » ، تحقيق على محمد ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.

٥٠ ـ ابن دقماق « إبراهيم بن محمد ت ٨٠٩هـ » « النفحة المسكية فى الدولة التركية » تحقيق عمر عبد السلام ، المكتبة العصرية ، بيروت ، (١٩٩٩م) .

٥١ ـ ابن دقماق « إبراهيم بن محمد » « الانتصار لواسطة عقد الأمصار » ، المكتب التجارى للطباعة ، بيروت ، « د . ت » .

٥٢ ـ الدمشقى « أبو الفضل جعفر » « الإشارة إلى محاسن التجارة » ، تحقيق البشرى الشوربجى ، مكتبة الكليات الأزهرية ، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م .

٥٣ ـ ابن سباط « حمزة بن أحمد » « تاريخ ابن سباط » ، تحقيق عمر عبد السلام ، جروس برس ، طرابلس الشام .

٥٤ ـ سبط ابن العجمى « أحمد بن إبراهيم « ت ٨٨٤هـ » » « كنوز الذهب فى تاريخ حلب » ، تحقيق د . شوقى شعث ، دار القلم العربى ، حلب ، ١٩٩٧م .

٥٥ ـ السبكى « تاج الدين عبد الوهاب « ت ٧٧١هـ » » « طبقات الشافعية الكبرى » ، مكتبة عيسى البابى الحلبى ، ١٩٧٤م .

٥٦ ـ السخاوى « ت ٩٠٢هـ » « التبر المسبوك فى ذيل السلوك » ، مكتبة الكليات الأزهرية ، د . ت .

٥٧ ـ السخاوى « ت ٩٠٢هـ » « الذيل على رفع الأصر » تحقيق د . جودة هلال ، الدار المصرية للتأليف ، ١٩٦٦م .

٥٨ ـ السخاوى « ت ٩٠٢هـ » « وجيز الكلام » ، تحقيق بشار عواد ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤١٦هـ .

٥٩ ـ السخاوى « أبو الحسن نور الدين على عاش حتى عام ٨٨٩هـ » « تحفة الأحباب وبغية الطلاب فى الخطط والمزارات » ، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية ، فى إطار جامعة فرانكفورت ، جمهورية ألمانيا الاتحادية ، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م .

٦٠ ـ السخاوى « شمس الدين بن محمد « ت ٩٠٢هـ » » « الضوء اللامع فى أهل القرن التاسع » ، دار الجيل ، بيروت ، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م .

٦١ ـ ابن سيدة « أبو الحسن على « ت ٤٥٨هـ » « المخصص » ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د.ت.

٦٢ ـ السيوطى « ت ٩١١هـ » « أربعون حديثًا فى فضل الجهاد » ، تحقيق مرزوق على ، دار الاعتصام ، القاهرة ، ١٩٨٨م .

٦٣ ـ السيوطى « ت ٩١١هـ » « الأمر بالاتباع والنهى عن الابتداع » ، دار الاستقامة ، القاهرة ، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م .

٦٤ ـ السيوطى « ت ٩١١هـ » « تنبيه الغبى بتبرئة ابن عربى » ، تحقيق محمد إبراهيم ، دار العلم والثقافة ، القاهرة ، ١٩٩٥م .

٦٥ ـ السيوطى « ت ٩١١هـ » « جزيل المواهب فى اختلاف المذاهب » ، تحقيق عبد القيوم محمد ، دار الاعتصام ، القاهرة ، ١٩٨٩م .

٦٦ ـ السيوطى « ت ٩١١هـ » « جهد القريحة فى تجريد النصيحة » ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ، ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م .

٦٧ ـ السيوطى « ت ٩١١هـ » « الحاوى للفتاوى » ، إدارة الطباعة المنيرية ، القاهرة ، ١٣٥٢هـ .

٦٨ ـ السيوطى « ت ٩١١هـ » « صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام » ، نشره على سامى النشار ، مكتبة الخانجى ، مصر ، ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م .

٦٩ ـ السيوطى « ت ٩١١هـ » « لقط المرجان فى أحكام الجان » ، تحقيق مصطفى عاشور ، مكتبة القرآن ، القاهرة ، ١٩٨٨م .

٧٠ ـ السيوطى « ت ٩١١هـ » « نظم العقيان فى أعيان الأعيان » ، حرره د . فيليب حتى ، المطبعة السورية الأمريكية ، نيويورك ، ١٩٢٧م .

٧١ ـ السيوطى « ت ٩١١هـ» « التحدث بنعمة الله » ، تحقيق اليزابث مارى سارتين ، مطبعة كمبردج ، ١٩٧٥م .

٧٢ ـ السيوطى «تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية»، المطبعة الإسلامية، القاهرة، ١٣٥٢هـ/١٩٣٤م.

٧٣ ـ السيوطى «جلال الدين عبد الرحمن «ت ٩١١هـ»» «إتمام الدراية لقراء النقاية»، المطبعة الأدبية، القاهرة، ١٣١٧هـ.

٧٤ ـ السيوطى «جلال الدين عبد الرحمن «ت ٩١١هـ»» «ما رواه الأساطين فى عدم المجئ إلى السلاطين»، تحقيق مجدى فتحى، دار الصحابة للتراث، طنطا، ١٩٩١م.

٧٥ ـ السيوطى «جلال الدين عبد الرحمن ت ٩١١هـ» «حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة»، تحقيق محمد أبو الفضل، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، ١٣٨٧هـ/١٩٦٨م.

٧٦ ـ السيوطى «الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد فى كل عصر فرض»، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

٧٧ ـ ابن شاهين «زين الدين عبد الباسط ت ٩٢٠هـ» «نيل الأمل فى ذيل الدول»، تحقيق د. عمر عبد السلام، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.

٧٨ ـ ابن شاهين «عبد الباسط خليل ت ٩٢٠هـ» «نزهة الأساطين فيمن ولى مصر من السلاطين»، تحقيق محمد كمال الدين، مكتبة الثقافة الدينية، ١٩٨٧م.

٧٩ ـ ابن شاهين «غرس الدين خليل «ت ٨٧٣هـ»» «زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك»، اعتنى بتصحيحه بولس روايس، باريس، ١٨٩٣م.

٨٠ ـ ابن الشحنة «محب الدين محمد «ت ٨١٥هـ»» «روض المناظر فى علم الأوائل والأواخر»، تحقيق سيد محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م.

٨١ ـ الشعرانى «ت ٩٧٣هـ» «لواقح الأنوار القدسية فى طبقات العلماء والصوفية»، تحقيق سعيد هارون عاشور، مكتبة الآداب، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م.

٨٢ ـ شمس الدين الأسيوطى «جواهر العقود ومعين القضاة والموقعين والشهود»، مطبعة السنة المحمدية، (١٩٥٥م).

٨٣ ـ شمس الدين الشجاعى «تاريخ الملك الناصر محمدبن قلاوون الصالحى وأولاده»، تحقيق بربارة شيفر، فرانز شتاينر ڤيسبادن، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

٨٤ ـ شيخ الربوة «شمس الدين أبو عبد الله محمد الدمشقى» «نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر»، ليبسك، «د. ن»، ١٩٢٣م.